

الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام

تأليف
الدكتور أحمد أحمد بدوي

الطبعة الشامية

دار النهضة للنشر والطبع والنشر
الجمالية - القاهرة

الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام

تأليف

الدكتور أحمد أحمد بدوي

الطبعة الثانية

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الغزالة - القاهرة

الدراسات

إليها

إلى التي شجعتني على البحث ، وأحاطتني بعطف أعانني على مشاق الدرس ، وهيأت لي حياة مهدت أمامي طريق العمل وسبيل الإنتاج .

إلى التي سحت بيدها الحانية ما كنت أجده في هذه الدراسة : من صعاب ، كادت تصرفني عنها ، وتدفعني عن المضى في إتمامها .

إلى التي قدمت لي من وقتها ، بنفس سمحة مألوفة ما أنفقته في كتابة هذه الرسالة .

إلى زوجتي العزيزة ، أهدى هذا الكتاب .

أحمد أحمد بدوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

امتد عصر الحروب الصليبية الذي عنيت بدراسة أدبه زهاء قرنين ، بدأ يوم وضع الصليبيون أ. جلهم بأرض الشام ، يريدون الاستيلاء عليه ، وأن يفتحوا بيت المقدس ، وكان ذلك سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وانتهيا حين استولى الأشرف خليل بن قلاوون على مدينة عكا وآخر ما كان بأيدي الصليبيين ، وألقى بهم إلى البحر ، عام اثنتين وتسعين وستمائة للهجرة .

وكان لهذا العصر الطويل أثره في حياة المسلمين بمصر والشام ، إذ اتجهوا إلى إخراج العدو الذي اغتصب أرضهم ، وشتت شمل الأسر في البلاد التي احتلها بجموعه الحاشدة . ولم تكن الحروب تهدأ بين الفريقين حيناً ، إلا لتعود من جديد ، بقسوة وعنف شديدين .

رقد حاولت في هذه الرسالة أن أصور حياة الأدب ومعالم نشاطه في ذلك العصر ، ولك من الضروري العناية بدراسة ما حول الأدب من حيوات نشأ فيها ، وأمدته بألوان من التغذية ، جعلته ذا مظهر خاص به ، وطعم يميزه عما سواه ، ونعني بما حول الأدب هذا الجو الذي تنفس فيه الأدب ، وعاش في كنفه: من حياة سياسية ، كان لرجالها أثرهم في توجيه الأدب ، وفي النهوض به حيناً ، أو محاربة بعض ألوانه حيناً آخر ، وكان لها أثرها كذلك في الإنتاج الأدبي من حيث أحداثها وتقلباتها ، ومن حياة اجتماعية ، واقتصادية ، وحرية وغيرها ، فلكل ذلك أثره الذي لا ينكر في الأدب .

وبعض هذه الحيوات التي تحيط بالأدب قد أفردت له دراسة خاصة به مطولة ، وهي الحياة العقلية في ذلك العصر ، فقد كانت موضوع الدراسة في كتاب خاص لي . وباقيها جدير بمثل هذه الدراسة المطولة ، لولا أن دراسة للأدب في ذلك العصر تطول طويلاً مفرطاً إذا ضمت دراسة مفصلة لألوان هذه الحيوات ، ولكن ذلك لا يعني الكاتب في أدب عصر أن يلم بها ،

ويظهر النواحي البارزة فيها ، حتى يصف في صورة واضحة ، وإن كانت موجزة ، البيئة التي نبت فيها الأدب ، وترعرع في ظلها .

ولذلك تفهمت العوامل المؤثرة في حياة أدب هذه الفترة ، فنية كانت أو غيرها ، ثم عمدت إلى تتبع النتائج الأدبي ، قدر ما وسعني الجهد ، وقرأت دارساً بقدر استطاعتي ما خلفه لنا هذا العهد الطويل : من دواوين شعرية ، ورسائل نثرية ، مجموعة ومتفرقة في المصادر المختلفة ، ومجموعات مختارة من أشعار هذا العصر ، ومكنتني هذه الدراسة من أن أتبين حياة الفنون الأدبية في ذلك العصر فناً : شعراً وكتابة وخطابة ، من حيث الخصائص التي تميز كل فن ، ومن حيث الغزارة أو القلة ، ومن حيث الاتجاهات والمذاهب الفنية التي جرى فيها كل واحد من هذه الفنون ، وأن أعرف من أديباء العصر تأثيره وشاعريه كل ما يمكنني معرفته ، وكنت أنظر إلى كل شيء من زاوية تلك الحروب الصليبية ، وما يتصل بها من حركات عنيفة ، كالغزو التتري .

وهكذا انقسمت الدراسة في هذه الرسالة قسمين : أحدهما دراسة ما حول الأدب ، دراسة تطل على العصر بنظرة شاملة تبين ملامحه السياسية والاجتماعية والعلمية ، لما لذلك كله من صلة وثيقة بالأدب ، وأهمية كبرى في فهمه وتذوقه ثم تاريخه كما ذكرنا ، وثانيهما دراسة الأدب نفسه ، بتبيين فنونه المختلفة ، ووصفها ، وبحث نتائج كل فن على حدة ، والوقوف عند الرجال الذين أنتجوا هذا الأدب ولونوه ، وتوضيح الآثار الذي تركته الحروب الصليبية في الأدب العربي .

وعلى هذا النهج سرت في وضع هذه الرسالة .

هذا وأحب أن أوجه النظر إلى أنني لم أعن في هذا البحث بناحية هامة من نواحيه ، وهي ناحية الأدب الشعبي ، ذلك لأن هذه الناحية تستحق وحدها أن يفرد لها بحث غير هذا البحث ، وليتنى قصرت جهدي في هذه الناحية منذ بداية الأمر ، وإذا كنت قادراً على الخوض في مشكلة من مشكلات الأدب المصري ، وهي صلته بالشخصية المصرية الخالصة ، أو مقدار تعبيره عن هذه الشخصية ، ذلك لأنني ممن يعتقدون أن الشخصية المصرية لا سبيل إلى ظهورها بقوة ووضوح ، في غير الميادين الشعبية للأدب ، أما ميدان الأدب التقليدي

فهو في نظري لا يعين كثيراً على التعبير عن الشخصية الإقليمية .

وقد سبقتني إلى معالجة موضوع الأدب المصري في تلك الفترة التي نؤرخ لها ، وهي فترة الحروب الصليبية باحثون ، نعد منهم الدكتور محمد كامل حسين في كتابه : « أدب مصر الفاطمية » والدكتور عبد اللطيف حمزة في كتب أشهرها « كتاب الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول » ، و« كتاب أدب الحروب الصليبية » ، و« كتاب أدب مصر الأيوبية » ، فكان الدكتور كامل حسين مدفوعاً في ذلك بفكرته عن العصر الفاطمي ، وما امتاز به عن بقية العصور المصرية أو السورية ، بالعقائد الخاصة ، والأغراض الخاصة ونحوها ، كما كان الدكتور عبد اللطيف حمزة مدفوعاً إلى ذلك بفكرته عن الشخصية المصرية وما لها من أثر في الأدب المصري والعقل المصري ، محاولاً في كل ذلك أن يوازن ما استطاع بين بيئتين هامتين من بيئات الأدب في ذلك العصر ، وهما بيئة مصر من ناحية ، وبيئة الشام من ناحية ثانية . وقد اخترت لنفسى في هذا البحث خطة تتفق وسعته وامتداد عصره ، في البيئتين السابقتين معاً ، وهما البيئة المصرية والبيئة السورية ، وهكذا امتد بحثي هذا إلى بيئتين كبيرتين ، في قرنين كاملين ، فكان علي في هذه الحالة أن أنظر نظرة عامة إلى تلك العصور والبيئات ، وأن أقف فيها عند المعالم الهامة . وأنا أرجو أن أكون في ذلك رائداً لطوائف الباحثين بعدي ، ممن سيقفون عند كل جزء من أجزاء هذا البحث ، ويولونه العناية التي تتفق وخطورته .

وفي نيتي إن شاء الله أن أتبع هذا البحث ببحوث أخرى أخص بعضها للحياة السياسية ، وبعضها للحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وبعضها كذلك للحياة الصوفية وما لها من تأثير في التيارات الأدبية المختلفة .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

القسم الاول

ما حول الأدب

الحروب الصليبية

ما هذه الجوع الحاشدة تقدم من كل فج عميق في أوروبا ، تلبح فيها الشيخ الفاني ، والشاب المكتمل ، والطفل الرضيع ، تحمله أمه الشابة ، وترى فيها أسرا برمتها ، قد تركت وراءها ديارها ، واصطاحبت معها حيوانها وأثاث بيوتها ، وما هذه الأصوات تجلجل ، كالرعد القاصف في أجواز الفضاء ، بهذا الدعاء الذي يربط بين هؤلاء الأقوام المختلفة أوطانهم وجنسياتهم ، إذ يصيحون قائلين : هذه إرادة الله ! وما هذه الطرق تعج بمرتاديها ، وتضيق بهم ، حتى لكأنهم سيل جارف عجاج ؟ إنه الغرب حشد بنيه من كل جنس ليغزو الشرق بهذه القوة الضخمة ، وإنها لحرب صليبية جمعت تحت راية الصليب تلك الجحافل الجرارة ، ويكاد الناظر إلى هذه الجوع يحس بما يحول في صدرها من الآمال والآمال ، فطائفة منهم ملا صدرهم الإيمان ، فراحوا مؤمنين بما ألقى عليهم رجال دينهم : من أن المسلمين في بيت المقدس قد أهانوا قبر المسيح ، وساموا زائريه من حجاج أوروبا سوء العذاب ، فأقسموا لينقذوا هذا القبر ، وليؤمنن الطريق إليه ، وليقفن زحف الإسلام على بلادهم ، فقد تدفق مد الإسلام حتى أظل برايته آسيا الصغرى ، واستولى على أكثر الجزر في البحر الأبيض المتوسط ، ووطد أقدامه حيناً طويلاً من الدهر في بلاد الأندلس ، وكان جديراً به — لولا عوامل الفرقة والانقسام — أن يظل في مده يتدفق ، أو أن يأخذ لنفسه الحيلة ، فيجمع قواه ، ويظل راسخاً في مكانه ، محافظاً على المدى الذي استطاع أن يصل إليه .

صدق هؤلاء المؤمنون ما أخبرهم به البابا ، من الخطر الماحق الذي يهدد أوطانهم ، بانتشار الإسلام ، وظلم المسلمين وعتهم في معاملة المسيحيين ، أو في إهانة قبر المسيح ، وغالى رجال دينهم في تصوير ذلك مغالاة أثارهم . ولم يكن لذلك في الواقع ظل من

الحقيقة ، فلقد كان حكام فلسطين يعاملون المسيحيين — كما قال المؤرخ الفرنسى Michaud — « كحلفاء وأنصار ، فشجعوا تجارة الأوربيين ، والحج إلى الأماكن المقدسة ، وبنيت من جديد أسواق الفرنج في مدينة بيت المقدس ، وأقيمت نزل الحجاج ، وأصلحت الكنائس المحرقة (١) » ، ولما كان المسلمون يقدرّون أكثر مما يقدرّ المسيحيون فريضة الحج كان ذلك هو ما يوحى إليهم بعواطف التسامح ، نحو الحجاج الأتقياء القادمين من الغرب ، وكثيرا ما كانت تفتح أبواب القدس للمسلمين الذين يقصدون زيارة مسجد عمر ، ورجال الإنجيل الذين يذهبون لعبادة المسيح عند قبره ، هؤلاء وأولئك يجدون في المدينة المقدسة حماية متساوية (٢) .

موه الخطباء الأمر على هذه الجماعة ، ودفعوها إلى الإيمان بظلم المسلمين ، وتدنيسهم قبر المسيح ، فانطلقوا لا يلوون على شيء ، ومن قبل هذه الجموع الزاخرة خرج أسلاف لهم ، وصدورهم تتأجج رغبة في الاستيلاء على ما فتحه العرب ، بما كان تحت يد الفرنج ، فعلى يد أباطرة دولة الروم الشرقية ، اتسع ما أخذوه ، حتى وصل أحبابنا إلى الرها وأنطاكية ، وفي الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، أخذت الحروب الصليبية الطويلة بأسبانيا تدخل في دور شدة وعنف ، ففضى جيش من النورماندين يساعد الأسبان الوطنيين ضد العرب ، واستولى الفرنج سنة ١١٧٨ هـ على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس (٣) ، وفي وسط البحر الأبيض استولى أهل بيزة (٤) على سردينيا ، وبعد حرب استمرت ثلاثين عاما ، استولى النورمانديون على صقلية ، ولا شك أن تلك حروب صليبية قبل الحروب الصليبية (٥) .

ويكاد الناظر إلى هذه السيول المتدفقة تعجب بها طرقا أوروبا ، يحس بما يجول في صدور أمراء هذه الجيوش : من مطاعم في السيادة والسلطان ، وتأسيس ملك هناك في بلاد الشرق ، الذي رسمته لهم مخيلتهم ينبوع ثروة ومصدر غنى (٦) . وماذا كان يفعل

(١) Histoire des Croisades. P. 21 . (٢) المرجع السابق ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١١٢ . (٤) بلدة بإيطاليا

(٥) The Crucades. P. 8 . (٦) المرجع السابق ص ١٦ .

هؤلاء الأمراء وقد وجدوا رجال مقاطعاتهم يرحلون من غير أن يستطيعوا منعهم ، فلم يجدوا بدا من الرحيل معهم رؤساء حربيين ، ليحتفظوا بشيء من سلطانهم عليهم ^(١) .

غير أن كثيرا من هذه الجموع ، خرجت قاصدة إلى الشرق ، لاجئة إليه ، هاربة عما أصاب أوروبا : من قحط مخيف منذ عدة سنين ، حتى إن مدنا وقرى صارت خرابا ، لا سكان لها ، وقد أنتج هذا القحط كل أنواع البلايا : من جرائم وقطع طرق ، فلا غرابة إذا هجر الناس أرضا لا تقدم لهم غذاء ، ولا تضمن لهم راحة ولا أمنا ^(٢) .

لقد عاشت هذه الجموع الجارفة حياة أهلتها لهذا التجمع للحرب والقتال ، فقد كانت أوروبا تعج بالفوضى ، وكان السيف هو الحكم في تلك العصور ، فبه تصان حقوق الأفراد ، ويفسلون عن أنفسهم الإهانات ، ويكاد الناس لا يلتقون إلا وفي يدهم الحديد والنار ، ولم تكن سياسة الملوك والحكومات مؤسسة على غير الحروب ^(٣) ، فوجدت الدعوة الصليبية نفوسا مهيأة لها ، وقد لمس البابا ذلك ، وأراد أن يحول نشاطهم في حرب بعضهم بعضا إلى حرب المسلمين .

لقد سرى إلى الشرق نبأ هذه الجموع الزاحفة ، وترجع منها الوديان ، وتعيج بها الطرقات ، ولكنك تلقى ببصرك على هذا الشرق المهاجم ، فلا تجد إلا جماعة لا يجمع بينها اتحاد ، ولا يؤلف بين قلوبها طاعة لحاكم واحد ، ولم ينظم جوعهم سلطان قوى .

تنظر إلى الشرق في سوريا والعراق ومصر ، فيروعك أن هذه الأنباء الواردة عليه من أوروبا بهذا الهجوم الضخم ، لم تثر فيه رغبة التكاتف والتساند لإزاء هذا الخطر الداهم ، ولم تبعثه على أن يعد للأمر عدته ، ولم يهي نفسه للقاء تكون له فيه الكفة الراجحة ، بل مضى في حياته ، وكأن شيئا لا يبدي له في الغرب .

فقد هدم النظام الإقطاعي أسس إمبراطورية السلاجقة القوية ، فلم يكن لسلاطينهم

Histoire des Croisades I. P 58

(١)

Hist des Croisades 1 P. 57. History of the Saracens by Ameer Ali P. 323, The Crucades by Barker P. 12.

(٢)

Histoire des Croisades P. 41.

سلطان فعلى على أمراء الجزيرة وسوريا وفلسطين ، وحكم الأمراء المتعددون إقطاعاتهم في هذه البلاد حكما مستقلا ، فكان في كل مدينة كبيرة حاكم بأمره ، يحرص على أن يكون مستقلا في إمارته ، له كل مظاهر الحاكم المستقل ؛ وإننى لأبصر بعين الخيال . فأرى هذه القوى المبعثرة على أرض الشام ، هم كل أمير فيها أن يحتفظ بسلاماته ، وأن يغير على جيرانه ، ثم ألمح هذه الجيوش الفرنجية المحتشدة ، والقوى المعبأة ، فأجد من العسير على هذه القوى الصغيرة أن تقف صادة هذا الحشد الهائل . فلا عجب أن تسقط مدن ساحل الشام ، الواحدة تلو الأخرى ، في يد العدو المغير ، برغم ما أبدته هذه المدن من بسالة في الدفاع ، وصلابة في الجهاد .

ومضى العدو المغتصب ، يبتث الرعب في نفس أبناء البلاد ، وينشر الذعر في القرى والمدن ، فلاقت المدن المفتوحة على يده أهول ما عرف من ألوان التخريب والتدمير ، ونال سكانها أقصى ما استطاع من القتل والذبح والإحراق ، فكان الفرنج في كل بلد يدخلونه يقتلون أهلهم ، ويخربون عمرانهم ، ويحرقون كتبهم ومتاعهم وآثارهم ، فهام الناس على وجوههم في البرارى ، يقول أمير على : « لقد كانت شوارع أنطاكية الضيقة وميادينها الرحبة ، تجري بالدماء الإنسانية ، وإن أقل تقدير لمن ذبح في أنطاكية يبلغ عشرة آلاف نفس ، وفي معركة النعمان ذبحوا مائة ألف من الناس ، جرت دماؤهم في الشوارع ، ثم أعاد (بوهمند) النظر في أسراهم ، فمن كان منهم قويا جميلا احتفظ به رقيقا يباع في أسواق أنطاكية ، ومن كان معمرًا أو مريضًا قتل على مذبح القسوة » ، وقال ميشو في خديشه عن فتح الفرنج بيت المقدس : « سرعان ما صارت المذبحة عامة ، فذبح المسلمون في الطرقات وفي المنازل ، ولم يعد في بيت المقدس ملجأ للبلغيين ، فبعض الذين فروا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار ، وآخرون جروا جماعات ، يختبئون في القصور والأبراج ، وبخاصة المساجد . ولكنهم لم يستطيعوا أن يفروا من أن يتبعهم الصليبيون ، فبعد أن صار هؤلاء سادة مسجد عمر ، الذى دافع المسلمون عن أنفسهم حينما فيه — جددوا فيه المناظر المحزنة ، فدخل المسجد المشاة والفرسان ، واختلطوا بالمنهزمين ، وفي وسط أشنع ضوضاء كنت لا تسمح إلا الأنايين وصيحات الموت ، لقد كان المنتصرون يسرون على أكوام من

الجثث ، ليتبعوا من يحاول الفرار عبثاً ، وقال شاهد عيان : ارتفعت الدماء إلى ركب الخيل وأعتتها في الهيكل ، وتحت إيوان المسجد ، وكل الذين أبقى عليهم التعب من الذبح ، أو أسروا طمعاً في أن يقدوا أنفسهم بقدية غالية قتلهم الصليبيون . لقد أكرهوا على أن يلقوا أنفسهم من أعلى البروج والبيوت ، ويكونوا طعاماً للنيران ، وكانوا يخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ، ويجرونهم في الميادين العامة ، حيث يذبحونهم فوق أكداس الموتى ، ولم يثتم دموع النساء ، ولا صيحات الأطفال . لقد كانت المذبحة هائلة ، وكانت الجثث مكدسة ، لا في القصور ، ولا في المساجد ، ولا في الشوارع فحسب ، ولكن في أخفى الأماكن وأكثرها انفراداً ، وهكذا جنون الانتقام والتعصب ، ولم تنته المذبحة إلا بعد أسبوع ، والمؤرخون الشرقيون واللاتين متفقون على أن عدد القتلى بلغ سبعمائة ألفاً ، وبعدئذ أمر من بقى من المسلمين الذين لم ينجوا من القتل إلا ليقعوا في استعباد مخوف — أن يدفنوا الأجسام المشوهة لأصدقائهم وإخوانهم ، فأخذوا ينقلون ، وهم يكون ، هذه الجثث خارج بيت المقدس ، وساعدتهم في ذلك بعض الصليبيين الذين دخلوا المدينة أخيراً ، فلم يظفروا بكثير من الأسلاب ، وأخذوا يبحثون عن بعض الغنائم بين الموتى (١) . وقد اقتصم المصير نفسه ما فتحه الفرنج من البلاد ، برغم أن بعضها فتح صلحاً ، فلم يحترم الصليبيون عهداً قطعوه ، كما حدث في قيسارية (٢) .

كان الصليبيون يريدون بما فعلوا أن يثبتوا الرعب في أفئدة المسلمين ، وينشروا الفرع في صفوفهم ، ولم يثتم عن أعمال التدمير والتخريب في المدن التي فتحوها — أن تلك المدن كانت قد وصلت في ذلك العهد إلى أوج مجدها . وها هو ذا ناصر خسرو في رحلته ، يصف مدينة طرابلس بأنها بلد جميل ، حوله المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر ، وأشجار النارج ، والموز ، والليمون ، وبها منازل ذات أربع طبقات ، أو خمس ، أو ست ، وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة ، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين ، وفي وسط المدينة جامع عظيم ، نظيف ، جميل النقش حصين ، وفي ساحته قبة كبيرة ، تحتها حوض من الرخام ، في وسطه فوارة من النحاس الأصفر ، وفي السوق مشرعة ذات خمسة صنادير ، يخرج منها

Hist. des Croisades. I. P. 236.

(١)

History of the Saracens. P. 329.

(٢)

ماء كثير ، يأخذ منه الناس حاجتهم ، ويصنعون بها الورق الجميل (١) . فلما فتحت تلك المدينة نهبت ، وأعمل السيف في رقاب سكانها ، وصارت مكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها رمادا (٢) .

لم يستطع الشام أن ينهض بعبد الدافع عن أرضه ، فتلفت يمنة ويسرة ، يلتمس العون ، ويستنصر ببغداد والقاهرة ، وخرج المستنفرون من الشام إلى بغداد ، فحضروا في الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا ، وبكوا ، وأبكوا ، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك المسكان المعظم : من قتل الرجال ، وسبي النساء والأولاد ، ونهب الأموال (٣) . فأرسل الخليفة على عجل ثلاثة رجال من حاشيته ، إلى السلطان بركياروق وأخيه محمد ؛ فإن الخليفة لم يكن في يده من الأمر من شيء ، يتوسل إليهما أن ينهيا ما بينهما من النزاع ، وأن يسيرا إلى العدو المشترك ، وكان الأخوان معسكرين عند حلوان يقتتلان ، ولكن هذا النداء لم يجد أذناً مصغية ، وسرعان ما أخذ الأخوان يتحاربان (٤) ، تاركين الفرنج يؤسسون لهم ببلاد الإسلام ملكا .

وأما مصر فإن وزيرها الأفضل يومئذ لم ير من واجبه أن يدافع عن بلاد من واجب غيره أن يدافع عنها ، فتد كان معظم بلاد الشام في ذلك العهد تحت سلطان السلاجقة ، وكان العداء بينه وبينهم يمنعه من أن يقف إلى جانبهم ، وتلك سياسة قصيرة النظر ، كان من نتائجها أن استولى الفرنج على ما كان للمصريين بفلسطين من مدن . كما أنه مما يلام عليه الأفضل أنه لم يعد للأمر عدته ، وقد كان الواجب يقضى — وقد علم الأفضل أن هدف الصليبيين بيت المقدس — أن يهيئ للقاء الفرنج بالقدس كل ما أوتي من جهد ، لا أن يتركه يسقط غنيمة باردة في أيديهم ، وقد كان لديه الوقت الكافي لتدبير أمره ، وكان يستطيع إعداد المال والرجال . وهكذا استطاع الفرنج أن يثبتوا أقدامهم في الشام ، بل ملأ الغرور نفوسهم ، وحاولوا أن يضربوا الإسلام في عاصمته : بغداد والقاهرة ، ولكنهم لم يستطيعوا . ظلت الشام وحدها تكافح هذا العدو القاصب حيناً طويلاً من الزمن ، هو المدة التي

The Crusades. P. 28.

(٢)

(١) سفر نامه من ١٣ .

(٣) السكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١١٧ . (٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩٩ .

بقى فيها الخلفاء الفاطميون على عرش مصر ، فلم تقيم مصر بدور إيجابي فعال ضد الفرنج في هذه المدة ، اللهم سوى غارات متقطعة ، بجيوش وأساطيل لا تناسب المهمة الموكولة إليها ، فلم تجر منها مصر شيئاً يذكر ، بل لقد تعرضت مصر نفسها لغارة الفرنج ، وتمكن هؤلاء بمساعدة بعض وزراء مصر ، من أن يحتلوا عاصمة البلاد ، ويذوق منهم المصريون الخسب والنكال ، في آخر عهد الخلافة الفاطمية .

والحق أن مصر في ذلك العهد لم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ فلسطين من براثن العدو ، فلقد كان الرأس المدبر فيها ومن يسدهم زمام الأمور بين خليفة صغير ليس له من الأمر من شيء ، وقد يحاول أحياناً أن يسترد سلطته الضائعة ، فيدبر مكيدة تطيح برأس الوزير — ووزير كل هم أنه أن يحتفظ بسلطانه ، فيكيد للخليفة يريد عزله أو قتله ، إن أنس منه محاولة استعادة سلطانه المفقود ، ويشرد من البلاد ذوى الرأى حذراً من منافستهم له ، ويحارب منافسيه ، فيضيع في سبيل ذلك الأموال والرجال ، وقد يدفعه حب السلطة إلى محالفة الفرنج أعداء البلاد ، والتكئين لهم في أرض مصر ، وبين طامعين في منصب الوزارة ، يجمعون له من حولهم الأنصار ، ويتربصون الفرصة بالوزير القائم ، فيكيدون له ، ويؤلبون عليه ، حتى إذا واتتهم الظروف وثبوا على كرسيه ، وقتلوه وأهله وشرذوا أنصاره ، وبين نساء قصر يتدخلن في شئون السياسة ، فلم يكن هناك حاكم آمن ، يستطيع أن يوجه جهوده إلى خارج البلاد ، ليستنقذ من يد العدو ما أخذه ، ولا خليفة متصرف ، ورث ملكاً عن آبائه ، اغتصب العدو بعضه ، فتدفعه الغيرة والحماسة إلى استرداده ، وإن حاول بعض وزراء مصر كطلائع أن يضيق الخناق على الفرنج ، فضى ينشد اتفاقاً مع نور الدين محمود ، الذي جمع بيده السلطان في بلاد الشام ، كي يطبقا على العدو : أحدهما من الشمال والثاني من الجنوب ، ولكن اختلاف العقيدة بين نور الدين السني والوزير الفاطمي الشيعي حال دون تحقيق هذا الاتفاق .

ولم تترك الشام معونة فعالة من مصر ، توقف الصليبيون عند حد ، طوال عصر الفاطميين ، ولم يرد من بغداد معونة ما ؛ فاستطاع الصليبيون أن يوسعوا رقعة أملاكهم ، وأن يمدوا سلطانهم ، من ماردين إلى العريش ، وخضعت حران والرقعة لهم ، وانتشر تخريبهم إلى نصيبين ، وقطعوا كل الطرق الموصلة إلى دمشق ، إلا طريق الصحراء ، وضربوا الجزية

على مدن لا عد لها ، وتمكنوا بما تحت أيديهم ، ومضت قوتهم وقسوتهم ونهبهم يزيد في كل يوم ، وارتكبوا كل الآثام ، غير خائفين على ما قدموا حساباً ولا عقاباً .

ولكن شجعاً خفيفاً ظهر في الشام ، وبدأ يجمع في يده أقطار سورية والجزيرة ، واستطاع أن يكون شجى في صدور الصليبيين ، ذلك هو البطل عماد الدين زنكى ، الذى لم يقف عند حد مقاومة الصليبيين ، ولكنه أخذ يسترجع منهم ما ملكوه شبرا شبرا ، واقتفى أثره من بعده ولده نور الدين محمود ، ولم تلبث الأمور أن تطورت ، فانتهت الخلافة الفاطمية في مصر ، على يد صلاح الدين الأيوبي ، أحد قواد نور الدين ، واستطاع صلاح الدين أن يوحد مصر والشام والجزيرة وديار بكر تحت لوائه ، وكان ذلك التوحيد فاتحة عهد جديد ، في سبيل استرداد البلاد المختصة ، فإن صلاح الدين لم يكد يوحد البلاد تحت لوائه ، حتى أرسل إلى جميع أجزاء إمبراطوريته ، يستنفر الناس لقتال الفرنج ، ويحثهم على الجهاد ، ويأمرهم بالتجهز له ، وكانت هذه الوحدة بين المسلمين سبباً دفع الحامسة في صدور الجند ، فأقبلوا من كل حذب ، يريدون أن يستخلصوا وطناً طال اغتصابه ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه ، فالتقى بالفرنج عند حطين ، ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج مثلاً ، منذ قدموا من ديارهم غازين بلاد الشام ، فقد مضوا بين أسير وقتيل .

لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط في يده ، الواحدة تلو الأخرى ، حتى إذا سقطت البلاد المحيطة بالقدس ، شمر عن ساعد الجد ، وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه ، وهنا رأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف ، فاستكان ، وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين ، يوم الجمعة ، السابع والعشرين من رجب ، سنة ٥٨٣ هـ .

وكان لاستعادة بيت المقدس رنة فرح ، تجاوزت أصدائها في أرجاء العالم الإسلامى كله .

كانت وحدة مصر والشام مصدر فرع للفرنج ، ورأوا أن استعادة الشام واستبقاءه لايمان لهم إلا إذا أخضعوا مصر لسلطانهم ، فهاجموها عن طريق دمياط مرتين ، صمدت مصر فيهما صموداً ، قذف بالعدو المغير إلى البحر . ولست أنكر ما أبدته المدينة والمدافعون عنها :

من ألوان البسالة والصبر والكفاح ، عند ما هوجمت لأول مرة ، فلما سقطت المدينة كان لسقوطها أكبر الأثر في نفوس المصريين ، فاستجابوا استجابة سريعة لداعى الجهاد العام ، ودفع ذلك بنى أيوب إلى تناسى ما بينهم من خصومات ، والوقوف جبهة متحدة أمام العدو المشترك ، كما لا أنكر ما بثه قدوم الفرنج إلى دمياط في المرة الثانية : من فزع واضطراب ، دفع الجند الذى وكل إليه أمر الدفاع عن دمياط إلى الحرب ، وترك المدينة تقع لقمة سائغة في أيدي المغيرين ، وأمعن الجيش في الحرب حتى وصل إلى حيث يقيم مليكك ، عند مدينة المنصورة ، ولما رأى أهل دمياط رحيل الجند ، خرجوا هائمين على وجوههم ، طول الليل ، حفاة ، عراة ، جياعا ، حيارى ، لا يدرون ماذا يفعلون بأطفالهم ونسائهم ، وأخذ قطاع الطرق ما عليهم من الثياب ، ولكن مصر لم تلبث أن استعادت ثباتها وهدوءها ، وصمدت أمام العدو ، حتى ردت على أعقابها ، وألقت به إلى البحر ، وكان لرحيل الفرنج عن الديار المصرية من الفرح والبهجة ما احتفظ به التاريخ وسجله الأدب .

ولم يكن انتقال الحكم من الأيوبيين إلى أيدي مماليكهم مضعفا من عزيمة البلاد على تخليص الوطن من أيدي الفرنج ، بل إن بعض السلاطين كيبيرس اتخذ صلاح الدين مثله الأعلى ، وأخذ يضيق الرقعة التي احتلها العدو ، ولعله رأى أن هذا الجهاد يتطلب إعدادا خلقيا ، وبث روح الجهاد في الشعب ، فاتسم عصر بيبيرس بسمة الوقار ، والبعد عن اللهو ، فأغلق المواخير ، وعاقب البغايا من الأوربيات ، وحرّم المسكرات والمخدرات ، وأراق الخمر ، وحرّق الحشيش ، ولم يكن للفناء في دولته نصيب ، وكان أهم ما يشغله في وقت الفراغ من الحرب التمرن على الحرب ، والعناية بالإعداد لها ، وسرت منه عدوى ذلك إلى أمرائه وشعبه ، فهم جميعا يتمرنون على أنواع من الألعاب الرياضية الشاقة ، ويتأهبون لأعمال الجهاد ، باللعب ، والسباق ، والتمرن على إصابة الأهداف ، وكثيراً ما قام باستعراض جيوشه البرية والبحرية في أبهة وجلال . واقتدى به في منهاجه المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل ، الذى أعد العدة لأمر حاسم ، فضى لا يلوى على شيء ، يضيق على العدو الخناق ، يريد أن يستخلص منه كل ما بقي في يده ، وأن يلتقى به في البحر ، سنة ٦٩٢ هـ ، بعد قرنين التقى فيهما الشرق بالغرب ، في معارك الحروب . وإذا كان المغيرون قد نجحوا في أول أمرهم ، فذلك لتفتت وحدة المسلمين ، واختلاف مذاهبهم الدينية ، التي فرقت بين قلوبهم . ولهذا

العدد الضخم ، الذى كانت تقذف به أوربا بلاد الإسلام ، فلما اتحدت مصر وسوريا كان ذلك إيذانا ببدء عهد جديد ، لتخليص البلاد ، وإذا كان عهد التخليص قد طال ، فذلك راجع إلى ما كان يحدث من نزاع على العرش ، كان يشغل المتنازعين عن الهدف من طرد الفرنج ، الذين نظر إليهم فى كل حين على أنهم خطر دائم ، يهدد الشام ومصر ، ولهذا كان الابتهاج بزوال هذا الخطر قويا ، ترك أثره فى الأدب والتاريخ .

الحياة الحربية

لقد كلفت هذه الحروب مصر والشام كثيرا من الأموال ، فى تكوين جيش ضخم ، حتى لقد اضطر صلاح الدين ومن جاء بعده إلى أن يجبي الزكاة ، وبعد أن أنفق منها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين ، رفع إلى بيت المال السهام الأربعة : وهى سهام العاملين ، والمؤلفة ، وفى سبيل الله ، وفى الرقاب^(١) . وذلك لكى ينفق على الجيش من سهم (سبيل الله) . وكانت العناية بالجيش قوية فى تلك العصور ، وبلغت ذروتها فى عهد نور الدين وصلاح الدين وبيبرس ، الذى أشاع فى عصره روح الجندية ، فكان عندما يشوب من الحرب ، لا يدع جيشه للراحة والسأم ، بل يدربه على أعمال الحرب ، ويستعرضه فى الجين بعد الجين ، ليرى أينقصه شئ . وكثيرا ما اشترك هو وابنه الملك السعيد فى مناورات الجيش ، ونالا الإعجاب والتقدير ، وكان عدد الجند ضخما ، فكانوا إذا ركبوا فى ظاهر القاهرة يزيدون على مائتى ألف^(٢) ، وفى المعارك الكبرى كان المتطوعون يقدمون من كل فج ، حتى ايزيد عددهم على الجند المقيدين ، قال صاحب النجوم الزاهرة^(٣) : « اجتمع مع الأشرف خليل على عكا من الأمم ، ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند ومن فى الخدمة » .

وعنى كذلك بالأسطول ، وبلغت العناية به الغاية فى عهد صلاح الدين ، وبيبرس ، والأشرف خليل ، ففي عهد صلاح الدين أفرد له ديوانا خاصا سلبه إلى أخيه الملك العادل ، وأعطى صلاح الدين صاحب الأسطول سلطة كبرى ، فى تخيير رجاله ، وإعداد سلاحه . وفى عهد

(١) خطط القرينى ج ١ ص ١٧٤ . (٢) خطط القرينى ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) ج ٨ ص ٥٠ .

بيبرس كان يشرف على صنع سفنه بنفسه ، ويجلس بين الأخشاب والعمال ، واقتدى به الأمراء ، فكانوا يحملون بأنفسهم آلات السفن ، ويساعدون في صنعها ، وفي عهد خليل بن قلاوون زادت العناية بأمر الأسطول ، وملاؤه بالعدد وآلات الحرب ، وعزم السلطان على الخروج لمشاهدته ؛ فأقبل الناس من كل صوب يريدون أن يشهدوا تلك الفؤى البحرية الضخمة ، واستعدوا لذلك قبل مقدم السلطان بثلاثة أيام ، وصنعوا لهم أخصاصا على شاطئ النيل ، بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا خرج أهله ، أو بعضهم ، لرؤية ذلك . ولما حضر السلطان برزت السفن ، واحدة بعد واحدة ، وقد عمل في كل سفينة برج وقلعة تحاصر ، والقتال عابها ملح ، والنفط يرمى عليها ، وعدة من النقبان يعملون الحيلة في النقب ، وما منهم إلا من أظهر في سفينته عملا معجبا ، وصناعة غريبة ، يفوق بها صاحبه ، ثم عاد السلطان ، وأقام الناس بقية يومهم ، وتلك الليلة ، على ما هم عليه : من اللهو في اجتماعهم . وكان شيئا يحل وصفه ، وانفق فيه مال لا يعد ، بحيث بلغت أجرة المركب ستمائة درهم ، ولما بلغ خبر ذلك إلى بلاد الفرنج ، بعثوا رسلهم بالهدايا ، يطلبون الصلاح .

وكان للأسطول المصري دوره في هذه الحروب ، يخوض لجح البحر الأبيض غازيا أو مدافعا ، ولم يقف جهاده على حرب الفرنج بالبحر الأبيض فقط ، ولكن كانت له وقفات حاسمة في البحر الأحمر أيضا ، دفع بها الفرنج عن الأراضي المقدسة بالحجاز . وذلك أن صاحب الكرك ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، فكر في مهاجمة المسلمين في البحر الأحمر ، ظنا منه أنهم غير مستعدين فيه ، فبنى سفنا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، وجمعها في أسرع وقت ، وشحنها بالمحاربين ، وآلات القتال ، وسارت السفن وقد افرقت فرقتين ، أقامت إحداها على حصن أيلة يحصرونه ، ويمنعون أهله من ورود الماء ، فأصاب أهله شدة وضيق ، ومضت الثانية إلى عيذاب ، وهي فرقة فدائية ، فأحرقت في البحر ستة عشر مركبا ، وأفسد جندها في السواحل ، ونهبوا ، وفاجئوا الناس على حين غفلة منهم ، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا ، لا تاجرا ولا محاربا ، وأرادت أن تقطع طريق الحج ، فقد كانت الغزوة في شهر شوال ، سنة ٥٧٨ هـ ، وأن تمضي إلى المدينة المنورة ، لينبشوا قبر الرسول ، وينقلوا جسده إلى بلادهم ، ويدفنوه عندهم ، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل ، فسارت الفرقة إلى بلاد الحجاز . وجاء الخبر إلى مصر ، وبها الملك العادل أخو

صلاح الدين ، فأمر قائد الأسطول ، وهو الحاجب لؤلؤ ، أن يتبع هؤلاء الغزاة ، فانقض على محاصرى أيلة انقضاض العقاب ، وقاتلهم ، فقتل بعضهم وأسر الباقي ، ومضى توا إلى شاطئ الحجاز ، فوجدهم قد أوغلوا في طريق المدينة ، حتى لم يبق بينهم وبينها إلا مسافة يوم ، فمضى خلفهم على خيل أخذها من الأعراب ، وحاصروهم هناك ، في شعب لا ماء فيه ، حتى استسلموا (١) .

وكثيرا ما كان رجال الأسطول المصرى يغرون رجال الأسطول الصليبي ، فيتزبون بزيهم ، ليصلوا إلى هدفهم سالمين (٢) ، وقد يغرقون سفنهم ، ويغرقون معها ، إن وجدوا أنفسهم مضطارين إلى التسليم (٣) .

وكان كلا الفريقين يجتهد في ابتكار آلات الهلاك والتدمير ، وتفوق المصريون على الفرنج في معرفة سر النار اليونانية ، وكانت إحدى وسائل النصر عليهم في معركة المنصورة . وهى نار تثب مستقيمة ، كأنها أسطوانة كبيرة ، ولها ذيل من اللهب قدر الحربة الطويلة ، ودويها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ، ولها نور ساطع جدا ، حتى إنك ترى كل ما في المعسكر ، كما ترى في ضوء النهار ، وقد دمرت هذه النار معسكرهم ، وألقت الرعب في قلوبهم . ولم يستطع الصليبيون يومئذ معرفة سر تركيب هذه النيران (٤) .

واخترع المسلمون كذلك من النيران ما لا يقف في سبيله شيء : صنع العدو في حصار عكا ثلاثة أبراج من خشب وحديد ، وألبسها الجلود المسقاة بالخل ، بحيث لا تنفذ فيها النيران . وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال ، عالية على سور البلد ، وهى مركبة على عجل ، يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليها منجنيق . وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفا ورعبا ، ويئس المحاصرون في المدينة ، ورأوها وقد تم عملها ، ولم يبق إلا جررها قرب السور . وأعمل صلاح الدين فكره في إحراقها

(١) راجع السلوك ج ١ ص ٩٢ و ٩٦ و ١٠٢ ، والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢٢١ و ١٢٢ .
ورحلة ابن خيبر ص ٢٩ ، والروضتين ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ و ١٤٨ و ٢٤٠ ، وخطط المقرئى ج ٣ ص ١٣٨ ،
وشذرات الذهب ج ٤ ص ٣٣٦ . (٢) النوادر السلطانية ص ١١٩ .
(٣) المرجع السابق ١٤٨ . (٤) راجع في الحديث عنها مواقف حاسمة ص ١٠٤ ، وسفن
الأسطول الإسلامى ص ٢٣ ، وتاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٨ .

ولإهلاكها ، وجمع الصناع وحثهم على الاجتهاد في إحراقها ، ووعدهم على ذلك بالأموال الطائلة ، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك . وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشق ، ذكر بين يديه أن له صناعة في إحراقها ، وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا ، وحصلت له الادوية التي يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكا وطبخ الادوية مع النفط ، في قدور نحاس ، حتى صار الجميع كأنه جرة نار ، ثم ضرب واحدا بقدر ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه ، فاشتعل من ساعة ، وصار كالجبل العظيم من النار ، طالعة ذوابته نحو السماء ، وعلا المسكين الفرع ، حتى كادت عقولهم تذهب ، وبينما الناس ينظرون ويتعجبون ، رمى البرج الثاني ، بالقدر الثانية ، فما كان إلا أن وصلت إليه ، واشتعلت ، كالتي قبلها ، فاشتد ضجيج الفتتين ، وما كان إلا ساعة ، حتى ضرب الثالث فالتهب ، وغشى الناس من الفرع والسرور ما حرك ذوى الأحلام^(١).

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

ولقد ساعد مصر على إعداد هذه الجيوش ، وإنشاء تلك الأساطيل ، والتفوق في تجهيز الأسلحة ، ما كان يسودها في ذلك العهد الطويل من رخاء ، وما كان لها من ثروة ضخمة ، فقد كانت تجارة مصر الداخلية والخارجية في تقدم وازدهار ، وكانت الزراعة ناهضة بفضل النيل ، والصناعة مزدهرة متفوقة . وحسبك أن ترجع إلى رحلة ابن جبير ، وإلى أسواق القاهرة في خطط المقرئى ، لترى ما كان للصناعة المصرية والتجارة من شأو رفيع ، وإن كان قد تخلل هذه الفترة في الحين بعد الحين نوبات من الفحط ، والمجاعة ، والغلاء ، والوباء ، فقد كانت مصر بعد أن تمر بها النوبة ، تستعيد حياتها العادية ، وتستأنف رفاهيتها ، ويعود إليها الرخاء الشامل . أما الشام فقد أفسد زراعتها الحروب المتصلة بين المسلمين والفرنج ، والتي لم تكد تهدأ عاما واحدا ، ولهذا كان اتحاد الشام ومصر ضروريا من الناحية الاقتصادية ، ليكون من المستطاع طرد العدو الغاصب .

وإن رخاء مصر ، وحظها العظيم من الثروة ، مهد لأبنائها — برغم هذه الحروب — أن يأخذوا لأنفسهم بحظ كبير من متع هذه الحياة ، وأن يعنوا أيما عناية بأيام يحتفلون

فيها ، وقد تعددت هذه الأيام في عصر الدولة الفاطمية ، التي وضعت لها نظما وتقاليد تتبع في دقة ، وسار الأيوبيون على نسقهم ، في الاحتفال بها ، إلا ما كان خاصا بعقائد الشيعة ، وكان القاهريون يعنون أيما عناية بمشاهدتها ، وإعطاء أنفسهم حظها من اللهو والمرح ، وبحسبك أن تعود إلى أعياد مصر في خطط المفريزي لترى تنوعها ، ومدى عناية القوم بها ، وما كان لهم من تقاليد فيها ، وكانت نفوس عامة الشعب تجرى على ما تهوى في هذه الاحتفالات ، ولهذا كثر كلام المؤرخين عما كان يحدث فيها : من فسق ، وفجور ، ولهو ، وشرب خمر .

هذا ، وإنه لمن الحق أن الصلة بين المسلمين والفرنج لم تكن صلة عدااء دائم ، طوال هذا العصر ، فلقد استتر هذا العدااء في فترات متقطعة ، واختلط المسلمون والفرنج بعضهم ببعض ، وزار هؤلاء مدن أولئك ، وكانت المناظرات تجري بين رجال من الصليبيين ورجال من المسلمين ، كل يجذب دينه ، ويقيم البرهان على صحته ، ومن ذلك مثلا أن صاحب حصن أرنون كان يعرف العربية ، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ ، وقد ظل يتردد على صلاح الدين ، ويناظر المسلمين في صحة دينه ، ويناظرونه في بطلانه (١) . وعرف المسلمون كثيرا من عوائد الفرنج ، وأثنوا على ما رأوه فيهم : من فضائل ، وعابوا نقائصهم . وتجد في كتاب الاعتبار لأسامة ، والنوادر السلطانية كثيرا من الحديث عن طباعهم ، وأخلاقهم .

الحياة العلمية

وأغلب الظن أن هذا الاتصال الطويل أوقف الفرنج على ما كان بمصر والشام يومئذ من حركة علمية ناشطة ، فقد شهد هذا العصر حركة مباركة في تأسيس المدارس ، في مختلف أرجاء البلاد ، وقد تسابق في تأسيسها السلاطين ، والملوك ، والأمراء ، والأثرياء ، والمعلمون ، وفتحت أبوابها ، تستقبل الوافدين عليها من كافة الأنحاء ، تمهد أمامهم سبيل الحياة ، وتمدهم بأسباب العيش ، وتهيء لهم وسائل الإقامة ، وذلك فضلا عن المساجد التي كانت منتشرة في كل مكان ، تنشر الضوء ، وتبث وسائل العرفان ، وقد تنوعت ألوان الثقافة في دور العلم

(١) النوادر السلطانية ص ٨٠ .

هذه ، بين علوم دينية ، ولغوية ، وفلسفية ، واجتماعية ، وغيرها . ولمع في كل فرع من هذه الفروع أسماء رجال أعلام ، ألفوا من الكتب ما تفخر به المكتبة العربية ، ويزهوا به العصر ، ولا يزال يعد مرجعا إلى وقتنا هذا ، وحسبي أن أذكر من أولئك الشاطبي ولاميتة ، والقرطبي ، وتفسيره ، وابن عساكر ، وكتابه : المستقصى ، وكتاب تاريخ مدينة دمشق ، في ثمانين مجلدا ، وابن الصلاح ، ومقدمته في علم الحديث ، والنووي ، وكتابه : المنهاج ، وعز الدين بن عبد السلام ، وكتابه : قواعد الاسلام ، وقواعد الأحكام ، وابن دقيق العيد ، وكتابه : الإلمام الجامع أحاديث الأحكام ، وشهاب الدين القرافي ، وكتابه : الذخيرة في فقه مالك ، وابن قدامة ، وكتابه : المغني ، والحصري ، وكتابه : التحرير في فقه أبي حنيفة ، وشمس الدين الأصفهاني ، وشرحه للمحصول ، في أصول الفقه ، وسيف الدين الآمدي ، وكتابه : منتهى السؤل في أصول الدين ، وابن الحاجب ، وكافيته ، وشافيته في النحو والصرف ، وابن مالك ، وألفيته ، وابن منظور ، ولسان العرب ، وابن الأثير ، وكتابه : المثل السائر ، وأسامة بن منقذ ، وكتابه : الاعتبار ، وعماد الدين الكاتب ، وخريدته ، وأبا شامة المقدسي ، وكتابه : الروضتين ، وذيلهما ، وابن خلكان ، ووفيات أعيانه ، وياقوت الحموي ، ومعجم أدبائه ، ومعجم بلدانه ، وشهاب الدين السهروردي ، وهياكل نوره ، وابن البيطار ، وكتابه : الأدوية المفردة المشهور (١) .

(١) يراجع كتاب الحياة العقلية ، في عصر الحروب الصليبية ، للمؤلف .

حكام العصر والأدب

هذا العصر لجدير ان تقوم فيه نهضة أدبية قوية ، وأن يجرى فيه نشاط يغزر
أج الأدب ويتنوع ، وذلك لأن الأحداث العنيفة الجارية فيه ، تثير العواطف ،
مختلف الانفعالات ، وتدفع إلى القول وإجاده ؛ ففي قلب بلاد الإسلام ، سكن عدو
يغير على أطراف البلاد العربية وثغورها ، ناشرا الفرع والاضطراب في نفوس
، ومستخدما أشد ألوان الفسوة فيما تملكه يده من بلاد الإسلام ، ووقف له قوم
، هذا العدو حيناً ، ويغيرون عليه حيناً آخر ، ويتحرقون غيظاً على وطن اغتصب ،
ريقت على أرض هذا الوطن ، ثم يجمعون قواهم ، ويوحدون جهودهم ، لطرد العدو
في البحر ، وتطهير الأرض من آثامه ورجسه .

هد هذا العصر في مصر والشام دولا تسقط وينهض على إثرها أخرى ، وملكا يزول
م ليحل في آخرين ، ووطنا يفترق بنوه ، ثم يتحدون ، وعقائد دينية تسيطر ، ثم ينهار
لعقائد أخرى ، تأخذ مكانها ، وكل ذلك له أثره في إثارة النفوس ، ودفع الأدباء إلى
، فرحين تارة ، وباكين تارة أخرى .

نف إلى هذا أن الحكماء يومئذ كانوا يحبون الأدب ، ويميزون عليه ، ويجلسون
، مجالس ، ينصتون فيها إلى شعرهم ، وينقدون إنتاجهم ، ويكافئونهم على مقدار
م ، وكانوا يتأثرون بالشعر ، ويؤثر فيهم ، ويتراسلون به ، ويدخل ضمن ثقافتهم التي
عنها لهم ، ويتمثلون به كلها عن لهم ما يدعو إلى القول العاطفي المثير . بلى مضى كثير
نرض الشعر ، حتى صار له دواوين ، أبقى على بعضها الزمن ، أو يؤلف في فنون
، أو يشجع على التأليف في هذه الفنون ، ولبعضهم مجالس أدبية ممتعة ، تنوع فيها
قول ، وتناول طرقات من أفانين الأدب ، كما كان الإعجاب ببطولة بعض السلاطين
شعراء إلى الالتفاف حولهم ، التفافا يذكرنا بالعهود الزاهرة للشعر العربي .

بطول في القول إذا أنا مضيت في عد شواهد لذلك ، وحسبي أن أذكر أن الخليفة
: الأمر بأحكام الله بني منظره من خشب ، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش

وصور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهب ، فلما دخل الأمر ، وقرأ الأشعار ، أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة ، فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ؛ ففعلوا ذلك ، وكانوا عدة شعراء (١) . وذلك يدل على أن الشعراء يومئذ كانوا يطالبون أنفسهم بإجادة القول ، والتبريز فيما ينشئون ، كي يكون المختار لهم رائعا ، لا يقل في جودته عما ينشئه سواهم ، وكى يظفر الواحد منهم بأن يكون له بين المحسنين في القول صورة ، وله معهم جائزة .

ويحدثنا عمارة البني أنه قدم إلى مصر ، في شهر ربيع الأول ، سنة خمسين وخمسمائة ، والخليفة بها يومئذ الفأيز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما أحضر للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة ، أنشدتهما قصيدة أولها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم

فأقيضت عليه خلع من ثياب الخلافة مذهبة ، ودفع له الصالح خمسمائة دينار ، وأخرج إليه من عند السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معه إلى منزله ، وأطلق له من دار الضيافة رسوم رفيعة ، وتهادته أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم ، واستحضره الصالح لمجالسته ، واثالت عليه صلاته ، وغمره بره (٢) .

بل لقد أجرى الخلفاء الفاطميون على الشعراء أرزاقا ثابتة ، وجعلوا لهم مرتبات يتقاضونها ، تراوح بين عشرين دينارا وعشرة دنانير (٣) ، وطلبوا إلى الشاعر أبي عبد الله مسلم أن ينظم « السيرة المصرية » ، وجعلوا له خمسة دنانير في كل شهر (٤) .

واقترى الوزراء والولاة بخلفائهم في إجازة الشعراء والإغداق عليهم ، ولا سيما أن وزراء الفاطميين في العصر الذي جرت فيه الحروب الصليبية كانوا هم الحكام الحقيقيين ، في معظم هذه الحقبة من الزمن . ويحدثنا المقرئ عن دار الملك التي أنشأها الأفضل بن بدر الجمالي ، وحول إليها دواوين الدولة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطاء ، وأمر بتفصيل ثمان ظروف

(٢) النكت المصرية ص ٣٢ .

(٤) الحريدة ورقة ١٠٢ أ .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٣ .

ديباح أطلس ، من كل لون اثنين ، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار ، في كل ظرف خمسة آلاف دينار ، من ذلك ستة ظروف دنائير بالسوية ، عن اليمين والشمال ، في مجلس العطايا . . فإن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسنه لشعر من أنشد منهم ، ما يسهله الله على حكم الجائزة ، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه ، من الظروف (١) .

وكان مكن الدولة أحد ولاية الإسكندرية يحتذى أفعال البرامكة ، ويغدق على الشعراء ، ولهم فيه أمداح كثيرة (٢) .

ونهج هذا النهج الأيوبيون من بعدهم ، حين آل إليهم الأمر في مصر والشام . روى ابن خلكان أن أحد الشعراء أنشد صلاح الدين شعراً قال فيه :

الله أكبر ، جاء القوس باريها ورام أسهم دين الله رامها

فأعطاه صلاح الدين ألف دينار (٣) . ومدحه سعادة الأعمى بقصيدة طائية أثابه عليها بألف دينار كذلك (٤) . ومدحه أحمد بن علي بن أبي زنبور بقصيدة طويلة ، وصله عليها بخمسمائة دينار (٥) . وقال العماد في الخريدة : لما خيم السلطان بظاهر حصص ، قصده المذهب ابن أسعد بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى الكرى إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين : هذا الذي يقول : « والشعر ما زال عند الترك متروكا ، فعجل جائزته ، لتكذيب قوله ، وتصديق ظنه ، فشرفه ، وجمع له بين الخلة والضيعة . وعنى الفاضل ما قاله المذهب في قصيدة مدح بها الصالح بن رزيك ، وأولها :

أما كفاك تلافى في تلافيك .

وفيها :

من أرتجى يا كريم الدهر ينعشني جدواه ، إن خاب سعي في رجائيك

(٢) خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٧٧ .

(١) خطط القرطبي ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٤) خريدة القصر ١ : ٧٨ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٥) بغية الوعاة ص ١٤٨ .

أمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكا^(١)

ويذكر العباد الكاتب أن صلاح الدين كان يستهديه شعره ونثره^(٢).

ويذكر التاريخ أن كثيراً من حكام ذلك العصر قرضوا الشعر. وعنوا بنظمه، فكان للأمر نظم ونظر في الأدب^(٣). وروى له المقرئى شعرا، منه ما يحدثنا عن عزمه على الجهاد والسفر إلى بغداد، حتى يعيد للدين وحدته، إذ يقول:

دع اللوم عني، لست مني بموثق فلا بد لي من صدمة المتحقق
وأستقي جياذى من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرق

ويقول:

أما والذي حجت إلى ركن بيته جرائم ركبان مقلدة شهبها
لأقتنم الحرب، حتى يقال لي: ملكت زمام الحرب، فاعتزل الحربا
وينزل روح الله؛ عيسى بن مريم فيرضى بناصحباً، وترضى به صحباً^(٤)

وكان الأفضل بن بدر الجمالي شاعرا، ومن شعره ما قاله في غلامه تاج المعالي:

أقضيبي يمس، أم هو قد أو شقيق يلوح، أم هو خد
أنا مثل الهلال: سقما عليه وهو كالبدر، حين وافاه سعد^(٥)

وكذلك كان بهرام وزير الخافض شاعراً^(٦). أما طلائع بن رزيق وزير الفائز والعاقد فكان أعظم وزراء العهد الفاطمي الأخير حظاً من الشعر. قال المقرئى: وله شعر كثير يشتمل على مجلدین فی کل فن^(٧). وتجد نماذج كثيرة من شعره في النجوم الزاهرة^(٨).

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٠. (٢) الروضتين ١: ١٤٦.

(٣) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٣. (٤) خطط المقرئى ج ٤ ص ٧٨.

(٥) أخبار مصر لابن ميسر ج ٢ ص ٦٠ وفيه نص آخر للشاعر.

(٦) History of Egypt in the Middle Ages. P. 166.

(٧) خطط المقرئى ج ٤ ص ٨٦.

(٨) ج ٥ ص ٣٦٠ و ٣١٤.

ووفيات الأعيان ^(١) والنكت العصرية ^(٢) ، والروضتين ^(٣) ، وديوان أسامة ^(٤) ،
والكامل في التاريخ لابن الأثير ^(٥) ، وخطط المقرئ ^(٦) ، وخريدة القصر ^(٧) . ومن
ذلك قوله يتغزل :

وفاتر الطرف في الحد الأسيل ، له ورد جنى جنقيه ^(٨) أسهم المقل
نهفته بقمي ثما ، وقد غفلت عين الرقيب ، وكلت ألسن العذل
وخاف أن يفطن الواشي بنا وبه فعاد يخلف ما قد من بالخبجل
أن مال عني فقد مال النعيم ، وإن يمل إلى أجده غاية الأمل
هابت سطاي ليوث الغاب عادية ورحت من لحظات الظبي في وجل
فرجت ضنك الوغى في كل معركة بحدسيني ، وضافت في الهوى حيلي ^(٩)

وكان ضرغام وزير العاضد ينظم الموشحات الجيدة ^(١٠)

وجرى الشعر على ألسنة كثير من أبناء الأسرة الأيوبية . فالأفضل بن صلاح الدين
له شعر ^(١١) روى السلوك بعضه ، مما قاله يشكو فيه سوء حظه . ومن ذلك قوله :
أما آت للسعد الذي أنا طالب لإدراكه يوما يرى وهو طالبي
ترى هل يريني الدهر أيدي شيعتي تمكن يوما من نواصي النواصب ^(١٢)
وأورد شفاء القلوب (ص ٧١) بعض شعره .

ولغازي بن صلاح الدين كذلك شعر حسن ، ولحفيد غازي ، وهو يوسف بن محمد بن
غازي صاحب مملكة حلب شعر ، منه قوله لما مرت به التار على حلب ، وهي خاوية على
عروشها ، وقد تهدمت ، والنيران بها تعمل . فقال :
يعز علينا أن نرى ربكم يبلى وكانت به آيات حسنكم تتلى

-
- (١) ج ١ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ .
(٢) ج ١ ص ١٠٦ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ .
(٣) ج ٨ ص ١٦٣ و ١٦٨ و ١٦٩ و ٢١١ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٣ .
(٤) ج ١١ ص ١٢٣ و ١٢٤ .
(٥) ج ٤ ص ٨٢ .
(٦) ج ٢ ص ٣٩ .
(٧) ج ٢ ص ٣٩ .
(٨) في الأصل (حته) .
(٩) الجريدة المطبوعة ١ : ١٨١ .
(١٠) خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٠ .
(١١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٠٩ ووفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧١ . (١٢) ج ١ ص ٢١٧ .

وله نماذج في النجوم الزاهرة^(١) وشفاء القلوب (ص ١١٥ و ١١٦) .
 وكان بورى بن أيوب أخو صلاح الدين شاعراً بليغاً ، أورد له صاحب النجوم نموذجاً^(٢) .
 وذكر صاحب الوفيات^(٣) أن له ديواناً ، قال عنه صاحب كشف الظنون^(٤) : إن فيه الغث
 والسمين ، ولكنه بالنسبة إلى مثله جيد وله نماذج كثيرة في شفاء القلوب . (ص ١٤ و ١٥) .
 وكذلك كان ابن أخيه فروخ شاه بن شاهنشاه أديباً شاعراً^(٥) ، جيد الشعر بين أشعار
 الملوك^(٦) . منه قوله :

أنا في أسر السقام من هوى هذا الغلام
 رشاً ترشق عينا ه فؤادى بسهام
 كلما أرشفتي فا ه على حر الأوام
 ذقت منه الشهد في الثلج المصفي في المدام^(٧)

وله نماذج أيضاً في شفاء القلوب^(٨) (ص ٦٥) .
 وأنجب فروخ شاه ابنه بهرام شاه شاعراً مشهور الشعر ، له ديوان كبير^(٩) ، كان بين
 أيدي الناس^(١٠) ، وبقي لنا من شعره « دوبيت » هو :
 كم يذهب هذا العمر في الخسران يا غفلتي فيه وما أنساني
 ضيعت زماني كله في لعب يا عمر ، فهل بعدك عمر ثان^(١١)
 ويقول بعض مؤرخيه : إنه أشعر بني أيوب^(١٢) ، وله نماذج كثيرة في شفاء القلوب
 (ص ٩١) .

-
- | | |
|---|------------------------------|
| (١) ج ٧ ص ٢٠٤ | (٢) ج ٦ ص ٩٦ |
| (٣) ج ١ ص ٩٤ | (٤) ج ٢ نهر ٧٨٠ |
| (٥) الروضتين ج ٢ ص ٣٣ | (٦) الكامل ج ١١ ص ٢٢٢ |
| (٧) الروضتين ج ٢ ص ٣٤ | |
| (٨) راجع شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١٤ ، ١٥ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، | |
| ٩١ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ففيها نماذج كثيرة من أشعار الأيوبيين . | |
| (٩) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٦ | (١٠) عيون الأنبياء ج ٢ ص ٢٤٨ |
| (١١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٦ | (١٢) المختصر ج ٣ ص ١٤٥ |

وكان لعمر بن شاهنشاه^(١) ديوان شعر كذلك ، بقي منه قوله :

يا ناظريه ، ترفقا ما في الورى لكما مبارز
هيبكم حجبت أن أرا ه ، فهل لقلب الصب حاجز^(٢)

ولابنه ديوان كذلك ، وله نماذج في كتاب تاريخ الواصلين^(٣)

وحفظ شفاء القلوب (ص ٨٨ و ٨٩) شعراً للظفر غازي بن أبي بكر بن أيوب .

وللناصر داود بن المعظم عيسى ديوان من الشعر ، حفظه الزمان إلى يومنا هذا^(٤) . وقد وصل في بعضه إلى مرتبة قوية من الإجادة كقوله :

عيون عن السحر المبين تبين لها عند تحريك القلوب سكون
إذا ما رأت قلباً خلياً من الهوى تقول له: كن مغرماً فيكون

وله نماذج في كتاب شفاء القلوب (ص ٩٤) .

كما كان لأبيه ديوان من الشعر أيضاً^(٥) . بقي منه قصيدة في كتاب بدائع البدائ^(٦) .
منها قوله يمدح أباه الملك العادل :

والنصر مقرون بهمتك التي قد أصبحت فوق السماك سماكا
فإذا عزمت وجدت من هو طائع وإذا نهضت وجدت من يخشاك^(٧)
وللكامل شعر ، بقي لنا طرف منه في الغزل والاستنجاد . إذ يقول :

إذا تحققت ما عند صاحبكم من الغرام ، فذاك القدر يكفيه
أنتم سكتتم فؤادي ، وهو منزلكم وصاحب البيت أدرى بالذي فيه^(٨)

(١) تجد له نماذج في تاريخ الواصلين ص ٢٧ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٤ .
(٣) ص ١٧٠ . (٤) مصور بدار الكتب رقم ٢٢٩٣ —
أدب. واسمه الفرائد الجلية في الفرائد الناصرية . وتجد نماذج من شعره في المختصر في أخبار البشر ،
والنجوم الزاهرة ، وتاريخ الواصلين ، والسلوك ، وفوات الوفيات .
(٥) المختصر ج ٣ ص ١٩ . (٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٦٧ .
(٧) ص ١٧٨ . (٨) راجع كتاب مأمون بقي أيوب مؤلف هذا الكتاب .
(٩) السلوك ج ١ ص ٢٦١ .

وأورد له شفاء القلوب (ص ٨٢) نموذجاً أيضاً .

وكتب إلى أخيه الأشرف موسى رسالة ، يستحثه على الحضور ، حين كان الفرنج على دمياط ، صدرها بآيات منها :

يا مسعدى إن كنت حقاً مسعياً فانفض بغير تلبث وتوقف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه ما بين كل مهند ومشقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه بك في القيامة ، في راض الموقف^(١)

وكان المعظم توران شاه بن الصالح أيوب أديباً شاعراً^(٢) ، وفي كتاب الروضتين^(٣) شعر لاسماعيل بن طغتكين بن أيوب . وفي تاريخ الواصلين أن المظفر صاحب حماة لما ماتت زوجته رثاها بمرثية مؤثرة^(٤) ، وكان له ديوان شعر رآه صاحب بدائع البدائ^(٥) .

ومن كبار الأمراء والوزراء في عصر الدولة الأيوبية من نظم الشعر أيضاً ، نذكر من بينهم القاضي الفاضل ، وله ديوان حفظه الزمن^(٦) ، وإبراهيم بن يوسف القفطى وزير حلب ، وله نموذج في كتاب الطالع السعيد^(٧) ، والامير نحرالدين يوسف بن حمويه ، وكان مرشحاً للملك ، وله نموذج في كتاب طبقات الشافعية^(٨) ، وأحمد بن صدر الدين شيخ الشيوخ^(٩) ، وعون الدين بن العجمي من كبار الدولة الناصرية^(١٠) ، ومن الولاة أحمد بن موسى بن يغمور وإلى المحلة^(١١) ، وكان والده موسى أميراً في عهد بيبرس شاعراً أيضاً^(١٢) ، ومنهم جلدك ابن عبد الله المظفرى وإلى دمياط^(١٣) .

وكانوا يدركون ما للشعر من أثر بالغ في النفس ، فتطرب له ، وتهتز لمعناه ، وتندفع إلى تحقيق أهدافه ، روى العماد الأصهباني قال : سألتى نور الدين أن يعمل دوبيتيات في معنى الجهاد على لسانه ، فقلت :

- | | |
|---------------------------------|---|
| (١) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢١٢ . | (٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ٥٤ . |
| (٣) ج ١ ص ٢١٠ . | (٤) ج ١ ص ٢٠١ . |
| (٥) بدائع البدائ ص ١٨١ . | (٦) الديوان مخطوط بمكتبة معهد دمياط وصورته . |
| دار الكتب وحققه المؤلف . | (٧) ص ٣٣ . |
| (٨) ج ٥ ص ١٥٢ . | (٩) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤ . |
| (١٠) تاريخ الواصلين ج ٢ ص ٣٨٧ . | (١١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٤٥ ، وحسن |
| المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤ . | (١٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٨ (١٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٠٧ . |

أقسم سوى الجهاد مالى أرب والراحة فى سواء عندى تعب
إلا بالمجد لا ينال الطلب والعيش بلا جد جهاد لعب^(١)

فنور الدين محمود — وهو أحد أبطال الحروب الصليبية ، يجد فى تغنيه بالشعر معين قوة ، ومصدر إقدام . ويطلب مرة أخرى إلى العماد أن يصف معركة دارت بينه وبين الفرنج ، وشاهدها العماد^(٢) ، ليثبت بذلك قلوب المؤمنين ، ويزيدهم إيماناً إلى إيمانهم . ويطلب منه حيناً آخر أن يكتب على لسانه رسالة يبعث بها إلى بغداد ، يتحدث فيها عن جهاده للعدو ، وما أصيب به العدو من هزيمة وخذلان^(٣) ، ويدعو أسامة بن منقذ أن يرد بالشعر ، على الملك الصالح : طلائع بن رزيك ، فى رسائله التى وجهها إلى نور الدين^(٤) .

ومن أثر الشعر فى نفوسهم ما يروى من أن معركة دارت بين صلاح الدين والفرنج بقرب بنّياس ، سنة ٥٧٥ هـ ، وانتصر فيها صلاح الدين ، وكان ممن أبلى فيها أعظم البلاء عز الدين فروخ شاه ابن أخى صلاح الدين ، متأثراً بالشعر ومدفوعاً به ، فقد حكى أنه قال :
ذكرت فى تلك الحال بنى المتنبى ، وهما :

فإن تكن الدولات قسماً فإنها لمن يرد الموت الزؤام تثول
من هون الدنيا على النفس ساعة وللبيض فى هام الكماة صليل

فهان الموت فى عيني ، فألفيت نفسى إليه^(٥) .

ومن ذلك ما يروى من أن سيف الإسلام طغتكين أخا صلاح الدين ، كانت نفسه تشرئب إلى ولاية اليمن ، بعد موت أخيه شمس الدولة ، ويشتهى أن يصير إليها ، فأوحى إلى ابن سعدان الحلبي أن ينشئ قصيدة ، يضمها هذه الأمنية ، ويسمعا صلاح الدين ، فأنشأ قصيدة ، قال فيها :

جرد لها السيف الصقيل فتنة فالسيف لا يذخر إلا للفتن

(٢) الرجوع السابق نفسه .
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٤٦ .

(١) الروضتين ج ١ ص ٧ .
(٣) الرجوع السابق ص ٢١٨ .
(٥) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢٠٦ .

شد به أزر العلا ، فإنه نعم فتي من شرع الجود ، ومن
القائل المسمع في مقاله والصادق النذب الأمين المؤمن

فلما سمع السلطان هذه القصيدة ، أذن لسيف الإسلام في المسير إلى اليمن^(١) . فأنت ترى
طغتكين يعرف ما للشعر من تأثير في نفس صلاح الدين ، فيلجأ إليه مستعيناً به ، لتحقيق
آماله . وكان صلاح الدين يحب الشعر^(٢) ، ويستحسن الجيد منه ، ويردده في مجلسه ، وكان
يحفظ ديوان الحماسة^(٣) ، ومما كان يعجب به من الشعر ديوان أسامة بن منقذ ، وكان مشغولاً
به مستحسناً له^(٤) . ومن تقديره لتأثير الأدب ماروى من أنه كان يقول في ملا من الناس :
لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيفكم ، ولكني فتحتها بقلم القاضي الفاضل^(٥) .

ومن معرفتهم بتأثير الشعر في النفوس أنهم كانوا يتراسلون به ، ويبدعون به رسائلهم .
قال العماد يتحدث عن صلاح الدين عند ما استقر بمصر : وكثرت كتب صلاح الدين إلى
أصدقائه ، مبشرة بطيب أنبائه ، فنها كتاب ضمنه هذا البيت :

ما كنت بالمنظور أقنع منكم ولقد رضيت اليوم بالمسموع

قال : ووصل أيضاً منه كتاب ضمنه هذا البيت :

وأثر در الدمع من قبل أبيضاً وقد حال مذ بنتم فأصبح ياقوتاً^(٦)

وقال ابن الأثير في كامله : قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الذي ملك اليمن إلى
دمشق ، ولما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها ، حن إلى الوطن والأتراب ، ففارق اليمن ،
وسار إلى الشام ، وأرسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب في
الكتاب شعراً من قول ابن المنجم المصري :

ولم يزل صلاح الدين أشكو أنني من بعده مضني الجوانح مولع
جزعا لبعده الدار منه ، ولم أكن لولا هواه لبعده دار أجزع

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٥٣ .

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٧ .

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢٦ .

(٣) السلوك ج ١ ص ١١٣ .

(٥) مشنرات الذهب ج ٤ ص ٢٢٧ .

(٦) الروضتين ج ١ ص ١٧٩ و ١٨٠ وبدائع البداية ص ١٧٨ .

فلأركب إليه متن عزائي ويخب بي ركب الغرام ، ويوضع
ولأقطعن من النهار هواجرا قلب النهار بحرها يتقطع
ولأسرين الليل لا يسرى به طيف الخيال ، ولا البروق اللمع
وأقدم من إليه قلبي مخبرا أني بجسمى من قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة من أفقها صبح السعادة يطلع^(١)

وكانوا يعقدون مجالس يخصصونها للاستماع إلى ما أنشده الشعراء في الحوادث الجارية ، في المحافل العامة ، فتجد مكان الشعر واضحاً في المواسم والحفلات المتنوعة ، التي كانت تقيمها الدولة الفاطمية^(٢) ، وتجد في الأحداث الكبرى ، عصر الأيوبيين والمماليك ، مكانة الشعر مرموقة كذلك ، وكانوا يتناولون ما يقال في هذه المجالس بالنقد ، مستحسنين تارة ، ومستهجنين أخرى .

جلس الخليفة الفاطمي يوم الاحتفال بوهاء النيل ، وأخذ الشعراء ينشدون ما أعدوه ، فتقدم شاعر يقال له ابن جبر ، وأنشأ قصيدة منها :

فتح الخليج ، فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا ، فكأنه كف الإمام ، فعرفها الإعطاء

فانتقد الناس عليه في قوله : فسال منه الماء ، وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ، فضيع ما قاله بعد هذا المطلع . وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل -أمل معول
بحرى ، كأن قد ديف فيه عنبر يعلوه ككافور بطيب المنديل

فانتقدوا عليه أيضاً قوله في البيت الثاني ، وقالوا : أهلك وجه الإمام ، بسطوات المعاول عليه ، وإن كان قصد فتح السد بالمعاول ، لكنه ما نظمه إلا قلقاً ، ثم تقدم له شاعر ، يقال

(٢) بدائع البدائة ص ٢٢٤

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦

(الحياة الادبية في الحروب الصليبية ٣)

له : كافي الدولة أبو العباس أحمد ، وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضي الأثير بن سنان بأنه عملها بحضوره بديها ، وأولها :

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد للنيل. أم لك ؟ يا بن بنت محمد
أم لاجتماعكما معا في موطن وافيتما فيه لأصدق موعد
فأمر له على الفور بخمسين دينارا ؛ وخلع عليه ؛ وزيد في جاريه .
ولما فتح صلاح الدين بيت المقدس ، عقد مجلسا استمع فيه إلى ما قاله الشعراء في ذلك
الفتح المبين (١) .

وإلى جانب هذه المجالس التي كانوا يصغون فيها إلى قصائد الشعراء ، كانوا يعقدون
مجالس أدبية متنوعة ، ينشدون الشعر ، ويستجيزون من حضر من الشعراء ، ويطلبون إليهم
القول في معان معينة .

روى صاحب بدائع البدائ (٢) أن الملك الكامل أنشد قول الشاعر :

ترحل من حياتي في يديه فيا أسنى ، وياشوق إليه
واستجاز الجماعة فقال أحدهم :

ومن هذا يكون عليه مثلي وهذي الريح أخشاها عليه
وقال ثان :

ألا ياليت إن كان يأتي حياتي ، ثم موتي في يديه
وروى أن الملك (٣) العزيز قد غنى بين يديه دويبت بالأعجمية ، معناه أنه جعل الليل
برد دارا (٤) للحبيب ، ليحجب الشمس وأرسل إلى وزيره : الأجل نجم الدين أبي الفتح
يوسف بن المجاور ، يأمره أن يصنع المعنى في شعر ، وأن يأمر الشعراء بالعمل في ذلك ،
فصنع بديها وأرسله إليه :

قال له الليل: انصرف راشدا فإنه استخذي برد دار

(١) الروضتين ج ٢ ص ٩٦ .
(٢) بدائع البدائ ص ١٥٠ .
(٣) (٢) ص ٨٦ .
(٤) أي بمسك اليرد .

ثم صنعوا بعده ، فن مرور وباده ، واشترك في التحدث عن هذا المعنى القاضي الفاضل ،
والاسعد بن الخطير ، وابن النبيه ، وشهاب الدين يعقوب ابن أخت نجم الدين ، والقاضي
الاسعد عبد الرحيم بن شيث .

وأرسل الملك العزيز إلى وزيره ، طالبا إليه أن يصنع غزلا في جارية ، صنعت على
خدها بالمسك صورة حية وعقرب ، فصنع بديها :

فديتها من غادة	مخلوقة من طرب
سألها في قبلة	في خدها المذهب
فجاوبت معجبة	بكفها المخضب
وابأبى وابأبى	من عظم هذا الطلب
وليس هذا ممكنا	على عمر الحقب
روضة خدى حرس	بحية وعقرب
من رام أن يلثمها	فليرقها بالذهب
وليشرب الدرياق من	رضاب ثغرى الشنب

وصنع قطعة أخرى في هذا المعنى أيضا ، وأمر الناس بالعمل فأكثروا ، وصنع ابن عتاق
قطعا كثيرة ، تزيد على العشرين ، ومن اشترك في الحديث عن هذا المعنى أيضا ابن سناء الملك ،
وابن الساعاتي ، وشهاب الدين ابن أخت الوزير ، والقاضي أبو العباس أحمد بن القطرسي ،
وابن النبيه ، وأبو العباس أحمد ابن بنت الفقيه ابن عوف ، والرضي بن أبي حنيفة الأحديب ،
وعلي بن ظافر (١) .

ومن هذه المجالس ما كان يعقده الأشرف بن قلاوون ، وكان فيها يطرح الأدباء ،
بذهن رائق وذكاء مفرط (٢) .

وألّف بعض امراء ذلك المعصر وملوكه في الأدب ، ومن هؤلاء الملك المنصور صاحب
حياة محمد بن تقي الدين عمر ، فقد وضع كتابا في طبقات الشعراء (٣) .

(١) بدائع البدائع ص ١٥١ وما يليها . (٢) السلوك ج ١ ص ٢٩١ .

(٣) المختصر ج ٢ ص ١٢٥ .

كما شجعوا على التأليف في الأدب، وما هوذا الملك الكامل، يطلب من ابن دحية تأليف كتاب يجمع شيئاً من شعر أهل المغرب فألف له ابن دحية كتاب المطرب (١).

كان هذا العصر إذ أعصرأ مواليا للأدب: أحبه خلفاؤه، وسلاطينه، وملوكه، وأمرأؤه، ووزراؤه، وولاته، وعلباؤه، وحاول كثير من أولئك جميعاً أن يكونوا من بين رجاله، وكانت الدوافع التي حدث بهؤلاء الرجال إلى هذا الحب عديدة متنوعة:

أما خلفاء الفاطميين فكان إنشاد الشعر بين أيديهم مظهراً من مظاهر العظمة التي كانوا عليها جد حريصين، كما كانوا يتخذون الشعر وسيلة للدعاية، ونشر مبادئهم، والترويج لعقائدهم، كما وجد فيه بعض هؤلاء الخلفاء متنفساً يسرون إليه بأمانهم وآمالهم.

ولم يستطع عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود ولا سلاطين الأسرة الأيوبية أن يتركوا هذا التقليد، ففي الشعر دعاية يثبتون بها قواعد عروشهم، وهم قوم لم يرثوا الملك عن أجدادهم، ولكنهم بنوه بأيديهم، فالشعر يفرس في نفوس رعيته الجديدة حبهم، والولاء لهم، كما كان هذا الشعر يؤدي الرسالة التي يريدونها هؤلاء السلاطين من شعوبهم، فإن زنكياً، ونور الدين، وصلاح الدين، قد نصبوا أنفسهم للجهاد الفرنج، فوجدوا هذا الشعر الذي يتحدث عن الجهاد موقداً للحمية في نفوس المسلمين، باعثاً لهم على الاستماتة في استرداد بلادهم المغصوبة، وأكاد الملح أن حب الأيوبيين للشعر يعود جزء منه إلى حذرهم من أن ينظر إليهم أنهم أقل قدوقاً لهذا الفن الجليل من العرب، الذين يقومونه، ويعرفون قدره، وهم لا يريدون أن يكونوا في هذا الشأن أقل من العرب قدراً، ويدل على ذلك ما روينا من حديث القاضي الفاضل وصلاح الدين مع المهذب بن أسعد (٢)، وأكاد الملح أن الأيوبيين في أعماقهم كانوا يودون أن لو كانوا منحدرين من أصل عربي؛ وربما كان من الاستجابة لهذه الرغبة الملحة أن حاول بعضهم أن يصل نسبهم بخلفاء بني أمية (٣)، فلا غرابة إذا حرصوا على أن يحيطوا أنفسهم بما اعتاد حكام العرب أن يحيطوا أنفسهم به، من رجال هذا الفن الرفيع، وأن يعالجوه، ويأخذوا أنفسهم بمعاناته وقرضه.

(١) راجع مقدمة كتاب المطرب. وقد حققه المؤلف مع زميلين له.

(٢) راجع ص ٢١. (٣) راجع النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣ ومقدمة الفوائد الدرية.

ولعل الأسباب التي دعت سلاطين الممالك إلى تشجيع الأدب هي الأسباب نفسها التي دفعت الأيوبيين إلى هذا التشجيع ، وربما كان لنشأتهم في الرق أثرها في الإقبال على الشعراء وتشجيعهم ، ليشيدوا بآثرهم ، كي ينسى الناس ماضيهم ، ولا يذكروا غير حاضرم المجيد ، ولهذا شجع بيبرس الشعراء ، فالتفوا حوله ، وتغنوا بإصلاحاته وجهاده ، واقتدى به في ذلك قلاوون وابنه الأشرف خليل .

أما وزراء الفاطميين فهم يتشبهون بخلفائهم في التماس هذا المظهر من مظاهر الابهة والجلال ، بعد أن استولوا على السلطان الحقيقي في البلاد : وكانوا ينخدون الشعراء لناصرتهم ومهاجمة أعدائهم ، والدعاية لهم ، وقد أحاط هؤلاء الوزراء أنفسهم بطبقة من المثقفين الممتازين في الأدب ، فكان من الضروري أن يأخذ هؤلاء الوزراء أنفسهم بإتقان هذا اللون من الامتياز اللساني ، حتى يجمعوا بين ألوان التفوق ، ولا يتخلفوا عن مجالسهم ، في ناحية منه ، وأودع بعض هؤلاء الوزراء مفاخرهم فيما أنشئوه من الشعر ، كما فعل ذلك طلائع بن رزيك ؛ ولا سيما تلك القصائد التي كان يرسلها إلى أسامة بن منقذ . وتشبه وزراء الأيوبيين بسلفهم من وزراء الفاطميين ، ولا سيما القاضي الفاضل ؛ وصفي الدين بن شكر ، وكان أولها بماله من مكانة ممتازة في الدولة ، وما كان لقلبه من سلطان على معاصريه ، ملجأ عدد كبير من شعراء عصره ، وكان الثاني يتنافسه ، ويتأثر خطاه .

العناية بدراسة الأدب

كثرت العناية في هذا العصر بجمع النصوص الأدبية ، وتخير المنتقى من بينها ، يرمون بذلك حيناً إلى التهذيب الخلقى عن طريق التأثير في النفس بالأدب ، وحيناً إلى تقويم اللسان وتهذيب البيان ، بضرب المثل الصالحة الخليفة بالافتداء ، وحيناً إلى التعريف بالأدباء عن طريق آثارهم ، ويرمون إلى أغراض أخرى حيناً آخر ، ونستطيع أن نتبين اتجاهات متعددة في دراسة الأدب لذلك العصر :

ففرى بعضهم قد اتجه إلى لون من ألوان الأدب يتصل بمكارم الأخلاق ، ففضى يجمع الحكم والأمثال ، وأقوال البلغاء والمفكرين ، واضعاً النظير بجوار نظيره ، وضاماً ما يتصل بالخلق الواحد بعضه إلى جانب بعض ، وسنتحدث عن ذلك في فصل النثر ، وعن أهم الكتب التى ألفت في هذا الغرض .

ورأى بعضهم أن يتجه إلى التراث القديم ، يختار منه نماذج رفيعة لصقل اللسان والقلم ، ووقفت طائفة من هؤلاء عند الشعر بعامة تختار منه ، كما فعل عيسى بن العزيز اللخمي في كتابه : الأزهار في المختار من الأشعار (١) ، وشيم الحلبي في أرى المشتار في القريض المختار (٢) ، وابن القطاع في فرائد الشذور وقلائد النحور في الأشعار (٣) . وقد بقي لنا من كتب هذا الاتجاه كتاب مؤنس الوحدة لابن الأثير (٤) ، وكتاب الحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج البصري (٥) .

أما كتاب مؤنس الوحدة فأكثره مختارات من الشعر ، معظمها في الهجاء ، ويظهر أن صاحبه كان يريد أن يجعله مكوناً من عدة أبواب ، ثم وقف عند باب الهجاء . وفي الكتاب أحاديث نثرية قليلة في هذا الباب أيضاً .

وكتاب حماسة البصريين مقسم اثني عشر قسماً : الأول في الحماسة والشدة ، والثاني

(١) بغية الوعاة ص ٣٦٨ . (٢) معجم الأدباء ١٣ : ٧٠ .
(٣) المرجع السابق : ١٢ : ٢٨١ . (٤) مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧٠ أدب .
(٥) مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٠ - أدب .

في المديح والتعريض، والثالث في الرثاء، والرابع في الأدب، والخامس في النسيب، والسادس في الأضياف، والسابع في الهجاء، والثامن في مزمة النساء، والتاسع في الصفات، والعاشر في السير، والحادي عشر في الأكاذيب والخرافات، والثاني عشر في الزهد.

وقد اقتدى جامعو شعر التراث القديم في ذلك العصر بمن سبقهم من الجامعين، منذ القرن الثاني الهجري، وقد كان هناك اتجاهان في الاختيار: أحدهما لا يعنى بتبويب معاني ما يختاره من الشعر، كالمفضل الضبي في مفضلياته، والثاني تبويب معاني الاختيار، كما فعل أبو تمام في حماسيته: الكبرى والصغرى. وقد اقتدى به البحرى في حماسته. أرادوا بهذا الجمع ضرب المثل وإقامة النماذج، وقد اقتنى صاحب الحماسة البصرية، أثر حماسة أبي تمام في عقد أبواب واسعة، يتدرج تحتها كثير من المعاني، فباب الأدب مثلا يتدرج تحته كثير من ألوان الخلق النبيل: كالحلم والكرم والصبر وغيرها، فيورد الجامعان في هذا الباب ما بروق لها من الشعر الذي يمجّد خلقا أو فضيلة، من غير أن يجزئنا الباب الواحد فصولا كما فعل البحرى، واقتدى صاحب الحماسة البصرية بحماسة أبي تمام كذلك، في وقوفه عند حد اختيار الجزل القوى البليغ، من غير أن يتعمق في اختيار الشعر الغريب الالفاظ، ولعل لاختيارها لأحد أمراء الأسرة الأيوبية دخلا في اختيارها جزلة واضحة معا، فهو ينأى بأمره الذي اختار له هذه النصوص عن الإسفاف، ولا يكلفه دراسة جموع حاشدة من الغريب، في عصر بعدت الصلة بينه وبين هذا الغريب، لا كما كان الحال في عصر المفضل الضبي.

ولست أدري إن كان جامعو المختارات قد نهجوا جميعا منهج صاحب الحماسة، أو أن بعضهم نهج منهج صاحب المفضليات، لأن أغلب المختارات لم يصل إلينا، وإن كنت أرجح أن المنهج المتبع يومئذ هو منهج صاحب الحماسة الذي يبوب المختارات تبعا لمعانيها، فإن عصر اختيار القصيدة لمفرداتها اللغوية قد انقضى بانقضاء المختارين الأولين. وما بقى لدينا يؤيد هذا الذي نرجحه.

ورأى البعض أن يختار ما رآه رائعا من دواوين السابقين، ليكون له ذخيرة أدبية صالحة يستقى منها المعاني والأفكار، فرأينا ابن الأثير كان معجبا بأبي تمام والبحرّى والمتنبي،

لاذ يرى شعرهم خلاصة الشعر العربي ونموذجه الرفيع يضع كتابا فيه مختار من شعرهم وشعر
ديك الجن^(١) . ورأينا ابن منجب الصيرفي يختار من ديوان أبي العلاء المعري^(٢) ، ولست
أدرى أى ديوان أختار منه ، ولعله سقط الزند ، كما اختار من ديوان ابن السراج^(٣) ،
واختصر أبو شامة المقدسي جملة من الدواوين^(٤) . وقد اقتدى هؤلاء بمن سبقهم بمن اختاروا
من دواوين الشعراء كالشريف الرضى الذى اختار جملة من شعر ابن الحجاج وسماه (الحسن
من شعر الحسين) .

وعنى بعضهم بجمع ما تفرق من شعر الشاعر فى ديوان ، كما فعل الوزير القفطى الذى
جمع ديوان أيدمر المحيوى^(٥) ، وكما فعل البديع هبة الله بن الحسن الأسطرلابى الشاعر
المتوفى سنة ٥٣٤ هـ ، فقد جمع شعر ابن الحجاج ودونه ورتبه على القوافى^(٦) ، وقد اقتدى
القفطى والبديع فيما قاما به ، بما كان سافهم يفعله ، من جمع دواوين شعر من لم يجمع ديوانه
من الشعراء .

ومضت طائفة إلى ما قيل من الشعر فى مدح شخص بعينه أو أسرة بعينها ، فجمعت ، تخليداً
للمفاخر ، وتسجيلاً للآثر ، كما وضع مجد الملك بن شمس الخلافة سيرة الجعفر بن حسان
الإسبائى ، جمع فيها مدائحه ، وأسماء من مدحه ، من شعراء بلده وغيرهم ، فى مجلد ضخم ،
صدره بقصيدة يمدحه فيها ، ومنها :

نفوح رياح المسك من نفحاتها كأن سراج الدين أهدى لها عرفا
أبو الفضل من أضحى له الفضل شيمة كأنهما خلان قد عقدا حلفا
عظيم إذا استنجدته للملة كفاك ، وكان القلب والسيف والكفا

وسمى مجد الدين كتابه بالأراج الشائق إلى كرم الخلائق^(٧)
وصنف الجليس بن الحباب مجموعا فى مدائح شعراء ابن رزيك^(٨) ، وكان ابن رزيك
وزيراً ومدحاً ، شاعراً يتذوق الشعر . ويقرب قائله ويشبههم ، وله ديوان شعر .

- | | |
|-----------------------------|------------------------------------|
| (١) وفيات الأعيان ٢ : ١٥٩ . | (٢) معجم الأدباء ١٠ : ٨٠ . |
| (٣) ذيل الروضتين ص ٤٠ . | (٤) كشف الظنون ٢ : ٧٧٨ . |
| (٥) المرجع السابق نهر ٧٣٩ . | (٦) جريدة القصر المطبوعة ١ : ٢٤٢ . |
| (٧) الطالع السعيد ص ٩٢ . | |

وجمع على بن صادق الخزر جى ما مدح به محمد بن إبراهيم بن رفاعه العالم الحاكم بقوص ، فى كتاب رتب قصائده على حروف المعجم ، ووضع له مقدمة مدحه فيها ، والمقدمة بكتاب الطالع السعيد تمزج بين الشعر والنثر (١) .

وكتب السديد بن عرام سيرة لبنى الكنز ، ذكر فيها مناقبهم وأحوالهم ، وجمع فيها أسماء من مدحهم من أهل بلدهم : أسوان ، ومن ورد عليهم ، وسجل فيها هذه المدائح (٢) ، ولا أعلم أحدا سبق هؤلاء إلى جمع مثل ما جمعه من هذا اللون ، ولو أن هذه الطريقة قد اتبعت عند ترجمة أبطال التاريخ لأفاد من ذلك الأدب والتاريخ معا .

ووقف بعض الجامعين عند حدود ما قيل من الشعر ، وكان ذا صبغة خاصة ، وأظهر ما بقى لنا من هذا اللون كتاب بدائع البدائى ، الذى جمع فيه « أخبار الشعراء فى البدائى والارتجال ، ومحاسن أشعارهم فى مضائق الإسراع والإيجال » (٣) ، وجمع من ذلك قدراً صالحاً ، قال : إنه لم يسبق إلى مثله .

ذلك بعض ما قام به الأدباء يومئذ من جهود فى جمع الشعر قديمه وحديثه ، ويضاف إليه جهد الشعراء فى جمع دواوينهم ، وقد عرفت مئات من دواوين الشعراء التى جمعت فى ذلك العصر ، وبقى لنا من هذه المئات عشرات حقق القليل منها ، ولا يزال أكثرها فى انتظار من يحققه ويخرجه .

أما المجموعات النثرية فأهمها هذه التى ضمت رسائل كتاب هذا العصر . وقد بقى القليل منها ، وتبدد أكثر هذه المجموعات ، وانتثر الكثير من هذه الرسائل ، وتفرق فى كتب الأدب والتاريخ .

ومضى بعض رجال هذا العصر يجمع مختارات من الشعر والنثر معا ، تضم إلى الحكمة والمثل بيت الشعر والمقطوعة والقصة والنادرة ، كما فعل القاضى السعيد فى كتاب مصائد الشوارد ، الذى قال فيه ابن الساعاتى :

(٢) المرجع السابق ص ١٣ .

(١) الطالع السعيد ص ٢٦٥ .

(٣) بدائع البدائى ص ٣ .

تأملت تصنيف هذا السيد ، وإنى لأمثاله ناقد
فكم ضم بين نهى سائرا وصيد به مثل شاردا^(١)

وكما فعل ابن العديم وابن مكرم في تذكرتهما^(٢) ، ونجم الدين الحرافى فى كتاب جامع
الفنون وسلوة المحزون^(٣) ، الذى يجمع فيه بين الهزل والجد ، وشميم الحلى فى كتابه : بدائه
الفكر فى بدائع النظم والنثر^(٤) . وجمع ابن ضياء الدين بن الاثير للملك الاشرف بن العادل
جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه فى كتاب^(٥) ، وألف محمد بن مكرم كتابا ، جمع فيه ما قيل
من الشعر والأقوال فى الليل والنهار^(٦) ، وجمع ابن سناء الملك الرسائل التى أرسلها القاضى
الفاضل مدحا له وثناء عليه أو على شعره — إليه أو إلى أبيه ، وأورد الشعر الذى أشارت
إليه هذه الرسائل ، جمع ذلك فى كتاب سماه فصوص الفصول وعقود العقول^(٧) . وكتب
أسامة بن منقذ كتاب العصا ، أورد فيه الأخبار والأشعار التى يأتى فيها ذكر العصا^(٨) ،
وكتابا فى الشيب والشباب^(٩) ؛ كتبه لأبيه ، وأورد فيه ما قيل فى الشيب . أما التيفاشى
فقد وضع كتاب نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب ، وضمنه أوصاف الغلمان المرد ،
وأحوال من شغف بهم وما ورد فيهم^(١٠) ، وقد يكون من هذا الباب ما جمعه عبد المحسن بن
حمود من كتاب فى الأخبار والنوادر^(١١) .

وكما عنى بجمع الشعر والنثر فى ذلك العصر ، لتحقيق الأغراض السالفة ، عنى عناية
كبيرة كذلك بدراسة ما ورثوه من أدب ، وكان أهم كتاب ظفر بالشرح والدراسة فى ذلك
العصر كتاب مقامات الحريرى ؛ فقد عرفت لها أكثر من عشرة شروح ،بقى لنا واحد منها

-
- (١) ديوان ابن الساعاتى ١ : ١١٥ .
 - (٢) تذكرة ابن العديم مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٠٤٢ — أدب وراجع صبح الأمتى ١٣ : ٣١٢ ، ٣٣٩ .
 - (٣) مخطوط بدار الكتب رقم ٨٣٢٧ — أدب . (٤) معجم الأدباء ١٣ : ٧١ .
 - (٥) وفيات الأعيان ٢ : ١٦١ .
 - (٦) راجع فى وصفه كتاب الحياة العقلية ص ٢٣٠ .
 - (٧) مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ — أدب .
 - (٨) مطبوع ضمن نوادر المخطوطات ٢ : ١٧٦ .
 - (٩) معجم الأدباء ٥ : ٢٠٨ .
 - (١٠) مخطوط بمكتبة الأزهر رقم ٤٢٣ — أباطة (٧٠١٩ — أدب) .
 - (١١) فوات الوفيات ٢ : ١٠ .

لسلامة بن عبد الباقي ، المتوفى سنة ٥٩٠ هـ^(١) ، وهو شرح لغوى يشرح مفردات الحريري ، وقد يتطرق إلى مشتقات الكلمة ومعانيها المختلفة ، وقد يورد شواهد من الشعر على معاني الكلمة التي يشرحها ، وقد يستطرد إلى ذكر معان نحوية أو صرفية ، أو إلى ذكر مرادفات الكلمة وأضدادها .

كما كان للخطب النباتية حظ من العناية والشرح كذلك . ومن أعيان شارحيها يومئذ تاج الدين الكندي^(٢) ، وعبد اللطيف البغدادي^(٣) .

وليس بعجيب أن تظفر المقامات والخطب النباتية بهذا اللون من العناية ، فقد كانتا المثل الأعلى لكتاب ذلك العصر وخطبائه ، وكانتا عكاز أهل ذلك الزمان ، كما أخبر ابن الأثير^(٤) ، ولم تقف العناية بهما عند حد الشرح ، بل قاموا بالدفاع عن الحريري وابن نباتة ، فهذا ابن برى يرد على ما استدركه ابن الخشاب على مقامات الحريري ، في كتاب سماه : اللباب في الرد على ابن الخشاب الذي بين فيه غلط الحريري في المقامات ، وقد انتصر ابن برى للحريري^(٥) . وهذا أحمد بن إدريس القرافي يجيب عن الأسئلة الواردة على خطب ابن نباتة^(٦) .

وكان لديوان المتنبي كذلك القدر المعلى من العناية بدراسة الدارسين يومئذ ، ووضع الشروح والحواشي والآمال عليه . وقد استرعت العناية بالمتنبي أنظار ابن الأثير عند ما قدم إلى مصر سنة ٥٩٦ هـ ، قال : رأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو النواس الحسن بن هانيء ، فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إنني فاوضت عبد الرحيم البيساني في هذا ، فقال : إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ، ولقد صدق فيما قال^(٧) . وكان المتنبي ينظر إليه في ذلك العصر على أنه شاعر

(١) مخطوط بدار الكتب رقم ٧٤٣٧ - أدب .

(٢) بغية الوعاة ص ٢٤٩ . (٣) هيون الأنباء ٢ : ٢١١ .

(٤) الوشى المرقوم ص ٦ . (٥) وفيات الأعيان ١ : ٢٦٩ .

(٦) الديباج المذهب ص ٤٧ . (٧) الوشى المرقوم ص ١٠ .

عبقري^(١) . وكان للنتني أثره في شعراء ذلك العصر ، ولعل للحروب الصليبية أثرها في ذلك ، فكثير من شعره قيل في الصدام بين المسلمين والروم .

وظفرت بعض القصائد المشهورة بشرح لبعض علماء هذا العصر ، ومن أهم تلك القصائد مقصورة ابن دريد ، وقصيدة (بانت سعاد) ، ولامية العرب ، وقصيدة ابن عبدون التاريخية التي أولها : الدهر يفتح بعد العين بالآثر ، ومضى شهاب الدين المقدسي إلى قصائد في مدح الرسول شرحها وسمى شرحه : المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية^(٢) . وهي القصيدة اللامية المشهورة بالشقراطية في سير وأخبار النبي لأبي محمد عبد الله الشقراطي . وأول القصيدة :

الحمد لله منا باعث الرسل هدى بأحمد منا أحمد السبل

وشرح هذه القصيدة هو الذي بدار الكتب . أما باقي القصائد المشروحة والتي ليست بدار الكتب ، فسيبغ قصائد لأبي الحسن السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وهي : ذات الأصول في مدح الرسول ، وذات الدرر في معجزات سيد البشر ، وذات القبول في مفاخر الرسول ، ومفرجة الغم في مدح سيد الأئم ، ووداع الزائر للنبي الطاهر ، وشكوى الاشتياق إلى النبي الطاهر الأخلاق .

ومضت طائفة من العلماء تجمع أخبار الشعراء والكتاب ، وإن كان الشعراء في ذلك أوفر حظاً ، وترصد ما يتنمى لها جمعه من آثارها ، أو ما يروق لها من تلك الآثار ، وقد اقتدوا في ذلك بمن سبقهم من العلماء الذين جمعوا أخبار الأدباء ووضعوا طبقاتهم ، وقد اتجهت جهود علماء هذا العصر وجهات متنوعة : فمنهم من مضى إلى قطر بعينه يختار من شعره ، ويجمع أخبار شعرائه ، كما فعل ابن القطاع الصقلي في كتابه : الجوهرة الخطيرة في شعراء الجزيرة ، التي اشتملت على مائة وسبعين شاعراً ، وعشرين ألف بيت من شعر شعراء جزيرة صقلية^(٣) ، وهو خليق بأن يصور ولا ريب الحياة الأدبية لهذه الجزيرة ،

(١) Un poète arabe du IVe Siècle de l'Hegire P. 287.

(٢) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤٧ - أدب .

(٣) معجم الأدباء ١٢ : ٢٨١ وسمماها صاحب شذرات الذهب ٤ : ٤٥ الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة وصاحب الوفيات ١ : ٣٣٩ الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة ، وصاحب كشف الظنون ٢ : ٧٣٩ الدرة الخطيرة المختارة من شعر أهل الجزيرة .

تحت الحكم العربي ، وكتاب لمع الملح ، الذي جمع فيه خلقا كثيرا من شعراء الأندلس (١) ، وكما فعل أبو الخطاب عمر بن دحية في كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب (٢) وقد جمع فيه طائفة من أشعار الأندلسيين وأهل شمال أفريقية ، وقدمه إلى الملك الكامل بن العادل ، وعنى بأن تكون مختاراته سهلة دانية القطف قريبة المعاني ، جرى فيها صاحبها على طريقة أهل الحديث ، الذين يسلسلون الرواية حتى يصلوا بها إلى صاحب النص ، وكما فعل عمارة النيني في كتابه : المجموع في ذكر شعراء اليمن ، ممن روى له عنه ورواه (٣) ، وقد اتخذ العباد مرجعا من مراجعه في كتابه : خريدة القصر ، في قسم شعراء اليمن ، وبما نقله العباد عنه يبدو أن عمارة كان يتجاوز الحكم على أدب الشاعر إلى الحديث عن الشاعر نفسه ، من حيث خلقه ودينه (٤) ، فيصور الشاعر من نواحيه المختلفة ، بما يسمح بتفهم الشاعر ودراسته ، وكما فعل الرشيد بن الزبير في كتابه : جنان الجنان وروضة الأذهان ، فقد اشتمل على شعر شعراء مصر ومن طرأ عليهم ، ويظهر أنه كان كتابا ضخما في أربع مجلدات (٥) ، وقد فقد هذا الكتاب فيما فقد ، ولم يبق منه إلا ما نقله المؤرخون عنه ، وقد كان هذا الكتاب من بين المصادر التي أخذ عنها العباد في كتابه : الخريدة ، في القسم المصري (٦) ، وصاحب الطائع السعيد (٧) ، ولست أدري إن كان الرشيد عند ما ترجم لشعرائه قد التزم السجع ، فقد نقل عنه صاحب كتاب (المحمدون من الشعراء وأشعارهم) حكما على شاعر قال فيه : « كان عالي المحل في النحو واللغة وسائر فنون الأدب ، منحطا في الشعر إلى أدنى الرتب (٨) ، وهي جملة مسجوعة لست أدري إن كان قد سار في كتابه على نسقها ، ملتزما بالسجع ، أو أن السجع جاء عرضا ، وإن كنت أرجح التزامه للسجع . وكما جمع ابن بشرون عثمان ابن عبد الرحيم كتابا ، ذكر فيه عدة من الشعراء والكتاب المصريين المعاصرين للثولف (٩) ، ودعاه : المختار في النظم والنثر ، لأفاضل أهل العصر ، وكان هذا الكتاب كذلك ،

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٣٩ .

(٢) نقره صاحب هذه الرسالة مع زميلين

(٣) النسكت المصرية ص ٥٦٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٠١ و ٦٤٢ و ٦٤٣ .

(٥) معجم الأدباء : ٥٥ .

(٦) راجع ترجمة المذهب بن الزبير .

(٧) راجع الطالع السعيد ص ١٤٥ .

(٨) المحمدون من الشعراء ص ٥٩ .

(٩) خريدة القصر ٢ : ٤١ .

وهو مفقود الآن ، من مصادر العباد في القسم المصرى من كتابه : الخريدة . بينما ذهب آخرون إلى جمع طائفة من الشعراء ، يجمعهم مذهب خاص ، كما فعل يحيى بن حميدة حين جمع شعراء الشيعة في معجم^(١) ، أو يجمعهم اسم خاص ، كما في كتابى على بن يوسف القفطى ، أحدهما أشعار اليزيديين^(٢) ، جمع فيه شعر من اسمه يزيد ، وثانيهما المحمدون من الشعراء وأشعارهم^(٣) . ترجم فيه لمن اسمه محمد ، ورتبهم على حسب حروف أسماء آبائهم الأبجدية ، ومنهجه أن يذكر الشاعر ، فيعرف به تعريفا يسيرا ، ويورد بعض شعره ، مقلّا حيناً ، ومكثراً نوعاً حيناً آخر ، ملتزماً دائماً جادة الإيجاز ، لا يعنيه قطر معين من أقطار البلاد العربية ، ولا زمن معين ، وقيمة هذا الكتاب أنه يورد لكثير من مقلّى الشعراء غير النابهين ، ويتخير الوزير القفطى الشعر لمن يترجم لهم ، وكان القفطى من كبار المثقفين في عصره ، ومن واسعى الاطلاع ، ومن أجل هذا كان كتابه ذا قيمة كبيرة ، لأنه نقل عن كتب قد فقدت .

ورأى ياقوت الحموى ألا يقف عند قطر بعينه ، أو عند عصر مخصوص ، فترجم للشعراء في كتاب^(٤) ، كما بقى لنا معجم أدبائه ، الذى يعد من أهم المراجع الأدبية التاريخية إلى عصرنا هذا ، رتب فيه من ترجم له على حسب الحروف الأبجدية ، ومضى يسوق جملاً صالحة من أخباره وآثاره في التأليف ، ويورد نماذج من شعره ونثره ، وهو بما يورده من ذلك كله ، يلقي ضوءاً على الشخصية التى يتحدث عنها ، نستطيع أن نستغلّه في تفهمها ، وإدراك الجو الذى تنفس فيه أدب صاحبها وإنتاجه .

ووقف بعضهم عند شخصية واحدة ، يجمع ما استطاع من أخبارها ، ويروى ما شاء من أشعارها ، صنع ذلك عثمان البلطى ، وياقوت الحموى ، في كتابيهما : أخبار المتنبي^(٥) ، ولم أعثر على الكتابين ، وكذلك فعل ابن منظور في كتابه عن أبى نواس^(٦) ، ويظهر أن الذى دفعه

(١) الفاطميون في مصر ص ٢٩٩ .

(٢) الطالع السعيد ص ٢٣٨ . (٣) مخطوط بدار الكتب رقم ٤٧٢٢ — أدب .

(٤) معجم الأدباء ١ : ٢٢٢ وكشف الظنون ٢ : ١٧٣٢ .

(٥) فوات الوفيات ٢ : ٣١ ووفيات الأعيان ٢ : ٢١٠ .

(٦) مخطوط بمكتبة الأزهر ٤١٩ — أباطة (٧٠١٥ — أدب) .

إلى تأليف هذا الكتاب هو إغفال الأصفهاني له في كتاب الأغاني ، بدأ المؤلف كتابه بذكر اسمه ، وبشيء عن أبيه وأمه وجده ، يروى في ذلك الروايات المختلفة ، ثم عرض لصفاته الخلقية ، وشيء من نشأته ، واتصاله بأستاذه : والبة بن الحباب ، وما مهر فيه من ألوان العلوم ، ومضى بعدئذ يروى أخبار أبي نواس ، لا يبالي في سبيل جمعه أن يكون أدبه مكشوفاً ، وينقل آراء الناس في علمه ، وخلقه ، وشعره ، ويروى عيون شعره في مختلف أغراضه ، ويذكر الظروف التي قيل فيها هذا الشعر ، وأكثر من حديث عشق أبي نواس ، وختم ترجمته بالحديث عن وفاته . وهو ينهج نهج صاحب الأغاني في رواية الأخبار ، ولكنه لا يذكر أسانيداً كما يفعل الأصفهاني ، وليس ذلك بغريب على رجل اختصر الأغاني ، وحذف منه هذه الأسانيد الطويلة ، وكأن ابن مكرم بذلك يريد أن يكمل كتاب الأغاني .

وتابعوا في هذا العصر جهود سابقهم ، فقد بدأ هرون بن علي المنجم المتوفى سنة ثمان وثمانين ومائتين ، فصنف كتابه : البارع في أخبار الشعراء المولدين ، جمع فيه مائة وواحد وستين شاعراً ، افتتحهم بذكر بشار بن برد ، واختصر في هذا الكتاب أشعارهم ، وأثبت منها زيلتها ، وترك أهونها شأناً^(١) ، ثم جاء الثعالبي المتوفى سنة ٥٤٢٩ هـ ، فوضع كتابه : يتيمة الدهر ، وجعله ذيلاً لكتاب البارع ، وجمع فيه شعراء عصره ، ومن تقدمهم قليلاً ، وقسم الكتاب أربعة أقسام ، فقسم لشعراء الشام والموصل والمغرب ، وثان لأشعار أهل العراق والدولة الديلمية ، وثالث لأشعار أهل فارس وما جاورها ، ورابع لأشعار أهل خراسان^(٢) ، ومن بعد الثعالبي وضع علي بن الحسن الباخري ، المتوفى سنة ٥٤٦٧ هـ ، كتاب دمية القصر وعصرة أهل العصر ، ذيل به يتيمة الدهر ، وجمع فيه خلقاً كثيراً ، ووضع البيهقي على هذا الكتاب كتاباً ، سماه : وشاح الدمية ، جعله كالذيل لهذا الكتاب^(٣) ، ثم جاء أبو المعالي سعد بن علي الوراق الخطيري ، المتوفى ببغداد سنة ٥٦٨ هـ ، فوضع ذيلاً على دمية القصر ، سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر ، ذكر فيه

(٢) يتيمة الدهر - ٧ : ١ .

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٩٤ .

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٦٠ .

جماعة كثيرة من أهل عصره ، ومن تقدمهم ، وأورد لكل واحد طرفا من أحواله ، وشيئا من شعره ، وذكر ألطاف شعر عصره ^(١) ، وصنف العباد الكاتب أحد أعلام عصر الحروب الصليبية ، والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، ذيلا على كتاب زينة الدهر ، ذكر فيه الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة ، إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسة ، وجمع شعراء العراق ، والعجم ، والشام ، والجزيرة ، ومصر ، والمغرب ، ولم يترك أحدا إلا النادر ، ولا يزال هذا الكتاب مرجعا قيما إلى عصرنا هذا ، ووضع العباد كذلك على كتابه : خريدة القصر ذيلا ، سماه : السيل على الذيل ، رآه ابن خلكان ^(٢) ، ولم يحىء بعد العباد في عصر الحروب الصليبية من قام بتذييل كتابه . وكتاب خريدة القصر للعبد العظيم القيمة ، فقد نقل من دواوين مفقودة ، ومن كتب لم يبق لنا منها سوى أسمائها ، وإن كان اختياره بعض أبيات النص دون بعض ، لا يعطى فكرة سليمة عن فن الشاعر .

والواقع أن كتاب يتيمة الدهر قد فتن كثيرا من الناس في هذا العصر فتن العباد الكاتب كما رأينا ، وفتن أسامة بن منقذ ، فوضع له ذيلا ، ولست أدري النهج الذي سار عليه أسامة أخص اختياره بشعراء مصر والشام ، أو جرى على نهج صاحب اليتيمة ؟ كما رمى صاحب كتاب جنان الجنان ، أن يجعل مؤلفه ذيلا ليتيمة الدهر ، وخصه بشعراء مصر .

وكما تابعوا جهود سابقهم في الترجمة للشعراء المعاصرين ، وتخبر ما يروقه من شعرهم ، اقتدوا بهم في ترتيب الشعراء طبقات ، فوضع الملك المنصور محمد بن المظفر عمر كتاب طبقات الشعراء ، في عشرة مجلدات ^(٣) ؛ ووضع ابن القطاع كتاب : الملح العصرية في طبقات الشعراء ^(٤) ، والكتابان مفقودان ، وقد يكون تقسيمهما الشعراء إلى طبقات قد تبعاً فيه منهج ابن سلام في كتابه : طبقات الشعراء ، إذ قسم الشعراء على حسب جودة شعرهم وغزارته ، وقد يكون في عنوان (الملح العصرية) لابن القطاع ما يوحي بأنه يضع طبقات لشعراء عصره .

(٢) وفیات الأعيان ٢ : ٧٥

(٤) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٢

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣

(٣) معجم الأدباء ٥ : ٢٠٨

(٥) كشف الظنون ٢ : ١١٠٣

أما نقد الأدب في ذلك العصر ، فقد تحدثنا في فصل مطول عقدناه للبلاغة والنقد الأدبي في كتاب الحياة العقلية ، عن اتجاهات دراسة البلاغة ، وعن جهود علمائها في تلك السيل ، وعلوم البلاغة كانت كما هي اليوم إحدى دعائم النقد ، وكبريات أسسه ، وأريد أن أبرز هنا أن كتباً في النقد قد اتجه بها مؤلفوها يومئذ إلى نقد معاصريهم ، كما فعل علي بن إسماعيل بن جبارة المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٢ هـ ، فقد وضع كتاباً سماه : نظم الدرر في نقد الشعر ، قصره على مؤاخذات ابن سناء الملك ، قال صاحب كشف الظنون (١) : وأجاد في بعضها ، وتعنت تعنتاً زائداً في بعضها ، وكما فعل من قبله الأسعد بن عمار ، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، في كتابه : قرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج (٢) ، فقد كان علم الدين بن الحجاج شريك ابن عمار في ديوان الجيش ، وكان بينهما نبوة ، فألف فيه هذا الكتاب وهجاه (٣) ، وأغلب الظن — مادام ذلك هو الهدف — أن ابن عمار كان متحاملاً في هذا الكتاب على شريكه . ومن هذا الاتجاه الذى ينحو إلى نقد المعاصرين ، تلك الرسالة التى كتبها القاسم بن القاسم الواسطى فيما أخذ على ابن النابلسى الشاعر ، في قصيدة نظمها في الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ويظهر مما حفظ لنا من هذه الرسالة (٤) ، أنه كان يقصد بها إلى الطعن أكثر مما يقصد إلى إظهار وجه الحق ، وأنها نعى على حظ كاتها ، وغضب من أن ينال هذا الشاعر أكثر مما يستحقه من الجاه والثراء ، تلس هذا الغضب في قوله : وبعد فإنه لما أخرت الفضائل عن الرذائل ، وقدمت الأواخر على الأوائل ، ونبذ عهد القدماء ، وجهل قدر العلماء ، وصار عطاء الأموال باعتبار الأحوال ، لا باختيار الأقوال ، وظهر عظيم الإجلال ، بالاسماء لا بالأفعال ، علمت أن الأقدار هى التى تعطى وتمنع ، وتخفيض وترفع ، فأخلت عند ذلك من ذكرى وقدرى ، وأخفيت من نظمى ونثرى ، ولامر ما جدد قصير أنفه ، ومن شعر فقه .

وما إلى العلماء ذنب علمته ولا أنا عن كسب المحامد باعد

وقلت : اصبر على كيد الزمان وكده ، فعسى الله أن يأتى بالفتح ، أو أمر من عنده ...

(٢) معجم الأدباء ٦ : ١١٧ .

(٤) معجم الأدباء ١٦ : ٢٩٧ .

(١) ٢ : ١٩٦١ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٨ .

(الحياة الادبية في الحروب الصليبية ٤)

أما أن رغبته في الهدم كانت أظهر من رغبته في الإنصاف فيظهر من قوله : فلو كان النابلسي كابن هانيء الأندلسي ، زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، فيا لله العجب متى أشرفت الظلمة على الضياء ، أو علت الأرض على السماء ، وأين السها من القمر ، وكيف يضاهي القمر ، بالغمر ، فإننا لله ، وأفوض أمرى إلى الله وما ذلك التيه والصلف ، والتجاوز للحد والسرف ... ولا والله ليس الأمر كما زعم ، ولا الشعر كما نظم ... وقصدت قصيدا من شعره ، يزعم أنها من قلائد دره ، قد هذبها في عدة سنين ، ومدح بها أمير المؤمنين ...

فكان لعمري ناظما ، غير أنه كحاطب ليل فاته منه طائل
فواعجبا لكم يدعى الفضل ناقص ووا أسفا لكم يظهر النقص فاضل

وتبعت ما فيها من غلطاته ، وأظهرت ما خفي فيها من سقطاته ، وليست له جلد النمر ، واندفعت عليه كالسيل المنهمر ... وبدأ بعدئذ في الحديث عن أخطائه فقال : فوجدته قد اخطأ منها في واحد وعشرين مكانا ، عدم فيها تمكنا من العلم وإمكانا ، فمنها ستة عشر موضعا توضحها الكتابة والنظر ، ومنها خمسة توضحها المجادلة والنظر ... وخطؤه في هذه القصيدة ينقسم قسمين : قسم فاته فيه أدب الدرس ، فيقسم أيضا قسمين : قسم لفظي ، وقسم معنوي ، فأما القسم اللفظي فإنه ينقسم أيضا قسمين : قسم لغوي ، وقسم صناعي ، فأما القسم اللغوي فإنه (١) ... وإلى هنا ينتهي ما ورد من هذه الرسالة ، وكنا نرجو أن لو وردت بتمامها ، لنرى نموذجا من نماذج النقد التفصيلي الجزئي ، في تلك العصور .

وحينما يتجه النقد إلى الآثار القديمة ، كما فعل مذهب الدين الخيمي في كتاب ، رد به على المعري في مواضع سها فيها (٢) ، والكامل بن العديم في كتابه : رفع الظلم والتجريح ، عن أبي العلاء المعري (٣) .

واتجه بعضهم إلى النقد بعامة ، يؤلف في أصوله ، كما وضع الأسعد بن عمار كتابا في علم

(٢) بغية الوعاة ص ٧٩ .

(١) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

(٣) فوات الوفيات ٢ : ١٠١ .

النثر، وآخر في النقد، دعاه : ميسور النقد ^(١) ، وكتب في نقد الشعر ^(٢) أبو عبد الله محمد ابن يوسف الكقرطاني ، المتوفى سنة ٥٠٣ هـ ، وشرح عبد اللطيف البغدادي كتاب نقد الشعر لقدامة ، وسمى مؤلفه : كشف الظلامه عن قدامة ^(٣) ، مما يدل على أن حركة دارت حول أفكار هذا الكتاب ، فانتصر لها بعض الدارسين ، ولم يرض بها آخرون .

ويدل على هذه الحركة التي أثارها ذلك الكتاب ، أن عبد العظيم بن أبي الإصبع ، أحد بلاغي هذا العصر ، وضع كتابا ، سماه : الميزان بين كلام قدامة وكلام خصومه ^(٤) .

ورأى بعض علماء ذلك العصر أن يذلل صعاب ما انتهى إليهم من كتب الأقدمين ، فعمد إليها ، فاختصرها وكان لكتاب الأغاني الحظ الأوفى من ذلك ، فقام باختصاره جماعة في هذا العصر ، وبقي لنا مختصران لهذا الكتاب أحدهما تجريد الأغاني من ذكر المثلث والمثنائي ، لابن واصل الحموي ^(٥) والآخر مختار الأغاني في الأخبار والتأني ، لجمال الدين بن مكرم ^(٦) ، وفي المقدمة التي قدم بها ابن واصل لكتابه تجريد الأغاني يبدو منهجه الذي انتهجه في اختصار الأغاني ، فقد رأى أن صاحبه ، قد شأنه بذكر الأصوات وما احتوت عليه من أنواع النغم والإيقاعات ، بما لا فائدة في ذكره إذ كان المباشرون لهذه الصناعة في زمننا هذا إنما يعرفونها عملا لا علما ، وغيرهم فلا ينتفعون بشيء مما ذكر ، ولا يحيطون به فهما ، فخرج أمره المطاع بأن تجرد من ذلك كله ، ومن الأسانيد والتكرارات ، وما لا فائدة في ذكره : من الأخبار والأشعار المشتركة ، ويقتصر على غرر فوائده ، ودرر فرائده ، فبادر المملوك إلى امتثال مرسومه العالي وأضاف إليه فوائد أخرى ، تتعلق به ، وشرح بعض المستغلق من ألفاظه ^(٧) . ذلك منهج ابن واصل في اختصاره لكتاب الأغاني ، وعليه جرى ابن مكرم في كتابه .

وكان لكتاب الذخيرة في شعراء الجزيرة يريد شعراء الأندلس لابن بسام نصيب من

-
- (١) معجم الأدباء ١١٧:٦ و ١١٨ .
 (٢) كشف الظنون ١٩٧٣:٢ .
 (٣) عيون الأنباء ٢١١:٢ .
 (٤) الحياة العقلية ص ٢٥٠ .
 (٥) مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧ - أدب . (٦) مصور بدار الكتب رقم ٤٦٤٦ - أدب .
 (٧) تجريد الأغاني ٢:١ .

ذلك أيضا، اختصره ابن مكرم^(١)، وعلى بن ظافر، وسمى كتابه؛ نفائس الذخيرة^(٢)، والاسعد بن بمانى ودعا مختصره لطائف الذخيرة^(٣). ومن الكتب التى اختصرت فى ذلك العصر كتاب العقد الفريد، لابن عبد ربه، وزهر الآداب، للحصرى، وقيمة الدهر للثعالبي وكتابا نشوا المحاضرة، وصفوة الصفوة، قام باختصار هذه الكتب جميعها محمد بن مكرم صاحب لسان العرب^(٤)، واختصر شهاب الدين الخويزى كتاب مجمع الامثال^(٥) للبيداني، وابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ^(٦)، ودعا مختصره: روح الحيوان، وقد شجعه القاضى الفاضل على هذا الاختصار، وكان يرى فيه تقريبا للأدب لراغبه^(٧)، واختصر عبد اللطيف البغدادي كتاب العمدة لابن رشيقي^(٨)، واتجاه العلماء إلى اختصار هذه الآثار اعتراف منهم بقيمتها الأدبية، وبأنه قد اعترض تأليفها ما يحول دون الانتفاع الكامل بها ولتذليل الاستفادة أيضا نظم الاسعد بن بمانى كتاب كليله ودمنة^(٩)، ولم يصل إلينا.

ومن أهم الأعمال الأدبية التى تمت فى هذا العصر نقل الشاهنامه أى سفر الملوك وقد كتبها الفردوسى الشاعر الفارسى، باللغة الفارسية سنة ٤٠٠ هـ، وبذل فى سبيل إخراجها جهوداً مضيئة استمرت سنوات طويلا، فقد كتبه فى ستين ألف بيت، وتضمن معظم أساطير البطولة التى تروى عن القدامى، من ملوك فارس فى العصور الأولى... والشاهنامه يمتاز بكبر حجمه، وغزارة مادته، وبذلك الروح الحماسية التى تشع من جوانبه، وتجعله بحق سفراً جامعاً لقصة البطولة الإيرانية، سواء ما كان منها خيالاً أسطورياً، وما كان تاريخياً واقعياً، ولذا يعد من الأشعار القصصية الخالدة، ويحشر فى زمرة الإلياذة والأوديسى من نظم هوميروس، أشهر شعراء قدامى الإغريق^(١٠).

نقل هذا الكتاب القيم الضخم إلى العربية الفتح بن على البندارى الأصبهاني، فى لغة نثرية، للملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب، فكان عملاً من أجل الأعمال وأخلدها

-
- | | |
|----------------------------|---|
| (١) بغية الوعاة ص ١٠٦ . | (٢) كشف الظنون ٢ : ١٣٦٥ . |
| (٣) معجم الأدباء ٦ : ١١٧ . | (٤) بغية الوعاة ١٠٦ ، ونسكت الهبيان ص ٢٧٦ . |
| (٥) كشف الظنون ٢ : ١٥٩٨ . | (٦) وفيات الأعيان ٢ : ١٨٨ . |
| (٧) راجع فصوص الفصول . | (٨) عيون الأنباء ٢ : ٢١١ . |
| (٩) حسن المحاضرة ١ : ٢٧٠ . | (١٠) قصة الأدب الفارسى ص ٢١٨ و ٢١٩ . |

وهذه الترجمة هي التي صححها ، وعلق عليها ، ونشرها للدكتور عبد الوهاب عزام^(١)

وكان بعض الأدباء في ذلك العصر يعرف اللغة الفارسية ، نذكر منهم اثنين من كبار الأدباء ، هما العماد الكاتب ، وابن سناء الملك ، ولعل الاكثار من وزن الدوييت في ذلك العصر كان أثر هذه المعرفة باللغة الفارسية ، بل إن ابن سناء الملك تأثر في موشحاته التي نظمها بمذهب الفرس ، فاتفق معهم حيناً وخالفهم حيناً ، كما اعترف بذلك في كتابه :
فصوص الفصول .

(١) واجع مقدمة الشاهنامة .

القسم الثانى الادب

ندرس فى هذا القسم ألوان النتاج الأدبى شعره ونثره ، ونقف وقفات قصيرة عند أشهر رجاله وآثارهم الأدبية .

الباب الأول الشعر

- ١ -

فنونہ

غزر إنتاج الشعر فى عصر الحروب الصليبية وكثر قائلوه ، وإذا كان قد ضاع كثير منه فقد بقى كثير محفوظ فى مجموعات قد اختيرت من شعراء العصر — كما رأينا — وفى دواوين بقى بعضها ، وفى هذا القدر الكبير المنتثر فى المراجع المختلفة ، وأغلب هذا الشعر لا يزال مخطوطاً أو مصوراً ينتظر من يجمعه ويحققه .

وإذا كان الشعراء قد نهجوا فى شعرهم منهج أسلافهم ، واقتدوا بهم فى الاتجاهات التى اختطها الشعر العربى منذ عصوره الأولى ، فإن الأحداث الجارية فى العصر ، والحياة الاجتماعية التى سادت فيه ، كان لها أثرها فى الشعر فلونته بلون العصر ، ورسمته بميسمه ، ومن أجل هذا يجب أن ننبين الاتجاهات المختلفة للشعر فى هذا العصر ، لنرى الخصائص التى تميز شعر هذا العصر من بين عصور الشعر العربى كله .

السياسة :

وَأول ما نلاحظ في هذا الشعر تأثره بالاحداث السياسية الجارية في عصره ، فكانت حـ متأثرة بها حيناً ، ومسجلة لوقائعها حيناً آخر ، وملونة لمعانيه بألوانها .

فإنك تكاد تلمس في الشعر مركز الوزير المصرى القلق ، في آخر عصر الدولة الفاطمية ، كان الوزير يومئذ يتربص به أعداؤه حوادث الزمن ، ليغتصبوا سلطانه ، ويسلبوا صبه ، بينما يستخدم الوزير كل ما في يده من قوة للفتك بأعدائه ولإبادتهم ، وهى ظاهرة تلقى الفردية في الحكم ، والشعر ناطق بهذه الخصومة القوية بين الوزراء القابضين على زمام سلطات ، وبين الطامعين فيهم والمنافسين لهم ، كما ترى ذلك في شعر القاضي الفاضل ، حين دح بعض وزراء هذه الدولة ، كقوله :

سقيت رموس أعاديكم بأرجلهم	مقرب حتفها التقريب والخبب
وما أسدتم على أعداء دولتكم	هذا التأسد إلا بعد ما كلبوا
بلغتموهم منا هم في ترفعهم	والقوم ما ارتفعوا إلا إذا صلبوا
لا يرقبوا فيك أن تنتاب نائبة	فإن مجدك من أنصاره النوب
لا يحسبوا الملك أمراً أنت كاسبه	فالملك أمر بأمر الله مكتسب
فليس له كل مغرور ، فليس له	برغمهم ، في سوى أربابه أرب ^(١)

وهذه صورة تدل على منتهى القسوة التي كان يلجأ إليها الوزراء للاحتفاظ بكراسيهم ، المناقصون لهم ، كي يظفروا بهذه الكراسى .

وألقي الخلاف بين خلفاء الفاطميين ووزرائهم ظلاً على الشعر ، فهذا علي بن عباد ، وهو شاعر ممتاز ، كان يمدح الوزير أبا علي بن الأفضل ، الذي كان مستبداً بالسلطان ، منتزعا لكل السيطرة من الخليفة الفاطمي ، وبلغ من استبداده أن اعتقل الخليفة الحافظ ، فقال الشاعر قصيدة يهني بها الوزير ، ويهجو الحافظ ، وفيها يقول :

تبسم الدهر ، لكن بعد تعيس وقوض الدهر ، لكن بعد تعريس

إذا دعونا بأن تبني لأنفسنا دعاونا ، فابق يا بن السادة السوس
وقد أعاد إليه الله خاتمه فاسترجع الملك من صخر بن إبليس (١)
ومنها
... ولا ترضون عن نجس المتاجيس (٢)

وفي هذه الفتنة التي قتل فيها الخليفة الظافر ، بيد نصر بن عباس الوزير ، يلعب الشعر
دوراً في ذلك الحادث ، فإن أن أسعد ينعي على نصر سوء فعله ، ويقول :

وأنفق من إنعامهم في هلاكهم وأظهر ما قد كان عنده يناق
ومد يدا قد طولوها إليهم وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى زبه كأس المنايا . وما انقضى له الشهر إلا وهو للكأس ذائق (٣)

و لحباب يكتب إلى طلائع بن رزيك ، قصيدة يستنجد به فيها ، على
عباس وابنه نصر ، وأولها :

دهتى عن نظم القريض عوادي وشف فؤادي شجوه المتماذي
وأرق عيني ، والعيون هواجع هموم اقضت مضجعي ووسادي
بمصرع أبناء الوصي ، وعرة النبي وآل الذاريات وصاد
فأين بنو رزيك عنهم ، وبصرهم وما لهم : من منعة ، وزياد
أولئك أنصار الهدى ، وبنو الردى وسم العدا ، من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قله بخير دليل للنجاة وهاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس آذنت بنفاد

(١) هو اسم الجن الذي أخذ الحاتم من سليمان بن داود « تفسير الجلالين ١٣٨/٢ » ، والشاعر
يوازن بين الوزير وسليمان .

(٢) الحميدة ورقة ١٩٨ ، وقد استطاع المحافظ أن يتمكن من الوزير ويقتله ، ويقتل كل من
له صلة به ، ومنهم هذا الشاعر ، لهذه القصيدة ، والقاضي ابن ميسر ، لأنه كان حاضراً لإنشاد هذه القصيدة
فقام طرباً لهذا البيت « راجع ابن ميسر ص ٨١ » .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٩٨ .

وقد كاد أن يطغى تألق نوره على الحق عاد من بقية عاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد (١)
ويمدح عمارة النبي آل رزيك ، الذين قضوا على آل عباس ، فيقول من قصيدة :
لكم يا بني رزيك ، لا زال ظلكم مواطن سحب الموت فيها مواطر
سلتم على عباس بيض صوارم قهرتم بها سلطانه ، وهو قاهر (٢)

وقال ابن ميسر : دخل الشعراء على الصالح ، وهنشوه بالوزارة ، بعد حادث قتل نصر
للخليفة ، وهربه هو وأبيه عباس ، وذكروا هذه الحالة والواقعة ، وكانوا جماعة منهم
أبو علي عبد الرحيم بن علي اليبساني ، والقاضي الأجل الرشيد أحمد بن الزبير ، والقاضي
الجليل عبد الجليل بن الحسين بن الحباب ، والقاضي السعيد جلال الملك أبو الحسن علي
ابن الأشرف ، وأبو محمد يحيى بن خير الشاعر ، المسمى ديك الكرم (٣) .

وكان للأحداث السياسية التي جرت في أواخر الدولة الفاطمية ، حين ولي الوزارة
شاور السعدي ، صداها في الشعر يومئذ فهو وزير يريد أن ينفرد بالسلطان في الدولة ،
استعان بنور الدين محمود ، كي يعيده إلى منصبه ، الذي سلبه منه منافسه ضرغام ، وما إن
استعاد منصبه حتى قلب لمساعدته ظهر الحبح ، وحرك الفرنج ، مستعينا بهم على التخلص
منه ، وانتهى أمره بقتله ، وتولى أسد الدين شيركوه وزارة مصر للعاضد ، فقال عمارة
يتحدث عن وزارتي شاور :

ونزعت ملكك من رجال نازعوا فيه ، وكنت به أحق ، وأقعدا
جذبوا ردامك غاصبين ، فلم تزل حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة أمرت نسيم الليل ألا يبردا
تاريخ دين نلت في مشـله يوما بيوم ، عبرة لمن اهتدى

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٢ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٩٧ .

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ج ٢ ص ٩٥ .

حملت به الأيام تسعة أشهر^(١) حتى جعلن له جمادى مولدا^(٢)
وقال أيضاً :

كانت وزارتلك القديمة مشرعا صفوا ، ولكن كدرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريه من بعد ما سجدت له تيجانها
قد كان أودع في الرقاب صنائعا كفرت بها ، فأبادها كفرانها^(٣)
وقال أيضاً :

فنصرت في الأولى برعب زلزل الأقدام وهي شديدة الإقدام
ونصرت في الأخرى بضرب صادق أضحي يطير به غراب الهام
أدركت ثأراً ، وارتجعت وزارة نزعا بسيفك من يدي ضرغام^(٤)

وقال القاضي الفاضل من قصيدة طويلة^(٥) ، يصف فيها عودة أسد الدين شيركوه ، بعد
أن أقبل الفرنج إلى مصر ، ينصرون شاور :

تلقى العدا بالعدا ، حدث به عجبا أن الهدى خدمت في نصره الصلب^(٦)
وقال في ذلك عمارة :

وأفقدت من مصر عدواً بمثله فله من ظفر فللت وتاب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة أقت بها للقوم سوق ضراب^(٧)

فلما قتل شاور أقبل بعض الشعراء يهجو شاور ، ويصفه بالغدر والخداع ، وبمالة
الفرنج أعداء البلاد ، فقال العرقلة يمدح صلاح الدين ، ويهجو شاور :

هو الأسد الضاري الذي جل خطبه وشاور كلب للرجال عقور
بنى ، وطغى ، حتى لقد قاتل : على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيها منكر ونكير^(٨)

-
- (١) كانت مدة أخذ الوزارة من شاور إلى أن ماتت إليه تسعة أشهر سواء . الروضتين ج ١ ص ١٣١ .
(٢) النكت المصرية ص ٨١ .
(٣) النكت المصرية ص ٨٤ .
(٤) ديوان القاضي الفاضل ص ٤٦ .
(٥) النكت المصرية ص ٨٩ .
(٦) الروضتين ج ١ ص ١٣٢ .
(٧) المرجع السابق ص ١٥٧ .
(٨) ديوان القاضي الفاضل ص ٤٦ .

وقال أسامة بن منقذ في صلاح الدين :

أقمت عمود الدين حين أماله لطاغى الفرنج القتم طاغى بنى سعد^(١)
وجاهدت حزب الكفر، حتى رددتهم خزايا، عليهم خيبة الذل والرد^(٢)

ورحب الشعر بشيركوه وزيراً في مصر، فالعماد الكاتب يرى في هذه الوزارة بشيراً بالنصر على الفرنج، واسترداد بيت المقدس، وهذه نظرة صائبة للعماد، فإن اجتماع الكلمة وتوحيد البلاد تحت سلطان حاكم واحد كفيل بالنصر، واسترداد الوطن المغتصب. أنفذ العماد قصيدة طويلة يهنئ بها أسد الدين، وأولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب كم راحة جنيت من دوحة التعب
فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها ميسراً فتح بيت القدس عن كشب
لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا في شكرنا ما به الإسلام منك حي
شكاً إليك بنو الإسلام يتمهم فقمتم فيهم مقام الوالد الخدب
في كل دار من الأفرنج نادبة بما دهاهم، فقد باتوا على ندب
من شر شاور أنقذت العباد، فكم وكمن قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطمع الأفرنج في بلد الأسلام، حتى سعوا للقصد والطلب
وإن ذلك عند الله محتسب في الحشر من أفضل الطاعات والقرب^(٣)

وكان من أهم الأحداث السياسية يومئذ سقوط الخلافة الفاطمية في مصر وعودة مصر إلى أحضان الخلافة العباسية، وكان نور الدين محمود يتطلع إلى ذلك في شوق ولهفة، يدل على ذلك ما قاله العماد لشيركوه في هذه القصيدة السالفة:

رد الخلافة عباسية، ودع الدعى فيها يصادف شر منقلب
ولا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها، فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب
فلما سقطت الخلافة الفاطمية أنشأ العماد قصيدة، يهنئ فيها نور الدين وخلفاء بغداد العباسيين، ومنها:

(١) هو شاور الذي ينتهى نسبة بسعد بن بكر بن هوازن، وكان وزيراً للماضد الفاطمي.

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٥٦.

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٥٩.

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
 وخذلنا لنصرة العبد^(١) العاضد ، والقاصر الذي بالقصر
 وأشعنا بها شعار بني العباس ، فاستبشرت وجوه النصر
 وتركنا الدعي يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
 وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمي ، في أرض مصر
 ولدينا تضاعفت نعم الله ، وجلت عن كل عد وحصر
 فاغتنى الدين ثابت الركن في مصر ، محوط الحى مصون الشجر
 واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الأغر
 عرف الحق أهل مصر وكانوا قبله بين منكر ومقر
 والذي يدعى الامامة بالقاهرة انحط في حضيض القهر
 ما يقام الامام إلا بحق ما تحاز الحسناء إلا بمهر
 خلفاء الهدى سراة بني العباس ، والطيبون أهل الطهر
 بهم الدين ظافر ، مستقيم ظاهر قوة ، قوى الظهر^(٢)

حتى إذا توفى العاضد مضى العباد شامتا بالدولة المنقرضة ، فرحا بتوحيد البلاد تحت
 راية الخلافة العباسية ، قائلا :

توفى العاضد الدعي ، فما	يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها اتقضى ، وغدا	يوسفها في الأمور محتكما
وانطقات جمرة الغواة ، وقد	باخ من الشرك كل ما اضطرما
وبات داعى التوحيد منتصرا	ومن دعاة الاشرار منتقما
وعاد بالمستضيء ممتهدا	بناء حق قد كان منهدما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا	فليقرع الكفر سنه ندما ^(٣)

وظل الشعراء المواليون للأيوبيين يذمون رجال الدولة الفاطمية وعهدها ، وقد يرد

(١) أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء ، قال الماد في الحريدة : قصدت
 بالعضد والعاضد المجانسة ، ونصرة وزير الخليفة كنصرته .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٩٨ . (٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

عليهم من ظل على الوفاء للفاطميين ، ومن ذلك أن الأحدب بن أبي حصينة أنشد بين يدي
نجم الدين أيوب والد صلاح الدين أبياتاً ، يهنئه فيها بسكنى اللؤلؤة أحد قصور الفاطميين ،
ويقول :

يا مالك الأرض ، لا أرضى له طرفا منها ، وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هذى الدار تسكنها وقد أعد لك الجنات والفسرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها فالبس بها العز ، وتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفاً ، والدار لؤلؤة وأنت لؤلؤة صارت لها صدفاً^(١)

فانبرى له عمارة النبي يرد عليه ، قائلاً :

أنت ، يا من هجا السادات والخلفا وقلت ما قلته في ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفاً ، حلوا بلؤلؤة والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا
ولأنما هي دار ، حل جوهرهم فيها ، وشف ، فأسفاها الذى وصفا
فقال : لؤلؤة ، عجبا بهجتها وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهى بسكانها الآيات إذ سكنوا فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ، ليس يعرفه من البرية إلا كل من عرفا
لولا تجسمه فيهم لكان على ضعف البصائر للأبصار محتظفا
فالكلب ، يا كلب ، أسنى منك معرفة لأن فيه حفاظا دائماً ، ووفاً^(٢)

ويطول بي القول إذا أنا مضيت في وصف ما كان للأحداث السياسية من أثر في الشعر
فهو بين محرض على تغيير حالة سياسية ، أو مسجل لما حدث من تغير ، أو ناقد ، أو مهنئ

الحياة الاجتماعية :

وكما كان للأحداث السياسية صداها في شعر ذلك العصر كان للحياة الاجتماعية صداها
كذلك ، فهذه الأعياد الفاطمية والاحتفالات التى يملؤها العظمة والجلال ، كان للشعر نصيبه
الموفور فيها ، وكان له مكان غير مغمور ، وقد قدمنا نموذجاً لما قيل في احتفال بوفاء النيل

(٢) مختار من شعر عمارة س ٢٩٢ .

(١) مختار من شعر عمارة س ٢٩٣ .

وهذا جزء من قصيدة أنشأها عمارة يهنيء بها الخليفة العاضد ، عند ما وفى النيل ، فقال :

شرفت أمير المؤمنين مواسم	أضحت تؤرخ باسمكم وتسطر
قسمت كما قسم الزمان ، فحاضر	لم ينصرم ، ومقدم ، ومؤخر
وأجلها يوم الخليج ، فإنه	من بينها يوم أغر مشهر
يوم خلعت عليه ليل عجاجة	شهب الالسة في دجاها تزهـر
يوم كأن الجيش تحت قتامة	سر بأثناء الجوانح مضمر
وأفاك فيه النيل ، وهو من الحيا	خجل ، يقدم رجله ، ويؤخر
شтан بينكما : أبجر واحد	كيد أناملها الكريمة أبجر
فتمل موسمه وعمراً خالداً	تمضى ليلاليه ، وأنت معمر (١)

وقال من قصيدة يصف فيها خروج الخليفة العاضد إلى صلاة العيد ، ويثني على قوة خطابه :

لما برزت غداة فطرك خاشعا	وشعارك التكبير والتحميد
وعليك من شيم النبي وحيدر	لناظرين أدلة وشهود
شخصت إليك نواظر الأمم التي	ملكهم لك بيعة وعهود
حتى صعدت على ذؤابة منبر	لو كان عود إباد ذاك العود
بشرت ، بل أنذرت بالحكم التي	فيهـن وعد صادق ، ووعيد
لينت قاسية القلوب بخطبة	أصغى إليها المجمع المشهود
لا منكر أن تستكين جوارح	لسامعها أو تقشعر جلود
والوحي ينطق عن لسانك بالذى	من دونه يصدع الجلود (٢)

وسجل الشعر ما أغرم به أهل مصر من محبة التنجيم في ذلك العصر ، وتلك ظاهرة استرعت نظر أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي ، عند ما ورد إلى مصر في عهد الخليفة الأمر الفاطمي ، فأثبتت في رسالته المصرية أن المصريين أكثر الناس استعمالاً لأحكام

(٢) المرجع السابق ص ١٩٨ .

(١) مختار من شعر عمارة ٢٢٣ .

النجوم ، وتصديقها لها ، وتعويلا عليها ، وشغفا بها ، وسكونا إليها ، حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى ألا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي لا تحصر فنونها ، ولا تحصل أجزاءها وأنحازها ، ولا تضبط جهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها ، إلا في طوالع يختارونها ، ونصب يعتمدونها .

واقعد شهدت يوما رجلا من الوقادين في أتون الحمام يسأل رزق الله^(١) عن ساعة حيدة لقص أظفاره ، فتعجبت من سمو همته ، على خساسة قدره ووضاعة مهنته^(٢) .

هذا الولوع بأمر النجوم هو الذي أوحى إلى عمارة النبي أحد شعراء هذا العصر أن يمدح شاور وزير العاضد بقوله :

وأرى قرانات الكواكب لم تكن إلا وأثر في عداك قرانها
وإذا رميت معانداً بمكيدة وأردت أن يحنى عليه زمانها
هبت عليه من الرياح دبورها ومن الكواكب طالعا دبرانها^(٣)

ويمدح ابن سناء الملك صلاح الدين ، ويهنته بالسلامة من اقتران الكواكب بقوله :

سعودك ردت ما ادعاه المنجم وقد كذبت في الذي كان يزعم
وقد قيل: أحكام النجوم على الوري وأنت على أحكامها تتحكم

وربما كان من أهم الأحداث الاجتماعية في ذلك العصر ما قام به بعض الملوك يومئذ من تحريم تناول الخمر والحشيش واقتراف الفسق والفجور ، وقد انقسم الشعراء إزاء هذا الحادث قسمين : فقسم فرح مبتهج ، بانتصار كلمة الدين ، وتدمير ما يدفع إلى انحطاط عزيمة الأمة ، ويهد من بنيانها ، وقسم حزين لتحريم ما كان يبعث في نفسه البهجة ويشير المسرة .

(١) أحد المعتقلين بالتنجيم في ذلك العصر ، وتحدث عنه أمية في رسالته المذكورة ، وقال عنه :
إن له في فروع هذه المناهضة بعض فدية وتجربة . راجع الرسالة المصرية ص ٣٨ نوادر المخطوطات .
(٢) الرسالة المصرية ص ٣٩ نوادر المخطوطات (٣) الدبران . منزلة للقمر .

قال أبو العباس أحمد بن يوسف لما أمر الصالح أيوب بحرق ما في الكافورى^(١)
من الحشيش :

صرف الزمان وحادث المقدور	تركا نكير الخطب غير نكير
لهنى وهل يجدى التلهف فى ردى	طرب الغنى وأنس كل فقير
جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرها	من كل شيء كان فى المعمور
هى روضة إن شئتها ، ورياضة	يغنى بها عن روضة وخمور
أسفا لدهر غالها ولربما	ظل الكريم بذلة المأسور
زفوا لها نارا نخلنا جنة	برزت لنا قد زوجت بالنور
لله درك ، حية أو ميتة	من منظر بهج بغير نظير
أوذيت غير ذميمة فسقى الحيا	تربا تضمن منك ذوب عير
عندى لذكرك ما بقيت مخلداً	سح الدموع ونفثة المصدور ^(٢)

وأمر الظاهر بيبرس سنة خمس وستين وحسمائة بحرق الحشيش ، وإراقة الخمر
وإغلاق بيوت الفسق ، وكان عصره يتسم بالجد ، والإعداد للجهاد ، وأرسل مراسيمه بذلك
إلى جميع أرجاء مملكته ، فى مصر والشام ، فقال قاضى الإسكندرية ابن المغير لما وردت إليه
مراسيم ذلك :

ليس لإبليس عندنا أرب	غير بلاد الأمير مأواه
حرمة الخمر والحشيش معا	حرمة ماء ومرعاه ^(٣)

وقال أبو الحسين الجزار :

قد عطل الكوب من حبابه	وأخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكى	على الذى فات من شبابه ^(٤)

(١) إحدى الحدائق الكبرى بالقاهرة حينئذ .

(٢) خطط القريزى ج ٣ ص ٤٠ .

(٣) الملوك ج ١ ص ٥٥٤ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

ولما أحضروا إلى الظاهر شخصاً يسمى ابن الكازروني سكران ، أمر بصلبه ، وعلمقت
الجرة والقدح في عنقه ، فقال الحكيم شمس الدين بن دانيال :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى ، إذ كان في شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي : ألا تب ، فإن الحد قد جاوز الحد^(١)

وقال :

نهى السلطان عن شرب الخمر وصير حدها حد الباني
فما جسرت ملوك الجن ، خوفاً لأجل الخمر ، تدخل في القناني^(٢)

وقال ناصر الدين بن النقيب :

منع الظاهر الحشيش مع الخمر ، فولى إبليس من مصر يسعي
قال : مالى وللمقام بأرض لم أمتع فيها بماء ومرعى^(٣)

وقال آخر :

الخمر يا إبليس إن لم تقم وتوسع الحيلة في ردها
لأنفقت سوق المعاصي ، ولا أفلحت يا إبليس من بعدها^(٤)

وأوفى ما قيل في ذلك أدله على حالة هذا العصر ، وما كان قبله في البصور السالفة ،
ما قاله شمس الدين بن دانيال ، وقد قدم إلى مصر ، فدعاه بعض أصدقائه ، وبالح في إكرامه ،
ولكنه اعتذر إليه عن تقصيره في الإكرام ، إذ لم يأت به بدم ، فأثنا شمس الدين قصيدة ،
يرثي بها الخلاعة والمجون ، ومنها :

مات يا قوم شيخنا إبليس وخلا منه ربه المأنوس
هو لو لم يكن كما قلت ميتا لم يغير لأمره ناموس
أين عيناه تنظر الخمر ، إذ عطل منها الراوق والمحريس^(٥)
ومواعينها قد تكسرن ، والخمر من بعد كسرهما محبوس

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٩٠ . (٢) و (٣) و (٤) المرجع السابق ص ٩١ .

(٥) لعلها « المهرس » أى المهراس مائة .

أين عيناه والحشائش إذ تحرق^(١) بنار ترع منها المجوس
 قلعوها من البساتين إذ ذاك صفارا خضراء وهى عروس
 أين عيناه تنظر المزر^(٢) قد أوحش منه الماجور والقادوس
 والقناني مكسرات كما قد كسرت فى دجى الليالى الكئوس
 وذوو القصف ذاهلون وقد كادت على سيلها تسيل النفوس
 كم خليع يقول : ذا اليوم يوم مثل ما قيل ، قطير عبوس
 وقضيب ، ونرجس ، وسعاد باكيات وزينب ، وعروس
 ذى تنادى حريفها لوداع لاعناق ، لاضم ، لا تبويس
 وينادى قوادهم : شه علينا نجم ستى قد نكسته العكوس
 من لنا منصف لجور زمان لاقحاب فيه ، ولا خندريس^(٣)

وهذه القصيدة تدل على ما صار إليه الأمر فى عهد بيبرس ، وما كان عليه الحال قبل ذلك العهد .

ولم ينس الشعر أن ينتقد تصرف مستخدمى ذلك العصر واستغلالهم مناصبهم فى الإثراء على حساب الشعب ، وضعف الوازع الدينى عند بعضهم ، وإن كان يتظاهر بالدين ، ومن أجمع ما قيل فى ذلك ما انشأه البوصيرى من قصيدة طويلة ، ينتقد فيها أصناف المستخدمين ، ومنها :

نقدت طوائف المستخدمين فلم أرَ فيهم رجلا أمينا
 فقد عاشرتهم ، ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سنيها
 فكتاب الشمال هم جميعا فلا صحبت شملهم اليمينى
 فكم سرقوا الغلال ، وما عرفنا بهم ، فكأنما سرقوا العيونى
 ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ولا شربوا خمور الأندرينا
 ولا ربوا من المردان مردا كأغصان يملن ، وينحنينا

(٢) المزر : نبيذ الذرة والشعير .

(١) سكنها الضرورة الشعر .

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٥ .

وقد طلعت لبعضهم ذقون ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
وأقلام الجماعة جائلات كأسياف بأيدي لاعبينا
أمولاي الوزير ، غفلت عما يتم من اللثام الكاتبين
تنسك معشر منهم ، وعدوا من الزهاد والمتورعينا
وقيل : لهم دعاء مستجاب وقد ملثوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كل أمانته ، وسموه الأميना
وما أخشى على أموال مصر سوى من معشر يتأولونا^(١)

فالقصيدة تسجل على الكتاب السرقة والخيانة ، فاستطاعوا أن يعيشوا عيشة ترف
ورخاء ، وإن كانوا يتظاهرون بالورع والزهد . أما القضاة فيتأولون في استحلال ما تحت
أيديهم من الأموال .

المدح :

وكان المدح من أهم أغراض الشعر في ذلك العصر ، وسوف نتحدث عن تأثير الحروب
الصليبية في هذا اللون من الشعر ، في فصل خاص يعقد لذلك ، وحسبي هنا أن أشير إلى أن
المدح في هذا العصر قد تلون بالعقائد الفاطمية ، في المدة التي كانت فيها مصر محكومة بخلفاء
الفاطميين ، فن عقائدهم أنهم يخلعون على الخليفة صفات العقل^(٢) كما أنهم يدينون بأن
الرسول الكريم نص على أن عليا والد الخلفاء الفاطميين وصية وخليفته من بعده ، وأنه
منه بمنزلة هرون من موسى ، وكان ذلك يوم الغدير ، فقد روى الشيعة أن النبي قال :
« على مني بمنزلة هرون من موسى ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من
نصره ، وأخذل من خذله ، وقالوا : إن ذلك كان في الثامن عشر من ذي الحجة ، سنة عشر
للهجرة ، وهو عام حجة الوداع ، نزل النبي بغدير خم (وهو يقع بين مكة والمدينة) وأخى
على بن أبي طالب ، ومن عقائدهم أن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن ، ولا تنتقل من

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) راجع في ذلك « نظرية المثل والمثول وأثرها في شعر مصر الفاطمية » ص ٨ .

الأخ إلى أخيه ، بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ، وأن الأب ينص على ابنه في حياته ، وذلك أصل من أصول مذهبهم كما كان من عقائدهم صوم رمضان ثلاثين يوما ، وكان شعبان عندهم تسعة وعشرين يوما ، وقد اعتمدوا في ذلك على علم النجوم ، فكانوا يعنون برؤية الهلال بعيونهم ، مكتفين برؤيته ببصائرهم ، التي استنارت بعلم الفلك ، وكان له في دولتهم أعظم حظ من العناية والرعاية .

ولذلك لتجد ظلا لهذه العقائد وسواها فيما مدح به الشعراء خلفاء الفاطميين .
روى المقرئ أن الخليفة الحافظ لدين الله سعد المنبر يوم عيد ، فوقف الشريف ابن أنس الدولة بإزائه ، وقال مشيراً إلى الحاضرين :

خشوعا ، فان الله هذا مقامه وهما ، فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحياته من ربنا وسلامه^(١)
وقال علي بن محمد الأخش من قصيدة يمدح الخليفة الأمر :
إلى ذروة النور العلائق ، إنه إلى ذروة النور الإلهي ينسب^(٢)

ومن أخرى يمدح الخليفة الحافظ :

صرف جريال يرى تحريمها من يرى الحافظ فردا صمدا
بشر في العين ، إلا أنه من طريق العقل نور وهدى
جـل أن تدركه أعيننا وتعالى أن تراه جسدا^(٣)

ولم يقف الأمر عند حد الشعراء الذين كانوا يعتنقون التشيع مذهباً ، بل ترى ذلك عند بعض الشعراء السنيين ، فقد تأثروا في مدحهم بهذه العقائد الفاطمية ، فتجد عمارة البني ، وهو شاعر سني ، دعى لأن يدخل مذهبهم فأبى ، واكتفى بأن تربطه بهم صلة الود لا العقيدة^(٤) ، يقول :

(٢) الحريرة ورقة ١١٨ .

(١) خط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٣) المرجع السابق ورقة ١٤٧ .

(٤) الشكت المصرية ص ٤٥ .

ولأؤك دين في الرقاب ، ودين وودك حصن في المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى ويدين^(١)
ويقول من قصيدة يعزى بالفائز ، ويهني العاضد :

لئن عرضت للفائز الطهر نقلة فأنت أمير المؤمنين مقيم
وإن حسدتنا جنة الخلد قربه فقربك منا جنة ونعيم
ورثت الهدى بالنص منه ، وقوله : أخى وابن عمى ، إن عدمت ، يقوم
وقد سن ذاك المصطفى في ابن عمه فمن شريفكم حادث وقديم
حكمت بيعة الرضوان بيعتك التي يصح بها الإيمان وهو سقيم^(٢)

فأنت تراه يحتاج لخلافة العاضد ، ولم يكن أبوه خليفة على غير ما أُلّف في خلافة
الفاطميين ، بأن الفائز قد نص عليه ورثا للخلافة ، وإن لم يكن هو إبناً للفائز ، واستأنس
لذلك بأن الرسول قد نص على أن علياً خليفته من بعده ، وإن لم يكن على إبناً لمحمد .

ويقول مادحا العاضد في شهر رمضان :

جأت الخلافة منك فوق سريرها كنز الهدى وذخيرة الإسلام
وبقية الله التي ببقائها تجري الأمور على أتم نظام
بالعاضد المهدي قدس ذكره صحت لنا الأيام بعد سقام^(٣)

فأنت تراه يدعو ببقية الله ، وأن نظام الأمور ببقائه ، وأنه المهدي المقدس ذكره .
وكل ذلك من عقائد الفاطميين . ويقول من أخرى يمدح العاضد :

كذلك وصى المصطفى في ابن عمه إلى منجد يوم الغدير ومتهم^(٤)

وحديث يوم الغدير مما يؤمن به الشيعة ، وما ينبنى عليه إحدى عقائدهم في أن علياً خليفة
محمد من بعده . ويقول مهنئاً العاضد يوم كسر الخليج :

سجوداً ، فهذا صاحب الركن والحجر ووارث علم النمل ، والنحل ، والحجر^(٥)

(١) المرجع السابق ص ٣٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٤٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

(٥) النكت المصرية ص ٣٢٩ .

والشيعة يعتقدون أن الخليفة الفاطمي قد أوتى علم الكتاب علماً حقيقياً ، فهو يعرف معناه الظاهري ، ومعناه الباطني ، ويسمون ذلك علم التأويل . ويهنته برمضان ، فيقول :

ولما تراءت للهِلال بصائر يغطي الهوى أبصارها بضباب
وقفنا ، فهنا الصيام بعادل سناه مدى الأيام ليس بخاب^(١)

ونحن نعلم أن الشيعة لا يوجبون للصوم أن يرى الهلال بالبصر ، ولكنهم يكتفون برؤيته بالبصيرة .

غير أن معظم هذا الشعر الذي تأثر بعقائد الفاطميين قد باد ، ولم يعن بتدوينه من جاء من جامعي الشعر بعد هذا العصر ، بل حاربه الأيوبيون ومن جاء بعدهم ، حتى كان من عمل المحتسب في عصر الدولة الأيوبية أن يراقب من يقوم على تعليم النشء ، حتى لا يحفظوا ما قيل في الخلفاء الفاطميين : من مدائح ، بل تمنع دراسة الأشعار التي عملها شعراء الشيعة المغالون في أهل البيت ، فلا يعرفهم معلمهم شيئاً من ذلك ، بل يعلمهم الأشعار التي مدح بها الصحابة ، ليرسخ ذلك في قلوبهم^(٢) .

ولم يحرص بعض الشعراء من مخضرمي الفاطمية والأيوبية على ما مدحوا به خلفاء الفاطميين ، فهذا القاضي الفاضل لم يبق من قصيدته التي مدح بها أحدهم سوى مقدمتها الغزلية ، ووقف عند البيت الذي تخلص فيه إلى المدح ، إذ قال :

تري لحنيني أو حنين الحنائم	جرت ، فحككت دمعى دموع الغنائم
وهل من ضلوع أو ربوع ترحلوا	فكل أراها دراسات المعالم
لقد ضعفت ربح الصبا ، فوصلتها	فنى لا منها هبوب السنائم
دعوا نفس المقروح يخمله الصبا	وإن كان يهفو بالغصون النواعم
تأخرت في حمل السلام عليكم	لديها لما قد حملت من سمائم
فلا تسمعوا إلا حديثاً لناظري	يعاد بالفاظ الدموع السواجم
فإن فؤادى بعدكم قد فطمته	عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم ^(٣)

(٢) نهاية الرتبة ص ١٠٤ .

(١) النكت المصريه ص ١٦٨ .

(٣) مفاهد التنخيص ص ٦٣٧ .

وأغفل جامعو الشعر غالباً ما مدح به هؤلاء الخلفاء ، وكان العماد يعد من عيوب الشاعر أن يكون قد مدحهم^(١) ، ثم لا يورد إلا في النادر شيئاً من هذا المدح ، وكان الشعراء يطيلون في مدح الخلفاء الفاطميين ، روى ابن ميسر أن الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المدح ، وتناهوا في القصائد ، حتى صار الانشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة باستماع أشعارهم ، فأمروا لذلك بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار ، فقال أحمد بن مفرج ، يخاطب الحافظ :

أمرت أن نصوغ المدح مختصراً هلا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجسرى سوابقنا حتى يبين لها في مدحك الأثر

فأمروا بما كانوا عليه أولاً^(٢) . وإذا علينا ذلك أدركنا ما فقدناه من شعر غزير عمل الأيوبيين على إبادته ونسيانه .

وبما هو جدير بالملاحظة أن وزراء الفاطميين في تلك الفترة من الزمن كان لهم نصيبهم الموفور من مدح شعراء ذلك العصر ، فقد التف حول وزراء ذلك العهد طوائف كثيرة من الشعراء ، وأطالوا في مدحهم ، وأشادوا بقوتهم وسلطانهم ، وأغرقوا في الثناء عليهم ، فرأينا الشعراء يلتفون حول الأفضل وزير المستعلي والآمر ، قال ابن الزيد يمدحه من قصيدة :

لولا وجودك في الزمان وجودك الـ محي المكارم بعد بعد وفاتها
لم يعرف المعروف في الدنيا ، ولو طفنا عليه في جميع جهاتها^(٣)

وقال أمية ابن أبي الصلت يمدحه من قصيدة طويلة :

الله زان بك الأيام من ملك لك الحجول من الأيام والغرر
لله باسك ، والأيام طائشة واختل تردى ونار الحرب تستعر
هي السباحة إلا أنها سرف هي الشجاعة إلا أنها غرر
الله في الدين والدنيا ، فإلهما سواك كهف ، ولا ركن ، ولا وزر
ملك تبوأ فوق النجم مقعده فكيف تطمع في غاياته البشر

(١) خريدة القصر المطبوعة من ٢٨٥ . ونهاية الرتبة من ١٠٥ و ١١٣ .

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر من ٨٥ ج ٢ . (٣) الخريدة ورقة ١٢١ ب .

يرجى نداءه ، ويخشى عند سطوته كالدهر يوجد فيه النفع والضرر^(١)
والتف الشعراء كذلك حول طلائع بن رزيك ، وقرضوا في مدحه كثيراً من الشعر
فهذا يحيى بن يوسف يقول له من قصيدة :

من ذا يساجلك السيادة في الورى إلا جحود للعيان يكابر^(٢)
وهذا المهذب بن الزبير يقول فيه :

وتلق الدهر منه بليك غاب غدت سمر الرماح له عرينا
تخال سيوفه إما انتضاها جداول ، والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن يرحن مع الظلام ويغندينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت سنا ، يغشى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الاصبح عدوا اثار للعجاج به دجونا

وهذا الشعر الذى مدح به وزراء ذلك العهد يدلنا على ما وصلت إليه سطوة الوزراء ،
وما كان لهم من سلطان فعلى ، وسيطرة على شئون الدولة ، بل لقد جمع بعض الشعراء
بين الخليفة والوزير ، ووصفهما معا بصفات واحدة ، وأشركهما فى المدح معا ، كما فعل
المهذب بن الزبير عندما مدح الصالح طلائع بن رزيك ، إذ قال :

يا واحد الدهر ، لارد على إذا ما قلت ذلك فى قولى ، ولا درك
ما كان بعد أمير المؤمنين فى فيه الشجاعة إلا أنت والنسك
فالفعل منه ومنك اليوم متفق والنعت منه ومنك اليوم مشترك
يدعى بصالح أهل الدين كلهم وأنت صالح من بالدين يمتسك^(٣)
وكما فعل عمارة إذ قال :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجاة وأجر البر فى القسم
لقد حى الدين والدنيا وأهلها وزيره الصالح الفراج للغم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله إلا يد الصنعين : السيف والقلم

(٢) الطالع السعيد ص ٤١٠ .

(١) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٥٦ .

(٣) خريدة القصر المطبوعة ج ١ ص ٢١٣ .

وجوده أوجد الأيام ما اقترحت وجوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملكته العوالي رق بملكة تعير أنف الثريا عزة الشمم
خليفة ووزير مد عدلها ظلا على مفرق الإسلام والامم
زيادة النيل نقص عند فيضها فلما عسى يتعاطى منه الديم^(١)

وكثير من شعر عمارة يجمع بين مدح الخليفة والوزير ، مما يؤكد ما وصل إليه الوزير يومئذ من مكانة يشرك فيها الخليفة .

ولا نكاد نجد حاكما من حكام هذا العصر : خليفة ، أو سلطانا ، أو ملكا ، أو وزيراً ، لم يفسح صدره للشعر ، ويخلد لاسمه بمدوحا في شعر الشعراء ، حتى السلطان المنصور قلاوون الذى كان معجم اللسان ، لا يكاد يفصح بالعربية ، لأنه جاء من بلاد الترك كبيرا^(٢) ، فقد مضى الشعراء المعجبون بفتوحاته ، يصوغون له المدح عقوداً ، ومن هؤلاء شهاب الدين محمود الذى يقول فيه :

علينا لمن أولاك نعمته الشكر لأنك للإسلام ، ياسيفه ، ذخـر
ومنا لك الإخلاص فى صالح الدعا إلى من له فى أمر نصرتك الامر
ولله فى إعلاء ملكك فى الورى مراد ، وفى التأيد يوم الوغى سر
ألا هكذا يا وارث الملك فليكن جهاد العدا لا ما توالى به الدهر^(٣)

ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء الذين كانوا الفرنج كفاحا مجيدا ، واستردوا ما بأيديهم من أجزاء الوطن المغتصب ظفروا من المدح بأوفى نصيب ، وتجمع حولهم طوائف كثيرة من الشعراء ، وهكذا رأينا أبطال الحروب الصليبية يلتف حولهم من يشيد بجهدهم وجهادهم ويخلد فى القصائد مآثرهم ، فنجد مدحا كثيرا قد صيغ فى عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود والظاهر بيبرس ، والأشرف خليل بن قلاوون ، وكان أوفاهم نصيبا من ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقد عرفت بمن مدحه زهاء خمسين شاعراً ، ولم يضمن الشعراء بشعرهم على من كان يمد يده محاربا الفرنج ، ليكسر من شوكتهم ، أميراً كبيراً ، أو صغيراً وزيراً

(١) النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٢٢٥ .

(٢) النسكتم العصريه ص ٢٧٣ .

(٣) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٢٢ .

نبح، أو أخفق، قائدا في البر أو في البحر فهؤلاء جميعا أحاطهم الشعر بهالة من التمجيد والإكبار والاجلال، وسوف نتحدث في فصل خاص عن المنهج الذي انتهجه الشعراء في تصوير هؤلاء الأبطال .

الرثاء

وكان الرثاء من بين أغراض الشعر يومئذ ، رثى الشعراء أبطال الحروب الصليبية ، ورثوا ملوكهم وأمراءهم ، ورثوا أجيالهم وأعزائهم ، وعز سقوط الدولة الفاطمية على بعض من كان له بها صلة وثقى ، فرثاها عمارة بشعر يفيض بالحب والحنين ، في قصائد منها الطويل والقصير ، فمن ذلك قصيدة قصيرة مطعها :

لا تندبن ليلى ولا أطلالها	يوما ، وإن ظعننت بها أجمالها
واندب ، هديت ، قصور سادات عفت	قد نالهم ريب الزمان ونالها
درست معالمها ، لدرس ملوكها	وتغيرت من بعدهم أحوالها ^(١)

ومنها هذه القصيدة الطويلة ، التي بدأها بلوم الدهر على إساءته ، بتحطيم الدولة التي كانت في جيد المجد حليا ، وله زينة وجمالا ، فقال :

رمى يادهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حل الحسن بالعطل
سعت في منهج الرأى العشور ، فإن	قدرت من عثرات البغي فاستقل
جدعت ما رنك الألقى ، فأنفك لا	ينفك ما بين نقص الشين والخلجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل	سقيت ، مهلا ، أما تمشى على مهل

ثم حدثنا عن مصابه الشخصى في هذه الدولة . وما ناله من السعادة على أيدي رجالها ، إذ قال :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة	على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر ، فأولتني خلائقها	من المكارم ما أربى على الأمل

(١) مختار ديوان عمارة ص ٣٣٣ .

قوم عرفت بهم كسب الآلوف، ومن كالمها أنها جاءت ولم أسبل
وكنت من وزراء الدست حيث سما رأس الحصان بهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش تكربة وخلة حرست من عارض الخلل

فليس بعجيب إذا أن يقرح جفنه بالبكاء عليهم ، وألا يقبل في حبهم لوما ولا عتابا :

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصرت فى عدلى
بالله زرساحة القصرين ، وابلك معى عليهما ، لا على صفين والجل
وفل لأهلها : والله ، ما التحمت فيكم قروحي ، ولا جرحى بمندمل

ثم يعجب بما فعله بهم صلاح الدين الذى جاء إليهم لينقذهم من يد الفرنج أعدائهم :

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شيء غير قسمة ما ملكتم بين حكم السبي والنفل
وأخذ يذرف الدمع على آثارهم فيقول :

مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل
قبلت عنها بوجهى ، خوف منتقد من الأعداء ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت رحابكم ، وغدت مهجورة السبل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم حال الزمان عليها ، وهى لم تحل

ومضى بعدئذ يعدد مآثرهم ، ومواسمهم ، وحفلاتهم ، وجودهم ، فقال :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ورث منها جديد عنهم ، وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام ، والعيدان كان لكم فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما يهتز ما بين قصرىكم : من الأسفل

والخيل تعرض من وشى ومن شية مثل العرائس فى حلّى وفى حلل
وما حملتم قرى الأضياف من سعة الأطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم حتى عمتم بها الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للوافدين ، وللضيف المقيم ، وللطارى من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم لمن تصدر فى علم وفى عمل
ويختم القصيدة بأمل يداعبه فى أن تعود الدولة ، ويعود بعودتها آماله وأمانيه ،
فيقول :

وربما عادت الدنيا لمعقلها منكم ، وأضحت بكم محولة العقل (١)
وترك لعواطفه العنان فى حديثه عن الخلفاء الفاطميين وحبهم ، إذ قال :

والله ، لا فاز يوم الحشر مبغضكم	ولا نجا من عذاب النار غير ولى
ولا سقى الماء من حر ، ومن ظمأ	من كف خير البرايا ، خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التى خلقت	من خان عهد الإمام العاضد بن على
أئمتى ، وهداى ، والذخيرة لى	إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
تالله لم أوفهم فى المدح حقهم	لأن فضلهم كالوابل الهطل
أئمة خلقوا نورا ، فنورهم	من نور خالص نور الله لم يفل
والله لا زلت عن وجهى لهم أبدا	ما أكر الله لى فى مدة الأجل
عمارة قالها المسكين ، وهو على	خوف من القتل ، لا خوف من الزل (٢)

ورثى دولة الفاطميين بقصيدة أخرى قال فيها :

لى بالديار غداة البين وقفات	أبكى رسوما خلّت منهن سادات
هى المنازل لى فيها علامات	من بعد سكانها أهل العلا ماتوا
منازل العز تبكى بسعيهم	منازل لم تزل عندى عزيزات

(١) الروصتين ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢) قلا من مفرج الكروب .

شاورت أبله قلبي في السلو ، وقد يقال : للبله في الدنيا إصابات
فقال : رأيي ضعيف ، لست أقبله كيف السلو ، ولي في القوم نيات
قدمات قوم ، وما ماتت مكارمهم وعاش قوم ، وهم في الناس أموات
يارب ، إن كان لي في وصلهم طمع عجل على ، فلتأخير آفات^(١)

وللقاضى الفاضل بيتان في الدولة الفاطمية بعد سقوطها ، هما على قصرهما شديد الدلالة
على ما كان لها من آثار ، شادتها أيد لها طاقة فوق طاقة البشر ، وعلى ما بدأ ينزل بها من
ضربات ، تهد من جوانبها ، إذ قال :

صاحب هذا القصر كم قبلت ساحته أمس ، وكم عظما
وقدرة القادر في هدمه أعظم منها في بناء السما^(٢)

وبما يتصل بذلك رثاء القاضى الفاضل لقصر العزيز بن صلاح الدين بعد موته ، ويظهر
أن من خلفه على عرش مصر عمل على إبادة آثار العزيز ، فأنشأ القاضى الفاضل وكان
صديقاً حميماً للعزيز قصيدة كبيرة ، هي مزيج من الألم والغضب ، والثورة الجياحة على
الأيام ، وعلى هذه اليد التي امتدت فدمرته ، والحزن على أن بقي ، حتى رأى آثار الاحبة
نهباً بيد البلى ، فقال :

وقفنا على قصر العزيز ، وقد عفا نقيب عليه الدهر ، لما تحكما
سلام عليه ، من معنى معنف وقل له من صاحب أن يسلبا
بكيت له دمعا ولو كنت منصفاً بكيت دمعا ، والدمع ضرب من الدما
تأخرت من بعد الاحبة مدة ولو أن لي أمراً لكنت المقدما
لئن صرت فوق الأرض أرضاً فربما عهدناك من فوق السماء لنا سما
عزيز علينا أن نراك على البلى تراباً نهى المشغوف أن يقيمما
تصدق له من لا يراقب حرمة ومن ليس يرعى للمكارم محرما

وذلك صريح في أن الذين ولوا الحكم بعد العزيز عملوا على تعفية آثاره وتدمير قصره .

(١) قلا عن مفرج الكروب . (٢) التذكرة الصفدية ج ١٣ ص ٢٥ .

وتثور في نفس الفاضل ذكريات الماضي قوية عنيفة ، فيقول :

وكم قد حجبنا فيك للمجد كعبة وكم قد أقننا فيك للحج موسما
وكم قد وجدنا فيك راحة راحة تقبل إذ تعطى حطيمًا وزمزا
كأن لم تكن فيك السعادة طلقة ووجه ظباها باسمًا متجها
ولا صار ذاك البهو ملكا محجبا ولاجر ذاك الرحب جيشاً عرمرما
ولا كان قصد الوفد غرة كوكب فلما بدت صلى عليها ، وسلمما

تم اتجه بعدئذ إلى الدار يتاجيها ، متحدثا عما في قلبه من آلام لما أصابها ، وما يضره
أفكار كان يتمنى تحقيقها ، ليحفظ البيت الصلاحي بوحدته وتماسكه ، فيقول :

وقل : يا دار الظاعنين ، يرغنا وعهدك ، أن أضحي لك الدهر مرغما
خذوا أدمعى عقدا نثرا ، فطالما نظمت له النعماء عقدا منظما
وما نظر الإنسان دنيا يحبها وليس له فيها حبيب سوى العمى
ولمى لملان الفؤاد عزائما لو أنى وجدت اليوم للرأى معزما^(١)

ولعل السبب في أن الشعراء لم ترث الدولة الأيوبية عندما قام المماليك بالامر من بعدهم ؛
هو أن الحكم الأيوبي لم يبد مرة واحدة ، كما حدث للفاطميين ، بل حكم هؤلاء المماليك باسم
الأيوبيين أولا ، وكان لامراء البيت الأيوبي حكم لا يزال قائما بالشام ، كما أن المماليك لم يعملوا
على إبادة آثار الأيوبيين ، بل حافظوا عليها ، وكانوا يعتزون بنسبتهم إليهم ، وعملوا مثلهم
على أن يتلقوا التقليد من الخليفة العباسي ، حتى إنه بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد عمل
بيبرس على إعادتها بالقاهرة ، ليتولى من قبلها عرش السلطنة .

وأخذ العلماء بحظهم من رثاء الشعراء ، مما يدل على المنزلة السامية التي حل فيها علماء هذا
العصر ؛ وما نالوه من تقدير وإجلال ، كقول صاحب نجم الدين البودى ، يرثى شمس الدين
الحسروشاوى ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ :

أيا ناعيا عبد الحميد ، تصبرا على ، فإن العلم أدرج في كفن

مضى مفرداً ، في فضله وعلومه وعدت فريدا لهم ، والوجد ، والحزن
فيا عين ، سحى بالدموع لفقده فما حسن صبرى بعده اليوم بالحسن
تلقته أصناف الملائك بهجة بمقدمه الأسنى على ذلك السنن
تقول له : أهلاً ، وسهلاً ، ومرحباً بخير فتي وافي إلى ذلك الوطن^(١)

وقد يتجه بعض من رثى هؤلاء العلماء إلى استخدام الاصطلاحات العلمية للمادة ، التي
شهر بها المرثى ، كقول شرف الدين الحصنى ، يرثى محمد بن مالك ، صاحب الألفية المشهورة
في النحو ، والمتوفى سنة ٦٧٢ هـ :

ياشتات الأسماء والأفعال بعد موت ابن مالك المفضل
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه في الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم ، بإذن الله ، من غير شبهة ومحال
عدم النعت والتعطف والتوكيد مستبدلاً من الأبدال
ألم اعتراه أسكن منه حركات كانت بغير اعتلال
يا لها سكتة لهمز قضاء أورثت طول مدة الانفصال
رفعوه في نعشه ، فانتصبنا نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه ، يا عظم ما فعلوه وهو عدل معرف بالجمال
أدغموه في الترب من غير مثل سالماً من تغير الانتقال
وقفوا عند قبره ساعة الدفن وقوا ضرورة الامتثال
ومددنا الأكف نطلب قصراً سكنا للنزول من ذى الجلال
آخر الآى من سبأ حظنا منه حظه جاء أول الأنفال
يا لسان الأعراب ، يا جامع الإءاء راب ، يا مفهما لكل مقال
يا فريد الزمان في النظم ، والنش ر ، وفي نقل مسندات العوالى
كم علوم بثنتها في أناس علوا ما بثت عند الزوال^(٢)

(١) هيون الأنباء ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) بغية الرواة ص ٥٥ وفيها : قال الصلاح الصفدى : ما رأيت مرثية في نحوى أحسن من هذبة
المرثية . وله رأيه الذى لا نوافقه عليه .

وما يسترعى النظر أن بعض الشعراء لم يقف في رثائه عند عليّة القوم ، بل رثى ذوى الحرف الصغيرة ، فهذا حيدرة بن الحسين القاضي النفيس ، الذى كان يعيش بقوص سنة ٥٣٣ هـ يرثى ملاحا ، وقد أجاد في هذا الرثاء ، وإن كان قد استخدم قليلا من العامية ، إذ قال :

من لجر اللبان فى الثقلين	ولإلقا المرسى على الأنطين
واعتقال المدرى ، وقد سكن الرى	ح ، برغم السفار ، فى تشرين
والمجاذيف ، من بها مستقل	بعدا قد أتاك ريب المنون
من يلالى لصحبه كل وقت	بنشيد جزل ، وصوت حزين
يطرب الأروع الحليم ، فيلهو	ويسلى بالحسن لب الحزين
يهتدى فى الظلام بالقطب والجد	دى ، وفى الصبح بالضياء المبين
فتشق البحار فى الليل شقا	حركات تولدت من سكون
كانت المركب التى أنت فيها	حرما آمناً ، كحصن حصين
ففى اليوم بعد فقدك عطل	بل حطام ملقى ليوم الدين (١)

وله قصيدتان رثى بهما قوازا كذلك (٢) :

وما يسترعى النظر كذلك أن بعض شعراء ذلك العصر بدأ رثاءه بالغزل ، كقول القاضي الفاضل فى رثاء بنى رزيك ، ومن هذا الغزل :

أستودع الله فى أظعانهم قرا إليه لو ضلت الأقمار تحتكم (٣)

الهجاء :

وكان للهجاء نصيب فى شعر هذا العصر ، هجى الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والعلماء ، فما هجى به خلفاء الفاطميين قول العماد فيهم ، بعد سقوط دولتهم بمصر :

توفى العاضد الدعى ، فما	يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى ، وغدا	يوسفها فى الأمور محتكما
وانطفأت جرة القواة ، وقد	باخ من الشرك كل ما اضطرما

(٢) للزجج السابق ٢٥٥ .

(١) الطالع السعيد ص ١٢٤ .

(٣) مختار شعر القاضي الفاضل ص ٨ .

وبات داعى التوحيد منتصرا ومن دعاة الإشراك منتقيا
وظل أهل الضلال فى ظلل داجية من غيابة وعى
وارتبك الجاهلون فى ظلم لما أضاعت منابر العلى
واستبشرت أوجه الهدى فرحا فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الأعداء منتك الحس وفى الطغاة مقتسما
قصور أهل القصور أخرها عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعد السكون ساكنها ومات ذلا وأنفه رغما^(١)

ومما هجى به الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ قول المعتمد بن الأنصارى :
لم تأت يا حسن بين الورى حسنا ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب والجور فى أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب تيه الملوك ، وأخلاق المجانين^(٢)

ومما هجى به الوزير هبة الله بن صاعد الفائزى قول جمال الدين بن مطروح :
لعن الله صاعدا وأباه فصاعدا
وبنيه فنازلا واحدا ثم واحدا^(٣)

ومضى هبة الله بن البدر يهجو أنف القاضى الجليلس بأكثر من ألف مقطوع^(٤) . ونبغ
بعض شعراء ذلك العصر فى الهجاء ، كابن منير الطرابلسى ، وابن عنين .

ولأنك لتلخ فى بعض هذا الهجاء نظرات نقدية ، لبعض أحوال المجتمع ، تناولها شعراء
ذلك العصر فى لهجة ساخرة ، ونستطيع إذا تعمقنا هذا الهجاء أن ندرك الكثير مما كان فى
هذا العصر ، مما لم يرق لدى الشعراء ، فنرى أن بعضهم قد استثقل هذه الألقاب التى يسمى
بها العلماء والقضاة ومن جرى مجراهم ، من مثل شمس الدين ، وبدر الدين ، وتاج الدين ،
قال ابن المسجف فى جماعة بدمشق :

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٠ .

(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٧٨ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٩٥ .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٨ .

خس تيجان لا يساوون نعلًا رث ، في قيمة ولا مقدار :
الشخير ، والأعيور ، والتبشار ، وابن المصري ، وابن الجوارى^(١) .

قالوا : ومن العجب سنة ثلاث وستين وستائة — اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء
في زمن واحد ، وكل منهم لقبه شمس الدين ، واتفق أن الشافعي منهم استتاب من لقبه
شمس الدين ، فقال الشعراء في ذلك وما قالوه :

قضاتنا كلهم شمس ونحن في أكثف الظلام^(٢)
وقيل أيضا :

أظلم الشام وقد ولي الحكم شمس
ليس فيهم من يبت الحكم علما أويسوس^(٣)

ومن هذا الباب قول ابن عنين يهجو جماعة :

صعد الدين يستغيث إلى الله ، وقال : الأنام قد ظلموني
يتسمون بي ، وحقك لا أعرف شخصا منهم ، ولا يعرفوني
جعلوا ابن المصري تاجي ، ولو كان شراكا للنعل لم ينصفوني
ثم قالوا : البكري صدرى ، كما قالوا ، وقالوا : ووجهي الزنكلوني^(٤)

وقوله في الشهاب فتيان الشاغورى :

يا من يلقب ظلما بالشهاب ، وإن أضحي بظلمته قد أظلم الشهاب^(٥)

وهل لنا أن نلح في أبيات ابن المسجف ما كان عليه بعض الولاة من شراهة في أموال
الشعب يفتصبونها ، كلما بدا لهم ؟ حتى لقد اضطر الشاعر إلى مدح السلطان ، كي يبقى له ماله ،
حين قال :

أنا في جيل خسيس وقبيل ، وزمان
أمدح السلطان ، كي يصبح مالى فى أمان
أكذا كان أبو تمام قبلى ، وابن هانى^(٦)

(٢) ذيل الروضتين ص ٢٣٦ .
(٤) ديوان ابن عنين ص ٢٠٩ .
(٦) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٥٨ .

(١) فوات الوفيات ص ٢٥٩ .
(٣) ذيل الروضتين ص ٢٣٦ .
(٥) المرجع السابق ص ٢١٢ .

كما أغضب أخذ السلطان زكاة المبال بعض الشعراء ، ومن هؤلاء ابن عنين ، جاء من
اليمين إلى مصر ، فطلبوا منه زكاة ما ورد معه ، فقال يهجو الملك العزيز صاحب مصر :
ما كل من يتسمى بالعزيز لها أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين (١) بون في فعالهما هذاك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقه (٢)

وهكذا نجد في هذا الهجاء نقداً ، وانعكاسات لما كان في هذا المجتمع : من قوانين
وعادات وتقاليد .

وخير ألوان الهجاء في ذلك العصر ما كان على سبيل التهكم والسخرية ، كقول ابن خروف
يهجو مذهب الدين الطيب الدخوار شيخ أطباء دمشق :

لا ترجون من الدخوار منفعة	ولو شفى علتيه : العجب والعرجا
طبيب إن رأى المطبوب طلعتة	لا يرتجى صحة منها ، ولا فرجا
إذا تأمل في دستوره سحراً	وقال : أين فلان ؟ قيل : قد درجا
فشربة دخلت مما يركبه	جسم العليل ، وروح منه قد خرجا (٣)

وقوله فيه أيضاً :

أن الأعيروج حاز الطب أجمعه	استغفر الله ، إلا العلم والعمل
وليس يجهل شيئاً من غوامضه	إلا الدلائل والأمراض والعلا
في حيلة البرء قلت عنده حيل	بعد اجتهد ، ويدرى للردى حيل
الروح تسكن جثمان العليل على	علائقه ، فإذا ما طبه رحلا (٤)

الوصف

وكان لشعر الوصف نصيب في ذلك العصر ، وقد وصف الشعراء يومئذ ما يحيط بهم
من جمال الطبيعة في مصر ، فوصفوا النيل ، والبرك المنتشرة في أرجاء القاهرة ، وما بها : من
أزهار ورياحين ، ولكن من الواجب أن أقرر أن هذا اللون من الشعر قلة ، بالنسبة إلى
غيره من الألوان الأخرى .

(١) يريد بالعزيزين الملك العزيز طغتكين بن أيوب صاحب اليمن ، والملك العزيز عثمان صاحب مصر

(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) ديوان ابن عنين ص ٢٢٣ .

كتب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز إلى الأفضل يصف النيل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظرا عجبا لازلت تحيي السرور والطربا
ألفت بين الضدين مقتدرا فن رأى الماء خالط اللبنا
كأنما النيل والشموع به أفق سماء ، تألفت شها
قد كان من فضة ، فصار سم وتحسب النار فوقه ذهباً^(١)

وقال أبو الحسن علي بن أبي البشر الكاتب :

شربنا مع غروب الشمس شمسا مشعشة إلى وقت الطلوع
وضوء الشمع فوق النيل باد كأطراف الأستة في الدروع^(٢)

ولأبي الحسن بن الساعاتي يوم كسر خليج النيل :

إن يوم الخلتج يوم من الحسن بديع المرقى والمسموع
كم لديه من ليث غاب صئول ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السدّ عزة ، قبل أن تمسلك ذلة الحب الخضوع
كسروا جسر هتاك ، لحاكي كسر قلب ، يتلوه فيض دموع^(٣)

ومن أعجب بالنيل بمن زار مصر علي بن محمد بن علي بن خروف الأندلسي ، فقال فيه :

ما أعجب النيل ، ما أحلى شمائله في ضفتيه من الأشجار أرواح
من جنة الخلد ، فياض على ترع تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء ، كما زعموا وإنما هي أرزاق وأرواح^(٤)

وبرغم هذا الجناس التام الذي التزمه الشاعر في آخر الأبيات ، وفق في تصوير شعوره المعجب بماء النيل ، فهو ليس ماء ينزل من المطر ، ولكنه ينبع من جنة الخلد ،

(١) الرسالة للصربية ص ٢٢ نوادر المخطوطات المجموعة الأولى .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) بغية الوعاة ص ٣٥٤ .

ولانه لأرزاق لمن على شاطئيه ، ومصدر حياتهم .

كما أعجب ابن قلاقس بمنظر الشمس تغرب في النيل ، ويسدو بعد مغيبها الهلال ،
إذ قال :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة وأعجب لما بعدها من حرمة الشفق
غابت ، وابدت شعاعا منه يخلفها كأنما احترقت بالماء في الفرق
وللهلال فهل وافى لينقذها في إثرها زورق قد صيغ من ورق^(١)

ولكنني أخذ على ابن قلاقس أن هذا المنظر ، وهو غروب الشمس في ماء النيل ، لا يرى
في مصر ، فليس نهر النيل من الاتساع بحيث يسمح للعين أن ترى الشمس تغرب فيه .

وكان من أشهر برك مصر بركة الحبش ، وكانت في ظاهر مدينة القسطنطينية من قبلها ،
فيما بين الجبل والنيل^(٢) ، قال أبو الصلت ، وفي هذا الوقت من السنة ، يعنى أيام النيل ،
تكون أرض مصر أحسن شيء منظراً ، ولا سيما متزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة ،
كالجزيرة ، والجيزة ، وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من المواضع التي يطرقها أهل الخلاعة
والقصف ، وينتابها ذوو الآداب والظرف ، واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان ، إلى بركة
الحبش ، وافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، فظللنا
نتعاطى من زجاجات الأقداح شموساً في خلع بدور ، وجسوم نار في غلائل نور ، إلى أن
جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال بعضهم
(وهو أمية المذكور) .

لله يومى ببركة الحبش والافق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب كصارم في يمين مرتعش
ونحن في روضة مفوقة ديج بالتور عطفها ووشى
قد نسجتها يد القمام لنا فنحن من نسجها على فرش
فعاطنى الراح ، إن تاركها من سورة الهم غير منتعش

(٢) خطط القرينى ج ٣ ص ٢٤٧ .

(١) دهوان ابن قلاقس ص ٧٥ .

واسقى بالكبار مترعة فمن أروى لشدة العطش
فائق الناس كلهم رجل دعاه داعي الهوى فلم يطش^(١)
وتغنى بها كذلك ظافر الحداد في قوله :
تأملت نهر النيل طولاً ، وخلفه من البركة الغناء شكل مقدر
فكان وقد لاحت بشطأيه خضرة وكانت وفيها الماء باق موفر
غمامة شرب في جواشن خضرة أضيف إليها طيلسان مقور^(٢)

وعاد أمية بن أبي الصلت إلى التغنى بهذه البركة ، حين قال :

علل فؤادك باللذات والطرب وبأكر الراح بالنايات والنخب
أما ترى البركة الغناء لابسة وشيا من النور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد النبت في حلل قد أبرز القطر منها كل محتجب
من سوسن شرق بالطل محجرة وأقحوان شهى الظلم والشنب
وانظر إلى الورد ، يحكى خد محشم من نرجس ، ظل يبدى لحظ مرتقب
والياسمين ، وقد أربى على درر والراح ، من درر تطفو على ذهب
كم مرة قد شفينا فيه غلتنا بجاحم من فم الإبريق ملتهب
شمس من الراح ، حيانا بها قر موف على غصن ، يهتز في كشب
أرخی ذوائبه ، وانهر منعظا كصعدة الريح في مسودة العذب
فاطرب ودونكها فاشرب ، فقد بعث على التصابي دواعي اللهو والطرب^(٣)

والشاعر هنا يدفعه جمال الطبيعة إلى الاستمتاع بها ، والاستمتاع بالحياة ، وكأنما يريد بهذا الاستمتاع أن يشارك الطبيعة في فرحها وإبتهاجها .

وأعجب الشعراء بجزيرة الروضة ، ونظموا في جنان طبيعتها ، وحسن موقعها في النيل ، وتغزلوا بمن يسكن مغانيها ، وطلبوا اللهو في حدائقها وبساتينها ، ومن أجاد في وصفها الأسعد بن بمانى ، حين قال :

(١) خطط المريزى ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) الرسالة المصرية ص ٢١ من نواذر المخطوطات المجموعة الأولى .

جزيرة مصر لا عدتك مسرة ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن بانه يبيت ويحيي هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هودجا ومختلفات الموج فيها جمالها
ومن أعجب الأشياء أنك جنة ترف على أهل الضلال ظلالها^(١)
والأسعد في هذه الآيات يعنيه أكثر ما يعنيه أن الجزيرة موطن اللذات، ومكان
المجون واللبو، وعناه منها مرة أخرى جمال طبيعتها، عندما قال مادحا الملك الكامل
ابن العادل :

جزيرة مصر، أنت أشرف موضع على الأرض لما حل فيك محمد
وفيك علا البحران، لكن كف ذا على الناس أندى بالعطاء وأجود
وأصبحت الأغصان من فرح به تمايل، والأطياف فيك تغرد
فرق نسيم حين سار، وجدول ويشدو هزار، حين يرقص أمله^(٢)
عرض ظافر الحداد فيما عرضه علينا صورة للجزيرة والنيل في قوله :
أنظر إلى الروضة الغراء والنيل واسمع بدائع تشبيهي وتمثيلي
وانظر إلى البحر بمجوعا ومفترقا هناك أشبه شيء بالسراويل
والريح تطلويه أحيانا، وتنشره نسيما بين تفريق وتعديل^(٣)
ولم يوفق ابن قادوس الديماطي^(٤) لغرامه بالجناس في أن يصور لنا جمال الجزيرة
حين قال :

أرى سرح الجزيرة من بعيد كأحداق تغازل في المغازل^(٥)
كان مجرة الجوزاء خطت وأثبتت المنازل^(٦) في المنازل^(٧)
وخلد الشعراء ذكرى البستان الكافوري، بما كان يزرع فيه من نبات الحشيشة، وكان
يضرب بها المثل في الحسن، فما قاله فيها جلال الدين أبو المعز، أحمد بن الصائغ :
عاطنى خضراء كافورية يكتب الخمر لها من جندها

(١) حسني المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٣ . (٢) و (٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) سبتاق ترجمته .

(٥) جم منزل : اسم مكان من غزل القطن ولم أفهم قيمة هذه المغازل في الغزل .

(٦) يريد بها منازل الجوزاء والجوزاء برج في السماء سميت بذلك لاعتراضها في وسط السماء ويريد

بالمنازل الثانية منازل الجزيرة . (٧) خطط القرطبي ج ٣ ص ٢٩٨ .

أسكرتنا فوق ما تسكرنا وربحنا أنفسنا من حدها^(١)

وقال أيضاً :

عاطيت من أهوى وقد زارني كالبدر وافي ليلة البدر
والبحر^(٢) قد مد على متنه شعاعه جسراً من التبر^(٣)
خضراء كافورية ، رنحت أعطافه من شدة السكر
يفعل منها درهم فوق ما تفعل أرطال من الخمر
فراح نشوانا بها غافلا لا يعرف الحلو من المر
قال ، وقد نال بها أمره فبات مردوداً إلى أمرى :
قتلتى ، قلت : نعم ، سيدى قتلين : بالسكر ، وبالبحر^(٤)

ولم يقف الشعراء يومئذ عند حد وصف الطبيعة في مصر بل تعدى ذلك إلى وصف
آثارها الرائعة ، فن أعجب بأهرام مصر عمارة اليمنى حيث يقول :

خليلي ما تحت السماء بنية تماثل في إتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ولم يتنزه فى المراد بها فكرى^(٥)

وعمارة هذه الآليات القليلة يعلن إعجابه الذى لا حد له بهذه الأهرام ، وعجزه عن فهم
أسرارها ، والمراد بإقامتها ، وما أقوى شعوره بخلودها ، حين وصف بناءها بأن الدهر
يخشاه ويخافه .

كما أعجبوا بمنار الإسكندرية ، وكان أحد الأبنية العجيبة فى العالم ، ذكر ابن جبير فى
رحلته أن منار الاسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا ، وأنه ذرع أحد جوانبه الأربعة
فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، فأناف على خمسين ذراعا ، وأن طول المنار أزيد من مائة

(١) خطط القرى ج ٣ ص ٤٠ . (٢) يريد بالبحر نهر النيل .
(٣) يشبه ضوء البدر بالتبر ، وليس بصواب ، فالتبر أصفر ، وشعاع البدر أبيض .
(٤) خطط القرى ج ٣ ص ٤٠ . (٥) خطط القرى ج ١ ص ١٩٥ .

وخمسين قامة ، وكان ثلاث طبقات : الطبقة الأولى مربعة ، والثانية مثمثة ، والثالثة مدورة .
وقد أبان الوجيه الذروي إعجابه بهذا المنار حيث قال :

وسامية الأرجاء ، تهدى أخا السرى	ضياء ، إذا ما حندس الليل أظلمنا
لبست بها برداً من الأنس صافيا	فكان بتذكّار الأحبة معلما
وقد ظللتني من ذراها بقبة	الاحظ فيها من صحابي أنجما
ثفيل أن البحر تحتي غمامة	وأني قد خيمت في كبد السما ^(١)

وقال فيه ابن قلاّس :

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقياً	كأنما فيه للفسرين ^(٢) أوكار
راسى القرارة ، سامى الفرع ، في يده	للنور والنور أخبار وأخبار ^(٣)
أطلقت فيه عنان النظم ، فاطردت	خيل لها في بديع الشعر مضمار

ولا ريب أن ابن الذروي أكثر إجادة من ابن قلاّس : فبينما حدثنا الأول عن شعوره
عند ما ارتقاها ، إذا بالثاني يقف لحسب عند الحديث على ارتفاعها ، ورسو قرارها .

ووصف الشعر كذلك ما أنشئ بالقاهرة ودمشق من معاهد للعلم باركها الشعر ، وأثنى
على من أنشأها ، وقد أوردنا بعض ما قيل في مدارس القاهرة في كتاب الحياة العقلية في
عصر الحروب الصليبية^(٤) . وما قاله الشعراء في المدرسة النورية التي أنشأها نور الدين
محمود قول العرقلة :

ومدرسة سيدرس كل شيء	وتبقى في حمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقاً وغرباً	بنور الدين محمود بن زكي
يقول وقوله حق وصدق	بغير كناية وبغير شك

(١) المرجع السابق خطط القرظي ج ١ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢) النسران : كوكبان واقع وطائر .

(٣) هذا البيت لم يرد في ديوان ابن قلاّس وأبيته القرظي في المخطط ج ١ ص ٢٥٥ وزاد الديوان

ص ٥١ بيتين آخرين . (٤) ص ٣٨ و ٣٩ و ٤١ .

دمشق في المدائن بيت ملكي وهذى في المدارس بيت ملكي^(١)

وعما هو جدير بالذكر أن شعر الوصف بجميع ألوانه قليل بالنسبة إلى الأنواع الأخرى ، وكثيراً ما يأتي عرضاً بين ثناياها ، ولعل ذلك راجع إلى أن الشعر كان يعيش يومئذ في كنف الأمراء والعظماء ، فلم يفرغ الشعراء إلى الطبيعة وجمالها . وقل في هذا العصر كذلك شعر الطبيعة عند شعراء الشام ، وفي الأحداث الجارية فيه في ذلك الحين والمآسى التي مرت بأهله ما صرف الشعراء عن التغنى بجمال الطبيعة ، ولكنه سجل ما أصاب الشام سنة خمس وستين وخمسمائة ، من زلزلة كبرى ، خربت بلاده ، وهدمت أسواره . وقلاعها ، وأسقطت دوره على أهلها ، وأهلكت من سكانه يخرج عن العدد والاحصاء ، ومع ذلك خف وقع مصيبه عند ما دمرت هذه الزلزلة بلاد الصليبيين ، حتى لقد نسي العباد هول ما نزل بما تحت يد المسلمين من بلاد الشام ، ومضى يتغنى بمصاب الفرنج في بلادهم ، إذ قال :

جل رزء الفرنج ، فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد
أخذنهم بالحق رجفة بأس تركتهم صرعى صروف العوادي
خفضت من قلاعها كل عال وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه ، فهو ماض مظهر سر غيبه ، فهو باد
آية آثرت ذوى الشرك بالهلك وأهل التوحيد بالإرشاد
والإعادي جرى عليهم من التدمير ما قد جرى على قوم عاد
ويحق أصيبت الأرض لما اشتكت من مقام أهل الفساد^(٢)

أما زلازل سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فقد توالى عدة مرات ، وخربت عدة بلاد ، وهلك عدد لا يحصى من الناس ، قال ابن الأثير : ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بنور الدين ، جمع وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال ، وقد أكثر الشعراء من الحديث عن هذه الزلازل ، ومن ذلك ما قاله أسامة بن منقذ :

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من هذى الزلازل ، فهي الهلك والعطب

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥ .

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٩ .

ماجت بهم أرضهم ، حتى كأنهم ركاب بحر مع الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ، ونصفهم لمصرع السلف الماضين يرتقب
تعوضوا من مشيدات المنازل بالأكواخ ، فهي قبور سقفها خشب
كأنها سفن ، قد أقبلت ، وهم فيها ، فلا ملجأ منها ، ولا هرب^(١)

الغزل

وكان للغزل نصيب موفور في ذلك العصر ، قصد إليه الشعراء قصداً ، ووضعوه في
أول قصائدهم ، ذات الأغراض المختلفة ، حتى جعلوه أول المراثي ، وقد بلغ بعض قصائد
الغزل يومئذ أرفع درجات السمو في تعبيرها عن تلك العاطفة السامية .

وتنوع الغزل يومئذ بين غزل راض سعيد ، وآخر ناثر ساخط ، وغيرهما عاتب ، أو
مسترض ، أو شاك ، أو واصف ، أو ناقم ، وهو في جميع مناحيه لا يقل في جملة عن أسلوب
الغزل في أرقى عصور العربية شأواً ، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ :

فليتهم حكوا فينا بما علوا	ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلوا
ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم	ما مر يوماً بفكرى ما يريهم
على ودائعهم في صدرى التهم	ولا أضعت لهم عهداً ، ولا اطلعت
ملوا ، فصدتهم عن وصلى السأم	فليت شعرى بما استوجبت هجرهم
وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا	حفظت ماضيهم ، أغضيت حين جنوا
ما الرزق إلا الذى تجرى به القسم	حرمت ما كنت أرجو من ودادهم
قذى ، وذكرى في آذانهم صمم	محاسنى منذ ملونى ، بأعينهم
مناك من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم	وبعد ، لو قيل لى : ماذا تحب ، وما
قلبي محل المنى ، جاروا أو اجترموا	هم مجال الكرى من مقلتى ، ومن
حسبي هم ، أنصفوا فى الحكم ، أو ظلموا ^(٢)	تبدلوا بي ، ولا أبغى بهم بدلا

بل لقد خص بعض الشعراء معظم شعرهم بالغزل ، كشمس الدين محمد بن سليمان

(٢) ديوان أسامة ص ٤٤ .

(١) الروضتين ج ١ ص ١٠٥ .

التلساني المعروف بالشاب الظريف ، المتوفى سنة ثمان وثمانين وستمائة للهجرة ، فإن أكثر شعره غزل ، كقوله :

لا أسهر الله طرفاً نام عن سهرى	وعذب القلب بالأشجان والفكر
ولا سقى داره يوماً ، إذا سقيت	دار يدمعى ، إلا وأبل المطر
يا قوم ، قد شفى وجدى بيدر دجى	على قضيب أراك ناعم نضر
ظبي من الإلّس ، لولا سحر مقلته	ما بت فيه بليل غير ذى سحر
فى حاجبيه ، وعينيه ، ومنطقه	شبه من القوس ، والأسهام ، والوتر
روض الجمال ، وأفق الحسن ، فهو لنا	قد راح يجمع بين الغصن والقمر (١)

وكان ديوان التلعفرى المتوفى بحماه سنة ٦٧٥ هـ كله غزلاً . ولا زلنا إلى اليوم نردد تلك الأغنية الغزلية لابن النبيه أحد شعراء ذلك العصر ، وهى قوله :

أفديه ، إن حفظ الهوى ، أوضيما	ملك الفؤاد فاعسى أن أضنما
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه	عذباً فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل ، تدارك الصبر الجميل ، فقد عفا ، وتضعضنا	
هل فى فؤادك رحمة لم تميم	ضمت جوانحه فؤادا موجما
هل من سبيل أن أبت صبا بى	أو أشتكى بلواى ، أو أتوجما
إنى لأستحي كما عودتنى	بسوى رضاك إليك أن أتشفعا (٢)

واستمر شعراء ذلك العصر أيضا يتغزلون ، بالمذكر ، كأسلافهم من قبل ، كقول التلساني :

أيها المودع قلبى	نار وجد توقد
كيف تستأهل نارا	مهجة تهوى محمد
نعم حسن لفؤادى	فيه وجد يتجدد

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤١ .

(٢) ديوان ابن النبيه ص ٦ .

نوءه بالطرف ، والناس ر بقلبي ليس تخمد^(١)

بل لقد شرب الشعراء بالملك العادل سلامش ، الذى ولى العرش بعد أبيه الملك الظاهر
بيبرس ، لما منحه من جمال ، صار مضرب المثل ، حتى يقول القائل : « نمر سلامشى^(٢) » .

وأرخ بعضهم لحب الغلمان ومن شهر بهذا الحب كما فعل أحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى
بالقاهرة سنة ٦٥١ هـ . فى كتاب سماه : « نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب^(٣) » ، ضمنه
أوصاف الغلمان المرد ، وأحوال من شغف بهم ، وما ورد فيهم .

وبما هو جدير بالذكر هنا أن بعض الشعراء تغزل فى إفرنجيات . حكى الفقيه
عبد الوهاب الدمشقى ببغداد سنة ٥٥٠ هـ ، قال : دخل الفيسرانى سنة ٥٤٠ هـ بلد أنطاكية
لحاجة . عرضت له ، فنظم مقطعات يشرب فيها بإفرنجيات ، فنها قوله فى إفرنجية يصفها
بزرقه العين :

لقد فتنتنى فرنجية	نسيم العبير بها يعبق ^(٤)
ففى ثوبها غصن ناعم	وفى قاجها قر مشرق
وإن تك فى عينها زرقه	فإن سنان القنا ^(٥) أزرق ^(٦)

وقال فى أخرى :

واحربا فى الثغور من بلد	يضحك حسنا ، كأنه ثمر
ترى قصورا ، كأنها بيع	ناطقة فى خلالها الصور
هالات طاقاتهن آمله	يبسم فى كل هالة قر
سواقر ، كلما شعرن بنا	برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته	بدر ، ولكن ليله شعر

(١) ديوان القاب الظريف ص ٣٣ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٩ .

(٣) الكتبخ مخطوط فى ٩٧ ورقة بمكتبة الأزهر رقم ٤٢٣ - أباطة (٧٠٦٩ / أدب)

(٤) عبق به الطيب عبقا من باب ععب : ظهرت ريحه بثوبه أو بدنه .

(٥) جمع قناة ومن الرمح . (٦) خريدة القصر ج ١ ص ٨ .

فهو إذا ما السلو حاربه كان لتلك الظفائر الظفر
فيا عذولى فيهن ، دع كلنى^(١) وانظر إلى الشمس هل لها طرر^(٢)
وكن معني على ذوى خدع إن سالم القلب حارب النظر
سرت وخلفت فى ديارهم قلبا تمنيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بها للقرب حتى غبطت من أسروا^(٣)

وقال فى كنيسة السيدة ، وهى قبة شاهقة للنصارى ، بأنطاكية :

متى عجت^(٤) يا صاح بالسيدة فسل عن فؤادى فى الأفئدة
وقلبك حذره عن أن يصاد فإن بها للهوى مصيدة
وجوه تباهى قناديلها بهجة نيرانها الموقدة
ترى كل مستضعف خصره إذا ما دعا طرفه أنجده
وذات روادف عند القيام تحسبها أنها مقعدة
وبدر من الشعر فى غاسق يضاحك أبيضه أسوده
فيالى من ذلك الزبرقان^(٥) إذا زرفن^(٦) الليل^(٧) ، أو جمعه
محل جمال^(٨) ، إذا ما رأيت أمرده قلت ما أمرده^(٩)
به كل نشوانة لحظها يطرق^(١٠) بين يدى عربده
صوارم ، قاطعة فى الجفون ، فهى مجردة ، مغمدة
فهل أنا من فى سبيل الغرام أورده الحب ما أورده
فهل لدم فات من طالب وهيات أعجز يوم غده

(١) السكف : العشق . (٢) جمع طرة وهى الناصية .

(٣) الخريدة ج ١ ص ٨ .

(٤) عاج : أظلم ، ووقف ، ورجم ، وعطف رأس البعير بالزمام .

(٥) الزبرقان : القمر .

(٦) زرفن صدغيه : جعلهما كالزرفين وهو حلقة للباب .

(٧) يريد بالليل شعر الحبيب . (٨) فى الأصل « حبال » محريف .

(٩) مرده : هتا . (١٠) طرق : جعل له طريقا .

وكيف يجازى بقتل النفوس من لم يمد إليها يده^(١)

ولم أجد ظاهرة الغزل بالفرنحيات عند غير ابن القيسراني، وربما كان قد هيء له من أسباب الإتصال بالفرنج في أماكن اجتماعهم ما لم يهيا لغيره من الشعراء.

التصرف :

وشهد هذا العصر شاعرين من أعظم شعراء التصوف هما ابن عربي وابن الفارض وقد كان الشعر والتغنى به من أقوى ما ابتدعه الصوفية لتحريك وجدانهم الديني فكثيراً ما كانت تعزى الواحد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر تغنى بها إحدى القيان عرضاً أو يغنيها أحدهم قصداً^(٢).

وكثيراً ما يشبه الشعر الصوفي الشعر الغزلي في التغنى بالجمال، والحنين إليه، وفي كثير من الأحيان لا تستطيع التمييز بين قصيدتين: إحداهما يتغنى صاحبها بالحب الانساني، والآخرى بالحب الإلهي^(٣). وقد استخدم الصوفية لغة الحب، ورموز المحبين، لأنهم لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أقدر في التعبير عن مواجدهم وأحوالهم من هذه الطريقة وذلك المنهاج، لأن الصوفي يدع قلبه يفيض بالمعاني المتعلقة بالوحدة الوجودية الشاملة، وبذلك الحب الفاهر، الذي هو الأساس الحقيقي القائم عليه كل شيء^(٤). ذلك أن الصوفي يرى الحق وهو الله أصل كل وجود، والحق كما يصوره شعراء الصوفية هو الجمال الأزلي المطلق، المعشوق على الحقيقة في كل جميل، بل إن ما يسمى بالحب الانساني ليس على الحقيقة إلا حبا إلهيا، وبرزخاً موصلًا إليه، والنفس الانسانية تشتهق إلى الاتصال بالحق، وتحن إلى الرجوع إليه، وهذا الشوق الذي يدفعها إلى الغناء عن ذاتها هو وحده السبيل إلى عودتها إلى وطنها القديم، والحب غاية الاتحاد. وقد اعتبر الصوفية الحب أساس الأديان جميعها وفي ذلك يقول عبي الدين بن عربي :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان، ودير لربان

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٩٠

(٤) المرجع السابق نفسه ص ٩١ .

(١) خريدة القصر ١ : ٨٠ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى^(١)

وكانت قصائد ابن الفارض وابن عربى نتيجة لوحى أحوال الوجد الصوفى ، وتزدان
بجمال النظم ، ورقة الأسلوب وأناقة ، وقصائد ابن الفارض فى الطبقة الأولى منه ، وقصائد
ابن عربى فيها الشيء الكثير من الجمال ، بالرغم مما فى أسلوبها من الغموض . ومن خصائص
هذه القصائد أن أوزانها وأنغامها وما صيغت فيه من الأساليب الرمزية ، كل أولئك عوامل
تساعد على انتقال أحوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى ، إلى سامعيه ، ويزداد أثرها
فى السامع ، إذا أنشدت كما تنشد عادة فى حفلات الذكر ، مصحوبة بالموسيقى .

وكان ابن عربى من المتصوفة الذين يؤمنون بوحدة الوجود ، أى أن الله وحده هو
الوجود الحقيقى ، الظاهر فى كل مظهر من مظاهر الخلق المتجلى فى صورة الصوفى عند فئانه
عن نفسه ، فى حال وجدته^(٢) . سمع سائلا فى السوق يكدى الناس ، وهو يقول فى جناب
الحق تعالى . يا من هو الكل ، والكل إليه ، فطاب على قوله ، وأنشد :

سمعت من ليس يدرى ما يقول به قد قال فى الله ، إن الكل هو وإليه
إن الاله بعين الحق أنطقه بما هو الأمر فيما قال فيه عليه^(٣)

وترك ابن عربى عدة دواوين فى الشعر الصوفى ، كما ترك ابن الفارض أثرا فريدا فى
بابه عند المتصوفة هو التائية الكبرى ، التى تحدث فيها عن معراج الروحى ، وهى مصنوعة
فى قالب شعرى رمزى دقيق بديع فى نظرم .

يتحدث ابن الفارض فى تائيته الكبرى ، بلسان الصوفى ، الذى وصل إلى مقام (الاتحاد)
ويخاطب فى أوائلها أحد أصحابه ، فيذكر عهده الأول بالحب الإلهى ، وما عاناه فيه : من
شدائد وعقبات ، لأنه قاصر عن درجة الكمال ، ويشرح كيف سعى إلى تفريج الهم عن

(٢) المرجع السابق ص ٧١ و ٧٣ .

(١) للمرجع السابق ص ٩٢ - ٩٤ .

(٣) ديوان ابن عربى ص ٣٢٤ .

نفسه ، بيثه ذلك الحب إلى المحبوب ، إذ يقول (١) :

ولم أحك في حبيك حالي تبرما بها الاضطراب ، بل لتنفيس كربتي (٢)
ويحسن لإظهار التجلد للعدا ويقبح غير العجز عند الحاجة
ويمعنى شكواى ، حسن تبصرى ولم أشك للأعداء ما بى لأشكت (٣)
وعقبى اصطبارى فى هواك حميدة عليك ، ولكن عنك غير حميدة (٤)
وما حل بى من محنة فهو منحة وقد سلمت من حل عقد عزمى (٥)
وكل أذى فى الحب منك إذا بدا جعلت له شكرى مكان شكيتى
نعم ، وتباريح الصباية إن عدت على من النعماء فى الحب عدت (٦)
ومنك شقائى بل بلائى منة وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة
.....

ومن يتحشر بالجمال إلى الردى رأى نفسه من أنفاس العيش ردت (٧)
ونفس ترى فى الحب ألا ترى عنا متى ما تصدت للصباية صدت (٨)
ثم يؤكد بعد لحبيه أن حبه ثابت على مر الأيام لا يتغير ، فيقول :

ولى نفس حر لو بذلت لها على تسليك ما فوق المنى ما تسلت
ولو أبعدت بالصد ، والهجر ، والقل وقطع الرجا عن خلتي ما تخلت (٩)

- (١) الثانية الكبرى : الأبيات ٤٢ — ٥٩ .
(٢) المعنى لم أتحدث عن حالى فى حبك وما لاقته من عناء ومشقة تبرماً بهذه الحالة لما أصابنى فيها من اضطراب ولكننى تحدثت عن حالى لأفرج الهم عن نفسى بيث ذلك الحب .
(٣) شكى إليه فأشكاه : أزال شكواه وأرضاه .
(٤) أى أن عقبى صبرى عليك بتحمل الأذى الذى يصيبنى فى هواك محودة أما إذا تحملت صبرى وبعدى عنك فالعاقبة غير حميدة .
(٥) عزيمتى : فاعل سلمت .
(٦) أى إن عدت على تباريح الصباية عدت ذلك من نعم الحب .
(٧) المعنى : من يتعرض لأخطار الجمال رأى نفسه قد ردت من العيش التنفيس إلى الموت وفى البيت تقديم وتأخير .
(٨) أى أن نفسى تؤمن بأنها لا ترمى عناء فى الحب تمد منه وتمنع إذا تعرضت له .
(٩) أى ما تخلت نفسى عن خلتي ولو أبعدت بالصد وسواه .

وعن مذهبي في الحب مالى مذهب^(١) وإن ملت يوماعنه فارقت ملتى^(٢)

ثم يشير ابن الفارض إلى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . » . وتلك الآية يسميها الصوفية (آية العهد) ، لأن الله تعالى قد صرح فيها كما يعتقدون بأنه أخذ على بنى آدم عهد المحبة بينه وبينهم ، ويقول ابن الفارض : إنه أخذ ذلك العهد قبل أن تتلبس نفسه بطينة جسده ، وأنه لم يحث بذلك أبداً ، ويقسم أغلظ القسم بصفات جمال المحبوب وجلاله ، أنه يقول فى ذلك قولاً لا رجعة فيه :

وعكم عهد لم يخامره بينا تخيل نسخ ، وهو خير ألية^(٣)
وأخذك ميثاق الولا حيث لم أب بمظهر لبس النفس فى طينتى^(٤)
لأنت منى قلبى ، وغاية بغيتى وأقصى مرادى ، واختيارى ، وخيرتى

وهنا يجيبه المحبوب بأن دعواه الحب محض ادعاء ورياء ، وأن رؤيته المحبوب ليس إلا رؤيته لنفسه ، ووجه إياه ليس إلا وجهه لنفسه ، وأن الحب الخالص ليس إلا الفناء فى المحبوب ، يقول على لسان المحبوب :

حليف غرام أنت ، لكن بنفسه وإبقاك وصفا منك بعض أدلتى
فلم تهونى ما لم تكن فى قانيا ولم تفن ما لم تجتلى فىك صورتى
هو الحب إن لم تقض لم تقض ما ربا من الحب فاختر ذاك أو خل خلتي^(٥)

ويرد على المحبوب محتجا بأن الموت أعز أمانيه ، ويتضرع إليه أن يسعفه مما كان فيه من الألم :

فقلت لها : روحى لديك ، وقبضها إليك ، ومن لى أن تكون بقبضتى^(٦)

(١) أى ليس لى منصرف عن مذهبي فى الحب . (٢) الثانية الكبرى الآيات : ٦٢ - ٦٤ .
(٣) أى قسما بالعهد المحكم الموثوق به الذى أخذته على « إشارة إلى آية العهد » وهو عهد لم يخلطه بينى وبينك أى وم فى اطلاله وقسمى بهذا العهد خير قسم .
(٤) أى حيث لم تظهر قسقى فى ظلال جسدى . (٥) الثانية الكبرى الآيات ١٩٨ - ١٠٢ .
(٦) أى أن روحى بين يديك وقبضها موكل إليك وإنى لأتمنى أن لم كانت فى قبضة يدي فكنت حينئذ أقدمها إليك ..

وما أنا بالشانى^(١) الوفاة على الهوى وشأنى الوفا تأبى سواء سجيى
وماذا عسى عنى يقال سوى قضى فلان هوى؟ من لى بدأ؟ وهو بنغى

ثم يصف بعدئذ الفناء، وهو الحال التى تتجرد فيها النفس عن رغباتها، وميولها، وبواعثها، بحيث تتعطل إرادتها وتموت، فإذا ماتت الإرادة أصبحت النفس طوع الارادة الالهية، تحركها كيف تشاء، وهذا هو حب الله لها، ولكن المحب والمحبوب شىء واحد هو جوهر النفس وباطنها، وهكذا نجد العابد، والمعبود، والعاشق، والمعشوق، متحدين فى شخصية واحدة:

كلانا مصل واحد، ساجد إلى حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلى سوى، ولم تكن صلاتى لغيرى فى أدا كل ركعة^(٢)

وابن الفارض يستعمل لغة أصحاب وحدة الوجود، فى وصفه الاتحاد بالذات الالهية المحبوبة، حيث يقول:

ووصنى، إذا لم تدع باثنين، وصفها وهيئتها، إذ واحد نحن، هيئتى
فإن دعيت كنت المحيب، وإن أكن منادى أجابت من دعائى ولبت
وإن نطقت كنت المناجى، كذلك إن قصصت حديثاً إنما هى قصت
فقد رفعت ثاء المخاطب بيننا وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى^(٣)

وكثير من شعر ابن الفارض فيه هذه الرقة، وإن حوى كثيراً من المحسنات البديعية، وسيأتى فى ترجمته بعض نماذج له.

وبما يتصل بهذا اللون من الشعر قصائد أنشئت فى طريق الصوفية، وأخرى فى الدعاء، والتسبيح، والابتهال إلى الله، وغيرها أودع فيها منشئوها عقائدهم، كما فعل عز الدين بن

(١) الشانى: المفضل.

(٢) التائية الكبرى ١٥٣ - ١٥٤.

(٣) تحليل القصيدة على هذا الوجه مأخوذ من كتاب « فى التصوف الإسلامى وتاريخه »

من ص ١٢٠ - ١٢٤.

عبد السلام^(١)، وطلائع بن رزيك^(٢) .

وإلى جانب هذه الأغراض تحدث الشعراء عن عواطفهم الشخصية ، وما مر بهم في الحياة من أحداث ، لا يأخذها الحصر ، فشكوا حيناً ما ألم بهم من أحداث الدهر ، وابتهجوا إذا نالوا في الحياة أملاً ، أو بلغوا هدفاً ، ومن ذلك الشعر الكثير لابن عنين يحن فيه إلى دمشق ، ويتشوق إليها بعد أن أمر صلاح الدين بإخراجه منها ، إلى حيث يشاء من البلاد ، ومن ذلك قوله :

حنين إلى الأوطان سوف يزول	أبيت وأسراب النجوم كأنها
أبيت وأسراب النجوم كأنها	أراقبها في الليل من كل مطلع
أراقبها في الليل من كل مطلع	فيا لك من ليل نأى عنه صبحه
فيا لك من ليل نأى عنه صبحه	ألا ليت شعري هل أبيت ليلة
ألا ليت شعري هل أبيت ليلة	وهل أريني بعد ما شطت النوى
وهل أريني بعد ما شطت النوى	دمشق ، فبي شوق إليها مبرح
دمشق ، فبي شوق إليها مبرح	ديار بها الحصباء در ، وتربها
ديار بها الحصباء در ، وتربها	تسلسل فيها ماؤها ، وهو مطلق
تسلسل فيها ماؤها ، وهو مطلق	فله أيامي ، وغصن الصبا بها
فله أيامي ، وغصن الصبا بها	هي الغرض الأقصى وإن لم يكن بها
هي الغرض الأقصى وإن لم يكن بها	فقدت الصبا ، والأهل ، والدار ، والهو
فقدت الصبا ، والأهل ، والدار ، والهو	ووالله ما فارقتها عن ملالة
ووالله ما فارقتها عن ملالة	ولكني أبت أن تحمل الضيم همتي
ولكني أبت أن تحمل الضيم همتي	فإن الفتى يلقى المنايا مكرما
فإن الفتى يلقى المنايا مكرما	سألثم ، إن وافيتها ، ذلك الثرى

(٢) خطط المقرئ ج ٤ ص ٨٢ .

(٤) ديوان ابن عنون ص ٦٨ .

(١) طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٥ .

(٣) قرية من نواحي دمشق .

والقصيدة طويلة ، وله غيرها قصائد كثيرة في الحنين إلى دمشق .

ومن ذلك شعر العباد الأصفهاني ، يشتاق إلى دمشق إذا رحل عنها ، وعن مصر إذا فازقها ، وله في ذلك شعر كثير في الروضتين ، منه ما قاله في قصيدة طويلة ، يشتاق إلى دمشق :

أجيران جيرون^(١) مالى بحير سوى عطفكم ، فاعدلوا ، أولجوروا
ومالى سوى طيفكم زائر فلا تمنعوه ، إذا لم تزوروا
يعز على بأن الفؤا د لديكم أسير ، وعنكم أسير
وما كنت أعلم أنى أعيش بعد الأحبة ، إني صبور
وفت أدمعى ، غير أن الكرى وقلبي وصبرى كل غدور
فقدتكم ، ففقدت الحياة ويوم اللقاء يكون الشور^(٢)

ومن ذلك قول المبارك بن منقذ يصف ليلة سعيدة قضاها :

لما نزلت الدير قلت لصاحبي : قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى ، وفي يمينه كأس خلقها مقبوسة في الليل من نبراسه
وكان ما فى كأسه من خده وكأن ما فى خده من كأسه
وكان لذة طعمها من ريقه وأريجها القياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربه بغنائه إذ بات يحلوها على جلاسه
إذ قام يسقينا المدام ، وكلما عاقبته رد الجواب براسه^(٣)

ومنه قول أسامة وقد علم وهو بحلب أن أهله وصلوا إلى دمشق ، بعد أن نهب الفرنج كل ما كان معهم ، وهم قادمون من مصر :

إلى الله أشكو فرقة دميت لها جفوني ، وأذكت بالهموم ضميري
تمادت ، إلى أن لأذت النفس بالمنى وطارت بها الأشواق كل مطير

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤٥ .

(١) جيرون : دمشق .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٧ .

فلما قضى الله الفراق تعرضت مساء هرى فى طريق سرورى^(١)

المجون :

وكان للمجون نصيب فى شعر هذا العصر ، عرف به طائفة من الشعراء واقتدوا فيه بمن سبقهم : كأبى نواس ، وأبى الرقعمق ، وتجد نماذج كثيرة لهذا الشعر الماجن فى كتاب خريدة القصر ، وعيون الأنباء ، والطالع السعيد ، وكتب ألفت للخلاعة بخاصة ، كما سنرى . وفى هذا الشعر يمجن الشاعر بنفسه حيناً ، كما فى قول يحيى بن على الكتبى ، الذى يفتخر بأنه محيى منذهب أبى نواس فى المجون فيقول :

أنا نائب الشرع النواسى . دغنى وباطيتى وكاسى
أهوى الغزاة كاعبا وأهيم بالظبي الخناسى
من كل معتدل ، رشيق القد ، ممشوق خلاسى^(٢)
لكن لإفلاسى حببت السامرى بلا مساس
لى منزل لا شىء فىه ، كأنه كيسى وراسى^(٣)

وقول ابن مكنة :

أنا الذى حدثكم عنى أبو الشمقمق
وقال عنى : لائقى كنت نديم المتقى
حتى متى أبقى كذا تيسا طويل العنق
بلحية مسجلة وشارب مخلق
يا ليتها قد حلفت من وجه شيخ خلق^(٤)

وحينا يسخر بمنزله وضيقه ، كقول ابن مكنة أيضا :

لى يلى كأنه يلى شعر لابن حجاج^(٥) من قصيد سخيف

(١) الروضتين ص ٩٩ .

(٢) الخلاسى بالكسر : الولد بين أبوين أبيض وأسود .

(٣) الخريدة ج ١ ورقة (١٠) . (٤) المرجع السابق ورقة ١٩٤ .

(٥) هو الحسين بن الحجاج : شاعر عراقى ماجن .

سأبقتى بنات وردان حتى أنا فيه كفارة في كنيف
 أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله ، وهو مثل عقل الضعيف
 وإذا هب فيه ريح السراويل فسلم على اللحي والأنوف
 بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا مذ سكنتها في الكسوف
 وهو لو كان من حجيجي ونسكي صدني بغضه عن التطويف^(١)

وحينا يتماجن في الهجاء ، كقول أبي علي حسن بن إسماعيل في الشاعر: ابن باقى الجزار :

قالوا : ابن باقى شاعر مقدم فى الشعر
 قلت : نعم قد قدموا ه عنهم إلى ورا
 كأنما يعضغ فى انشا ده الشعر خرا^(٢)

وقول أحد الشعراء يهجو الطبيب جرجس الملقب بالفيلسوف :

إن أبا الخير على جهله يخف فى كفته الفاضل
 عليه المسكين من شؤمه فى بحر هلك ، ماله ساحل
 ثلاثة تدخل فى دفعة : طلعتة ، والنعش ، والغاسل^(٣)

وقول الباهلى يهجو الطبيب المفشكلى اليهودى على سبيل المراثية :

ألا عد عن ذكرى حبيب ومزل وعرج على قبر الطبيب المفشكلى
 فيأرحمة الله استهينى بقبره وكونى عن الشيخ الوضع بمعزل
 ويا منكرأجود ، هديت ، قذاله بمقنعة واصقله صقل السجندل
 وكبكبه فى قعر الجحيم بوجهه بكلود صخر حطه السيل من عل
 فلا زال وكاف تزجيه ديمة عليه بمنهل من السلىح مسبل
 لقد حاز ذاك اللحد أخبث جيفة وأوضع ميت بين ترب وجندل
 سأسبل من بطنى عليه مدامعى وأورده من مائها شر منهل^(٤)

(٢) المرجع السابق ورقة ١٩٨ .

(٤) هيون الأنباء ج ٢ ص ١٥٢ .

(١) المزمدة ورقة ١٩٢ .

(٣) المرجع السابق ورقة ١٢٩ .

وقوله يهجو الأديب نصيرا الحلبي على سبيل المراثية ، وكان نصير قد اشتغل بالكتابة
وتعرض للشعر ، والطب ، والنجوم :

يا هذه ، قومي اندبني مات نصير الحلبي
يرحمه الله ، لـ _____ كان طويل الذنب
قد ضجت الأموات من نكته في الترب
وودهم لو عوضوا منه بكلب أجرب
والقوم بين صارخ وممن في الهـ _____ رب
ومنكر يقول : ذا أوضع ميت مر بي
ما ضم بطن الأرض بـ _____ بين شرقها والمغرب
أخبت منه طينة _____ في عجمها والعرب^(١)

وللباهلي أرجوزة ، وسماها : بمعة البيت ذكر فيها ما ينال الإنسان إذا عمل دعوة
للتدما من المضرة والغرامة ، وهي مذكورة في عيون الأنباء^(٢) ، وفيه كذلك قصيدة طويلة
قالها الشيخ أبو الحكم المغربي الطبيب على لسان أبي الفتوح بن الصلاح ، وكان قد ورد من
بغداد ، وأراد أن يستعمل له (تمشكا)^(٣) بغداديا ، وسأل عن صانع مجيد لعمل ذلك ،
فدل على رجل يقال له سعدان الاسكاف ، فاستعمل (التمشك) عنده ، ولما فرغ منه بعد
مدة وجده ضيق الصدر ، زائد الطول ، ردى الصنعة ، فبقى في أكثر أوقاته يعيبه ، ويستقبح
صنعته ، ويلوم الذى استعمله فقال أبو الحكم على لسان ابن الصلاح قصيدة على سبيل المجون
وذكر فيها أشياء كثيرة من اصطلاحات المنطق ، والألفاظ الحكيمية ، والهندسية : ومطلعها :

مصائب مصاب تاه في وصفه عقلى وأمرى عجيب شرحه يا أبا الفضل^(٤)

بل خص بعض الشعراء معظم شعره بهذا اللون من المجون ، فلم يتجاوز به إلى ألوان الجد
إلا قليلا كآبي الحكم عبيد الله الباهلي الذى دعا ديوانه نهج الوضاعة^(٥) ، لأولى الخلاعه ، وما

(١) المرجع السابق ص ١٥٣ .

(٢) ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) نوع من الأحذية .

(٤) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٦٤ و ص ١٦٥ .

(٥) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٥٥ .

كان يترك المجون، حتى في أشد المواقف حاجة إلى الجدد، كمواقف الرثاء، فله مرثية في عماد الدين زنكي، شاب فيها الجدد بالهزل^(١)، وله المقصورة الهزلية التي ضاهى بها مقصورة ابن دريد ومن جملتها:

وكل ملبوم فلا بد له من فرقة لو لزقوه بالغرا^(٢)
ومنهم أحد بن يوسف بن عبد الله بن شكر المعروف بابن الصاحب، وكان نادرة زمانه في المجون، والهزل، وإنشاد الأشعار والبلديات^(٣)، وكان اشتغل في صباه، وحصل، ودرس، ومن شعره:

يا نفس ميلى إلى التصابي فاللهو منه الفتى يعيش
ولا تملى من سكر يوم إن أعوز الخمر فالخشيش
وله في المعنى:

في خمار الخشيش معنى مرامى يا أهيل العقول والأفهام
حرموها من غير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام^(٤)

ومنهم الحسن بن هبة الله الأدقوى، كان شاعراً خليعاً، يعرف شيئاً من الموسيقى، وله نماذج في كتاب الطالع السعيد^(٥).

وهذه الروح الفكاهة المرححة تدل على أن العصر في جملته لم يكن عصرًا متزمتًا، بل وسع صدره هذه الألوان من المجون، كما وسع هذه الحفلات الأنيقة التي كان يعنى بها الفاطميون، في أوائل عصر الحروب الصليبية، وإن كنت ألاحظ أن روح الفكاهة تقل بمرور الزمن، فبينما هي كثيرة في أيام الدولة الفاطمية، إذ بها تأخذ في القلة أيام الدولة الأيوبية، وتكاد تبديد في آخر عصر هذه الحروب، وأوائل عهد المماليك، قبل كان لهذه الحروب الدائمة المتصلة أثرها في إخماد روح المجون والفكاهة؟ أرجح ذلك، فقد كانت هذه الروح قوية عندما كانت مصر بعيدة نوعاً ما عن هذه الحروب في عصر الدولة الفاطمية. بينما لم تكن

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٤

(٢) المرجع السابق نفسه . (٣) نوع من التواشيع العامة .

(٤) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٨ - ٣٨٠ . (٥) ص ١١٢ .

هذه الروح واضحة يومئذ في الشام ، فلما خاضت مصر غمار هذه الحروب ، وحملت أعظم العبء فيها ، وشاركت الشام مشاركة فعالية ، ضعفت هذه الروح وكادت تتلاشى .

الألغاز :

ومن ألوان الفكاهة في الشعر هذه الألغاز التي كان بعض الشعراء يعنى بها يومئذ ، غير أن هذه الظاهرة لم تكن كثيرة الذبوع ؛ ولكنك تعثر عليها في الحين بعد الحين ، وهو لون من أدب الكسنايات ، كما كتب السراج الوراق إلى الشهاب محمود بن سليمان ملفزاً في « سجادة » :

يا إماما ، ألفاظه الغر في الأسماء	ع تزرى بالدر في الأسماط
وشهابا تجاوز الشهب قدرا	فعدت عن علاه ذات انحطاط
أى أنثى وطئت منها حللا	مستبيحاً ما لا يساح لواطى
لم أحاول تفيلها غير خمس	حال زهدى فيها . وحال اغتباطى
وهي في صورة حماسية ما	فتمت ، لا ولا دنت للتواطى
وهي مملوكة ، وعند أناس	هي ست على اختلاف التعاطى
ونصيب الإيمان يسعى إليها	طالب الله ، وهو عبد خاطى
وأزى أن تحلها يمين	ويسار فقد غدت في رباط

فكتب إليه شهاب الدين الجواب قائلا :

ياسراجا ، لما سمت باسمه الشم — س غدا البدر دونها في انحطاط
أنت بحر ، نذاك موج ، وألف — اظك ذر ، وصنع يمناك شاطى
لا تلبنى إذا نظمت معانيك — ك ، فمن در فيك كان التقاطى
أنت ألغزت في اسم ذات رقاع لم تجاهد ، وكم غدت في رباط
حازها تابع المجلى ، فحاز الس — بق من دونه بغير اشتراط
مذعلاها في أول الصف أضفى كسليمان فوق متن البساط (١)

وفى ديوان ابن عنين باب خاص بالألغاز ، يمتاز بالركة والبعد عن الجفاف ، الذى يمتاز به عادة هذا اللون من الشعر ، واستطاع ابن عنين أن يبعث فى معظمه القوة والحياة ، ومن أجل هذه الألغاز لغز فى جبل الغسيل ، كتب به إليه عفيف الدين على بن عدلان^(١) :

ما ضئيل له الهـواء مـقيل مكـتس يومه ، وفى الليل عار
ويرى لابساً صنوف ثياب وهو ذوفاقة حليف افتقار
تعتليه السكى ثقالا ، فيلقى —ها خفافا فى أخريات النهار

فأجابه ابن عنين بقوله :

أيها السيد الاجل ، عفيف الـدين ، زين الحجا ، وحلف الوقار
أنت من أسرة عتادهم فى المجد بذل الندى وحفظ الجار
سادة جمعوا شتات المعالى عظماء الحـلوم والأخطار
والمجلى فى كل حلبة سبق وسواك السكيت^(٢) غير الجارى
كاسياً من ثياب فضل وغر عاريا من لباس ذل وعار
لا تخلى عن يجاريك فى اللغـز ، وقد فرمك كل مجارى
كل يوم تـجيتنى بعويص من قوافيك ، متعب أفكارى
كان لى قدرة على اللغز ، إذ حبلى متين ، وزند فكرى وارى
وحقيق بالثلب ثلب^(٣) تصدى لمجـارة بازل^(٤) خطار^(٥)
غير أنى أظن أنك تـكنى عن رفيع محله ذى احتقار
أبدا يـكتسى العوارى من النا س ومن يكتسى العوارى عارى
فهو يكسى ، واليوم صحو ويعرى جسمه فى مواقع الأمطار

(١) نحوى مترجم ، ولد سنة ٥٨٣ هـ ، وكان علامة فى الأدب ، ذكياً اُتُفِد بالترجمة ، وحل الألغاز ، وله مصنفات فى ذلك ، مات بمصر سنة ٦٦٦ هـ — وترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٥٩ ، وبغية الوعاة ص ٣٤٣ ، والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٢٦ ، والبلوك ج ١ ص ٧٢ .

(٢) السكيت : آخر حيل الخلبة .

(٣) الثلب : البعر المكسرت أنيابه من الهرم وتناثر ذنبه .

(٤) البازل : الجمل فى تاسع سنه .

(٥) الخطر القهل بذنبه : ضرب يميناً وشمالاً .

فإذا لم أجب فغير ملوم أن يروم المشيب لإطفاء نارى
ولعمري، لقد نطقت صريحا باسمه فأنجلى كضوء النهار^(١)

وتجد بعض نماذج من هذه الألغاز فى ترجمة على بن عدلان المذكور .

الشعر والغناء :

ومضى المغنون فى هذا العصر يلحنون شعر معاصريهم ، ويتغنون به ، وقد تنوع
الغناء يومئذ بين مدح لأبطال الحروب الصليبية ، وتشجيع للجند على مجابهة العدو وحربه ،
وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد ، وبين غزل رقيق . وشعر تقي الدين السروجى بكثرة
ما غنى به من شعره^(٢) . وبما حفظ لنا من الغزل الذى غنى به يومئذ أبيات لعبد الغفار بن
أحمد القوصى ، كتب بها لجعفر المزمزم ، ليلحنها ، فلحنها ، وغناها ، وهى :

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب آثم فى مذهبي من لا يجب
ذق على أمرى مرارات الهوى فهو حلو ، وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن صبوة عذرية ما ذاك قلب^(٣)

وجمع بعضهم بين معرفة الشعر والموسيقى ، كأحمد بن كامل القوصى المنعوت بالصلاح ،
فقد تأدب على أدباء قوص ، وكان يقول الشعر ، ويلحنه ، ويعنى به ، ومن ذلك قوله :

منى إليك تحية وسلام ما ناح قري^(٤) وفاح خزام^(٥)
وتأرجحت^(٦) فى أيكها قرية وشدا على أعلى الفصون حمام
فلئن عداتى عن زيارة داركم عاد وحالت بيننا اللوام
فأنا محبكم الذى ما غيرت عهدى الليالى لا ولا الأيام^(٧)

(١) ديوان ابن عنين من ١٦٨ .

(٢) فوات الوفيات ١ - من ٢٢٠ .

(٣) الطالع السعيد من ١٧١ .

(٤) الذى فى القاموس « الحزائى » وهو خيرى البر .

(٥) الطالع السعيد من ٥٣ .

(٦) فى الأصل « تأرجحت » ولا معنى لها .

النظم العلى :

ووجد العلماء والمؤلفون فى وزن الشعر مساعداً للطلبة على حفظ ما يريدون من قواعد العلوم ، فنظموا معارفهم ، ورأينا جميع مواد هذا العصر يضع فيها المؤلفون منظومات ، حتى فى الطب والتاريخ . وكتاب الحياة العقاية فى عصر الحروب الصليبية يلقى ضوءاً على هذه الناحية .

وبما هو جدير بالإضافة هنا أن محمد بن الحسن بن الصائغ النحوى الأديب له قصيدة فى نحو ألف بيت فى الصنائع والفنون ، لعلها كانت تقرأ عليه فى حانوته بالصاغة ^(١) ،

— ٢ —

أسلوبه

وبعد فإن مصر عرفت الأدب العربى ، وافداً عليها مع العرب الفاتحين ، وعاش غريباً عن المصريين الذين لم يعرفوا لغة العرب ، إلا بعد حين طويل من الدهر ، فعاش الأديب العربى بين هؤلاء الوافدين وحدهم شعراً وخطابة وكتابة ، ووفد على مصر فى عصرها الإسلامى الأول جماعة من الشعراء ، زاروا أمراءها ، ونالوا جوائزهم ، وعطاياهم ، من غير أن يشترك المصريون الخالص فى تذوق هذا الأدب وإنتاجه ، ولكن اللغة العربية بمرو الزمن عرفت طريقها إلى السنة المصريين ، فنبتت نابتة منهم ، تتذوق الأدب العربى وتشارك فى إنتاجه ، ونشأ أبناء العرب الوافدين فى مصر ، واختلطوا بالمصريين ، وصهرت الطبيعة المصرية من هؤلاء وأولئك جيلاً جديداً ، لغته الدارجة العربية المحرفة ، ولغته الرسمية والدينية العربية الفصيحة ، واستطاع أحمد بن طولون حين أسس دولته فى مصر أن ينشئ ديوان إنشأ ، وأن يجد فى عاصمة ملكه طوائف كبيرة من الكتاب والشعراء والخطباء ، وبدأت مصر تكتب تاريخها الأدبى للغتها العربية ، وأخذت تساهم فى الإنتاج الأدبى ، وتشارك الاقطار العربية الأخرى ، فى هذا الإنتاج ، وتؤثر فيها وتتأثر بها ،

(١) بغية الوعاة ص ٣٤ .

فلما قامت الدولة الفاطمية ، وكانت تريد أن تنافس خلافة بغداد في كل شيء ، صارت القاهرة مجال حركة أدبية ناشطة ، فلما شبت الحروب الصليبية وجدت بيئة أدبية صالحة ، وتركت هذه الحروب آثاراً كبيرة في الشعر ، على ما سنرى .

أما في الشام فلم يأت العرب الفاتحون بلغة جديدة ، ولم يحملوا معهم أدباً جديداً ، فقد كان العرب قبل الإسلام يسكنون هذه البلاد ، ومن أجل هذا كانت الشام أسبق إلى الأدب العربي من مصر ، وازدهر فيها هذا الأدب قبل أن يزدھر في مصر ، وظل يتابع خطا تاريخ الأدب العربي ، حتى إذا جاءت الحروب الصليبية تأثر بها أدب هذه البلاد ، تأثراً بالغاً نبينه فيما يلي :

ولأجدني مغاليا إذا أنا زعمت أن الزعامة الأدبية في عصر الحروب الصليبية كانت لمصر والشام ، ففيهما غزر الانتاج العربي ، ونشأ أعظم الأدباء في ذلك العصر ، ثم انفردتا بحماية الأدب بعد أن غزا هولاء بلاد بغداد ، وحطم عرش الخلافة العباسية .

وقد اقتدى شعراء هذا العصر بأسلافهم في مناهج الشعر ، ونظام القصيدة ، فلم يتعدوا نطاق الشعر الغنائي ، الذي بينا مظاهره المختلفة في الفصل الماضي .

وتردد الشعر بين الأسلوب الجزل القوي ، في الأغراض التي تتطلب هذه الجزالة ، وتلك سمة شعر المديح ، والرثاء ، والفخر . وبين السهولة في الأغراض الأخرى ، وبخاصة الغزل ، إذ تعد السهولة شرطاً فيه ، وفيما أوردناه من قبل أمثلة توضح هذه الصفة من صفات شعر هذا العصر .

وقد يفرط بعض الشعراء في هذه السهولة حتى لتصبح ألفاظهم عامية خاضعة لقانون النحو ، كما في قول تقي الدين السروجي .

ياريس الحب ، أدركني ، فقد رحلت مراكب الحب بي في بحر أشواق
ولي بضاعة صبر ضاع أكثرها وقد علانا الهوى يستغرق الباقي^(١)

وقد يعمد بعض الشعراء إلى الجمع بين الفصيح والعامي^(١) ، بل لقد شاع في ذلك العصر النظم بالعامية ، وتنوعت أوزان هذا النظم ، وسبى بليقات ، تعددت أوزانها ، وهي نوع من التواشيح العامية ، يوقف على معظم كلماتها بالسكون ، كقول بعضهم هاجيا ومطلع (بليقته) :

قاضى القضاة عزل نفسه لما ظهر للناس نحسه^(٢)

ولكن شعر هذا العصر حافظ على سلامة العبارة ، وإن كان في جملته سهلا لا يميل إلى غرابة ولا تعقيد ، ونهج كثير من شعراء ذلك العصر النهج الطبيعي في شعرهم ، فلم يعتمدوا فيه إلى محسنات لفظية ، أو زينات بديعية ، إلا ما جاء في الطريق عارضا غير مقصود كما تجد ذلك في شعر أسامة بن منقذ ، وعمارة اليمنى ، وكثير منهم كذلك عمد إلى ألوان البديع يحشد منها في شعره ما استطاع ويخضع شعره لقواعدها وقوانينها ، كما في شعر القاضى الفاضل والعماد الكاتب ، فقد أغرما هما ومن لف لفهما بهذه المحسنات : من جناس ، وطباق ، واقتباس ، وتورية ، بل لقد قيل : إن الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره ، فإنه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها . ومن شرب من سلافة عصره ، وأخذ عنه وانتظم في سلكه بفرائد دره ، القاضى السعيد بن سناء الملك ، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على درر كأسها ، ومتمسكين بطيب أنفاسها ، إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها ، والواسطة في عقد جمانها ، كالسراج الوراق^(٣) ، وأبى الحسين الجزار^(٤) ، والنصير الحمأى^(٥) ، وناصر الدين حسن بن النقيب^(٦) ، والحكيم شمس الدين

(١) انظر الأغنية التي كان ينغى بها في أسواق دمشق ، لما أصر العادل سنة ٦١٠ هـ ، بإحداث تركيب سلاسل على أفواه السكك المجاورة للجامع ، ومدها في أيام الجمع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع وذلك لما ينال الناس من المشقة من زحمة الخيل التي يركبها بعض المصلين إلى الجامع من ٨٢ ذيل الروضتين .

(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٩ . (٣) ولد سنة ٦١٥ وتوفي سنة ٦٩٥ .

(٤) ولد سنة ٦٠١ وتوفي سنة ٦٧٢ (٥) توفي سنة ٧١٢

(٦) توفي سنة ٦٨٧ .

بن دانيال^(١) ، والقاضي محي^(٢) الدين بن عبد الظاهر^(٣) .

واقندى أهل الشام في هذا الفن بالمصريين ، وكان إمام جماعتهم شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماه^(٤) ، وبعده مجير الدين بن تميم^(٥) ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي^(٦) ، ومحيي الدين بن قرناص الحموي^(٧) ، وشمس الدين بن العفيف^(٨) وسيف الدين ابن المشد^(٩)

ومن مستحسن تورية الفاضل قوله عند ما وصل مع صلاح الدين إلى الفرات مشتاقا إلى مصر :

بالله قل للنيل عني : إني لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل القواد فإنه لي شاهد إن كان طرفي بالبكاء بخيلا
يا قلب ، كم خلفت ثم ثينة وأعيد صبرك أن يكون جميلا^(١٠)

وقول ابن سناء الملك :

أما والله ، لولا خوف سخطك لهان علي ما ألقى برهطك
ملك الخافقين ، فتهت عجباً وليس هما سوى قلبي وقرطك^(١١)

ولم يزل ابن سناء الملك يتلاعب في التورية باختراعاته إلى أن ظهر بعده السراج ، وتعاصر هو وأبو الحسين الجزار ، والنصير الحماني ، وتطارحوا كثيراً وساعدتهم هنائهم وألقابهم في نظم التورية^(١٢) ، فمن أظرف ما وقع للسراج قوله :

كم قطع الجود من لسان قلد من نظمه النحورا

(١) توفي سنة ٧١٠ .

(٢) ولد سنة ٦٢٠ وتوفي سنة ٦٩٢ .

(٣) خزائن الأدب ص ٢٩٨ .

(٤) ولد سنة ٥٨٦ وتوفي سنة ٦٦١ هـ .

(٥) توفي سنة ٦٨١ هـ .

(٦) توفي سنة ٦٨٠ هـ .

(٧) توفي سنة ٦٨٥ هـ .

(٨) ولد سنة ٦٦٢ وتوفي سنة ٦٨٧ هـ .

(٩) ولد سنة ٦٠٢ وتوفي سنة ٦٥٥ هـ .

(١٠) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨٥ .

(١١) خزائن الأدب ج ١ ص ٣٠٠ .

(١٢) للرجع السابق ندمه .

فها أنا شاعر سراج فاقطع لسانى أزدك نورا^(١)

وكتب إليه الأمير نصير الدين الحامى ، وهو مقيم بالروضة :

كم قد ترددت للباب الكريم لىكى أبل شوقى وأحيى ميت أشعارى
وأنتى خائبا بما أومله وأنت فى روضة ، والقلب فى نار^(٢)

ومن قول الجزار موريا فى صناعته :

ألا قل للذى يسأل عن قومى وعن أهلى :
لقد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصل
ترجيهم بنو كلب وتخشاهم بنو عجل^(٣)

ومما ورد من الاقتباس قول ابن النبيه :

قت ليل الصدود إلا قليلا ثم رثلت ذكرهم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مسمعى كل عن كلام عنول حين ألقى عليه قولا ثقيلا
وفؤاد قد كان بين ضلوعى أخذته الأحباب أخذاً ويلا^(٤)
قل لراقى الجفون : إن لعينى فى بحار الدموع سبحا طويلا
ماس عجبا ، كأنه ما رأى غصن نارطيا ، ولا كشييا مهيلا
وحى عن محبه كأس ثغر حين أضحى مزاجها زنجيلا^(٥)

ومما يسترعى النظر فى باب الصناعة ، هذه القصيدة التى التزم فيها القاضى الفاضل
عد أربعة أشياء فى كل بيت من أبياتها ، من أول القصيدة إلى آخرها ، باستثناء مطلعها
إذ يقول :

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٠٢ وفيه : « فلد فى نفاذه النجورا » وأمله محرف عما ذكرناه .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٠٦ . (٤) ويلا : شديداً .

(٥) ديوان ابن النبيه ص ٥٦ ، وذلك غزل قصيدة مدح فى القاضى الفاضل .

(الحياة الادبية فى الحروب الصليبية ٨)

الحسن جاد على الاحباب فازدادوا لكن أحبابنا فى الحسن ما جادوا
فيهن من شبه الغزلان أربعة ثغر ، وطيب ، وأحداق ، وأجباد
وكيف يبقى على العينين أربعة عدأ ، ودمع ، وإطراق ، وتسهاد

وهكذا ينتهى الشطر الأول فى كل بيت بكلمة (أربعة) تفصل فى الشطر الثانى ،
ويظل الحال كذلك إلى انتهاء القصيدة التى تبلغ أربعة وأربعين بيتاً (١١) .

ولست أنكر ما خلفته هذه الألوان وغيرها من رسم الشعر بسعة التكلف ، الذى
أفقدته روحه فى كثير من الأحيان ، وجعله أشبه ما يكون بتمرينات ، كتلك التى تطلب من
طلبة المدارس ، واستمع إلى قول ابن البارزى ، يريد أن يشبه سبعة أشياء بسبعة أشياء :

يقطع بالسكين بطيخة ، ضعى على طبق ، فى مجلس ، لأصحابه
كبرق ، ببدر ، قد شمساً أهلة لدى هالة فى الأفق ، بين كواكب (١٢)

ولعل بن عمر أبى الحسن الهاشمى قصيدة خلت كلماتها من النقط (١٣) .

وسوف نرى نماذج متنوعة عند ما ندرس الشعراء وآثارهم فى الفصل القادم .

وقد حافظ الشعراء على ما ورثوه من أوزان الشعر ، والمحافظة على القافية ، وأضافوا
إلى ذلك وإن كان قليلاً فى الجملة أوزان الموشح ، والدوبيت ، والموالي ، والسلسلة . وكانت
الموشحات أكثر حظاً من أصحابها ، نظم فيها كثيرون ، منهم أبو محمد الواسطى ، وابن دانيال ،
وشمس الدين بن الدهان ، وابن الوكيل ، والتلعفرى ، والواعظ الواسطى ، والنصير الحامى ،
وعثمان البلطى (١٤) ، ويحيى بن بقى (١٥) ، والقاضى الفاضل (١٦) ، وابن سناء الملك (١٧) ، بل إن
ابن سناء الملك ألف كتاباً فى ألوان الموشحات ، دعاها دار الطراز ، أتى فيه بأمثلة كثيرة لها ،

(١) القصيدة كلها فى شفاء القلوب ورقة ٦٨ .

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر ج ٢ قسم ٢ . (٣) الطالع السعيد ص ٢١٠ .

(٤) تجدد لهؤلاء نماذج فى فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٩ و ١٩٥ و ٢٤٩ و ٢٥٦ و ٢٨٠ و ٢٩٨ .

و ٣٠٩ و ٣٢ على التوالى .

(٥) له نموذج فى معجم الأدباء ج ٢٠ ص ٢٤ . (٦) له نموذج بالتذكرة الصغرى ج ١٤ ص ٣٢ .

(٧) نماذجها فى ديوانه .

وتحدث في أول الكتاب عما للموشحات في الأدب من قيمة كبرى ، دعت له لأن يصنف في أصولها ما يكون للمتعلّم مثلاً يحتذى وسبيلاً يقتنى ليكون للمنتهى تذكرة ، وللمبتدئ تبصرة (١) . والموشحات قسمان : منها ما جاء على أوزان أشعار العرب ، ومنها ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب ، وهذا القسم منها ، هو الكثير ، والجم الغفير (٢) والموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر : من الغزل ، والمدح ، والثناء ، والهجاء ، والمجون والزهد (٣) .

وبما يلحظ في هذه الموشحات أن الشاعر فيها قد يخرج من المدح إلى الغزل ، فيبدأ موشحه بالغزل ، ثم ينتقل منه إلى المدح ، ثم ينتقل من المدح إلى الغزل ، كقول أيدمر المحيوى من موشح مادحا :

كم موقف ليس للسلاح	لاحي	في الأرواح
وكاتب الموت بالرمح	ماحي	للأنفس
جبانته ظاهر افتضاح	ضاحي	لم ير مس
رزنت إذ خفت الحلوم شاهر	مجوهر	أفعل ما تشتهي المنون

وهذا جزء من مدح طويل سبق ، ثم انتقل منه إلى الغزل الذي ختم به موشحته وهو :

وشادن بات للتجافى	جافى	وصده
عاهدنا أنه يوافى	وافى	لعده
فورد الأانس والتصافى	صافى	بوعده
زارك من نحوه النسيم	مخبر	أن اللقاء في غد يكون (٤)

وعن نظموا على وزن الدوبيت ابن العربي ، والتنوخي الشاعر وابن دقيق العيد ،

(١) دار الطراز ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) اقتبس الشاعر هذا البيت من شاعر آخر .

وابن مكي القرشي^(١) ، والاسعد بن ماتي^(٢) ، والفزاري المصري^(٣) ، والعماد الاصبهاني^(٤) ومنه ما قاله ابن مكي القرشي :

ما عذر فتى ما مد للهو يدا والدوح قد اكتسى ثيابا جددا
مالت طربا أغصانه راقصة لما صدح الطير عليها ، وشدا^(٥)

ومن المواليا قول عز الدين بن طرخان الانصارى^(٦) :

اليدر والسعد ذا شهبك وذا نجمك والقدر والخط ذارحك وذا سهمك
والبغض والحب ذاقسمي وذا قسمك والمسك والحسن ذاك خالك وذا عمك

وبما جاء على بحر السلسلة^(٧) هذه القصيدة وهي لحمة بن علي أبي يعلى^(٨) :

هل تأمن يبق لك الخليط إذا بان اللهم فؤاداً ، وللدماع أجفان
أتطمع في سلوة ، وجسمك حال بالسقم ، ومن حبه فؤادك ملاك
تبغى أملا ، دونه حشاشة نفس وفي الحشا منى هوى تضاعف أشجان
اعتل لأجفاني القريحة أجفان إذ بان ركاب من العقيق إلى البان^(٩) ... الخ

وحافظ شعراء هذا العصر على وحدة القافية في القصيدة ، وإن تفنن بعضهم ، فجعل من الممكن أن تكون للقصيدة الواحدة عدة قواف ، لا أنكر أنها متكلفة كما فعل الرشيد ابن بدر النابلسي فقد أنشأ قصيدة لها أربع قواف منها :

كم الحشا معذب موجد على المدى صب الفؤاد مغرم

- (١) تجد نماذج لمن سبقوا في فوات الوفيات ج ٢ ص ١٦٠ و ٢٤٦ و ٢٦٦ و ٣٠٣ .
- (٢) له نموذج في معجم الأدباء ج ٦ ص ١٣٤ . (٣) له نموذج بالنجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣٢ .
- (٤) له نماذج في الروضتين ج ١ . (٥) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٧ .
- (٦) طبيب كانت له مشاركة في العربية والتاريخ وكان له نظم جيد ، توفي سنة ٦٩٠ هـ وترجمته في معجم الأطباء ص ٥٩ وعيسون الألباء ج ٢ ص ٢٦٦ وخطط الشام ج ٤ ص ٤٦ والنجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٨ والسلوك ج ١ ص ٧٧٧ .
- (٧) وزن بحر السلسلة : مستفعلن فاعلن مفاعلتن فل . (٨) توفي سنة ٥٥٦ .
- (٩) معجم الأدباء ج ١١ ص ٥ .

بناره يلتهب ملذع ماخمد أواره والضرم

وعلى هذا النسق جرى^(١)

ولإذا استثنينا ما قيل باللغة العامية من شعر سمي بالبليقات كما سبق أن ذكرنا ، فقد حافظ الشعر في هذا العصر على الألفاظ العربية الخالصة ، برغم أن اللغة الدارجة بل ولغة التأليف يومئذ قد تسرب إليها كثير جداً من ألفاظ اللغات التي خالطت العربية في ذلك الحين ، من فارسية ، وتركية ، ويونانية ، وفرنجية ، فكان الشعراء آنذاك كشعراء عصرنا الحاضر يتكلمون باللغة العامية الخليط ، ويقترضون شعرهم من لبنات عربية سليمة ، حتى المنصور قلاوون الذي ما كان يتقن العربية ، فإن الشعراء مدحوه بالعربية الفصحى ، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن يدخلوا ألفاظاً دخيلة حتى من لغته في قصائدهم ، وهذا قاضى القضية نجم الدين بن البارزى يكتب إلى المنصور قلاوون مادجا قائلاً :

إذا شمت من تلقاء أرضكم برقا	فلا أضلعي تهذا ولا أدمعي ترقا
وإن ناح فوق البان ورق حاتم	سحيرا فنوحى فى لدجى علم الورقا
سميرى من سعد خذا نحو أرضهم	يمينا ولا تستبعدا نحوها الطرقا
وعوجا على أفق توشح شيخه	بطيب الشذا المسكى ، أكرم به أفقا
وقولا : محب بالشآم ، غدا لقي	لفرقة قلب بالحجاز غدا ملقى
تعلقكم فى عنقوان شبابه	ولم يسلم عن ذاك الغرام ، وقد ألقى
وكان يبنى النفس بالقرب ، فاغتدى	بلا أمل ، إذ لا يؤمل أن يبقى ^(٢)

اللهم إلا فلتات يسيرة حين تجد كلمة دخيلة فى الشعر ، كقول بعضهم :

إذا وصلت للرى سلم على حبيبي وانظرهما بعيني تنظرهما شمسواوى
والبدر بالتركي : أى

وحافظت قصيدة المدح يومئذ على نهجها التقليدى ، فكان من الغالب بدؤها بالغزل ،

(١) راجع فوات الوفيات ١ : ٢٥٥ . (٢) أعيان العصر وأعوان النصر ج ٢ قسم ٢ .

والتخلص منه إلى المدح ، يجيد الشاعر هذا التخلص حيناً ، ويخطئه التوفيق أحياناً ، وقد يبدأ الشاعر بالمدح ، وينتهي بالغزل ، كما فعل ابن سناء الملك ، في مدحه صلاح الدين في بعض الأحيان ، مدعياً أن الهيبة دفعته إلى أن يؤخر الغزل عن المدح ^(١) . كما حووظ كذلك على وحدة القافية فلم تتعدد في القصيدة الواحدة .

وبعد فهذا عرض عام لآلوان الشعر في عصر الحروب الصليبية ، أما أثر هذه الحرب في شعر ذلك العصر فموضوع فصل طويل سيأتى .

وبما هو جدير بالذكر هنا أن فكرة الوطنية والقومية لم يظهر لها أثر ما في شعر هذا العصر ، فلم يكن ملوك هذا العصر وسلاطينه يحاربون الفرنج على فكرة أن هناك وطناً لهم مغتصباً ، فعظمتهم لا ينحدر من أصلاب أهل البلاد ، وإنما كانت الفكرة السائدة يومئذ هي الفكرة الدينية ، وهى الفكرة التى سادت نفوس الشعراء في ذلك العهد ، فلم يكن الخوف من سقوط دمياط مثلاً في يد الفرنج أن جزءاً من أرض الوطن المصرى أو العربى ، سيقع في يد العدو ، ولكن لأن المصحف سيحل محله الإنجيل ، والأذان سينسى ويأتى بدله الناقوس . وإذا كنا قد رأينا بعض شعراء ذلك العصر يشتاقون إلى دمشق ، أو إلى القاهرة فلم يكن ذلك منبعثاً عن شعور وطنى ، أو فكرة قومية ، ولكن عن عاطفة شخصية مبعثها ما وجده الشاعر من سعادة هنا أو هناك ، تجد ذلك في شعر البهاء زهير حين يقول :

حبذا دار على النيل وكاسات تدور
ومسرات تموج الأرض منها وتمور
وقصور ما لعيش نلتها فيها قصور
كم بها قد مر لى ، أسئفرت الله ، سرور
كل عيش غير ذاك العيش فى العالم زور
منزل ليس على الأرض لـه عندى نظير ^(٢)

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ١١١ .

(٢) ديوان البهاء زهير ص ٦٤ .

وقول القاضى الفاضل وقد مضى مع صلاح الدين حتى وصل إلى الفرات :

بأنه قل للنيل غنى : انى لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فانه لى شاهد إن كان جفنى بالبكاء بخيلا
يا قلب ، كم خلفت ثم بثينة وأعيذ صبرك أن يكون جيلا^(١)

وقول العباد يتشوق إلى دمشق :

أجيران جيرون^(٢) مالى مجير سوى عطفكم ، فاعدلوا أو فجوروا
ومالى سوى طيفكم زائر فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
يعز على بأن الفؤاد لديكم أسير ، وعنكم أسير
وما كنت أعلم أنى أعيدش بعد الإحبة ، إلى صبور
وقت ادمعى غير أن الكرى وقلبي ، وصبرى كل غدور
وما جنة الخلد إلا دمشق وفى القلب شوق إليها سعي
ميادينها الخضر فيح الرحاب ، وسلسالها العذب صاف نيم
وجامعها الرحب ، والقبة المنيفة والفلك المستدير
وباب الفراديس فردوسها وسكانها أحسن الناس حور
وكم بت ألهو بقرب الخبيب ، فى بيت لها ، وتام الغيور
فأين اغتباطى بالقوطتين وتلك الليالى ، وتلك العصور
وأين تأملت ، فلك يدور وعين تفور ، وبحر يمور
وأين نظرت نسيم يرق ، وزهر يروق ، وروض نصير^(٣)

وقول المهذب بن الزبير :

ومالى إلى ماء سوى النيل غلة ولو أنه — استغفر الله — زمزم^(٤)

وهذا الشعر فضلا عن ندرته فى عصر الحروب الصليبية لا يدل على شعور بالقومية

(٢) جيرون : دمشق .
(٤) وفيات الأعيان ١ : ٥١ .

(١) خزانة الأدب ص ٣٠٠
(٣) الروضتين ١ : ٢٤٥ .

والوطنية ، أكثر من دلالاته على تعلق الإنسان بأرض وجد فيها سعادته . ، واستمتع فيها بنعيم الحياة وأنا لنجد شعراً كهذا الشعر الذى ذكرناه ، فيه حنين إلى مصر ، وشوق إلى معالمها ، من شعراء عربوا بمصر ، واقاموا بها زمناً ، من غير ان يتخذوها لهم وطناً ، ولست أريد أن اتفى شعور شعراء ذلك العصر بأوطانهم ، فمن الأمور الطبيعية فى الإنسان حنين المرء إلى وطنه ، ولكن اريد أن اقول إن هذا الشعور كان ضيقاً يكاد يكون مقصوراً على تعلق الشاعر بمدينة من غير أن يشعر أنها جزء من وطن كبير .

وساد الشعور بالدين أكثر من الشعور بالجنس ، فصار أكبر ما يعتز به يومئذ لدى الشعراء اقتسابهم إلى الإسلام ، وأخذ يضعف الاعتزاز بالجنس العربى ، ونذر التمدح ببعض الخصائص العربية ، كالبلادة وفصاحة اللسان ، وفهم الجيد من القول ونقد رديته ، وربما كان من أسباب القضاء على العصبية العربية أن أكثر من ولى زمام الأمر فى ذلك العصر لم ينحدر من أصلاب العرب ، وإذا كان الاعتزاز باللغة العربية قد بقى فى ذلك العصر فمن الممكن إرجاعه إلى أن هذه اللغة العربية هى لغة هذا الدين ، الذى ورث حكم أهله الأكراد والأتراك والسلاجقة . والخلاصة أن التعصب فى هذا العصر كان للدين ، أما ما عدا ذلك من باقى ألوان الاعتزاز فلم يكن لها دخل فى التمدد كبير .

وبعد ، فى أى مدى استطاع الشعر أن يرسم الروح المصرية والروح الشامية فى ذلك العصر ، وهل نستطيع أن نميز بين شعر قيل فى مصر وآخر قيل فى الشام أو العراق ؟ ولانى أحب أن أواجه هذه المشكلة فى صراحة ، فأبين أنه بعد أن فسدت اللغة ، وصار هناك لغة عربية يستخدمها الخاصة ، ولغة عامية تعبر عن مشاعر الشعب وعواطفه ، أفرغ العامة كل ما فى قلوبهم من عواطف ، ورسموا حياتهم ، وقيدوا نقداتهم ونظراتهم فى الحياة ، ووضعوا ذلك كله فى أسلوبهم ، المقتبس من ألفاظهم وعباراتهم ، وصار علينا إذا أردنا أن نعرف روح العصر ، ونفسية الشعب ، أن نتلص ذلك فى الأدب العامى ، أكثر من تلصه فى الأدب الفصيح . أما الشعر ذو اللغة الفصيحة فلأن منشئيه كانوا يعتمدون على ثقافة أدبية ، مستمدة من الماضى عاش فى جو خاص ، يتنفس فيه وحده ، هو جو الماضى ، يقتبس منه خياله ، ويستمد منه الأفكار ، ويقتبس منه المعانى ، وينهج نهجه فى بناء القصيدة ونظامها ، وانطبع

أثر القديم في الجديد ، ولما كان ينبوع الشعر في هذا العصر واحداً هو الشعر العربي القديم ، تشابه الشعر في ذلك العصر في أرجاء العالم الإسلامى ، وصار الخلاف بين الشعراء خلافاً في الأسلوب قوة وضعفاً ، أكثر منه خلافاً في الروح والمنهاج ، ولذا تشابه الشعر الشامى والمصرى والعراقى في ذلك العصر ، ولا نكاد نجد فرقاً في سمات الشعر بين هذه الأقطار إلا في بعض الخصائص المحلية التى يختص بها قطر دون آخر ، من صفات طبيعية ، أو مظاهر حضارة ، أو حوادث سياسية ، أما الاتجاه العام للشعر فواحد ، ولهذا قل أن ترى في الشعر الذق قيل في مصر يومئذ ما تستطيع به أن تبين فيه ملامح مصرية خالصة ، إلا حيث يقرب الشعر من اللغة العامية ، فيصبح لغة عامية معربة ، كما في شعر البهاء زهير ، وليس معنى ذلك أن الشخصية المصرية لا وجود لها ، أو أنها لا تنطبع على أديها ، فذلك ما لا يمكن أن يكون فإن الشخصية المصرية حقيقة واقعة ، ولكن ظل هذه الشخصية يجب أن تنلصقه في الأدب المصرى الخالص ، الذى ألف باللغة العامية المصرية . أما هذا الشعر الذى تنفس في بيئة من الشعر العربى القديم فإن التقليد أضعف من وضوح الشخصية المصرية ، ومثل ذلك مثل أديب يلبس غير ثوبه ، ويقلد شاعراً أو كاتباً ، فإن شخصيته لا تبين بياناً واضحاً ، كوضوح شخصية الأديب المتحرر من كل قيد ، والذى ينطلق معبراً عن نفسه ، لا يخضعها لتيد من القيود .

ولا أنكر أن بعض الشعر تبدو عليه المحلية في وضوح ، وهو ذلك الشعر الذى يتحدث عن مظاهر طبيعية خاصة ، أو عن حكام لبقعة معينة ، كما أن أظهر ألوان الشعر الذى نستطيع أن تبين فيه مصر والشام هو ذلك الذى كان للحروب الصليبية ذكر فيه .

الشعراء

كثرت عدد الشعراء في ذلك العصر، وتعددت ألوانهم ومذاهبهم، فمن شعراء فنيين اتخذوا الشعر حرفة لهم، يعيشون على ما يدره عليهم من رزق قليل أو كثير، كالقيصري وابن منير، والعرقلة، وابن النبيه، ومن شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجول في أنفسهم، من إحساسات وعواطف، لا يريدون على شعرهم مالا، ولا جزاء، كالشعراء من الملوك، والأمراء، والوزراء، ورجال التصوف، وقد سبق أن سمينا بعض هؤلاء.

ومن علماء رأوا في التأديب بقول الشعر ما يزيد من أقدارهم، ويرفع من مكانتهم في أنظار معاصريهم، وهكذا رأينا طوائف كبيرة من رجال الفكر، يقرضون الشعر، ويحرصون على أن يروى لهم، كابن دقيق العيد، وتاج الدين الكندي. ورأينا من شعراء ذلك العصر من ينحدر من العرب الخالص، ومن ينحدر من الأتراك، أو الأكراد، أو القبط، وشاهدنا من يذنبهم المثقف ثقافة ممتازة، والمطبوع على الشعر من العامة، وذوى الحرف، والجنود، فكان من الشعراء حسام الدين خشتين، وهو جندي كردى^(١)، ومحمد ابن يعقوب بن علي، وهو جندي أيضاً، خدم صاحب حماة^(٢) ومن شعره في الشجاعة والإقدام قواه :

دعني أخطر في الحروب بمهجتي إما أموت بها ، وإما أرزق
فسواد عيشي لا أراه أبيضاً إلا إذا احمر السنن الأزرق

وعلى بن محمد بن الكلاس، كان جندياً بدمشق، وله نماذج من الشعر في كتاب فوات الوفيات^(٣)، وعلم الدين الصوابي، وهو جندي كذلك متأديب له شعر بديع^(٤)، وإبراهيم ابن أوبنا الصوابي أمير جاندار الملك الصالح^(٥). ومنهم محمد بن علي بن عمر المازني، وكان

(١) المختصر ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٧٢ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤٧ وج ٧ ص ٣٦٧ .

(٣) ٨٤ : ٢ .

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧ .

يعمل صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق ، ويدري الموسيقى ، ويعمل الشعر ويلحنه ، ويغنى به المغنون وكان قد ربي بملوكا ، وهذبه ، وأحبه حباً مفرطاً ، فأت ، فأسف عليه أسفاً عظيماً ، ورثاه بشعر كثير غنى به ونقله المغنون ، من ذلك :

تيم قلبي ، وزادني أسفاً بدر به البدر قد غدا كلفا
مهفهف القد ، لين قامته علم غصن الأراكه الهيف
يا راحلا ، أودع الحشا حرقاً كدت بها أن أشارف التلقا
بعدك دمعى قد كاد يغرقنى وكلما قلت : قد كفى ، وكفا^(١)

ومنهم إبراهيم بن علي الخرائي ، كان حائكا عامياً ، أمياً ، مطبوعاً على الشعر ، قصده ابن خلكان ، واستنشد من شعره ، فأنشده بديهاً :

وما كل وقت فيه يسمح خاطري بنظم قريض رائق اللفظ والمعنى
وهل يقتضى الشرع الشريف تيماً بترب ، وهذا البحر يا صاحبي معنا^(٢)

وله نماذج مطولة في فوات الوفيات^(٣)

ومجاهد بن سليمان ، المعروف بالخياط ، كان من كبار أدباء العوام ، لكنه قرأ النحو ، وفهمه ، وأورد له صاحب الفوات^(٤) والنجوم^(٥) نماذج ، منها لغز في إبرة وكستبان ، ومنها قوله :

أعد يا برق ذكر أهيل نجد فإن لك اليد البيضاء عندي
أشيمك بارقا ، فيضل عقي فواجباً تضل ، وأنت نهدي
ويبكك السحاب ، وأنت بمن تحمل بعض أشواقى ووجدى
بعثت مع النسيم لهم سلاماً فما عطفوا على له برد

(١) فوات الوفيات ٢ : ٢٤٩ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٨١ .

(٣) ج ١ ص ٢٨ وقد عمر هذا الشاعر طويلاً ومات سنة ٧٠٩ هـ .

(٤) ج ٢ ص ١٤٤ . (٥) ج ٧ ص ٢٤٢ .

وهذا خياط آخر، كان يقيم بالمحلة، من أعمال الغربية، وله مشاركة في العربية، وأدب لا بأس به، هو محمد بن رضوان بن إبراهيم، ومن شعره ما قاله في بهاء الدين النحاس :

سلم على المولى البهاء، وصف له شوقى إليه وأنتى مملوكه
أبدأ يحركنى إليه تشوقى جسمى به مشطوره منهوكه
لكن نحتل لبعده، فكأنتى ألف وليس بممكن تحريكه^(١)

ومن كبار الشعراء ذوى الحرف فى ذلك العصر أبو الحسين الجزار، وسراج الدين الوراق .

وظهر فى هذا العصر أسر توارث بنوها الشعر، كأسرة بنى منقذ فى الشام، وأسرقى بنى عرام، وابن الزبير، فى مصر، فعرفنا كثيراً من بنى منقذ منهم حميد بن مالك بن مغيث^(٢)، وسلطان بن على بن نصر^(٣)، وإسماعيل^(٤)، ويحيى^(٥)، إبننا أبو العساكر بن سلطان، ومرشد^(٦)، ونصر^(٧)، إبننا على بن مقلد، وعلى^(٨) بن مرشد، وأخوه أسامة، أشهر شعراء بنى منقذ، وسوف نعقد له ترجمة مفصلة، ومرهف^(٩) بن أسامة .

وعرفنا من بنى عرام، وكانوا يقيمون بأسوان، عبد الله^(١٠) بن على بن عرام، وعلى ابن أحمد بن عرام، الذى قال عنه العباد : سألت عنه بمصر فى سنة ثلاث وسبعين وخمسة ، فقيل لى إنه حى بأسوان، وطلبت شعره، فأحضر لى بعض أصدقائى من أهلها ديوانه،

(١) فوات الوفیات ج ٢ ص ٢٠٣ . وترجمته فى الفوات ٢ : ٢٠٣ و ٢٠٨ . وبغية الوفاة ص ٤١ والدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٤٠ .

(٢) ترجمته ونماذج فى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٨١ ، ومعجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣١ ، وج ١١ ص ١٦ .

(٣) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٩٨ ، والمختصر ج ٣ ص ٣٢ .

(٤) تجد نماذج من شعره فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٥) شىء عنه ونماذج من شعره فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣٨ .

(٦) شىء عنه ونماذج من شعره فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٢٦ .

(٧) شىء عنه ونماذج له فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣٨ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٤ و ١٦٣ .

(٨) شىء عنه ونماذج له فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢١٤ .

(٩) معجم الأدباء ج ٥ ص ٤٣ . (١٠) الطالع السعيد ص ٢٠٠ .

فوجدته حاكياً في سماء السحر كيوانه ، فجمعت شارد حسنه ، وغبطت عليه أسوانه
فلا بن عرام في ميدان النظم وابتكار المعاني الحسان غرام^(١) ، ومنهم أحمد بن عبد الرحمن بن
الحسين^(٢) ، وهبة الله بن علي بن عرام قاضي أسوان ، وكان هو وابن عمه السديد شاعرين ،
وكان أشعر من ابن عمه ، وجمع شعره في ديوان^(٣) ، وفي الطالع السعيد نماذج كثيرة من
شعر هؤلاء الشعراء .

وبقى لنا من شعراء أسرة ابن الزبير علي بن إبراهيم بن الزبير ، وكان فاضلاً رئيساً^(٤)
وولداً : القاضي الرشيد أحمد^(٥) ، والمهذب الحسن^(٦) ، وكان المهذب من كبار شعراء عصره ،
ذكره العباد في الخريدة وأثنى عليه ، وقال : إنه لم يكن بمصر في زمنه أشعر منه . ومن تلك
الأسرة علي بن أحمد ، وإن لم يبلغ في الشعر مبلغ والده^(٧) .

وإذا كان هذا العصر قد شاهد طائفة من الحكام والملوك والولاة أحاطوا أنفسهم
أو أحاط بهم جماعة من الشعراء ، كعباد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين ،
والملك الكامل ، والظاهر بيبرس ، والأشرف ، ممن أسبغوا العرف على الشعراء ، فكثروا
بجوارهم ، حتى عرفت لبعض هؤلاء الحكام زهاء خمسين شاعراً — فقد رأى هذا العصر
كذلك بعض الأسر ، التي تداول أبنائها حماية الشعراء وتقريبهم ، والإغداق عليهم ، وأشهر
هذه الأسر أسرة بني السكندر ، وهم أمراء أصائل من ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ، مدحون ،
مقصودون من البلاد الشاسعة ، والأماكن المتباعدة ، صنع لهم الفاضل السديد أبو الحسن
علي بن عرام سيرة ، وذكر مناقبهم ، وحالهم ، وجمع أسماء من مدحهم من أهل الثغر
(يريد أسوان) ومن ورد عليهم^(٨) . وما مدح به أحدهم قصيدة للحسن بن الزبير منها في
المدح قوله :

-
- (١) الطالع السعيد ص ١٩٨ . وفيه نماذج كثيرة للشاعر .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٠٣ .
(٤) الطالع السعيد ص ١٩٤ .
(٥) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٠ ، والطالع السعيد ص ٤٧ .
(٦) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٤ ، والطالع السعيد ص ١٠٠ .
(٧) الطالع السعيد ص ١٩٧ .
(٨) المرجع السابق ص ١٣ .

وينجده إن خانه الدهر أو سطا أناس إذا ما أنجد الذل أتهموا
أجاروا، فأتحت الكواكب خائف أجازوا، فافوق البسيطة معدم

وقيل إن قائلها أجز عليها بألف دينار^(١). وقد عرفنا من الشعراء الذين اتصلوا بهذه الأسرة غير ابن الزبير أحمد بن محمد الروزي^(٢)، وأحمد بن محمد الأسواني^(٣)، وأبا إسحق ابن شعيب الأسواني^(٤)، وسهلا الأسواني^(٥)، وعبد الله بن محمد بن رزيق^(٦)، وعلى بن محمد بن النضر^(٧)، ومحمد بن علي بن الغمر^(٨).

ومن الأعيان الذين حووا الأدب، وأغدقوا على الشعراء، فالتفوا حولهم، وأجادوا القول فيهم سراج الدين جعفر بن حسان الاسنوي، «كان رئيس الذات، حسن الصفات، كريم الأخلاق، طيب الأعراق، ممدوحا مقصوداً من الآفاق، صنع له مجد الملك جعفر بن شمس الخلافة سيرة، وجمع فيها أسماء من مدحه من أهل بلده، ومن ورد عليها، وفيه يقول من قصيدة:

فإسنا غدت تحكى العراق، وقد غدا أبو الفضل ذو الرأي الرشيد رشيد^(٩)

وبرغم أن الحياة الأدبية كانت يومئذ على أشدها في العاصمتين: القاهرة، ودمشق، فقد ظفرت الأقاليم الأخرى بنصيب من الشعراء، اجتمعوا حول حكام هذه الأقاليم، الذين كانوا في كثير من الأحيان يحكمون البلاد حكماً إقطاعياً، ولا سيما الشام، وكان هؤلاء الحكام يتشبهون ببلاط السلطان، كما كانت مراكز العلم في مصر مجالاً لذيوع الشعر، وترتبة صالحة، فكثرت الشعراء فيها، حتى قيل: إنه كان في إسنا سبعون شاعراً في وقت واحد^(٩).

(١) المرجع السابق نفسه الطالع السعيد . (٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٦ ، وفيه قصيدة مدح بها كنز الدولة بن متوج .

(٤) المرجع السابق ص ٤٢٥ ، وفيه مثنوية رثى بها بعض بني الكنز .

(٥) المرجع السابق ص ١٣٤ ، وفيه قصيدة مدح بها كنز الدولة .

(٦) المرجع السابق ص ١٤٦ . (٧) المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(٨) المرجع السابق ص ٣٠٩ ، وفيه قصيدة مدح بها كنز الدولة .

(٩) الطالع السعيد ص ١٦ .

لا عجب إذاً إن أكثر عدد الشعراء في ذلك العصر كثرة كبيرة، وعرفنا منهم عدداً ضخماً، احتفظت مراجع ذلك العصر بالكثير من شعره، وقد كان لطائفة كبيرة من هؤلاء الشعراء دواوين أثبتتها لهم مؤرخوهم، غير أن أكثر هذه الدواوين قد فقدت، ولكن بقي لنا منها على ما وصل إليه على أكثر من خمسة وعشرين ديواناً، وبمجموعات كبيرة من الشعر، تكفي لأن تلقى ضوءاً ساطعاً على الحركة الأدبية في ذلك العصر.

وأرى من الخير أن أترجم لبعض شعراء هذا العصر، مقتصرأ في هذه الترجمة على الخطوط الرئيسية للرجل، موجهاً العناية إلى ما كان لأدب الرجل من صلة بالحروب الصليبية، فليس من أهدافي أن أترجم ترجمة تفصيلية دقيقة لمن أقوم بالترجمة لهم، ومع قصر هذه الترجمة التي سأقوم بها أراها مكتملة لتصوير الحياة الأدبية في ذلك العصر، بما تدل على اتجاهات الأدباء، وتزيد في وضوح هذه الصورة التي أريد أن أرسمها، كما أن هذه الشخصيات معالم في طريق هذه الحياة الأدبية، في مدى هذين القرنين، وتبين في أشخاصهم تطور الحياة الأدبية من ناحية الأسلوب.

وقد ذكرت في كل ترجمة ما استطعت أن أصل إليه من مراجع صاحبها، ليعود إليها من يريد دراسة أوسع وأشمل.

ورقت من ترجمت لهم ترتيباً تاريخياً على حسب وفياتهم.

ظافر الحداد*

(٩ - ٥٢٨ هـ)

لا أدري من أمر حياته شيئاً ، ولا أعرف كيف تنقف وتخرج ، وإن كانت صناعته
فى الشعر توحى بأنه درس الأدب ، وعرف البديع ، وقد روى السلفى عنه بعض شعره ،
ولعله اتخذ الحدادة مهنة له ، كما يدل على ذلك قصته مع حاكم الإسكندرية ، وسنوردها فيما يلى .
وكل ما استطعت الوصول إليه هو أنه عاش فى الإسكندرية ، وربما قضى بها معظم حياته ،
وزار القاهرة ، ورأى آثار الفراعنة كالأهرام ، وأبى الهول ، ومدح خليفة الفاطميين مدحا ،
كان سبباً فى لوم العباد له ، فإنه مع إعجابه بظافر ، لامه على هذا المدح ، ونجهل كذلك الخليفة
الذى مدحه ظافر .

وربما أراد أن يتخذ الشعر مهنة له ، فيمدح رجالات عصره ، لينال رفدهم ، ولست
أدري إلى أى مدى حقق هذا الغرض ، وإن حفظ لنا شعره اتصاله بابن أبى جديد قاضى
الإسكندرية ونائبها ، فقد رأينا فى شعره قصيدة مدح له . كما اتصل بالافضل بن بدر الجمالى ،
وفىما بقى من شعره قصيدة يعزیه فيها بأخ له توفى .

كما حفظ له التاريخ اتصاله بعلم من رجال العلم والأدب فى عصره ، هو أمية بن أبى الصلت .

* مراجعه :

- | | |
|--|------------------------------------|
| (١) وفيات الأعيان ١ : ٢٤١ . | (٢) النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧٦ ، ٣٧٧ . |
| (٣) الرسالة المصرية ص ٥٣ . | (٤) معجم الأدباء ١٢ : ٢٧ . |
| (٥) حسن المحاضرة ١ : ٢٤١ و ٢ : ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ . | |
| (٦) بدائع البدائنه ص ١٣٦ . | (٧) مسالك الأبصار ١ : ٢٣٨ . |
| (٨) خطط القرينى ١ : ١٩٨ . | (٩) خريدة القصر ٢ : ٨١ . |
| (١٠) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٣١ ، ١٩٠ . | (١١) شذرات الذهب ٤ : ٩١ . |
| (١٢) خزائن الأدب للضوى ص ٦٣ ، ٢٤٥ . | (١٣) تاريخ مصر لابن ميسر ٢ : ٧٩ . |
| (١٤) الأعلام الزركلى ٢ : ٤٥٤ . | (١٥) عيون الأنباء ٢ : ٥٤ . |
| (١٦) المنهل الصافى ٢ : ٢٥٠ . | (١٧) معجم السلفى ورقة ٨٨ . |

صاحب الرسالة المصرية ، عند ما زار مصر ، ويظهر أن الصلة قد توطدت بين الشاعرين ، وأعجب أحدهما بصاحبه ، فكان ظافر بين من أثنى عليهم أمية في رسالته ، كما أرسل ظافر إلى أمية عند ما غادر هذا الإسكندرية قصيدة تفيض بالشوق والحب والإعجاب ، تأتق فيها في الصناعة اللفظية ، ليرضى أمية ، ويقنعه برسوخ قدمه ، في صناعة الشعر ، بدأها بقوله :

ألا هل لدائي من فراقك إفراق	هو السم لكن في لقائك درياق
فياشمس فضل ، غربت ، ولضوئها	على كل قطر بالمشارق إشراق
سقى العهد ^(١) عهداً ^(٢) منك عمر عهده ^(٣)	بقلي عهداً ^(٤) لا يضيع وميثاق
يجدده ذكر يطيب ، كما شدت	وريقاء كنتها ^(٥) من الأليك أوراق
لك الخلق الجذل الرفيع طرازه	وأكثر أخلاق الخليقة أخلاق
لقد ضاللتني يا أبا الصلت مذنات	ديارك عن دارى هموم وأشواق

ويمضى متحدثاً عن شوقه وحبه ، ثم يصف فضل أمية وعلمه بقوله :

ألا هل لا يامى بك الغر عودة	كعهدي وثغر الثغر أشنب براق
وما بيننا من حسن لفظك روضة	بها حسدت منا المسامع أحداق
حديث حديث ، كلما طال موجز	مفيد إلى قلب المحدث ، سباق
يزجيه بحر من علومك زاخر	له كل بحر فائض اللج رقراق
معان كأطواد الشواخ جزلة	تضمنها عذب من اللفظ غيداق
به حكم مستنبطات غرائب	لابكارها الغر الفلاسف عشاق
قلو عاش رسطاليس كان له بها	غرام وقلب دائم الفكر تواق

كان لظافر ديوان ، وصفه ابن خلكان بأن أكثره جيد ، وقد بقي لنا من شعره قليل رواه لنا العباد في خريدته ، وبقي لنا في مراجعه المختلفة ، وقد تفرق هذا القليل الباقي بين مدح ، ورثاء ، وغزل ، ووصف .

(٢) عهداً : زماناً .

(٤) العهد : النمة .

(١) العهد : أول مطر الربيع .

(٣) عهده : مودته .

(٥) كنتها : سقمها .

وليس في قصيدته التي مدح بها ابن أبي حديد ، وهنأه فيها بشهر رمضان سوى تلمس لمعان وهمية، ومبالغات لا تصور فضيلة ، ولا ترسم صورة حية لإنسان، إذ يقول :

شهر الصيام بك المهنأ	إذ كان يشبه منك فنا
ما سار حولا كاملا	إلا ليسرق منك معنى
وينال منك ، كما تنال	ويستفيد ، كما استفدنا
فرأى هلالك من محل هلاله	أعلى وأسنى
بهرت محاسنك الورى	فأعادت الفصحاء لكنا
ولذا مدحناك احتقرنا	ما نقول وإن أجدنا
والفضل أجمع بعض وصفك	فهو غاية ما وجدنا
إن الذى صدح الحمام	به ثناؤك حين غنى
وأظن ذلك موجبا	طرب القضيبي إذا ثلنى
فتهن شهرك واستزد	بقدمه سمدنا ويمنا
فكانه من عامه	كمكانك المحروس منا

فليس وراء ذلك محصول ذو قيمة من المعاني ، فضلا عن الغموض في مطلع القطعة ، فما الفن الذى يشبه فيه شهر الصيام الممدوح ، وما المعنى الذى سرقه ، على أنى أجد كلمة السرقة هنا قلقة في موضعها ، كما أن جملة (ينال منك) غير موفقة في أداء المعنى ، لأن من معانى النيل منه سبه وهجوه ، وليس ذلك بمراد ، وليس يبت : (فرأى هلالك . .) مترتباً على ما قبله ، ولا نتيجة له ، ولذا قلقت الفاء في هذا الموضع ، وغالت الأبيات الثلاثة في المدح ، من غير دلالة على معنى محدد ، أو صورة مرسومة ، وانتقل الشاعر بعد هذه المغالاة إلى تعديلات واهية ، فصدح الحمام حين يغنى ثناء عليه ، وهذا الثناء يدفع القضيبي إلى التثني طرباً . ولست في حاجة إلى القول بأن جملة (أظن ذلك موجبا) ليست من أساليب الشعر .

واتصل ظافر الحداد بأحد أبطال الحروب الصليبية ، ومدحه ، وسجل بعض معاركه مع الفرنج ، ولكنه في هذا المدح ، برغم الدافع القوى إليه ، لا يرتفع إلى مستوى ممتاز

حين يقول ، وقد ظفر طلائع في معركة ، قتل فيها أرناط مقدم خيل الفرنج :

عن سيف دين الله سل أرناطا	حيث المنية كأسها يتعاطى
والمشرفية قد حكمت في جيشه	في العل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرا	أشنى ، وعاین مخلصاً عطاطا
هو ملبس ، حيث العدا في الحرب ، من	حلل النجيع بجاسدا ورباطا
فجياده تشكو مزاحمة القنا	وترد خرصان الرماح سياتا
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا	من دينه الاطراف والاوساطا
كم قد أنار من الاسنة أنجما	لما أثار من العجاج عطاطا
فتخاله ملكا رمى بشبابه	في الروح شيطان الحروب فشاطا ^(١)

وله قصائد أخرى ، يمدح بها طلائع ، ناظراً إليه بطلا من أبطال هذه الحروب ، وبعضها في خريدة القصر .

ويرتفع ظافر حين يعزى ويرثى ، فيما حفظ لنا من قصيدته اتى عزى فيها الأفضل بأخيه المظفر ، وقد بدأها ظافر بقوله :

إذا كان عقي ما يسوء التصبر	فتقديمه عند الرزية أجدر
وليس الشجاع الندب من يضرب الطلى	دراكا ، ونار الحرب تذكى ، وتسعر
ولكنه من يؤلم الثكل قلبه	وتعروه أحداث الزمان ، فيضبر
لئن عظم الخطب الشديد محله	فلك أعلى منه قدرا وأكبر
وبعض الذى يحويه صدرك همة	تضيق بها الدنيا جميعاً ، وتصغر
لقد زعزعت شم الجبال رزية	ألمت ، ولكن طود حبلك أوقر
وحكم التعازى سنة نبوية	ولا فنك الحزم يبدو ويصدر

وبرغم ارتفاعها عن مستوى قصيدة مدحه ، يبدو عليها بعض أعراض الضعف ، فن كلمات مترادفة جىء بها لتكمل البيت ، من غير أن تحمل معنى جديداً ، كقوله تذكى وتسعر ،

ويبدو ويصدر ، ومن أخرى ليست مستقرة في مكانها كقوله (الشديد محله) ، ومن غيرها لا معنى لها هنا ، ككون حله أعلى قدراً من الخطب . وفي زعزعة شم الجبال للخطب مبالغة لا تخفى .

أما غزله فيكاد يكون أرق ألوان شعره ، ومنه تلك القصيدة التي عدها مؤرخوه من غرر القصائد ، ومنها :

لو كان بالصبر الجليل ملاذه	ما سحّ وأبل دمه ورذاذه
ما زال جيش الحب يعزو قلبه	حتى وهي وتقطعت أفلاذه
لم يبق فيه من الغرام بقية	إلا رسيش يحتويه جزاذه
من كان يرغب في السلامة فليكن	أبداً من الخدق المراض عياده
لا تخدعنك بالفتور ، فإنه	نظر يضر بقلبك استلذاذه
يأبى الرشا الذي من طرفه	سهم إلى حب القلوب نفاذه
در يلوح بفيك ، من نظامه	نمر يحول عليه من نباذه
وقناة ذاك القد كيف تقومت	وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه
هاروت يعجز عن مواقع كره	وهو الإمام ، فمن ترى أسناذه
تالله ما علقت محاسنك امرأ	إلا وعز على الورى استنقاذه
أغریت حبك بالقلوب فأذعنت	طوعاً ، وقد أودى بها استحواذه

قال ياقوت وهي نحو عشرين بيتاً كلها غرر ، وليست كما زعم ياقوت ، بل فيها مجال قوى للنقد ، ولا سيما هذا البيت الغامض في أسلوبه .

من قدر الرزق السنى لك انما قد كان ليس يضره انتقاذه

ومن غزله ما كان يتغنى به ، كقوله :

عنت ، ولكنى لم أع وأين ملائك من مسمى
وما قدر عتبك حتى يزىل غراماً تمكن من أضلعي
وما دام لومك إلا وأنت تقدر أن جناني معي

مضى كى يودع سكانه غداة الفراق ، فلم يرجع
فؤادى فى غير ما أنت فيه نخذ فى ملامته ، أودع

وإذا كانت العيون تسرق القلوب فليس وصفها بأنها لصوص فى قوله يتغزل :

لهم فى استراق القلب باللحظ عادة فوا عجباً حتى العيون لصوص

ما يباح فى الأدب ذلك أن كلبة (لص) تثير فى النفس معنى بغيضاً وتوحى بفكرة
هى أبعد ما تكون مرادة للشاعر ، كما أنه فى هذه القطعة نفسها قد اضطرته القافية إلى كلبة
لا تمثل فكرته ، وذلك عند ما قال :

نأوا ، فالأسى يجرى غروب مداى على الخد ، حتى كدت فيه أغوص

وأغلب الظن أنه كان يريد (أغرق) مكان (أغوص) لولا القافية التى دفعته إلى
هذا التعبير .

وكان ظافر من المولعين بالوصف ، وصف بعض مظاهر الطبيعة فتغنى بالاقحوان ،
والرياض ، والصباح ، وسنابل القمح ، ونبات اللوز ، ويوم مطر ، ووقف أمام النيل
وصوره ، وأمام الأهرام ، وأبى الهول ، ونظم فيها مقطوعة أعجبت المقريرى . وهو حيناً
يجيد الوصف ، وأحياناً يقف عند تلبس شبيه لما يصف ، من غير تصوير يثير العاطفة ،
ويبحث البهجة بما يصف ، فما وصفه الاقحوان ، إذ يقول :

أنظر ، فقد أبدى الاقحوى مبسماً يفتر ضحكا فوق قد أملد
كفصوص در لطف أجرامه وتنظمت من فوق شمس أملد

يصور لنا ما بقى من شعر ظافر أن الرجل كان حذراً من الناس ، لا يرى خيراً فى
الإكثار من الاختلاط بهم ، وأنه كان إلى التشاؤم أقرب منه إلى التفاؤل ، تلبس ذلك
فى قوله :

أوصيك بالبعد عن الناس فالعز فى الوحدة والياس
ووحدة الصمصام فى غمده خصته بالعزة فى الناس

وقوله:

هي الدنيا ، فلا يحزنك منها ولا من أهلها سفه وعاب
أطلب جيفة لتنال منها وتتكر أن تهارشك الكلاب

وقوله:

كن من الدنيا على وجل وتوقع سرعة الأجل
آفة الأبواب كامنة في الهوى والكسب والأمل
تخدع الإنسان لذنها فهي مثل السم في العسل

ولعل ذلك راجع إلى فقره الذي ينطق به قوله :

يا رب غانية أضربقوها أنى بلفظة معدم منبوز
فأجبها : ما عاز في نيل الغنى لكن مطالبة الحميد يعوز

ويذكر له مؤرخوه مقدرته على قول الشعر بديهة وارتجالاً ، ويروون له أن وإلى
الاسكندرية دعاه ، ليبرد خاتماً في يده ، قد ضاق عن خنصره فقال :

قصر في أوصافك العالم فاعترف النائر والناظم
من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره الخاتم

فأمر له بعتاء ، فقبل له : إن كنت ذا خاطر سمح ، فألشدنا الآن في هذا الغزال
المستأنس ، يعنى غزالاً في حجر الأمير ، فقال :

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جائماً فكيف اطمأن ، وأنت الأسد ؟

فأمر له بعتاء آخر ، فقال له الرجل ممتحناً : أنظم في هذه الشبكة المسدولة على هذه
الدار شيئاً ، فقال :

رأيت ببابك هذا المنيف شباباً ، فأدركني بعض شك
وفكرت فيما رأى خاطري فقلت : البحار يكون الشبك

فقال الأمير لممتحنه : دعه ، وإلا أخذ ما على .

ويروون له شعرا آخر قاله على البديهة أيضاً .

وبعد فشعر ظافر من النوع المتوسط ، الذى يجد الناقد فيه كثيراً من مظاهر الضعف ،
وقل أن تجد فيما بقى له من شعر هذا الأسلوب الجزل الفخم ، وعثر له العباد على بعض اللحن
لما قال : (عازنى) فى البيت : فأجبتها ما عاز فى نيل الغنى والصواب اعوزنى ويعوزنى .
وقال : (محروز) فى البيت :

ما خاب من هضم التفضل ماله كراما ، ووافر عرضه محروز

وصوابه محرز . وقد رأيناه فيما مضى يستخدم كلمة (شمس) والصواب شمس .

وقد بدا لنا مما أوردناه أنه يميل أحياناً إلى الصنعة ، وقد يتكلف فيها ، كما فى بعض
الآيات التى أرسلها إلى أمية .

وكانت وفاته بمصر فى المحرم سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

ابن منير*

٤٧٣ - ٥٤٨ هـ

في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، وفي طرابلس الشام ، ولد لمنير بن أحمد ، الذي اتخذ خرقه له لإنشاد الأشعار والغناء في أسواق طرابلس - طفل دعاه أحمد ، لشأ تنشئة أدبية ، حفظ القرآن الكريم ، ودرس اللغة ، وحفظ كثيرا من الأدب ، ولا بد أن يكون والده قد أمدّه بكثير من النصوص التي كان يحفظها ، ولعله اتخذ الرقي مهنة له ، فإنه يوصف في كتب تاريخه بالرفاء .

وبدأ يقول الشعر ، وظهر قويا ممتازا في الهجاء ، بارعا فيه ، وانتقل من مدينته إلى دمشق ، وشهر هناك بحبث اللسان وشدة الهجاء ، وأنه يدين بمذهب الشيعة المتطرفين ، فسجنه صاحب دمشق بوري بن أتابك طغتكين ، وعزم على قطع لسانه ، ثم شفع فيه ، فنفاه ، فضى إلى البلاد الشمالية .

ومع تشيع ابن منير ، اتصل بأعظم ملوك السنة في الشام ، وهما عماد الدين زنكي ، وولده نور الدين محمود ، فكان من الشعراء الذين خلدوا ذكر هذين البطلين العظيمين ، وسجلوا بالإعجاب معاركهما ضد الصليبيين .

مدح ابن منير عماد الدين زنكي ، وأعجب بما له من سمات البطولة والاقدام ، وصوره لنا سيفا من سيوف الله ، سله الله ليقضى به على الكفرة الطغاة ، وظلا لله في الأرض ، تأوى إلى عدله الأمة ، وتجد في حماه الأمن والدعة والاطمئنان ، حتى إذا فتح عماد الدين مدينة

* مراجعة :

- | | |
|---|--------------------------------------|
| (١) الروضتين في مواضع كثيرة . | (٢) الأعلام ١ : ٨١ |
| (٣) النجوم الزاهرة ٥/٢٩٩ . | (٤) وفيات الأعيان ١/٤٩ . |
| (٥) خطط الشام ٤/٤٢ . | (٦) معجم الأدباء ٨/١٢٦ ، ١٢٧ . |
| (٧) أعلام النبلاء ٤/٢٣١ . | (٨) خريدة القصر ١/٢ . |
| (٩) شذرات الذهب ٤/١٤٦ . | (١٠) البداية والنهاية ١٢/٢٣١ . |
| (١١) حسن المحاضرة ٢/٢١١ . | (١٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٢٠ . |
| (١٣) أدب الحروب الصليبية في مواضع كثيرة . | |

الرها مضى ابن منير يشيد بهذا الفتح ويذكر أثره في الإسلام والمسلمين ، ويوازن بين هذا الفتح وما كان من فتوح عظيمة قبلها في الإسلام ، ومن أرق مدائح فيه قوله :

صفات مجدك لفظ جل معناه
يا صارما ، يمين الله قائمه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
فذاك من حاولت مسعاك همته
قل للأعادي : ألا مؤتوا به كذا
ملك تنام عن الفحشاء همته
ما زال (١) يسمك ، والأيام تخدمه
حتى تعالت عن الشعري مشاعره
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا
أين الخلائف عن فتح أتيح له
على المنابر من أنبائه أرج
فتح أعاد على الإسلام بهجته
يهدى بمعتصم بالله فتكته
إن الرها غير عمورية ، وكذا
أخت الكواكب عزا ، ما بغى أحد
حتى دلفت لها بالعزم ، يشحذه
مشمرا ، وبنو الإسلام في شغل
ياحجي العدل إذ قامت نواد به
يا نعمة الله يستصفي المزيد بها
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما

فلا أسـترد الذي أعطاك الله
وفي أعالي أعادى الله حـنداه
بلا شبيه ، إذ الأملاك أشباه
جهلا ، وقصر عن مسعاك مسعاه
فالله خبيكم ، والله أعطاه
تقى ، وتسهر للمعروف عيناه
فيما ابتلاه ، يؤدي ما توخاه
قدرا ، وجاوزت الجوزاء نعلاه
وأين بما روه ما رأيداه
مظلل أفق الدنيا جناحاه
مقطوبة بفتيق المسك رياه
فاقر مبسمة ، واهتز عطفاه
حديثها نسخ الماضي ، وأنساه
من رامها ، ليس مغزاه كغزاه
من الملوك لها وقا (٢) ، فواتاه
رأى بيت فوق النجم مسراه
عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
وعامر الجود ، لما مع مغناه
للشاكـرين ، ويستقنى صفياه
من لم يتوجك هذا التاج إلا هو

وقد وفق ابن منير في هذه القصيدة ، التي صورت البطل من صنع الله ، ونعمة منه على

(١) سمكه : رفعه .

(٢) وقاه : قهره وأذله .

الاسلام ، وبرغم الصناعة اللفظية : من الجناس والطباق لم تضعف المعاني التي أراد الشاعر تصويرها ، إذا استثنينا قوله : تعالت عن الشعري مشاعره ، لأن الذي يتعالى عن الشعري هو الهمة ، لا المشاعر .

وتغنى ابن منير بصفات البطولة هذه فيما أنشأه من مدائح في عماد الدين ، بدت فيها مقدرته اللغوية ، وغرامه بالمحسنات البديعية . ويزداد إعجابه به بعد هذا النصر المبين على الفرنج ، حتى ليراه أجدر الناس بزعامة المسلمين ، وحمل لقب أمير المؤمنين :

ملك أسهر عيننا لم تزل	همها تشريد هم الراقدين
كل يوم مر من أيامه	فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الإنصاف في أوصافه	كان أولاهها أمير المؤمنين
ماروى الرايون ، بل ما سطوروا	مثل ما خطت له أيدي السنين

ولا جرم أن ينال عماد الدين هذه المكانة من نفس الشاعر ، فقد رآه ينهض موقفاً لتحطيم عروش الفرنج ، التي أقاموها في ديار الاسلام ، على أنقاض المسلمين المشردين .

واتسع المجال أمام ابن منير عند ما اعتلى العرش نور الدين محمود ولد عماد الدين ، فقد تعددت معاركه ضد الفرنج ، حتى صار الشيخ المخوف أمامهم ، واتسع الوقت أمام نور الدين ، فطالت وكثرت قصائد ابن منير فيه ، وكان هو وابن القيسراني يتغنيان بوقائع نور الدين ، ويشيدان بجلالها ، ففي عقب كل معركة مع الفرنج قصيدة أو قصائد منهما ، تمجد انتصاره ، وتذيع حميد جهاده ، وتشدو بجلال البطل ، وتجتهد في تعرف سماته ومنهجه ، في قيادة الجيش ، وحكم الرعية ، ولهما في ذلك قصائد كثيرة طويلة النفس ، وبما أنشأه ابن منير مادحاً به نور الدين قوله :

ما فوق شأوك في العلا مرداد	فسلام يقلق عزمك الاجهاد
هم ضربن على السماء سرادقا	فالشهب أطناب لها ، وعماد
أنت الذي خطبت له حساده	والفضل ما اعترفت به الحساد
زهرت لدولتك البلاد ، فروحها	أرج المهب ، ودوحها مباد
ولإذا العدا زرعوا النفاق ، وأحصدا	كيدا ، فعزمك ناقض حصاد

بالمقربات كأن فوق متونها جن الملا ، وكأنها أطواد
يهدى النواظر في دجنة نقعها بدر بسرلك نير وقاد
ألست دين محمد يا نوره عزاله فوق السها إسناد (١)
مازلت تسمكه ببياد القنا حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه عدد يراع به ، ولا استعدل
ان المناير لو تطيق تكلمنا حدثك عن خطباتها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادى مهلة فلهم إلى المرعى الوبي معاد
ملق باطراف الفرنجة كل كلا طرفاه : ضرب صادق ، وجلاد
حاموا ، فلما عاينوا حوض الردى حاموا برائش كيدهم أو كادوا
ورجا البرنس ، وقد تبرنس ذلة حرما بحارم ، والمصاد مصاد
ضجت ثعالبه ، فأخرس جرسها بيض تناسب في الحديد حداد
وسواعد ضربت بهن وبالقنا من دون مله أحمد الاسداد

وبموت ابن منير والقيصراني سنة ثمان وأربعين وخمسمائة - فقد نور الدين أعظم شاعرين
سجلا وقالعه ، قال صاحب كتاب الروضتين : « ماتا . . . قبل أن يفتح نور الدين دمشق ،
وبقي نور الدين حيا بعدهما ، إحدى وعشرين سنة ، يترقى كل عام في إزدياد ، من جهاد
واجتهاد ، ولو كانا أدركا ذلك لآتيا في وصفه بعجائب المدائح . »

وقد حدث بين الشاعرين تنافس دفعهما إلى التهاجي ، وكان الهجاء من أهم أغراض
ابن منير ، على أن له غزلا وحكمة ووصفا ، وله في الغزل قصيدة أعجب بها مؤرخوه وعدوها
من غرر قصائده ، وربما كان إعجابهم بها مستمدا من كثرة تشبيهاتها ، ومن هذه القافية الياثية
المشددة . ومن هذه القصيدة قوله :

من ركب البدر في صدر الرديني وموه السحر في حد اليماي
وأنزل النير الأعلى إلى فلك مداره في القباء الخسرواني

طرف رنا، أم قراب سل صارمه ؟ وأغيد ماس أم أعطاف خطي ؟
وبرق غادية ، أم برق مبتسم ؟ يفتّر من خلل الصدغ الدجوجي

ومنها :

لو قيل للبدر : من في الأرض تحسده إذا تجلى لقال : ابن الفلاني
أربي على بشق من محاسنه تألفت بين مسموع ومرئي :
إباء فارس ، مع لين الشام ، مع الظرف العراقي ، في النطق الحجازي
وما المدامة بالالباب ألعب من فصاحة البدو في ألفاظ تركي
أشبهته ببعـ ادى ، ثم كان له مزية الخلق ، والأخلاق ، والزي
من أين لي هب يجرى على ذهب من صحن أبيض صافي الماء فضي

أما قصيدته في الحكمة فدعوة حارة إلى الارتحال في طلب الغنى ، والمجد ، وعدم الرضا
بالعيش الحقير ، في مكان مهين . وبرغم ما فيها من صناعة لفظية ، لم تضعف قوة أسلوبها ،
ولم تخف معناها ، وفيها يقول :

وإذا الكريم رأى الخول نزيله في منزل فالحزم أن يرحلا
كالبدر : لما أن تضاءل جد في طلب الكمال ، فحازه متنقلا
سفها لحملك إن رضيت بمشرب رنق ، ورزق الله قد ملأ الملا
ساهمت عيسك مرعيشك قاعدا أفلا قليت بهن ناصية القلا
فارق ، ترق كالسيف سل ، فبان في منيه ما أخنى القراب ، وأخلا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة ما الموت إلا أن تعيش مذلا
للقفر لا للفقر هبها ، إنما مغناك ما أغناك أن تتوسلا

وقد سار ابن منير على هذا المذهب ، فلم يرض أن يعيش مضيقا عليه في الرزق ، في
طرابلس ، بل تركها متنقلا ، حتى وجد أملا في حلب تحت ظلال نور الدين .

معظم شعر ابن منير من النوع الجزل القوي ، لا يترك المحسن البديعي ، إذا أمكنه
استخدامه ، وهو في ذلك أكثر من القيسراني ، وأشد به غراما .

القيسراني *

(٤٧٨ — ٥٤٨ هـ)

محمد بن نصر بن صغير، ينحدر من ولد خالد بن الوليد، كما يروى. ولد بعكاسنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م)، ونشأ بقيسارية وهي بلدة بساحل الشام. قرأ الأدب على ابن الخياط، أحد شعراء عصره، ودرس علم الهيئة، وسمع الحديث، ومضى إلى دمشق، فبلغ تاج الملوك بوري أنه هجاه، فتنكر له، فهرب إلى حلب، ومدح نور الدين محمود بن زنكي صاحبها، وهناك توطدت الصلة بين الملك والشاعر، وهياً لهذه الصلة أن تتمكن أن الشاعر كان قد مدح والد نور الدين، وهناك بانتصاره على الفرنج سنة ٥٣٤ هـ، وفتح مدينة الرها سنة ٥٣٩ هـ.

كان القيسراني معجباً بعماد الدين زنكي، وعندما رآه ينتصر على الفرنج، ويستعيد أرض الوطن المغتصب، مضى الشاعر مشيداً بانتصاره، واجداً فيه الأمل المنشود، الذي تصبو إليه نفوس المسلمين، لاسترداد بلادهم من أيدي ملوك الصليبيين، فقال مرة يهنئه:

وأيّن ينجو ملوك الشرك من ملك من خيله النصر، لا بل جنده القسدر
فلا تحف بعدها الا فرنج قاطبة فلقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

* مراجعه :

(١) الروضتين ١ : ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٤ و ٣٧ و ٣٨ و ٤٩ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٨ و ٦٠ و ٦٦ و ٦٨ و ٧٠ و ٧٢ و ٧٦ و ٨٣ و ٩٩ و ١١١ .

(٢) الأعلام ٣ : ٩٩٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٤ و ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٣٤٧ و ٣٠٩ .

(٤) وفيات الأعيان ٢ : ١٦ . (٥) صبح الأعشى ٢ : ٣١ .

(٦) معجم الأدباء ٨ : ١٢٧ و ١٩ : ٦٤ . (٧) دائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٦٦ .

(٨) ديوانه . (٩) خريدة القصر ١ : ٧ .

(١٠) خزانة الأدب. س ١٧٥ . (١١) أدب الحروب الصليبية في مواضع كثيرة .

(١٢) البداية والنهاية ١٢ : ٢٣١ . (١٣) أعلام النبلاء ٤ : ٢٣٧ .

(١٤) معجم البلدان ١ : ١٠٥ .

إن قاتلوا قتلوا ، أو حاربوا حربوا (١) أوطاردوا طردوا ، أو حاصروا حصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة كأنما حل في أكناهم عمر
ولما فتح زنكي مدينة الرها رأى في ذلك الفتح نذيرا للفرنج بطردهم من الديار ، فقال:

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها	لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم ، لا مانع من مظفر	يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأي ، لو أن عزمه	رمى سد ذى القرنين أصمى سداده
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها	بمالكها ، إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى	فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده	فأية أرض لم ترضها جياده

فإذا حل راية الجهاد بعد زنكي ولده نور الدين محمود ، مضى القيسراني متتبعا انتصاراته ، مسجلا هذه الانتصارات ، مشيدا بما امتاز به هذا البطل : من صفات جديرة بأن ترفعه إلى مصاف القديسين ، وعظماء القواد معا ، وكان ابتهاج القيسراني بنور الدين لا يقل عن ابتهاجه بأبيه من قبل ، وقد أكثر الشاعر من مدح أميره ، ووفق إلى مدى بعيد في تصوير نظرة المسلمين إليه ، ولنصغ إليه مصورا هذا البطل الجديد ، إذ يقول فيه :

ذو الجهادين : من عدو ونفس	فهو طول الحياة في هيجاء
قد هديت الملوك للعدل ، لما	سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت في الناس ، حتى	لقسمت التقى على الاتقياء
أنت حينما تقاس بالأسد الورد	وحينا تعدُّ في الأولياء
رأفة في شهامة ، وعفاف	في اقتدار ، وسطوة في حياء
وجمال بمنطق بحلال	وكمال بمنطق بيماء
أعجب الناس منك أنك في الحروب	شهاب الكتيبة الشهباء
وكان السيوف من عزمك المـ	اضى أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فداك القـ	وم بالأمهات والآباء

وهكذا مجد فيه صفات الفائد المظفر في الحرب ، وصفات الحاكم العادل الشفيق بالرحمة ، وصفات التقى الصالح ، حتى ليدفع الناس إلى التشبه به في التقوى ، وصفات الشخصية المحبوبة من الناس يرون فيه الجمال والجلال ، ويبرهم براعته في القول ، فلا عجب ، وفيه كل هذه الصفات ، أن تمنى رعيته أن يظل لها حاكما ، وأن يفدوه بآبائهم وأمهاتهم .

وشبهه القيسراني في شعره بعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وصور ما كان يهتف به أبناء شعبه : من دعاء له أن يحفظه الله لهم ، لما أقامه فيهم : من العدل ، وما حاطهم به : من الأمن حين قال .

وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه إن الدعاء يعد في الحراس

أما تمجيده لوقائعه ، وتصويره لها فلا تكاد معركة ينتصر فيها إلا أشاد بها ، ومضى بمجده ، غير ناس ما لجنده : من نصيب في هذا النصر ، ومصوراً بعض ما كان يحدث يومئذ بعد هزيمة العدو ، وهاهو ذا يتغنى بعد إحدى هذه المعارك ، مؤملاً أن يستعيد الاسلام بسيف نور الدين ما فقدته ، من بلاد . قال القيسراني يمدحه ، بعد معركة انتصر فيها ، ولعله أراد أن يعارض أبا تمام في قصيدته البائية المشهورة ، فجاء بالقصيدة على وزنها وقافيتها ، وإن خالفها في حركة القافية ، إذ قال :

تهذى العزائم ، لا ما تدعى القضب	وذى المكارم ، لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطيت	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
ما زال جدك يبني كل شاهقة	حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
الله عزمك ما أمضى ! وهمك ما	أقضى اتساعاً بما ضاقت به الحقب !
ياساهد الطرف ، والأجفان هانجة	وثابت القلب ، والأحشاء تضطرب
أغررت سيوفك بالإفرنج راجفة	فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كيشهم منها بقاصية	أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
غضبت للدين ، حتى لم يفتك رضا	وكان دين الهدى مرضاته الغضب
ظهرت أرض الأعادى من دماهم	طهارة كل سيف عندها جنب

ومضى يصف المعركة ثم قال :

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً من الملوك فنور الدين محتسب

وبعد مدحه أخذ يصف مقتل (برنس) أنطاكية ، فقال :

فلجوا سلب الإبرنس قائله وهل له غير أنطاكية سلب

عجبت للصدّة السمراء مشمرة برأسه ، إن إثمار القنا عجب

إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا بدا لثعلبها من نحره سرب

ثم تحدث عن الأمل الذي خلقه نور الدين في نفوس المسلمين ، وكيف خلق فيهم روحاً معنوية سامية ، إذ قال :

كنا نعد حمى أطرافنا ظفرا فلكتك الظبا ما ليس نحتسب

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب

وأنذن لموجك في تطهير ساحله فإنما أنت بحر لجه لجب

ولم يقف القيسراني عند حد تسجيل وقائع نور الدين مع الفرنج ، بل سجل سياسته التي كان يتهجها ، لتوحيد كلمة المسلمين ، تحت لوائه ، حتى يستطيع بهذه القوى المتحدة أن يهاجم العدو ، ويلقى به خارج الديار ، وها هو ذا يتحدث عن سيطرة نور الدين على دمشق ، ويعد ذلك ، إذا تم ، إنذاراً للفرنج بإيادة ملكهم ، وامتلاك معاقلمهم :

إذا ما دمشق ملكتك عنانها تيقن من في (إيليا) ^(١) أنه الذبح

وهكذا ظفرت سياسة نور الدين ، وجهاده للفرنج ، بشاعر خلدها ؛ ولذا كانت خسارة الأدب والتاريخ كبيرة بوفاة هذا الشاعر سنة ٥٤٨ هـ ، فقد بقي بعده نور الدين إحدى وعشرين سنة ، كان الأدب يسعد فيها بإنتاج ضخم قوى ، لو أن الزمن أبقى للأمير شاعره ، يسجل له ما قام به من أعمال البطولة .

كان نور الدين محمود أعظم من اتصل به القيسراني ، وأكثر من مدحهم ، وقال مدحه

(١) إيلياء : بيت المقدس .

في سواء كقاضى القضاة كمال الدين الشهرزورى ، وجمال الدين وزير الموصل ، ومجد الدين ابن الداية ، وهم من أعيان عصرهم .

والمدح أهم أغراض شعر القيسرانى ، وله في الهجاء جولات مع ابن منير الذى ترجمنا له ، فقد كان القيسرانى سنياً متورعا ، وابن منير غالباً متشيعا ، فما قاله القيسرانى في ابن منير وكان قد هجاه :

ابن منير ، هجوت منى خيراً أفاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدرى فإن لى أسوة الصحابة

ومن هجاه القيسرانى ملك النحاة ، عندما قدم إلى الشام . وبرغم ما يرويه المؤرخون من أنه وابن منير كانا يشبهان بحريير والفرزدق ، للناقضات والوقائع التى جرت بينهما ؛ لم أعر على هذه المناقضات ، فيما بين يدي من مراجعته .

وله وصف في ثنايا شعره : وصف المعارك الحربية ، ووصف السبات النفسية للأبطال ، ووصف دمشق بقوله :

أرض تحل الامانى من أماكنها بحيث تجتمع الدنيا وتفرق
إذا شدا الطير فى أغصانها وقفت على حدائقها الاسماع والحدق

ومما استحسن وصفه لمغن بقوله :

والله لو أنصف الفتيان أنفسهم أعطوك ما ادخروا منها وما صانوا
ما أنت حين تغنى فى مجالسهم إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

أما غزله فرقيق ؛ وقد مر القيسرانى بالديار التى استولى عليها الفرنج فراقه جمال فتياتها وغمره شعور الإعجاب بهن ، فأنشأ كثيراً من المقطوعات التى تنطق بفيض من الشوق واللهفة والإعجاب ، وكانت الكنائس من أعظم الأماكن التى يسعد فيها بالنظر إلى الحسان ؛ كما كانت مجتمعاتهم فى الأعياد مثاراً لحسه وانفعالاته ، قال عند دخوله أنطاكية :

واحربا فى الثغور من بلد يضحك حسنا كأنه ثغر

به قصور، كأنها بيع ناطقة في خلالها الصور
هالات طاقتهن آهلة يبسم عن كل هالة قمر
سوافر كلها شعرن بنا برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته بدر، ولكن ليله شعر
سرت، وخلفت في ديارهم قلباً تمنيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بها للقرب، حتى غبطت من أسروا

وقال في بربرة، وهي كنيسة للإفرنج :

بدنسك يا قس بربرة وما بت تتلوه في الخندس
أجرتني من الصور الناطقات متى قمن حولك في مدرس
إذا هن أقبلن وقت الصلاة في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق أوساطها وضاعت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل أردافها فيألى من ذلك المجلس
فلولا التخرج في ملتي طلعت عليهن في برنس
وقمت ألحن قداسهن غير بليد ولا أخرس
ولم تلك فرسانها في الطمع — ان بأشجع مني ولا أفرس
ترى كل فائمة وجهها معرى بشمس الضحا مكثس
فرنجية ساكن عقدها وزنارها قلق المجلس
إذا قبلت صورة أقبلت عليها بناظرها الأشوس
فيا ليتني عندها دمية تراني ولا ريب في مليس
فأقسم لو أنني أستطيع تحولت صورة مرجرجس

ويظهر أن النيسراني كان رقيق القلب، يهفو إلى الجمال، ويولع به أينما كان، ويظهر أنه عندما سافر إلى العراق، لسبب لا أدريه، علق قلبه هوى جديداً، كان مثار شاعريته، عندما عاد من العراق إلى الشام، سنة ٥٢٧ هـ، فكان يتذكر هذا الهوى، ويحن إليه، كلما ابتعد عن العراق، فما قاله، وقد مر بالأنبار :

أقمت بالأنبار ذا لوعة مقسومة بين حبيبين
أشتاق أهلى بدمشق ، وفى بغداد حظ القلب والعين
فنى لقائى ذا فراق لذا قل لى : متى أخلو من البين

وقال وقد مر بوادى (إبلى) :

أقول لخلي عند (إبلى) وماؤه يبارى دموعى والرفاق تسير
تجاوزن عن ماء الغدير وشربه فبين جفونى للركاب غدير
ولما تنى طرفى اشتياق إليكم ولم يركم كاد الفؤاد يطير
وكيف برؤياكم ، وبينى وبينكم مهامه ثنى الطرف وهو حسير
وأعجب ما ألقاه فى الحب أنى أسير وقلبي بالعراق أسير

وقال وقد مر بديار بنى عدى :

مررتا فى ديار بنى عدى يجاذب لوعتى شرق وغرب
يتيمنى بأرض الشام حب ويمعطفنى على بغداد حب
غرام طارف ، وهوى تليد لكل صباة فى القلب شعب
ولا وأبيك ما هومت إلا سرى لها خيال لا يغيب
فكل هوى يطالبنى بقلب وهل لى غير هذا القلب قلب

تلك أهم أغراض شعر التيسرانى ، وشعره يمتاز بأنه من النوع الجزل الفخم ، الذى ينحو فيه منحى شعراء العصر العباسى الأول ، فيختار ألفاظه وعباراته ، من هذا الطراز الذى يجرى على ألسنة المثقفين من الشعراء ، وينأى عن ألفاظ العامة وأساليبها ، وفيما قدمناه من التماذج شاهد على ذلك . ويمتاز أيضاً بطول نفسه فى قصائده ، فهو مطيل فى معظمها .

وأحب التيسرانى الزخارف اللفظية ، وإن لم يفرق فيها ، كما أغرق صاحبه ابن منير ، فنجد من الجناس والطباق قوله فى مدح الكمال الشهر زورى :

وأنت فشمس العدل حكماً وحكمة وظلم بنات الفكر عدل عن العدل

ومن الجناس قوله :

ولما دنا التوديع قلت لصاحبي : خنائيك ، سرّني عن ملاحظة السرب
إذا كانت الأحداق نوعاً من الظبا فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب

وقد كانت هذه الصناعة اللفظية أحياناً تبهره ، حتى ينسى ما تخفى وراءها من تفاهة
المعنى ، روى أنه كان كثير الإعجاب بقولا من جملة قصيدة .

وأهوى الذي أهوى له البدر ساجداً ألسنت ترى في وجهه أثر الترب

فع أن البيت مأخوذ من قول أبي العلاء في مرثية :

وما كلفة البدر النضير قديمة ولكنّها في وجهه أثر اللطم

— له خيال بعيد ، وتعليل ضعيف ، ليس له سند من الواقع .

والقيسراتي مجيد في أكثر شعره ، واضح الغرض ، لا يستغلق ، ولا يبهّم ، ويحفظ
له مؤرخوه رسالة نثرية كتبها إلى نور الدين ، جارى فيها أهل عصره الذين التزموا السجع
فيما يكتبون ، قال في هذه الرسالة : « سلام الله وحنانه ، ورأفته وامتنانه ، وروحه وريحانه ،
على من عصم بعزه العواصم ، وخصم بحجته الدهر المخاصم ، وألجم بهيبته العائب والواصم ،
الذى انتضى في سبيل الله سيوف الجهاد ، وارتضى بعز ساطانه شعار العباد والزهاد ، واهتدى
إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد ، ومن أصبحت أطراف البلاد أوطاداً لمملكته ، ومعاقل
الكفار في عقاب ملكته ، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته ، ومن عادت به ثغور الشام
ضاحكة عن ثغور النصر ، وبمالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر ، وصعاب الأمور منقادة
إليه بأزمة الفهر ، ومن رأى الحكم دارسة فبنى مدارسها ، ويابسة فسقى منابها ومقارسها ،
والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها ، ومن عمر ربيع السنن بعد ما عفا ، وأنقذ من
الفتن من كان منها على شفا ، ومن نشر أعلام الفضل وأنشر بعد الوفاة أيام العدل ، ومن
أنار بوجهه الإيمان ، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان ، والرسالة في أخيلتها
وتشبيهاها تحمل كثيراً من الإحساسات ، التي ردها القيسراتي في شعره ، فهي أشبه ما تكون
بقصيدة منشورة .

وتوفى القيسراتي في دمشق ، ليلة الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان ، سنة

ثمان وأربعين وخمسمائة .

المهذب بن الزبير*

٩ — ٥٦١ هـ

الحسن بن علي، أحد أخوين أجادا قول الشعر وأحسانه، ويذكر المؤرخون أن المهذب كان أقوى من أخيه الرشيد شعراً وأن الرشيد أعلم من المهذب في علوم عصره، شرعية وعربية ورياضية^(١)، بل ذكر العباد أن المهذب كان أشعر أهل زمانه، وله شعر كثير، ومحل في الفضل أثير^(٢).

ولد في أسوان في عام لا يذكره مؤرخوه. ويقول ياقوت: إنه ينحدر من قبيلة غسان^(٣)، وكان أول شعر قاله سنة ست وعشرين وخمسة، وظل بعد ذلك ربع قرن يعاني نظم القريض وإجاداته، واتصل المهذب، وهو في أسوان، بأسرة بني الكنز^(٤)، حاة الأدب، وكعبة الأدباء، في هذا البلد، وبما مدح به أحدهم وهو كنز الدولة بن منوج قصيدة أولها:

بأى بلاد غير أرضي أخيم وأى أناس غير أهلي أيمم

ومنها في المدح:

إن جهل المادح طرق مديحك فأني بها من سائر الناس أعلم

* مراجعه:

- (١) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٤ (للطبعة). (٢) خزانة الأدب للحموي ص ٢٥٤.
- (٣) خطاط المقرئ ج ٢ ص ٢٧٩. (٤) في أدب مصر الفاطمية ص ٢٠٣ و ٢٣٠.
- (٥) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٧. (٦) الطالع السعيد ص ١٣ و ١٠٠.
- (٧) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١٣. (٨) الروضتين ج ١ ص ١٤٧.
- (٩) فوات الوفيات ج ١ ص ١٢٤. (١٠) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٢.
- (١١) النكت المصرية ص ٣٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٨٦ و ١٢٢ و ١٨٤ و ٢٤٣ و ٤١٥ و ٥٠٤ و ٥١٤.
- (١٢) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٩٧. (١٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١.

-
- (١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١. (٢) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٤.
 - (٣) معجم الأدباء ص ٤٧٩. (٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١.

وإن كنتموا ظلما أحاديث بجدكم فإن في كتم الشهادة أظلم
وهل لي حمد في الذي قلت فيكم ونعماكم عندي التي تتكلم^(١)

وقد أجازته الممدوح على هذه القصيدة بألف دينار^(٢)، ولكن المهذب، وقد خلق
طموحا لم يقتنع بالمقام في أسوان، فشد الرحال إلى عاصمة الدولة، حيث هيأت له جودة
شعره أن يتصل بوزراء الفاطميين، وأن يجالسهم، واشتدت صلته بالصالح طلائع بن رزيك
وزير الفائز والعاقد، فقد أثنى عليه القاضي الجليس أحد خاصة الصالح، حتى قدمه، وقربه
إليه، ولم ينل أحد عند الوزير منزلة تشابه منزلته، حتى لقد اتهم الوزير بأن أكثر ما في
ديوانه من شعر إنما هو من عمل المهذب^(٣)، وأغدق الوزير معروفه على الشاعر، حتى
حصل له منه مال جم^(٤)، وقد يكون لانحدار الاثنين من قبيلة غسان^(٥) أثر في توثق هذه
الصلة بينهما، وبرغم أن الذي مهد لهذه الصلة هو القاضي الجليس، فقد حدثت نفرة شديدة
بين الجليس والشاعر، لاندري، ولا يبين المؤرخون سببها، ولكنهم يذكرون أنه لما مات
الجليس شتم به ابن الزبير، ولبس في جنازته ثيابا مذهبة، فنقص بهذا السبب، واستقبحوا
فعله^(٦).

وأوفد المهذب إلى بلاد اليمن في رسالة من بعض ملوك مصر، وهيأت له هذه الرحلة
أن اجتهد هناك في تحصيل كتب النسب، وجمع منها ما لم يجتمع عند أحد، حتى صح له
تأليف كتاب الأنساب، قال عنه ياقوت: «هو كتاب كبير، أكثر من عشرين مجلداً...
رأيت بعضه، فوجدته، مع تحققي هذا العلم، وبحثي عن كتبه، غاية في معناه لا مزيد عليه
يدل على جودة قريحة مؤلفه، وكثرة اطلاعه... إذا ذكر رجلا ممن يقتضى الكتاب ذكره
لا يتركه حتى يعرفه بجهد من إيراد شيء من شعره وخبره^(٧)».

-
- (١) الصالح السعيد ص ١٠٤ . (٢) المرجع السابق ص ١٣ .
(٣) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٧ و ٤٨ . (٤) المرجع السابق ص ٤٧ .
(٥) ينسب المؤرخون طلائع بن رزيك إلى غسان ومدحه الشعراء بهذا النسب - راجع ص ٢١٠
التريدة المطبوعة .
(٦) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٨ .
(٧) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٨ - ٤٩ .

وكانت الصلة وثيقة بين المذهب وأخيه الرشيد ، فلما كان هذا في اليمن وقبض عليه أحد دعاة الفاطميين هناك ، لأنه ادعى الخلافة ، كما يقول ياقوت^(١) ، أو لحسد قام في صدر الداعي ، لما ظفر به من مكانة لدى بعض ملوكها ، لشعر قاله فيه^(٢) ، فأهانته الداعي وهم بقتله كتب المذهب إلى الداعي بقصيدته المشهورة^(٣) يمدحه ، ويستعطفه ، حتى أطلقه ، والقصيدة حقاً قوية ، بدأها باللهفة على أخيه الراحل ، كاسياً ذلك ثوب الغزل ، إذ يقول :

ياربع أين ترى الأحبة يمشوا هل أنجدوا من بعدنا أو أتهموا
رحلوا ، وفي القلب المعنى بعدهم وجد على مر الزمان مخيم
وسروا ، وقد كتموا المسير وإنما تسرى إذا جن الظلام الانجم
وتعوضت بالآس روحى وحشة لا أوحش الله المنازل منهم
لولا هم ما قت بين ديارهم حيران أستاف الديار ، وألثم
أمنازل الأحباب ، أين هم ؟ وأبين الصبر من بعد التفرق عنهم

وظل في هذا الغزل الباكي الحزين ، حتى إذا انتهى منه انتقل إلى الحديث عن أخيه ، يصف لنا ألمه لبعده ، ويتحدث عن أمجاده وفضائله ، فيقول :

ما كان بعد أخى الذى فارقت ليروح إلا بالشكاية لى فم
هو ذاك لم يملك علاه مالك كلا ، ولا وجدى عليه متم^(٤)

(١) معجم الأدباء ص ٤٩ . (٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٢ .

(٣) يرى صاحب الطالع السعيد أن هذه القصيدة أنشأها المذهب لما سافر أخوه الرشيد إلى مكة ، ومالت غيبته ، وقال إن هذه القصيدة تسمى النواحة ولكن القصيدة تؤيد رأى صاحب المعجم ، كما سنرى ، وربما أخذ صاحب الطالع ذلك من قول المذهب في القصيدة :

يا ساسا كفى البلد الحرام ، وإنما فى الصدر مع شحط المزار سحكتهم
ما ليقى فى المنازلين عشية بمنى وقد جمع الرقاق للومس
فأفوز ، إن غفل الرقيب بنظرة منكم إذا لى الحبيج وأحرموا
وليس ذلك بدليل ، لأن ذلك فى معرض الغزل .

(٤) يشير إلى قصة مالك بن نويرة وأخيه متم ، ولما وفد مالك على النبی ولاد صدقات بنى تميم ، فلما قتل مالك سنة إحدى عشرة بكاه متم بكاه مرا ، فى شعر خالد ، ويريد المذهب فى هذا البيت أن يقول : إن مالك لم يبلغ فى العلا شأو الرشيد أخيه ، وإن وجد متم على أخيه مالك =

أقوت^(١) مغانيه ، وعطل ربعه ولربما هجر العرين الضيفم
ورمت به الأهوال همه ما جد كالسيف ، يمضى عزمه ويصمم^(٢)
ياراحلا بالمجد عنا ، والعلا أترى يكون لكم إلينا مقدم ؟

وانتقل بعد ذلك إلى وصف الشامتين بأخيه ، الفرحين بغيبته ، وما جازاهم الله به من
تبديد الشمل والهلاك :

يفديك قوم كنت واسط عقدهم ما إن لهم ، مذ غبت ، شمل ينظم
لك في رقابهم ، وإن هم انكروا من كأطواق الحمام ، وأنعم
جهلوا ، فظنوا أن بعدك مغنم لما رحلت ، وإنما هو مغرم
فلقد أقر العين أن عداك قد هلكوا ببغيتهم ، وأنت مسلم

وهنا كان الانتقال طبيعياً من وصف هؤلاء الذين فارقه الرشيد وارتحل عنهم ، إلى
وصف أولئك الذين ارتحل إليهم . وعاش بينهم في اليمن ، فدحهم المهدب ، وأثنى عليهم ،
وخص الداعي من بينهم بخير ثنائه . فيقول :

واعترضت بعدهم بأكرم معشر بدءوا لك الفعل الجليل ، وتمموا
أقيال بأس ، خير من حملوا القنا وملوك قحطان الذين هم هم
وكفاهم شرفاً ومجدا أنهم قد أصبح الداعي المتوج منهم
هو بدر تم ، في سماء علام وبنو أبيه بنو ربيع أنجم^(٣)

ومضت القصيدة إلى غايتها ، تمدح الدعي وتثنى عليه . وكان لهذه القصيدة أثرها في
نفسه فأطلق أسيره .

== لا يبلغ وجده هو على أخيه الرشيد . وفي (متمم) تورية والمعنى القريب مأخوذ من التمام ،
والمعنى أن وجده عليه ليس له تمسك يحده ، أو غاية يقف عندها ، والمعنى البعيد المراد هو
متمم بن نويرة .

(١) أقوت : أفرقت . (٢) صمم السيف إذا مضى في العظم وقطعه .

(٣) القصيدة كلها في معجم الأدباء ج ٩ ص ٥٠ .

وكان لهذه الصلة الوثيقة أثرها في حياة المذهب ، فإن الرشيد بعد عودته من اليمن أتهمه شاور ، وقد ولي الوزارة بعد ولد الصالح طلائع ، بأنه على إتصال وثيق بصلاح الدين عند ما حاصر الإسكندرية ، وكان الرشيد يومئذ يلى النظر بالشغل في الدواوين السلطانية ، وكانت نتيجة هذا الاتهام قتل الرشيد ، والقبض على المذهب ، وحجسه ، فأخذ المذهب يقرض شعراً كثيراً ، أرسل به إلى شاور يستعطفه ، فلم يعطف ، فالتجأ إلى ولده الكامل شجاع ، ومدحه بأشعار كثيرة ، وهو في الحبس ، حتى غنى بشأنه وأخرجه من سجنه ، وجعله ضمن من ضمهم إليه واصطنعهم^(١) ، ومما كتب به للكامل بن شاور :

أيا صاحبي سجن الخزانة خلياً نسيم الصبا يرسل إلى كبدي نفحاً
وقولا لضوء الصبح : هل أنت عائد إلى نظري ، أم لا أرى بعدها صبحاً ؟
ولا تياساً من رحمة الله أن أرى سريعاً بفضل الكامل العفو والصفحاً
فإن تحبساني في النجوم تجبراً فلن تحبسانى له الشكر والمدحاً^(٢)

وأطال المذهب مجيذا في مدح الكامل ، مبالغاً في تمجيده ، وتعظيم أمره ، كقوله من قصيدة طويلة :

ولو لم يجد يوم الندى في يمينه لسائله غير الشبيبة أعطاها
فيا ملك أندقيا وسائس أهلها سياسة من قاس الأمور وقاساها
عسى نظرة تجلو بقلبي وناظري صداه فإن دائماً أتصددها^(٣)

ويظهر أن خروجه من السجن لم يضع حداً لمخاوفه من شاور ، حتى يقال إن سبب موته سنة إحدى وستين وخمسمائة هو ما أصابه من الخوف والهم من شاور^(٤) . ولعله قاسى شدايد كثيرة في السجن ، وكانت صورة هذه الشدايد في ظلام السجن الدامس الذي أحال الوقت كله ليلاً لا صبح له — لا تبرح مخيلته ، فحشى أن يعود إلى السجن ، ليقضى ما بقي من أيامه فيه وملاؤه هذا الخوف حتى قضى عليه .

(١) معجم الأدباء ص ٥٨ . (٢) المرجع السابق ص ٥٩ وخطوط المقرئ ج ٢ ص ٧٩ .
(٣) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦٣ . (٤) العالم السعيد ص ١٠٤ .

ولم يكن المذهب جميل الطلعة ، وقد سجل ذلك مفتخراً بقدرته على إنتاج الشعر البليغ الرائع ، إذ يقول :

إن لم أكن ملء العيون فإني في القول يابن الصيد ، ملء المسمع ^(١)

وكانت جودة شعره مصدر فخار له ، فهو يزهو على شعراء زمانه بسيرورة شعره ، وذيوعه على السنة معاصريه . قال يعرض بأحد شعراء الصالح :

فيا شاعراً قد قال ألف قصيدة ولكنها من بيته ليس تبرح
ليهنك ، لاهنت — أن قصائدي مع النجم تسرى ، أو مع الريح تسرح ^(٢)

ولعله كان يطمح إلى أن يصل إلى مدى يتفق مع بلاغته وشهرته ، وكان يؤكد بينه وبين نفسه أن سوف يصل إلى ما يشتهي ، وكان هذا الطموح هو الذي دفعه إلى أن يترك مدينته ويرحل إلى عاصمة الدولة . ويتجلى هذا الطموح في قوله :

تأبى المكارم والمجد المؤمل لي من أن أقيم وآمالى على سفر
إني لأشهر في أهل الفصاحة من شمس ، وأسير في الآفاق من قر
وسوف أرمى بنفسى كل مهلكة تسرى بها الشهب ، إن سارت ، على خطر
إما العلا وإليها منتهى أملى أو الردى ، وإليها منتهى البشر ^(٣)

ولست أدري منصباً شغله المذهب في الدولة ، وإن كان يلقب بالقاضى ، فكثير أولئك الذين لقبوا بالقاضى في ذلك العصر ، من غير أن يشغلوا منصب القضاء كالقاضى الفاضل .

وبرغم أن كثيراً من الشعر الذى تضمن العقائد الفاطمية قد أبيد ، رأينا فى شعر المذهب لحظة من هذه العقائد ، عند ما أشار إلى أرض (فذك) التى كانت ملكاً للرسول ، فلما مات أبى أبو بكر أن يورث فاطمة بنت الرسول هذه الأرض ، استناداً إلى ما روى من قوله عليه السلام : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . ويرى الشيعة أن أبا بكر ومن

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(١) الحميدة ج ١ ص ٢١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

بعده عمر قد أخطأ في هذا التصرف ، وأنه كان واجبا عليهما أن يورثاها السيدة فاطمة ، وقد أشار المذهب إلى ذلك في قوله ، يمدح ابن رزيك :

يقود كل مجن ضغن ذى ترة يكاد من حره الماذى ينسبك
حتى أعاد بحد السيف ملك بنى الزهراء ، واسترجع الحق الذى تركوا
فلو يكون لهم أمثاله عضدا فيما مضى ما غدت مغصوبة فذك^(١)

* * *

أثبت ابن خلكان أن القاضى المذهب كان له ديوان شعر ، كما كان لأخيه الرشيد ديوان شعر أيضا ، قال صاحب الوفيات : « وكانا مجيدين فى نظمهما ونثرهما » . غير أن هذين الديوانين قد فقدتا ، وبقي لنا من شعر المذهب نماذج فى مراجعه المختلفة ، تنوعت بين أغراض الشعر الغنائى : من مدح ، إلى غزل ، إلى وصف ، ونثر ، وغير ذلك ، وكان طلائع بن رزيك أكثر من خصه المذهب بمدحه ، وكان أهم صفة بارزة فى هذا المدح الثناء على شجاعته فى ميدان القتال ، وإقدامه على حرب الفرنج ، إقداما نال منهم ، وحطم بعض قواهم وبلوغه مرتبة سامية ، فى قرض الشعر وندر مدحه إياه بجمال الطلعة وبهجتها فما أثنى فيه على شجاعته قوله :

وتلقى الدهر منه بليث غاب	غدت سمر الرماح له عرينا
تخال سيوفه إما انتضاها	جداول ، والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن	يرحن مع الظلام ، ويفتدينا
إذا قدحت بجنيح الليل أورت	سنا يعشى غيـون الناظرينا
وإن جنحت مع الإصباح عدوا	أثارت للعجاج به دجونا
كأن الشمس حين تثير نقعا	تحاذر من سطاه أن تبينا
وما كسفت بدور الأفق إلا	أسى إذ ابصرت منه الجبيننا

(١) المرجع السابق ص ٢١٣ . وقد علق الهاد على ذلك بقوله : لقد أبعال فى هذا القول المؤتمك ، وغفل عن سر الشريعة فى فذك ، وفضل بمدوحه على السلف فى الشرف ، وأدت به المبالغة فى الضلال إلى السرف .

وما اضطربت رماح الخط إلا
وما تندق يوم الدوع ، حتى
وهل يشنى لها أبدا غليل
إذا لقيت عيون الروم زرقا
ومما مدحه به على غزو الفرنج قوله :

ولقد بعثت إلى الفرنج كتاباً
وثقلت في يوم العريش عروشهم
ألجأتهم للبحر لما أن جرى
مدح الوري بالباس إذ خضبوا الظبا
ولأنت تخضب كل بحر زاخر

مخافة ان يحطمها مينا^(١)
يدق بها الكواهل والمتونا
وقد شربت دماء الكافرينا
حسبت نصالها تلك العيون^(٢)

كالأسد حين تصول في خفان^(٣)
بشبا ضراب صادق وطعان
منه ومن دمهم معا بحران
في يوم حربهم من الأقران
من تحارب بالنجيع القاني^(٤)

وكان يأمل أن يتحد الصالح ونور الدين محمود على طرد العدو ، ويصبح الشام بينهما
قسمين ، حين يقول :

وأعدت رسل ابن القسيم^(٥) إليه في شعبان ، كي يتلام الشعبان
والقال يشهد باسمه أن سوف يغدو الشام وهو عليكما قسيمان^(٦)

ومما قاله في وصف شعر الصالح :

ولنار فطائته تريك لشعره
وعقود در لو تجسم لفظها
من كل راتقة الجمال زهت بها
سيارة في الأرض لا يعتاقها

عذباً يروى غلة الظمان
مارصعت إلا على التيجان
بين القصائد عزة السلطان
في سيرها قيد من الأوزان^(٧)

-
- (١) قال محقق الحريدة : هكذا في الأصل وربما كانت محرفة عن تبينا أي جماعات .
(٢) الحريدة ص ٢٠٧ .
(٣) مأسدة قرب الكوفة .
(٤) المرجع السابق ص ٢١٠ - ٢١١ .
(٥) القسيم : عماد الدين زنكي . وابنه : نور الدين .
(٦) المرجع السابق ص ٢١١ .
(٧) المرجع السابق ص ٢١٢ .

وغزل المهذب رقيق ، سواء منه ما قصد إليه الشاعر قصداً ، أو جعله مقدمة لمدحه ، وقد يصل إلى مدى كبير في الرقة ، كقوله :

هم نصب عيني ، أنجدوا ، أو غاروا	ومنى فؤادى أنصفوا ، أو جاروا
وهم مكان السر من قلبي ، وإن	بعدت نوى بهم ، وشط مزار
فارقتهم ، وكأنهم في ناظري	بما تملهم لي الأفكار
تركوا المنازل والديار ، فما لهم	إلا القلوب منازل وديار
أمنزل الأحباب ، غيرك البلى	فلنا اعتبار فيك واستعبار
سقياً لدهر مر فيك ، تشابهت	أوقاته فجميعها أسرار
قصرت لي الأعوام فيه ، فذناؤا	طالت بي الأيام وهي قصار
يأدهر ، لا يعررك ضعف تجلدى	لنى على غير الهوى صبار ^(١)

وكان القاضي الفاضل معجباً بغزل هذه القصيدة ، كتبه بيده ، وكان كثيراً ما يترنم

به وهو :

باته ياريح الشما ل إذا اشتملت الليل بردا
وحملت من نشر الحزا مى ما اغتدى للنس ندا
ونسجت ما بين الفصون إذا اعتنقن هوى ووردا
وهزرت عند الصبح من أعطافها قدا فقدا
ونثرت فوق الماء من أجياها للزهر عقدا
فلأت صفحة وجهه حتى اكسى آسا ووردا
مرى على بردى عساه يزيد فى مسراك بردا
أحبابنا ما بالكم فينا من الأعداء أعدى
وحياة حبكم بتربة وصلكم ما خنت عهدا^(٢)

كان هذان الغرضان : المدح والغزل أهم الأغراض فيما بقى من شعر المهذب ، أما الهجاء فقد أعلن عن موقفه منه في قوله للصالح ، وكان يغرى الشعراء بعضهم ببعض :

(٢) خزنة الأدب ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

(١) المرجع السابق ص ٢١٦ .

يأيها الملك الذى أوصافه غرر تجلت للزمان الأسفع^(١)
 لا تقطع الشعراء فى فائتي لو شئت لم أجن ولم أتخضع
 فليمسكوا عني ، فلو لا أني أبقى على عرضي إذا لم أجزع
 ولو أنه ناجى ضميري فى الكرى طيف الخيال بريبة لم أجمع
 وإذا بدا لى الهجر لم أر شخصه وإذا يقال لى الخنا لم أسمع
 والناس قد علوا بأنى ليس لى منذ كنت ، فى أعراضهم من مطمع^(٢)

فهو يبدى رغبة عن الهجاء ، وانصرافاً عن قوله ، إبقاء على عرضه أن تلوكه ألسن الشعراء ، ثم ينبئ عن نفسه أن يكون هدفاً يصلح لهجاء الشعراء ، فهو طاهر الضمير ، نقي القلب ، أبيض الصحيفة ، غير أن هذه الفكرة التى تمكنت منه ، فجعلته عف اللسان فى شعره ، لم تلجم لسانه إلى الأبد عن الهجاء ، فلقد كانت ظروف الحياة تدفعه إليه أحياناً دفعاً عنيفاً ، فها هو ذا قد وضع رجاءه فى قوم فأخلفوا رجاءه ، فأخذ يهجوهم ، ولكن فى غير بذاءة ولا إسفاف ، وكان أشد ما هجأهم به قوله :

ولو كنت أنصفت المدايح فيهم لصيرتها للأكرمين مراثيا^(٣)

ويؤمل خيراً فى صاحب ذى منصب عال فيخيب فيه أمله ، فيشكو قائلاً :
 لا ترج ذا نتص : ولو أصبحت من دونه فى الرتبة الشمس
 كيوان^(٤) ، أعلى كوكب موضعاً وهو إذا أنصفته نحس^(٥)

وقد سبق أن نقلنا تعريضه بأحد شعراء الصالح وهو ابن المفيد ، مما يدل على أن المذهب لم يستطع أن يتحاشى كل المحاشاة ما كان يبغيه الصالح من تعرض بعض شعرائه لبعض ، وهجاء بعضهم بعضاً ، ولكن هجاء المذهب قليل نادر ، كما ذكرنا .

(١) الأسفع : الأسود

(٢) الحريدة ص ٢١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٤

(٤) كيوان هو زحل ، وهو أشهر الكواكب ، وكان المعتقد أنه نهاية المجموعة الشمسية ، وأنه

أعلاها موضعاً ، لكنهم جعلوه كوكب النحس ورمز الشؤم .

(٥) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦٩ .

ولم يبق لنا من رثائه إلا بيتان ، لا تشعر فيهما بحرارة الحزن ، ولا بشدة وقع المصيبة ، فضلاً عما فيهما من ضعف الأسلوب ، والتماس لتعليل غير طبيعي ، إذ يقول :

بنفس من أبكى السموات فقدته بغيث ظنناه نوال يمينه
فما استعبرت إلا أسي وتأسفا وإلا فماذا الفطر في غير حينه^(١)

والشاعر هنا نسي نفسه ، ولم يتجـ. لغير بكاء السماء .

وبقى للشاعر كذلك قصيدة في الاستعطاف ، سبق أن حللناها ورأينا نخامة أساليبها ، وقوة معانيها ، وله كذلك نثر منشور في قصائده ، وأقوى عناصر نثره قوة شعره وبلاغته ، وقد ضربنا لذلك بعض الأمثلة فيما مضى ، كما نجد في ثنايا قصائده بعض أوصاف للطبيعة وغيرها ، وهو يقف عند تصوير ما تراه العين المجردة ، وبلجاً إلى حسن التعليل عند ما يصف المجرة ، فيقول :

وترى المجرة والنجوم ، ككأنما تسقى الرياض بمجدول ملآن
لو لم تسكن نهراً لما عامت بها أبداً نجوم الحوت والسرطان^(٢)

ولم يصور لنا المذهب في شعره حين وصف الأسطول المصري ضخامته وكثرة عدده ، بل اقتصر على الحديث عن لونه ومهارة هجومه ، ولم يذس وصف وجه البحر في أثناء المعركة بين المصريين والفرنج ، حين قال :

وكان بحر الروم خلق^(٣) وجهه وطففت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما لم يأت في حين من الأحيان
أحبب إلى بها شواني^(٤) ، أصبحت من فتكها ولها العداة شواني
شبهن بالفسربان في ألوانها وفعان فعل كواسر العقبان
أقرتها^(٥) عدد القتال فقد غدت فيها القنا عوضاً من الأشطان^(٦)

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٢٥ . (٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ .

(٣) خاتمه تخليقاً : طيبة .

(٤) هي أصكبر السفن الحربية في مصر ، وأكثرها استعمالاً يومئذ ، كانوا يقيمون فيها أبراجاً

وقللاً ، للدفاع والهجوم . تاريخ الأسطول العربي ص ٣٢ .

(٥) أقرتها : حملتها . (٦) جمع شطن وهو الحبل والنس من الحرمة ص ١١

ومن أجل ما قاله في الوصف قصيدة أنشأها في وصف ليلة سعيدة ، قضاها بين خمر
و غناء و جمال ، بددوا ظلمتها بشموع تجلو سواد الدجى ، وفي هذه القصيدة يقول :

كان قدودهم أنبتت	على كذب الرمل قضبانها
حججنا بها كعبة للسور	ترانا نسمح أركانها
فطوراً أعانق أغصانها	وطوراً أنادم غزلانها
على عاتق ^(١) إن خبت شمسنا	فضضنا عن الشمس أدنانها
وإن ظهرت لك محجوبة	قرأت بأنفك عنوانها
يطوف بها بابل ^(٢) الجفو	ن تفضح خداه ألوانها
بكأس إذا ما علاها المزا	ج أحال إلى التبر مرجانها
كان الحباب ^(٣) وقد قلده	در يفصل عقيانها ^(٤)
ومسمعة مثل شمس الضحا	أضافت إلى الحسن إحسانها
وراقصة رقصها للحو	ن عروض تقييد أوزانها
ولما طوى الليل ثوب النها	ر ، وجرت دياجيه أدرانها
جلونا عرائس مثل اللجين	صنعنا من النار تيجانها
صاغت مدامعها حلية	عليها توشح جثمانها
بها ما بأفتدة العاشقين	فليست تفارق نيرانها
وقد أشبهت رقباء الحبيب	فما يدخل الغمض أجفانها ^(٥)

وإن المذهب كان يقاس كثيراً من غدر أصحابه ، فامتلاً شكاً في صداقة الناس ، ورأينا
في شعره شكوى الزمان ، فأعلن أنه لا يثق بأحد ولا يؤمن بما يرى ويسمع ، بل أعلن أن
مصدر عيشه التكد هم أصدقائه وثقاته ، فقال مرة :

تشابه الناس في خلق وفي خلق	تشابه الناس والأصنام في الصور
ولم أبت قط من خلق على ثقة	إلا وأصبحت من عقلي على غرر

(١) العاتق : الخمر حسنت وقدمت .
(٢) منسوب إلى بابل : بلد السحر .
(٣) الحباب : ما يهلو الخمر من الفقايع .
(٤) العقيان : ذهب .
(٥) الحريدة ص ٢١٧ .

لا تخدعني بمرئي ومستمع فما أصدق لا سمعى ولا بصرى
وكيف آمن غيرى عند نائبة يوماً إذا كنت من نفسى على حذر^(١)

وقال أخرى :

ومن نكد الأيام أنى كما ترى أكابد عيشاً مثل دهرى أنكد
أمنت عداى ، ثم خفت أحبى لقد صدقوا ، إن الثقات هم العدا^(٢)

هذا ، وأما صلة ابن الزبير بوطنه مصر فيمن عنها قوله :

وما لى إلى ماء سوى النيل غلة ولو أنه - أستغفر الله - زمزم^(٣)

ويبدو شعر المذهب طبعياً ، يريد به صاحبه أن يعبر عن إحساسه وشعوره ، ولكنه مع ذلك لا يترك الزينة إذا عرضت له ، ولكنها إذا وردت في شعره لم تجددها مقتضبة ، ولا قلقلة في مكانها ، وإن شئت فانظر الجناس في قوله :

حرب عوان حكمتك من العدا فى كل بكر عندهم وعوان^(٤)

وقوله :

وعيوننا عوض العيون ، أمدها ما غادروا فيها من الغدران^(٥)

وإلى التورية في قوله :

لم ترض أسماء قوم أصبحوا ربماً كأن ألقابهم من بعدهم ترك^(٦)

(١) الحريدة ص ٢٢٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٥

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ .

(٤) الحريدة ص ٢١٦ . وعنوان في الشطر الأول صفة لحرب وهى الحرب التى قوتل فيها مرة ، وفى الشطر الثانى مى المرأة التى كان لها زوج .

(٥) معجم الأدباء ج ٩ ص ٥٨ . والعيون الثانية فى الشطر الأول منابع المياه ، وبينها وبين عيون الأولى جناس تام ، والغدران فى آخر البيت : جمع غدير وبينها وبين غادروا ، جناس اشتقاق ، ومعنى البيت أن عيونهم أصبحت تنوب عن العيون الجارية ، تمدها غدران من الدموع لا تنضب .

(٦) الحريدة ص ٢١٣ . وترك جمع تركة ، ولها عدة معان ، منها المرأة التى تترك لا تزوج ، والروضة التى يغفل عن رعيها ، وما تركه السيل من الماء ، والبيضة بعد أن يخرج منها القرخ ، كما أنه من الجائز أن يكون معناها الترك وهم هذا الجنس من الناس ، وهو يسكون الراء ، ويجوز فى الشعر تحريكها ، بالضم اتباعاً لحركة التاء .

(الحياة الادبية فى الحروب الصليبية ١١)

وإلى الاقتباس في قوله :

أقصر فديتك عن لومي وعن عدلى أولا نخذلى أمانا من يد المقل
من كل طرف مريض الجفن تنشدنا الحاظه : « رب رام من بنى ثعل ،
إن كان فيه لنا وهو السقيم شفا فر بما صحت الأجسام بالعلل (١)

وقد سبق أن أوردنا ما تهيأ له أحيانا من حسن التعليل ، وذلك كله لا يدخل المذهب بين شعراء الصنعة ، الذين يجعلون همهم لحسب التلاعب بالألفاظ من غير أن يكون وراءها سوى معان تافهة .

* * *

هذا وقد ظفر المذهب بمدح بعض شعراء عصره ، فلا بن عرام فيه مدائح (٢) ، ومدحه وأخاه عبارة النبى ، فقال :

أرى ابنى على ركب الله فيهما سجايا نفوس يينهن شتات
فهذا له فى المكرمات تسرع وهذا له فى النائمات ثبات
والحسن الفعل الذى هو كاسمه وما كل أسماء الرجال سمات (٣)

(١) الخريدة ص ٢٥٦ . والشطر الثانى من البيت الثانى مضمن قول امرئ القيس .

رب رام من بنى ثعل

وبنو ثعل حى من العرب .

والشطر الثانى للبيت الثالث شطر ثانى للثنائى من بيت شطره الأول : لعل عتبك محمود عوائبه .

(٢) النكت المصرية ص ١٨٤ .

(٣) الطالع السعيد ص ١٠٥ .

عمارة اليمنى*

٩ — ٥٦٩ هـ

من تهامة باليمن ، مدينة يقال لها مرطان ، ولد فيها عمارة ، من أسرة توارث بنوها
السؤدد والغنى ، وبين قوم من العرب تعصبوا لبداهتهم ، وحافظوا على لغتهم ، ولما شب
أرسله أبواه إلى زيد ، حيث لازم الطلب في مدرسة بها ، وظل بها يدرس الفقه على
مذهب الشافعى ، وبدأ يقرض الشعر في مغتربه حتى إذا زاره والده أنشده شيئاً من شعره ،
فاستحسنه ، ثم استخلفه ألا يهجو مسلماً قط ، ووفى عمارة بما وعده والده . وحج عمارة
سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وأوفده صاحب مكة سفيراً عنه ، ومعه رسالة إلى الديار
المصرية ، فقدمها ، في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة . والخليفة بها يومئذ القائم
ابن الظاهر ، ووزيره الملك الصالح ، طلائع بن رزيك ، فلما حضر للسلام عليهما في قاعة
الذهب في قصر الخلافة أنشدهما قصيدته التى أولها :

الحمد للعيس ، بعد العزم ، والهمم جداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجد الحق ، عندى للركاب يد تمت للجم فيها رتبة الخطم

* مراجعه :

- (١) الأعلام ٢ : ٧٠٩ .
- (٢) وفيات الأعيان ١ : ٢٢١ ، ٣٧٦ .
- (٣) الروضتين ١ : ٩٧ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨١ .
- ١٨٣ ، ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
- (٤) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٩٧ ، ١٦٠ ، ٢١٩ ، ٣٤٨ ، ١٥٦ .
- (٥) كتابه : تاريخ اليمن .
- (٦) صبح الأعشى ٣ : ٥٢٦ و ١٣ : ٣٠٥ .
- (٧) السلوك ١ : ٥٣ .
- (٨) النكت المصرية لمارة .
- (٩) بغية الوعاة ٣٥٩ .
- (١٠) تاريخ الاسلام للذهبي .
- (١١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤ : ٩٣ .
- (١٢) خطط المقرئى ١ : ١٩٥ . و ٢ : ٣٥١ ، ٣٩٢ .
- (١٣) مفرح الكروب ص ٣٤ .
- (١٤) الفاطميون فى مصر ص ٩٧٤ .
- (١٥) البؤساء فى عصور الاسلام ص ١٤٣ .
- (١٦) النجوم الزاهرة ٦ : ٧٠ .
- (١٧) خزائن الأدب لعموى ص ١١ .
- (١٨) ديوانه وختار ديوانه .
- (١٩) مسالك الأبصار ١٠ : ١٠٧١ .
- (٢٠) تاريخ مصر لابن ميسر ٢ : ٩٥ .
- (٢١) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٢ .
- (٢٢) البداية والنهاية ١٢ : ٢٧٤ .
- (٢٣) شذرات الذهب ٤ : ٢٣٤ .

قربن بعد مزار العز من نظرى حتى رأيت لإمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفدأ إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

حتى إذا أتم إنشادها أفيضت عليه الخلع من ثياب الخلافة مذهبة، ودفع له الصالح خمسمائة دينار، وأخرجت له السيدة الشريفة بنت الحافظ خمسمائة دينار أخرى، وأطلق له من دار الضيافة رسوم جليلة، واستحضره الصالح للجلاسة، ونظمه في سلك حاشيته، واثالت عليه صلاته، وغمره بره، وكان بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبو المعالي بن الحباب، والموفق بن الخلال، صاحب ديوان الانشاء، وأبو الفتح محمود ابن قادوس، والمهذب أبو محمد الحسن بن الزبير.

وظل عمارة بمصر إلى شوال من هذه السنة، حين ودع الخليفة والوزير بقصيدة، جاء فيها:

من لى بأن ترد الحجاز وغيرها أخبار طيب مواردى ومصادرى
زارت بي الآمال أكرم ساحة فوق الثرى، فغدوت أكرم زائر
ووفدت ألتبس الكرامة والغنى فرجعت من كل بحظ وافر
فكأن مكة قال صادق فألها: سافر تعد نحوى بوجه سافر

ومضى إلى مكة ومنها إلى زبيد لأمر طلبه منه أمير الحرمين، حتى إذا عاد إلى مكة في العام القادم، ألزمه أمير الحرمين أن يحمل عنه رسالة إلى الصالح طلائع، فعاد إلى مصر، وأمره الصالح بملازمته، وتأكدت بينهما روابط الود وأواصر المحبة، قال عمارة: «وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذاكرات، ويأمرنى بالخوض مع الجماعة فيها، وأنا بمعزل عن ذلك، لا أنطق بحرف واحد، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل: «فلا تقعد معهم، حتى يخوضوا في حديث غيره»، ونهضت فخرجت، فأدركنى الغلبان، فقلت: حصاة يعتاد في وجعها، فتركونى وانقطعت في منزلى أياما ثلاثة، ورسوله في كل يوم، والطبيب معه، ثم ركبته بالنهار، فوجدته في البستان المعروف بالختص، في خلوة من الجلساء، فاستوحش

من غيبتى ، وقال : خيرا ، فقلت : إني لم يكن بي وجع ، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف ، وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة ، وفي الملوك كثرة ، فعجب من هذا ، وقال : سألتك بالله ما الذي تعتقد في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم . وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهم واجبة عليه ، ثم قرأت قول الله تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » ، فضحك ، وكان مرتاضا حصييفا ، قد لقي في ولاياته فقهاء السنة ، وسمع كلامهم ، و « لم أشعر في بعض الأيام حتى جاءني منه رقعة ، فيها أبيات بخطه ، ومعها ثلاثة أكياس ذهبا ، والايات قوله :

قل للفقير عمارة : يا خير من	أضحى يؤلف خطبة وخطابا
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى	قل : حطة وادخل إلينا البابا
تلق اللأئمة شافعين ولا تجد	إلا لدينا سنة وكتابا
وعلى أن يعلو محلك في الورى	وإذا شفعت إلى كنت مجابا
وتعجل الآلاف ، وهي ثلاثة	صلة ، وحقك ، لا تعد ثوابا

فأجبت مع رسوله بهذه الايات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا	يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماءكم	معمور معتدى ، وصار خرابا
ودعوتكم فكرى إلى أقوالكم	من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فاشدد يديك على صفاء محبتي	وامن على ، وسد هذا البابا

وظل عمارة وثيق الصلة بالصالح وبنيه وأهله ، يحسنون إليه كل الاحسان ، تسرهم صحبتهم ، برغم اختلاف العقيدة ، فقد كان عمارة شافعيًا ، شديد التعصب لأهل السنة ، وكان الصالح طلائع إماميا ، شديد التعصب لمذهبه ، فقد حبه إليه جودة شعره ، وبراعة حديثه وإمتاع سمره ، وله في الصالح وولده مسدائح كثيرة ، حتى إذا انقرضت دولة بني رزيك وقبض على الأمر شاور ، جلس حوله جماعة من أصحاب بني رزيك ، ممن كان لهم عليهم فضل وإحسان ، فأخذوا ينتقدون بني رزيك ، وينتقصون قدرهم ، ولكن عمارة قام منشدا :

صحت بدولتك الايام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
 زالت ليالى بنى رزيك، وانصرفت والمدح والذم فيها غير منصرم
 كأن صالحهم يوما وعاد لهم فى صدرذا الدست لم يقعد ولم يقم
 كنا نظن، وبعض الظن مائمه بأن ذلك جمع غير منهزم
 فذوقعت وقوع النسر خانهم ما كان مجتمعا من ذلك الرخم
 ولم يكونوا عدواً ذل جانبه وإنما غرقوا فى سيلك العرم
 وما قصدت بتعظيمى عداك سوى تعظيم شأنك، فاعذرني ولا تلم
 ولو فتحت فى يوماً بدمهم لم يرض فضلك إلا أن يسد قمى
 والله يأمر بالاحسان عارفة منه، وينهى عن الفحشاء فى الكرم

ولم يغضب شاور، بل شكره على حسن وقائه لبنى رزيك.

وسقطت الدولة الفاطمية، وهو فى مصر، وكان اسقوطها رفة أسى فى صدره، دفعته
 إلى أن يرثيهم بقصيدة لامية أجاد فيها، وقد تحدثنا عنها فيما مضى، كما رثى العاضد رثاء باكياً
 وتمنى أن لو عادت أيامه، ورجعت دولته، وبما قاله فى ذلك :

أسنى لملك عاضدى عطلت حجراته بعد الندى والباس
 أخذت بنان الغز من أمواله ورجاله بمخاتق الانفاس
 وعسى الليالى أن ترد زمانكم لدناً كعبود البائة المياس
 أبنى على والبتول وأحمد وكواكب الدنيا وخير الناس

ولعله بعد أن استقر الأمر لإصلاح الدين قد حاول أن يجد له مكاناً فى الدولة الجديدة،
 فمدحه ومدح جماعة من أهل بيته، فما قاله يمدح به صلاح الدين :

تركت قلوب المشركين خواقفاً بات لواء النصر فوقك مخفق
 لئن سكن الاسلام جأشاً فإنه بما قد تركتم خاطر الكفر يقلق
 سميت بإصلاح الدين ملة أحمد وطاثرها فوق السماك محلق
 لك الخير، قد طال انتظارى، وأطلقت لعمري أرزاق، ورزقي معوق
 كأنك لم يسمع بجودك مغرب ولم يتحدث عن عطايتك مشرق

وإني من تاريخ أيامك التي بها سابق التاريخ يمحي ويمحق
صدقتك فيما قلت ، أو أنا قائل بأنك خير الناس ، والصدق أوثق
وحسبي أن أنهى إليك ، وأتتهى وأحسن من ظني ، وأنت تتحقق

ويبدو من هذا المدح أن صلاح الدين لم يفسح مكانا لعمارة في دولته ، وأن عمارة قد
ضيق عليه في رزقه ، ففضى يندب أيام الدولة الفاطمية ، ويبكى حظه العائر لزوالها ، وكتب
إلى صلاح الدين قصيدة يشكو فيها حاله ، ويوازن بين عهديه : في عصر الدولة الفاطمية وفي
أيام صلاح الدين ، وسمى القصيدة : شكايه المتظلم ونكايه المتألم ، وبدأها بقوله :

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي لنفثه مصدور وأنه موجه

ثم وصف حاله في أيام الفاطميين قائلا :

تقاصر بي خطب الزمان وباعه فقصر عن ذرعى ، وقصر أذرعى
فيصمت مصرا أطلب الجاه والغنى فلتتهما في ظل عيش منع
وزرت ملوك النيل إذ زاد نيلهم فأحمد مرتادى ، وأخصب مرتعى
ملوك رعوا إلى حرمة ، صار نبتها هشيا ، رعته النابات ، وما رعى
مذاهبهم في الجود مذهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

ثم إنجبه إلى صلاح الدين يشرح له شكواه قائلا :

فقل لصلاح الدين والعدل شأنه : من الحكم المصغى إلى ، فأدعى
سكت ، فقالت ناطقات ضرورتى إذا حلقات الباب غلقن فاقرع
وعندى من الآداب ما لو شرحته تيقنت أنى قدوة ابن المقفع
إلى الله أشكو من ليالى ضرورة رجعنا بها نحو الجنب المرجع
قنعنا ، ولم نسألك صبرا وعفة إلى أن عدمننا بلغته المتقنع
ولما أغص الريق مجرى حلوقنا أتيناك نشكو غصة المتوجع
فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده فنه طرازي بل لثامى وبرقى
ألم ترعى للشافعى وأنتم أجل شفيع عند أعلى مشفع

أمن حسنات الدهر أم سيئاته رضاك عن الدنيا بما فعلت معي ١٩
ملكك عنان النصر ، ثم خذلتني وحلى بمرأى من علاك ومسمع

ومضى عمارة يشرح لصلاح الدين مواهبه وخصاله : من استمسك بمذهب السنة ،
ومن انطباع على الشعر ، وإبداع فيه ، ومن مقدرة على النثر المطبوع البليغ ، ومن نفس
تشكر الجميل ، ولا تنسى الوفاء ، ولا تنكر المعروف ، ويختم قصيدته الطويلة بأمله في أن
يجد في صلاح الدين ما يرنو إليه : من الجاه ، والعز ، والغنى .

ولكن هذه القصيدة لم تجده نفعا ، فضى ليتفق مع جماعة من رؤساء البلد ، على التعصب
للقاطميين ، وأن يعيدوا دولتهم ، فعلم بأمرهم صلاح الدين ، وكاثوا ثمانية ، وأمر بهم فشنقوا
يوم السبت ، ثاني شهر رمضان ، سنة تسع وستين وخمسمائة .

وترك عمارة مؤلفات ، منها في التاريخ كتاب أخبار اليمن ، والثكت العصرية في أخبار
الوزراء المصرية ، وأخبر أن له في الفرائض مصنفا ، كان يقرأ في اليمن .

ولعمارة ديوان شعر ضخم ، معظمه من النوع الجيد الجزل ، الذي يذكرنا بشعراء
القرن الثالث الهجري ، طرق فيه أغراض الشعر الغنائي : من مدح ، وثناء ، ووصف ،
وغزل ، وغيرها ، وتندر الهجاء في شعره عملا بوصية والده . وقد مدح عمارة يشعره خلفاء
مصر ، ووزراءها ، كما مدح حكام اليمن .

وله رثاء كذلك لهؤلاء الخلفاء والوزراء ، كما أصيب بفقد بنيه : حسين ، وإسماعيل ،
وعطية ، ومحمد ، وكان عمارة يكبر ابنه محمدا هذا ينحو ستة عشر عاما ، فكان الناظر إليهما
يظنهما أخوين ، فكان مما قاله في رثائه :

أيا سفح المقطم ، كم سفحنا	على مجراك من دمع هتون
ومنها : لئن أبلت لك الدنيا جينا	فثكل فيك قد أبلى جيلي
كأنك يا محمد لم تدافع	صدور نواب الأيام دوني
رزقتك بعد إدراكى يسلم	فلم تبعد سنينك عن سنيني
فكنت ، إذا العيون رئت إلينا	أخى في كل عين أو قريني

وكننت أرى الحنانة ضعف عزم
كما رثى بعض أزواجه .

وعتاب عمارة فيه قسوة وشدة ، وفيه وعيد وتهديد ، كقوله :

يا أكرم الناس وجها	وأكرم الناس عهدا
لكن إذا رام جودا	أعطى قليلا ، واكدى
لئن وصلتك سهوا	لقد هجرتك عمدا
وإن هويتك غيا	لقد سلوتك رشدا
وغوى كل وجه	من البشاشة يندى
وقلت : أصل كريم	وجوهر ليس يصدأ
فاردد على مديحى	فلست أكره رذا
والطم به وجهه ظن	قد خاب عندك قصدا
وسوف تأتيك غنى	ركائب الذم تحدى
يقطعن بالقول غورا	من البلاد ونجدا
ينشرن فى كل سمع	ذبا ، ويطوين حمدا

ولعمارة غزل يبدأ به قصائد مدحه ، وآخر أنشأه للغزل قصدا ، وهو قليل فى شعره ،
أما أثر الحروب الصليبية فى شعر عمارة فتمجيده لأحد رجالها الذين كان من أعز أمانيتهم فى
الحياة أن يقفوا معظم جهودهم على حرب العدو المغتصب ، وهو الوزير المصرى طلائع
بن رزيك ، فكثيرا ما اثنى عليه بجهاده للفرنج ، وانتصاره عليهم كقوله :

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد	ديارهم لم ينجم منك مهرب
وخافتك إن لم تعطيا الأمن منعما	لجاءتك ياليت الشرى تتغلب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم	ومن بعض ما أهدوا بحن ومقضب
وذلك قال صادق أنت عزم	بسيفك ياسيف الهدى سوف يسلب
لك رأى لم تغفل ظباه ، ولم يقل	إذا ظلت الآراء تطفو وترسب
وما شئت فاصنع راشدا فى سؤالهم	فرايك من رأى البرية أصوب .

وله أبيات تدل على ما كانت تشعر به من خوف واضطراب ، حين كان الفرنج يعززون الإغارة عليها ، والاستيلاء على ربوعها ، في هذه الفترة المضطربة في تاريخ مصر ، وسنورد هذه الأبيات في حديثنا عن أثر الحروب الصليبية في الأدب العربي .

هذا ولعمارة آتني نثر فني ، يتجلى في رسائله التي التزم فيها السجع واستشهد في ثناياها بأبيات الشعر . وهذا نموذج من كتابته قال من رسالة : . . . وللعبد من موات الحرمات والاعتراف بعوارف المكرمات ، ما يستوجب به اغتفار عظيما الخطايا ، واحتقار جسيما العطايا ، وما أحسن قول القائل :

إن كنت قد كسدت لديك بضاعتي فبأى شيء ليت شعري أنفق
أبروح جيدي عاطلا من أنعم جيد الزمان بحلين مطوق

وقد علم الله أن العبد لم يترك مواصلة الخدمة بالمكاتبة إهمالا وإخلالا ، بل إعظاما وإجلالا ، وحين لم يبق له من الكلام ما يرضيه في الإبانة عما ينطوى عليه من المودة والموالة ، والمسابقة والممالة ، تشاجع العبد على هذا الكلام الغث ، واستمسك بهذا السبب الرث ، وأما النظم فإنه لو كان منظوما من نثر الكواكب الأفراد ، مكتوبا بذوب القرائح والآكباد ، لمارضيه العبد حلية لجيد مجده ، ولا قام ببعض الواجب من شكر مولاه وحمده ، والعبد منتظر من تشريفه بالجواب بخط اليد الكريمة ما ينتظر السارى من ضوء صباحه ، والراكد من هبوب رياحه .

أسامة بن منقذ*

٤٤٨ — ٥٨٤ هـ

في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ٤٨٨ هـ (يولية سنة ١٠٩٥ م) ولد أسامة بن منقذ، في أسرة توارثت إمارة « شيزر »، وهي مدينة في الشمال الغربي لحماه، وتبعد عنها خمسة عشر ميلا، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصي من جهات ثلاث، وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة، وكان لهذه القلعة قيمتها في عصر الحروب الصليبية، لمركزها الحربي الحصين، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين.

وُلد أسامة لأب صالح، يقضى حوقته بين تلاوة القرآن، والصيد في النهار، ونسخ

-
- (١) كتبه : (١) الاعتبار . (ب) لباب الآداب . (ج) ديوانه « مصور بدار الكتب رقم ٦٩٣٩ ز » ويطبع الآن بالمطبعة الأميرية بتحقيق المؤلف وزميل له . (د) كتاب العصا من ١٨١ من « نوادر المخطوطات » المجموعة الأولى ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . (هـ) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣٣٤ تاريخ » . (و) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز « مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣٣٤ تاريخ » .
- (٢) الروضتين في أخبار الدولتين في مواضع كثيرة .
- (٣) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ج ٥ و ٦ في واضع عدة .
- (٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٣ و ٣٧٠ و ٣٩٤ و ٤٢٧ .
- (٥) ديوان سبط بن التعاويذ ص ١٤٢ و ٣٩٨ .
- (٦) تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٢ ص ٤٠٠ .
- (٧) معجم الأدباء لياقوت ج ٥ ص ١٨٨ و ٢١٤ .
- (٨) تاريخ الإسلام للذهبي . (٩) خريدة القصر .
- (١٠) شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٧٩ .
- (١١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٩٨ و ١٢٧ و ١٢٨ .
- (١٢) السلوك للقرنيزي ج ١ ص ١٢٥ . (١٣) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣١ .
- (١٤) إلهام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٤ ص ٢٨٦ .
- (١٥) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٧ و ٢٨ .
- (١٦) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٧٤ و ٧٥ .
- (١٧) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج ١٠ ص ٩٨٩ .
- (١٨) دائرة المعارف الإسلامية ج ٢ ص ٧٩ . (١٩) صرأة الجنان ج ٦ ص ٤٢٨ .

كتاب الله في الليل ، ووالدة شهرت بالشجاعة والنخوة والإقدام ، وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار ، ويركب الصعب من الأمور ، فلا ينهائهم عن أن يمضوا إلى حية يحز رأسها ، ويلقى بها في الدار ميتة ، وهو ثابت رابط الجأش ، ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشير ، وقتل ما يصصره منها ، وهكذا شب جريئا لا يهاب ، وبما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه في رياضته المفضلة عنده وهي الصيد .

إلى جانب هذه النشأة التي تعد للحرب والنضال ، تلقى أسامة الثقافة التي كان يتلقاها الأمراء في ذلك العصر ، فدرس الحديث ، والأدب ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، وحفظ الكثير من الشعر ، وأخذ من ذلك بنصيب واف ، تلقاه عن كبار الأساتذة ، كما كانت البيئتين التي عاش فيها بيئة أدبية ممتازة ، فقد كان الأمراء من بني منقذ ممن يقصدهم الشعراء والأدباء ، وكانوا هم علماء شعراء .

كان أسامة أميرا لدى عمه أبي العساكر سلطان حاكم « شير » ، ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابنا له ، وكان يرى فيه الأمير المستقبل لشير ، ووارث الملك من بعده ، واشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته وبين الصليبيين ، دفاعا عن مدينتهم شير ، وعاش في تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه ، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا في آخر عمره أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التي تربطه بأسامة ، وبدلا من حبه وعطفه عليه بدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه ، خوفا على أولاده من مكانة أسامة ، وحذرا أن يشول الملك إليه دونهم ، فضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكي الذي صار أكبر أبطال الحروب الصليبية في وقته ، وأول خطر حقيق دام للصليبيين ، فانتظم أسامة في جنده ، وحارب تحت قيادته ، في عدة معارك ، ولكنه لم ينس وطنه الأول شير ، عندما هاجمه الفرنج سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م) ، فقد مضى إليه ، وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عنه ، وربما يكون قد عزم على البقاء في شير ، بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١هـ ، غير أن عمه أبي العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشير ، فأمره وإخوته بالرحيل ، فغشقتوا في البلاد ، وكان في ذلك الخير لهم ، فإنهم نجوا من الزلازل التي هدمت شير ، وقضت على بني منقذ بأسرهم ، وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢هـ .

مضى أسامة يوم أخرج من شير إلى دمشق ، واتصل بحاكمها : معين الدين أنر ، واعتمد

هذا الحاكم على أسامة في تصريف الشؤون السياسية ، وقد نجح أسامة في ذلك نجاحا رفع مكانته في دمشق ، واستطاع في تلك الحقبة أن يتصل بالفرنج عن قرب ، وأن يعرف الكثير من عاداتهم وأخلاقهم ، ولكن المقام لم يصف لأسامة بدمشق ، ويظهر من القصيدة التي أرسلها إلى معين الدين أنز يعاتبه فيها — أن السر في نبو المقام بأسامة ، يعود إلى وشايات حملها الساعون إلى معين الدين ، فصدقها ، فأنحرف قلبه عنه ، يدل على ذلك قول أسامة :

بلغ أميري معين الدين مألكة	من نازح الدار ، لكن وده أمم
هل في القضية يامن فضل دولته	وعدل سيرته بين الوري علم
تضييع واجب حتى بعد ما شهدت	به النصيحة والإخلاص والخدم
وما ظننتك تنسى حق معرفتي	إن المعارف في أهل النهى ذمم
ولا أعتقدت الذي بيني وبينك من	ود ، وإن أجلب الأعداء ينصرم
لكن ثقاتك مازالوا بغشهم	حتى استوت عندك الأنوار والظلم
والله ما نصحوا لما استشرتهم	وكلمهم ذو هوى في الرأي متهم
كم حرقوا من مقال في سفارهم	وكم سعوا بفساد ، ضل سعيهم

ويبدو من تلك القصيدة ، وما فيها : من حياة وحرارة وقوة ، أن أسامة كان يضمير في قلبه فيضا من الحب لمعين الدين ، وقد ختم قصيدته بعد عتاب طويل بقوله :

فاسلم ، فاعشت لي فالدهر طوع يدي وكل ما نالني من يؤسه نعم

ترك أسامة دمشق ، وسافر إلى القاهرة ، فوصل إليها في جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ (نوفمبر سنة ١١٤٤ م) ، في عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، وكان معه والدته وزوجه وأخوه محمد نجم الدولة ، فأكرمه الخليفة أيما إكرام ، وأقطعه إقطاعا عاش به في رغد من الحياة وخفض العيش . ولم يشأ أسامة في أول الأمر أن يزوج بنفسه في الأحداث السياسية المصرية ، حتى إذا ولي الظافر ألقى بنفسه في خضم هذه الأحداث ، حتى ليرى المؤرخون أنه اشترك في المؤامرات التي انتهت بقتل الوزير ابن السلار والخليفة الظافر ، ورأى أسامة أن يعود بعد هذه الخطوب والحوادث إلى دمشق ، برغم أن الصلة كانت وثيقة ، بينه وبين الوزير المصري الجديد : طلائع بن رزيك .

عاد أسامة إلى دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م)، ومضت عشيرته لتلحق به، ولكن السفينة التي كانت تحملهم أصابها عطب عند عكا، وكانت في يد الصليبيين، فنهب الفرنج ما معهم من المتاع، وساموهم سوء العذاب، حتى إذا وصلوا إلى دمشق كانوا قد فقدوا كل ما حملوه معهم من مصر، وكان لذلك أكبر الأثر الأليم في نفس أسامة.

واتصل أسامة في دمشق بحاكمها نور الدين محمود، أكبر أبطال الحروب الصليبية في عصره، وكثيراً ما أرسل إليه الوزير المصري طلائع قصائد يحثه بها على أن يتوسط لدى نور الدين، حتى تجتمع كلمة سوريا ومصر، على جهاد العدو المشترك، ولكن هذه القصائد لم تثمر ثمرتها، ويظهر أن كبر سن أسامة قد حال بينه وبين الاشتراك في الوقائع الحربية التي شنها نور الدين وإن كان قد ساهم في بعضها، فقد حدثنا أبو شامة في كتابه: الروضتين عما أبداه أسامة: من ضروب البسالة، في حصار قلعة حارم.

ويظهر أنه وجد بعد زهاء عشر سنين قضاها في دمشق، أنه في حاجة إلى الراحة، والبعد عن تكاليف السلطان، وخدمة الملوك، ففضى إلى حصن كيفا، وهناك عكف على البحث والدرس والتأليف، وربما اختار أسامة هذا المكان، لما كان فيه من مكتبات ضخمة غنية. ولكن هذه العزلة التي ارتضاها أسامة قطعها عودة صلاح الدين إلى دمشق، وقد رأى فيه أسامة البطل المنقذ للبلاد فضى إليه، واستقبله صلاح الدين استقبالا حسنا، فقد كانت تربطهما صلات وثيقة، عندما كانا معا في بلاط نور الدين محمود، فأعطاه صلاح الدين دارا وإقطاعا دارة، وجالسه، وآنسه، وذاكره في الأدب، وكان يستشير فيه فيما يلم به، وإذا مضى إلى الغزو كاتبه، وأخبره بوقائعه، وكان صلاح الدين معجبا بشعر أسامة، مشغوبا بقراءة ديوانه، وتأمل خواطره، واستحسان روائع قصائده. وبما كان يشند به إعجاب صلاح الدين من شعره قصيدة طائية مطلعها:

أجيرة قلبي، إن تدانوا، وإن شطوا ومنية نفسي، أنصفوني أو اشتطوا

وكان إعجاب صلاح الدين بتلك القصيدة حافزا للعهد الكاتب أن ينظم قصيدة في مدح السلطان على وزنها وقافيتها^(١).

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٧.

عاش أسامة في دمشق يشكو الكبر ، وقد ثقلت عليه الحياة ، لطول عمره ، حتى إذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٤ هـ (نوفمبر سنة ١١٨٨ م) . توفى أسامة بعد أن أربى على التسعين ، ودفن في سفح جبل قاسيون بدمشق ، وترك عدة كتب أدبية وتاريخية .

وترك أسامة ديوانا جمعه بنفسه ، وعنى به من بعده ابنه مرهف ، ورتب الشاعر ديوانه على حسب الأغراض ، فباب للغزل ، وآخر لشكوى الفراق ، وغيرهما للوصف ، إلى غير ذلك من أغراض الشعر الغنائي ، ولكن ديوانه قد خلا من الهجاء ، ويظهر أنه قد أصر على ألا يكون في شعره هذا اللون ، برغم الدوافع التي كانت تسوقه إلى أن يهجو ، حتى لقد قال :

ظلمت شعري ، وليس الظلم من شيعي يطيعني حين أدعوه ، وأعصيه
يهم أن يذكر القوم اللثام بما فيهم ، فأزجره عنهم ، وأثنيه
وليس من خلق ثلب الغنى وإن جنى ، ولا ذكر ذى نقص بما فيه

وفي ذلك مسحة من ترفع الإمارة التي تحول بينه وبين النزول إلى مستوى التثاق والمهارة .

ولما اختار أسامة أن يرتب ديوانه على الأغراض كان يحزى القصيدة الواحدة ، فيضع غزلها مثلاً في باب الغزل ، ومديحها أو نغرها في باب المديح أو الفخر ، وكان هو يشير إلى ذلك حين يعرض قصائده ، ولهذا النظام فائدته في تتبع الدراسة الفنية لكل فن من فنون الشاعر على حدة ، وإن كانت الحاجة تدعو عند دراسة بناء القصيدة إلى دراسة أجزائها كلها ، لمعرفة الجو الذي توحى به ، وإدراك مدى الصلة التي تربط بين عناصرها .

ويبدو لأول ما تقرأ الديوان أن أسامة لم يدون كل ما قاله من الشعر ، لأنه لم يرض عن كل ما صدر منه ، لحذف منه ما لم يرقه ، حيث يقول :

كلما رددت في شعري النظر بان ضعف العي فيه ، وظهر
ليس يرضيني ، ولا يمكنني جحد ما قد شاع منه واشتهر
فأجبل الفكر في تقليله فإذا قل اختصرت المختصر
وبه فخر إلى ذى كرم إن رأى ما فيه من عيب ستر

وذاك يدل على تطلع أسامة إلى مثل أعلى كان ينبغي أن يصل إليه مستوى شعره ، ولا بد أن كان لذلك أثره في أخذه إياه بالتقويم والتنقيح حتى ظهر شعره في هذا الثوب من القوة والجزالة ، مما يذكرنا بشعر الفحول الذين سموا بفنهم عن أن يكون مظهراً للتلاعب بالالفاظ ، أو الجرى وراء محسن لفظي ، من غير أن يكون في البيت معنى جليل ، أو خاطر سام ، أو شعور صادق ، أما أسامة فليده ما يقول ، في أسلوب قوى ، وعبارة رصينة .

وتتدفق خواطر أسامة في قصيدته ، ويرتبط بعضها ببعض ، حتى يصبح البيت لبنة ، في بناء ملتحم مؤلف ، خذ مثلاً قوله :

لا تجز عن الخطب	فكل دهرك خطب
وحادثات الـ	لـ ما تغب
روح سلبا ، وتغدو	على الفتى ، وهي حرب
ولا تضق باضطبار	ذربا إذا اشتد كرب
فصبر يومـك مر	وفي غد هو عذب
كم صابر الدهر قوم	فأدر كوا ما أحبوا
وكل نار حـريق	يخشى لظاها ستخبو

ترى فيه التحام الخواطر وتسلسلها ، لا تجد ذلك في مقطوعاته القصيرة لحسب ، بل في قصائده الطويلة أيضا ، حتى ليخيل إليك أحيانا أنك تقرأ قطعة منشورة لا قصيدة منظومة . ويطول نفس أسامة أحيانا ، حتى تبلغ القصيدة تسعين بيتا ، كذلك التي كتبها على لسان نور الدين ، يعدد فيها وقائعه مع الفرنج .

وينهج أسامة في كثير من الأحيان المنهج التقليدي ، فيبدأ قصائده بالفزول ، حين يفتخر ، أو يمدح ، أو يشكو ، وحين يبدأ موضوعه من غير مقدمة غزلية ، كهذه القصيدة التي بعث بها إلى معين الدين أنر ، وقد لقي الفرنج وهزمهم ، فقال أسامة :

كل يوم فتح مبين ونصر واعتلاء على الأعادى وقهر

ومضى في قصيدته .

ولكثر ما أطلع أسامة على الشعر القديم كان يضمه بعض قصائده ، حتى قد أتهمه

بعض سامعي شعره بالسرقة من غيره ، وليس فيما فعل أسامة سوى التضمين ، الذي تراه في قوله يخاطب معين الدين أنر :

وأنت أعدل من يشكى إليه ، ولي شكية ، أنت فيها الخصم والحكم ،
وما ظننتك تنسى حق معرفتي ، إن المعارف في أهل النهى ذمم ،
لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم حتى استوت عندك الأنوار والظلم ،

وفي هذه الأبيات تضمين من قصيدة المتنبي : « واحر قلباه بمن قلبه شيم ،
أما قصيدة أسامة التي مطلعها :

أطاع الهوى من بعدهم وعصى الصبر فليس له نهى عليه ولا أمر

فقد ضمنها من شعر أبي فراس ، كهذا البيت ، ومن شعر المتنبي ، وأبي صخر الهذلي ،
وغيرهم . وليس التضمين بكثير في شعر أسامة ، وأكثره ما جاء في هاتين القصيدتين .

تلمس في شعر أسامة الجلال والوقار ، فلا هزل فيه ولا مزاح ، إلا قليلا نادرا ، فليس
في باب الملح الذي عقده ، فضلا عن قصره ، سوى قليل من الفكاهة ، ولعل من أرقها
قوله ، وقد كان له جار من الأمراء ، يعرف بابن طليب ، وقعت في داره نار فاحترقت ،
فقال أسامة :

أنظر إلى الأيام كيف تقودنا قسراً إلى الإقرار بالاقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره نارا ، وكان هلاكها بالنار

وقد وجدت الأحداث الكبرى التي مرت بأسامة صداها في شعره ، وصورت أثرها في
نفسه تصويراً قويا ، ولعل من أقوى هذه الآثار في نفسه اضطرابه إلى أن يفارق وطنه
الأول : « شيزر ، الذي شهد مدارج طفولته ، وملاعب صباه ، وملاهي شبابه ، وقد
وجد أسامة للبقاء في هذا الوطن شقاء لا يطيقه ، بعد أن جفاه عمه ، وقلب له ظهر المجن ،
فكتب إلى أبيه قصيدة يحدّثه فيها عما يعتلج في صدره : من الهم ، ويشكو إليه ما كدر
صفاء عيشه : من التمر ، ويقول له :

أشكو إلى عليك هما ضاق عن كتانه صدرى ، وما هو ضيق

وطوارقا اللهم أقربها (١) الكرى وتلظي صبحا فما تفرق (٢)
وينبث بأنه قد صمم على فراق دار الهون ، ما دام الحق عليه قد وجد سبيله إلى ذوى
قرباه ، فيقول :

دعني وقطع الأرض دون معاصر كل على لغيري — رم محقق
تغلي على صدورهم من غيظهم فتكاد من غيظ على تحرق
أعيا على رضاهم فيئست أن إدراكه ، ما النجم شيء يلحق
قد أفسدوا عيشي على وعيشهم فأنا الشقي بهم ، وبى أيضا شقوا
فضل الأقارب برهم وحنوهم فإذا جفوني فالأبعد أرفق
وكان أسامة راضياً عن نفسه بهذا الارتحال الذي نأى به عن الضيم :

أسام خسفا ثم لا آبي ، فلست إذا أسامه
هيات لا ترضى المعالي صاحباً يرضى اهتضامه

وكان موقفه من دمشق حين نبت به كوقفه من وطنه الأول ، فارقها غير راض باحتمال
الهوان ، برغم ما ألمسه في شعره من حب لمعين الدين . يقول له :

ولست آسى على الترحال من بلد شهب البزاة سواء فيه والرخم
تعلقت بحبال الشمس منه يدي ثم انثنت وهي صفر ، ملؤها ندم

أما حياته بمصر فقد مر عليه بها : من تقلبات الزمان وعبر الأيام . وتنقل الملك والسلطان.
ما صح أن يقول معه :

خمسون من عمرى مضت ، لم أتعظ فيها كأنى كنت عنها غائبا
وأنت على بمصر عشر بعدها كانت عظمات كلها وتجاربا
شاهدت من لعب الزمان بأهله وتقلب الدنيا الرقوب عجائبا

ولعل الأزمات السياسية التي مرت به في مصر كانت تملاً صدره بالهم والنقمة على الزمن الذي رمى به إلى مصر ، فيقول :

يا مصر ما درت في وهمي ولا خلدي ولا أجالتك خلواتي بأفكاري
ما أنت أول أرض مس تربتها جسمي ، ولا فيك أوطاني وأوطاري
لكن إذا حمت الأقدار كان لها قوى تؤلف بين الماء والنار

ولكن أسامة ، برغم هذه الأزمات التي كانت تدفعه حيناً إلى الثورة ، والتي لا بد أن تلم بمن يخوض لجة السياسة — وجد في مصر ما كان يصبو إليه من مال ومجد ، كان شديد الأسف عليه حين أفلت من يده ، تحس بذلك في قوله :

نلت في مصر كل ما يرتجى الآمل من رفعة ومال وجاء
فاستردت ما خولتني وما أسرع نقص الأمور عند التناهي
كنت فيه كأتني في منام زال منه ما سر عند انتباهي

فلا جرم كان شديد الحنين إلى مصر بعد أن فارقها

كان لكثرة الترحال أثر في شعر أسامة ، فكثيراً ما شكا الفاقة والاعتراب وكثرة جوبه للبلاد ، وتحس في هذا الشعر لوعة الحرمان ، وألم الشوق إلى الوطن المفارق والآل الغائبين ، وكان لذلك أثر في مسح شعره بمسحة من الحزن والأسى ، وكثرة حديثه عن الوداع والفراق .

كما كان لتبدد ثروته وتهب بعضها ، عقب الحوادث التي جرت بعد مقتل الحافظ ، وغرق بعضها في البحر ، عند خروج أسرته من مصر — أثره البالغ من نفسه وأثره القوي في شعره ، شكا ذلك إلى الملك الصالح ، وطلب منه المعونة ، فقال له :

أنا أشكو إليك دهرًا لحا^(١) عو دى ، وأعراه ، فهو ليس سليب
وخطوباً رمى بها حادث الدهر ر سوادى^(٢) ، وكلهن مصيب

أذهبت تالدى وطسار فى الطسارى، فضاغ الموروث والمكسوب
فهو شطران : بين مصر وبحر ذا غريق فى (١) ، وذا منهوب

فإذا نزلت كارثة زلزال شيزر، فذهبت بملك أهله وبأهله ، أخذ يكيهم ، ويندب حظهم
ويرثى منازلهم ، ويسأل الزمن عن ماضى مجدهم ، ويتألم لبقائه من بعدهم ، ويمدح ما اتصفوا
به من سامى الخلال وطيب الفعال ، ورغم ما كان بينه وبينهم : من إحزن وبغضاء ، عز
عليه فقدم ، وتمنى أن لو استصرت الحبة واستمر ما بينه وبينهم من فرقة ونفور ، فقد كانوا
برغم ذلك مصدر نخاره ، وينبوع قوته واعتزازه . قال أسامة من قصيدة طويلة :

قالوا : تأس ، وما قالوا بمن ، وإذا أفردت بالرزء ما أنفك أسوانا (٢)
ما استدرج الموت قومي فى هلاكهم ولا تخرمهم مثنى ووحيدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب وأحمل الخطب فيهم عز أو هانا
واقتردى بالورى قبل ، فكم فقدوا أبا ، وكم فارقوا أهلا وجيرانا

ويدفع عن نفسه أن يظن به ظان وقوفه من هذه الكارثة وقوف من لا يعنى بها ،
ولا يأبه لها ، فيقول :

لعل من يعرف الأمر الذى بعدت بعد التصاقب (٣) من جراه دارانا
يقول بالظن ، إذ لم يدر ما خلقى ولا محافظتى من حان (٤) أو باننا :
أسامة لم يسؤه فقد معشره كم أوغروا صدره ، غيظا وأضعانا
وما درى أن فى قلبى لفقدهم نارا تلظى ، وفى الأجفان طوفانا
بنو أبى ، وبنو عمى ، دمي دمهم وإن أرونى مناواة وشنأنا (٥)
كانوا سيوفى إذا نازلت حادثة وجنتى حين ألقى الخطب عريانا

وختم تلك القصيدة الباكية بالدعاء لهم ، فقال :

(٢) الأسوان : الحزين
(٤) الحين : الهلاك

(١) النوى . الغنيمه
(٣) الضغب : القرب
(٥) الشنآن : البغض

سقى ثرى أو دعوه رحمة ملأت مشوى قبورهم روحا وربحانا
والبس الله هاتيك العظام ، وإن بلين تحت الثرى ، عفوا وغفرانا

ولما علت سنن أسامة أخذ يشكو طول العمر ، وثقل الحياة عليه ، لحينا يجد في الموت
أعظم راحة تنقذه من ضعفه ، وحيناً تنهال عليه ذكريات شبابه وصباه ، وحيناً يأسف على
أنه لم ينل في شبابه من المتع والملاذ ما كان جديراً أن يظفر به في عصر الشباب ، إذ يقول :

وما ساءنى أن أحال الزمان ن ليلى نهارة وجهلى وقارا
ولكن يقولون : عصر الشبان ب يكون لكل سرور قرارا
فوجدى أنى فارقته ولم أبل ما يزعمون اختبارا

وصور لنا أسامة نفسه حنيا على عصاه ، قد تقوس ظهره ، وصارت العظام تيرا لها
القوس ، يمشى كالمقيد بإساره لا يستطيع أن يلجى داعى الحرب إذا دعاه :

رجلاى والسبعون قد أوهنا قواى عن سعى إلى الحرب
وكنت إن ثوب داعى الوغى ليته بالطعن والضرب

يصور لنا شعر أسامة صلته بأبيه وإخوته قوية وثيقة . ولما شئت إخوته في البلاد
كانت رسائله إليهم تفيض بالحب وشكوى الفراق .

أما صلته بعمه حاكم شيزر وابن عمه فيصورها شعره ، محاولاً جهده الإبقاء عليها ، باذلاً
في سبيل ذلك ما استطاع أن يبذل ، ولعل خير ما يصور موقفه في تلك الفترة قوله :

وما أشكو تلون أهل ودى ولو أجدت شكيتهم شكوت
ملك عتابهم ويئت منهم فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادى كظمت على أذاهم والطويت
ورحت عليهم طلق الحيا كأنى ما سمعت ولا رأيت
تجنسوا لى ذنوباً ماجنتها يدأى ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدرا كما قد أظهرته ولا نويت
ويوم الحشر موعدا ، وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت

ولما مضى زلزال شيزر بأسرته بكاهم أسامة كما ذكرنا . وهذا يدلنا على ما امتازت به نفس أسامة من حب يضمه لأقاربه ، ورغبة خالصة في أن يعيش بينهم لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا ذنب عليه إذا هو أخفق ، وأكاد ألمس في شعره أنه لم يسع يوما إلى فصم عروة مودة بينه وبين قريب أو صديق .

ومن أكبر الدين اتصل بهم أسامة الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ودار بين الاثنين كثير من المراسلات التي تفضح عن ودكين بين قلوبهما ، وإعجاب كل بصاحبه أكبر الإعجاب ، وكان الصالح معجبا بمواهب أسامة في الحرب والسلم ، يرى فيه محاربا شجاعا ، وشاعرا مفلحا ، وخطيبا بارعا ، وحكيا في إبداء الرأي صائبا ، يقول له :

وجهاد العدو بالفعل والقو ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأمر ين مذ كنت ، إذ تشب حروب
أنت فيها الشجاع مالك في الطعن ولا في الضراب يوما ضريب

وهو لذلك يراه خير من يحمل عبء الرسالة إلى نور الدين ، يحرضه على أن يجتمعا معا على حرب الصليبيين في وقت واحد ، حتى تقتلت وجدتهم ، ولا يستطيعوا الحرب في جبهتين ، وذلك كان رأى الملك الصالح وطلب من أسامة أن يبلغ ذلك رأى إلى نور الدين ، إذ قال له ،

والق عنا رسالة عند نور الدين ما في إلقاتها ما يريب
قصدا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضا ق بأدناهم الفضاء الرقيب
وعلينا أن يستهل على الشام مكان الغيوث مال صبيب

فهو يعد هنا بالجيوش والمال ، ويرى أن اجتماعهما معا على حرب العدو كفيلا بأن يلقي بهم في البحر . أرسل رسالة إلى أسامة يقول فيها :

فلو ان نور الدين يجمع ل فعلنا فيهم مشــال
ويسير الأجناد جهــرا ، كي تنازلهم نــالا

لرأيت للإفريج ط—— رأ في معاقلمها اعتق——الا
وتجهزوا للسير نح—— والغرب ، أوقص——دوا الشمالا

وكان رأى أسامة كراى الصالح فى الاجتماع ووحدة الكلبة ومضى الملكين معالى الحرب .
وقصائده إلى الملك الصالح تحت على هذا التضامن والاتفاق ، ولكن ذلك لم يخرج عن حد
الامانى ، ولو أنه نفذ يومئذ كان قد تغير مجرى التاريخ .

وكانت قصائد أسامة تحمل الثناء على الملك الصالح ، وتشكر أياديه ، وكان الصالح يبره ،
ولم يكن أسامة يجد غضاضة فى سؤال الصالح ، ولا الشكوى إليه ، كتب مرة إليه يقول :

أشكو زمانا قضى بالجور فى ولم يزل يحور على مثلى ويعتسف
لحت نوائبه عودى ، وأنفدموجو دى ، وشتت شلى ، وهو مؤتلف
وقد دعوتك مظلوما ومرتبجا وفى يدك الغنى والعدل والخلف

ومدح أسامة غير الصالح معين الدين أنر ، حاكم دمشق عندما كان فى كنفه ، وبعد أن
فارقه ، ومدح الوزير عباسا وزير الظافر ، وابنه نصرا . أما رأيه فى نور الدين محمود :

فهو المحامى عن بلا د الشام أجمع أب تذا
ومبيد أملاك الفر نج وجمعهم حالا لحالا
ملك يتيه الدهر والد نيا بدولته اختيالا

لكنه أخذ عليه شدة زهده ، وحمله الناس على الزهد ، حتى لقد أشبهت أيامه شهر الصوم
فى طهارتها ، وامتلائها بالجوع والعطش . ومدح أسامة كذلك صلاح الدين ذا كرا فضله عليه
وعلى الاسلام .

وكان أسامة شديد الاعتزاز بنفسه فى ميادين القتال ، شديد الاعتزاز بأسرته ، شديد
الثقة بصبره وثباته وتجربته ، فما قاله مفتخرا بشجاعته :

لخمس عشرة نازلت الحكمة إلى أن ثبتت فيها ، وخير الخيل ما قرحا (١)
أخوضها كشهاب القذف مبتسما طلق المحيا ، ووجه الموت قد كلتها
بصارم من رآه في قتام وغى أفرى به الهام ظن البرق قد لمحا
أغدو لنار الوغى في الحرب إن خمدت بالبيض في البيض والهلمات مقتدحا
فسل كجاة الوغى غنى ، لتعلم كم كرب كشفت ، وكم ضيق بي انفسحا

ولأسامة نظرات صائبة في الحياة ، أوحى إليه بها تجاربه ، وطول عمره ، وما تقلب
عليه من حوادث الزمن وعبر الأيام .

يرى أسامة لكل شيء في الحياة نهاية ، فلا بقاء لأمر ، ولا خلود لحادث ، فللسرور
غاية ينتهى إليها ، والأحزان حد تقف عنده ، وإذا كانت الحياة تجرى على المنوال ، فمن
الواجب استقبال حوادث الأيام بحسن الصبر ، وقلة الاهتمام ، فإن الشدائد إذا كانت
ستنقضى وتزول ، فمن العبث أن يزيد المرء في آلام نفسه :

خفض عليك ، فللأمور نهاية وإلى النهاية كل شيء صائر

بل إن هذه النظرة تنتهى بصاحبها إلى قلة الاكتراث بما في الحياة : من سعادة أو شقاء :

لما رأيت صروف هذا الدهر تلعب بالبرايا
يعلوا بها هذا ، ويهبط ذا ، وقصمهم المنيا
ورأيته مسترجعاً نزر المواهب والعطايا
متغاير الأحوال مختلف الضرائب والسجايا
لأنعمة فيه تدوم ، ولا تدوم به البلايا
لم أغبط فيه بفيا ندة ولم أخش الرزايا

(١) قرح الفرس كنعم وخجل : صار قارحاً ، وذلك عند إكمال خمس سنين ، حين تفتشى أسنانه .

والمرء يتغلب على شدائد الحياة بالصبر :

إذا ما عدا خطب من الدهر فاصطبر فإن الليالى بالخطوب حوامل
فكل الذى يأتى به الدهر زائل سريعا ، فلا تجزع لما هو زائل

وليس الصبر وسيلة لتحمل المكروه ، حتى ينقضى فحسب ، ولكنه الطريق إلى نيل
الآمل والظفر بالآمانى :

اصبر تنل ما ترجيه ، وتفضل من جاراك شأوا العلا ، سبقا وتبريزاً

أستطيع أن أعد أسامة بهذه النظرة إلى الحياة متفائلا ، إذ هو عند الشدة واثق من زوالها ،
وإذا كان الأمر على ذلك فلا معنى لليأس ولاخير فيه :

يا آلف الهم ، لا تقنط ، فأياس ما تكون يأتيك لطف الله بالفرج
ثق بالذى يسمع النجوى ، وينجى من البلى ، ويستنقذ الغرقى من اللجج

وإذا كان كل شيء فى هذه الحياة إلى انقضاء ، فمن الواجب ألا يدع فرصة سعادة تمر ،
من غير أن يأخذ منها بالنصيب الأولى :

وتغنم اللذات إن مررها مر السحاب

وأوحت إليه تجاربه فى الحياة أن القرب من السلطان غير مأمون العواقب ، فنادى بالبعد
عنه ، وإيثار العيش فى خمول وهدوء :

أرض الخمول ، تعش به فى نجوة مما تخاف ومن معاندة العدا

أما الحياة فى جوار ذوى السلطان فى خطر دائم وقلق لا يهدأ :

لا تقربن باب سلطان ، وإن ملأت هباته غير ممنون بها الطرقا
فإن أبوابهم كالبحر : راكبه مروع القلب ، يخشى دهره القلقا

وأسامة ممن يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدين بالخط ، ويرى الرزق مقسوما ، لاحيلة

فى تدبيره :

فوض الأمر راضيا جف بالكائن القلم
ليس في الرزق حيلة إنما الرزق بالقسم
دل رزق الضعيف ، وهو كلهم على وضهم
وافتقبا بالقوى تر هبه الأسد في الأجم
إن للخلق خالقها لا مرد لما حكم

وأفرد أسامة في ديوانه بابا للرثاء ، خص جزءا كبيرا منه برثاء ولده أبي بكر عتيق ، وكان قد وصفه بين أترابه قائلا :

عتيق كالهلال إذا تبدى لسارى الليل من تحت الغيوم
تقول إذا به الأتراب حفوا : أهذا البدر ما بين النجوم

وأكد المس في تشبيهه ابنه بالهلال يبدو لسارى الليل أنه كان أملا لأبيه ، طالما تمناه ، ليكون رفيقا لولده الآخر مرهف ، فلا جرم كان لموته لذعة ألم في قلبه أمضته ، فضى إلى شعره ، يشكو إليه وقدة الحزن ، ولا سيما أنه نكب به وقد قارب الثمانين من العمر ، لأمل عنده في خلف يأتي به ، وأسامة يحدثنا عن شغل فواده الدائم بابنه الراحل ، فيقول :

كيف أنساك يا أبا بكر ، أم كيف اصطبارى ، ما عنك صبرى جميل
أنت حيث اتجهت فى اسودى عيني وقلبي . مثل ، لاتزول

ويعصف لنا انصرافه بعد زيارة قبره يملأ قلبه الأسى والشجن .

أزور قبرك والأشجان تمنعنى أن أهتدى لطريق حين أنصرف
فأرى غير أحجار منضدة قناحتوتك ومأوى الدرة الصدف
فأنتى ، لست أدري أين منقلبي كأننى حائر فى الليل معتسف

وقد أثار فيه هذا الحادث المؤلم ذكرى من مضى من أهله . فأخذ يندبهم ويتوجع لمصيرهم ، بل أثار فيه الالم خيالاته القلقة المشردة التى لاتأوى إلى وطنه :

رمتنى فى عشر الثمانين نكبة من الشكل يودى حملها من له عشر

على حين أفنى الدهر قومي ولم تزل لهم ذروة العلياء والعدد الدثر^(١)
 فلم يبق إلا ذكرهم وتأسنى عليهم ، ولن يبق التأسف والذكر
 وأصبحت لا آل يلبون دعوتي ولا وطن آوى إليه ولا وفر
 كأني من غير التراب ، فليس لي من الأرض ذات العرض دون الورى قدر

هذا ، وليس في غزل أسامة هذه الحرارة التي تشعنا بقلب دله الحب ، وأضنته لوعة الغرام ، ولا أكاد أتبين له إحساساً تفرد به ، أو لمحات امتاز بها . وليس معنى ذلك أنه لم يذق الحب ، بل أرجح أنه ذاقه ، وإن كان لم يشغل قلبه كله . وقد استعار أسامة تشبيهات الأقدمين وأساليهم في وصف عواطف الحب . وبما يلحظ على غزله أنه شاك حزين ، لا تكاد تلج فيه ابتسامة سرور ، وقد يرق أسامة أحياناً ، ويتخذ أوزاناً مرقصة ، وتحس ببعض نبضات الحياة في عزله ، كقوله :

قل لمن أوحش بالهجر جفوني من كراها
 والذي أوهم عيني أن في النوم قذاها
 يا ملولا ، قلبا استرعى عهدا فرعاها
 يا ظلوما كلنا استعطفته صد وتاها
 زدت في تيبك ، والشئ إذا زاد تناهى
 تنقضى دولة الحسن وإن طال مداها
 راحتي لو سمع الشكوى إليه ووعاها
 غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
 وهو لو نادى عظامي رمة لي صداها

وكان أسامة عند ما يبدأ غرضاً من أغراض شعره يجعل روح غزله مناسبة لهذا الغرض ، واستمع إلى غزله في مفتتح قصيدة عتاب إذ يقول :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلوا فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكرى ما يربهم ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ، ولا أطلعت على ودائعهم في صدرى التهم
وعلى هذا النسق مضى ، حتى قال :

وبعد ، لو قيل لى : ماذا تحب ؟ وما منك من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم
هم مجال الكرى من مقلتى ، ومن قلبى محل المنى ، جاروا ، أو اجتموا
وهالك من غزله فى قصيدة استعطاف :

أطاع ما قاله الواشى وما عرفا فعاد ينكر منا كل ما عرفا
وعتاب أسامة فيه رقة ورفق بالغ ، واستعطاف جدير أن يستل الضغائن من القلوب ،
تشعر فيه بحرارة العاطفة وصدقها ، يقول لابن عمه يستعطفه :

هبنى أتيت بجهل ما قذفت به فأين حللك والفضل الذى عرفا
ولاء ، ومن يعلم الأسرار ، حلقة من يبر فيما آتى ، إن قال أو حلفا
ما حدثتني نفسى عند خلوتها بما تعفنى فيه إذا انكشفا

وبعد فشعر أسامة من النوع الجزل الفخم ، لا تكاد تجد فيه من الهنات إلا ما يعد
ويحصى ، فهو فى عصره يوضع فى مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر ، وكسوه
حلة من الفخامة والقوة والجلال .

ابن الساعاتي*

٥٥٣ — ٥٦٠ هـ

على بن رستم بن هردوز ، خراساني الاصل ، عرف بابن الساعاتي ، لأن والده عندما انتقل إلى الشام عرف بصنع الساعات ، وعلم النجوم ، وهو الذي عمل الساعات التي كانت عند باب الجامع بدمشق ، صنعها أيام نور الدين محمود بن زنكي ، فأنعم عليه إنعاماً كثيراً ، وولد ابنه علي في دمشق ، وفيها نشأ وتثقف ، وقضى الشطر الأكبر من حياته ، غير أنه على ما يظهر لم ينل فيها ما كان يصبو إليه من مال ومجد ، فرأى أن يغادر دمشق إلى وادي النيل ، عليه يجد فيه ما يحقق آماله ، فبعد أكثر من ثلاثين عاماً مضى إلى مصر وأقام فيها ، حتى مات ، وقد أربت سنه على الخمسين ، ويظهر أنه بلغ في مصر ما كان يرجوه من أهداف وأمان وبرغم ذلك كان دائم الحنين إلى وطنه ، كثير التذكر لربوعه وآثاره ، كثير اللهج بذكرياته فيه ، وذكريات ملاعبه ، وهو في هذه الناحية قوى في شعره مبرز فيه .

ويبدو من شعر ابن الساعاتي أنه من أولئك الذين يبغون الاستمتاع بما في الحياة من

-
- * مراجعه : (١) ديوانه .
 (٢) الأعلام ٢ : ٦٧١ .
 (٣) الروضتين ٢ : ١١ و ٤٣ و ٨٤ و ١٠٦ و ١٠٧ و ٢٩٤ .
 (٤) مقدمة ديوانه للاستاذ أنيس المقدسي .
 (٥) بين البحر والصحراء ص ٢٧ و ٤٩ و ١٠٧ و ١١١ . (٦) خطط القرنين ٣ : ٢٣٤ .
 (٧) خزانة الأدب للحموي ص ١٧٤ و ١٧٥ . (٨) حسن المحاضرة ٢ : ١٨٨٠ و ٢٠٨ .
 (٩) تاريخ الأسطول العربي ص ٣٩ . (١٠) النجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ .
 (١١) وفیات الأعيان ١ : ٣٦٢ و ٤٠٥ : ٢ . (١٢) خطط الشام ٤ : ٤٩ .
 (١٣) طبقات الأطباء ٢ : ١٨٣ و ١٨٤ . (١٤) مرآة الزمان ج ٨ تحت أخبار سنة ٥٧٩ هـ .
 (١٥) شذرات الذهب ٥ : ١٣ . (١٦) كشف الظنون ٣ : ٢٤٦ .
 (١٧) دائرة المعارف لبطرس البستاني . (١٨) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ١٨٧ و ١٨٨ .
 (١٩) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٢١ . (٢٠) معجم البلدان لياقوت ١ : ٧٧٥ و ٢ : ٨٠ و ٤٦٦ و ٣ : ٢٢٢ و ٣٧٥ و ٤٣٩ .
 (٢١) حلية السكيت للنواجي ص ٢٢٩ و ٢٨٢ . (٢٢) طراز المجالس للخفاجي ص ٦٧ .
 (٢٣) فوات الوفیات ١ : ٢٢٠ . (٢٤) الكامل لابن الأثير ١١ / ٢٠٧ .

جمال طبيعي ، وبما يسعف به الزمن من أسباب السرور، ولعل رغبته في المال كانت ليستطيع أن يستمتع بذلك كله .

نستطيع أن نحس بذلك مما يبدو في شعره من ولوع بالطبيعة ، يستوحى سهوها ، ووهادها ، وأنهارها ، ونجارها ، وليلها ، ونهارها ، وشمسها ، وبدرها ، ويقف عند مفاتها كلها ، معجبا بها ، مأخوذاً بجمالها ، وكان لهذه المناظر الطبيعية في دمشق أثرها في نفسه ، حتى إذا قدم إلى مصر كان لمناظرها الطبيعية أثرها في نفسه كذلك ، فما تغنى به يوم شات وصفه بقوله :

ولرب يوم غاب فيه رقيبنا	ومزاجنا ماء الغمام المدجن
حيث الغدير ، وقد أجادت نقشه	كف النسيم ومرها في جوشن ^(١)
وغصون دوح النيريين يهزها	نغم القهارى بالغناء المحسن
من كل لدن كالقوام ، يميل من	مرح الشباب إلى الدلال فيثنى
ما بين ثغر كالآقاح مفلج	وجبين نهر بالنسيم مفضن
ووجوه هاتيك الرياض سوافر	غيد تزان من المياه بأعين
والأرض تجلى في رداء أخضر	والجو يبرز في قناع أدكن

وتغنى بروضة قال فيها :

ولقد نزلت بروضة خزية	رتعت نواظرنا بها والآنفس
فظللت أعجب حيث يحلف صاحبي ^(٢)	والمسك من نفحاتها يتنفس
ما الجو إلا عنبر ، والدوح إلا	جوهر ، والأرض إلا سندس
سفرت شقائقه ، فهم الأقحوان بلثم —	ا ، فرنا إليه الترجس
فكان ذا حد ، وذا ثغر يحاوله ،	وذا أبدأ عيون تحرس

وبما تغنى به جمال الطبيعة في مصر قوله ، وقد نزل بمكان مستحسن من الجزيرة :

ولقد نزلت من الجزيرة منزلاً	شمل السرور بمشله يتجمع
-----------------------------	------------------------

(١) الجوشن : الدرع .

(٢) البيت الثاني هو ما حلف عليه صاحبه .

خضل الثرى ، نديت ذيول نسيمه فالمسك من أردانه يتضوع
 رقصت على دولابه أغصانه فلها به ساق هناك ومسمع
 والمد مد النيل ذائب عسجد يغنى البلاد ، فأهلها لا تخشع
 ما ضرها أن السماء جبينها جهم ، وأن عيونها لا تهمع
 يمسى دروعا بالصبا موضونة ويظل ما سكنت سيوفا تلمع
 نزل الشتاء بها ، وهيف غصونها خضر الملايس ، والحائم تسجع
 وبها لأفواه الأقاخى مع أزاهـرها حديث بالمناخر يسمع
 والعيد قد وافى ، وليس لمثله إلا بمثل ربوعها مستمتع

ويصف وقتا قضاه فى أسيوط قائلا :

لله يوم فى سيوط ، وليلة صرف الزمان بأختها لا يغلظ
 بتنا وعمر الليل فى غلوائه وله بنور البدر فرع أشبط
 والطل فى سلك الفصون كلؤلؤ رطب يصالحه النسيم فيسقط
 والطير يقرأ ، والغدير صحيفة والريح يكتب ، والغمام ينقط

ويطول فى القول إذا أنا حاولت عرض نماذج له فى وصف الطبيعة وجمالها . أما وصف
 متعته بلذات الحياة فمتنترة فى أرجاء شعره .

شعر ابن الساعاتى منوع النواحي ، فيه المدح ، والهجاء ، والغزل ، والرثاء ، والوصف ،
 والحكمة فى ثنايا رثائه بوجه خاص ، ومن أجل أوصافه ما قاله فى وصف الأمانى وقد
 سمع ذاما لها :

عشت دهرا منعما بالأمانى أى بيض ينسين سود الخطوب
 مدينت المدي ، ومبعدة الهم ، وزاد الغادى ، وأنس الغريب
 والمجيبات . إذ دعين ، وكم دا ع خليلا ما إن له من مجيب
 ذات وصل منزه عن صدود ودنو مكرم عن رقيب
 أخوات الشباب حسنا ، وإن أصبح فوداك فى قناع المشيب

محسنت إليك ، والدهر جان باسمات الوجوه عند القطوب
وإذا كنت لا تحب الأمانى فليأذا تهوى خيال الحبيب

واتصل ابن الساعاتى برجال الدولة الأيوبية من سلاطين ، وملوك ، ووزراء ، وكتاب ،
وقادة ، وفقهاء ، وقضاة ، وعلماء . وأشاد بعظمة بعض أبطال الحروب الصليبية كصلاح
الدين ، وأخيه العادل ، والمعظم عيسى ، ونال صلاح الدين من ذلك حظاً موفوراً ، وإن
كان قد ضاع معظم ما قاله فيه ، ولم يبق إلا أقله ، وهو يبدوه بالغزل التقليدى غالباً ، وقل
إن بدأه بالمدح من غير تمهيد ، وقد صور له لنا ابن الساعاتى قائداً مظفراً فى الحروب : ثابت
الجأش ، لا يتزعزع ، ولا يضطرب ، أمام خطوب الزمن :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا فلقين طرودا لا تخف أناته

يقود جيشاً ضخمًا ، عرمرما ، كل جنده جرى شجاع :

وقفت على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه رجال كآساد الشرى وهى ترجف
وجرداء سلوب^(١) ، ودرع مضاعف وأبيض هندی ، ولدن مثقف

يقاتل بهذا الجيش ، لا ليتسع ملكه ، ولا ليزداد شهرة وصيتا ، ولكن ليقوم بفروض
الدين ، ويؤدى واجب الله :

يقاتل كل ذى ملك رياء وأنت تقاتل الأعداء ديناً

كريم لا يقاس بنداى حاتم ، ولا يجوز أن يوازن به :

من حاتم ؟ عند ما كفاك واهبة حتى غدا مثلاً ناهيك من مثل
وما المئون من الأنعام تنحرها لمن تضيف ، وما عشر من الأبل
من يطلق الألف بعد الألف فى طلق كم بين طل الندى والوابل الهطل

(١) الجرءاء السلوب : الفرس السباقة الطويلة .

وحفظ لنا شعره الحديث عن معركتين كبيرتين لصالح الدين : إحداهما معركة طبرية، والثانية فتح القدس . أما الأولى فقد غلبه الفرح فيها فرحا جعل خيالاته وتشبيهاته تصدر عنه ، وتنبع منه ، ولهذا جعل طبرية عروسا ، فسكأنما كان المقام مهرجان عرس ، لا ميدان قتال ، فتسمعه يقول :

جلت عزما تك الفتح المبينا	فقد قرت عيون المسلمينا
وما طبرية إلا هدى ^(١)	ترفع عن أكف الالامينا
حصان الذيل ، لم تقذف بسوء	وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسراً ، ومن ذا	يصد الليث أن يلج العرينا
قست حتى رأت كفتاً ، فلانت	وغاية كل قاس أن يلينا
تخال حماة حوزتها نساء	يخوضون الحديد مقنعينا
ليضك في جماجم غناء	لذيذ علم الطير الحنينا

واتخذ الشاعر هذا النصر وسيلة لتعداد المعارك التي انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين ، ومغريا له بأن يمضى إلى ما بقي بأيديهم من مدن ليدعها منهم ، ويقضى عليهم القضاء الأخير :

فألم بالسواحل ، فهي صور^(٢) إليك ، وألحق الهام المتوينا

أما فتح صلاح الدين للقدس فقد تحدث عنه ابن الساعاتي في أكثر من قصيدة ، وأشأ إليه أكثر من مرة ، وبقي لنا من شعره قصيدة خصها بالحديث عن هذا الفتح ، ومضى إلى الحديث عنه مباشرة بدون أن يمد ذلك بغزل ولا سواه ، إذ قال :

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى	لآية حال تذخر النثر والنظم
وقد ساغ فتح القدس في كل منطق	وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
تحل به الأضداد ، واللفظ واحد	فكم سر قلبا في الأنام وكم غما

(٢) صور : ماثلة بنقارها إليك .

(١) الهدى : العروس

وتندى مغانيه ، وما جادها الحيا ولا سحبت ريح الصبا فوقها كما
حبا مكة الحسنى ، وثنى بيثرب وأطرب ذياك الضريح وما ضما
لقد سكن الدهياء أمنا وغبطة فهل كان لفظا سار ، أو عسكرا دهما
فليت فتي الخطاب شاهد فتحها فيشهد أن السهم من يوسف أصمى
وقد أوتى الفتحين : مالا ، وبلدة فلم يبق نصراً ما حواه ولا غنما

ولست أنكر أن هذه القصيدة لا تمثل جلال الفتح ، ولا تتناسب مع ما له من عظمة وآثار ، ولعل مرجع ذلك إلى ما كان يشغل باله يومئذ من هذه الحادثة التي نزلت بماله ، والتي أشار إليها في هذه القصيدة ولعله إنما أنشأها ليتخذها وسيلة للاستعانة بصلاح الدين على هذه الحادثة ، ولعل الاستفهام في أول هذه القصيدة يدل على أنه أخذ نفسه بالقول ، وحملها عليه حملا ، لأن المقام يتطلب منه أن يقول ، مع امتلاء قلبه بما يشجيه ويحزنه ، وفي تحويل الخطاب من الجمع في الشطر الأول إلى المفرد في الشطر الثاني دلالة على ارتباطك نفسى أدى إلى مثل هذا الضعف ، فإذا انتقلنا إلى البيت الثانى تساءلنا عن معنى سوغ فتح القدس في كل منطق ، وبدا الضعف في الشطر الثانى لأن الأسى الصم ليست آخر من يصل إليه نبأ هذا الفتح ، بل هى أول من يسمع به ، إذ تم على يديها . وفي الشطر الأول من البيت الثالث غموض . أما البيت الرابع فيضم معنى ضعيفا لا دخل له في تصوير الفرح بالنصر ، فمغانيه يومئذ لا تندى ، بل ربما كان وجه الصواب فيها أنها كتيبة يعلوها الغم والكتابة ، فإذا وصلنا إلى البيت التالى وجدنا التوفيق قد خانه أيضاً في الحسنى التي حباها هذا الفتح مكة ، فقد دفعه الوزن إلى استخدام كلمة الحسنى ، مكان البهجة والسرور مثلا ، واستخدم (ما) مكان (من) . وتستطيع أن تمضى في القصيدة بيتا بيتا لتلبس نواحي الضعف في القصيدة ، وتؤمن بأنها لا تصور جلال الفتح ، ولا ما كان له في النفوس من آثار .

وظل لا يمل مدح صلاح الدين بفتحه القدس ، فيقول له من قصيدة :

هو منقذ البيت المقدس بعد ما طالت فما وجد الشفاء شكاته .
ويقول مرة أخرى :

هو الفاتح البيت المقدس ، بعد ما تحامته سادات الدنيا ،

فضيلة فتح كان ثاني خايفة من القوم مبيها ، وأنت معيدها
ويقول في ثالثة :

سل عنه قلب الإنكثير^(١) ، فإن في خفقانه ما شئت من أنبائه .
لولاك أم البيت غير مدافع وأسأل سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما لترنم الناقوس في أفنائه

وبعد فشعر ابن الساعاتي من النوع الفخم الجزل ، وهو كشعراء عصره ، ممن يحرصون
على الزخرف والزينة ، مما قد يدفعه أحيانا إلى السقوط في معان تافهة ، لا تثير عاطفة ، ولا
تنبه شعوراً ، بل تدفع إلى الضجر ، والسآمة ، كقوله يخاطب الدار ، ويدعو لها بدوام المطر :

لا ألقيت إلا عليك أجنة السحب الحوامل

فقد جعل السحب نساء حوامل ، وجعل الأمطار أجنة لها ، ودعا أن تلقى تلك الأجنة
فوق الدار . ومن استعاراته السخيفة قوله :

وألق الرماح ، فقد حاضت حواملها فني مضائك ما يغني عن الأسل

وقوله بلسان مدينة حلب مخاطباً صلاح الدين :

غارت وحقت من جاراتها فشكت ما باله بافتضاضى غير محتفل

ولكن ذلك فلتات هنا وهناك . أما جلُّ شعره فتتوى ممتاز ، لم تذهب الصناعة بجماله
وروثه .

(١) الإنكثير : الإنجليز ، وقد كان صلاح الدين يحارب ملكهم في فلسطين .

ابن سناء الملك*

(٥٥٠ - ٦٠٨ هـ)

في أسرة غنية مرفهة ، ولد هبة الله القاضي السعيد بن جعفر بن سناء الملك ، وهيئت له ثقافة أدبية واسعة أخذها عن كبار علماء عصره ، ويحفظ التاريخ من أسماء أساتذته ابن برى^(١) الذي قرأ عليه النحو ، والسلمى^(٢) الذي أخذ عنه الحديث ، وكان قد أعد نفسه للعمل في ديوان الإنشاء ، وقد عمل فيه مدة ، ولعله اتصل فيه بالقاضي الفاضل الذي رأى فيه بذرة صالحة تنمو ، إذا تعهدت بالشق والإنماء ، فشجعه بكل ما أوتي من وسائل ، وأخذ بيده حتى اكتمل عوده ، وبلغ أشده ، وقد بدت مقدرته في الشعر والنثر منذ وقت مبكر ، وسار على مألوف أهل عصره الذين أغرموا بالمحسنات البديعية ، واقتدى بالقاضي الفاضل الذي كان مغرمًا بالتورية والاستخدام ، وظهر ذلك كله في أوائل ما أنشأه من شعر ونثر كهذه القصيدة التي أرسلها إلى الفاضل يمدحه بها ، ولم تكن سنه قد بلغت العشرين ، ومنها قوله :

فراق قضى للهمّ والقلب بالجمع وهجر تولى صلح عيني مع الدمع
ووصل سعي في قطعه من أحبه ولا عجباً ، قد يهلك النجم بالقطع

* مراجعه :

- (١) وفيات الأعيان ٢ : ١٨٨ ، ٤٠٥ . (٢) معجم الأدباء ١٩ : ٢٦٥ .
- (٣) الأعلام ٣ : ١١٨ . (٤) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٣ .
- (٥) الروضتين ٢ : ٤٣ ، ٢٤٣ . (٦) بدائع البدائنه ص ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٣ .
- (٧) النجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ ، ٢٠٤ و ٧ : ٣٨ .
- (٨) السلوك ١ : ١٣٩ . (٩) فوات الوفيات ١ : ٢٢٠ .
- (١٠) عيون الأنباء ٢ : ١١٥ ، ١١٧ ، ٢٠٥ .
- (١١) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .
- (١٢) شذرات الذهب ٥ : ٣٥ (١٣) ديوانه
- (١٤) خزائن الأدب للحموي ص ٦٢ ، ٦٧ ، ١٨٢ ، ٢٥١ ، ٣٠٠ .
- (١٥) فصوص الفصول ومقود المقول لابن سناء الملك . (١٦) دار الطراز .
- (١٧) خريدة القصر (المطبوعة) ٦٤/١ . (١٨) كشف الظنون ٢/١٩٧٣ .

(١) له ترجمة بكتاب الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية .

وربح لذات الخصال خال ، وربما شغلت بهمي عن مساءلة الربح
فسبحا نربي ، قد سمت همة النوى وطالت إلى أن فرقت ساكني جمع

ولما وصل إلى الشام في شهر رمضان ، سنة إحدى وسبعين في خدمة القاضي الفاضل ،
أعجب به العماد الأصهباني ، ووجده « في الذكاء آية ، أحرز في صناعة النثر والنظم غاية ،
يتلقى عراة العربية له باليمين راية ، قد ألحقه الإقبال الفاضلي في الفضل قبولا ، وجعل طين
خاطره في الفطنة مجبولا ، وأنا أرجو أن ترقى في الصناعة رتبته ، وتغزر عند تهادي أيامه
في العلم نغبته ، وتصفو من الصبا منقبته وتروى بماء الدرية رويته وستكثر فوائده ،
وتؤثر فلائده » .

واشتد إعجاب القاضي الفاضل به ، فجعله وكيله في مصر ، يكل إليه تصريف شئون الدولة
إذا غاب الفاضل عن مصر ، ويعهد إليه بإكرام ضيوف مصر من كبار العلماء ، كعبد اللطيف
البغدادى مثلاً ، وكان هذا المنصب الرفيع الذي وصل إليه بمجده وذكائه وأدبه سبباً في غناه
وثروته ، حتى ليزكر له مؤرخوه أنه كان كثير التمتع ، موفور الحظ من السعادة في الدنيا ،
وسبباً في غفر طويل عريض يتجلى هنا وهناك في ثنايا شعره ، ويتمثل في هذه القصيدة
المشهوره له ، وهي تدل على مدى ثقته بنفسه ، واعتزازه بمكانه ، إذ يقول :

سواي يخاف الدهر ، أو يهرب الردى	وغيري يهوى أن يكون مخلدا
ولكنني لا أرهب الدهر ، إن سطا	ولا أحذر الموت الزؤام ، إذا عدا
ولو مدّ نحوي حادث الدهر طرفه	لحدثت نفسي أن أمدّ له يدا
توقد عزمي يترك الماء جمرة	وحلية حلمي تترك السيف مبردا
وفرط احتقار الأنام فإني	أرى كل عار من حلي سؤددى سدى
وأظماً إن أبدى له الماء منة	ولو كان لي نهر المجرة موردا
ولو كان إدراك الهدى بتدلل	رأيت الهدى ألا أميل إلى الهدى
ولأنك عبسدى يا زمان ، ولأننى	على الكره منى أن أرى لك سيدا
وما أنا راض أننى واطيء الثرى	ولى همة لا ترتضى الألفق مقعدا
ولو علمت زهر النجوم مكانى	لخرت جميعا نحو وجهى بجدا

ولى قلم فى أنملى لو هزرتة فما ضرنى ألا أهز المهندا
لذا جال فوق الطرس وقع صريره فان صليل المشرفى له صدا

وكان ابن سناء الملك شديد الإعجاب بالقاضى الفاضل ، كثير المدح له ، حتى كان أكبر
مدوحيه حظا من شعره ، وهو مطيل فى قصائد مدحه له ، بحيد فى أكثرها ، تلمس الصدق
فيه ، وحرارة العاطفة ، وبما مدح به ولى نعمته قوله :

لنى رأيت الشمس ثم رأيتها ماذا على إذا عشقت الأحسنا
وسألت من أى المعادن ثغرها فوجدت من عبد الرحيم المعبدا
أبصرت جوهرا ثغرها وكلامه فعلمت حقا أن هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل لا يدرك الساعى إليه سوى العنا
يدنو من الأفهام إلا أنها تلقاه أبعد ما يكون إذا دنا
ولذا حواه الطرس فتح أعينا من زهره تصبى إليه الأعيانا
فالطرس ساحة فضة ، وسطوره مسك تفرعه اليراعة أغصنا
ولقد علا بأبى على جد من جعل الرجاء إليه أنفس مقتنى
يا ليت قومى يعملون بأنتى أدركت من كفيك نادرة المنى
أو ليت حسادى بما أوليتنى علموا يقينا أن أيسره الغنى
لا زال رأيك لى يزيدك ضنة فى صحبتى ويزيد حسادى ضنى

وكان ابن سناء الملك يعتز برأى القاضى الفاضل فيه ، ويمدحه له وثنائه عليه وعلى كتبه،
وجمع ما كتبه الفاضل إليه أو إلى والده بما فيه ثناء عليه فى كتاب دعاه : « فصوص الفصول
وعقود العقول » وفى هذه الرسائل ثناء جهم من القاضى على سناء الملك ، وإعجاب مفرط من
سناء الملك بالقاضى الفاضل ، وفيها آراء للقاضى الفاضل فى شعر ابن سناء الملك ، وفى القصائد
التي كان يرسلها إليه ، وفى الكتب التي كان ابن سناء الملك يؤلفها ، ولا تخلو آراء الفاضل من
نظرات نقدية وجهها الفاضل إلى الشاعر ، وقد اضطر ابن سناء الملك إلى أن يدافع عن وجهة
نظره إزاء هذا النقد ، وفى هذه الرسائل كثير من آراء الرجلين فى الأدب والآداب .

وملا صلاح الدين قلب ابن سناء الملك حبا وإعجابا وتقديرا ، فتغنى الشاعر بمجده ،

ومضى يسجل وقائعه وانتصاراته ، ويشيد بهذه الوحدة بين مصر والشام ، مزجلا في سبيل هذه الوحدة تلك الإمارات الكثيرة التي فتحت قوى العالم الإسلامي وحطمت وحدته ويرى هذه الدولة التركية قد أعادت للإسلام عزه وشبابه ، فتسمعه يقول :

بدولة الترك عزت ملّة العرب	وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
رفى زمان ابن أيوب غدت حلب	من أرض مصر ، وعادت مصر من حلب
ولا بن أيوب دانت كل مملكة	بالصفح والصلح ، أو بالحرب والحرب ^(١)
مظفر النصر مبعوث بهفته	إلى العزائم مدلول على الغلب

ويصف جيش صلاح الدين وضخامته بقوله :

أتى إليها يقود البحر ملتظما	والبيض كال موج ، والبيضات كالحبيب
تبدو الفوارس منه في سوابغها	بين النقيضين من ماء ومن لهب
مستلثمين ، ولولا أنهم حفظوا	عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب ^(٢)

ويصفه مرة أخرى بقوله :

إذا ما صلاح الدين قد سار جيشه	فليس الحمى إن أمه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع ، واستلت الطبا	بآفاقه ، حتى أضاء ، وأظلما
طليعته الوحش الضواري مصيحة	وساقته الطير الجوارح حوما
يقول الذي يلقاه : كم فيه فارسا	فيخبره المهزوم : كم فيه ضيغما

ويمجد فيه سهره على ملكه ، وتكريسه نفسه على حرب الصليبيين ، إذ يقول :

ملك أقاليم الملوك ، وإنما	سهرت ، وأملاك الأقاليم نوم
طلعت عليهم بالصباح من الطبا	يحيط به ليل من النقع مظلم
فساء صباح المنذرين ، لأنه	صباح به زرق الأسنة أنجم
وجيش به أسد الكريهة غضب	وإن شئت عقبان المنية حوم

(٢) اليلب : الفولاذ.

(١) حربه حربا : سلب ماله .

إذا قاتلوا ، كانوا سكونا شجاعة
ولكن ظباهم في الرقاب تكلم
ضربت بهم قوما نياما جهالة
فلا نائم إلا وأيقظه الدم
ألفت ديار الكفر غزوا ، فقد غدا
جوادك إذ يأتي إليها يحمم
وما يعصم الكفار عنك حصونهم
ولا شيء غير الله بعدك يعصم

ويتحدث عن أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذي يزعمون أن المسيح صلب عليه
ويغريه بإحراقه ، ويتغنى بأسر صلاح الدين لملوك الصليبيين قائلا :

ظل معبودهم لديك أسيرا مستضاما ، فاجعل له النار سجننا
صلبوا ربهم ، فلم يغن عنهم من رقى بعد صلبه قط أغنى
وحوى الأسر كل ملك يظن الدهر يفنى ، وملكه ليس يفنى
كم تمنى اللقاء ، حتى رآه فتمنى لو أنه ما تمنى

ومدح ابن سناء الملك غير صلاح الدين من أبطال الحروب الصليبية الملك العادل ،
والكامل ، والعزیز ، يتحدث كذلك في مديحه لهم عن جهادهم الصليبيين ، وما قدموه للإسلام
من جهود مجيدة .

ولم يقف مدح ابن سناء الملك على هؤلاء الأبطال بل مدح أباه ، ومدح موسى بن
ميمون الطييب اليهودي ، ومدح أستاذه السلفي . وكان المدح أكثر فنون ابن سناء الملك ،
وكانت الظروف المحيطة به تدفعه إلى غزل يتغنى باللذة ، ويتحدث عن المتعة الحسية .
ومعظم غزله من هذا النوع كقوله يذكر ليلة وصال :

ظبي بحسباء حالي الجيد بالعطل
لكنه قد جلاه الحسن في حلال
أتى إلى ، وأهدى خده لقمي
فقتت أقطف منه وردة الخجل
أواصل اللثم من فرع إلى قدم
وأوصل الضم من صدر إلى كفل
وبات يسمعي من لفظ منطقته
أرق من كلبي فيه ومن غزلي
وددت أعضاي أسماعا ، لتسمعه
ولو تحملت فيه وطأة العذل
ونلت ما نلت نمت لا أهم له
ولا ترقى إليه همه الأمل

ومر والليل قد غارت كواكبه لما نوى الصبح تطفيلاً على الطفل
لم أسحب الذيل كي أحو مواطئه لكنني قت أحو الخطو بالقبيل
يا ليلة قد تولت ، وهي قائلة : لا تظلمني مع أيامك الأول

وقل الهجاء في شعر ابن سناء الملك ، ولعل لمنصبه ومكانته أثراً في ذلك .

وأغرم ابن سناء الملك بالموشحات اتخذها وسيلة للتعبير عن عواطفه ، ووجد في أوزانها المتنوعة متنفساً للتعبير عن عواطفه المختلفة ، بل دعاه غرامه بها إلى أن يؤلف فيها كتاباً ، دعاه دار الطراز ، قال في مقدمته : « . . . لما كانت الموشحات . . . لها في سوق الأدب هذه القيمة ، ولم أر أحداً صنف في أصولها ما يكون للمتعلم مثالا يحتذى ، وسيلا يقتنى ، جمعت في هذه الأوراق ما لا بد لمن يعانها ويعنى بها من معرفته ، ولا غناء به عن تفصيله وجملته ، ليكون للنتهى تذكرة ، وللبتدى تبصرة » ، وقد أورد أمثلة كثيرة للموشحات ، وأورد لنفسه موشحات ضربت على مثال الموشحات التي استشهد بها ، ثم جاء بموشحات اخترع أوزانها . وذكر أن الموشحات ، « يعمل فيها ما يعمل من أنواع الشعر : من الغزل ، والمدح ، والثناء ، والهجو ، والمجون ، والزهد » .

قال من موشح يمدح به أباه :

أخل يا قوت الشفق در الدارارى
وساح فى أفق الغسق نهر النهـار

وفت كافور الصباح مسـك السماء
وفاح من نشر الآفاح نشر الكـباء^(١)
وهب من جسم الرياح مشـل الهباء
ولاح من زهر البطاح ند الهـواء^(٢)

(٢) الند : نوع من الطيب .

(١) الكباء : عود البخور .

وقال من موشح يرثى به أمه :

ياما عرا قلبي وما دهاه ماضي نهـ
لما نهـاه الوجد مع من نهـاه

ما زال لي مذ دهااني الزمان
أنس شجاع ، واصطبار جبان
وعبرة خالعة للعنان
لا تقبل الصون وترضى الهوان

ولابن سناء الملك أيضا كتاب روح الحيوان اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ ،
عنى به القاضي الفاضل ، وشجعه على تأليفه ، كما يظهر ذلك من رسائله التي سجلت في فصوص
الفصول .

قال ابن خلكان : « واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم
مجالس يجرى بينهم فيها مفاهات ومحاورات ، يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت إلى
مصر شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به ، وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد
عيش ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم . » وكان ذلك
ولا ريب عاملا من عوامل تجويده للشعر ، حتى لا يكون ، ومكائنه الاجتماعية سامية ، أقل
منهم جودة وإتقاناً . ويضاف إلى ذلك عامل آخر هو ما كان النقاد يأخذون به شعره من
ألوان النقد ، قالوا : لما مدح ابن سناء الملك شمس الدولة توران شاه أخا السلطان صلاح
الدين بقصيدته التي أولها :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم وفارقت ، لكن كل عيش مذمم

تعصب عليه جماعة من شعراء مصر ، وعابوا هذا الاستفتاح وهجنوه ، فكتب إليه ابن
الذروي الشاعر :

قل للسعيد مقال من هو معجب منه بكل بديهة ما أعجبا
لقصيدك الفضل المبين ، وإنما شعراؤنا جهلوا به المستغريا

عابوا التقنع بالحبيب ، ولو رأى الطائي ما قد حكته لتعصبا

وكتب على بن إسماعيل السخاوي المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٢ هـ في نقد الشعر كتابا سماه :
« نظم الدر في نقد الشعر » وقصره على مؤاخذات ابن سناء الملك . قال صاحب كشف
الظنون : وأجاد في بعضها ، وتعنت تعنتا زائدا في بعضها .

وكان هو ومن معه من الأدباء يعرضون الشعر وينقدونه ، قال : تذاكرنا في بعض
الأيام بديوان الإنشاء ، فأفضى بنا الحديث إلى ذكر الناشئ الأصغر قوله في وردة :

ووردة في بنان معطار حيا بها في خفي اسرار
كأنها وجنة الحبيب ، وقد نقطها عاشق بدينار

فقلت : تشبيه الصفرة بالدينار فيه بعض تقصير ، وعليه نقد خفي لا يدركه إلا الناقد
البصير : وهو كون الصفرة في رأى العين أصغر من الدينار ، ولو قال :

كمثل وجنة خود قـد نقطت برابع

لكان أخصر وأحسن ، فاستحسنته الجماعة :

لكان ذلك كله من العوامل التي جعلت ابن سناء الملك أحد أركان النهضة الأدبية
في عصره : حتى توفي في العشر الأول من شهر رمضان سنة ثمان وستائه بالقاهرة .

ابن النيه*

٩ — ٦١٩ هـ

على بن محمد ، أعد نفسه للعمل في ديوان الإنشاء ، فنال حظاً كبيراً من الدراسة الأدبية التي تعد لهذا العمل ، وكان معظم الكتاب يومئذ يعد من تمام مجده أن يكون كاتباً شاعراً ، فكان كثير من أدباء هذا العصر يجمع بين الخصلتين ، ولكن يظهر أن ابن النيه لم يل عملاً في ديوان الإنشاء بمصر ، برغم أنه مدح القاضي الفاضل ، والعاذل ، ومدح وزيره : صفى الدين بن شكر ، ولكنه كتب الإنشاء للملك الأشرف موسى بن العادل ، وفارق من أجله الديار المصرية ، وسكن بنصيبين ، واجداً في ظلال الأشرف الحياة المهادنة المطمئنة وإن كان يبدو في شعره الحنين إلى وطنه ، والشوق إلى مهد صباه وشبابه ، فنسمعه يقول :

إن عيناً منكم قد ظميت	قد سقاها الدمع حتى رويت
آه من وجد جديد لم يزل	وعظام ناحلات بليت
أنا والاطعان من شوق معا	نحوكم أعانقنا قد لويت
أتم الانجم مذ غيبتمو	بسوى أنواركم ماهديت
ساكني (الفسطاط) لو أبصرتكم	جليت مرآة عين صديت
إن أعاد الله شملى بكم	سعدت آمال نفس شقيت
إن أرضا أتم سكانها	غنيت عن أن تقولوا : سقيت
فوجوه كرياض أزهرت	ورياض كوجوه جليت

وظلت صلته بالأشرف وثيقة في جملتها ، إذا استثنينا بعض أوقات دل شعره على . وهن هذه الصلة ، وإن كان ذلك نادراً .

* مراجعه :

- (١) ديوانه .
- (٢) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٣ .
- (٣) فوات الوفيات ١ : ٢٢٠ و ٢ : ٧١٥٣ .
- (٤) خزانة الأدب للحموى ص ٦٢ و ١٩٤ و ٢٥٣ و ٢٦٧ .
- (٥) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٣ .
- (٦) روضات الجنات ص ٤٨٨ .
- (٧) الأعلام ١ : ٦٩٣ .
- (٨) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٦ .

وشعر ابن النبيه في جملته يدل على نفس فرحة مرحلة ، تقبل على الحياة ، تريد أن تستمتع بما فيها ، وأن تنال حظها من لذة الدنيا ، فهو يجد متعته في روضة غناء ، تصدح أطيافها ، ويعبق في الجو أريجها ، يستمتع بمراى أزهارها ، ويشرب على جمال ماثها ، من يد ساق بارع الجمال ، وأنت تطالع ذلك المذهب المستمتع بالحياة في كثير من شعره ، مثل قوله :

باكر صوحك ، أهنى العيش باكره	فقد ترنم فوق الأيك طائره
والليل تجرى الدرارى في مجرته	كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده	مخاق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت ، لها حبيب	فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق	فابيض خداه ، واسودت غدائره
سود سواقفه ، لعس مراشفه	نعس نواظره ، خرس أساوره
مفلج الشجر ، معسول اللعى ، غنج	مؤنك الجفن ، فحل اللحظ ، شاطره
مهفف القد ، يندى جسمه ترفا	مخصر الخصر ، عبل الردف ، وافره
تعليت بانه الوادى شمائله	وزورت سحر عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتما	وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس : تستحلى أوائله	لكنه ربما بحت أواخره
واجسر على فرض اللذات محتقراً	عظيم ذنبك ، إن الله غافره

وكان لسيطرة هذا المذهب على نفسه أثر في شعره ، فكثيراً ما يصف متعته بالرياض ، وجمال الربيع ، والساقى ، والخمر ، وله أثر في مطالع شعره ، فكثيراً ما بدأ مدحه بذكر الخمر ، والساقى ، والربيع ، وله أثر في غزله ، فهو من النوع الذى يتحدث عن الجمال المحسوس ، أكثر من حديثه عن المتعة الروحية ، واللذة النفسية ، وبرغم ذلك قد يرتفع في غزله إلى درجة سامية ، من الرقة والإبداع ، وتجعله جذيراً بأن يتغنى به ، ويترنم بترديده ، ولا سيما أن ابن النبيه يجيد في تخير البحر العروضى ، مما يساعد على التغنى به ، ولا زلنا إلى اليوم نتغنى بقوله :

أمانا أيها الهم — ر المطل فن جفنيك أسياف تسل

يزيد حمال وجهك كل يوم ولي جسد يذوب ويضمحل... الخ

وقوله :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الأفراد فاعسى أن أصنعا ... الخ

كان الأشرف موسى أكبر من اتصل به ابن النبيه . وأكثر من أثنى عليه ، ومدحه . بل إنه لم يجمع ديوانه إلا ليخلد مدحه فيه ، وكان أبرز الصفات في مدحه للأشرف شجاعته ومقدرته على قيادة الجيوش المظفرة ، وهنا تتجلى روح العصر التي تجد مثلها الأعلى في إجادة أسباب القتال ، والتبريز في ميادين الحرب ، وتكاد لا تخلو قصيدة من قصائد مدحه من الإشادة بهذه الصفة وتمجيدها ، فكثيراً ما تسمع منه مثل قوله :

لك الجيش الذى إن جاس أرضا	دحا الهضبات كالسيل الآتى
تحف به الملوك الصيد فيه	إحاطة هالة القصـــــر السنى
إذا عطشت جياذ الخيل فيه	سقاها من دم البطل الآبى
وكيف ثبت طوداً مشمخراً	وأنت أخف من أسد جرى
إذا اشتجر الفنا أفناء حطما	كلتقف الجبال مع العصى

وقوله :

ملك إذا التطمت أمواج عسكره	سبحت والخيل بالأبطال قد سبحت
ريح إذا ركضت ، رعد إذا صهلت	برق سنا بكها فى الصخر قد دحت
جرد إذا لاعبت أطرافها ملئت	تمها وإن لمحت أقرانها مرحت
تلقى الأسنة عن فرسانها كراما	فكل جارحة منها قد انجرححت

وإذا كان الشاعر حريصاً على أن يتحدث بما يرضى بمدوحه ، فإنه يصور لنا فى شعره ذلك الطموح الذى كان يملأ نفس الملك ، فإن الشاعر يتنبأ بمدوحه بأن سوف يملك أرض الروم وبلاد خراسان فى قوله :

سيملك قسطنطينة الروم عشوة ويخطب عن قرب له فى خراسان

وفي قوله :

ستفتح قسطينة عنوة وما كان للروم منها يقارب
كأنى بأبراجها قد هوت وصخر المجانيق فيها ضوارب
وقد زحف البرج زحف العروس إليها يجر ذيول الكتائب
وما لبسه غير نسج الحديد وما حليه غير بيض القواضب
وأضرمت النار حشو النقوب وثار الدخان كجنح الغياهب
وليس الكهانة من شيمتى ولكن حزبك بالله غالب

وذلك إن دل فإنما يدل على أن هذا الأمل كان يراود المسلمين يومئذ ، وكان أملا من
آمال ملوكهم .

ويدل شعر ابن النبيه على أن الخلافة العباسية في ذلك العصر كان لها مكانتها الروحية ،
في نفوس ملوك مصر والشام يومئذ ، ففضلا عما يحدثنا به التاريخ ، وتدل عليه الرسائل التي
كانت توجه إلى الخلفاء يومئذ ، يحدثنا شعر ابن النبيه عن هذه الصلة الوثيقة بين الملوك
وخلفائهم ، وحسبنا أن نعلم أن الملوك كانوا يملكون ما تحت أيديهم من الممالك والأقاليم ،
ثم لا يقتنعون بهذه السيطرة الروحية ، حتى يتوجوها باعتماد الخليفة لهم هذا السلطان ،
وإرساله لهم التقليد بولاية مايلون ، وابن النبيه يمدح خليفة عصره قصداً ، بقصائد ينشئها
لهذا الغرض ، ويتحدث عنه في المدح الذي خص به الأشرف موسى ، فيعبر برأى الخليفة
فيه ، وبأنه يرأسه ، ويروي الحديث في قوله :

لمولانا الخليفة فيه رأى	حديد لا يقل ولا يقل
تأمل في الكنانة منه سهماً	سديداً لا يطيش ولا يزل
فبأه وراسله اختصاصا	ورواه الحديث ، وذاك فضل
فدامت هذه النعمى عليه	ودام ، فإنه للخير أهل

وابن النبيه يرى هذه الثقة التي يتمتع بها الأشرف نعمة تستحق أن يدعى لها بالدولم ،
ويتحدث عن حسن صلة الأشرف بالخليفة مرة أخرى قائلاً :

يا عبد مولانا الإمام جلال هذا النعت أشهر
أوتيت في الدنيا به شرفا وفي أخراك أكثر
فإن اصطفاك لنفسه فليسعدن بمن تخير
فانخر على الدنيا بنفسك أو به ، ففكاك مفخر

ولما ورد على الأشرف كتاب الخليفة أمر ابن النبيه أن يجيب عنه فكتب على لسان
الأشرف :

سیدی ، سیدی ، کتابک أحلی	من زلال علی فؤادی الصادی
خلت فيه قیص یوسف لما	ألصقته أنا ملی بفؤادی
كرر اللثم یافی ، وترشف	منه آثار فضل تلك الأیادی
نعمة سمیت كتابا مجازاً	أنا نبیت ، وهی السحاب الغوادی
كثرت حاسدی حتی تخيلت	جفونی من جملة الحساد
قالت العین وهی تخرج درا	فاخرا من بحار ذاك المداد :
أنا أفدی بیاضه بیاضی	أنا أفدی سواده بسوادی
أنا عبد الإمام أحمد خیر	لی من نسبی إلى أجدادی
فعلیه السلام ما غرد الطیر	وغنی شاد ورجع حاد

ولكن تقف الصلة بين الملك والخليفة عند هذا الحد ، من المودة والحب وإرسال
الرسائل ووصف أثرها في نفس الملك ، من غير أن يكون للخليفة سلطان في العزل ، أو
سلطان فعلي في التولية ، ولكنه اعتزاز من الملك بأن يكون على صلة طيبة بالخليفة حائزا
رضاه .

وأثرت الحروب الصليبية في ابن النبيه ، عند ما خاض الملك الأشرف إحدى معاركها
المشهورة ، مع باقي أبناء الأسرة الأيوبية ، وهی معركة دمیاط ، فسجل ابن النبيه الدور
الذي قام به ملیكه ، كما سجل الشعراء للملك الكامل وأخيه المعظم عيسى دورهما في تلك
المعركة .

وقد بدأ ابن النبيه قصیدته في تسجيل معركة دمیاط بأن الحديث عنها من أوقات

اللذة والفرح ، وإن كان التوفيق قد خاناه في الشطر الثاني حين طلب إليه أن ينشر لواءه الذي اعتاد الانتصار ، إذ قال :

للذة العيش والأفراح أوقات فأنشر لواء له بالنصر عادات
فلا صلة تربط الشطر الثاني بسابقه .

ومضى ابن النبيه يصف جيش الأشرف ، ثم اتخذ قصة النبي موسى معينا يقتبس منه خيالات في مدح مليكه موسى الأشرف ، إذ قال :

دمياط طور ، ونار الحرب موقدة وأنت موسى ، وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ولا تخف ، ما حبال القوم حيات
وسجل له دوره ودور جيشه في القتال :

رأوا جيوش بني أيوب يقدمها ليث له في جيوش الشرك هجمات
فللرمح كلام ، أو صدورهم وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم والموج ترقصه تلك المسرات

وأغراه هذا النصر المبين فشجعه على أن يحثه على استئصال شأفة الفرنج بعكا وصور :

عكا وصور إلى رؤياك عاطشة فانهض ، فقد أمكنت منهن خلوات
واستخبر الريح عنها إذ تسيره إليك فهو سلام ، أو تحيات
الله أكبر أن تسمى مزامرهم تتلى ، وتنى من القرآن آيات

وإذا كان الأشرف موسى قد أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن دمياط ، فلا جرم كان ابن النبيه يدعو له بالبقاء ، صيانة للإسلام ، ودفاعا عنه ، كما كان يحرضه على قتال الفرنج .

مدح ابن النبيه تقليدي ، يبدوه غالباً بالغزل ، محسناً التخلص منه إلى المدح ، مثنياً على مدوحه بالصفات التقليدية : من كرم ، وشجاعة ، وإقدام ، وذكاء ، ولكنه لا يرضى في الجود بأقل من أن يخلى الممدوح خزائنه ، حين يعطى مادحيه ، فهو يمدح العادل قائلاً :

هو العادل ، الظلام للبال والعدا خزائنه قد أقفرت وديارها

(الحياة الادبية في الحروب الصليبية ١٤)

ويمدح الأشرف موسى بقوله :

لا يبالي إن خلت أكياسه وله الأرض بشكر ملئت

ولعل الأشرف كان يميل إلى الانفراد بالرأى ، وألا يستشير وزيراً ، فدحه بقوله :

هذا الذى استغنى عن الوزراء فى تدبير عقد الرأى والرايات

ومما يحسن أن يوجه النظر إليه أنه يتأنق تأناً بالغاً فى الصنعة اللفظية ، عندما مدح
القاضى الفاضل ، حتى لقد أنشأ فى مدحه قصيدة اقتبسها كلها من سورة المزمل ، وفيها يقول :

قت ليل الصدود إلا قليلا ثم رثت ذكرىكم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل وهجرت الرقاد هجراً جميلاً

إلى أن قال :

أنا عبد للفاضل بن على قد تبتلت بالثنا تبتيلاً
لأنسمه وعداً بغير نوال إنه كان وعده مفعولاً
وإذا كان خصمك الدهر والحكم إلى الله فاتخذة وكيلاً

وتغزل ابن النبيه بالمرأة ، وبالغلمان ، وله غزل يفتتح به قصائد مدحه ، وآخر قصد
إليه قصداً ، وقد أتيننا بنماذج منه فيما مضى .

وليس له رثاء فيما بين يدينا من شعره ، إلا قصيدة واحدة رثى بها علياً ، ولد الخليفة
العباسى ، وقد بدأها بدءاً لا يزال يجرى على الألسنة إلى اليوم يعزى فيه الخليفة ، ويسليه
بمعنى أن السابق إلى الموت هم الخيار الأكرمون ، وذلك حين يقول :

الناس للموت تكيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره إلا من استصلح من ذى العباد
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

شعر ابن النبيه يمتاز بالسهولة ، والركة ، والقصد فى استعمال المحسنات البديعية غالباً ،

ولكنه يجارى الطريقة الغالبة فى عصره حيناً ، فيصبح شعره متكلفاً ، خالياً من الجمال والرونق ، وشعره يجرى على الأوزان العربية ، ويستعمل الأسلوب العربى الصحيح ، ولم يخرج عن ذلك إلا عندما مدح الأشرف بموشح معرب ، وآخر عامى ، كما نجد بعض ألفاظ فارسية فى شعره ، جاءت إليه من البيئة التى عاش فيها ، وكانت قريبة من بلاد الفرس .
وتوفى ابن التبيه بنصيبين ، فى الحادى والعشرين من جمادى الاولى سنة ٦١٩ هـ ، وعمره نحو ستين سنة .

علم الدين أيدير المحيوى *

أبلغ من قرأت له شعراً في العربية ، من هؤلاء الشعراء الذين ينحدرون من جنس تركي ، بل إنه يقف مع أبرع الشعراء الذين أنجبهم هذا العصر ، لا يتخلف عنهم ، ولا يقصر دونهم ، ولكن التاريخ يحفل سنة ولادته ووفاته ، غير أن مدحه للسلطان الملك الكامل المتوفى سنة ٦٣٥ هـ مدحاً فيه نضج وقوة ، وحديث ابن القيسراني الذي التقى به في مصر سنة ٦٤٣ هـ ، وذكر عنه أنه كان شاباً لطيفاً فاضلاً ، تجعلنا نرجح أنه ولد في العقد الثاني من القرن السابع ، ولم أر له شعراً فيمن حكم مصر بعد الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ هـ ، مع أن من جاء بعد الصالح هم من الترك الذين كانوا من بني جنسه ، وكان جديراً أن يتصل بهم ، وأن يشيد بدولتهم ، وأن يمجّد من أمرهم ، بعد أن رأيناه يشيد بالعظمة الحربية للجيش التركي الذي كونه الصالح أيوب ، واعتز به ، ووثق فيه ، واعتمد عليه ، إذ قال أيدير مشيداً ببساتهم من قصيدة يمدح بها الصالح :

وجهت سيل المنايا نحوهم ، ففقدوا	غداة سأل بهم غرقى بلا بلل
يرمى النحور بهم رام ، بسعدك ، مد	لول السهام على الأكباد والمقل
جيشاً تنص به الأرض الفضاء ، كما	تراكم الغيم يوم الدجن ذا زجل
من الكماة التي تطوى ضلوعهم	على العزيمة والإقدام ، لا الفشل
من كل أمضى من الهندى في يده	عزماً ، وأنفذ لإقداما من الأسل
ليث من القوم ، ما (خفان) ^(١) موطنه	رام من الترك لا يعزى إلى (ثعل) ^(٢)

- * مراجعه : (١) فوات الوفيات ج ١ ص ٧٦ . (٢) مختار ديوانه طبعه دار الكتب سنة ١٣٥٠ هـ .
 (٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩١ . (٤) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٠ .
 (٥) خطلط الميرزى ج ٢ ص ١٤٨ . (٦) نفع الطيب (طبع أوروبا) ج ١ ص ٦٤١ .
 (٧) المغرب في محاسن أهل المغرب (عند ذكر أهل القسقاط) .
 (٨) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ١٠٩ . (٩) المنهل الصافي ج ١ ص ٢٨٨ .

(١) خفان : أجة كثيرة الأسود بالسكونة .
 (٢) ثعل : قبيلة من الغزب مشهورة باصابة المرمي .

يكون أثبت يوم الروح من جبل راس وأجول في الصفين من مثل
هم عبيدك من قومي ، ومن جمعت دعوى ولانك تحت الحادث الجلل
بعدت عنهم ، فلم أشهد مشاهدهم فحشت بالقول ، إذ جاءوك بالعمل
فهل سكت أيدير عن مدح الملوك الذين وصلوا إلى عرش مصر وكانوا من بني جنسه ،
لأن المنية أسكتته ، فضى شاباً لم يعمر ؟

ولا يدري التاريخ من حياة هذا الشاعر إلا أنه كان عتيقاً لمحبي الدين محمد بن محمد بن
سعيد ، الذي تصفه خطط المقرئ والنجوم الزاهرة بأنه كان وزير الجزيرة ، ولعل الصالح
عند ما أراد أن يعمر جزيرة الروضة ، وينشئ فيها قلاعه ، اتخذ لهذه الجزيرة محمد بن محمد
هذا وزيراً ، يرعى أمورها ، ويقوم بشئونها ، وشعر أيدير يصف لنا محبي الدين هذا بأنه
رجل عظيم :

غنيت علاه عن إشارة ماحد كغنى ذوات الحسن عن تحسين
متفنن في المكرمات ، محير فيها الورى بغرائب وفنون
كريم : أعطى فقال الفائلون تعجباً أعطاء جود أم قضاء ديون ؟
سن السبيل إلى السباح ، وعلم الـ ناس اقتفاء سبيله المسنون

يلقب بالصاحب ، وكان ذلك من ألقاب الوزراء ، قال أيدير وهو يقدم إلى محبي الدين
كتاباً هدية منه :

العبد « أيدير » تطلب تحفة تكسى القبول لسيد الأصحاب

ذا سلطان قوى في استطاغته أن يخفض وأن يرفع :

دام له العز والنعم قاهراً مقتدراً يعز ، إن شاء ، أو يهين

ولعل أيدير ترقى في المناصب التي كان يترقى فيها الممالك ، حتى وصل إلى درجة أمير
فإن ابن دقاق يصفه بالإمارة ، كما يصفه بأنه عالم ، منشئ ، ناظم ، نائر ، بليغ ، علامة ،
وأرجح أن الرجل كان على حظ كبير من ذلك كله ، فكان مثقفاً ثقافة عربية ممتازة ، لم أعثر
له على خطأ نحوي أو صرفي .

ورأيت في شعره أنه كان واسع الإطلاع على اللغة ، مجيداً في اختيار الكلمة الدقيقة ، مصيباً في استخدام الألفاظ اللغوية ، التي يستخدمها خاصة المثقفين ، مترفعاً عن استخدام الألفاظ العامية المبتذلة وفيما نعرضه من شعره أمثلة كثيرة على ذلك . وأجاد علم الدين معرفة البديع ، وأتى في شعره بكثير من المحسنات البديعية ، في غير إكراه ولا إكثار ، فتجد هنا وهناك بعض هذه الألوان : من جناس ، وطباق ، وتورية ، وجمع ثم تقسيم ، ولف ثم نشر ، وترصيع ، ومدح بما يشبه الذم ، إلى غير ذلك ، مثل قوله :

ونلت بسطة تمكين قهرت بها	معانديك ، فضع ، وارفع ، وصل ، وطل
وقوله . فرجت من كرب ، آمنت من وجل	قومت من أود ، سددت من خلل
وقوله : من وجهه ويمينه لعفاته	بدر ، وبحر ، يستنير ، وينبع
وقوله : يردون حوض العدل غير مكدر	طال الهيام بهم ، وطاب المشرع
وقوله ، هي السلافة ، إلا أنها شهب	لكنها الروض ، إلا أنها شميم

وقوله يصف حماماً أحمر العين والرجل :

وأليف غصن لا يفارقه	صب الفؤاد به متيمه
يدعو بصوت أستبين به	معنى الحنين ، ولست أفهمه
فيميل بي طرباً تمايله	ويهزني شوقاً ترنمه
يبدي أسي الباكي ورقته	في نوحه ، والدمع يكتمه
نحر الآسي إنسان مقلته	فجري ، فحضب رجله دمه

وقوله : « ارشيد ، الأمر . اضحى ، عاضدا ،

رأيه ، المأمون ، حزما راشدا

ولديه ، الفضل ، يحيا ، « خالدا ،

فدعوا « جعفر ، والنسوا « برمكا ، فالندى في غيره عين الدعى

ويدلنا على ثقافته الواسعة فضلا عن ذلك ما وضعه من كتاب في الأدب لم يصل إلينا ، ولكن وصل إلينا وصف أيدير له ، حينما أهداه إلى مولاه : محي الدين ، فقد قدمه إليه مع هذه الأبيات :

العبد ، أيدمر ، تطلب تحفة تكسى القبول لسيد الأصحاب
 فرأى أجل هدية تهدي له ذوب النهى وتأنج الالباب
 فأجال في روض القرائح فكره ثم انتقى منه لباب لباب
 من طيب نادرة ، ولطف فكاهة وبديع بادرة ، وحسن خطاب
 وسواثر الأمثال قد وشحتها فيه بمعجز سنة وكتاب
 والجد موصولا بهزل ينشط ال قارى ، ويطرب أيما لإطراب
 ونوادير الحكماء ، والبلغاء ، والخطباء ، والشعراء ، والكتّاب .

وجمعت فيه إلى سلامة رقة ال حضر اللطيف جزالة الأعراب
 فأناك كالحسناء قد لبست على ال إثراء ثوب نضارة وشباب
 والروضة الغناء أهدت نشرها ربيع الشال ضحى ، غداة سحاب

فهو مجموعة أدبية ، حافلة بألوان الجد والهزل ، تدل على سعة اطلاع صاحبها ، وكثرة ما قرأ . وكنت أرجو أن لو حفظ لنا الزمن نماذج من كتابته ، لنستطيع وصفه ، ومعرفة طرقها وأهدافها ، ولكنى لم أعثر على شيء من ذلك .

وكانت عقيدته كعقيدة الترك : يدين بمذهب أهل السنة ، يؤمن بتفضيل الخلفاء الراشدين ، وأن مكانهم في الفضل كالخلافة ، وقد أنشأ في ذلك قصيدة سماها الوسيلة المشفعة ، في مناقب الخلفاء الأربعة ، تبلغ تسعة وسبعين ومائة بيت ، أشاد فيها بفضائل كل خليفة ، وذكر ما قدمه كل واحد منهم للإسلام من يد ، في فصل خاص به ، ودافع عن عثمان فيما تقموا عليه ، والقصيدة برغم طولها جيدة السبك ، متخيرة العبارة ، وتدل معانيها على معرفة أيدمر بتاريخ الرسول وصحبه معرفة عميقة .

على شعر أيدمر مسحة من الجمال ، كما سبق أن ذكرنا ، ومعظم ما بقى لدينا منه يدور حول المدح : مدح الملك الكامل بن السلطان العادل ، ومدح الصالح أيوب ، والناصر داود ابن المعظم عيسى ، ومولاه : محي الدين محمد بن سعيد ، ومدح أحد كبار الأمراء في دولة بني أيوب ، وهو ثغر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ بن حويه ، كما مدح الخلفاء الأربعة ، في قصيدته : الوسيلة المشفعة .

وهو يبدأ هذه المدائح بدون غزل غالبا ، وبالفزل حيناً ، ويوصف الطبيعة حيناً آخر ،

وهو في وصف الطبيعة أقوى منه في الغزل ، وألمح وهو يصف الرياض أنه يحب الحياة حبا عميقا ، ويبغى أن يظفر من متعها بالنصيب الأولي ، تحس ذلك في قوله :

الروض مقتبل الشبيبة ، موق	خضل ، يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلىء عقده	فالزهر منه متوج ومنطق
وسرى شعاع الشمس فيه ، فالتقى	منها ومنه سنا شمس تشرق
والغصن مياس القوام ، كأنه	نشوان ، يصبح بالنعيم ، ويغبق
والطير ينطق معربا عن شجوه	فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
فتمل أيام الريح فإنها	ريحانة الزمن التي تستنشق
وسلافة باكرتها في فتية	من مثلها خلق لهم وتخلق
قد عنقت ، حتى تناهت جدة	وكذاك يصفو التبر حين يحرق
شربت كثافتها الدهور ، فما ترى	في الكأس إلا جذوة تتألق
يسعى به ساق يهيج به الهوى	ويرى سبيل العشق من لا يعشق
تتنادم الإلحاظ منه على سنا	خد ، تكاد العين فيه تفرق
راق العيون غضارة ونضارة	فهو الجديد ، ورق فهو معتق
لا أغرو أن ثملت معاطفه ، فا	ينفك في فيه الرقيق يصفق
وأظله من فرعه وجبينه	ليل تألق فيه صبح مشرق
وكان مقلته تردد لفظة	لتقولها لكنها لا تنطق

وحينا يرق في الغزل الذي يبدأ به مدحه ، كقولاه :

ذكر الحمى ، فأطال رجع أنين	وغدا يواصل زفرة بخنين
واعتاده وله ، يقسم لبه	ما بين حالة حيرة وجنون
وجرت محاجره دما ، فكأنما	شرقت بذوب فؤاده المحزون
وتوقدت أنفاسه ، فحسبتها	مرّت بنار في الضلوع معين
ولها يكفكف دمه بشماله	أسفا ويمسك قلبه يمين
يا منزلا قضت الصبابة لي به	ذمم الصبا وآرب العشرين

أيام ألبس للغواية ثوبها وأجر ذيل خلاعة ومجون
ليت الذين ولعت من كف بهم حفلوا بحر تلهني وحنيني
قد كان يضحكني الزمان بقربهم فالיום عاد ببعدهم يبيكني

ويمضي في غزله مطيلاً ، ثم ينتقل إلى المدح فجاءه ، من غير أن يحسن التخلص إليه
غالباً ، وهو في مدحه لا يخرج عما ألف في المدح التقليدي : من تمجيد لصفات الكرم ،
والكياسة ، وبعد النظر ، والسياسة ، والشجاعة ، كما يجد الصبر ، واحتمال الأحداث بالتجلد
والثبات ، من غير يأس ولا هلع .

مستبشر الوجه ، والألوان كاسفة وباسم الثغر ، والأرواح تصطم
والحاضر اللب ، والألباب طائشة والثابت الجأش ، والأبطال تصطدم

ومع ذلك يستطيع في الحين بعد الحين أن يبرز بعض صفات الممدوح الخاصة به دون
سواه ، فهو يمدح الكامل بقوله :

ملك عليم ، أريحي ، مسقع^(١) عراف أعقاب الأمور ، منجد
ويمدح الناصر بقوله :

ملك أديب ، أريحي ، مجد عفيف ، فصيح حين ينطق ، مصقع
ويمدح الصالح أيوب بقوله :

له خلائق صفتها مكارم نفسانية منه لا التهذيب والحكم
فالكامل عليم ، والناصر أديب ، والصالح مهذب بطبيعته ، لا يعنيه أن يتعب نفسه
في تحصيل العلوم ودراسة الحكم ، وهذه الصفات يصف التاريخ هؤلاء الملوك .
كما يلحظ في هذا المدح العناية بإبراز صفة رعاية الملك للدين ، وحياطته له ، وحراسته
لأمره ، فكثيراً ما تسمع منه هذه النغمة للمدوحه :

(١) المسقع كالمصقع : الخطيب العالي الصوت أو الفصيح الذي لا يرتج عليه .

فاسلم لدين قد هديت إليه من لا يهتدى ، وجمعت ما لا يجمع
وحيت حوزته ، فأصبح وهو في أيام دولتك الأعز الأمانع

وهو من أجل ذلك يمدح السلطان الكامل بما بذله من جهد في الدفاع عن دمياط ،
عندما هاجمها الفرنج ، حتى رحلوا عنها ، بعد معركة شرد فيها شمل الفرنج ، وأسر ملكهم
وأمرأؤه ، فأشاد أيدير بهذا النصر في قوله :

كم منة لأبي المعالي الكامل السلطان في عنق الهدى لا يتجدد
أيام قال الشرك بغيّاً للهدى دمياط ، تى ، ولك الغداة الموعد
وأنى بما ملا البسيطة كثرة والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت يدها بقعة جف المياه بها ، وذاب الجلد
كالسيل ، إلا أنه لا ينقضى والليل ، إلا أنه يتوقد
وأنى بك الإسلام وحدك موقناً أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما بالنصر تشقى من تشاء ، وتسعد
فرددت شخص الشرك وهو مسربل خزيّاً ، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسلك فيهم ، فكلم^(١) ومجدل^(٢) ، ومشرد ، ومصفد^(٣)

ومما يلحظ أن مدح أيدير لملوك بني أيوب تلمح فيه ما دار في تلك العصور من نزاع
حول العرش ، وتنافس على صولجان الملك ، فتراه في مدحه للكامل وتهنئته له بفتح
دمشق يقول :

لما نهدت إلى الذين رمى بهم في الجهل حلك ، والتعلم يجهل
نضجت جلودهم بنار أوقدت للخوف بين ضلوعهم تتأكل^(١)
لو أيقنوا أن الفرار من الردى ينجيهم فروا إذا وتسللوا
لكنهم علموا يقيناً أنهم لا يعجزونك أحزنوا أو أسهلوا^(٥)

(١) المكلم : المخرج . (٢) المجدل : المرتقى على الجدالة وهي الأرض .

(٣) المصفد : المكبل بالأصفاد وهي القيود .

(٤) تتأكل : تتوهج . (٥) أى سواء أكانوا بالحزن أم بالسهل .

ولو أنهم ألقوا مقادة أمرهم
لأنلتهم ضعفى مناهم راضياً
لكنهم دهموا بهيتك التى
فتحصنوا حذراً ، وبأسك لم يكن
حتى إذا جمعوا شئت حلومهم
وقفوا على أن ليس عنك لهم ، ولا
تصفحت عما كان غير مؤاخذ
بيديك حين قصدتهم وتوكلوا
عنهم ، ونالوا عاجلاً ما أجلوا
دهموا بها ، وهى المقام الأمول
ليصدم لو شئت باب مقفل
واستدبروا آراءهم واستقبلوا
لسوهم ، عند الحقيقة ، معدل
نخطيئة تعفو ، وعذراً تقبل

وفى مدحه للصالح وتهنئته بفتح دمشق يقول :

تصرت بالرعب قبل البيض^(١) والأسل^(٢)
ونلت بسطة تمكين قهرت بها
قد قلت ، إذ جاء بالفتح البشير به :
اليوم أصبح ملك الأرض مرجعه
فتح تقوم له الدنيا وتقعده ، إذ
أما العدو فأمسى لا قرار له
ما زال حملك يغريهم بجهلهم
أهملتهم ، فإذا بالقوم قد رمعوا
فجاذبوك رداء أنت وارثه
هيات هيات ما كانوا بكيدهم
الملك لله ، أنى شاء يجعله
ولطف صنع كصنع الله للرسل
معانديك ، فضع ، وارفع ، وصل ، وطل
الله أكبر ، هذا غاية الأمل
لدولة ، وبنو الدنيا إلى رجل
ظلت تقسم بين الأمن والوجل
من الحذار ، وقرت عين كل ولى
دهرا ، وما كنت بالوانى ولا الوكل^(٣)
وحاولوا نقل ملك غير منتقل
بسنة السيف عن آبائك الأول
لينقضوا مبرم الأحكام فى الأزل
وهى المقادير قل عنها ولا تسل

وكم صرف هذا النزاع على العرش جهودا كان أولى بها أن تنصرف إلى العدو
ولتخطم قواه :

(٢) الأسل : الرماح

(١) البيض : السيوف .

(٣) الوكل : العاجز .

ويعمد أيذر أحياناً إلى المبالغة في شعره ، حين يمدح ، ولعل بمدوحى هذا العصر كانوا يحبون هذا اللون من الإغراق الذى تجده فى قوله :

لو قذف النجم بعزم لا غترق أو ضرب البحر بكف لفرق
أو رجم الطود بحلم لصعق للجود فى يمينه حوض بثق
يؤمه العافون من كل أفق صفا لهم مشربه العذب ورق

وبقى لنا من نظم أيذر موشحان جيداً السبك والأسلوب ، عارض بأحدهما موشح ابن المعتز ، لم يقصر فيه عنه ، فى معظم أجزائه ، ومن أجل غزله قوله :

هز عطف الغصن من قامته
مطلعاً للشمس من طلعتة
ثم نادى البدر فى ليلته :
أيها البدر ، تغيب ، ويحكا
ما احتياج الناس للبدر معى

والموشح الثانى مما يحتاج إلى صناعة دقيقة ، تتجلى فى هذا الجزء الذى نعرضه منه وكله على هذا النسق ، إذ يقول :

بات وسماره النجوم ساهر فن ترى عليك النوم ياجفون
صب إلى مذهب النصاى صابى لا يعدل
جنبه خاق الجناب نابى مبلبل
والطرف من دائم انسكاب كابى مخبل
لسانه للهوى كتوم ساتر لما جرى والشأن أن تستر الشئون

والموشحان فى المدح .

وقد خرج أيذر على النظام التقليدى للقصيدة العربية ، فى قصيدة مدح ، فجاء بها من بحر الرجز ، وتلاعب فى تفاعيله ، وجعل من كل ثمانية أبيات وحدة كقوله :

دع الصبا يمر فى التصاى قبل تجلى سكرة الشباب

وانتهز اللذات ، فالعيش فرص	رب سرور كامن فيه نفص
قم يا غلام ، هاتها ، وهاكا	واعصى هوى العاذل في هواكا
أما ترى ظل السرور سابغاً	ومشرب العيش هنيئاً سائغاً
في روضة قيد النظر	تشكر آلاء المطر
ترنو بأحداق الزهر	تحسبها بعد السحر
قد انتثر	فيها درر
أو انتشر	منها حبر

وتمضى القصيدة على هذا المنوال ، وتلتزم الراء في الاشطار الثمانية الاخيرة ، وهو حر فيما عداها من القوافي .

وأيدمر طويل النفس في قصائده ، وقد يكتفى في توضيح انفعاله ببيتين ، وهو مجيد حين يطيل أو يوجز ، ولم يخطئه التوفيق إلا قليلاً ، كما أساء المطلع في قوله :

لا أهني مولاي بالعيد إلا خوف تعطيل سنة تعتاد
فن الجهل أن يهنا بعيد من به الدهر كله أعياد

وكما تجد بعض القوافي قلقة مثل قوله : فالندى في غيره عين الدعى .
أو حسن تعليل غير حسن ، أو مبالغة ، ولكن ذلك قليل في شعره .

وكان أيدمر نفورا بشعره ، معترفاً به ، يعتقد أنه أوتي بنصيب كبير من رونقه وجماله ، بل لقد ادعى أنه وحيد فيه ، لا يدانيه سواه ، كما قال :

أبدى البديع ، ولا يزال ظله ظلى ، ومنه ما يسوء ويكمد
إن القريض ، وإن تكاثر ساكنو أفيائه ، للعبد فيه الاوحد

ابن عنين *

٥٤٩ — ٦٣٢ هـ

شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين ، ولد بدمشق يوم الإثنين ، تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وتلقى ثقافته فيها على يدى كبار علمائها ، الذين كانوا يلقون دروسهم بجامعها : أخذ النحو عن أبي الثناء محمود بن نعمة ، والحديث عن الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر ، ودرس الفقه على قطب الدين النيسابورى ، وكال الدين الشهرزورى ، ونال حظاً وافراً من علوم الثقافة فى عصره : من تفسير ، ومنطق ، وحساب ، وهندسة ، وفلك . وتمكن من اللغة وأتقنها ، حتى كان يحفظ كتاب الجهرة لابن دريد ، وكان واسع الباع فى رواية الشعر ، ذا حظ موفور من الأدب والعلم بأخبار العرب .

وقد هيأته هذه الثقافة الواسعة مع ما أوتيته من استعداد فطرى قوى لأن يصل إلى درجة كبيرة من إتقان الشعر ، تضعه فى مصاف كبار الشعراء ، فى القرن الثالث الهجرى ، يصارعهم فى جودة الأسلوب ، وقوة التعبير ، وجزالة النص ، وسلامة الجملة ، فى الغالبية العظمى لشعره ، ولا ينزل عن هذا المستوى إلا قليلاً ، فى مواضع الهزل ، حين يروقه أن يستعمل اللحن ، والألفاظ والتراكيب العامية ، التى كانت تشيع بدمشق فى عصره ، واجداً فى ذلك وسيلة للتأثير حين يتهم ، ويسخر ، ووسيلة لسيورة شعره على الألسنة ، كى يبلغ ما يريد من يتهم بهم ويسخر .

* مراجعه :

- | | |
|---|---------------------------------------|
| (١) ديوانه . | (٢) الأعلام ٣ : ٩٩٥ . |
| (٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٩٧ ، ٤٠٨ ، ٤٧٥ ، ٢ : ٢٥ ، ٤٩ ، ١٨٩ . | (٤) معجم الأدباء ١٩ : ٨١ و ١١ : ٢٥٩ . |
| (٥) النجوم الزاهرة ٦ : ١١٣ ، ١٦٣ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ . | (٦) كشف الظنون ٢ : ٦٠٥ . |
| (٧) خطط الشام ٤ : ٤٢ ، ٤٩ . | (٨) فوات الوفيات ١ : ٢٢٠ ، ٢٧٠ . |
| (٩) السلوك ١ : ٢١ ، ٢١١ ، ٢١٢ . | (١٠) المختصر ٣ : ١٥٨ . |
| (١١) ديوان ابن الساعاتى ٢ : ٩٠ ، ١١٥ . | (١٢) مفرج الكروب ٢ : ٢٨٦ . |
| (١٣) خزائن الأدب للحموى ص ١٧٤ . | (١٤) شذرات الذهب ٥ : ١٤٠ . |
| (١٥) البداية والنهاية ١٣ : ١٣٧ . | |

وقد وجدت هذه الثقافة سبيلها إلى شعره ، فكان علمه باللغة وسيلة إلى استخدامه الألفاظ الدقيقة في مواضعها . قال يصف طفلياً :

واغل ، وارش ، نماء طفيل أرشم ، قد مللت من إبرامه ^(١)

وهيأت له هذه المعرفة أن يجيب نحر الدين الرازي حين اقترح عليه أن يقول أحياناً في كل كلبة منها سين ، فقال قصيدة يمدحه بها، وختمها بقوله :

آنست من أستار سده سنا قبس ، فسقت نفيسة لنفيس
وسقيتها سلسال سحر مسكر للسامعين ، وسقتها كعروس
فاستحلها واستجلها حسناء ألبسا سنا اسمك أحسن الملبوس

وحين اقترح عليه مرة أخرى أن ينظم أخرى تشتمل كل كلبة منها على الحاء ، فقال :

حيا محل الحاجبية بالحي والسفح سفح مدح سحاح
حتى تصاحب حسله حياته ويضاحك الحوذان حسن أقاح
سحب يوشحها لوح ملقح ويحف حافلها حفيف رياح

وعلى هذا النسق مضى إلى آخر القصيدة . وهما - وإن كانتا متكلفتان - يدلان على ما أشرنا إليه من سعة اطلاعه على اللغة ، ومعرفته بألفاظها .

ويحسن الاقتباس إذا اقتبس . كتب إلى أخيه من الهند مضمناً بيت أبي العلاء :

سامحت كتبك في القطيعة ، عالمأ أن الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسرى ، فيصبح دوننا بمراحل

ويكثر من التورية باصطلاحات النحو ، قال :

لم آخرتنى وقدمت غيرى أنا حال وغيرى استفهام ؟

(١) الواغل : الداخل على القوم في شراهم ، والوارش : الداخل عليهم في طعامهم ولم يدع ، وطفيل رأس الطفيلين الذي ينسبون إليه ، والأرشم : من يتشم الطعام ويتحين له .

وكتب إلى صفي الدين بن شكر :

ولانت ، إن رفع امرؤ من غيره كالمبتدا ، سبب ارتفاعك معنوى
وله :

فداؤك كل من أمسى لبخل نداه ، كانه علم منادى
وقال فيمن عزل ، وكانت سيرته غير مشكورة :

فلا تفضبن إذا ما صرفت فلا عدل فيك ، ولا معرفة
ولما مرض كتب إلى الملك المعظم عيسى :

انظر إلى بعين مولى لم يزل يولى الندى وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى : أحتاج ما تحتاجه فاغتم دعائى ، والثناء الوافى

فعاده الملك المعظم ، ومعه خمسمائة دينار ، وقال له : أنت الندى ، وأنا العائد ،
بهذه الصلة .

ويتحدث عن المنطق ورجاله ، فيقول فى فقيهين تكلم فى المنطق ، يقال لأحدهما : تاج ،
وللآخر : كال :

قيل : إذا التاج على خلا مع الكمال الجاهل الاحق
تألفت من خبث فعليهما قضية من جهة المنطق
موضوعها التاج ، فإن حاولوا بها طريق العكس لم تصدق

ويقول فى أحد مدوحيه :

لو أن رسطاليس يسمع لفظة من لفظه لعبرته هزة أفكل^(١)
ولحار بطليموس لولا فاه من برهانه فى كل شكل مشكل

ابتدا ابن عنين يقول الشعر وهو ابن ست عشرة سنة ، فى عهد نور الدين محمود

(١) الأفكل كأحمد : الرعدة .

ابن زنكى ، ويظهر أن صغر سنه حال بينه وبين الاتصال بالملك ، ولم يلبث نور الدين أن توفي ، حتى آل أمر ملك دمشق إلى صلاح الدين ، ولم يحاول ابن عتین أن يتقرب من السلطان ، ولا من رجال دولته ، بل وقف موقف الناقد العايب الساخر بالدولة والقائمين على أمورها : من وزراء ، وقواد ، وقضاة ، وكتاب ، ولم يفلت من لسانه علماء دمشق ، وأعيانها ، وكبار رجالاتها فقد كان ابن عتین شاعراً مولعاً بالهجاء ، هجا صلاح الدين ورجال دولته بقوله :

قد أصبح الرزق ما له سبب	في الناس إلا البغاء والكذب
سلطاننا أعرج ، وكاتبه	ذو عمش ، والوزير منحذب
وصاحب الأمر خلقه شرس	وعارض الجيش داؤد عجب
يبیت من حكمة ثورقه	في دبره كالسعير تلهب
وحاكم المسلمين ليس له	في غير غرمول أسود أرب
والدولعي الخطيب فعتكف	على فساد وريبة يشب
ولابن باقا وعظ يغربه النا	س ، وعبد اللطيف محتسب
عيوب قوم لو أنها جمعت	في فلك ما سرت به شهب

ومضى يهجو الموفق أسعد بن إلياس الطيب ، وكان رجلاً غزير المروءة ، دمث الأخلاق ، كريم العشرة ، يصحبه صبي حسن الصورة اسمه عمر ، كره في ابن عتین ولعه بالهجاء ، وأخذ يحرض صلاح الدين عليه ، فقال فيه ابن عتین :

قالوا : الموفق شيعي ، فقلت لهم	هذا خلاف الذي للناس منه ظهر
فكيف يجعل دين الرفض مذهبه	وما دعاه إلى الإسلام غير عمر

فأمر صلاح الدين بنفيه من دمشق ، فخرج منها ناقماً على خروجه ، مؤمناً بأنه ما انتقد إلا بالحق ، ولا فاه بغير الصدق ، فيما ذكره من عيوب القادة والرؤساء ، فقال :

فعلام أبعدتم أخا ثقة	لم يجترم ذنباً ولا سرقا
أنفوا المؤذن من بلادكم	إن كان ينني كل من صدقا

خرج من دمشق ومضى يطوف البلاد : من الشام ، والعراق ، الجزيرة وأذربيجان ،
وخراسان ، وغزنة ، وخوارزم ، وما وراء النهر ، والهند ، ويظهر أنه لم يطب له المقام في
أى بلد من هذه البلاد . ذم اقامته في دمشق ، وسخر من أحكام الخليفة وقضاته ، وهجا
بخارى ، ووصف أهلها بالبخل ، وأنهم يغلقون أبوابهم في وجه الغريب ، ويلحقونه إلى الخان .
ليأكلوا طعامه ، ويسلبوا ماله ، أما في خوارزم فقد راقته صباحة أوجه أهلها ولكنه نغم
على مؤذنها أن يقوم في سحرة من الليل يقارب نصبه ، ثم لا يزال يزعم إلى الفجر ، حتى
إذا ماصل إلى ما وراء النهر استرجع ذكريات ماضية ، فرأى أنه سار في طرية ، كان جديراً
به أن يسلك سواء ، فقد ألقى به سوء طالعه في ديار أعاجم ، لا يرى أن يمجدهم في شعره ،
ولا أن يطعم في نواهم ، وكان أول به أن يقف مدحه على ملوك وطنه : بنى أيوب ، فلهم
من أمجادهم ما يستحقون أن يمدحوا بها ، فقد دافعوا عن الإسلام وأذاقوا الصليبيين مر الحروب ،
ولهم كرم كان يغنيه ، ويجعل حياته رغبة سعيدة . تحس بذلك في قوله :

أحن ومن وراء النهر دارى	حنين العود أوثقه العراس (١)
بأرض لا الكلاب بها كلاب	ولا الناس السراة هناك ناس
فكيف تبیت تطمع في مديحي	رجاء نوالها العجم الخساس
ولو أنى مدحت ملوك قومي	تراغت حولي النعم الدخاس (٢)
فإن الناس في طرق المعالي	لهم تبع ، وهم للناس راس
ملوك دأبهم شرف ومجد	ودأب سواهم طرب وكاس
فلولا آل أيوب بن شادى	لكان لمعهد الجود اندراس
هم تركوا صليب الكفر أرضا	يداس ، وكان معبوداً يباس
أولو عدل يموت الليث منه	طوى ، وبجنب مأواه الكناس

أما بلاد الهند فلم يحمد مقامه فيها :

ولإذا سقى الله البلاد فلا سقى بلد الهند سوى الصواعق والدما

(١) العود : المسن من الإبل والعراس : الجبل الذى يعرس به البعير ، أى يشد من عنقه إلى ذراعه
(٢) الدخاس : العدد الكثير .

وهكذا مضى في بلاد الشرق ، يجد السير ، راجياً أن يجد مكاناً يجد فيه الهدوء والاستقرار ، ولكنه لم يجد راحة ولا هدوءاً :

اشفق قلب الشرق ، حتى كأننى افقش في سودائه عن سنا الفجر

ويظهر أنه بعد طول تطوافه عزم على أن يعود إلى بنى أيوب . فمضى إلى اليمن وملكها في ذلك الحين سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين ، فأكرم مقدمه وجعله من خواصه وندمائه ، وأغدق عليه ولقى عنده الراحة بعد وعشاء السفر ، ومضى ابن عنين ينظم فيه قلائد المدح ، فن ذلك قوله فيه :

حلبت شطور الدهر يسرا وعسرة	وجربت ، حتى حكننى التجارب
فكم ليلة قد بت ، لا الليل مشرق	يضىء لرائيه ، ولا النجم غارب
شقت دجاها ، لا أرى غير همى	أنيساً ، ولا لى غير عزمى صاحب
إلى بحر جود يخجل البحر كفه	فقل عن أياديه ، فهن العجائب
إلى أبلج كالبدر ، يشرق وجهه	سناه ، إذا التفت عليه المواكب
تسمن من أعلى المراتب رتبة	تقاصر عن أدنى مداها الكواكب
لنا من نداه كل يوم رغائب	ومن فعله فى كل مدح غرائب
فتى حصنه ظهر الحصان ، ونثرة ^(١)	تكل لديها المرهفات القواضب
يريه دقيق الفكر فى كل مشكل	من الأمر ما تفضى إليه العواقب
أثبت إليه ، والزمان عتاده	عنادى ، وقد سدت على المذاهب
فلم أر كفاً عارضاً غير كفه	بوجه ، ولم يزور للسخط حاجب
بقيت ، فكم شرفت باسمك منبرا	وكم نال من نخر بذكرك خاطب

وظل فى اليمن مدة طويلة ، كان فيها يتردد على مصر فى الحين بعد الحين ، ويظهر أنه كان يتجر فى أسفاره ، وحدث أنه لما جاء إلى مصر ، بعد وفاة صلاح الدين ، طوب بدفع زكاة ما معه من عروض التجارة ، فقال يهجو الملك العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر :

(١) النثرة : الدرع الواسعة .

ماكل من يتسمى بالعزير لها أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيرين^(١) بون في فعالهما : هناك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقه
وظل على هذه الحال ، إلى أن توفي صلاح الدين ، واضطربت أمور أولاده بعد وفاته ،
ويظهر أنه كان يرجو أن تستقر الأمور في دمشق ، للأفضل بن صلاح الدين ، وربما كان
يطمع في لين جانبه ، وأن يجد السعادة في دمشق تحت حكمه ، وربما كان يؤمل أن يجد
هو وأن تجد البلاد في ظله العدالة والأمن والاطمئنان ، يظهر ذلك من هذه
القصيدة التي أرسلها إلى أخيه ، ردأ على كتاب له يستدعيه فيه إلى دمشق ، فكتب إليه
ابن عنين يستمهله ، حتى تنجلي الأمور ، ويعود الحكم إلى صاحبه ، بعد أن استبد الملك العادل
به ، وحتى يزول حكم السوء من دمشق ، وفيها يقول :

وتقول : أهل دمشق أكرم معشر وأجلهم ، ودمشق أفضل منزل
وصدقت : إن دمشق جنة هذه الد نيا ، ولكن الجحيم الذي
لا الحاكم المصرى ينفذ حكمه فيها على ، ولا العوانى الموصلى^(٢)
هيأت أن آوى دمشق وملكها يعزى إلى غير المليك الأفضل
ومن العجائب أن يقوم بها أبو بكر ، وقد علم الوصية في على^(٣)
مهلا أبا حسن ، فتلك سحابة صيفية ، عما قليل تنجلي

ولكن هذه السحابة التي كان يظنها صيفية لم تنقشع ، واستقرت قواعد الملك في الشام
ومصر للملك العادل ولبنيه ، ورأى أنه لا بد من الرضا بحكم الملك العادل ، إذا رغب في العودة
إلى دمشق ، بعد هذه الغربة الطويلة ، فكتب إليه قصيدة رائية ، يستعطفه بها ، ويستأذنه
في دخول دمشق ومن الخير أن تقف قليلا عند هذه القصيدة ، فإنها من خير شعره كله .
بدأ ابن عنين قصيدته بغزل مستوحى من الجو العام الذي انشئت من أجله القصيدة ،
فهو غزل استعطافى فيه رقة وحنين ، إذ يقول :

(١) يريد بالعزيرين : الملك العزيز صاحب اليمن والملك العزيز صاحب مصر .
(٢) الحاكم المصرى : قاضى القضاة في دمشق جمال الدين يونس بن بدران . والموصلى : هو شحنة
دمشق (رئيس شرطتها) للبارز ابراهيم بن موسى .
(٣) أبو بكر : هو الملك العادل . وعلى : الملك الأفضل . يريد بذلك ما حدث من أخذ الملك
والعادل دمشق من ابن أخيه الملك الأفضل سنة ٥٩٢ هـ .

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو ساعحوني بالكرى
جنحوا إلى قول الوشاة ، فأعرضوا والله يعلم أن ذلك مفترى
يا معرضاً عنى بغير جناية إلا لما رقص الحسود وزورا
هبنى أسأت ، كما تقول ، وافترى وأتيت في حبيك أمراً منكرا
ما بعد بعدك والصدود عقوبة يا هاجرى ، قد آن لى أن تغفرا

حتى إذا انتهى من هذا الغزل الاستعطافى المتشوق ، مضى يتحدث عن دمشق ، التى لم ينسها طول غربته ، ويذكر معاهدها ، ويبكى بعده عنها ، وفراقه لها ، وطول ما قام به من رحلات وأسفار ، فقال :

فسقى دمشق ، وواديها ، والحنى متواصل الإرعاد ، منقسم العرى
حتى ترى وجه الرياض بعارض أحوى ، وفود الدوح أزهر نيرا
أرض إذا مرت بها ريح الصبا حملت على الأغصان مسكا أذفرا
فارقتها لا عن رضا ، وهجرتها لا عن قلى ، ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق فى البلاد مفرق ومن البلية أن يكون مقفرا
ولقد قطعت الأرض ، طورا سالكا نجدا ، وآونة أجد مغورا

وتخلص من الحديث عن سفره إلى مدح العادل ، وتسجيل ما يتصف به : من عدل ، وكرم ، ومن ثبات فى المواقف ، التى تطيش فيها الأحلام ، ومن يقظة ، وسرعة بديهة ، وحلم ، وهى صفات شهر بها العادل :

ملك إذا خفت حلوم ذوى النهى فى الروح زاد رزانه وتوقرا
ثبت الجنان تراعى من وثباته يوم الوغى وثباته أسد الشرى
يقظ يكاد يقول عما فى غد ببديهة أغتته أن يتفكرا
حلم تخف له الجبال ، وراءه عزم ، ورأى يحقر الإسكندرا

وأثنى ابن عنين الثناء الجيم على أولاد العادل :

وله البنون ، بكل أرض منهم ملك ، يقود إلى الأعداء عسكرا .

من كل وضاح الجبين ، تخاله بدراً ، فإن شهد الوغى فغضنفرا

حتى إذا شفى نفسه من مدح الملك وبنيه ، عرض أمره على العادل ، قائلاً :

أشكو إليك نوى تهادى عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لا عيشتي تصفو ، ولا رسم الهوى يعفو ، ولا جفنى يصالحه الكرى
أضخى عن الأحوى المريع محلا وأبيت عن ورد النير منفرا
ومن العجائب أن تفيأ ظلكم كل الورى ، ونبتت وحدى بالعرا

وكان لهذه القصيدة أثرها في نفس العادل ، فأذن له بدخول دمشق ، فدخلها ، وكان القائم بالامر فيها المعظم عيسى بن العادل ، فإن العادل قسم البلاد بين بنيه ، وكانت دمشق والقدس لابنه المعظم ، الذى أعجب بأبن عنين أيما إعجاب ، وجعله من خواص بطانته ، وفي آخر أيام المعظم تولى الوزارة ، وبهذا وصل إلى أسمى مناصب الدولة ، غير أنه ، وكانت قد علت سنه — زهد في الوزارة ، وتوسل إليه أن يعفيه منها ، والظاهر أن الناس لم يستقبلوا توليه الوزارة بالرضا ، لتاريخه الطويل في الهجاء ، وما أثر له من شعر ماجن ، ساخر ، فضلا عن سن عالية لا تسمح له بتحمل أعباء الوزارة ، يظهر ذلك في قوله للمعظم :

أقلنى عثارى ، واحتسبها صنيعه يكون برحاما لك الله جازيا
كنى حزناً أن لست ترضى ، ولا أرى فقى راضياً غنى ، ولا الله راضيا
ولست أرجى بعد سبعين حجة حياة ، وقد لاقيت فيها الدواهيا

ولما مات المعظم رثاه ابن عنين رثاء باكياً ، ولم يلبث أن لزم بيته عند ما آل أمر دمشق إلى الملك الأشرف موسى ، وإن كان قد مدحه بشعره .

كان لاغتراب ابن عنين عن دمشق ، وقد طال إلى أكثر من عشرين عاماً — أثر بالغ في شعره ، فكثرت فيه الحنين إلى وطنه ، واتسم هذا الشعر بالقوة في التعبير ، وجزالة الأسلوب ، يحن إلى أصدقائه ، ويشتاق إلى ملاعب ضباه وشيبيته ، ويأسف لجوبه البلاد ، وأنه لا يستقر في مكان ، وفي ديوانه باب في الحنين إلى دمشق ، وفي مختلف أغراض شعره حديث عنها ، حينما كان مفارقاً لها ، وحسبى أن أورد هنا بعض ما قاله من شعر في هذا

وتنسب الرقة والحنين في كل شعره الذي يشواق فيه الى دمشق . وكان ألمه لفراقها
يملاً شعاب قلبه ، برغم ما قد يبديه من تجلد وتصبر :

كم أورى عن لوعتي ، وأوارى ما أجت أضايعي من أوارى
وأرى صاحبي سلواً ، وفي القلب زناد من قادح الشوق وارى
جلدا أظهر السرور ، وإن أضمرت حزناً بين الحشا متوارى

وكان الهجاء الذي سبب نفيه عنها أقوى أغراض ابن عنين في شعره ، ويلجأ فيه الى
التهكم والسخرية ، ولا يبالي بمن يهجو : سلطاناً كان ، أو وزيراً ، أو قائداً . هجا صلاح الدين
وأخاه الملك العادل ، وغيرهما ، من كبار رجال الدولة ، بل لقد هجا أباه بقوله :

وجنبني أن أفعل الخير والد ضئيل ، إذا ما عد أهل المناسب
بعيد عن الحسنى ، قريب من الخنا وضع مساعي الخير ، جم المعاييب
إذا رمت أن أسمو صعوداً الى العلا غدا عرقه نحو الدنية جاذبي

وهالك نموذجاً لهجائه ، قال يهجو الرشيد النابلسي :

قالوا : الرشيد بغاؤه مستحدث كسبوا خطيئته ، وباءوا بإثمه
ما ذاك إلا عادة مألوفة طبعاً له مذ كان في بطن أمه
كانت غراميل الزناة إذا أتت حرها تلقاها الجنين بسرمة
فلذاك يشواق المني لأنه منه تركب لحمه مع عظمه

وساعده على اجادة الهجاء مقدرة بارعة على الدعاية والتهكم والسخرية ، وله في ذلك قدم
راسخة ، استطاع جامعو ديوانه أن يجمعوا منها باباً ، فيه جمال ومتعة ، فمن فكاهاته
أن الشريف الكحال أهدى اليه خروفاً بعد أن وعده به مدة ، وكان هزيراً جداً ،
فكتب اليه :

أبو الفضل ، وابن الفضل أنت ، وتربه فغير بديع أن يكون لك الفضل
أتقنى أياديك التي لا أعدها لكثرتها ، لا كفر عندي ولا جهل
ولكنني أنبيك عنها بطرفة تروك ما وافي لها قبلها مثل

أتانى خروف ما شككت بأنه حليف هوى ، قد شفه الهجر والعذل
 اذا قام فى شمس الظهيرة خلتـه خيالا سرى فى ظلمة ماله ظل
 فناشدته : ما تشتهى ؟ قال : قتة وقاسمته : ما شفه ؟ قال لى : الاكل
 فأحضرتها خضراء ، بحاجة الثرى مسلبة ، ما حص أوراقها القتل
 فظل يراعيها بعين ضعيفة وينشدها ، والدمع فى الخد منهل :
 « أتت ، وحياض الموت بينى وبينها وجادت بوصل ، حين لا ينفع الوصل ،

وكان شرف الدين يعقوب يسمع الحديث على باب الكلاسة بجامع دمشق ، فقال
 ابن عنين :

رأيت النبى عليه السلام فقمتم إليه ، وقبلته
 فقال : أيعقوب يروى الحديث ؟ فقلت : نعم ، قال : ما قلته

وجاء رجل من بغداد يلقب بالجدى يدعى الخطابة ، ومعه طومار يأخذ فيه خطوط
 الناس ، فتناوله وكتب فيه :

حوى قصب السبق أهل العراق وعطر ذكرهم الاندية
 وأى خطيب يجاريهم وقد خطبت فيهم الاجدية

ولا نطباعه على الهجاء ، وشدة ملاحظته لما فى الناس من نقائص وعيوب ، وضع
 قصيدة دعاها : « مقراض الاعراض » ، هجا فيها جماعة من أهل دمشق ، وسخر بهم ، وهى
 طويلة ، ومنها ما خص به القاصى الفاضل ، اذ قال :

وحين أبصرت دولة الاحدب الفاضل أربت على علا الشهب
 فقلت للفلسين : ويحكم تحادبوا فهى دولة الحدب

ولابن عنين مدح فى ملوك عصره ووزرائه . مدح الملك العادل ، وبنيه : المعظم ،
 والكامل ، والأشرف ، وصفى الدين بن شكر ، وطغتكين أخا صلاح الدين باليمن ، ولم يبق
 من شعره فيمن مدحهم بالمشرق ، سوى الفخر الرازى الذى أعجب ابن عنين بعلمه وخلقه .
 وأقوى شعره فى المدح ما قاله فى المعظم عيسى ، وسجل المدح ما كان للملك المعظم

من مواقف مشهودة في الحروب الصليبية . وخص معركة دمياط التي دارت سنة ٦١٩ هـ والتي كان للمعظم عيسى فيها بلاء حسن — بقصيدة بدأها بدءاً فآخرأ بقوله :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى إذا جهلت آياتنا والفتنا اللدنا

وانتقل إلى وصف جحافل الفرنج بقوله :

غداة لقينا دون دمياط جحفاً من الروم لا يحصى يقيناً ولا ظناً
قد انفقوا رأياً ، وعزماً ، وهمة وديناً ، وإن كانوا قد اختلفوا لسناً
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت جموع كأن الموت كان لهم سفناً
عليهم من المأذى كل مفاضة دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضناً^(١)
وأطعمهم فينا غرور ، فأرقلوا إلينا سراعاً بالجياذ ، وأرقلنا

ويصف ابن عنين المعركة التي دارت بين المسلمين والصليبيين ، ويعترف لهم بالصبر ، والشجاعة ، والاستماتة في الدفاع الذي لم يجد ، ويتحدث عن نهاية المعركة بإلقائهم السلاح ، ويوازن بين خلقهم وخلقنا ، لو أن المعركة انتهت بما انتهت به ، وكانوا هم المنتصرين علينا ، فإنهم ما كانوا يتورعون عن أن يسفكوا دماءنا ، في أبشع الصور وأقساها ، يصور ذلك ابن عنين في قوله :

لقد صبروا صبراً جميلاً ، وذافعوا طويلاً ، فما أجدى دفاع ، ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الاسنة أحمرأ فألقوا بأيديهم إلينا ، فأحسنأ
منحنا بقاياهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دماننا ولوغاً ، ولكننا ملكنا ، فأبجحنأ
أسود وغى ، لولا قراع سيوفنا لما ركبوا قيداً ، ولا سكنوا سجنأ

وانتقل بعدئذ إلى مدح القائد الأيوبي الذي خاض المعركة ضد الصليبيين ، وهو المعظم عيسى ، وقد اشترك مع أخويه في هذه المعركة التي شهدت الأيوبيين بدءاً واحدة ضد الفرنج

(١) المأذى : خالص الحديد ، والدرع اللينة السهلة ، والسلاح كله . ودرع دلاص : ملساء لينة . ووضن الشيء : ثنى بعضه على بعض وضاعفه .

الغزاة . كما لم ينس أن يسجل له موقفه هذا في غير هذه القصيدة ، بل سجله له كذلك بعد وفاته ، عندما رثاه ، كما سجل له موقفه أيضا في معركة أخرى بفلسطين ، دارت عند قيسارية ، إذ قال في رثائه :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا	عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته	عن نصرها لتمكنت فيها العدا
ولأمتست البيض الحرائر أسهما	فيها سبايا ، والموالى أعبدا
وبشعر دمياط ، فكم من بيعة	عبد الصليب بها ، وكانت مسجدا
أنقذتها من خطة الخسف التي	كانت أحلتها الحضيض الأوهدا
أجليت نهر الكفر عنها ، فانطوى	وأنرت في عرصاتها فجر الهدى
ولقد شهدتك يوم قيسارية	والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الأبـ	أحكم بالصفيح وشيدا
فجعلت عاليها مكان أساسها	وألنت للأخشاب فيها الجليدا

كما سجل للأشرف موسى موقفه من هذه المعركة الخالدة فقال :

لولاك لانفصمت عرا الإسلام في	مصر ، وأخمل ذكره ، وتبدلا
وتحكمت فيها الفرنج ، وغادرت	أعلاجهما محراب (عمرو) هيكلا
حاشا لدين أنت فيه مظفر	أن يستباح حماه ، أو أن يخذلا

وكان جديراً بابن عنين أن يسجل المعارك التي دارت بين جبابرة الحروب الصليبية : صلاح الدين وملوك الفرنج ، لو لم ينف ابن عنين عن دمشق ، فهو شاعر قدير بارع ، فخرمت هذه المعارك أبرع شعرائها .

ولم تفارق ابن عنين الدعابة حتى في الرثاء ، ومن ملحه في ذلك أن حماراً له مات بالموصل ، فقال يرثيه :

ليل بأول يوم الحشر متصل	ومقلة أبدأ لإنسانها خضل
وهل ألام وقد لاقيت داهية	ينهد لو حملتها بعضها الجبل

ثوى المصك^(١) الذى قد كنت آمله عوناً ، وخيب فيه ذلك الأمل
لا تبعدن تربة. ضمت شمائله ولا عدا جانبيها العارض الهطل
لقد حوت غير مكسال ، ولا رعرش إن قيد القود^(٢) من دون السرى الكسل
قد كان إن سايقته الريح غادرها كأن أخصها بالشوك ينتعل
لا عاجزاً عند حمل المثقلات ولا (يمشى الهوينى، كما يمشى الوجى الوجى^(٣))
مكمل الخلق، رحب الصدر، منتفخ الجنبين ، لا ضامر ، طاو ، ولا سغل^(٤)
يطوى على ظمأ خمساً أضالعه فى بيضة الصيف ، والرمضاء تشتعل
ويقطع القفرات الموحشات إذا عن قطعها كلك المهرية البزل^(٥)
ففى الأباطح هيق ، راعه قنص وفى الجبال المنيفات الذرى وعل^(٦)
يرجع النبق مقروناً ، ويطربنى لحناً ، كما يطرب المزموم والرمل^(٧)
لو كان يفدى بمال ما ضننت به ولم تصن دونه خيل ولا خول

وهى من القطع الفريدة فى موضوعها فى الأدب العربى .

ولابن عنين رثاء أقواه ما قاله فى المعظم عيسى .

وفى ديوانه باب للألغاز ، تنقصه العاطفة التى هى أساس الشعر ، ولكنه يدل على ذكاء
وفطنة ، كان يضع الشعر ملغزاً ، ويجيب عن الألغاز بالشعر . أنشده الملك المعظم هذا
البيت لغزاً فى الاسلام :

أى شىء تراه حقاً يقيناً حينما اعوج فى الزمان استقاماً
فأجابه بديهاً وصرح بالجواب :

أيها السيد الذى جعل الشرك خطاماً ، وشيد الإسلاماً

(١) المصك : القوى .

(٢) القود : الخيل والابل .

(٣) الوجى : الحفا ، وهو رقة القدم

(٤) السغل : المهزول .

(٥) المهرية : إبل تنسب إلى حمى يدعى : مهرة بن حيدان . والبال من الابل : من بلغ السنة التاسعة .

(٦) الهيق : الظليم وهو ذكر النعام . والوعل : تيس الجبل .

(٧) المزموم والرمل : لحنان .

قد أتاك الجواب لا شك فيه فأتخذني للشككات إماما

هذا ولا يضم ديوان ابن عنين كل شعره ، فإن الرجل ما كان حريصاً على جمع شعره ، ولكن جمع له بعض الدمشقيين بعض شعره في ديوان هو الذي عني بنشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم ، وكان ابن خلكان قد رأى هذا المجموع ، وذكر أنه لا يجمع شعر ابن عنين كله . وفيه ما ليس له ، وينسب إليه مقطوعة أولها :

جاءت تودعني ، والدمع يغلبها عند الرحيل ، وحادي البين منصلت
وهذه القطعة تنسب إلى البهاء زهير .

وفي عشية نهار الاثنين ، لعشرين من شهر ربيع الأول ، سنة ثلاثين وستمائة هجرية ، مات في مدينة دمشق ، التي شهدت مولده .

ابن الفارض*

٥٧٦ — ٦٣٢ هـ

من مدينة حماة ، قدم الفقيه على بن مرشد ، حيث أقام بمصر ، مشهوراً بعلم الفرائض ، ثم واليا نيابة الحكم في مصر ، غالباً عليه التلقيب بالفارض ، وفي رابع ذي القعدة ، سنة ست وسبعين وخمسة ، ولد له بمصر طفل دعاه عمر نشأ في رعايته ، وربى في هذه البيئة العلمية الدينية ، فلما شب اشتغل بفقه الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر وغيره ، وسلك طريق الصوفية ، وكان عصر الحروب الصليبية من العصور التي ازدهر فيها التصوف ، وأنشئت لمريديه الدور ، ووقفت عليها الأوقاف ، الكثيرة ، فراض عمر نفسه على طريقة الصوفية ، والأخذ بمبادئها : من زهد وعبادة ، ثم رأى أن يمضى إلى مكة ، ليتصل بمنابع الوحي والإلهام ، وظل هناك زهاء خمسة عشر عاماً ، ثم عاد إلى مصر ، وأقام بالجامع الأزهر ، معظماً من أهل عصره ، حتى إن الملك الكامل كان ينزل لزيارته ، وساعده على الظفر بمحبة الناس ما منحه من جمال الخلقة والخلق ، وما سار على ألسنة الناس من شعره ، فقد أخذ الناس يتلقفون ديوانه ، ويترنمون بقصائده ، وقد جرى فيها ابن الفارض على طريقة الحب والغرام ، وليس بعجيب أن يتبع شعراء التصوف منهج الحب ، وأن يعبروا عن عواطفهم كما يعبر العاشقون المغرمون ، فإن التصوف في حقيقة أمره حب وحنين إلى الذات المقدسة ، وإلى معرفة الحقيقة

*مراجعته :

- (١) ديوانه .
- (٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٣ .
- (٣) الأعلام ٢ : ٧١٩ .
- (٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٨٨ و ٧ : ٢٨٣ و ٣٧٠ .
- (٥) الحركة الفكرية في مصر من ١١٤ و ١٢٣ .
- (٦) في التصوف الإسلامي من ١٢٠ .
- (٧) حسن المحاضرة ١ : ٢٢١ .
- (٨) تاريخ مصر لابن أبياس ١ : ٨١ .
- (٩) شذرات الذهب ٥ : ١٤٩ .
- (١٠) البداية والنهاية ١٣ : ١٤٣ .
- (١١) Littérature arabe. P. 116 .
- (١٢) تاريخ ابن الوردي ٢ : ١٦١ .
- (١٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان. ٣ : ١٧ .

السافرة ، فلا غرابة أن يستعير الصوفية لغة أهل العشق والغرام ، وأن يعبروا عن عواطفهم وحبهم بتلك العبارات الرقيقة التي اعتدنا سماعها في الغزل ، وأن يبينوا عن إحساساتهم المختلفة كما يبين المغرمون . وقد أوتى ابن الفارض حظا كبيرا من الرقة والأسر ، عندما يترك نفسه على سجيتها ، ولا يقيد بها بألوان المحسنات البديعية ، كقوله :

قلبي يحدثنى بأنك متلنى	روحي فداك عرفت أم لم تعرف
لم أقض حق هوالك إن كنت الذي	لم أقض فيه أسى ، ومثلى من بينى
مالي سوى روحى ، وباذل نفسه	في حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى	يا خيبة المسعى إذا لم تنصف
يامانعى طيب المنام ، وما نحى	ثوب السقام به ، ووجدى المتأف
عظفا على رمقى ، وما أبتيت لى :	من جسمى المضنى ، وقلبي المدنف
لم أخل من حسد عليك ، فلا تضع	سهرى بتشنيع الخيال المرجف
واسأل نجوم الليل ، هل زار الكرى	جفنى ، وكيف يزور من لم يعرف
إن لم يكن وصل لديك فعده	أملى ، وما طل إن وعدت ولا تنفى
فالطل منك لدى ، إن عز الوفا	يخلو ، كوصل من حبيب مسعف
وحياتكم ، وحياتكم قسما ، وفي	عمرى بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحى فى يدي ، ووهبتها	لمبشرى بقدمكم لم أنصف
لا تحسبونى فى الهوى متصنعا	كلنى بكم خلق بغير تكلف
قل للعذول : أطلت لومى طامعا	أن الملام عن الهوى مستوفى
دع عنك تعينى ، وذق طعم الهوى	فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

وتستطيع أن تلمح فى هذا الغزل الخواطر والإحساسات التي يريد الشاعر تصويرها ، والتعبير عنها ، وإن بعد ادراكها فى كثير من الأحيان . ومن أجل ذلك كثرت وجهات النظر ، عند شرح تائيته الكبرى ، التي اعتنى بشرحها جمع من الرجال ، وقف بعضهم عند حد الشرح الأدبى ، وبيان ما فيها من أسرار جمال الأسلوب ، وحاول البعض أن يستشف ما وراء ذلك من أغراض الشاعر . ولم يقف الأمر عند هذه القصيدة المطولة ، التي بلغت نحو ستائة بيت ، بل مضى بعض العلماء يشرح الديوان كله .

ولم يقف ابن الفارض عند استعارة لغة الغزل ، حينما يعبر عن إحساساته وعواطفه ، بل استخدم كذلك لغة الصوفية ، وبخاصة في تائيته الكبرى ، وقد أوردنا نموذجا منها فيما مضى ، ونورد هنا قوله يبين عن مذهبه :

جلت في تجليها الوجود لناظري وفي كل مررتي أراها برؤية
واشهدت عيني ، إذ بدت ، فوجدتني هنالك إياها بجلوة خلوتي
وطاح وجودي في شهودي ، وغبت عن وجود شهودي ماحيا غير مثبت
وعانقت مشاهدت في محو شاهدي بمشهدته للصحو من بعد سكرتي
ففي المحو بعد الصحو لم أك غيرها وذاتي بذاتي إذ تجلست تجلت

وهو حينئذ يصبح عسير الفهم ، يحتاج إلى التريث والالناة ، لادراك معانيه وأسراره ، ولست أريد هنا أن أعرض للمذهب الصوفي لابن الفارض ، ولا أن أبين الأصول التي استقى منها مذهبه ، فذلك إلى حين آخر إن شاء الله .

وبما هو جدير بالذكر هنا أن معاصري ابن الفارض أقروا له بمعرفة الشعر وتذوقه ، ومعرفة الأشياء والنظائر ، وبما يذكر له في ذلك أن نجم الدين بن اسرائيل ، وشهاب الدين الخيمي ، ادعى كل منهما القصيدة البائية التي أولها :

يا مطلباً ، ليس لي في غيره أرب إليك آل التقصى ، وانتهى الطلب

فاحتكما إلى ابن الفارض ، فأمر أن يعمل كل منهما قصيدة على الوزن والقافية فأنشأ الخيمي قصيدة أولها :

لله قوم بجرعاء الحى غيب جنوا على ، ولما أن جنوا عتبوا

ونظم ابن اسرائيل قصيدة مطلعها :

لم يقض من حبكم بعض الذى يجب قلب متى ما جرى تذكاركم يجب

فوجد ابن الفارض تشابها في الروح بين قصيدة الخيمي والقصيدة المدعاة ، فحكم بالقصيدة للخيمي .

وتوفي ابن الفارض في ثالث جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ .

البهاء زهير *

٥٨١ — ٦٥٦ هـ

بهاء الدين زهير بن محمد بن علي ، ينتهي نسبه بالمهلب بن أبي صفرة ، أحد سادة العرب وشجعانهم ، والقائد الذي أبلى بلاءً كبيراً في قتال الخوارج ، أيام الدولة الأموية ، وعد بذلك من أبطال القواد المسلمين ، والبهاء بذلك ينحدر من أصل عربي ، كما أنه قد ولد في أرض عربية هي بلاد الحجاز ، فقد استقبل الحياة في وادي نخلة ، بالقرب من مكة ، في خامس ذي الحجة ، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة ، وقضى زهير في مسقط رأسه حيناً لا يحده التاريخ ، ولكن شعره يتحدثنا بأنه مكث هناك حيناً ، ترك في نفسه ذكريات لا تنسى ، وذلك حين يقول :

أحن إلى عهد المحصب من منى وعيش به كانت ترف ظلاله
وياحبذا أمواهه ونسيمه وياحبذا حصباؤه ورماله

* مراجعته :

- (١) تاريخ ابن الوردي ٢ : ١١٩ .
- (٢) الأعلام ١ : ٣٣٩ .
- (٣) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٣ .
- (٤) صبح الأعشى ١ : ٩٧ .
- (٥) الهجوم الزاهرة ٥ : ٣٢٠ و ٧ : ٥٨ ، ٦٨ ، ٣٣٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ و ٦ : ٢٣٦ .
- (٦) ديوانه .
- (٧) ذيل الروضتين ص ٢٠١ .
- (٨) وفيات الأعيان ١ : ١٩٤ .
- (٩) السلوك ١ : ٢١٢ ، ٢٤٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ .
- (١٠) البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق .
- (١١) البهاء زهير الاستاذ أحمد الشايب .
- (١٢) History of egypt in the middle ages P. 240
- (١٣) Littérature arabe. P. 116 , 118
- (١٤) خزانة الادب العموي ص ١٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٤ .
- (١٥) المختصر في أخبار البشر ٣ : ٩٧ .
- (١٦) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٨ .
- (١٧) البداية والنهاية ١٣ : ٢١١ .
- (١٨) شذرات الذهب ٥ : ٢٧٦ .
- (١٩) خطط المقرئ .
- (٢٠) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان .
- (٢١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان .
- (٢٢) المنهل الصافي ٢ : ١٠٣ .

(الحياة الادبية في الحروب الصليبية ١٦)

ويا أسنى إذ شط عنى مزاره ويا حزننى إذ غاب عنى غزاله
وكم لى بين المروتين لبانة وبدر تمام قد حوته خجاله
مقيم بقلبي، حيث كنت، حديثه وباد لعينى، حيث سرت خياله
وأذكر أيام الحجاز، وأثنى كأنى صريع يعتريه خياله
ويا صاحبي بالخيف، كن لى مسعداً إذا آن من بين الحجيج ارتحاله
وخذ جانب الوادى، كذا عن يمينه، بحيث القنا يهتز منه طواله
هناك ترى بيتاً لزنب مشرقاً إذا جئت لا يخفى عليك جلالة ...

وحيث يقول :

سقا الله أرضاً لست أنسى عهودها ويا طول شوقى نحوها وحنينى
منازل كانت لى بهن منازل وكان الصبا لى بها وقرينى
تذكرت عهداً بالمحصب من منى وما دونه من أبطح وحجون
وأيامنا بين المقام وزمزم وإخواننا من وافد وقطين
زمان عهدت الوقت لى فيه واسعاً كما شئت من جذبه ومجون
إذ العيش نضر، فيه للعين منظر وإذا وجهه غض بغير غضون

على أننى أرى هذا الشعر ليس بقاطع الدلالة على أن زهيراً عاش فى مسقط رأسه حيناً طويلاً من الزمن، فقد يذكر الطفل النابه الكثير من معالم وطنه الأول، ويكون لخيال الشاعر أثر فى إحياء هذه الذكريات وتكميل صورتها، فليس من الضرورى أن يكون الشاعر قد عاش فى الحجاز، حتى أدرك عهد الحب، ومرت به فى هذا العهد ذكريات لا تنسى. فقد يكون الشاعر مستغلاً بعده عن وطنه الأول فى تخيل غرام قديم، لم يكن منه نفعاً، وكم تخيل الشعراء مواقف للحب لم تمر بهم حقاً.

غادر الشاعر وطنه الأول، وانتقل مع أسرته إلى مدينة قوص، لأسباب لا يذكرها التاريخ، وفى زمن غير معروف، وقد تكون رغبة الأسرة فى تثقيف ابنها، وإعدادة للظفر بمنصب من مناصب الدولة، وكان الحجاز يومئذ جزءاً من إمبراطورية صلاح الدين - هى التى دفعت الأسرة إلى مغادرة مكة إلى قوص، لينال الفتى فيها ثقافته الأولى، حتى

إذا أتتھا مضى إلى القاهرة ، وكانت قوص يومئذ من أكبر مراكز الثقافة في البلاد (١) ،
وفي قوص تثقف على أيدي علمائها ، ويظهر أن استعدادہ دفعه إلى أن يقبل على الأدب
وعلمه ، فمضى يقرأ ما أثر من متخير النصوص الأدبية ، ويدرس ما يعين على فهم هذه
النصوص ، وجد في دراسة الحديث ، وكان الحديث ولا يزال نموذجاً من نماذج
البلاغة العالية .

وقد ظهرت بعض آثار ثقافته في شعره ، فرأينا بعض المصطلحات الكلامية في شعره ،
حين يقول :

عطته لما رأيتك معرضاً عنه ، وما من مذهبي التعطيل

وبعض مصطلحات الحديث في قوله :

وهوى حفظ حديثه ، وكتمته فوجدت دمعى قد رواه مسلسلا

وبعض مصطلحات النحو ، حين يقول :

فمت كدأ يا حاسدى ، فأنا الذى له صلة بمن يحب وعائد

أو حين يقول :

أملى فيك دونه سيف لحظ ذاك مستقبل ، وهذاك ماض

كما تجد لغة الفقهاء في قوله :

فدعنى بما يقول الوشا ة فتلك الأقاويل فيها نظر

ونراه يقتبس من القرآن ، فيقول :

هذه قصتي ، وهذا حديثي ولك الأمر ، فاقض ما أنت قاض

ومن الشعر ، حين يقول مقتبساً من أبي نواس :

(١) راجع الحياة العقلية ص ٥٦ .

« بمن يشق الإنسان فيما ينوبه ،
لعمرك مطلوب يعز وقوعه
وقوله مقتبساً من المتنبي :

وقفت على ما جاءني من كتابكم
«وقوف شيخ ضاع في الترب خاتمه»
وكان لفنون البديع أثرها الواضح في شعره ، كما سنرى .

وكثيراً ما كان في شعره إشارات إلى حوادث تاريخية ، وشخصيات تاريخية كذلك ،
تدل على اطلاع واسع في التاريخ والأدب .

وقال زهير الشعر مبكراً ويحفظ ديوانه قصيدة قصيرة قالها يهنئ بها الملك المنصور على
ابن الملك العزيز بعيد النحر ، وقد ولي المنصور هذا عرش مصر سنة ٥٩٥ هـ ، فتكون سن
البهاء في ذلك الحين أربع عشرة سنة ، وفي هذه القصيدة تبدو تباشير المذهب ،
الذي سينهجه البهاء في الشعر ، من اتخاذة الآلة الدارجة ينبوعاً يستقى منها أساليب شعره ،
إذ يقول في تلك القصيدة :

يهنتك المملوك بالعرش ، والشهر	وبالعيد عيد النحر يا ملك العصر
وينهى إلى العلم الشريف بأنه	على قدم الإخلاص في السر والجهر
وهاأنذا أدعوك الله دائماً	مع الصلوات الخمس والشفع والوتر
ولاني لأرجو أن جودك شامل	قريباً على قدر اهتمامك لا قدرى
ولأنك إن أوليتني منك أنعماً	فإني ملئ بالدعاء وبالشكر
تشد بها أزرى ، تقوى بها يدي	تعز بها قدرى ، تزيد بها وفرى

ولعله أراد أن يعيش كما كان يعبش من سبقه من الشعراء : على جود الحكام ، يمدحهم ،
وينال رفدهم ، فرأيناه يطلب في صراحة من المنصور أن يشملته بجوده ، ويعمه بنعمه ،
ورأيناه يتصل بمجد الدين بن إسماعيل اللمكي حاكم قوص اتصالاً وثيقاً ، وكان أقدم شعر
أهداه إليه في سنة ٦٠٧ هـ ، حين هناء بولاية قوص ، وأعمالها ، وفيها يقول :

تمليته يالابس العز ملبساً	وهنئته يا غارس الجود مغرساً
قدمت قدوم الغيث للروض ، لأنها	به أشرفت حسناً وطابت تنفساً

به أضحت قوص إذا هي فاخرت أعز قبيل في الأنام وأنفسا
أمولاي لا زالت معاليك غضة وأغصانها ريانة منك ميسا
سما بك مجد الدين مجدا ومحتدا وعرضا نهاء الدين أن يتنفسا
لقد شرفت منه الصعيد ولاية فأصبح واديه به قد تقبسا

ومضى زهير يمدح هذا الوالى ، ويهنئه في المناسبات السعيدة ، ويستقبله إذا غاب ثم أب .
ولعل انتساب هذا الأمير إلى اليمن التى ينتسب إليها زهير ، قوت هذه الصلة بين الأمير
والشاعر ، وأوجدت مجالا لفخر الشاعر بهذه النسبة ، إذ يقول :

يعزى لقوم سادة يمنية أعلى الورى قدراً ، وأزكى محتدا

ويظهر أن الأمير أفاض على الشاعر خيره وبره ، وأن الشاعر أراد أن يستأثر بأكبر
نصيب من رفد الأمير وعطائه ، فضى يشكر نعم الأمير ، ويقرن ذلك بالشا . على شعره
وتمجيد بلاغته ، فتسمعه يقول :

بك اهتزلى غصن الأمانى مثمراً وراقت لى الدنيا ، وراق نضيرها
وما نالى من أنعم الله نعمته وإن عظمت إلا وأنت سفيرها
ولانى وإن كانت أياديك حمة لدى فإنى عبدها وشكورها

ثم يختم هذه القصيدة قائلاً :

نلذها كما تهوى المعالى فريدة تزف ، عليها درها وحريرها
وللناس أشعار تقال كثيرة ولكن شعرى فى الأمير أميرها

ويظهر أن الأمير اتخذ البهاء كاتباً لديه ، وكان البهاء من أتقن صناعة الإنشاء ، ويدلنا
شعره على أن الأمير صرفه عن الكتانة ، فتألم لذلك البهاء زهير ، وأرسل إلى الأمير قصائد
تفيض بمدحه ، والالم من الانفصال عن خدمته ، ويزين له أن يعيده إلى هذه الخدمة ،
ذاكراً مبررات عودته ، مبينا خسارة الأمير حين أعفاه من هذه الخدمة ، ملجأ إلى رغبته
فى الرحيل عن هذه المدينة ، إذ يقول :

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى إلى أى قوم بعدكم أتيتم
ولى فى بلاد الله مسرى ومسرح ولى من عطاء الله مغنى ومغرم
وأعلم أنى غالط فى فراقكم وأنكم فى ذاك مثلى ، وأعظم
ومثلك لا يأسى على فقد كاتب ولكنه يأسى عليك وينبدم
فمن ذا الذى تدنيه منك ، وتصطفى تقول ، فيدرى ، أو تشير ، فيفهم
وما كل أزهار الرياض أريجة وما كل أطيار الفلا تترنم

ووالى البهاء إرسال شعره إلى الأمير مادحا ، مستعطفا ، مجددا الولاء ، مسجلا الشكر ،
فأرسل إليه مرة يقول :

مولاي مجد الدين ، عطفا ، إن لى لمحبة فى مثلها لا يمترى
يامن عرفت الناس حين عرفته وجهلتهم لما نبا ، وتنكرا
خلق كماء المزن ، منك عهده ويعز عندى أن يقال : تغيرا
مولاي ، لم أهر جنابك عن قلى حاشاى من هذا الحديث المقتري
وكفرت بالرحمن إن كنت امرأ يرضى لما أوليته أن يكفرا
وأرسل إليه أخرى يستعطفه قائلا :

مولاي ، دعوة من أطلت جفاه وعلى جفائك إنه لوصول
أسنى على زمن لديك قطعته وكأنتى للفرقدين نزيل
زمن يقل له البكاء لفقه — ده ولو أن دمعى دجلة والنيل
وإذا انتسبت بخدمتى لك سابقا فكأنها لى معشروقيى — ل
روض جنيت الفضل منه يانعا وهجرته حتى علاه ذبول
أظلماته لما جفوت ، وطالما أسقته من نعمى يدىك سويل
وافاك إن أقصيت — متطفلا يا حبذا فى حبك التطفيل

والظاهر أنه ، برغم ذلك كله ، لم يعد الأمير إلى سابق عهده ، ولا يحدثنا التاريخ عن
أسباب هذا الجفاء الطارئ ، الذى لم تجد معه قوة المديح ، ولا رقة الاستعطاف ، ففكر البهاء
فى ترك قوص نهائيا ، ليتصل فى القاهرة بالأسرة المالكة ، وكان ، وهو بقوص ، يرسل

المدائح إلى أبنائها ، ولعله كان يغادر قوص في الحين بعد الحين ، ويتصل ببعض حكام هذه الأسرة ، ففي الديوان قصيدة مدح بها الملك العادل ، وأنشدها بقلعة دمشق ، سنة ٦١٢ هـ ، وهو في سن الشباب الناضج ، وفي هذه القصيدة يجرى على نهج أسلافه ، فبعد أن وصفه بقوة السلطان ، وكان العادل يومئذ أقوى ملك إسلامي في عصره ، تحدث عن جوده ، مثنياعليه ، مؤكداً أنه قد أصبح به في حصن حصين من صروف الزمان ، فيقول :

فيا ملك العصر الذى ليس غيره يرجى ، ويخشى عفوه وانتقامه
تقدم ذكر الجواد قبلك فى الورى وأصبح من ذكراك مسكا ختامه
أمنت بلقىاك الزمان صروفه فقيرى من يخشى عليه اهتضامه
وأصبحت من كل الخطوب مسلما عليك من الله الكريم سلامه

وهزت معركة دمياط التى انتهت بانتصار الكامل شاعرية البهاء ، فأنشأ قصيدة يمدح بها الكامل ، ويسجل هذه المعركة ، وما كان لها من أثر في نفوس المسلمين ، وكان للشعور الديني أثره في هذا المدح ، فنه اقتبست القصيدة كثيرا من أفكارها وأخيلتها ، ولاغربة أن تتخذ القصيدة الدين ينبوعا لها ، فالمناسبة التى بعثت على إنشائها مناسبة دينية قوية ، وقد جعلها البهاء خالصة للمدح ، ولم يشبها بطلب رفق أو عطاء .

كان الدين ينبوع البهاء عندما أنشأ هذه القصيدة ، فترى فيها الدين مهز العطف في حلل النصر ، وأيادى الممدوح تسعى فى الورى على قدم الخضر ، والمقطم ينافس فى القدر طور سيناء ، والكامل له فى الملاء الأعلى أطيب الذكر ، ومواقفه هى المواقف الغر فى موقف الحشر ، إلى غير ذلك من المعانى الدينية التى اقتبس منها تشبيهه فى قوله :

وليلة غزو للعدو كأنها بكثرة من أرديته ليلة النحر

إذ يشبه تلك الليلة التى كثر فيها تفتيله للعدو ، بليلة عيد النحر ، فى حين أنه لا يجمع بين الليلتين جامع سوى كثرة سيلان الدماء ، أما الشعور النفسى فلا يجمع بينهما ، وشتان بين ليلة يملأ الفرح فيها النفوس ، وتمتلئ القلوب بهجة ، مستقبلة أيام العيد ، وبين ليلة كان الذعر يملأ فيها النفوس ، خشية حلول كارثة تحقيق بالبلاد ، ويفقد فيها الوطن حريته ومجده ، ثم يمضى فى تلس شبه ديني فيعقد صلة بين هذه الليلة وليلة القدر ، إذ يقول :

فياليلة قد شرف الله قدرها ولا غرو إن سميتها ليلة القدر

وإذا كانت ليلة القدر تبدأ وضئئة ، بينا أسرها ، وتستقبل معروفا قدرها ، بين الأيام ،
يبتهل الناس فيها ، راجين تحقيق آمالهم ، بقلوب مطمئنة ، فإن ليلة القتال لم تستقبل بمثل
هذه الطمأنينة ، ولم يكن أمرها واضحا بين الناس ، ولا نتيجتها معروفة بينة ، ولكن زهيرا
بعد تبين نتيجة الليلة ، وما أعقبته من نصر ، عاد فشبهها بليلة القدر ، وهي لا تشبه ليلة
القدر إلا بعد أن انقضت ، وتبين أمر القتال فيها ، أما في أول أمرها فلا شبه بينهما .

وقد أجاد زهير عندما وصف ما أعده الكامل لهذه المعركة من عدة وعديد ، حين قال :

سددت سبيل البر والبحر عنهم	بسابحة دهم وسابحة ^(١) غر
أساطيل ليست في أساطير من مضى	بكل غراب ^(٢) راح أفتك من صقر
وجيش كثل الليل : هولا ، وهيبة	وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله	لآل زهير ، لا ، ولا لبنى بدر
وبانت جنود الله فوق ضوامر	بأوضحها تغنى السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه	وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر

ويظهر أنه كان يعود إلى قوص بعد رحلته ، ومنها كان يرسل إلى بعض أبناء الأسرة
الأيوبية بشعره ، وها هو ذا يرسل إلى الملك المسعود يوسف بن الكامل ، قصيدة يمدحه بها
لما قدم من اليمن سنة ٦٢١ هـ وفيها يقول :

إليك ولم تبعد على عاشق مصر	وواهاك مشتاقا لك المدح والشعر
إلى الملك المسعود ذى البأس والتدى	فأسيافه حمر ، وساحاته خضر
يراعى حتى الاسلام ، لازم الحى	ويحلولة ثغر المخافة ، لا الثغر
تكشفه من آل أيوب معشر	بهم نهض الاسلام ، واندفع الكفر
فيا صاحبي ، هب لى تحقك وقفة	يكون بها عندى لك الحمد والشكر
لدى ملك ، رحب الخليفة ، قاهر	فمجلسه الدنيا ، وخادمه الدهر

(١) يريد الخيل المباركة .

(٢) نوع من أنواع السفن في ذلك الحين .

وخذ جملا هذا الثناء ، لأننى
على أنى فى عصرى القائل الذى إذا قال بذ القائلين ولا فخر

ولعل زهيرا كان يطمع أن يكون شاعر الأمير ، ولعل الأمير وصله ، وشجعه تشجيعا
دفعه إلى أن يفكر فى مغادرة قوص نهائيا ، بعد أن لم يجده استعطاف حاكمها ، فولى زهير
وجهه شطر القاهرة ، وقد تم نضجه ، إذ كان فى الأربعين ، أو كان قد جاوزها ، وأغلب
الظن أنه أراد أن يصل حباله بالملك المسعود ، فأنشأ قصيدة طويلة يمدحه بها ، وفيها يقول :

لقد كنت أرجو أن أزورك فى الدجى وإنى على ما فاتنى منك ندمان
أعلل نفسى بالمواعيد والمنى وقد مر أزمان لذاك وأزمان
أرى أن عزى من سواك مذلة وأن حبائى من سواك لحرمان
وليس غريبا من إليه اغترابه له منه أهل حيث كان وأوطان
وقد قرب الله المسافة بيننا فها أنا يحوينى وإياه إيوان

ولكن يظهر أنه لم ينل ما كان يؤمل من الملك المسعود ، فاتصل بأخيه الملك الصالح
نجم الدين أيوب ، فمدحه بقصيدة طويلة ، يظهر منها أن الملك الصالح هو الذى رغب فى
عقد هذه الصلة ، وسعى إليها ، ورغب أن يفرده الشاعر بالمدح والثناء ، نلح ذلك فى قوله:

لييك ، يامن لامرد لأمره وإذا دعا العيوق لا يتعوق
لييك ياخير الملوك بأسرهم وأعز من تحدى إليه الأيتق
لييك ألقا ، أيها الملك الذى جمع الغلوب نواله ، المتفرق
أنا من دعوت وقد أجابك مسرعا هذا الثناء له ، وهذا المنطق

ولعل الشاعر رأى فى ذلك بارقة أمل فى أنه سيظفر بآماله ، وسينال على يدى الأمير
أمانيه ، نرى ذلك فى هتاف الشاعر قائلا :

ولقد سعت إلى العلاء بهمة تقضى لسعي أنه لا يخفق
وسريت فى ليل كأن نجومه من فرط غيرتها الى تحدى
حتى وصلت سرادق الملك الذى تقف الملوك ببابه تسترزق

وربما عزم على أن يقف شعره على هذا الممدوح الجديد ، ويربح نفسه من محاولة الاتصال بغيره ، ويلقى عنده عصا التسيار ، نحس ذلك في قوله :

يا من رفضت الناس حين لقيته حتى ظننت بأنهم لم يخلقوا
قيدت في مصر اليك ركائي غيرى يغرب تارة ويشرق
وتيقن الأقوام أنى بعدها أبدأ الى رتب العلا لا يسبق
فرزقت مالم يرزقوا ، ونطقت ما لم ينطقوا ، ولحقت مالم يلحقوا

ولعل مطامع الصالح من ناحية ، والتنافس بين الإخوة من ناحية ، هي التي هيأت للشاعر مكانة قوية لدى أميره ، وقد صدق ظنه هذه المرة ، فإن الملك الصالح أغدق على شاعره حبه وبره ، ولازم الشاعر أميره ، يسافر معه أنى اتجه ، ويقيم حيث يقيم ، وإن كان دائماً الحنين إلى مصر ، موصول القلب بهؤلاء الأصدقاء ، الذين خلفهم بها ، وكلما طالت الغربة اشتد حنينه إلى هذا الوطن ، وازداد شوقه . قال في صدر كتاب بعث به إلى أصحاب له بمصر ، وقد نزل بآمد :

كتبتها من آمد عن فرط شوق زائد
والله مذ فارقتكم لم تصف لي موارد
فهل زمانى بعدها بقربكم مساعدي
فكم نذور أصبحت على للساجد
وهبت باقى عمري لكم بيوم واحد

وينطق بألمه من طول اغترابه عن مصر قوله :

ليت شعرى ، ليت شعرى أى أرض هي قبرى
ضاع عمري في اغتراب ورحيل مستمر
ومتى يوم وفاى ليتنى لو كنت أدرى
ليس لي في كل أرض جثتها من مستقر
بعد هذا ليتنى أعرف ما آخر عمـى
ومتى أخلص بما أنا فيه ليت شعرى

ومما يدل على تلهفه على مصر ورؤية ما يتصل منها بسبب هذه الرسالة التي كتبها إلى صديق له من مصر ، بعث إليه برسالة ، إذ يقول زهير :

ضمنتها حمدا وشكرا وأنتك تطلب منك عذرا
لم أدر كيف أجيب ما حبرته نظما ونثرا
أبصرت وجهك ثم قلت لمقلتي أبصرت مصرا
أذكرتني زمنا مضى عى ، وعيشا كان نضرا

فإذا آل ملك دمشق إلى الملك الصالح أقام البهاء هناك في خدمته ، حتى إذا اضطربت الأمور على الملك الصالح ، وخرجت عليه دمشق ، وخانه عسكره ، وهو على نابلس ، فبض عليه ابن عمه الناصر داود صاحب الكرك ، واعتقله بقلعة الكرك ، فأقام بهاء الدين في نابلس ، مقيما على ود صاحبه ، لم يتغير عليه ، ولم يتصل بسواه ، فلما ابتسم الحظ مرة أخرى للملك الصالح ، وخرج من معتقله ، وصعد إلى عرش مصر ، صحبه البهاء زهير ، وكان ذلك في أواخر ذى القعدة ، سنة سبع وثلاثين وستمائة ، واشتدت صلة الشاعر بملكه ، وتمكن منه غاية التمكن ، وزاد قدره لديه ، حتى لا يطلع على سره الخفى سواه ، واتخذ كاتبا سره ، ورسوله في كبار المهام ، فقد سيره رسولا إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، يطلب منه إنفاذ الملك الصالح إسماعيل إليه ، فلم يجب إلى ذلك ، وقد عظم هذا الرد على الصالح أيوب .

وظل بهاء الدين في خدمة الملك الصالح . حتى كان المحرم سنة ٥٦٤٧ هـ ، وقد أقبلت جحافل الصليبيين تبغى الاستيلاء على مصر ، وأخذها ، فسار السلطان من دمشق محمولا في محفة ، حتى نزل بأشموم طنّاح ، معدا العدة للدفاع عن دمياط ، فلما وردت جيوش العدو في صفر أرسل ملكهم إلى السلطان كتابا كله تهديد ووعيد ، يقول فيه : « أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية .

وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، وتقتل الرجال وترمل النساء ، ونستأثر بالبنيات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وأنأقد أبديت لك الكفاية ، وبذلت لك النصيحة إلى الغاية

والنهاية ، فلو حلفت لى بكل الايمان ، وأدخلت على القسس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا إليك ، وقاتلك فى أعز البقاع عليك ، فإما أن تكون البلاد لى .
فياهدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلاد لك ، والغلبة على ، فإدك اليمنى ممتدة إلى ،
وقد عرفتك وعرفت ماقلت لك ، وحذرتك من عساكر ، حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء . .

فلما قرئ الكتاب على الملك الصالح ، وكان المرض قد اشتد به ، عظم وقعه عليه ، وكتب البهاء جواب رسالة الملك ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين أما بعد فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأيت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريدنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم . ولا بـ أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهتالك قسى الظنون .
(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ، فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، وتكون أيضا على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد حين » ، ونعود إلى قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » ، وقول الحكماء : « إن الباغى له مصرع ، وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يسلمك . والسلام . » . وتلك الرسالة هى الأثر النثرى الوحيد الذى بقى لنا من آثار البهاء كاتبها .

وبرغم هذه الصلة الوثيقة الطويلة ، وما كان للبهاء من مكانة قوية لدى صاحبه ، تغير الملك الصالح عليه ، قبل موته فى شعبان من تلك السنة ، بمديدة ييرة . وسبب هذا التغير أنه كتب عن الملك الصالح كتابا إلى الملك الناصر داود ، صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلم عليه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر : « انت تعرف قلة عقل ابن عمى ، وأنه يحب من يعظمه ويعطيه من يده ، فإكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » . وأرسل الكتاب إلى البهاء زهير ، فأعطى الكتاب لفخر الدين ابراهيم ابن لقمان ، وأمره بختمه ، فحتمه وجهره إلى الناصر على يد نجاب ، ولم يتأمله ، فسافر به

النجاب لوقته ، واستبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ، ليعلم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيراً بعد ذلك ، وقال له : ما وقفت على ما كتبه بخطى بين الأسطر ؟ فقال البهاء زهير : ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه ؟ وأخبره أنه سير الكتاب مع النجائب فقامت قيامة السلطان وسيروا في طلب النجائب ، فلم يدركوه ، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك ، فعظم عليه ، وتألّم له ، ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح وهو يعتب فيه العتب المؤلم ، ويقول له فيه : « والله ما بى ما يصدر منك فى حقى ، وإنما بى اطلاع كتابك على مثل هذا ، فعز ذلك على الملك الصالح ، وغضب على بهاء الدين زهير ، وبهاء الدين لكثرة مروءته نسب ذلك إلى نفسه ، ولم ينسبه لكاتب الكتاب ، وهو نحر الدين ابن لقمان ، وكان الملك الصالح شديد الغضب والمؤاخذه على الذنب الصغير ، لا يقبل عثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولعل ذلك هو السبب الذى جعل ديوان البهاء زهير يخلو من رثاء الملك الصالح بعد وفاته ، وبرغم صرفه عن ديوان الإنشاء كان كبار الدولة يعدونه من بين رجالاتها ، الذين يعتمد عليهم ، ويوثق بهم ، فكان أحد اثنين طلب منها نائب السلطنة بالفاخرة أن يحلفا الأعيان على الولاء للملك الصالح فى حياته ، ولابنه توران شاه بعد وفاته ، وكان ذلك بتدبير شجرة الدر ، التى خافت على عقد الملك أن يتبدد بعد وفاة الصالح ، فأخضت موته على ما هو مشهور فى التاريخ .

ولما قام الأمير نحر الدين بتدبير المملكة بعد وفاة الملك الصالح ، سنة ٦٤٧ هـ ، أعاد البهاء زهيراً إلى منصبه ، ولكن الأحداث السياسية أخذت تجرى فى سرعة ، يغاب على الظن أن البهاء أقصى فيها عن عمله مرة أخرى ، فضى إلى الشام حيث اتصل بصاحبه الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين ، ويظهر أن أولى قصائده فيه هى تلك التى أنشأها لما ملك الناصر دمشق سنة ٦٤٨ هـ ، ومطلعها :

لكن منى الود الذى ليس يبرح ولى فيكم الشوق الشديد المبرح

وأطال البهاء زهير فى الحديث عن كرم المدوح وجوده ، وأخذ يفضله حيناً على السحب ، وحيناً على من جعلهم التاريخ مثلاً فى الكرم ، ككعب ، وجاتم ، وربما كان فى قول زهير :

ولكن سلطانى أقل عبيده يتيه على كسرى الملوك ، ويدبح
وبعض عطاياه المدائن والقرى فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبح

كما كان قول المتنبي من قبله فى هذا المعنى بكافور - فيه إغراء للممدوح بأن يمنحه ولاية،
أو ينصبه على إمارة . ويبدو زهير مؤملاً شديد التفاؤل فى هذا العهد الجديد الذى يستقبله،
كما يبدو فيها أيضاً أنه قد قاسى صعاباً فى حياته وأن مشقات وخطوباً قد اعترضته فى تلك
الفترة الوجيزة ، قبل أن يتصل بممدوحه الجديد ، ترى ذلك فى قوله :

عرضت على خير الملوك بضاعتى فألفيت سوقاً صفقتى فيه تريح
وقد وثقت نفسى بأنى عنده سأزداد عزاً ما بقيت وأفلح
وأن خطوباً أشتكها ستنجلى وأن أموراً أبغها ستنجح
وأن صلاح الدين ذا المجد والعلا لما أفسدت منى الحوادث يصلح

وأخذ الشاعر يغرى الناصر بأن يقربه منه معتذراً إليه ، وربما كان مبعث هذا
الاعتذار سبق اتصاله بالصالح أيوب ، فإن الصلة بين الملكين لم تكن صافية من
الشوائب ، وكان من أهم وسائل إغرائه مامنحه البهاء من قدرة على إجادة بليغ القول ،
قال البهاء :

أمولاي ساعنى ، فإنك لم تزل تسامح بالذنب العظيم وتسمح
لى العذر ، ما للقول نحوك مرتقى مقامك أعلى من مقامى وأزج
أتتك ، وإن كانت كثيراً تأخرت فإنك تغفو عن كثير وتصفح
وهب لى أنيساً منك يذهب وحشتى ويبسط قلباً ذا انقباض ، ويشرح
وجد لى بالقرب الذى قد عهدته وأرضى ببعض منه إن كنت أصلح
ولانى لديك اليوم فى ألف نعمة ولكن عسى ذكرى ببالك يسبح
وقد يحسن الناس الكلام ولما كلامى هو الدر المنقى المنقح

وفى ديوان البهاء قصيدة مدح أخرى للملك الناصر ، يشكر فيها نعمه وأياديه ،
إذ يقول :

ثم التفت وجدت حول أنما ما كان أسرعها إلى وأعجلاً
وهصرت أغصان المطالب ميساً ومریت أخلاف المواهب حفلاً

ولسكن برغم هذا الثناء على الناصر بالجود أرجح أنه لم ينل عند هذا الممدوح
ما كان يؤمله من حياة رغدة سعيدة، بل رأيناه يتحدث عن شظف العيش، والهوان،
ويشكو إليه الفقر، ويطلب منه أن يعينه على حوادث الأيام، مصوراً له ما فيه أسرته
من البؤس والهوان، إذ يقول مؤكداً له ولاءه بأغظ الأيمان :

ووالله ما أحتاج أنى أحلف	ووالله ، إني في ولائك مخلص
فها أنا فيها مقدم متوقف	أجلك أن أنهى إليك شكيتى
لكنك عن الشكوى أصد، وأصرف	ولولا أمور ليس يحسن ذكرها
ترقى لى الدنيا بها ، وترخرف	تبشرنى الآمال منك بنظرة
يعوضه الإحسان منك ، ويخلف	إذا كنت فالمال أهون ذاهب
ولست لشيء غيرها أتأسف	ولا أبتغى إلا إقامة حرمتى
فها هى لاتنفو ، ولا تتلف	ونفسى بحمد الله نفس أيبة
ولا أحد غيرى بهم يتلطف	ولكن أطفالا صفاراً ونسوة
وقلبى لهم من رحمة يترجف	أغار اذا هب النسيم عليهم
وحزنى أن يبدو عليهم تقشف	سرورى أن يبدو عليهم تنعم
ووالله لاضاعوا ، ويوسف يوسف	ذخرت لهم لطف الإله ويوسفا
كأنى أدعوه لما ليس يالف	لكلفت شعرى حين أشكو مشقة
وان كنت منها دائماً أتأفف	شكوت وما الشكوى إليك مذلة
ورأيك يا مولاي أعلى وأشرف	إليك صلاح الدين أنهيت قصتى

ويظهر أنه آثر أن ينقطع فى داره بالقاهرة بعدئذ ، ويروى بعض مؤرخيه أن البؤس
قد ألم به فى آخر عمره ، حتى باع كتبه ، وما يملك ، ولعل أسرته الكبيرة ساعدت على
افتقاره وعدمه ، ولم يرو ابن خلكان الذى كان معاصراً له قصة هذا البؤس ، وهو
يروى تاريخ حياته .

وفى وباء عظيم حدث بمصر ، توفى البهاء زهير ، يوم الأحد ، رابع ذى القعدة ، سنة ست وخمسين وستمائة هجرية .

ويكاد مؤرخوه يجمعون على ما كان يتمتع به البهاء : من خلق كريم ، ونبل مروءة ، قال ابن خلكان : « كنت أود لو اجتمعت به ، لما كانت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به ، ورأيت فوق ما سمعت عنه : من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودماثة السجايا ، وكان متمكنا من صاحبه ، كبير القدر عنده . . . ومع هذا كله فإنه كان لا يتوسط عنده إلا بالخير ، ونفع خلقا كثيرا ، بحسن وساطته ، وجميل سفارته ، فلا جرم كان بمدوحاً يثني عليه صحبه ، ومن اتصل بهم ، ويمدحونه بشعرهم ، مدحه ابن الخلاوى بتقصيدة طويلة ، كان من جملتها قوله :

تجيزها ، وتجيز الملاحين بها فقل لنا : أزهير أنت أم هرم
وكتب إليه ابن مطروح يقول له :

أقول وقد تتابع منك بر وجود ، ما برحت اكل خير :
ألا لا تذكروا هرما بجدود فما هرم بأكرم من زهير

وقد ألقى الشاعر على شعره ظلا من أخلاقه ، فرأيناه يبتهج إذا أدى عملا لبعض صحبه ، ويقول له :

وما زلت مذوا في كتابك واقفا على قدم حتى قضيت مراسمك
ويا شرفى ، إن كنت أهلا لحاجة تشير بها ، أو كنت أصلح خادمك

وبدأيناه يؤكد عنايته بما يوكل إليه من أمور راجيه ، واهتمامه بأن ينفذ بالفعل ما وعد به إذا يقول :

كذلك تلقانى إذا ما اخترتني يسر حفاظى صاحبي وقريبنى
إذا قلت قولا كنت للقول فاعلا وكان حيانى كافلى وضمينى
تبشر عني بالوفاء بشاشتى وينطق نور الصدق فوق جبينى
ويقول :

ويارب داع قند دعانى لحاجة فعلت له فوق الذى كان أملا

صقلت صداه باهتمامى بكلفة	أراد ، ولم أحوجه أن يتميلا
وأوسعته لما أتانى بشاشة	ولطفاً ، وترحيباً ، وخلقاً ، ومنزلاً
بسطت له وجهها حفياً ، ومنطقاً	وفياً ، ومعرفاً هنياً معجلاً
وراح يرانى منعماً متفضلاً	ورحت أراه المنعم المتفضلاً

وينضح شعره بأنه كان ألوفاً ، يحب الناس ، ويكلف نفسه لين الجانب ، ومراعاة ما اعتاده الناس وما ألفوه ، لا يشذ عنه ، ولا يخرج على قواعده :

وللناس عادات ، وقد أولفوا بها	لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم	فذاك ثقیل بينهم وبغيض

ولهذا كان البهائم يكره أن يكون ثقيلاً ، يخرج على مألوف الناس ، ويثقل على صاحبه :

والله لولا خيفة الثقیل	زرتك فى الضحا وفى الاصيل
وبين ذاك ساعة المقيـل	وكنت قد ضجرت من تطفيل
لكن أرى التخفيف عن خليل	ولست فى العشرة بالثقیل

ولهذا أيضاً كثر فى شعره هجاء الثقلاء ، وهذه الكثرة فى هجائهم تدل على إحساس مرهف وشعور دقيق بأصول اللياقة ، وجيل العشرة ، يبغض فى الثقیل جهله معنى ما يقول ، وفضول كلامه ، وتفاهة معناه ، فلا غرابة إذا قال فيه :

وجملة الأمر ولا أطيل هو الرصاص : بارد ، ثقیل

ويكره من الثقیل إطالته للعبادة ، وغباوته حين لا يفهم بالإشارة ، ولا الصراحة . أنه غير مرغوب فى بقائه ، فيراه جالِباً لثقل المريض ، ويجأر بالشكوى منه قائلاً :

وعائد هو سقم	لكل جسم صحيح
لا بالإشارة يدري	ولا الكلام الصريح
وليس يخرج حتى	تكاد تخرج روحى

ويشتد فى طلب البعد عن الثقیل والدعاء عليه ، فيقول :

بحق الله متعنى من وجهك بالبعد
فا أشوقنى منك إلى الهجران والصـ
فا تصلح للهـزل ولا تصلح للجـيد
وماذا فيك من ثقل وماذا فيك من برد
فلا صبحت بالخـير ولا مسيت بالسعد

وإلى جانب حبه لأن يكون مع الناس خفيف الظل ، رقيق المعاملة ، كان يحب الأانس
بأصدقائه ، ومشاركتهم له ، فيما يناله من متع الحياة ، ولهذا أكثر في شعره دعوة أصدقائه
إلى مجلس تزهو فيه الطبيعة بجمالها ، أو إلى أن يشاركوه لذة السماع ، أو الشراب ، أو الطعام ،
ومن أرق هذه الدعوات أو أشدها دلالة قوله :

يومنا يوم مطير ولنا كأس يدور
ومقام تحسب الأار ض بنا فيه تسير
أخذت منا عقار أخذت منها الدهور
لطفت بالذن حتى قيل : سر وضمير
فنتيت إلا بسير كلها ذاك اليسير
وهى فى الأجساد تار وهى فى الكاسات نور
ومن الريحان والأزهار غضى ونضير
وندامى بهم العيش كما قيل قصير
وسقاة مثل ما تهوى شمس وبدور
ومغن هو فيما يحسب الناس أمير
ماله فيما يدانيه من الظرف نظير
وهو إن شئت غنى وهو إن شئت فقير
وإذا غنى تموج الأار ض منه وتمور
ويغيب القوم فى المجلس والقوم حضور
ولنا طاه لطيف وظريف وخبير
وقدور هدرت ، فهى على البحر تفور

مجلس إن زرتنا في هـ ، وقد تم السرور
كل ما تطلبه في هـ ، مليح وكثير

ومن أكبر الأصدقاء الذين اتصل بهم البهاء الشاعر المعروف ابن مطروح ،
نشأت الصداقة بينهما عند ما كانا يدرسان العلم في قوص ، وقد توطدت بينهما هذه الصلة
حتى صارا كالأخوين ، ليس بينهما فرق في أمور الدنيا ، واتصلا بخدمة الملك الصالح ، وهما
على تلك المودة ، ولم يكن الصالح قد تولى الملك يوم اتصلا به ، واستمر في خدمته ، بعد أن
تولى الملك ، وحفظ شعرهما صورة لهذا الود المكين ، كتب إليه جمال الدين بن مطروح
كتابا ، يذكر له فيه أنه مريض ، فكتب إليه البهاء :

أيا من جاءني منه	كتاب يشتكى الوصبا
بعيد عنك ما تشكو	وبالواشين والرقبا
لقد ضاعفت يا روي	لروحي الهم والنصبا
وقلت : لعله ألم	يكون له الهوى سببا
ورحت أظنه قولا	يعابثني به لعبا
فليت الله يجعله	وحاشا سيدى - كذبا

فأجابه ابن مطروح بقوله :

أيا من راح عن حالى	يسائل مشفقا حديبا
ومن أضحى أخا لي في السوداد	وفي الحنو أبا
وحقك لو نظرت إلى	كنت تشاهد العجبا
جفون تشتكى غرقا	وقلب يشتكى لهما
وجسم جالت الأسقام	فيه ، فراح منتها
تسائل أعين الواشين	عني أعين الرقبا
فتذكر أنها لمحت	خيالا في خلالهما
فبالود الذى أمسى	وأصبح بيننا نسا
إذا ما مت فاندبني	قرب أخ أخا ندبا

وقل : مات الغريب ، فأين من يبكى على الغربا
قضى أسفا كما شاء الغرام وما قضى أربا

ويصوره لنا شعره واداً لأصدقائه ، وفيألهم ، يشاق إليهم إذا بعدوا عنه ،
ويفرح بكتبهم إذا وردت إليه ، إننا لنلس في زوايا قلبه حنيناً إلى ما سكن فيه من بلاد ،
وما أقام فيه من أوطان . وقد أشاد البهاء بهذا الخلق في قوله :

ومن خلق أنى ألوف ، وأنه يطول التفانى للذين أفارق
وأقسم ما فارقت في الأرض منزلاً ويذكر إلا والدموع سوابق

فهو يشاق إلى المسكان وسكانه . يطول التفاته إليهما ، إذا غاب عنهما وقد رأياه فيما
مضى يشاق إلى الحجاز ، وما هوذا يحيى عهده بالصعيد ، ويستروح إلى ذكرياته فيه ،
إذ يقول :

ويرتاح قلبي للصعيد وأهله وعيش مضى لي عندكم ومقام
وأهوى ورود النيل من أجل أنه يمر على قوم على كرام
أما حنينه عنه إلى مصر إذا غاب عنها ، وشوقه إليها وإلى أصدقائه فيها ، فقد عبر عنه
بشعر رقيق تبدو عليه مسحة الصدق ، وتلمح فيه صدق العاطفة وقوة جياتها ، فتسمعه يقول :

فرعى الله عهد مصر ، وحيا ما مضى لي بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدني من الحديث عن النيل ودعني من دجلة والفرات
وليالى بالجزيرة ، والجزيرة ، فيما اشتيت من لذات
بين روض حكى زهور الطواويس وجو حكى بطون السبابة
حيث مجرى الخليج كالخيمة الرقطاء بين الرياض والجنات
يا زماني الذي مضى يا زماني لك منى قوادر الزفرات

ويقول :

ولم أر مصراً مثل مصر تروقي ولا مثل ما فيها من العيش والخفض

ويقول :

سقى واديا بين العريش وبرقة من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عني إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد إذا ماجتها جنت جنة لعينك منها كلما شئت رضوان
تمثل لي الأشواق أن تراها وحصاءها مسك يفوح وعقيان
فياسا كني مصر تراكم علم بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
وما في فؤادى موضع لسواكم ومن أين فيه ، وهو بالشوق ملان
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا فتهدأ أحشاء ، وترقا أجفان
على بذاك اليوم صوم نذرته وعندى على رأى التصوف شكران

ويقول :

حبذا دار على النيل وكاسات تدور
ومسرات تموج الأرزض منها وتمور
وقصور مالعيش نلتها فيها قصور
كم بها قد مرلى أستغفر الله سرور
كل عيش غير ذاك العيش فى العالم زور
منزل ليس على الأرزض له عندى نظير

والحق أن هتاف البهاء زهير بوطنه وأصدقائه يرجح ما وصفناه به من الوفاء والود ،
للوطن والصديق .

شعر البهاء عليه مسحة من التفاؤل ، فهو قليل الغضب على الحياة والدهر ، يستقبل
صروف الأيام استقبال الوائق من انقضائها ، بل يرى أن نعم الحياة أكثر من شدائدها :

لا تحب الدهر فى خطب زماك به إن استرد فقدما طالما وهبا
حاسب زمانك فى حالى تصرفه تجده أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة فلا ترى راحة تبقى ولا تعبنا

ورأس مالك ، وهى الروح قد سلبت لا تأسفن لشيء بعدها ذهباً
ما كنت أول مفدوح بحادثة كذا مضى الدهر ، لا بدعاً ولا عجباً
ورب مال نما من بعد مرزئة أما ترى الشمع بعد القط ملتبها
ويقول :

أيها الحامل هما إن هذا لا يدوم
مثل ما تفنى المسرات كذا تفنى الهموم
إن قسا الدهر فإن الله بالناس رحيم
أو ترى الخطب عظيماً فلك الأجر العظيم

بل إنك تراه ، وهو نائر على حظه ، ناظم على نصيبه ، متفائلاً مؤمناً بأن سوف ينال
آماله ، مادامت له همة عالية ، ونفس طموح ، نحس بذلك فى قوله :

إلى كم مقامى فى بلاد معاشر تساوى بها آسادها وكلابها
وقلدها الدر الثمين وإنه لعمر ك شيء أنكرته رقابها
وما ضاقت الدنيا على ذى مروءة ولا هو مسدود عليه رحابها
فقد بشرتنى بالسعادة همتى وجاء من العلياء نحوى كتابها

ولهذا قلت الشكوى فى شعر البهاء ، ورآها البهاء غريبة عليه ، وعلى شعره حين اضطر
إليها ، ودفعته إلى قولها قسوة الزمان ، كما سبق أن رأينا عندما شكاه إلى الناصري يوسف.
والواقع أن شعر البهاء يصوره لنا مبتسماً للحياة ، مقتبطاً بها ، بل يرسمه لنا رجلاً مثله
الأعلى أن يظهر من الحياة بأوفى نصيب من المتع واللذائذ ، فلم يكن البهاء من المتزمتين ، ولا
من أولئك الذين يذهبون مذهب التقشف والزهد . أما مذهبه فقد أفصح عنه فى قوله :

وعاذلة بامت تلوم على الهوى وبالنسك فى شرح الشباب تشير
أتنى وقالت : يازهير ، أصبوة وانت حقيق بالعفاف جدير
فقلت : دعينى ، أغتنمها مرة فما كل وقت يستقيم سرور
دعيني واللذات فى زمن الصبا فإن لآمنى الأقاوم قيل : صغير
وعيشك ، هذا وقت لهوى وصبوة ، وغصنى ، كما قد تعلين ، نصير

يوله عقلى قامه ورشاقة ويخلب قلبي أعين وثغور

ولهذا كثر في شعره وصف مجالس المتعة ، ودعوة صحبه إلى مشاركته في هذه المجالس ،
ومن تلك المجالس الحبيبة إليه والتي وصفها ذلك المجلس الذى يقول فيه :

خذ فارغا ، وهاته ملانا	من قهوة قد عتقت أزمانا
ذخيرة الراهب ، كى يجعلها	إذا أتت أعياده قربانا
مدامة ما ذكرت أوصافها	إلا اثنى سامعها سكرانا
تكاد من لآلائها إذا بدت	تهدى إلى مكانها العميانا
كالنار، إلا أنها ما أوقدت	في الكأس إلا أطفأت نيرانا
ما الملك الأعظم فى سلطانه	إلا الذى أضحى بها سلطانا
كم رفعت متضعا ، وكرمت	مبخلا ، وشجعت جبانا
يت أعاطيها فتاة جمعت	لماشقيها الحسن والاجسانا
مخضوبة البنان فى يمينها	كأس مدام تخضب البنانا
ولى نديم ماجد ما أرتضى	عنه بدىلا كائنا من كانا
حلوا الأحاديث ، وإن غناك لم	تجده فى ألحانه لحانا
لا يعرف الهم فتى يعرفه	ولا ترى نديمه تدمانا

وربما أعنى رمضان من هذه المجالس المليئة بأنواع اللذائذ من خمر وساق وغناء :

وإن عشنا لشوال أعدنا ذلك العهدا

وكان البهاء فى مذهبه هذا يعتمد على أن يجد فى عفو الله ما يستر خطيئته، ويفقر ذنبه :

أروح ولى فى نشوة الحب هزة	ولست أبالى أن يقال : طروب
محب ، خليع ، عاشق ، متبهك	يلذ لقلبي كل ذا ، ويطيب
خلعت عذارى بل ، لبست خلاعتى	وصرحت ، حتى لا يقال : مريب
وفى لى من أهوى ، وأنعم بالرضا	يموت بغيظ عاذل ورقيب
فلا عيش إلا أن تدور مدامة	ولا أنس إلا أن يزور حبيب

وإني ليدعوني الهوى فأجيبه وإني لثبني التقى فأنيب
رجوت كريما قد وثقت بصنعه وما كان من يرجو الكريم يخيب
فيا من يحب العفو ، إني مذنب ولا عفو إلا أن تكون ذنوب

ولحبه للمتعة ولذائد الحياة ، وأبناء يصف الأماكن الطبيعية لهذه الجلسات السارة الممتعة .

ولم يكن هذا المذهب بجاعل البهاء يستسلم للمتعة ، لا يفكر في غيرها من شئون الحياة ،
بل كان الطموح يمثلا نفسه ، والهمة العالية تدفعه إلى أن يتقن عمله ، كاتبا وشاعرا ، حتى
يصل إلى أسنى مناصب الدولة . وقد استطاع أن يصل إليها بجده ، وعمله ، فقد بلغ رتبة
تنافس الوزارة في جاهها ، أو تزيد عليها ، وهي رياسته لديوان الانشاء .

ومن الغريب أنه لم يبق لنا مما كتبه في ذلك العهد سوى هذه الرسالة التي كتبها ، ردا
على رسالة ملك فرنسا ، عندما هاجم دمياط ، وقد أوردناها فيما مضى ، وإذا اتخذنا هذه
الرسالة نموذجا لكتابه رأينا البهاء يميل في ثره ، كما كان يميل في شعره ، إلى الوضوح ،
والسهولة ، وإلى ترك قلبه يجرى على سجيته ، لا يخضعه لمحسن لفظي ، ولا إلى زينة بديعية ،
وإذا كان السجع قد جرى على لسانه فإنه لم يكن مغتصبا فسرا ، كما نرى فيها اقتباسا من
القرآن ، وكان البهاء كذلك يقتبس منه في شعره .

وشعر البهاء قد تناول ما تناوله شعراء العربية من فنون الشعر : كالمديح ، والرثاء ،
والهجاء ، والعتاب ، والغزل ، والوصف ، والخمرات ، والفخر .

وقد تحدثنا عن أهم الشخصيات التي مدحها البهاء ، وهو في مدحه ينهج نهج سلفه من
الشعراء ، في معانيهم ، وأساليبهم ، فيختار ما سبقه الشعراء إليه : من مدح بالكرم ،
والشجاعة ، وأصالة الرأي ، وشرف الحسب ، واضعا ذلك في أساليب الشعر لعصور العربية
الراقية ، مستخدما ما استطاع من الزخارف ، والمحسنات ، وقد أمينا بأمثلة لذلك فيما مضى ،
ونورد هنا قوله مادحا :

صفحا لهذا الدهر عن هفواته إذ كان هذا اليوم من حسناته
يوم يسطر في الكتاب مكانه كـ كان باسم الله في ختماته

يامعجز الأيام قرع صفاته وبجمل الدنيا بحسن صفاته
 قوم هم في البید خير سراتها حسبا ، وهم في الدهر خير سراته
 شرف الزمان بكل تدب منهم متيقظ وهب العلا غفلاته
 يامنسك المعروف ، أحرم منطق - زمنا ، وقد لبك من ميقاته
 هذا زهيرك ، لا زهير مزينة وافاك ، لا هرما على علاته
 دعه وحولياته ، ثم استمع لزهير عصرك حسن ليلياته
 لو أنشدت في آل جفنة أضربوا عن ذكر حسان وعن جفناته
 ويبدأ مدحه كسابقيه بالغزل حيناً ، وبدون تمهيد بغزل حيناً آخر .

أما رثاؤه فقليل ، وهو حيناً دمة يذرقها على قبر عزيز ، واره التراب وخلفه وحده ،
 إذ يقول :

أمسيت في قعر لحد ورحت منك بوحدى
 وعشت بعدك يامن وددت لو عشت بعدى

وحيناً رثاء لعزیز عليه ، أثير لديه ، وهو حينئذ يضمنى على الرثاء روح الغزل ، فتجد ،
 أشبه ما يكون بشكوى الهجر ، وألم البعد ، فهو غزل باك ، كقوله :

أراك هجرتني هجرا طويلا وما عودتني من قبل ذاكا
 عهدتك لاتطبق الصبر غنى ولعصى في ودادى من نهاكا
 فكيف تغيرت تلك السجايا ومن هذا الذى غنى ثناكا
 فلا والله ما حاولت غدرا فكل الناس يغدر ما خلاكا
 وما فارقتني طوعا ، ولكن دهاك من المنية مدهاكا
 فيسا من غاب غنى وهو روحى وكيف أطيق من روحى انفكاكا
 لقد حكمت بفرقتنا الليالى ولم يك عن رضاي ولا رضاكا

على أن له رثاء نهج فيه نهج السالفين ، في المعاني ، والأساليب ، كهذه القصيدة التي رثى
 بها صديقه والى الإسكندرية التي بدأها بقوله :

عليك سلام الله ، يا قبر عثمان وحياك غنى كل روح وريحان
ومازال منهلًا على تربك الحيا يغاديك منه كل أوطف هتان
لقد خنته في الود إذ عشت بعده وما كنت في ود الصديق بخوان
وعهدى بصبرى في الخطوب يطيعنى فإلى أراه اليوم أظهر عصيانى
فيا ثاوىيا قد طيب الله ذكره فأضحى وطيب الذكر عمر له ثانى
وجدت الذى أسلاك غنى وإنه وحقك ما حدثت نفسى بسلوان
وعوضت عن دار بأكناف جنة وعوضت عن أهل بحور وولدان

وما يسترعى النظر فى هذه القصيدة أنه جعل ابتسام المرنى فضيلة تذكر له بالثناء بعد وفاته ، مما يدل على أن البهاء كان يقدر هذه الصفة حق قدرها ، ومما يؤكد لنا ما وصفنا به البهاء من أنه رجل يبتسم للحياة ويتفأل أنه قال فى تلك القصيدة :

كريم المحيا ، باسم ، متهلل متى جئته لم تلقه غير جذلان
بل إن صفة الابتسام ، والنظرة الفرحة إلى الحياء ، هى التى جعلت البهاء قليل الرثاء ،
بل جعلته يستسلم إلى القدر ، واجدا فى ذلك طبيعة الحياة التى لا يجدى معها حزن ، ولا
ينفع بكاء :

كذلك مازال الزمان وأهله فمن قبلنا كم قد تفرق إلفان
وما الناس إلا راحل بعد راحل إلى العالم الباقي من العالم الفانى
أما هجاء البهاء ، فعقصره أحيانا ، من أرق ألوان شعره وكان لاستعماله اللغة الدارجة
بعد تعريبها ، واتجاهه التهكمى ، أثر فى هذه الرقة المؤثرة فى النفس ، ومن أكبر الصفات
التي كانت تثير البهاء إلى الهجاء ما يشعر به فى بعض الناس من ثقل ، وقد أشرنا إلى ذلك
فيما مضى ، ومن ضعف عقل يتهم بصاحبه قائلا :

ما العقل إلا زينة سبحان من أخلاك منه
قسمت على الناس العقول ل وكان أمرا غبت عنه
ويهبو متهمًا بطائفة أخرى ، بلى بها ، بعضها منافق ، والبعض غبي مدع ، فيقول :

أرى قوماً بليت بهم نصلي منهم نصي
فمنهم من يناقني فيحلف لي ويكذب بي
ويلزمني بتصديق الذي قد قال من كذب
وذو عجب إذا حدثت عنه جئت بالعجب
وما يدري بحمد الله ماشعبان من رجب
وما أبصرت أحق منه في عجم ولا عرب
وأحق قد شجيت به بلا عقل ولا أدب
فلا ينفك يتبعني وإن أمعت في الحرب
كأنى قد قتلت له قتيلاً وهو في طلبى

وأثارته لحية على رجل أحق ، فضى يصفها متهاكاً بها وبصاحبها ، إذ قال :

وأحق ذى لحية	كبيرة منتشرة
طلبت فيها وجهه	بشدة ، فلم أراه
ثور غدا أعجوبة	بلحية مدورة
تبا لها من لحية	كبيرة محتقرة
عظيمة لكنها	ليست تساوى بعره
كم قرية للنمل في	حافاتها ومقبرة
يقسم عشر عشرها	يكفى رجالاً عشوه
يحسدها الخنزير إن	أبصرها منتشرة
ويشهى لو أنه	يملك منها شعره
قد نبتت في وجهه	فوق عظام نخرة
باردة ثقيلة	مظلمة منكدره
ما كان قط رها	من الكرام البره
قد تركت حاملها	منها بحال منكرة
إذا خطت أقدامه	كانت بها معشرة
وإن مشى رأيت فوق	الأرض منها غبره

مضحكة ما كان قط مثلها لمسخرة

وغاظه تصابي امرأة أدبر عنها الشباب ، فقال يهجوها :

كم ذا التصاغر والتصابي	غالطت نفسك في الحساب
لم يبق فيك بقية	إلا التعلل بالخضاب
لا أقتضيك مودة	رفع الخراج عن الخراب
ما العيش إلا في الشباب	وفي معاشره الشباب
ولقد رأيتك في النقا	ب وذاك عنوان الكتاب
وسألت عما تحته	قالوا : عظام إني جراب
وسمعت عنك فضائحا	سارت بها أيدي الركاب
هذا وكم من وقفة	لك في الأزقة للعتاب
واليوم قالوا : حرة	ست الحرائر في الحجاب
وأردت أنطق بالجو	ب فلم يكن وقت الجواب
يا هذه ذهب الصبا	فإلى متى هذا التصابي
ما هذه شيم الحرا	تر لا ولا شيم القحاب
فإذا عددتك في الكلا	ب حططت من قدير الكلاب

وكان أكثر عتاب البهاء غزلا سوف تتحدث عنه ، وله فضلا عن ذلك عتاب قليل لأصدقائه ،
وحيث أنه يرتفع بأسلوبه إلى مستوى أساليب الشعر القوية الرصينة ، كهذه القصيدة التي كتبها
إلى قاضي داريا ، يشكو إليه سوء بعض غلبائه ، وفيها يقول :

فعلى ألقى دون بابك جفوة لغيرك تعزى ، لا إليك ، وتنسب
أرد برد الباب ، إن جئت زائرا فيأليت شعري أين أهل ومرحب

أما غزل البهاء فأكثر شعره ، وبه شهر ، وهو الذي كان أكثر شيوعا على ألسنة
الناس ، وقد اقتدى في منهجه الذي سلكه بشعر الحاجري والتلعفري ، فقد نهجا من قبله هذا
النهج ، وما يدلنا على ذلك ، ويرجح عندنا إعجابه بالشاعرين مارواه صاحب خزنة الأدب .

من أن على بن سعيد الأندلسي عند ما ورد إلى مصر اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير ،
ورغب أن يسلك مسلكه في الغزل ، فسأله أن يرشده إلى الطريق فقال له البهاء : ظالم
ديوان الحاجري ، والتلعفري ، وأكثر المطالعة فيهما ، وراجعني بعد ذلك . فغاب عنه مدة
وأكثر من مطالعة الديوانين إلى أن حفظ غالبهما ، ثم اجتمع به بعد ذلك ، وتذاكرا في
الغراميات ، فأنشده الصاحب بهاء الدين زهير في غضون المحاضرة : يا بان وادى الأجرع .
وقال : أشتى أن تمكلى هذا المطلع ففكر قليلا وقال : سقيت غيث الأدمع ، فقال : والله
حسن ، لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : هل ملت من طرب معى ^(١)

آثر البهاء في غزله أن يستخدم لغة البيت والشارع ، بعد أن جعلها خاضعة لقواعد
النحو ، ورأى ذلك أسهل طريق للتعبير به عن عواطف الحب ، يصور مشاعره بها ، وينقل
هذه المشاعر إلى الخبيب الحقيقي أو المتخيل ، ليستطيع الخبيب في سر أن يدرك قرارة قلبه .

والم البهاء في غزله بكثير من العواطف التي تلم بالحب ، ومن هنا كانت سيورة شعره
على الألسنة ، وليس يعننى كثيرا أن يكون البهاء قد عشق ، أو لم يعشق ، فليست أطالب
الأديب بأن تمر التجربة الشعرية بنفسه حقيقة ، بل قد يتخيل التجربة ، ويصفها ، وكل
ما أعنى به في الشاعر هو قدرته على وصف التجربة الحقيقية أو المتخيلة ، وصدقته الشعورية
في هذه التجربة ، بمعنى أنه لا يتخيل تجربة كاذبة لا تمر بالشعور .

وقبل الحديث عن عواطف الحب التي وصفها زهير ، أريد أن أشير إلى رأى البهاء في
الحب ، فهو يراه فضيلة في الإنسان ، يرقق من خلقه ، ويكسبه كثيرا من الآداب ، كى يرتفع
في عين من يحبه ويعظم :

لحى الله قلبابات خلوا من الهوى	وعينا على ذكر الهوى ليس تذرف
وإنى لأهوى كل من قيل : عاشق	ويزداد فى عيني جلا لا ويشرف
وما العشق فى الإنسان إلا فضيلة	تدمت من أخلاقه وتظرف

(١) لعل وجهة نظر البهاء أن اختيار كلمة (البان) وهو غصن قوم يضرب به المثل في
الرشاقة ، وتداعبه الرياح ، وتعمل به ، يناسب أن يذكره العاصر مقترنا بالميلان القى يعجب به الماشق
من غصن رشيق ، ولولا ذلك ما كان لاختيار (البان) فائدة ، وكان الأولى أن يقال (باثبت ...) مثلا .

يعظم من يهوى ويطلب قريبه فتكثر آداب له وتلطف
بل يرى العاشق الانسان المثالى :

لام فى الحب أناس وهو أخلاق الكرام
مارأى الناس سوى العشاق من كل الأنام

ويصرح بأثر الحب فى دفع المحب إلى المجد فى قوله :

جزى الله عنى الحب خيرا فإنه به ازداد مجدى فى الأنام وعلياى
وصير لى ذكرا جميلا ، لأننى أحسن أفعالى لتسمع أسمائى

تحدث البهاء عن انفعالات الحب فى حالى الرضا والسخط ، والقرب والبعد ، فهو فى
حال الرضا فرح بالحبيب ، طرب بزيارته ، تملؤه الغبطة بهذه الزيارة ، ويسجلها قائلا:

وزائرة زارت وقد هجم الدجى	وكنت لميعاد لها مترقبا
فما راعنى إلا رخيم كلامها	تقول : حبيبى ، قلت : أهلا ومرحبا
فقبلت أقداما لغيرى مامشت	ووجهها مصونا عن سوى محببا
ولم ترعنى ليلة مثل ليلتى	فيا سهرى فيها ، لقد كنت طيبا
سأشكر كل الشكر إحسان محسن	تحيل ، حتى زارنى ، وتسببا
حبيب لأجلى قد تعنى ، وزارنى	وما قيمتى حتى مشى وتعذبا

ويصور منظرا سارا بينه وبين من يهوى : فقد مضى الحبيب يعدو فى رشاقة ولين ،
ومضى المحب يعدو خلفه ، حتى استطاع أن يصل إليه ، وقد أثار هذا العدو عواطف
راقدة ، تمنى الشاعر أن يحققها إذ قال :

لو ترانى وحيبى عندما
ومضى يعدو ، وأعدو خلفه
فر مثل الظبى من بين يدى
وترانا قد طوينا الأرض طى

قال :

ما ترجع عنى ؟ قلت : لا قال : ما تطلب منى ؟ قلت شى

فانشى يحمر منى خجلا وثناه التيه عنى لا إلى
كدت بين الناس أن أئمه آه لو أفعل ، ما كان على ؟
فإذا رآه مرتين فى يوم سجل سعادة هذا اليوم قائلا :

إن ذا يوم سعيد بك يا قرة عيني
 حيث أبصرتك فيه يا حبيبي مرتين
 ولا يخشى الرقيب إذا كان الحبيب راضيا ، فقلعيون لغة يتفاهمان بها :

أنا لا أبالي بالرقيب ولا بمظهره القبيح
غمز الحواجب بيننا أحلى من القول الصريح

وأكثر البهاء مجيدا في وصف رسول الحبيب ، يصف مادار بينه وبين هذا الرسول ،
فيقول :

جاء الرسول مبشراً منها بيمعاد الزيارة
أهدى إلى سلامها وأتى بخاتمها إمامة
وأشار عن بعض الحديقـــــــــــــــــــــــة وحبذا تلك الإشارة
إن صح ما قال الرســـــــــــــــــــــول وهبته روحى بشاره

كما يصور لنا البهاء نفسه معشوقا يرد إليه رسول الحبيب ، مذكرا له بالعهد القديم ،
معتذرا عن إخلاله باللقاء ، بما في الدهر من شغل :

شغل الدهر عن لقاء حبيب هات قل لى : متى ؟ وكيف ؟ واين
وأجاد البهاء فى وصف الحيرة التى تنتاب المحب إذا أراد أن يرسل رسالة إلى حبيبه ،
فلا يدرى ما يشرح من عواطفه ، وما يختصر من وصف هذه العواطف ، فيرى الكتاب
عاجزا عن أن ينفى بالشرح والتفسير ، فيشكو قائلا :

ما احتیالی فی کتاب ضاق عما فی ضمیری
حرّت ما أعرف ما أشـرح فیہ ما أمـوری

كاد أن يحترق القرطاس من نار زفيرى
ليس يشنى ما بقلبي منكم غير حـضـور

أما في حال السخط فهو حيناً يستعطف حبيبه ، بأرق ألوان الاستعطاف ، طالبا منه
نسيان الماضى ، واستقبال عهد جديد ، كله حب ووصال ، فيقول :

من اليوم تعارفنا	ونطوى ما جرى منا
ولا كان ، ولا صار	ولا قلتم ، ولا قلنا
وإن كان ولا بد	من العتب فبالحسن
فقد قيل لنا عنكم	كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر	وقد ذقتم وقد ذقنا
وما أحسن أن نرجع	للوصل كما كنا

وحينما يؤكد وفاءه واخلاصه ثم حيرته في أمر هذا الهجر فيقول :

إلى كم ذا الدلال وذا التجنى	شفيت ، وحققك ، الحساد منى
أردد فيك طول الليل فكري	فأبنى ، ثم أهدم ، ثم أبنى
لعل قد أسأت ، ولست أدري	فقل لى : ما الذى بلغت عنى
مرادى لو خبأتك يا حبيبى	مكان النور من عيني وجفنى
ولى فى الحب أخلاق كرام	فسل من شئت عنى ، وامتنحى
وحيث يكون فى الدنيا وفاء	هنالك إن تسل عنى تجدنى

وحينما يرسل إليه رسولا يستعطفه ، ويؤكد له حبه ، فيقول :

اقرأ سلامى على من لا أسميه	ومن بروحى من الأدواء أفديه
ومن أعرض عنه حين أذكره	فان ذكرت سواء كنت أعنيه
أشر بذكرى فى وسط الحديث له	إن الإشارة فى معنى تكفيه
واسأله ، إن كان يرضيه ضنى جسدى	لخذا كل شئ كان يرضيه
فليت عين حبيبى فى البعاد ترى	حالى وما بى من ضر أقاسيه

أحببت كل سمي في الأنام له وكل من فيه معنى من معانيه
 يغيب عني ، وأفكارى تمثله حتى يخيل لي أنى أناجيه
 يا أحسن الناس يا من لا أبوح به يا من تجنى وما أحلى تجنيه
 قد أنعش الله عينا صرت توحشها وأسعد الله قلبا صرت تأويه
 فيا رسولى تضرع فى السؤال له عساك تعطفه نحوى وتثنيه

ويؤكد له عمق حبه ونفاد صبره ، إذ يقول :

إن شكا القلب هجركم مهد الحب عذرکم
 لو علمتم محلكم بفؤادى لسركم
 لو أمرتم بما قسا ما تعديت أمرکم
 قصروا عمر ذا الجفا طول الله عمرکم
 ونسيتم وإنما أنا لم أنس ذكرکم
 وصبرتم فليتني كنت أعطيت صبرکم
 لو وصلتم محبكم ما الذى كان ضرکم

وحينا يثور على الحب ، ولا يرى الوفاء لهاجر أو غادر ، فيؤكد أنه سينصرف عن
 الحب إلى غير رجعة ، وأنه سلا هذا الغرام الذى يجلب له المهانة والذلة ، فيقول :

هو حظى قد عرفته لم يحل عما عهدته
 فإذا قصر من أهـواه فى الود عذرتة
 غير أنى لي فى الحب طريق قد سلكته
 لو أراد البعد عني نور عيني ما تبعته
 إن قلبي وهو قلبي لو تجنى ما صحبتة
 كل شيء من حبيبي ما خلا القدر احتملته
 أنا فى الحب غيور ذاك خلقى ، لا عدمته
 أبصر الموت إذا أبصر غيرى من عشقتة
 قد شكرت الله فيما كان لي منكم طلبته
 حين خلعت فؤادى من يديكم ، وملكتة

فلو أن القرب يحيي منكم لي ما طلبته
وحينا يعز عليه أن يبدو من يحب دلائل الغدر ، فيثور متألماً مغضباً ، ويقول :

نراكم قد بدا منكم	أمر ما عهدناها
وعرضتم بأقوال	وما نجمل معناها
كشفتم بيننا أشياء	قد كنا سترناها
وطرقتم إلى الغد	ر طريقاً ما سلكنها
وكم جاءت لنا عنكم	أحاديث رددناها
وأشياء رأيناها	وقلنا : ما رأيناها
قرأنا سورة السلوا	ن عنكم ، بل حفظناها
فرجل تطلب السعى	إليكم قد منعناها
وعين تمنى أن	تراكم قد غمضناها
ونفس كلما اشتاقت	للقياكم زجرناها
وكانت بيننا طاق	فها نحن سددها
ولو أنكم جنا	ت عدن ما دخلناها

ولكن يظهر لي فرق بين ثورة هذه الآيات وثورة الآيات الماضية ، فهو في السابقة مصمم لا ينتهي له عزم ، فقد دفعته الغيرة إلى هذا التصميم ، بينما هو في الثانية يمتضي في هجره إلى الامام متلفعاً إلى الخلف ، وكأنما هو يود أن تعود الأمور إلى مجاريها ، وهي تدل على الغضب أكثر من دلالتها على الثورة والسلوة .

أما إذا بعد عن الحبيب فزهير يصف الوداع ، تذرف الحبيبة عليه دموعها ، وتذرف هو دموعه ، ويقول :

جاءت تودعني ، والدمع يغلبها	يوم الرحيل وحادي البين منصلت
وأقبلت وهي من خوف ، ومن دهش	مثل الغزال من الأشرار تنفلت
فلم تطق خيفة الواشي تودعني	ويح الوشاة ، لقد قالوا ، وقد شتموا
وقفت أبكي ، وراحت وهي باكية	تسير عني قليلاً ، ثم تلتفت
فيا فؤادي كم وجد ، وكم حرق	ويا زماني ذا جور ، وذا عنيت

ويجد في الكتب والرسل بعض ما يخفف ألم البعاد ، ولذلك يعتب إذا انقطعت الرسل ،
أو لم يجب الحبيب على كتبه ، فيقول :

تري هل علمت ما لقيت من الوجد	لقد جل ما أخفيه منكم ، وما أبدى
فراق ، ووجد ، واشتياق ، ولوعة	تعددت البلوى على واحد فرد
رعى الله أياما تقضت بقربكم	كأنى بها قد كنت في جنة الخلد
وما بال كتبى لا يرد جوابها	فهل أكرمت ألا تقابل بالرد
فأين حلاوات الرسائل بيننا	وأين أمارات المحبة والود
وما لى ذنب يستحق عقوبة	ويا ليتها كانت بشيء سوى الصد
ويا ليت عندي كل يوم رسولكم	فأسكنه عيني ، وأفرشه خدى
ولانى لأرعاكم على كل حالة	وحقكم أتم أعز الورى عندي
عليكم سلام الله ، والبعء بيننا	وبالرغم منى أن أسلم من بعد

ويقف على دار الحبيب ، مستعيداً ذكريات حبه ، واجداً فى آثارها ما يثير غرامه ،
متمنيا عودة أيام سالفه قائلاً :

سقاك صوب الحيا المدرار يا دار	فكم تقضت لقلبي فيك أوطار
وحبذا فيك آثار أشاهدها	من الحبيب لها فى القلب آثار
عهدت ربك بأنوسا يغازلنى	فيه شمس منيرات وأقار
متى تعود ليل فيك لى سلفت	فهم يقولون : إن الدهر دوار

ولم يكن للبهاء فتاة أحلام واحدة ، يجدها مثله الأعلى ، لا يحيد عنها ، ولا يجد جمالا
فى سواها ، بل تنقل قلبه فى الحب ، ووجد الجمال فى صور كثيرة ، فحين يراه فى ذات القوام
المعتدل ، التى توسطت بين الطول والقصر ، إذ يقول :

كلفت بها ، وقد نمت حلاها	وزينتها الملاحاة والوقار
فما طالت وما قصرت ولكن	مكلمة يضيق بها الإزار
قوام بين ذلك باعتدال	فلا طول يعاب ولا اختصار

وشعر واصل الخلخال منها فأضحى قرطها قلقا يغار
حككت فصل الربيع بحسن قد تساوى الليل فيها والنهار

وحينا يجد في الطول ملاحه وجمالا ، فيقول :

نعم أنا أشكو طولها ، ويحق لي لقد طال فيها لوعتى وسهادى
وما عابها القد الطويل ، وإنه لأول حسن للمليحة بادی
رأيت الحصون الشم تحرس أهلهم فأعدت حصنا حافظا لودادى

ويشيد بالسمراء فى قوله :

لا تلج فى السمر الملا ح فهم من الدينى نصيبى
والبيض أنفـسـر عنهم لا أشتهى لون المشيب

وحينا يجد البيضاء أولى بالحب ، وأجدر بالمودة ، وعشق السمراء خطأ وضلالا
إذ يقول :

ألا إن عندى عاشق السمر غالط وإن الملاح البيض أبهى وأبهج
وإنى لأهوى كل بيضاء غادة يضىء لها وجهه ، وثغر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى ولا شك أن الحق أبيض أبلج

وقد استرعى هذا التقلب فى نظراته إلى الجمال نظر معاصريه ، فعابوه عليه ، ولكنه رضى
بذلك ، ولم يتحول عنه ، وهو فى كل حال يحب القد الممشوق ، والقوام الممتلئ .

صور البهاء الحبيبة ماكرة ساخرة عابثة ممنعة :

يعاهدنى لا خاننى ثم ينسكت وأحلف لا كلمته ، ثم أحنت
أقول له : صلتى ، يقول : نعم ، غداً ويكسر جفنا هازئا بي ويعبت

أما مناعة الحبيبة وتحفظها فقد تحدث البهاء عن غيرة قاسية لا تكاد تسمح للحبيبة أن
يراها سواه ، وقد رأينا صورة لثورته عند ما سمحت الحبيبة لنفسها أن يصرها غيره ، وهذه
صورة أخرى لهذه الغيرة العنيفة إذ يقول :

أغار على حرف يكون من اسمها إذا ما رآته العين في خط كاتب

هذا ، وبرغم أن البهاء سفه رأى من يحب الغلبان ، واقتبس من القرآن الكريم ما لا مهم به ، وعدب مذهبهم مذهبا غير حميد ، إذ قال :

أيا معشر الأصحاب مالى أراكم
فهل أنتم من قوم لوط بقية
فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم
برغم ذلك تغزل في الغلبان إذ قال :

طلع العذار عليه حارس
كالرمح ممشوق القوام
ويروح يقظان الجفون
يامطمعى فى وصله
قر تضىء به الحنادس
وكالقضيب اللدن مائس
بحالة كالظبي ناعس
لا رحت يوما منك آيس

ولكنه كان مقلا في هذا الغزل ، وتدل هذه القلة على انحراف في طريقه ، لم يلبث أن تركه إلى الجادة التي اعتاد سلوكها ، وهى الاشادة بجمال المرأة .

هذا وقد تلبذ البهاء لعمر بن أبي ربيعة في هذا اللون من الشعر ، فهو يلجأ إلى الأسلوب القصصى أحيانا كثيرة ، يصف فيه ما دار : من أحاديث وأعمال ، وأشبهه البهاء كذلك في أنه يتغزل بنفسه أحيانا ، ويصور نفسه معشوقا يخطب وده ، ويسعى إلى محبته ، فقسمه يقول :

لست سمحا بودادى
كل من نادى أجبت
طالما تهت على خا
طب ودى ، ورددته

ويقول :

وقائلة لما أردت وداعهم — :
فيارب لا يصدق حديث سمعته
وقامت وراء الستر تبكى حزينة
حيبى ، حقا أنت بالبين فاجعى
لقد راع قلبي ما جرى فى مسامعى
وقد نقبت به بيننا بالأصابع

فلما رأت أن الفراق حقيقة وأنى عليه مكره غير طائع
تبدت ، فلا والله ما الشمس مثلها إذا أشرقت أنوارها في المطالع
تسلم باليني على إشـارة وتمسح باليسرى مجارى المدامع
وما برحت تبكى ، وأبكى صباية إلى أن تركنا الأرض ذات بدائع

وحدثنا البهاء عن شباب القلب الدائم الذى لا يؤثر فيه مرور الايام ، ولا يأخذ منه
الكبر ، فهو قلب يخفق بالحب وعواطفه الرقيقة ، حين قال :

قالوا : كبرت عن الصبا وقطعت تلك الناحية
فدع الصبا لرجاله واخلع ثياب العارية
ونعم كبرت وإنما تلك الثمائل باقية
ويفوح من عطفى أنفـسا س الشباب كما هيـه
ويميل بى نحو الصبا قلب رقيق الحاشية
فيه من الطرب القديم بقيسة في الزاوية

وكان أهم ما وصفه البهاء مواقف الحب ، ولكنه وصف أشياء أخرى : كالنيل ، والشيب .
والشباب ، والمرأة ، والرياض ، وغيرها ، وما قاله في وصف روضة :

لله بستانى وما قضيت فيه من المآرب
لهنى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
ولكم بكرت له وقد بكرت له أيدى السحاب
فيروقى ، والجو منه ساكن ، والقطر ساكب
والطل في أغصانه يحكى عقودا في ترائب
وتفتحت أزهاره فتأرجت من كل جانب
وبدا على دوحاته ثمر كأذناب الثعالب
وكانما آصاله ذهب على الأوراق ذائب

وقد ذكرنا نماذج مما قاله في الخريات عند الحديث عن مذهبه في الحياة . أما نغره فكان
أكثره برقة شعره ، كقوله :

وقد يحسن الناس الكلام وإنما كلامي هو الدر المنقى المنقح
كلام يسر السامعين كأنما لسامعه فيه الشراب المفرح

* * *

للبهاء زهير أسلوبان في شعره: أحدهما ، وهو القليل في شعره ، هذا الذى يقوله عندما يريد إرضاء غيره من الناس ، فيتكلف حينئذ ان يستعير لغة أسلافه من الشعراء ، في عصور العربية الرفيعة ، حتى لا يخرج على ما سنه القدماء من أساليب ، لا يرضى أن يخرج عليها من يريد إرضاءهم ، كما رأينا ذلك في شعر المدح وبعض شعر الرثاء .

وثانيهما ، وهو الغالب عليه ، هذا الذى يقوله ليرضى نفسه ، وليعبر عن عواطفه ، لا يعنيه رضا مدوح ، لا يرى الشعر إلا هذا الذى يجرى على نسق القدماء ، وهو حينئذ يترك نفسه على سجيته كما نرى ذلك في الغزل والخمريات والهجاء ، فيستعمل البهاء لذلك أساليب اللغة العامية ، بعد أن يجعلها معربة ، وقد أوردنا نماذج كثيرة لهذا اللون من الأسلوب ، ونورد هنا بعض ما اشتدت قرابته إلى اللغة العامية المصرية الدارجة ، كقوله :

سیدی ، قلبی عندک	سیدی ، أوحشت عبدک
سیندی ، قل لی ، وحدثنی	مقی تنجز وعبدک
أتري تذكر عهدی	مثلاً أذكر عهدک
أم ترى تحفظ ودى	مثلاً أحفظ ودک
قم بنا ، إن شئت ، عندی	أو أکن ، إن شئت ، عندک
أنا فی دارى وحدى	فتفضل أنت وحدک

وقوله :

وكل ما ترجیه تناله وزياده

وقوله :

إن كان ذلك عن رضا أو قد علمت به فأمرک
وقوله : والله إني بخير مادمت أنت بخير

- وقوله : فإن تتفضل يا رسول فقل له محبك في ضيق ، وحملك واسع
فوالله ما ابتلت لقلبي غلة ولا نشفت مني عليه المدامع
- وقوله : تسائل عن وجدى بها وصبا بى فقلت : أما يكفيك موتى فيك
- وقوله : كل شيء منك مقبول وعلى العينين محمول
- وقوله : عساها إذا ما مر ذكرى بسمعها تقول : فلان عندكم ، كيف حاله
- وقوله : لا تسألنى كيف حالى فله شرح يطول
- وقوله : فالناس بالناس ، والدنيا مكافأة والخير يشكر ، والأخبار تنتقل
- وقوله : فإذا غبت وجاء الناس طراً لا يهमे
- وقوله : يحق لكم هذا التصلف كله لعلكم وجدى بكم وغرامى
- وقوله : وأسأله ، فليس يرد حرفاً كان جواب مسألتى حرام
- وقوله : أأصون دمعى فى الهوى لأعز عندى منكم
- وقوله : ولى نديم ماجد ما أرتضى عنه بديلاً كائناً من كانا
- وقوله : نحن لا نسأل عنه ماله يسأل عنا
- وقوله : كل ما يرضيك عندى فعلى رأسى وعينى
- وقوله : ولا كان ، ولا صار ، ولا قاتم ، ولا قلننا
- وقوله : تميل إلى الدنيا ، وتبدى تزهداً ولا أنت معدود ، هناك ولا هنا
- وقوله : إياك يدري حديثاً بيننا أحد فهم يقولون : للحيطان آذان
- من لى بنوى ، أشكو ذا السهادله فهم يقولون : إن النوم سلطان
- وقوله : ما العقل إلا زينة سبحان من أخلاك منه
- وقوله : دع انتظارك قوما لهم أمور بطيئة
- ولا تكن كعجوز مقيمة فى حنيئة
- وقوله : واليوم لى يومان لم أره ، وهذا اليوم ثالث
- وقوله : بحق الله متمنى من وجهك بالبعد
- وقوله : طالت ، فأما صبحها فقد فقد فتجبل المرأة فيها ، وتلد
- وقوله : هذه أول حاجاتى إليك وبها أعرف مقدارى ليدك

وقوله : أيها الزائرون أهلاً وسهلاً ومرحباً
وقوله : لقد ضاعفت ياروحى لروحى الهم والنصبا

وقلت المحسنات البديعية في شعر البهاء ، وإن كنت تعثر عليها أحياناً هنا وهناك ، في شعر المدح ، كقوله في غزل قصيدة مدح :

وبى رشاً ما فيه قدح لقادح سوى أنه من خده النار تقدح
قتلت به جلواً مليحاً ، وإنه لا عجب شيء كيف يحلو بملح
وحسبى ذاك الخال لي منه شاهد ولكن أراه بالالواحظ يجرح

ويمتاز شعر البهاء فضلاً عن ذلك بوحدة الفكرة في قصيدته ، فالآيات ملتحة النسيج ، يرتبط سابقها بلاحقها ، من غير أن تجد استطراداً ، أو فكرة نائية عن زميلاتها ، وفي قصائد المدح يحسن التخصيص من الغزل إلى المدح .

كما يمتاز في غير المديح والرثاء ، باختيار البحور ذات الحظ الوافر من الموسيقى ، ليكون لها حظها من التأثير . وما سبق أن أوردناه من شعره شاهد على ما نقول ، وللبهاء دوبيت جارى فيه شعراء عصره ، وهو وزن فارسي أكثر منه الشعراء الذين يعرفون الفارسية كالعهد الأصهباني ومنه قول البهاء :

قد راح عذولي ، ومثل ماراح أتى بالله متى نقضتم العهد متى
ماذا ظني بكم ، وماذا أملى قد أدرك في سؤله من شمتا

وذكر مترجموه أنه اخترع وزناً جديداً لا عهد للعروض به من قبل ، وذلك قوله :

يا من لعبت به شمول ما أطف هذه الشمائل
نشوان يهزه دلال كالغصن ، مع النسيم مائل
لا يمكنه الكلام ، لكن قد حمل طرفه رسائل

هذا وقد وقع البهاء على بعض المعاني الطريفة ، كقوله يخاطب رسول حبيبه :

ودعني أفز من مقلتيك بنظرة فعهدهما بمن أحب قريب

وقوله في الشيب :

فقد انجلي ليل الشبا ب وقد بدا صبح المشيب
ورأيت في أنواره ما كان يخفى من عيوني

وقوله :

أشتهي أن أفوز منك بوعد ودع العمر ينقضى في التقاضى

وقوله في الغيرة :

وأنزه اسمك أن تمر حروفه من غيرتى بمسامع الجلاس
فأقول: بعض الناس عنك كناية خوف الوشاة، وأنت كل الناس
وأغار إن هب النسيم لأنه مغرى بهز قوامك المياس
ويروعن ساق المدام إذا بدا فأظن خدك مشرقا في الكاس

وقوله :

صدق الواشون فيما زعموا أنا مغرى بهواها مغرم
فليقل ماشاء عنى لائى أنا أهواها ولا أحشتم
غلب الوجد فلا أكتمه إنما أكتم ما ينكتم
أين من يرحمنى أشكوه إنما الشكوى إلى من يرحم
أيها السائل عن وجدى بها إنه أعظم مما تزعم
ظن خيراً بيننا أو غيره فخبى فيه تحلو التهم

وانعكس في شعر البهاء بعض صور حياة عصره ، فكان علم الرمل بما شاع في عصره ،
وبما كان يلجأ إليه الناس لسؤاله عن الغيب ، حتى قال زهير :

تعلمت علم الرمل ، لما هجرتم لعل أرى فيه دليلا على الوصل
فرغبني فيه بياض وحررة عهديهما في وجنة سلبت عقلي
وقالوا: طريقا، قلت: يارب، للقا وقالوا: اجتماعا، قلت: يارب، للشمل

فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر فلا تنكروا أنى أخط على الرمل

وهذه طائفة من الناس يصفها البهاء بقوله :

كم أناس أظهروا الزهد لنا فتجافوا عن حلال وحرام
قللوا الأكل ، وأبدوا ورعا واجتهاداً في صيام وقيام
ثم لما أمكنتهم فرصة أكلوا الحرام وعربدوا جنح الظلام

فكان الورع وإظهار التقوى يومئذ من الوسائل التي يتخذها بعض الناس للوصول إلى
آمالهم في الحياة الدنيا .

وهذا صنف آخر من الناس يدعى معرفة الفلسفة ، ويرى من تمام هذا الادعاء أن
ينكر وجود الله ، مدعياً أنه يعتمد على المعقول لا المنقول ، وقد سفه البهاء رأى هذا
الدعى بقوله :

وجاهل يدعى في العلم فلسفة قد راح يكفر بالرحمن ثقلي — دا
وقال: أعرف معقولا ، فقلت له : عنيت نفسك معقولا ، ومعقودا
من أين أنت وهذا الشيء تذكره أراك تفرع بابا عنك مسدودا
فقال : إن كلامي لست تفهمه فقلت : لست سليمان بن داودا

أما الحركة الصوفية فقد ارتسمت في شعره حيناً باستخدام ألفاظها ، كما في قوله :

فأنا اليوم صاحب الوقت حقا والمحبيون شيعتي ودعائي
ضربت فيهم طبولي ، وسارت خافقات علمهم — م راياتي

وقوله :

تكهن في الأمر الذي قد لقينته ولى خطرات كلهن فتسبح

ويرد على رجل قدح في أحد الصوفية ، مكبراً من شأن هذا القدح ، معظمها من شأن
الصوفي ، قائلاً :

أتقدح فيمن شرف الله قدره وما زال مخصوصا به طيب الثنا

لعمرك ما أحسنت فيما فعلته وليس قبيح القول في الناس هينا
فيا قائلا قولا يسوء سماعه بحفك نزهنا عن الفحش والخننا
نطقك ولم تحسن ولم تبق ساكتا لقد فاتك الأمر الذي كان أحسنا
دع القوم إن القوم عنك بمعزل وإنك عن هذا الحديث لفي غنا
تميل إلى الدنيا ، وتبدي تزهدا ولا أنت معدود هناك ولا هنا

وتستطيع أن ترى الكثير من عادات عصره وتقاليده منطبعة في شعره .

هذا ويقول الديوان إن أول ما قاله من الشعر هو هذا الذي قاله في أرمد وهو :

حبيبي عينه قالوا تشكت وذلك لو رأوا عين المحال
أتشكو عينه ألما ، وفيها يقال : أصح من عين الغزال
ولكن أشبهت لون الحميا كما قد أشبهتها في الفعال

وبرغم ما يبدو فيه من الضعف والتفكك ينبغي بما سيكون للشاعر من قدم راسخة في فن الغزل ، الذي كان الشاعر أكثر نبوغه فيه .

الجزار*

(٦٠١ — ٦٧٩ هـ)

أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم ، ولد بعد سنة ست مائة هجرية بعام أو ثلاثة أعوام ، لأب لا أدري من أمره شيئاً . وأغلب الظن أنه كان جاهلاً ، رقيق الحال ، دفع بابنه إلى مهنة الجزارة التي لم تدر على الفتى رزقا يكفل له مطالب الحياة ، فقد ضيق عليه رزقه ، حتى ليبيع اللحم ولا يستطيع أن يذوقه :

حسبي حرافا بحرقتي حسبي أصبحت منها معذب القلب
موسخ الثوب والصحيفة من طول اكتسابي ذنباً بلا كسب
أعمل في اللحم للعشاء ، ولا أنال منه العشاء ، فما ذنبي ؟
خلا فؤادي ، وفي فمي وسخ كأتني في جزارتي كلبي

ولعل ضيق رزقه في حرفته ناشئ من انصرافه عنها ، وعن محاولته النجاح فيها ، ذلك أنه في غالب الأمر رأى في نفسه استعداداً للشعر ، فحضى يتثقف ليقوم من لسانه ، ويشق به طريقاً آخر ، يظنه أكثر ربحاً ، وأوفر رزقا ، وقد شجعه والده على هذا الاتجاه ، وغمر الفرح قلبه أن يرى ابنه (صبي الجزار) تبشر مخايله بمستقبل زاهر ، قيل إنه لما كان يحيى

* مراجعه :

- ١ — فوات الوفيات : ٢ : ٩٠ ، ١٠١ ، ١٤٥ ، ٣١٩ .
- ٢ — النجوم الزاهرة : ٧ : ٢٨ ، ٢٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٩ .
- ٣ — وفيات الأعيان : ٢ : — ٦٢٠ .
- ٤ — حسن المحاضرة : ١ : ٢٤٤ و ٢ : ٣٦ ، ٩٨ ، ١٤٢ .
- ٥ — السلوك : ١ : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥٥٤ ، ٦٨٤ .
- ٦ — طبقات الشافعية : ٥ : ١٠٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .
- ٧ — خزانة الأدب للعموي : ٩٠ ، ١٩٥ ، ٣٠٦ .
- ٨ — الطالع السعيد : ٣٣٤ ، ٣٩٠ .
- ٩ — الكامل لابن الأثير : ١١ : ١٠٨ ، ١٠٩ .
- ١٠ — البداية والنهاية : ١٣ : ٢٩٣ .
- ١١ — الأعلام : ٣ : ١١٥٠ .
- ١٢ — المنهل الصافي : ٣ : ٤٠٤ ب . و ٢ : ٤٢٧ ب .
- ١٣ — عيون التواريخ — القسم الثاني : ٣ : ٢١٧ .

صغيراً نظم أبياتاً قلائل ، وكان أديب ذلك الزمان ابن أبي الإصبع^(١) . فأخذه أبوه ، وتوجه به إليه ، وقال : يا سيدى قد نظم هذا الولد شعراً ، وأشتهى أن يعرضه عليك ، فقال : قل ، فلما أنشده قال له : أحسنت ، والله إنك عوام مليح ، فراح هو ووالده ، وبعد أيام عمل والده طعاماً وحمله إلى ابن أبي الإصبع ، فقال له : لآى شىء فعلت ؟ فقال لشكرك ولد المملوك ، فقال : أنا ما شكرته ، فقال : ألم تقل بأنك عوام مليح ، فقال : ما أريد بذلك إلا أنه يخرج من بحر إلى بحر .

قرض يحيى الشعر بسليقته فشعر فى نفسه بأن مستقبلاً آخر غير مستقبل الجزائر ينتظره ، فكان ذلك من عوامل انصرافه عن مهنته ، فلم تدر عليه رجحاً ، وذهب يستكمل ثقافته ، ولعله أخذ من كل فن بطرف فإن مؤرخيه يذكرون أنه قد كان له مشاركة فى العلوم ، وبخاصة الحديث الذى رواه عنه الدمياطى . ويستطيع شعره أن يلقى شيئاً من النور على بعض ما تثقف به ، فقد حفظ جزءاً من القرآن ، مهد له سبيل الاقتباس منه ، كما عرف البيان وأبوابه : من مجاز واستعارة ، وكان يورى باصطلاحاته ، ودرس فنون البديع ، ودخلت صناعته شعره ، كما سئرى ، وكانت معرفته بالنحو ضرورية ، وقد يستخدم اصطلاحاته مورياً بها ، كما قرأ طرفاً من الشعر القديم ، مهد له أحياناً أن يعارضه ، وشغف بتاريخ مصر شغفاً هياً له أن ينظم أرجوزة فى ولاية مصر ، سوف نتحدث عنها .

نظر الجزائر إلى الشعر مورداً من موارد الرزق ، فضى ينشئه فى المديح ، مرتزقاً به ، طالباً عليه الثواب والعطاء ، يقول لأحد بمدوحيه :

يا أميراً يرجى ، ويخشى لبأس ونوال فى يوم حرب وسلم
أنت موسى ، وقد تفرعن ذا الخطب ، ففرقه من نذاك بسم
لا تكلنى إلى سواك ، فاصنع لإلا لديك ثرى ونظمى

ويكتب إلى قاضى القضاة ابن خلكان فى عيد الاضحى :

مولاي شمس الدين ، يا من سميت أخصصه فى الرتب العالية

(١) ترجمته بكتابات الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والقيام ص ٢٤٩ .

يا منعما ، راحتـه بالندى لم تبق من أمواله باقية
قد أصبح المملوك لا يشتهى شيئا سوى لقياك والعافية
والعيد عيـد النحر قد جاءه وهو من الأمرين فى ناحية
لم يلف جزاراً ، ولا شاعراً لا الحرفة الأولى ، ولا الثانية

ومضى يعرض بضاعته على الملوك ، والوزراء ، والأمراء ، وأعيان عصره ، فرأيناه
يمدح العادل بن الكامل بن العادل ، ويقول :

هو الليث يخشى بأسه كل مجتر هو الغيث يرجو جوده كل مجتدى
لقد شاد ملكاً أسسته جـدوده فأصبح ذا ملك أثـيل مشيد
وصح به الاسلام حتى لقد غدت بسلطانه أهل الحقائق تقتدى
فقل للذى قد شك فى الحق : إنما أطعنا أبا بكر بأمر محمد

يشير بذلك إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فإن أباهما الكامل محمدا أقام
العادل هذا بمصر ، وبعث الصالح أيوب إلى الشرق .

ومدح الملك المعز أيبك ، وها هو ذا يثنى عليه عند ما أـبر المعز ألا تخرج امرأة من
بيتها ، ولا يمشى رجل بلا سراويل :

حنا الملك المعـز على الرعايا وألزمهم قوانين المروءة
وصان حريمهم من كل عار وألبسهم سراويل الفتوة

ومدح الظاهر بيبرس ، وكان من الشعراء الذين دعوا إلى حفل افتتاح المدرسة
الظاهرية^(١) ، وكان مما أنشده يومئذ قوله :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتغالى فى الثواب وفى الشنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همـة بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى

(١) الحديث عن هذه المدرسة فى كتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٤٥ .

تجمع فيها كل حسن مفرق فراقت قلوبا للأنام وأعيننا
كما مدح ابن مطروح ، وكان في منصب وزير بالشام ، وتأنق في مدحه ، فقد كان
ابن مطروح شاعرا ، بصيرا بحمد القول ورديته ، وقد استحسن مؤرخوه هذه القصيدة
ورأوها بديعة ، وحفظوا لنا منها ، وكانت طويلة ، مقدمتها الغزلية ، وهى :

هو ذا الربيع ، ولى نفس مشوقة	فاحبس الركب ، عسى أقضى حقوقه
فقبيح بى فى شرع الهوى	بعد ذاك البر أن أرضى عقوقه
لست أنسى فيه ليلات مضت	فغرامى فيه ما زال حقيقة
يا صديق ، والكريم الحر فى	مثل هذا الوقت لا ينسى صديقه
ضع يدا منك على قلبى عسى	أن تهدى بين جنبى خفوقه
فاض دمعى مذ رأى ربيع الهوى	ولكم فاض ، وقد شام بروقه
نفذ اللؤلؤ من أدمعه	فقد ينثر فى التراب عقيقه
قف معى ، واستوقف الركب ، فإن	لم يقف فاتركه يمضى وطريقه
فهى أرض قلبا يلحقها	أمل والركب لم أعدم لحوقه
طالما استجلبت فى أرجائها	من يتيه البدر إذ يدعى شقيقه
يفضح الورد احمرارا خده	وتود الخمر لو تشبه ريقه
فبه الحسن خلى لم يزل	والمعالى بابن مطروح خليفة

وعرف طائفة من أعيان عصره وعلمائه ، اتصل بهم ، ومدحهم ، كابن دقيق العيد
وعز الدين بن عبد السلام ، وتاج الدين ابن بنت الأعرز ، والكمال بن العديم .

قال يمدح ابن دقيق العيد بعد أن سمعه يخطب بقوص :

يا سيد العلماء ، والأدباء ، والبغاة ، والخطباء ، والحفاظ	
شنت أسماع الأنام بخطبة	كست المعانى روتق الألفاظ
أبكت عيون السامعين فصولها	فزكت على الخطباء والوعاظ
وعجبت منها كيف حازت رقة	مع أنها فى غاية الإغلاظ
ستقول مصر إذ رأيتك لغيرها :	ما الدهر إلا قسمة وأحاظ

ويقول قوم إذ رأوك خطيبهم : أنسيتنا قسا بسوق عكاظ
ومدح نصر الدين بن بصاقة بقصيدة يقول فيها :
أقول لقلبي كلما اشتقت للغنى إذا جاء نصر الله تبت يدا الفقرا
وبما مدح به ابن عبد السلام قوله :

سار عبد العزيز في الحكم سيراً لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمنّا حكمه بعـددل وسيط شامل للورى ، ولفظ وجيز

واشتدت صلته بالكّال بن العديم ، حتى كان الصاحب إذا قدم إلى مصر لازمه الجزار ،
وأهدى إليه مرة سجادة خضراء ، وكتب معها : والمملوكة سجادة أبي الحسين الجزار ،
أيها الصاحب الأجل ، كمال الدين ، لا زلت ملجأ للغريب
كن بحيرى ، لأننى قد تغربست ، لكونى وقعت عند الأديب
أنا سجادة ستمت من الطوى ، فهب لى نشراً فنشرك طيبي
طال شوقى إلى السجود ، وكـم لى من شروق فى بيته وغروب
وإذا ما أتاه ضيف أراى منه عند الصلاة وجه مريب
لم يرعه اخضرار لوني ، وهى ت ، وما راعه اسوداد الذنوب
فأقل عثرتى ، ووفر بإحسا نك من وجهك الكريم نصيبي
وأجبر اليوم كسر قلبي ، فلا زلت مدى الدهر جابراً للقلوب

إن حسن فى الآراء العالية الصاحبية الكمالية ، أسعدها الله ، أن ينصب محرابى إلى القبلة
بعد رفعه ، ويخفض عيشى بالتسبيح والتقديس بعد جزمه وقطعه ، ويجعلنى مؤهلة بين يديه
لصالح الاعمال ، ويؤمننى العث الذى يعترى الصوف لعدم الاستعمال ، فعل جارياً على
عوائد اصطناعه ، سالكا سبل أخلاقه وطباعه ، ، والسلام .

وكانت صلة الجزار بعظماء رجال عصره ، وارتفاعه من مهنة الجزارة ، إلى حيث أصبح
ذائع الشعر محبوباً من أعيان زمانه ، وتركه زى مهنته الأولى وارتداه زى الكتاب مثار
حققد بعض الشعراء عليه ، فهجاه ، وكانت مهنة الجزارة معيناً استقى منه هجاء وتهكمهم به ،
واستهزأهم بفته ، فمن ذلك ما قاله فيه مجاهد بن سليمان :

إن تاه جزاركم علينا بفضنة عنده وكيس
فليس يرجوه غير كلب وليس يخشاه غير تيس
وهجاه مرة أخرى بتفاهة شعره ، وأنه لم ينل منه حظاً يستحق أن يفخر به ، فإذا وقع
له بيت جميل كان سرقة من غيره :

أبا الحسين تأدب ما الفخر بالشعر نخر
وما تبلت منه بقطرة وهو بحر
وإن أتيت بيت وما ليبتك قدر
لم تأت للبيت إلا عليه للناس حكر

وحاول بعضهم أن يدس له عند قاضى القضاة تاج الدين ابن بفت الاعز ، فدس له ورقة
بخط الجزار ، يدعو فيها شخصاً إلى مجلس أنس ، ووصف المجلس ، ولكن تاج الدين لم يعر
ذلك أذنأ واعية ، كما حاولوا أن يفسدوا بينه وبين ابن العديم ، فقد قال بعضهم :

يا ابن العديم ، عدمت كل فضيلة وغدوت تحمل راية الإدبار
ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها قيساً يلوذ بصحبة الجزار

ولكن يظهر أن الجزار لم يكن يميل كثيراً إلى مقابلة الهجاء بمثله ، وربما كان رجاؤه أن
يترك الناس ذكر ماضيه سبباً في أنه كف عن الهجاء ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وقد تشدد
ثورته أحياناً ، فيقابل الهجاء بمثله ، ويقول :

ليت شعري ماذا تقول إذا ما رمت شتمى ، قلى لى : بأى طريق
علم الله ما مضيت رسولا قط من عند ابنتى لعشيق
لا ولا بت فى مكان طفيليا كفىرى ، فى طاعة وفسوق
لا ولا جئت بالرجال إلى بيتى ، وكشرت عنهم فى السسوق

وهو هجاء تهكمى لا ذع كما ترى . وروى له أيضا فى بعض شيوخ الأدب ، وقد جرب
واندهن بالكبريت ، ولعله كان من أولئك الذين لا يرضون عن الجزار — تهكم بارع فى قوله :

أيها السيد الأديب دعاء من محب خال من التنكيت
أنت شيخ وقد قربت من النسا ر ، فكيف اندهنت بالكبريت

ومع قلة ماروى للجزار من الهجاء لم ينس ، وقد تزوج أبوه بامرأة عجوز ، أن يسجل هجاءها في شعره ، وقد سلبها من كل فضيلة جسمية ، وعقلية :

تزوج الشيخ أبى شيخه ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها فى الدجى ما جسرت تنظرها الجن
كانها فى فرشها رمة وشعرها من حولها قطن
وقائل : قل لى : ما سنها ؟ فقلت : ما فى قفا سن

فلما مات أبوه قال يهجوها أيضاً :

أذابت كلى شيخ تلك العجوز وأردته أنفاسها المردية
وقد كان أوصى لها بالصداء ق ، فما فى مصيبته تعزیه
لأنى ما خلت أن القتيلى يوصى لقاتله بالديه

وللجزار غزل رقيق ، ينشئه قصداً فى بعض الأحيان ، أو يبدأ به قصائد مدحه ، ولكنك لا تحس فيه بعمق العاطفة ، ولا بلوغة الحب ، ولا بطرافة المعانى ، ولعل من أجل ما قاله فى الغزل قوله :

سر القلوب تذيعة الأجفان هيات ينفع مغرماً كتمان
طرف المحب فم يذاع به الجوى والدمع إن صمت اللسان لسان
تبكى الجفون على الكرى ، فاعجب لمن تبكى عليه إذا نأى الأوطان
أتلقت روحى فى رضاك ، وإئنى راض بذلك أيها الغضبان
يا مسقى ، مهلاً على جسدى الذى لم يبق فيه للسقام مكان
حاشا معاليك التى أنا عبدها ألا يكون لحسنها احسان

وليس له فيما بين يدي شعر فى الوصف ، اللهم إلا وصف ملابسه الحقيبة ، وجزءاً من قصيدة يصف بها البحر ، اتجه فيها إلى تصوير خوفه منه .

وللجزار أرجوزة فى مائة بيت واثنين ، سماها : العقود الدرية ، فى الأمراء المصرية ، ضمنها أمراء مصر من عمرو بن العاص ، إلى الملك الظاهر بيبرس ، بدأها بقوله :

الحمد لله العلى ذكره ومن يفوق كل أمر أمره
أحمده ، وهو ولى الحمد على توالى بره والرشد
ثم الصلاة بعد هذا كله على أجل خلقه ورساله :
محمد خير بنى عدنان ومن أتاه الوحي بالتبيان
دامت عليه صلوات ربه ثم على عترته وصحبه
يا سائلى عن أمراء مصر منذ جباها عمر لعمره
خذ من جوابى ما يزيل اللبس واحفظه حفظ ذاكر لا ينسى

ومضى يسرد من حكم مصر والياً والياً ، وهى أرجوزة أشبه ماتكون بالمتون ليس فيها من الشعر سوى وزنه . غير أنه مما يلحظ فى هذه الأرجوزة أن منشئها عند ما ذكر تخلص الفاطميين أنى عليهم ، وذكرهم بالخير ، مما يدل على أن حدة البغضاء لهم قد هدأت وقدها ، ويكفى أن نذكر لتأييد ذلك أنه فى عهد الظاهر بيبس أعيدت خطبة الجمعة إلى الأزهر ، وعاودته حياة قوية نشيطة .

وبعد فهاذا كان حظ الجزار من حرفة الأدب التى أقبل عليها راجياً - فى أغلب الظن - أن تدر عليه أخلاف الرزق وأن تمنحه الحياة الرغدة السعيدة ؟

أرجح أنه لم ينل ما كان يرنو إليه من النجاح وأنه لم يكن موسعاً عليه فى الرزق ، وأنه عاش فى كثير من الأحيان يائساً فقيراً ، وإذا كان قد نال عطاء وافراً فى بعض الأحيان فإن تبذيره قد عصف بهذا العطاء ، ولعله بهذا التبذير كان يريد أن يشعر نفسه بأنه ارتفع عن مهنة الجزارة ، إلى مكان الأعيان ، ووجهاء عصره ، ولهذا قال مؤرخوه : إنه كان دائم الاحتياج لا تكاد خلته تستدأبداً ، ولا يكاد طلبه يغفل . ومن أجل ذلك رأينا فى شعره كثيراً من سمات البؤس ، وشكوى الفاقة ، ووصف ثيابه الممزقة ، وشدة تأثير البرد فيه ، فتسمعه يقول :

لبست بيتى ، وقد زررت أبوابى على ، حتى غسلت اليوم أثوابى
وقد أزال الشتاء ما كان من حمى دعنى ، فستوقد الحمام أولى بي
ما كنت أعرف ما ضرب المقارع ، أو قاسيت وقع الندى من فوق أجنابى

وما تراقصت الأعضاء في جسدى إلا وقد صفقت بالبرد أنيابى
ويقول: أدركونى فى من البرد هم ليس ينسى ، وفى حشائى التهاب
ألبستنى الأطماع وهما ، فهما جسمى عار ، ولى فرا وثياب
كلما ازرق لون جسمى من البر د تخيلت أنه ســــــنـجـاب
وأرجح أنه اضطر أن يعود إلى حرفته الأولى ، يلتمس فيها رزقه ، حين لم يكف حاجته
مدحه لعظماء الرجال . أرجح ذلك لقوله :

لا تبنى ياسيدى شرف الد ين إذا مارأيتنى قصابا
كيف لا أشكر القصابة ماعش ت حياتى وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجي نى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وهى أبيات تدل على ثروة عنيفة ، لاخفاقه فيما كان يعلق عليه كبار الآمال . قال
مؤرخوه : واحتاج فى آخر عمره إلى الاستجداء بغير شعر ، لكثرة تبذيره وإسرافه .

نهج الجزائر فى شعره منهج شعراء عصره ، المولعين بالصناعة اللفظية : من جناس ،
وطباق ، وتورية ، وغيرها ، وتجد أمثلة لذلك فى خزانة الأدب ، وقد أكثر من التورية
بصناعته كقوله :

ألا قل للذى يسأل عن قوى وعن أهلى
لقد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصل
ترجيهم بنو كلب وتخشاهم بنو عجل

وقوله :

إنى لمن معشر سفك الدماء لهم دأب وسل عنهم إن رمت تصديق
تضىء بالدم إشراقاً عراصهم فكل أيامهم أيام تشريق

وكتب إليه الشيخ نصير الدين الحامى موريا عن صناعته :

ومذ لومت الحمام صرت بها خلا يدارى من لا يداريه

أعرف حر الأشياء وباردها وأخذ الماء من مجاريه

فأجابه الجزار بقوله :

حسن الثاني مما يعين على رزق الفتى ، والحظوظ تختلف
والعبد مذ صار في جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف

وقد عرض الجزار لامية امرئ القيس ، واقتبس منها ، بأخرى هزلية ، قال فيها :

ترى هل يراني الناس في فرجية أجربها تيبها على الأرض أذيالي
ويمسى عدوى غير خال من الآسى إذا بات من أمثلها بيته خالي
ولو أنني أسعى لتفصيل جية (كفاني، ولم أطلب ، قليل من المال)
ولكنما أسعى لمجد بمخوخة (وقد يدرك المجد المؤئل أمثالي)

وبرغم أن شعرا الجزار لا يرتقى إلى صف الفحول من شعراء العربية ، وأن كثيراً من مظاهر الضعف يبدو عليه ، فلم يكن في عصره من يقاربه في جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس تلك الحلبة ، ومنه أخذوا ، وعلى نمطه نسجوا ، كما قال الصفدي . وقدره معاصروه من الأدباء ، وقدروا أدبه ، وأعجبهم أخلاقه ، فقد ذكروا أنه كان حلواً النادرة ، دمث الأخلاق ، لطيف المجون ، حسن المحاضرة ، وكان أكبر شاعر اتصل به الجزار في شعره السراج الوراق ، فقد كان بينهما تراسل بالشعر والنثر ، ولما مات الجزار يوم الثلاثاء ، ثاني عشر شوال سنة ٦٧٩ هـ ، رثاه السراج بقصيدة طويلة ، بدأها بتأمل في هذه الحياة وغايتها ، وإن لم يأت فيه بجديد ، إذ قال :

أغابتنا لهذا يا فلان تأمل ، ليس كالحبر العيان
أمانى النفوس لها خداع وليس من الخوف لها أمان
ومن بعد الحراك لها سكون وصمت بعد ما مرح اللسان
أيا من جد في الآمال ركضاً تأن ، ففي يد الأجل العنان

ومضى في تأمله ، ثم انتقل إلى رثاء صاحبه ، فعزى فيه القوا في ، واستخدم في ذلك مصطلحات عليها ، ثم تحدث عن ألم علم النحول لفرقة ، موريا كذلك باصطلاحاته حين قال :

وناح النحو بعدك ، فالمعاني لها مع كل نائحة حنان
فلا بدل بخل عنك يرجى ولا عطف لمن غدروا ، وخانوا
فلا تنجح إلى تمييز حال لنا خفضت ، فقد لحن الزمان

وتحدث عن حزن بحور الشعر عليه ، وعن بلاغته ، وتفننه في أبواب البديع ، وعن
شعره في مدح الرسول ، وهذا لون من شعره لم يصل إلينا ، وختم رثاءه بقوله :

جمال الدين ، أنت جميل ظن بربك ، جل ديانا يدان
وعفو الله أكثر من ذنوب لنا ، وعلى الشفيح لنا ضمان

وللجزار تصانيف ، منها كتاب فوائد الموائد ، وعمل بعض الناس عليه علائم الولائم ،
ولست أدري موضوع هذا الكتاب ، ولعله اختيارات شعرية. وجمع قطعة من شعره سماها:
تقاطيف الجزار ، وهو في عنوان كتابه هنا لم ينس مصطلحات مهنته الأولى .

البوصيرى*

(٨ ٦ — ٦٩٦ هـ)

شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد ، شاعر مصرى تدل نسبته إلى صنهاجة . على أنه ربما كان ينحدر من أصل بربرى . ولد في أول شوال سنة ٦٠٨ هـ (٧ مارس سنة ١٢١٣ م) ، ولا نعرف من تاريخ حياته إلا القليل . ولعله عانى معرفة الكتابة والحساب ، مما هياه لأحد مناصب الحكومة في مدينة بلبس . ويدل شعره على تعمقه في دراسة أصول الدين ، كما نرى ذلك في القصيدة التي عنى فيها بتوضيح عقيدة الاسلام ، والرد على النصارى ، كما يذكر له تعمقه في دراسة الحديث ، وأخذ التصوف عن أبي العباس المرسى ، أحد قادة التصوف في ذلك العصر . وبدأ أثر دراسته في شعره ، فظهر فيه الطابع الدينى واضحا جليا ، يتجلى في هذه القصائد الكثيرة التي مدح بها الرسول . وأشهر هذه القصائد البردة ، التي نالت شهرة واسعة في العالم الإسلامى ، فشطرت حيناً ، وخمست حيناً ، وسبعت حيناً آخر ، وشرحت مرة ثالثة ، وترجمها إلى الفرنسية R. Basset ، كما ترجمت إلى الألمانية والانجليزية . ومدح الرسول على نهجها من نظم البديعيات ، تجمع فنون البديع ، موجهة إلى الثناء على الرسول ، وعارضها في عصرنا الحديث المغفور له شوقي ، في قصيدته : نهج البردة . وله قصيدة همزية أخرى مدح بها الرسول ، وأطال نفس القول ، حتى بلغت قصيدته ستين وأربعائة بيت ، بدأها بقوله :

* مراجعه :

- | | |
|-------------------------------------|---|
| (١) الأعلام ٣ : ٩٠١ . | (٢) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٥ ، ٢ : ١٤٣ . |
| (٣) فوات الوفيات : ٢ : ٣٠٥ . | (٤) خطط المقرئى ٤ : ٩٠ و ٢٦٣ . |
| (٥) المنهل الصاقى ٣ : ١٥٨ ب . | (٦) الخطط الجديدة : ١٠ : ٨ . |
| (٧) تاريخ مصر لابن إياس : ١ : ١٢٤ . | (٨) دائرة المعارف الاسلامية : ١ : ٣٢٨ . |
| (٩) شفاء القلب الجريح ص ١٠ . | (١٠) بروكلمان Brockelmann . |
| (١١) دائرة معارف البستانى ٥ : ٦٩٤ . | ٢٦٤ : ١ — ٢٦٥ . |
| (١٢) شذرات الذهب : ٥ : ٤٣٢ . | (١٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٢٠ . |
| (١٤) Littérature Arabe P.116 | (١٥) معجم المطبوعات لسركيس ١ : ٦٠٣ . |
| (١٦) الوسيط ص ٣٠٥ . | |

كيف ترقى رقيقك الانبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حاسنا منك دونهم ، وسناء
إنما مثلوا صفاتك للناس ، كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصدر إلا عن ضوئك الاضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لآدم الاسماء
لم تزل في ضمائر الكون يختار لك الالهات والآباء
وقد عارضها شوقي كذلك . كما عارض البوصيري قصيدة بانث سعاد : بقصيدة أولها
إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول

ولم يقف عند حدود هذه القصائد الثلاث المطولة ، بل له قصائد كثيرة ومقطوعات في
مدحه . وهو في كل ما مدح به الرسول يصدر عن عقيدة المسلمين الذين يرون النبوة .

هبة لاكسبا :

خلاتقه مواهب دون كسب وشتان المواهب والكسوب
مهذبة بنور الله ليست كأخلاق يهذبها اللبيب

ومن المرجح أن العصر كان له أثره في مدح الرسول ، إذ كان عصر صدام بين عقيدتي
الاسلام والمسيحية ، فلا عجب حين ترى من شعراء الاسلام تمجيداً لصاحب رسالته ، وإشادة
بفضائله وأمجاده .

ومدح البوصيري كذلك أهل البيت ، وجعل حبهم عقيدة من عقائد الاسلام ، ورأى
أن مدحهم وسيلة من وسائل النجاة عند الحساب ، وتوجع لما أصابهم في تاريخهم الطويل
من مصائب ، ومحن قاسية ، وما قاله في مدحهم :

فقل لبي الزهراء ، والقول قربة لكل لسان فيهم أو حصائد
أحبكم قلبي فأصبح منطق يجادل عنكم حسبة ، ويجماله
وهل حبكم للناس إلا عقيدة على أسها في الله تبنى القواعد .

وإن اعتقاداً خالياً من محبة وود لكم آل النبي لفاسد
فدتكم أناس نازعوكم سيادة فلم أدر سادات هم أم أساود
إذا ما تذكرت القضايا التي جرت أقضت على جنبي منها المراقد
وجددت الذكرى على بلا بلا أكابد منها في الدجى ما أكابد

كان هذا الاتجاه في مدح الرسول وآله بهذه الغزارة من آثار العصر ، وكان كثير من
المعاني التي وردت في هذا المدح مستقاة كذلك من العصر . ففيها رد على ما ادعاه النصارى ،
وتخلص من غلوهم الذي ألصقوه بعبسى . فتارة يقول البوضيري :

دع ما ادعته النصارى في نبينهم واحكم بما شئت مدحا فيه، واحتكم

وطورا يقول :

يا حبيبا ، وشفيعا مطاعا حسبنا أن إليك الإيايا
لم نقل فيك مقال النصارى إذ أضلوا في المسيح الصوابا
إنما أنت نذير مبين أنزل الله عليك الكتابا

وحينا ينشئ قصيدة طويلة ، يرد بها على النصارى واليهود ، ويرى أن ما فيها من أفكار
يحتاج إلى شرح وإيضاح ، فشرحها في ديوانه ، وبدأها بقوله :

جاء المسيح من الإله رسولا فأتى أقبل العالمين عقولا
قوم رأوا بشراً كريماً فادعوا من جهلهم لله فيه حلولا
وعصابة ما صدقته وأكثرت بالإفك والبهتان فيه القبلا
فكأنما جاء المسيح إليهم ليكذبوا التوراة والانجيلا
فأعجب لآمنه التي قد صيرت تنويهها بالهها التنكيلا
هم بجلوه بباطل ، فابتزه أعداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطعوا أمر العقائد بينهم زمرا ألم تر عقدتها محلولا

قال الناظم : لما رأيت كتب النصارى واليهود الآن مشحونة بما ينكرونه من بعث
النبي صلى الله عليه وسلم . وفيها القول بخلاف ما يدعونه من ألوهية المسيح ، ومن صلبه ،

ولإثبات رسالته إلى النصارى واليهود ، وما لا يخفى ، تعرضت في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمه من ذلك ، وأردت أن أورد تحت كل أبيات منها ما أشارت إليه : من النصوص التي لا يستطيع النظم ذكرها .

ومضى البوصيرى يورد من أقوال التوراة والانجيل ما يرد به على الطائفتين . ويورد من القصيدة جزءا جزءا ، شارحا كل جزء .

أثر عصر الحروب الصليبية فيه هذا الأثر البالغ ؛ فأكثر من مدح الرسول وناقش النصارى في معتقداتهم .

ومن أكبر ما ملك عليه قلبه تلك الحملة التي كان يريد أن يقوم بها الأشرف خليل ، لا نزاع عكا من يد الصليبيين . وإذا صح ما يقوله علماء النفس من أن جزءاً من الأحلام تنفيس لما في النفس من آمال مكبوتة ، ورغبات تريد أن تتحقق ، فإننا نستطيع أن نتبين شغل البوصيرى بتطهير أرض الشام من آخر صليبي فيها — من هذا الحلم الذي رآه ، وكأنه قائلاً ينشد هذه الأبيات :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين حكا
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدك الجبال دكا
وأقسم أترك منذ سارت أن يتركوا للفرنج ملكا

كان العمل الحكومى للبوصيرى فى بلبس مهيئاً له الاتصال بطوائف كثيرة من المستخدمين . ويظهر من شعره أنه لم يكن راضياً عن تصرفهم . بل كان شديد السخط عليهم ، حتى لا يخلى واحداً منهم من سخطه ، ويراهم نكبة على البلاد ، قد أحالوها جحياً وشقاء ، إذ يقول :

أرى المستخدمين مشوا جميعاً على غير الصراط المستقيم
معاشر لو ولوا جنات عدن لصارت منهم نار الجحيم
فما من بلدة إلا ومنهم عليها كل شيطان رجم
فلو كان النجوم لهم رجوماً إذا خلت السماء من النجوم

والبيت الاخير يدل على كثرتهم وكثرة مساوئهم . وفي قصيدة أخرى مطولة شرح كثيراً
بما يأخذه عليهم ، وأهم ما أسخطه عليهم جميعاً انصرفهم إلى المال وجمعه ، انصرفاً شغلهم
عن واجبهم ، وجعلهم يتكالبون على جمع الثروة من غير طرقها المشروعة . ولم يخل من
سخطه جماعة الكتاب ، ولا القضاة ، ولا الفقهاء ، ولا جماعة النظار . فكلهم في السعي وراء
المال سواء :

ثكلت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهم رجلاً أميناً
نخذ أخبارهم منى شفاها	وانظرنى لأخبرك اليقينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم	مع التجريب من عمرى سنيها
حوت بليس طائفة لصوصا	عدلت بواحد منهم مثينا
وكيف يلام فتیان النصارى	إذا خانت عدول المسلمين
وجل الناس خوان ، ولكن	أناس منهم لا يسترون
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً	ولا شربوا خمر الاندرين
ولا ربوا من المردان قوما	كأغصان يقمن ، وينحنين
أقاموا في البلاد لهم جباة	لقبض مغلها كالمقطعين
تحملت القضاة ، نغان كل	أمانته ، وسموه الامين
وكم جعل الفقيه العدل ظلياً	وصير باطلا حقاً مينا
وما أخشى على أموال مصر	سوى من معشر يتأولون
فلا تقبل من النواب عذراً	ولا النظار فيما يهلون
تورع معشر منهم وعدوا	من الزهاد والمتورعين
وقيل : لهم دعاء مستجاب	وقد ملثوا من السحت البطون
ومن ألف الخيانة كيف يرجى	له أن يحفظ اللص الخثون

وإذا أسقطنا بعض ما قد يكون في هذا الشعر من المبالغة فإنه بلا ريب يعطينا صورة
لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية لبعض طوائف الشعب . وتلك ومضات نقدية قل أن

نراها في شعر هذا العصر ، وهي جديرة بأن تكشف لنا عن صورة هذا العصر وحياته الاجتماعية ، لو أن الشعراء عنوا بتسجيل إحساساتهم نحو ما يرونه حولهم .

ويظهر أن موقفه من المستخدمين وانتقاده لهم جعلهم يقفون منه موقف العداء ، بل تصدى بعضهم لمرتبته فحاول أن يقطعه عنه ، مما دفعه إلى الاستنجاد بالرؤساء كي يوصلوا إليه مرتبه . واتصل البوصيري ببعض رجالات عصره ، كالمصور قلاوون ، ويحفظ له من شعره فيه ما أنشأه في مدحه بعد أن بنى المنصور مدرسته الكبرى ، إذ قال :

ومدرسة ود الخورنق أنه	لديها خطير والسدير غدير ^(١) .
مدينة علم ، والمدارس حولها	قرى ، أو نجوم بدرهن منير
تبدت فأخفى الظاهرية ^(٢) نورها	وليس بظهر للنجوم ظهور
بناء كأن النحل هندس شكله	ولانت له كالشمع فيه صخور
بناها سعيد في بقاع سعيدة	بها سعدت قبل المدارس دور
ومن حيثما وجهت وجهك نحوها	تلقتك منها نضرة وسرور
إذا قام يدعو الله فيها مؤذن	فما هو إلا للنجوم سمير

كما اتصل من قبل بالأمير نضر الدين ، أحد كبار الأمراء في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكما اتصل ببعض وزراء الدولة ، ومنهم صاحب بهاء الدين بن حنا ، الذي يروى صاحب الفوات أنه أرسل إلى البوصيري يسأله أن يعطيه قصيدته البردة ، وحلف ألا يسمعها إلا قائما حافيا مكشوف الرأس .

وللبوصيري شعر تهكمي أجاد في معظمه ، ومن ذلك ما رواه تقي الدين بن سيد الناس ، من أنه كانت له حمارة استعارها منه ناظر الشرقية ، فأعجبته فأخذها ، وجز له ثمنها مائتي درهم فكتب على لسانها إلى الناظر : المملوكة حمارة البوصيري :

يا أيها السيد الذي شهدت	أخلاقه لي بأنه فاضل
ما كان ظني يبيغني أجـد	قط ، ولكن صاحبي جاهل
لو جرسوه على من سفه	لقلت غيظا عليه : « يستاهل »

(١) الخورنق . قصر للنعمان الأكبر . والحظيرة : المحيط بالشئ خشبا أو قسبا . السدير : نهري ناحية

الحيرة . (٢) الظاهرية : المدرسة التي بناها الظاهر بيبرس .

أفصى مرادى لو كنت فى بلدى أرعى به فى جوانب الساحل
ويعد هذا فما يحل لكم أخذى ، لأنى من سيدى حامل

ويستخدم البوصيرى أحيانا اللغة العامية . وأجود شعره ماقاله فى مدح الرسول . وإن
شعره التهكى وشعره فى الهجاء ، وشعره النقدى ، يدلنا على نفسية حساسة لطيفة العشرة ،
غير متزمتة ، برغم ما أخذته من دروس التصوف .
وعاش البوصيرى سنوات بعد أن سقطت عكا آخر ما كان بيد الفرنج فى يد المسلمين ،
واختلف مؤرخوه فى سنة وفاته بين سنة ٦٩٤ و٦٩٦ هـ (١٢٩٤-١٢٩٦ م) ودفن بالإسكندرية
حيث قبره بها مشهور يزار .

الباب الثاني

الكتابة

١ - فنونها

تعددت ألوانها في عصر الحروب الصليبية بين كتابة سلطانية ، ورسائل إخوانية ، وأدب خلقي سياسي ، وأدب تاريخي ، وأدب قصة ، وأدب شعبي ، وأدب تأليني ، صدرت به الكتب .

الكتابة السلطانية

ونعني بالكتابة السلطانية هذه التي تتناول شئون الدولة وأمور السلطان ، في الداخل وفي الخارج ، فتشمل بيعات الخلفاء ، وتقاليد الملوك وولاية العهد ، ومراسيم إسناد الوزارة ، والنيابة ، والقيادة ، والقضاء ، والتعليم ، والخطابة ، وغير ذلك من شئون إدارة الدولة ، والتوقيعات ، وبلاغات القصر ، والمشورات السياسية والاقتصادية وغيرها ، ونسخ الأمان والایمان ، وكتابة التقارير ، وشئون السفارات بين بعض ملوك الإسلام وبعض ، وبينهم وبين ملوك الفرنج ، وكتابة المعاهدات ، والرسائل الديوانية . وقد وفي النثر بهذه الأغراض السلطانية حق الوفاء ، واسبغ عليها حلة من الأناقة ، متوخياً الجمال والتأثير ، فإذا كتب بيعة الخليفة ، كما كان يفعل في عهد الخلفاء الفاطميين (١) ، تأنق الكاتب في انتقاء الألفاظ واختيار الأسلوب ، ومضى على سنة أهل عصره : في التزام السجع ، لا يحيد عنه ، يطرزه بأى من القرآن ، يستشهد به ، ويقتبس منه ، وكان من رسومهم في كتابتها أن يبدؤوها بحمد الله والثناء عليه ، مطيلين في تعداد أوصافه ، وبالصلاة على محمد ، وعلى ، واصفين الأول بأنه جدم ، والثاني بأنه أبوم ، يطنبون في أوصاف الإثنين ، ماشاء لهم الإطناب ، قائلين : « وصلى الله على جدنا محمد ورسوله .. وعلى أئمتنا أمير المؤمنين

(١) في صبح الأعشى (٢٩١:٩) نسخة بيعة كتب بها للخليفة الحافظ لدين الله .

على بن أبي طالب ... ، ومن رسومهم كذلك الاطناب في بيان أهمية الخلافة لنظام المسلمين ، وضرورة قيامها لنفعهم وصلاتهم ، كما كان العهد لا يميل من تكرير عقائد الفاطميين ، في أنهم الخلفاء حقاً ، وأنهم أولى الناس بالخلافة ، ويطنب ويطنل ، في وصف الخليفة والثناء عليه .

ويبدو أثر الحروب الصليبية في هذه البيعات في حديثها عن محمد رسول الله ، ناصية على أنه « الذي أخبر الأنبياء والمرسلون بصفته ونعته ، وتداولوا البشرى بما يستقبل من زمانه وبعثه ، وذكره فيما أتوا به من كل كتاب أوحاه الله وأنزله ، واعترفوا بأنه أفضل من كل من نبأه الله وأرسله ^(١) » . وفي وصفها الخليفة من بين الأوصاف المشرقة له بأنه كان « عاملاً في سياسة الأمة عمل المجتهد المصيب ، مستقصياً حرصه في المحافظة على إعزاز الأمة ، مستنفداً جهده في الجهاد فيمن خالف أهل القبلة ^(٢) » .

وكان من رسومها كذلك التحدث في سعة عن الوزير وخلاله ونواحي مجده . وكل هذه المعاني تعرضها البيعة في سعة وإطناب ، كي تثبت في النفس وتضخ لديها ، وهو ما كان الخلفاء يرمون إليه ، وتعبر عنها البيعة في أسلوب مسجوع متأنق فيه ، لأنها تتعلق برأس الدولة وأكبر رجالها .

وقد اختفى هذا اللون من نثر هذا العصر بسقوط الخلافة الفاطمية ، وعاد إليها في عهد يديرس عندما حييت الخلافة العباسية في القاهرة ، بعد سقوط بغداد في يد التتار . ومن النثر الذي يتعلق برأس الدولة كذلك كتب تقاليد الملوك والسلاطين من هؤلاء الخلفاء العباسيين بالقاهرة ، وكانت التقاليد تأتي قبل ذلك من بغداد ^(٣) منذ سقوط الدولة الفاطمية ، إلى أن عادت الخلافة العباسية بالقاهرة ، فلما استقر الخلفاء العباسيون بمصر ، كتبوا التقاليد لسلاطين مصر ، وتحتوى هذه العهود ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله تمجيداً للملك الذي أنشئ العهد لأجله ، وتسجيلاً ليد على الخلافة العباسية ، بإقامة أركانها ، وإعادة بنائها ، ويضفي العهد الذي أنشئ للسلطان يديرس عليه ثوباً من التقدير والالجال ، إذ يقول :

(١) من البيعة السابقة .

(٢) من البيعة السابقة .

(٣) راجع تقليد الخليفة المستنصر بأمر الله لصالح الدين في حسن المحاضرة ٢ : ١٩ ، وتقليد الخليفة المنصور الملك الكامل في حسن المحاضرة أيضاً ٢ : ٢٩ ، وتقليد الملك العادل في صبح الأعشى ١٠ : ٩٩ .

« ... وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم ساجداً وراكعاً في تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الجليل متقدماً ، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً ، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً ... وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان ... »

ويمضى عهد التقليد في هذا الثناء والتعجيد ، ثم يبين له حدود سلطانه التي فوض إليه أمرها ، وهي: الديار المصرية ، والشامية ، والديار البكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفرازية ، وما يتجدد من الفتوح في كل مكان . ويبدو من هذا التقليد أن الخليفة يضع في يد السلطان كل سلطة ، حين يفوض إليه تفويضاً مطلقاً أمر الجند والرعية . ويمضى العهد موثقاً السلطان في عبارة بليغة بالتقوى ، والعدل ، والإحسان ، واختيار أعوانه بدقة ، ومحو سيء السنن . ويخص الجهاد بحديث طويل ، مبيناً قيمته في حياة الإسلام . ويختتم العهد ^(١) بالدعاء للسلطان . وعلى هذا النسق جرى تقليد ^(٢) الخليفة العباسي للمنصور قلاوون ، وزاد هذا التقليد أن نص فيه مفصلاً على التفويض المطلق في كل الأمور من الخليفة للسلطان .

وكما بلغ التأنيق في الكتابة الإنشائية منتهاه في كتب البيعات وتقاليد الملوك ، بلغ كذلك منتهاه في كتب ولاية اليهود ، وكانت تبدأ عادة بحمد الله حمداً فيه براعة الاستهلال ، ثم يذكر الشهادتين ، والصلاة على الرسول الكريم ، وعلى آله وصحبه ، كل ذلك مغمور بجو الغرض الذي أنشئ له الكتاب ، وبعدئذ يأخذ في الثناء على ولي العهد ، وحكمة تنصيبه ، ثم يذكر هدف الكتاب ، وهو تنصيب ولي العهد ، مبيناً حدود مملكته التي صار ولي عهداً ، حتى إذا عين ذلك وبينه أوصاه بما يناسب المقام من وصايا ، مجملاً في ذلك حيناً ، ومفصلاً حيناً آخر . ونستطيع بهذه الكتب أن نعرف إلى أي مدى اتسعت الامبراطورية المصرية في ذلك الحين ، وأن نقبين الحاكم المثالي في ذلك العصر ، ولعل خير ما يمثله لنا هو تقليد الملك المنصور قلاوون ولاية العهد لابنه الملك الأشرف ، فالحاكم المثالي الذي كان يدور بأذهانهم يومئذ هو من يتقى الله ، ويتبع قانون الشرع الشريف ، « فهو قانون الحق المتبع ، ومأمون الأمر المستمع ، وبه يتمسك من أشار وامتار ، وهو جنة والباطل نار ، فمن زحزح عن النار ، وأدخل

(١) العهد كله في صبح الأعشى ٩ : ١١١٥ .

(٢) التقليد في صبح الأعشى ١٠ : ١١٤٤ .

الجنة فقد فاز ، ، ويعدل ، فالعدل « مثير غروس الأموال ، ومعمّر بيوت الرجااء والرجال ،
وبه تزكو الأعمار والأعمال ، . يحمى الثغور ، ويعنى أكبر العناية بالجيش والأسطول .
وأطال التقليد في الحديث عن ذلك ، بما يدل على أن الناحية الحربية في ذلك العصر كان
لها جلالها وخطرها ، وأن مصر والشام كانا في أشد الحاجة إلى حاكم يصون حماهما ،
ويحمى ذمارهما .

هذه أهم النقاط البارزة التي وصف بها النثر الحاكم المثالي كما تخيله أهل ذلك العصر .
ولست أدعى أنحكام هذا العصر قد حققوها ، ولكنني ألتبس فيها ما كان الشعب يتخيله
يرمئذ عن حاكمه المثالي ، ونستطيع بالموازنة بين هذه المثل أن نقبين الفروق بين العصور
فيما ترجوه من حاكمها ، وفيما يبغيه الحاكم ويضعه من خطة يحكم بها شعبه ، وثلتمس أهم
ما كان يسود العصر من رغبات ، كما تتلس هذه الرغبات أيضاً فيما كتب من تقاليد للوزراء
والنواب ، ويبدو فيما كتب من سجلات الوزراء في عهد الدولة الفاطمية عقيدة الفاطميين في
أحقية على الخلافة ، وأحقية بنيه في الإمامة ، وفي أن هذه الإمامة ركن من أركان الدين
ولا يمل كتاب الفاطميين من تكرير هذه العقيدة وترديدها ، تمكيناً لها في النفس .

ففي سجل (١) كتبه ابن الخلال بتولية طلائع الوزارة يقول : « . . . والحمد لله الذي أوضح
أنوار الحقائق بأنبيائه . . . وختمهم بأفضلهم نفساً ومجتداً محمد هادي الأنام . . . وأورث أخاه
وابن عمه باهر شرفه وبارع عليه ، وأفرده بإمامة البشر وخص ، وأقرها فيه وفي عقبه إلى
يوم القيامة بجلى النص ، فأصبحت الإمامة لليلة الحنيفة قواماً ، ولأسباب الشريعة بأسرها
نظاماً ، ونقل الله نورها في أئمة الهدى من نسله ، فتناولها الآخر من الأول ، وتلقاها
الأكمل عن الأكمل . . . وعقيدتهم في أن الخليفة الفاطمي قد ورث عن آبائه معرفة أسرار
الدين ، وأنه وارث غوامض الحكم التي لا يعقلها إلا أعيان العالمين ، .

وبما يدل على ما وصل إليه الوزير من قوة وسلطان أن سجل لإنشائه يضيق عليه من
الصفات ما لا يكاد يضيق على نشر من الناس ، ويطلب في ذلك كثيراً ، فلا رتبة علا إلا وقد
قرعتها منزلاً ، ولا منزلة سنا إلا وقد سموت إليها متنقلاً ، ولا مزية فضل إلا احتويت
عليها وحزتها ، ولا منزلة نحر إلا طلتها بفضائلك وجزتها ، ولا مأثرة إلا وكننت فاتح بابها . . .

(١) السجل كله في حسن المحاضرة ٢ : ١٢٠ ومنه أخذنا هذه الاقتباسات .

سجلات تقليد أهل المناصب مناصبهم : من نيابة ، وقضاء ، وقيادة ، وتعليم ، وخطابة ، وغيرها ، أن يبينوا قيمة هذا المنصب ، وما فيه من التبعات الجسيمة ، وأهميته في حياة الأمة ، ويثبثوا على من وقع عليه الاختيار ، ويقدموا إليه بعض الوصايا التي يستدعيها منصبه (١) .

* * *

أما التوقيعات على القصص فقد قل الاحتفال بإيرادها في كتب الأدب ، ويظهر أنها وقفت عند حد الفصل فيما يقدم من القصص ، من غير أن يراعى فيها أناقة البرامكة وكتابتهم ، ولذلك ندر أن نعث على توقيع ملوك هذا العصر ووزرائه ، فلم أعثر فيما قرأته من أدب هذا العصر على غير أربعة توقيعات : أحدها للخليفة الفاطمي : الحافظ لدين الله ، وثانيها لنور الدين ، وثالثها والرابع للسلطان صلاح الدين ، أما أولها فقد كتب على (كشف) قدم للخليفة وفيه رواتب المستخدمين ، ويلحظ أن التوقيع طويل ، وقد جرى على منهج التوقيعات القديمة ، إذ تأنق فيه كاتبه ، فقال : « أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثير الإعطاء ، ولا يكدره بالتأخير له والتسويق والإبطاء ، ولما انتهى إليه ، ما أرباب الرواتب عليه ... شملهم برحمته وزأفته ، وأمنهم بما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيع بذلك بخط يده ، تأكيداً للإعطاء والمن ، وتهنئة بصدقة لا تتبع بالأذى والمن ، فليعتمد في ديوان الجيوش المنصورة لإجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم ، على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم ، وإيجابها على سياقها لكافتهم ، من غير تأول ولا تعنت ، ولا استدراك ولا تعقب ، وليجروا في نسبياتهم على عادتهم ، لا ينقض من أمرهم ما كان مبرماً ، ولا ينسخ من رسمهم ما كان محكماً ، كرماء من أمير المؤمنين وفعلاً مبروراً ، وعملاً بما أخبر به عز وجل في قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، » ولينسخ في جميع الدواوين بالحضرة إن شاء الله تعالى (٢) . . ولعل الصناعة فيه هي التي حفظته ، بينما أضع سواء التفريط في هذه الصناعة .

(١) راجع سجل تولية ابن بندار للقضاء بقلم ابن الأثير في حسن المحاضرة ٢ : ٩٣ ، وتقليد قضاء القضاء لابن بنت الأعز في نهاية الأرب ٢٨ : ٣٥ ، وسجلاً بتولية أحد المدرسين منصب التدريس في صبح الأعشى ١ : ٤٥٨ ، وسجل قاضي القضاة كال الدين بن العديم أن يتولى خطابة أحد المساجد في صبح الأعشى ١٢ : ٤٤٠ .
(٢) خطط المقرئ ٢ : ٢٣٨ .

والتوقيع الثانى لنور الدين ، وقع به على رقعة كتب إليه بها بعض من بحلب ، يذكر له أنه قد مات هاهنا رجل تاجر موسر ، وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها ، وله ولد عمره عشر سنين ، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة ، إلى أن يكبر الصغير فيرضى منه بشيء ، ويمسك الباقي للخزانة ، فوقع نور الدين : « أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فشمه الله ، وأما الساعى فلغنه الله (١) » .

أما التوقيع الثالث فقد كتبه صلاح الدين على ظهر كتاب طلب فيه أحد أمرائه أن يعود إلى بلاده مع جيشه ، والسلطان غير راض عن هذه العودة ، ويريد أن ينتظر ليشاركه في الجهاد وإبداء الرأى ، وكانت الرسل متواترة بين المسلمين والعدو فى الصلح ، فلما ورد هذا الكتاب كتب عليه : « من ضيع مثلى من يده ، فليت شعرى ما استفاد (٢) » . وهى تشبه توقيعات المتقدمين فى الإيجاز وتوضيح الفكرة .

والتوقيع الرابع لصلاح الدين أيضاً ، كتبه بخطه على الرسالة التى كتبها القاضى الفاضل يستأذن من السلطان أن يذهب إلى الحج ، فكتب : « على خيرة الله تعالى ، يا ليتنى كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً (٣) » .

* * *

ومن الكتب السلطانية ما كان ينشأ من سجلات فى عهد الخلفاء الفاطميين تصف مواكبهم ، وخروجهم إلى الاحتفالات ، وركوبهم وسعيهم إلى الصلوات ، ولابن الصير فى سجلات كثيرة فى هذا الغرض (٤) ، هى أشبه ماتكون ببلاغات كبير الأمراء ، ولكنها تمتاز عنها بالوصف والإسهاب ، مما جعلها معينا لوصف عادات الخلفاء ، وتقاليدهم ، فى خروجهم ، وركوبهم ، واحتفالاتهم ، وكانت هذه السجلات تكتب وترسل إلى الأقاليم .

(١) الروضتين ١ : ١٣ .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٣١ .

(٣) الروضتين ٢ : ٧ .

(٤) راجع قانون ديوان الرسائل ص ٣٣ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٩ .

وأغلب الظن أنه قد تشبهت الدولة الأيوبية ودولة المماليك بالدولة الفاطمية ، في كتابة مثل هذه السجلات وإذاعتها ، فقد كان سلاطين هاتين الدولتين يخرجون للاحتفالات بالأعياد والمواسم الدينية وغيرها^(١) ، وإن كانوا قد تركوا الخطابة لغيرهم من العلماء .

* * *

وكانت المنشورات من ألوان النثر السلطاني ، تخرج حاملة أوامر الدولة ونواهيها ، مبينة سياستها ، شارحة أهدافها ، تذاع وتقرأ على الناس في كل مكان ، حتى يعملوا بمقتضاها ، وكثيرا ما كانت تقرأ على منابر المساجد ، ومنها ما كان يرسله ديوان الخلافة إلى الأقاليم مؤذنا ببدء العام الهجري ، أو ببدء رمضان ، أو يوم العيد ، فقد كانت ترسل هذه المنشورات إلى الولاة ، ويطلب منهم إذاعتها في الناس . ولعلمهم في ذلك العصر كانوا يكتبون منشوراتهم بهذه اللغة الفنية ، ولا يكتبون فيها بإلقاء المراد صريحا ، غير محوط بالزخرف والزينة — لأنهم كانوا يريدون التأثير في نفوس شعبهم ، حتى يحدث المنشور أثره المنشود .

كما كانت أوامر الخلفاء والسلاطين ترسل كذلك في هذا النهج التقليدي الذي رأيناه : من بدء بالحمد لله ، والصلاة على رسوله ، وذكر مقدمة تناسب الموضوع ، وتصل إليه ، ويختتم الأمر بالدعاء للسلطان .

* * *

ومن ألوان النثر السلطاني كذلك كتب الأمان ، والتحالف ، وأيمان الاستيثاق ، وعقد المعاهدات ، ونعني بكتب الأمان ما يكتبه ديوان الحكم أمانا للخارجين على الدولة ، إذا هم ثابوا إلى رشدهم ، ورجعوا إلى حظيرة الطاعة والانقياد ، ونريد بأيمان الاستيثاق ما يحلف به أحد الطرفين لصاحبه أن يخلص له ، ولا يخرج عليه . والمعاهدات ما يعقد بين طرفين ، يتفقان على السلم ، وألا يلتجئا إلى الحرب ، ويعرف كل ماله من حقوق يناطها ، وواجبات يؤديها ، وكان يراعى في ذلك ما روعى في الألوان السابقة من حسن العرض ، والتأنق في

(١) راجع نهاية الأرب ٢٩ : ١ ففيه رسالة من قلاوون إلى سنقر الأشقر بركوب السلطان .

اختيار العبارة ، فن كتب الأمان والتحالف ما كتبه المنصور قلاوون إلى ملك اليمن ، يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس ، إنا داعون له ولأولاده ، مسالمون من سالمهم ، معادون من عاداهم ، ناصرون من نصرهم ، خاذلون من خذلهم ، لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضىناه لأنفسنا ، وإنا لا نقبل في حقه سعاية ساع ، ولا قول واش ، ولا تناله منا مضرة ، مدى الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازماً لشروط مودتنا ، التي شافهنا بها الأمير مجد الدين رسوله ... وهذا خطنا شاهد علينا والله على ما نقول وكيل ^(١) . »

ومن أيمان الاستيثاق ما حلف به الأمراء للملك الأفضل على ولد صلاح الدين ، عندما تحقق الناس أن والده على حافة الموت ، وكان نص اليمن المحلوف بها : « إني من وقتي هذا صفتيت نيتي ، وأخلصت طويتي ، للملك الناصر مدة حياته ، وإني لا أزال بأذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسى ومالى ، وسينى ورجالى ، بتمثلا أمره ، واقفاً عند مرضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل على ووريثه . والله إني في طاعته ، وأذب عن دولته وبلاده ، بنفسى ومالى ، وسينى ورجالى ، وأمثل أمره ونهيه ، وباطنى وظاهرى في ذلك سواء . والله على ما أقول وكيل ^(٢) . »

ومن أيمان الاستيثاق ما كان يحلف به ملوك المسلمين والفرنج ، بعد عقد هدنة بينهما ، أن يخلص كل منهما في صيانة المعاهدة وتنفيذ موادها ، وما يلحظ في هذه الأيمان غلظ القسم وتوكيده وتكريره ، فهو لا يكتفى بذكر القسم به مرة واحدة ، بل يكرره باسمه مراراً ، وبصفات مرار أخرى ، ثم قسوة ما يترتب على الغدر من واجبات ، تكاد لا تطاق ، ففى اليمن التى حلفها قلاوون للفرنج يقول : « والله والله والله ، وبالله وبالله ، وتالله وتالله ، والله العظيم الطالب الغالب ، الضار النافع ، المدرك المهلك ، عالم ما بدا وما خفى ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم ، وحق القرآن ومن أنزله ، ومن أنزل عليه ، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقال فيه من سورة سورة وآية آية ، وحق شهر رمضان ، إني أنى بحفظ

(١) نهاية الأرب ٢٩٨/٢٩ ب .

(٢) النواهر السلطانية ص ٤٤٩ .

هذه ألوان من الكتابة السلطانية ، عنيت بالشئون العليا في الدولة ، على أنها قلة بالنسبة للرسائل السلطانية التي عنيت بباقي شئون الدولة وتصريف أمورها .

* * *

الرسائل الإخوانية :

وإلى جانب الرسائل السلطانية نجد الرسائل الإخوانية التي تتحدث عن العواطف الشخصية ، في الرضا والسخط والحب والبغض ، وما بقي لنا من هذا النوع من الرسائل قليل بالنسبة للنوع السابق ، وقد عالج كبار الكتاب يومئذ هذا اللون من الكتابة ، يتأقنون في عبارته ، ويتلمسون الجمال والزينة ، فللقاضي الفاضل^(١) ، وابن الأثير^(٢) ، وابن عبد الظاهر^(٣) وغيرهم^(٤) ، رسائل إخوانية كثيرة ، وجمع ابن سناء الملك ما دار بينه وبين أبيه والقاضي الفاضل من رسائل في مجموع دعاه : فصوص الفصول ، وعقود العقول^(٥) ، وقد تنوعت هذه الرسائل الإخوانية بين شوق ، وعتب ، ومدح - وثناء ، وبعبارة أخرى تناولت الرسائل ما تناولته أغراض الشعر الغنائي ، ولهذا كثر اقتباس الشعر في هذه الرسائل ، لتشابه غرضيهما . كتب القاضي الفاضل مشتاقا عاتبا :

(١) قام المستشرق Helbig بإحصاء شامل لرسائل القاضي الفاضل Enphyclopedie de l'Islam. Tome 11. P. 67. وقد عرفت من رسائله مجموعتين في دار الكتب . إحداهما باسم الدر التنظيم من ترسل عبد الرحيم (مصور رقم ٢٢٩٤ - أدب) والثانية باسم : الفاضل من كلام القاضي الفاضل (مصور رقم ٣٨٨٢ - أدب) ومجموعتين في المكتبة الأزهرية ، إحداهما باسم المختار من إنشاء القاضي الفاضل (مخطوط رقم ٤٦٩ - أباطة - ٧٠٦٥ - أدب) والثانية باسم : الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل (مخطوط بالأزهر رقم ٤٣٩ - أباطة - ٧٠٣٥ - أدب) وله في الفاتيكان بعض الرسائل — كما أنه له رسائل في باريس وميونخ (راجع Brockelmann Lyescharab Littiratur G. 1/385 Supl. 1/549) .

وله رسائل كثيرة جداً منتثرة في صبح الأعشى ، ونهاية الأرب ، والروضتين ، ووفيات الأعيان ، ومسالك الأبصار ، والنجوم الزاهرة ، وحسن المحاضرة ، والتذكرة الصفدية .

(٢) له رسائل ساطانية وأخوية في كتاب المثل السائر ص ٤٦ و ٤٧ و ١٠٥ و ١٣١ و ١٣٣ .

(٣) له رسائل في صبح الأعشى ورسالة بدار الكتب مخطوطة رقم ٣٩١١ - أدب .

(٤) بدار الكتب (رسائل الوهراني المتوفى بداريا (قرية قرب دمشق سنة ٥٥٧٥) مخطوطة رقم ٢٤ - أدب .

ورسالة لعني الدين بن ظافر (مخطوط رقم ٣٣٨ - أدب) .

(٥) مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ - أدب .

أكذا كل غائب غاب عن محبه
 غاب عنه بشخصه وسلا عنه قلبه
 لو أن لي يدا تكتب ، أو لسانا يسب ، أو خاطراً يستهل (١) ، أو فؤاداً يستدل ،
 لو صفت إليه شوقاً إن استمسك بالجفون نثر عقدها ، أو نزل بالجوانح أسعر وقدها .
 أو تنفس مشتاق أعان على نفسه ، وظنه استعاره من نفسه ، أو ذكر محب حبيباً خاله خطر في
 خطه ، وتفادى من أن يخطر به ذكر جلده .

حتى كأن حبيباً قبل فرقة لا عن أحبه ينأى ولا بلده
 بالله لا ترحوا قلبي ، وإن بلغت به الهموم ، فهذا ما جنى بيده
 ولولا رجاءه أن أوقات الفراق سحابة صيف تقشعها الرياح ، وزيارة طيف يخلعها
 الصباح ، لاستطار فؤاده كدأ ، ولم يجد ليوم مسرته أمدأ ، ولكنه يتعلل بميعاد لقياءه ، ويدافع
 ما أعله بلعاه أو عساه .

غنى في يد الأحلام لا أستفيدة ودين على الأيام لا أتقاضاه
 ومن غرائب هذه الفرقة ، وعوارض هذه الشقة (٢) أن مولاي قد بخل بكتابه ، وهو
 الذي يداوى به أخوه غليل اكتتابه ، ويستعديه على طارق الهم إذا لج في انتيابه .
 كثل يعقوب ضل يوسف فاعتاض عنه بشم أثوابه
 وهب أن فلانا عاقه عن الكتب عائق ، واختدع ناظره كمن هو في ناضر عيش رائق ،
 فما الذي عرض لمولانا حتى صار جوهر وده عرضاً ، وجعل قلبي لسهام إعراضه غرضاً
 بي منه ما لو بدا للشمس ما طلعت من المسكاره أو للبرق ما ومضا
 وما عهده — أدام الله سعاده — إلا وقد استراحت عواذله ، وعرى به أفراس
 الصبا ورواحله ، إلا أن يكون قد عاد إلى تلك اللعج ، ومرض قلبه فما على المريض حرج ،
 وأياما كان في فؤادي إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا أضيعها ، ونفسي أسيرة غلة لا أطيقها
 بل أطيعها .

وإني لمشتاق إليك وعاتب عليك ، ولكن عتبه لا أذيعها
 والآخر النظام — أدام الله انتظام السعد ببقائه وأعدائي على الوجد ببقائه ، مخصوص

(١) هل المطر واستهل : اشتد انصبابه .

(٢) الشقة بالضم والسكر : البعد .

بالتحية إثر التحية ، ووالهني على تلك السجية السخية ، وردت منها البابلي معتقاً ، وظلت من
أسر الهموم بلفائها معتقاً .

خلاتق إما ماء مزن بشهدة أغادى بها ، أو ماء كرم مصفقا
وقد اجتمعت آراء الجماعة على هجرانى ، ونسوا كل عهد غير عهد نسيانى
وما كنتم تعرفون الجفا فبالله من تعلمتم^(١)

* * *

الآداب التهذيبى

وللى جانب الآداب السلطانى والإخوانى ، نرى الآداب يريد أن ينهض بمهمة أخرى تلك
هى مهمة الإصلاح الخلقى والتوجيه السياسى ، فرأينا كتباً أدبية تؤلف فى هذا الشأن ، يبونها
كاتبها أبواباً تتناول الأخلاق الكريمة ، كالصدق والصبر والوفاء وغير ذلك ، ثم يورد تحت
كل صفة ماورد فيها من أدب رفيع : قرآناً ، أو حديثاً ، أو مأثوراً ، من كلام الرسول ،
والصحابه ، والملوك ، والأمراء ، والبلغاء ، أو حكماً وأمثالاً . وأكثر هذه الكتب ألفه
صاحبه لجمهور الشعب ، وبعضها ألف للملوك ، فزاد فصولاً تناسبهم حكماً لشعوبهم .
ومن هذه الكتب التى تهدف إلى تهذيب الأخلاق وتقويم النفوس : كتاب الآداب
النافعة بالالفاظ المختارة للجامعة ، ألفه أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة الأفضلى الشاعر
المتوفى سنة ٥٦٢٢ هـ ، جمعه حكماً قصيرة ، وأمثالاً سائرة ، تتعلق بالآداب الفردية والاجتماعية ،
فهذا فصل فى الملوك وأحوالهم ، يكرم المثالى من بينهم ، وهذا فصل آخر فيمن يجيب على
من يصحب السلطان ، وذاك فى ذم الحسد ، وغيرها فى ذم الغيبة ، أو الكبر ، أو مدح التواضع ،
أو الحث على اكتساب الآداب ، وأورد كثيراً من الحكم التى ترتبط بمكارم الأخلاق : من
انتظار الفرج ، والحض على اكتساب الإخوان ، وما يجب أن يكون عليه الصديق ، وذم
خوان الإخوان ، وذم الضراعة ، ومدح القناعة ، والأمر بالصبر على نوائب الدهر ، ومدح
الجود ، والتنقل رجاء بلوغ الآمال ، وكرامية الغلو فى المزاج ، وغير ذلك ، يورد من الحكم
والأمثال ما يبين فضل الخلق الكريم ، ونقص الخلق الشائن .

وكتب أسامة بن منقذ كتابه : لباب الآداب يرمى به إلى هذا الهدف أيضاً ، ورتبه على

(١) نهاية الأرب المطبوع ٨ : ٢٢٠ .

سبعة كتب فكتاب في الوصايا ، وآخر في السياسة ، وثالث في الكرم ، ورابع في الشجاعة ، وخامس في الآداب . يشتمل على خمسة عشر فصلا : أولها في الأدب . وثانيها في كتمان السر ، وثالثها في أداء الأمانة ، ورابعها في التواضع ، وخامسها في حسن الجوار ، وسادسها في حفظ اللسان ، وسابعها في القناعة ، وثامنها في الصبر ، وتاسعها في الحياء ، وعاشرها في ترك الرياء ، والحادي عشر في الإصلاح بين الناس ، والثاني عشر في التعفف عن السؤال ، والثالث عشر في التحذير من الظلم ، والرابع عشر في الإحسان وفعل الخير ، والخامس عشر في مداراة الناس والصبر على الأذى . والكتاب السادس في البلاغة ، والسابع في الحكمة .

وهو في هذه الكتب جميعها يورد من القرآن ما يرتبط بالبَاب ، ثم يثنى بالأحاديث المتعلقة به ، وبعدئذ يأتي بالمرويات الأخرى ، عن العرب والعجم ، ففي كتاب السياسة مثلا يورد من الآيات مثل قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين » . ثم يورد من الأحاديث ما يتعلق بسياسة الرعية ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « يوم من إمام عدل خير من عبادة ستين سنة ، وحده يقام في الأرض بحقه أزكى من مطر أربعين صباحا » . ثم يروى ماورد على السنة الساسة مثل زياد ، ومعاوية ، والوليد بن عبد الملك . ويورد عهود بعض الملوك ، ووصاياهم ، وبعض أعمالهم ، وينقل بعض آراء الفرس مثل قول بزرجمهر : عاملوا أحرار الناس بصفو المودة ، وعاملوا العامة بالرغبة والرغبة ، وعاملوا السفلة بالخافة صراحا ^(١) . ويورد بعض خطب الساسة ، ويروى عن حكماء الهند ، والحكام بعامة ، ويورد بعض الرسائل السياسية ، كالرسالة التي كتبها أرسطو للإسكندر والرسائل التي تبودلت بين معاوية وزباد ، والشعر الذي يتحدث عن سياسة الرعية ، كقول الشاعر :

تهدى الأمور بأهل الرأي ماصلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد
لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا ^(٢)

(١) لباب الآداب ص ٣٩ .

(٢) لباب الآداب ص ٧٤ .

وهو ينتقل من فكرة إلى فكرة ، ومن حكمة إلى أخرى ، من غير رابط ولا حسن انتقال ، جاعلاً هدفه جمع كل ما يستطيع جمعه من الحكم ، التي ترتبط بالموضوع الذي يعالجه .

وكتب ابن العربي كتابه : محاضرة الأبرار ، ومسامرة الأخيار ، في الأدبيات والنوادر والأخبار ، كما كتب ياقوت الرومي كتابه : أسرار الحكماء ، والكتابان يرميان إلى الهدف السابق ، ويقصدان النصيحة ، ويحبيان في التصوف ، وقد جمعاً كثيراً من كلام الصحابة والملوك والأمراء والبلغاء ، واشتملا على كثير من الحكمة والمثل .

ومن الكتب التي استخدمت الأدب لتهديب الحكام كتاب سراج الملوك للطرطوشي ، الذي ألف كتابه للأمين البطاحي وزير الأمر الفاطمي ، وقد نظر مؤلفه في سير الأمم الماضية ، والملوك الحالية ، فجمع محاسن ما انطوت عليه سيرتهم ، وخاصة ملوك الطوائف ، وحكام الدول ، ووجد ذلك في ست من الأمم : هي العرب ، والفرس ، والروم ، والهند ، والسند ، والسند هند فنظمت ما ألفت في كتبهم من الحكم البالغة ، والسير المستحسنة والكلمة اللطيفة ، والتوقيع الجليل ، والأثر النبيل ، إلى ما رويته من سير الأنبياء ، وآثار الأولياء ، وبراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن العزيز الذي هو بحر العلوم ، وينبوع الحكم ، ومعدن السياسات ، فانتظم الكتاب غريباً في بابيه ، لم تسبق إلى مثله أقلام العلماء^(١) . وهو يرى العلم يمثل ما في هذا الكتاب « عصمة الملوك والأمراء ، ومقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنحهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية .

وهو مثلاً في الباب الأول الذي وضعه في مواضع الملوك يبين لهم حقارة الدنيا ، وأن الموت آت لا محالة ، كي لا يغتروا بالدنيا ، ويروى في ذلك قصصاً عن الملوك ، والحكام ، والشعراء ، ويروى كلامهم وأثر فناء الدنيا ، والموت في نفوسهم ، ويروى قصص من زهدوا في الدنيا . من أبناء الملوك . والكتاب يقع في أربعة وستين باباً ، يجرى كله على هذا النسق .

ومن هذه الكتب كتاب (المنهج السلوك في سياسة الملوك) ألفه لصالح الدين

(١) سراج الملوك ص ٥ .

أبو الفضائل عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر، ورتبه على عشرين باباً، قال في مقدمته :
كان المولى الملك الناصر صلاح الدين والإسلام والمسلمين ... آتاه الله ملكه ... من
يرى الأدب وفضله، ويؤثر العلم وأهله، جمعت له ... هذا الكتاب وهو يحتوى على
طرائف من الحكمة، و... من الأدب، وأصول من السياسة، وتدبير الرعية، ومعرفة ...
المملكة، وقواعد التدبير، وقسمة النىء، والغنيمة ... و [ما يلزم الجيش من حقوق
الجهاد، ونهت فيه على الشيم الكريمة، والخلال الذميمة، وأشارت فيه إلى فضل المشورة
والحث عليها، وكيفية مصابرة الأعداء، وسياسة الجيش، وأودعته من الأمثال ما يسبق
إلى الذهن شواهد صحتها، ومعالم أدلتها، مع نواذر من الأخبار، وشواهد من الأشعار،
وضمته أبواباً تتضمن حكايات لائقة، ومواعظ شائقة، وحكايا بالغة، وسلكت في ذلك
كله طريق الاختصار، ومذهب الإيجاز، لئلا تمج الخواطر وترفضه الأسباع، ومن
أبواب الكتاب: فضل الأدب وافتقار الملك إليه، معرفة الأوصاف الكريمة. والحث عليها،
معرفة الصفات الذميمة والنهى عنها، بيان فضل المشورة والحث عليها، معرفة أصول
السياسة والتدبير، أوصاف أهل المشورة وحكايات لائقة، ما ينبغى للملك من سياسة
الجيش وتدبير الجنود، مصابرة المشركين، الحث على استماع المواعظ وقبولها من
النسك.

ومنهجه في ذلك كله أنه يشرح الفكرة بقلمه، ثم يؤيد فكرته بما قاله فيها السابقون،
ويمتاز الكتاب بأن له منهجاً في العرض، وخطة واضحة في ترتيب الباب، وإيراد
مسائله، وليس جمعاً لحكم وأمثال فحسب، كما رأينا في الكتب السالفة.

وأغلب الظن أن الكتاب الذى ألفه لصلاح الدين أيضاً شيث بن إبراهيم القناوى، وسماه
تهذيب ذهن الواعى، فى إصلاح الرعية والراعى^(١)، ينهج هذا النهج فى جمع الحكم
والقصص التى تتعلق بسياسة الدولة، وربما كان هذا منهجه أيضاً فى كتابه الثانى: لطائف
السياسة فى أحكام الرياسة^(٢).

(٢) الديباج المذهب ص ١٣١ .

(١) نسكت الهيمان ص ١٦٩ .

ومن هذه الكتب كتاب العقد الفريد للملك السعيد ، ألفه الوزير أبو سالم محمد بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٣ هـ ، يرمى إلى تهذيب الخلق عن طريق الأدب ، فؤلفه يرى أن الصفات منها حسن مرغوب فيه ، كالسرور ، والشجاعة ، والجود ، ومنها مذموم تنفر منه النفس كالخزن ، والجبن ، والبخل . ومن أراد أن يحصل له شيء من الحالات المرغوب فيها سعى في تحصيل السبب المقتضى لذلك ، فلا جرم كانت مطالعة هذا الكتاب تؤدي إلى تحصيل المطلوب ودفع المرهوب . والكتاب مبني على أربع قواعد : الأولى في مهمات الأخلاق والصفات ، والثانية في السلطنة والولايات ، والثالثة في الشرائع والديانات ، والرابعة في تكملة المطلوب بأنواع من الزيادات . ويفصل أبواب كل قاعدة ، فالأولى مثلاً تشتمل على عشرة أبواب : في العقل ، ومدح الصبر ، وذم الجزع ، ومدح الشكر ، وذم الكفران ، والمشورة وبركتها ، وذم تركها ، والعدل ، وذم الظلم ، والاتفاق ، وذم الشقاق ، والوفاء ، وذم الغدر ، والتيقظ ، وانتهاز الفرصة ، وذم التواني والغفلة ، والعفو ، واصطناع المعروف ، والصدق ، وذم الكذب . ويورد في كل باب ما يتعلق به من آيات وأحاديث ، ويذكر القصص التي تناسبه ، ويختتم الباب بالفقر الحكيم التي تتعلق به .

كان الناس يعدون من رسالة الأدب في ذلك العصر تهذيب الأخلاق وتقويم النفوس ، فوضعوا هذه الكتب التي عرضناها ، وبما هو جدير بالذكر أن الكتاب يومئذ كانوا مقلدين لمن سبقهم من الكتاب ، كأبي الحسن البصري ، المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، في كتابه : أدب الدنيا والدين . وإذا كانت الغاية الأولى للأدب هي التأثير في النفس فلا مانع من أن تتعدد أهدافه ، وأن يكون من بينها تهذيب الخلق . والقرآن ، وهو كتاب العربية ، ومثالها الأدبي الأعلى ، يرمى إلى هذه الغاية كذلك .

* * *

الأدب التاريخي :

كما أن بعض الكتاب رأى من رسالة الأدب أيضاً أن ينقل إلى الناس تاريخ العصر ، فاختر في كتابة كتب التاريخ أن يتأنق في العبارة ، ويجود الأسلوب ، حتى أصبح كتابه ثراً فنياً ، لا يختلف في شيء عن كتابة الرسائل الفنية ، وأشهر الكتب التي خلفها هذا العصر من

هذا اللون اثنان : ألف أحدهما في عصر الدولة الفاطمية ، وهو كتاب الإشارة ، إلى من نال الوزارة ، ألفه ابن الصيرفي على بن منجب - للمأمون وزير الخليفة الفاطمي ، أرخ فيه لوزراء الدولة الفاطمية ، منذ تأسيس دولتهم في مصر ، مبتدئاً بمن استوزره العزيز بالله ، تاركا المعز لدين الله ، لأنه كان يباشر التدبير بنفسه ، ولا يعول فيه على غيره^(١) . وانتهى بوزير عصره المأمون . والظاهر أن تأليف الكتاب ، وتقديمه للوزير ، جعل مؤلفه يختار هذه اللغة ، ولكنه لم يلتزمها في جميع الكتاب ، بل في بعض فصوله الأخيرة .

أما الكتاب الذي ألزم اللغة الفنية السائدة في هذا العصر من ألفه إلى يائه مع طول الكتاب وضخامته ، إذ يبلغ زهاء أربعمئة صفحة فهو كتاب الفصح القسي ، في الفتح القدسي ، فهو كتاب ألزم فيه صاحبه السجع ، ولم يقصد نقل المعلومات إلى السامع فحسب ، ولكنه أراد نقلها في صورة مؤثرة جميلة ، وسوف نتحدث عن الكتاب فيما يلي . ولا أريد أن أتحدث عن قيمة هذه الكتب من الناحية التاريخية ، فقد تشمل المبالغة والإغراق ، ولكنها تحدثنا ، ولا ريب ، عن شعور الكاتب إزاء هذه الأحداث ، وقد جعل صاحب الروضتين كتاب الفتح القسي من مصادره التي اعتمد عليها في كتابه .

* * *

الأدب القصصي :

وندر الأدب القصصي الموروث عن هذا العصر ، فليس فيما بين يدينا ما نعهده من هذا اللون بتوسع ، سوى كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، وفي إطلاق أدب القصة على هذا الكتاب تسامح ، فليس هو بالكتاب ذي الخطة الموضوعية المهيأة ، فهو مع بسطه للحقائق بدون أدنى تصنع أو إعداد يقص ما رآه أو سمعه في حياته — لبس فيه أية وحدة ، سوى وحدة مؤلفه التي تظهر شخصيته دائماً ، برغم تغير المناظر ، وإذ يجد القارئ نفسه حيناً في شيزر ، وأخرى في دمشق ، وثالثة في مصر ، ورابعة في الموصل ، فكانت إحدى الذكريات تستدعي أخرى عند هذا الشيخ الهرم ، الذي أناف على التسعين ، والذي أهمل أن يكتب

(١) الإشارة ص ١٩ .

بدقة ، وأولا بأول ، حوادث حياته ، ولهذا يجب ألا نبحت في كتاب الاعتبار عن الخطاة
الموضوعة ، ولكن أن نخلي أنفسنا للذة محادثة لا تصنع فيها ، حيث يجد المحدث لذته في أن
يروى قصص ماضيه ، ولا يتبع نظاما ، سوى ما يقوده إليه تخيله ، ولعله كان يلتمس العزاء
لضعفه في هرمه ، بأن يستعيد صور قوته الماضية ، ولقد قال :

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلبا من بعد حطم القنا في لبة الأسد

ترك أسامة نفسه لذكرياته يرويها ، في عبارة سهلة لازخرف فيها ، ولا أناقة ، بل يكاد
يكون في عامية معربة . ولم يتورع عن استخدام العامية ، وكلمات إفرنجية ، وفارسية ،
ويونانية ، وتركية .

قص علينا أسامة في كتاب الاعتبار ما شاهده : من المعارك الحربية ، بينه وبين العرب ،
أو بين الفرنج ، ورحلاته إلى دمشق ومصر ، وما رآه من أحداث في مصر ، شارك فيها ،
واتصل بها ، وما شاهده من الفرنج ، وصلته بهم ، ويصف وصفا قصصيا ما دار من معارك
بين المسلمين والفرنج ، ويصور الوقائع تصويراً حياً ، وبشيد بالشجاعة أنى رآها ، من
المسلمين ، ومن الفرنج ، ويروي تربته الأولى ، ويذكر عجائب ما رأى ، ويصف طباع
بعض الوحوش ، ويسجل ما دار من أحداث سياسية وحرية ، رآها في عصره ، ويقدر
المرأة ويروي بعض ألوان شجاعتها ، ويصور بعض ألوان الحياة الاجتماعية ، وصلة الفرنج
بالمسلمين ، في السلم والحرب ، ويصور الفرنج ، ويرسم بعض سماتهم ، وعاداتهم الفردية
والاجتماعية ، ويتحدث عن تأملات أوحى إليه بها طول عمره ، وركونه للأخطار ، ويلحق
بالكتاب نكتا ، ونوادر شاهدها ، أو سمع بعضها ، من ثقة . وهاك إحدى ذكرياته ، قال :
« كنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بي قوم من الإفرنج ، فأخذوني ، ومضوا بي
إلى بيت جبريل ، فحبسوني فيه في جب وحدي ، وقطع على صاحب بيت جبريل ألفي دينار ،
فبقيت في الجب سنة ، لا يسأل عن أحد ، فأنا في بعض الأيام في الجب ، وإذا قد رفع عنه
الغطاء ، ودل إلى رجل بدوي ، فقلت من أين أخذوك ؟ قال : من الطريق ، فأقام عندي ...
وقطعوا عليه خمسين دينارا . فقال لي يوما من الأيام : تريد تعلم أن ما يخلصك من هذا الجب
إلا أنا ، فخلصني حتى أخلصك ، فقلت في نفسي : رجل قد وقع في شدة يريد لروحه الخلاص ،
فما جأوبته . ثم بعد أيام أعاد علي ذلك القول ، فقلت في نفسي : والله لأسعين في خلاصه ،

(الحياة الادبية في الحروب الصليبية ٢١)

لعل الله يخلصني بثوابه ، فصحت بالسجان ، فقلت له : قل للصاحب ، اشتهى أتحدث معك ، ففضى ، وعاد أطلعني من الحب ، وأحضرني عند صاحب ، فقلت له : لى فى حبسك سنة ، ما سأل أحد عنى ، ولا يدري أنا حى أو ميت ، وقد حبست عندى هذا البدوى ، وقطعت عليه خمسين ديناراً ، اجعلها زيادة على قطيعتى . ودعنى أسيره إلى أبى ، حتى يفككنى ، قال : أفعل . فرجعت عرفت البدوى ، وخرج ودعنى ، ومضى ، فانتظرت ما يكون منه شهرين ، فما رأيت له أثراً ، ولا سمعت له خبراً ، فبئست منه ، فما راعنى ليلة من الليالى إلا وهو قد خرج على من نقب فى جانب الحب ، وقال : قم والله لى خمسة أشهر ، أحفر هذا السرب من قرية خربة ، حتى وصلت إليك فقممت معه ، وخرجنا من ذلك السرب ، وكسر قيدى ، وأوصلنى إلى بيتى ، فما أدرى مم أعجب ؟ من حسن وفائه ، أو من هدايته ، حتى طلع نقبه من جانب الحب ، وإذا قضى الله سبحانه بالفرج فما أسهل أسبابه^(١) . ويمجرى الكتاب كله على هذا النسق : ذكريات يستدعى بعضها بعضاً ، وهى لنا ذات فائدة كبرى ، لأنها تصور لنا كثيراً من نواحي العصر ، تصويراً حياً ، لشاهد عيان ، عاش حقبة طويلة من الزمن ، وشارك فى الحياة العامة بمقدار كبير .

وللى جانب هذا القصص الشخصى ، ظهر القصص الشعبى ، يردده القاص على الشعب ، فى المقاهى ، يرفه على الناس فى أوقات فراغهم ، وقد دخل هذا اللون من القصص فى كتاب (ألف ليلة وليلة) فإن جزءاً من هذا الكتاب كان مما وضعه القصاصون المصريون فى ذلك العصر^(٢) ، وتأثروا فى أسلوبهم بالأسلوب الشائع يومئذ ، بين الكتاب ، وهو أسلوب السجع ، الذى يعنى بالزخرف ، والزينة ، والاعتباس .

ولعل قلة الأدب القصصى فى ذلك العصر ، تعود إلى قلة ابتكار أدباء هذا العصر ، الذين نسجوا على منوال من سبقهم ، ووجدوا فى القصائد والرسائل ما يغنيهم عن الالتجاء إلى القصص . ومما يلحظ أن المثل الأعلى للكتابة فى ذلك العصر كان مقامات الحريري ، وهو كتاب قصصى ، كان جديراً أن يقتدى به فى إنتاج أدب قصصى . إلا أن أثره لم يتعد

(١) الاعتبار ص ٦٠

(٢) راجع تاريخ حياة ألف ليلة من كتاب (فى أصول الأدب) ص ١٨ و ١٤ و ١١ .

الاقتداء به في الأسلوب السجعي ، والجري وراءه في صنع مقامات خيالية .

* * *

النثر الوصفي :

وخلف هذا العصر نثراً وصفيّاً ، وإن كان قليلاً بالنسبة إلى الألوان السالفة ، فقلما انصرف الكتاب إلى وصف الطبيعة ، أو وصف مظاهر الحضارة التي يرونها بأعينهم ، وإنما يأتي ذلك كله عرضاً غير مقصود ، فرأينا مثلاً رسائل للقاضي الفاضل وغيره ، فيها وصف لمصر ، ووصف للشام ، ووصف لدمشق^(١) ، وزار العماد الكاتب مصر وتحدث عن مشاهدتها ، وآثارها ، فقال : وتوفرنّا على الاجتماع في المغاني ، لاستماع الأغانى ، والتنزه في الجزيرة والجزيرة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك ، والنيل ، والمقياس ، ومرامى السفن ، وبجارى الفلك ، والقصور بالقراقة ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة في المسائل الفقهية ، والمعاني الأدبية ، قال : واقترحنا على القاضي ضياء الدين الشهرزورى أن يفرجنا في الأهرام ، فقد شغفنا بأخبارها في الشام ، فخرج بنا إليها ، ودار بنا حولها ، ودرنا تلك البرابي والبرارى ، والرمال والصحارى ، وأحمدنا المقار والمقارى ، وهالنا أبو الهول ، وضاق في وصفه مجال القول ، ورأينا العجائب ، وروينا الغرائب ، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناءه ، فكل يأتي في وصفهما بما نقله لا بما عقله ، واجتهدوا في الصعود إليه فلم يوجد من توقله ، وحارت العقول في عقوده ، وطارت الأفكار عن توهم حدوده ، فياله من مولود للدهر قبل الطوفان ، انقضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمار الأخبار بذكر حديث أجداث عاده وثموده ، ويدل إحكامه وعلوه على همة بانيه في بأسه وجوده ، وإن في الأرض الهرمين ، كما أن في السماء الفرقدين ، وهما كالطودين الراصخين ، وكالجبيلين الشاخخين ، قد فنيت الدهور وهما باقيان ، وتقاصرت القصور وهما راقيان ، وكأنهما لأم الأرض ثديان ، وعلى ترائب التراب نهدان ، ولسلطان العالم علمان ، وإلى مراقى الأملاك سلمان ، وهما لليل والنهار رقيبان ، ولرضوى ولشيام نسيبان ، ومن زحل والمريخ قريبان ، ولعراوى الخطوب خطيبان ، ولثور الفلك روقان ، ولشخص الكرة الترابية ساقان^(٢) ، وهو

(١) الروضتين ٢ : ٥٨ و ٥٩ .

(٢) الروضتين ١ : ٢٦٧ .

وصف يدل على امتلاء قلبه بالإعجاب والتقدير لهذه الآثار الشائعة .

✽ ✽ ✽

مقدمات الكتب

وعنى بعض المؤلفين أن يضع لكتابه مقدمة ، يتأق فيها ، ويسير على نسق الرسائل الفنية ، فيسجع ويطنس ويطنس ، حتى ولو أن المقدمة كانت لغير كتاب أدبي ، كما كان يفعل ابن دقيق العيد ، وكثير غيره ، فقد كانوا يرون من الواجب أن يكون للمقدمة جمالها الأدبي ، وأن تكون لغتها غير اللغة العلمية الخالصة في بقية أجزاء الكتاب ، ومن أمثلة ذلك مقدمة ابن دقيق العيد في شرحه لكتاب الإمام في أحاديث الأحكام ، إذ قال : « أما بعد حمد الله فإن للفقهاء في الدين منزلة لا ينبغي شرفها وعلاها ، ولا تحتجب عن العقول طوالها وأضواها ، وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل ، البحث عن معاني حديث نبيه المرسل ، إذ بذات تثبت القواعد ، ويستقر الأساس ، وعنه يقوم الإجماع ويصدر القياس ، وما تعين شرعا تعين تقديره شروعا ، وما يكون محمولا على الرأس لا يحسن أن يجعل موضوعا . . . » واستمر على هذا المنوال إلى آخر المقدمة (١) .

✽ ✽ ✽

٢ — أسلوب الكتابة :

كان المثل الأعلى للكتابة الفنية في ذلك العصر مقامات الحريري ، اتخذوها إمامهم ، وقلدوها ، وهي كتابة تلزم السجع ، ولا تحيد عنه ، وتعنى بألوان المحسنات البديعية عناية كبرى ، تجد ذلك النم . في أول عصر الحروب الصليبية ، وتجدد في آخره ، وكان حاملو لوائها في ذلك العصر كله من اقتفى تلك السبيل ولم يكذب يحميد عنها ، وءا ينبغي أن يوجه النظر إليه أن القاضي الفاضل وهو من زعماء الأدب في ذلك العصر لم يبتكر طريقة جديدة ، بل سار في الطريق الذي مهد له من قبل ولم يخالفه ، وكان يتخذ مثله الأعلى الكتابة في عصر الدولة الفاطمية التي ربي في احضانها ، وكان يرى فيها يومئذ غضا طريا (٢) .

(١) طبقات الشافعية ٦ : ١٢ .

(٢) الروضتين ١ : ١٩٤ .

ولكنه لمكانته الاجتماعية ، ومركزه في الدولة ، ولكثرة ما أنتجه قيل لأسلوبه في الكتابة: الطريقة الفاضلية . وإن لم يأت الفاضل فيها بجديد ، اللهم إلا زيادة الصنعة ، والتمسك بها ، والإلحاح عليها .

كانت طريقة السجع والعناية بالمحسنات هي الطريقة المثالية في ذلك العصر ، في مختلف ألوان الكتابة : من سلطانية ، وإخوانية ، وقد رأينا نماذج مختلفة لذلك فيما أوردناه من هذه الألوان ، بل رأينا أن القصص الشعبي تأثر بهذه الطريقة ، عندما كتب بعض أقاصيص ألف ليلة وليلة ، ورأينا أن التأنيق في الكتابة لم يتخل عنه الكتاب ، حتى عندما كانوا يكتبون منشورات تذاع على الشعب ، كما وجدنا ذلك فيما أوردناه من نصوص ، بل تعدى التأنيق إلى عقود الزواج ، فصارت تستخدم فيها هذه اللغة الفنية المزخرفة كما كتب محيي الدين بن عبد الظاهر عقد زواج الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس ، على بنت سيف الدين قلاوون . بدأه بحمد الله مقرون ببراعة استهلال ، وبعد مقدمة تحدث فيها عن فضيلة السعيد بركة ، ومكانته الرفيعة ، قال : « والمرتب على هذه القاعدة نور يستمده الوجود ، وتقرير أمر يقارن سعد الأخيية منه سعد السعود ، وإظهار خطبة تقول للثريا لانتظام عقودها : كيف ، وإبراز وصلة يتجمل برصيع جوهرها متن السيف ، الذي يغبطه على إبداع هذا الجوهر به كل سيف ، ونسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كل أمر سديد ، ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد ، ويختار لها أبرك طالع ، وكيف لا تكون البركة في ذلك الطالع وهو السعيد ^(١) ؟ ... » ويمضي الكتاب مباركا هذا الزواج مثنيا عليه ، بمجدا له بهذا الأسلوب المتجمل الأنيق .

بل رأينا التأنيق فيما يمنحه الطلبة من إجازات ، يتولون بمقتضاها مناصبهم في الدولة ، فلا يكتفي حينئذ ببيان مدارس الطالب من علوم صار جديرا أن يكون مرجعا فيها ، بل تسجع الإجازة وتطيل فيما يتعلق بالموضوع ، كما أجاز ابن دقيق العيد تلميذه عمر بن المفضل ، فكتب له : « أستخير الله تعالى في الإيراد والإصدار ، وأعتصم به من آفتى التقصير والإكثار ، وأستغفر الله فيما فرط في الجهر والإسرار ، وأقول : إني ذاكرت فلانا زينه الله بالتقوى ، وحرسه في السر والنجوى ، في فنون من العلوم الشرعية : العقلية والنقلية ، فألفيته يرجع إلى

معقول صحيح ، ومنقول صريح ، وإطلاع على المشكلات ، واضطلاع بحل المعضلات ، لاسيما في فقه المذهب ، فإنه أصبح فيه كالعلم المذهب ، وقام بعلم العربية والتفسير ، فصار فيهما الفاضل التحرير . وقد أجبت إلى ما التمس ، وإن كان غنيا بما حصل واقتبس ، فليدرس مذهب الشافعي لطالبيه ، وليجب المستفتي بقله وفيه ، ثقة بفضله الباهر ، وبورعه الوافر ، وفطرته الوقادة ، وألمعيته النقادة^(١) ...

طغى هذا التكلف على جميع ألوان الكتابة الفنية يومئذ ، ومضى أعلام الكتاب يشيدون بهذا النهج في الكتابة ، ويجعلون السجع أعلى درجات الكلام ، وإذا تهيأ للكاتب أن يأتي به في كتابته فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم ، يستعبد كرائمها ، ويستولد عقائمه ، واحتجوا للسجع بأن القرآن قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليأتي بالسورة جميعها مسجوعة ، ثم شرطوا في هذا السجع الاعتدال في مقاطع الكلام ، وحتموا أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، لا أن يكون المعنى تابعا للفظ ، وإلا فإنه يجيء كظاهر موه . على باطن مشوه ، ويكون مثله كعمد من ذهب ، على نصل من خشب^(٢) ، وأوجبوا أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة ، حادة ، طنانة ، رنانة ، لاغثة ، ولا باردة ، وتأني الغثاة والبرودة من أن يوجه الكاتب عنايته إلى السجع نفسه . من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الجمال ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن^(٣) . كما شرطوا أن تكون كل واحدة من السجعتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها ، فإن كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه^(٤) . ولما كانت هذه الشروط لاتلين إلا في أيد ماهرة قديرة ، كان كثير مما كتب في هذا العصر مليئا بالثقل والتكلف ، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل ابن شيث يرى الكتابة في عصره قد انحطت عن مكانها ، وتدهورت منزلتها^(٥) .

ولغرام أهل هذا العصر بمقامات الحريري ، نسجوا على منوالها ، فوضعوا مقامات على نسقها حيناً ، وشرحوها حيناً آخر ، وحفظ لنا التاريخ أسماء كثيرين ممن ألفوا مقامات في هذا العصر ، فمنهم الحسن بن صافي الذي حذا حذو الحريري^(٦) ، وكان يقول : مقاماتي جد وصدق ، ومقامات الحريري هزل وكذب ، وعلق صاحب النجوم على هذا بقوله : «ولكن دون ذلك

(١) الطالع السعيد ص ٢٣٥ .	(٢) النثر السائر ص ٧٥ .
(٣) المرجع السابق نفسه .	(٤) المرجع السابق ص ٧٦ .
(٥) معالم الكتابة ص ٦ .	(٦) معجم الأديباء ٨ : ١٢٤ .

أهوال^(١)،، رفعا لشأن مقامات الحريرى . ووضع محمد بن يوسف بن نحرير مقامة كتبها لبعض الأمراء ، يصف فيها الجوارح والخيول ، حفظ لنا الطالع السعيد^(٢) جزءاً منها ، فى وصف الأمير الممدوح ، وآخر فى وصف الخروج إلى الصيد ، وثالثاً فى وصف كلب . ومنها أنه خرج يوماً مع أناس ، قد وصلوا برهم بإيناس ، كل منهم يهتز للأكرومة ، ويأوى إلى شرف أرومة ، على خيل مسومة ، مثقفة مقومة ومنهم محمد بن الحسن بن سباع المصرى وضع المقامة الشهائية^(٣) ، وأحمد بن على بن الزبير الغسانى ، صنف كتابه المقامات^(٤) . وبقي لنا من هذا العصر مقامة الشاب الظريف ، وفيها يتحدث عن حبه وزيارته لأحد الرياض مرة حيث يرى عاشقين يصفون له قصة غرامهم ، ويتحدثون عن عشقون . وهو يمزج فيها الشعر بالنثر . وقد نسج على منواله^(٥) شهاب الدين محمود الحلبي ، فوضع مقامة العشاق^(٦) .

وظفرت المقامات كذلك بشروح كثيرة فى ذلك العصر ، فمنها المطول فى شرح المقامات لابن ظفر الصقلى^(٧) ، ومنها شرح لصنى الدين عبد الكريم البعلبكي ، وصفه صاحب كشف الظنون بأنه جيد للغاية^(٨) . ومنها شرحان لأبى محمد الواسطى : أحدهما على حروف المعجم ، والثانى على ترتيب المقامات^(٩) . ومنها شرح المسعودى الذى قال عنه ابن خلكان : اعتنى بالمقامات الحريرية فشرحها ، وأطال شرحها واستوعب فيه ما لم يستوعبه غيره ، رأيت فى خمس مجلدات كبار ، لم يبلغ أحد من شراح هذا الكتاب إلى هذا القدر ، ولا إلى نصفه وهو كتاب مشهور كثير الوجود بأيدي الناس ، ... حصل ... كتباً كثيرة نفيسة غريبة ، وبها استعان على شرح المقامات^(١٠) . وبقي لنا من شروح هذا العصر شرح سلامة بن عبد الباقي ابن سلامة^(١١) .

وذلك كله يدلنا على مدى ماظفرت به المقامات من عناية ، وما كان لها من مكانة . ولكنه بما يجب التنبيه عليه أنه إلى جانب هذه الغالبية الكبرى من الكتاب الذين ولعوا بالسجع ، وأكبروه - كانت هناك طائفة أخرى لا ترى السجع فى الكلام جمالا ، بل تعاديه

(١) النجوم الزاهرة ٦: ٦٨٥

(٢) من ٣٦٧ . (٣) بغية الوعاة من ٣٤ .

(٤) المصدر السابق . (٥) كشف الظنون ج ٢ نهر ١٧٨٦ . (٦) قواف الوفيات ٢: ٨٧ .

(٧) بغية الوعاة من ٦٠ . (٨) كشف الظنون ج ٢ نهر ١٧٨٩ . (٩) قواف الوفيات ٢: ٢٨ .

(١٠) وفيات الأعيان ١ : ٥٢٠ . (١١) مخطوط بدار الكتب رقم ٧٤٣٧ - أ هـ .

وتقف له بالمرصاد ، وعد المتعصبون للسجع ذلك منهم ضعفا ، وعدم قدرة على الاتيان بالسجع^(١).

ومن الرسائل التي لم يراع فيها السجع ، رسائل يحيى النوى ، التي كان يكتبها للسلطان الطاهر بيبرس ، ينصحه فيها بالتزام جانب الشرع . كتب إليه مرة يطلب منه أن يعدل في الرعية ، وأن يزيل المكوس المفروضة على أهل الشام ؛ لأن العام كان ممحلا ، بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار ، وقلة الغلات والنبات ، وهلاك المواشى ، وكتب معه جماعة من العلماء . فلما وقف السلطان على الرسالة غضب ، وهدد جماعة الكاتبين ، فكتب إليه يحيى الدين النوى :

« بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد . من عبد الله يحيى النوى ، بنهى أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره ، فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد .. وقد أوجب الله الكلام عند الحكماء عند الحاجة إليه ، فقال تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ، ولا تكتمونه » ، فوجب علينا حينئذ بيانه ، وحرّم علينا السكوت ... وكان الجهاد فرض كفاية ، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخياز معلومة من بيت المال ، كما هو الواقع ، تفرغ باقى الرعية لمصالحهم ، ومصالح السلطان ، والأجناد ، وغيرهم ، من الزراعة والصنائع وغيرها ، مما يحتاج الناس كلهم إليه ، لجهاد الأجناد مقابل بالأخياز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ، ما دام فى بيت المال شيء : من نقد ، أو متاع ، أو أرض ، أو ضياع تباع ، أو غير ذلك . وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان ، أعز الله أنصاره ، متفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله معمر ، زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة فى حياة السلطان ، المقرونة بكمال السعادة والتوفيق والتسديد ، والظهور على أعداء الدين ... وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ... وأما أنا فى نفسى فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه ، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ، وإنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ، وأفوض

أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخاف في الله لومة لائم^(١) وكذلك الرسائل التي كان يكتبها نور الدين بخطه ومن إنشائه^(٢) ، أو التي كتبها صلاح الدين من إنشائه^(٣) . ويظهر أن هؤلاء الذين كانوا يكتبون كتابة مطلقة لا تفيد فيها بالسجع ، هم أولئك الذين ما كانوا يتخذون الكتابة حرفة لهم . أما أولئك الذين كانوا يتخذونها مهنة لهم فما كانوا يرون المجد الفنى في غير السجع ، والزخارف البديعية ، وأكاد لا أذكر أني قرأت لواحد من أولئك رسالة مطلقة ، بما كان يعد أناقة في تلك العصور . ويظهر أن بعض الكتاب ، حتى أولئك الذين كانوا يكتبون للسلطين ، قد أدى التزامهم للسجع إلى هبوط في الأسلوب وضعف في العبارة ، كهذه الرسالة التي أمر بيبرس بكتابتها إلى صاحب قبرص ، لما حطمت سفن مصر على سواحلها ومنها .. وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب ، وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح ، واتكل واتكنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه ، كن اتكل على الريح ، وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح ، ونحن ننشئ في يوم واحد عدة قطائع ، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم في مائة عام قلعة ، وما كل من أعطى مقدافاً قذف ، وما كل من أعطى سيفاً أحسن الضرب به أو عرف ...^(٤) . .

وبما هو جدير بالإشارة إليه أن الأناقة والزخرف ما كانا يطلبان إلا إذا كان المرسل إليه يعرف اللسان العربي ، أما غير هؤلاء فإنه لا ينبغي أن يلم بالألفاظ المسجوعة ، ولا ضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات ، فإن ذلك إنما يستحسن مادام مفهوم ما في تلك اللغة ، وغير منقول إلى غيرها ، وأكثر هذه الضروب إذا نقلت من لغة إلى لغة فسدت معانيها ، وعاد حسنها قبيحاً ، ومنها ما لا يفهم بعد نقله ، ومنها ما إن فهم كان له معنى غير ما قصد ، لاسيما إن كان الناقل لها مقصراً في العلم باللغتين : المنقول منها ، والمنقول إليها . و ... ، الأفضل في هذا الباب أن يتولى هذا الكاتب نقل ما يكتب به ، إن كان عارفاً بلغة من يكتبه بنفسه ، وإن لم يكن عارفاً بها فيتطلب من يكون عارفاً بها ، فينقل ما يكتب به ، ويكتبه

(٢) الروضتين ١ : ٦ و ١٣ و ١٧٤ .

(٤) السلوك .

(١) حسن المحاضرة ٢ : ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ٢ : ٧ .

بخط أصل تلك اللغة ولسانهم ، إما في ذيل الكتاب ، أو في كتاب طيه . . . وليس يحتاج في مكاتبة أهل اللغات المخالفة ، لغير المعاني السديدة ، البريئة من الاستعارات ، والكتابات العسائية لمواضع الحجج ، التي تبقى جزالتها ، ونضارة معانيها وبهجتها ، مع النقل والترجمة (١) . وهكذا سلت الكتابة التي يخاطب بها غير من يعرف العربية من أناة البديع وزخارفه ، ولعل خير مثال لذلك كثير من المعاهدات ، التي عقدت بين المسلمين والفرنج ، فقد كان القصد الأول منها وضوح المعاني من أقرب سبيل . وسوف نتحدث عن ذلك في فصل مقبل .

بل لقد يتبدل أسلوب الرسالة فيصبح أقرب إلى العامية العرب آخر كلماتها ، كهذه الرسالة التي تصف حادثة غريبة جرت بالشام ، قال صاحب نهاية الأدب : وفي هذه السنة (سنة ٦٨٠) في سابع عشر صفر ، ورد إلى الأمير حسام الدين لاجين المنصوري نائب السلطنة بالشام ، كتاب من الأمير بدر الدين بكتوت العلاني ، مضمونه بعد البسملة : يقبل الأرض ، وينهى أنه لما كان في يوم الخميس رابع عشر صفر ، وقت العصر ، حصل بالغسولة إلى جهة عيون القصب ، غمامة سوداء إلى الغاية ، وأرعدت رعداً كثيراً زائداً ، وظهر من الغمامة شبه دخان أسود من السماء ، ومتصل بالأرض ، وصور من الدخان صورة هائلة مقدار العمود الكبير ، الذي لا يحضنه جماعة من الرجال ، وهي متصلة بعنان السماء ، تلعب بذنبها ، فيتصل بالأرض شبه الزوينة الهائلة ، وصارت تحمل الحجارة الكبار المقادير ، وترفعها في الهواء كرمية سهم نشاب وأكثر ، وصار وقعها ، وتلاطم الحجارة بعضها ببعض يسمع له صوت هائل ، من المكان البعيد ، وما برح ذلك مستمراً في قوته ، واتصل بأطراف المعسكر المنصور ، وما صادف شيئاً إلا دفعه في الهواء ، كرمية نشاب وأكثر ، وما صادف شيئاً من الأشياء : من السروج ، والجواشن ، والعدد ، والسيوف ، والتراكيش ، والقسي ، والقماش ، والشباسات ، والكلوات ، والنحاس ، والأسطال ، إلا صار طائراً في الهواء ، كشبه الطيور . ومن جملة ذلك أنه كان في اسطبل المملوك خرج آدم ملان تطاييق نعال بيطارية ، حملة في الهواء . والجو ، كرمية نشاب ، ودفع من جملة مادفعه عدة من الجبال بأحمالها قدر ربح وأكثر ، وحمل جماعة من الجند ، والغلمان ، وأهلك شيئاً كثيراً من السروج التي ضادفها ، والرماح ، وطحن ذلك إلى أن بقي لا ينتفع به ، وأتلف شيئاً كثيراً ، مما صادفه في طريقه ، وضاع شيء كثير من العدد ، والقماش ، لمقدار ما تقي نفر من الجند وأصحاب الأمراء إلى

(١) قانون ديوان الرسائل ص ١٢٩ .

أن صاروا بغير عدة ولا قماش ، وغابت تلك الحية عن العين ، في عنان السماء ، فتوجهت في البرية صوب الشرق ، والذي عدم من قماش الجند منه ما راح في الغمامة السوداء ، ومنه ما أخذه بعض الجند ، مع أن المملوك ركب بنفسه ، ودار في العسكر المنصور ، واستعاد كثيرا مما عدم ، وبعد هذا عدم ما تقدم ذكره . وهذه الواقعة ما سمع مثلها أبداً ، ثم وقع بعد هذا يسير من مطر ، ثم إن (اللواجيق) الكبار حملها الهواء ، وهي منصوبة ، وصارت مرتفعة في الجو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ^(١) .

(١) نهاية الأرب ٢٩ : ٣٦ . مصور بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة .

ديوان الإنشاء

عنيت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء عناية كبرى، ووجهوا إليه مزيد اهتمامهم، اتخذوه وسيلة لرفعة قدرهم، ونشر ذكركم في الآفاق، ذلك أن كتابه يشيدون بمجدهم فيما يكتبون من رسائل وغيرها، فينمون في قلوب الشعب إجلالهم وتقديسهم، كما ينشرون اسمهم محاطا بهالة من التعظيم في أنحاء العالم، ولهذا كان لا يرأس هذا الديوان إلا أجل كتاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجل، ويدعى بكتاب الدست الشريف، ويستشير الخليفة في أكثر أموره، ولا يحجب عنه، متى قصد المشول بين يديه، وربما بات عند الخليفة ليالى، وكان جاريه مائة وخمسين دينارا في الشهر، وهو أول أرباب الإقطاعات، وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر أحد، ولا يجتمع بكتابيه أحد إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وفراشون، وله المرتبة الهائلة والدواة، وهى من أخص الدوى، ويحملها أستاذ من أستاذى الخليفة^(١).

وقال صاحب صبح الأعشى: ولم يزل صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك في كل زمن، مقدما لديهم على من عداه، يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء، والأهل، والولد^(٢). واستمرت العناية بهذا الديوان في عهد الدولة الأيوبية، وعصر المماليك، ينظر إلى صاحبه تلك النظرة السامية، ويختار من أسمى الحائزين على صفات الكمال، ولذا صح القول بأن ديوان الإنشاء ظل طول عصر الحروب الصليبية رفيع المكانة، معتنى به أشد العناية.

وكان رئيس ديوان الإنشاء يلقب في عهد الدولة الفاطمية (بكتاب الدست)، وظل الأمر من بعد هذه الدولة إلى أوائل دولة المماليك وديوان الإنشاء يليه كاتب واحد، يعبر عنه بكتاب الدست، وربما عبر عنه بكتاب الدرج، وحينما يليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست، ويقال إنهم كانوا في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة، أرفعهم درجة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وظل الحال على ذلك إلى أن ولى الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون، فلقب بكتاب السر، وتقل لقب كاتب الدست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان^(٣)، واستمر الحال على ذلك إلى آخر عصر الحروب الصليبية.

(١) خطط المقرئى ٢ : ٢٤٤، ٢٤٣.

(٢) صبح الأعشى ١ : ١٠١.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٣.

أما أعمال رئيس ديوان الإنشاء فالتوقيع على الرقاع والقصص ، بما يعتمده السكاتب من أمر الولايات ، والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة ، والتحدث في المظالم : من إطلاق ، ومنع ، وولاية ، وعزل ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة ، كما ينظر في الكتب الواردة على الديوان ، من داخل المملكة وخارجها ، ويبدى رأيه في الأمور الواردة بها ، وقد كانت الرسائل تسلم إليه محتومة ، وهو الذي يعرضها على الخليفة ، ويأمر بالإجابة عنها ، وهو الذي يعنى بالنظر فيما تتفاوت به المراتب في المكاتبات والولايات ، من الاقتراح ، والدعاء ، والألقاب ، خصوصا في زمن خلفاء الفاطميين ، كي لا يزداد أحد في الألقاب على ما لقبه به الخليفة ، كما يتصفح ما يكتب في الديوان قبل خروجه منه حتى يكون كامل الفضيلة : خطا ، ولفظا ، ومعنى ، وإعرابا ، ويعنى بأمر البريدورجالة ، وأمر أبراج الحمام ومتعلقاته ، وأمر العيون والجواسيس ، وغير ذلك من الأمور التي يعود نفعا إلى المملكة ^(١) .

ولما كانت هذه الأعمال كثيرة متشعبة النواحي احتاج رئيس الديوان إلى كتاب يعاونونه ، يختص كل كاتب بناحية منها ، فهذا يكتب العهود ، وتقاليد الولايات ، والكتب في الحوادث الكبار ، والمهمات العظيمة ، التي تتلى فيها الكتب على المنابر ورموس الأشهاد . وذاك يكتب مكاتبات الملوك . وغيرهما ينشئ مكاتبات أهل الدولة وكبرائها وولاتها ، من النواب ، والقضاة ، والكتاب ، والمشارفين ، والعمال وغيرهم ، ورابع يكتب المناشير ، والكتب للطف ، وخامس جيد الخط يبيض ما ينشئه المنشئ . وسادس يتصفح ما يكتب في الديوان : من جميع الإنشاءات ، والتقليدات ، والمكاتبات ، حتى لا يكون فيها خطأ في الخط ، أو اللفظ ، أو المعنى ، أو الإعراب ، ولذا وجب أن يكون هذا المتصفح على المنزلة في اللغة والنحو وحفظ كتاب الله ، وسابع يعرف لغة أجنبية من فارسية ، ورومية ، وفرنجية ، كي يترجم ما يرد إلى الديوان بغير اللسان العربي ^(٢) .

(١) راجع أعمال صاحب ديوان الإنشاء بالتفصيل في صبح الأعشى ١ : ١٠٥ وما يليها .

(٢) راجع هؤلاء السكاتب بالتفصيل في صبح الأعشى ١ : ١٣٠ وما يليها .

كان ديوان الإنشاء يومئذ رأس الدولة المفكر ، ووسيلة اتصال الحكومة بفروعها في داخل البلاد ، وبغيرها من الحكومات في خارج حدودها ، وقد استطاع النثر أن يبنى بحاجة الأمة ، وأن يعبر عن مشاعرها وإحساساتها ، وقد أدرك صاحب صبح الأعشى قيمة ما يسجله ديوان الإنشاء ، فقال : إنه لو جمعت بعض دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل ^(١) .

وإلى جانب هذا العمل الضخم كان ديوان الإنشاء يتخذ كمعهد علمي ، يتخرج فيه من يريد أن يشغل منصبا من مناصبه ، فيلتحق به من يتثقف ثقافة تعينه على مواصلة السير حتى يتخرج في الكتابة .

وتولى الكتابة في ديوان الإنشاء في عصر الحروب الصليبية طائفة من أعلام الكتابة في الأدب العربي كله ، فمنهم في عصر الدولة الفاطمية على بن أبي أسامة الحلبي المتوفى سنة ٥٢٢ هـ ، وتاج الرئاسة أبو القاسم على بن سليمان المعروف بابن الصيرفي ، والقاضي محمود بن أسعد بن قادوس ، والقاضي الموفق بن الخلال ، والقاضي الفاضل ، الذي رأس ديوان الإنشاء ، وضم إليه الوزارة في عهد صلاح الدين ، وكان هو والعماد أشهر كتاب الدولة الأيوبية . وتوالى كتاب الإنشاء في هذه الدولة ، فمنهم أمين الدين سليمان ، وأمين الدين عبد المحسن الحلبي اللذان كتبوا للكامل بن العادل ، ولما ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب ولي ديوان الإنشاء صاحب بهاء الدين زهيرا ، ثم صرفه ، وولى بعده صاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، الذي ظل في ديوان الإنشاء إلى آخر الدولة الأيوبية ، وظل فيه إلى أوائل عصر دولة المماليك في أيام المنصور قلاوون الذي نقله إلى الوزارة ، وولى مكانه القاضي فتح الدين بن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، ولما مات ولي الأشرف خليل بن قلاوون القاضي تاج الدين أحمد بن الأثير ^(٢) ولعله آخر من عرفنا من الكتاب في عصر الحروب الصليبية .

* * *

ولما كان لهذا الديوان أهمية كبرى في هذا العصر ألفت كتب تتحدث عن نظمه ، وما يجب أن يتوفر في رجاله ، وتقدم لهم بعض ما يعينهم في أعمالهم ، ومن هذه الكتب : قانون ديوان الرسائل لأبي القاسم بن الصيرفي أحد رؤساء الكتاب في عهد الدولة الفاطمية ، والمتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وقد ألفه ليكون دستورا يختار بمقتضاه من يعمل في ديوان الرسائل ، رئيسا كان أو مرموسا ، وقدمه إلى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش أحد كبار

(١) صبح الأعشى ١ : ١٣٥ .

(٢) راجع المرجع السابق ص ٩٦ ، ٩٧ .

وزراء هذا العصر . ويبدو في فاتحته أثر المذهب الشيعي واضحاً ، ففيها صلاة على أخى محمد . وصفيه ، وهو على أبى طالب .

يأخذ الكتاب بعدئذ في بيان ما يجب أن يكون عليه رئيس ديوان الإنشاء : من العلم والأخلاق : كالدين ، والورع ، والأمانة ، والإسلام ، وأن يكون على مذهب الإمام الفاطمي عاقلاً ، بليغاً ، عالماً بفنون الكتابة ، حافظاً للقرآن ، والحديث ، والتاريخ ، والفقه ، والشعر ، وعلوم اللغة ، كما يجب أن يكون صبيح الوجه ، طلق اللسان ، وقوراً ، حسن اللقاء ، شديد الذكاء ، سريع الرضا ، بطيء الغضب ، ويكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يدانيه فيها أحد ، حتى يقرر في نفسه أمانة كل حديث يعله ، وتناسى كل خبر يسمعه .

أما ما يختص به متولى ديوان الرسائل من الأعمال فلأزمة الملك ، وتأمل الكتب ، وتصفح ما يكتب من السجلات والمنشورات ، وبذل ما يراه من الآراء الصائبة . ويمضي الكتاب متحدثاً عن شروط كل كاتب من الكتاب العاملين في الديوان .

ومما هو جدير بالإشارة إليه هذه الدقة التي كانت تطلب في ترجمة الكتب الواردة إلى ديوان الإنشاء ، بالخط الآرمي أو الرومي أو الفرنجي أو غيره من الخطوط المخالفة للخط العربي ، فقد كان يطلب ممن يترجم أن يشهد على نفسه اثنتين أن هذا الذي ترجمه تفسير لما ورد في هذه الكتب بلا زيادة ولا نقص^(١) . كما أن الأفضل لمن يكتب إلى غير من يتكلم العربية أن ينقل ما يكتبه إلى لغة المرسل إليه بنفسه ، أو بغيره ممن يجيد معرفة هذه اللغة إما في ذيل الكتاب ، أو في كتاب طيه ، فكان الرسالة كانت تكتب بلغتين : العربية والأجنبية معا ، فقد لا يجد الملك الذي يصل إليه الكتاب ناقلاً ماهراً عالماً باللغتين ، فربما أفسد الناقل المعنى ، فعاد الكتاب المصلح مفسداً^(٢) .

أما كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة فيعني كذلك بديوان الإنشاء ، ومؤلفه عبدالرحمن ابن علي بن شيث غامض التاريخ . ويظهر أنه كان كاتباً في ديوان الإنشاء ، وأنه عاش في أيام صلاح الدين ، والملك العادل ، كما يمكن أن يفهم ذلك من ذكره لها في كتابه (ص ٣٤) . كما أنه يستفاد من هذا الكتاب أيضاً أنه كان شيعياً ، فاكثرت في المقدمة بالصلاة على محمد وآله دون ذكر صحبه . ولما جاء ذكر علي قال : صلوات الله عليه ، بما لا يقوله إلا الشيعة .

(١) قانون ديوان الرسائل ص ١٤٠ .

(٢) للرجع السابق ص ١٢٩ .

قسم المؤلف كتابه أبواباً ، جعل الباب الأول لآداب الكاتب ، وجعل ركنها : التقوى والنصيحة لمن يخدمه ، وقد أطلال في بيان هذه الآداب ، وما ينبغي أن يكون عليه الكاتب خلقاً وعقلاً ، وخص كتاب الملوك وأركان الدولة بفصل خاص ، ذكر فيه آدابهم ، وما يجب عليهم من أعمال ؛ وهنا تحدث عن الدواوين وكتابها ، كديوان الجيش ، وديوان الإقطاع ، وديوان المال ، وعن موظفي هذا الديوان .

أما الباب الثاني فقد تحدث فيه عن أوائل الكتب ، وما يكون به التخاطب بين المتكاتبين على مقدارهما ، وقد صدر المؤلف هذا الباب بمقدمة تاريخية ، تحدث فيها عما كانت تصدر به الكتب ، وما كان فيها من البساطة ، وعدم التصنع ، والتعلق ، وما كانت تقسم به الكتب من الإيجاز البليغ ، برغم اشتغالها على المعاني الكثيرة ، وعما آل إليه أمر هذه الكتب : من زيادات في صدرها ، ودعاء في أولها ، وزخرف وزينة ، ومضى الباب بعدئذ يصف مأسه الكتاب أن يخاطبوا به المرسل إليهم : خلفاء ، وملوكا ، وغيرهم ، وما يدعى به هؤلاء وسوام وما ينعت به المكتوب إليه . ويتحدث عن شكل الكتاب ، ونقطه ، وعنوانه ، والتحميد في أوائل الكتب ، وذكر الآيات في صدرها ، والتزام السجع فيها ، والدعاء على الأعداء في مفتحتها ، وما يكنى به عن المرسل إليه .

وتحدث الكتاب بعدئذ عن أواخر الكتب ، وبم تختم ، وكيف تؤرخ .

ويصف الباب الثالث الخط وبرى القلم وإمساكه .

وأما الباب الرابع فيتحدث فيه عن البلاغة ، وما يتصل بها ، قال المؤلف : « هذا الباب هو الذى عليه المعول في الكتابة ، وفيه تتفاوت أقدار الكتاب ، وهو الذى فضل الله به من آتاه من عباده فصل الخطاب » (١) . والبلاغة المثالية عنده أن يكون اللفظ قليلا ، وأن يكون الكلام منطبقاً على المعنى ، لا يفضل عنه ، وأطلال في إيراد أمثلة توضح هذه البلاغة المثالية ، وأورد المؤلف بعدئذ نظرية في النثر ، يظهر أنها وجدت رواجاً في ذلك العصر ، تلك هي أن الخذاق من أهل الصناعة يرون « أن الكتابة هي حل المنظوم من الشعر ، إذ معاني الشعر قد استخدمت لها الألفاظ كلها ، لعناية الناس بها ، فاذا كان الكاتب ماهراً نظر إلى معنى الذى يقصده من الأشعار ، فحل نظامه ، وحلى به كلامه ، ولهذا قلنا : إن نعوت الشعر

(١) معالم الكتابة ص ٦١ .

كلها تصلح أن تكون للنثر . ولست أريد هنا تصحيح هذه النظرية أو تخطيطها ، ولكني أريد لحسب أن أبين وجهة نظرهم التي كان لها أثرها في صناعة الكتابة من ناحية ، وفي التأليف الأدبي في ذلك العصر من ناحية أخرى ، وفي منهج ثقافة الكتاب من ناحية ثالثة كما سنرى . ولما كان الجمع والتزام ألوان الزينة هو المذهب المثالي للكتابة في ذلك العصر ، تحدث المؤلف عن السجع ، وعن أنواعه ، وعن سمات ألوان الزخرف ممثلاً لكل نوع ، وهي أبواب تدخل اليوم عندنا في علمي البيان والبدیع . والمؤلف في هذا الباب ينهج نهجاً تطبيقياً في توضيح الأنواع البلاغية التي أوردها .

كما نهج هذا النهج أيضاً في الباب الخامس الذي أورد فيه عبارات يقوم بعضها مقام بعض ، لا يستغنى عنها الكاتب . وقد دفع المؤلف إلى إيراد هذا الباب رغبته في أن يجدد الكاتب كتابته ، ولا يقف عاجزاً عند المأثور من الأساليب ، أورد المؤلف من ذلك قدراً كبيراً انتقل منه إلى الباب السادس الذي أورد فيه طائفة صالحة من الأمثال التي يدبجها الكاتب في كلامه ، ويشتشهد بها نظماً عند توغله في القول واقتحامه ، فيإيراد البيت الشعر في مكانه ، والتمثل بالمثل السائر في موضعه ، من أحسن أنواع الكتابة وأعظم فنونها^(١) . وهو في هذا الباب يورد المثل شعراً أو نثراً ، ويبين مضربه .

وأورد في الباب الثامن ما لا بد للكاتب من النظر فيه ، والتحرز منه ، وكثيراً ما يسقط فيه كثير من الكتاب ، فمن ذلك معرفة ما يكتب بالياء من الكلمات ، وما يكتب بالياء والالف . ومنها ألفاظ يغلط في استعمالها كثير من الكتاب ، يوردها ، ويبين وجه الصواب في استخدامها ، ومنها ما يذكر ويؤنث من جسد الإنسان ، وأفعال جاءت متعدية كما هي لازمة ، وألفاظ أورد معانيها ، ويختتم الكتاب بذكر كتابة الهمزة وكيف تكتب .

من هذا العرض نقبين أن هذا الكتاب هو إعداد كاتب ديوان الإنشاء ، وإمداده بالزاد الصالح له في مهنته ، وعرض نماذج بلاغية يقتفيها فيما يكتب ، وهو بذلك يعد مكملاً لكتاب قانون ديوان الرسائل ، الذي تحدثنا عنه فيما مضى .

وينهج نهج الكتاب الثاني الذي يرمى إلى تمرين كاتب الإنشاء وإعداد وإمداده — كتاب المفتاح المتشأ في حديقة الإنشاء لابن الأثير ، تحدث في مقدمته مؤلفه عن صناعة الكتابة ، وأنها أشرف صناعات الممالك ، فهي لها اليد اليمنى التي بها الأخذ والعطاء ، والمنع

(١) معالم الكتابة ص ١٠٥ .

والإمضاء، ولهذا يجب أن يختار لها من يتصف بصفات عقلية وخلقية وثقافية، وهنا يعدد المؤلف هذه الصفات، ولا سيما ما يحتاج إليه من ألوان البلاغة، ولا يفرق المؤلف في ذلك بين ما يحتاج إليه في صناعة النثر أو الشعر، ورتب ابن الأثير كتابه في بابين: أولهما في مراتب الكتب والمحاطبات، وكيفية وضع الأسماء، وأين يكون محلها، والثاني في بدء الرسائل وختمها، فيذكر ما تبدأ به الرسائل والأنايب التي يخاطب بها المرسل إليهم، والدعاء لهم، ويورد أدعية متنوعة للمرسل إليهم، ويذكر فصلاً يأتي فيه بأدعية لأرباب الملل غير الإسلام، ويأتي بالصيغ التي يقدمها الكاتب بين يدي مراده، ويشرح كثيراً من أنواع المحسنات البديعية.

أما كتاب قوانين الدواوين الذي وضعه ابن عساق المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، فلم يقف عند ديوان الإنشاء، بل عني أول ما عني بديوان الخراج، والناحية المالية للدولة، وإن كان قد تحدث عن مكانة الكتابة في الدولة، وصفات الكتاب.

الكتاب

أن أهمية ديوان الإنشاء ، والمكانة السياسية لرجاله دفعت من يريد الوصول إلى هذا المنصب أن يأخذوا بحظ كبير من الثقافة ، يؤهلهم لهذا المنصب الرفيع ، فضلاً عما يجب أن يتصفوا به من صفات عقلية وخلقية ، ولعل ما ألف من كتب تتعلق بديوان الإنشاء تبين لنا الثقافة التي كان من الواجب أن ينالها كاتب الإنشاء في ذلك العصر ، فيجب أن يكون ملماً بعلوم الأدب ، وهي اللغة ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والعروض ، والقوافي ، آخذاً من كل فن من فنون عصره بطرف ، حتى إذا وردت مسألة دينية ، أو سياسية ، كان مستطيعاً أن يخوض فيها ، وأن يتحدث عنها . قال صاحب العقد الفريد للملك السعيد مبيناً أهمية كاتب الإنشاء ، وما يجب أن يكون عليه من الثقافة : « كتابة الإنشاء من مقومات الدولة وقواعد المملكة ، وصاحبها المباشر لها في خدمة السلطان ، معدود من أكبر الأعضاء والأعوان ، نزل منه منزلة القلب واللسان من الإنسان ، فإنه المطلع على الأسرار ، المجتمع لديه خفايا الأخبار ... كم من عصب باغية أراق قلم الإنشاء بشباه دمها ، وكتائب جيش قابلها كتاب فردا وهزمها ... فهو يقوم من مناد الدولة ما تقومه المقائب ، ويقوم بنصرة الملك في مواقف لا تصل إليها الكتائب ... هذا إلى غير ذلك من الأغراض المهمة ... التي لا بد للمملكة من إقامة وظائفها ... من تهتة يعظم بها قدر النعمة الموهوبة ، وتعزية يرد بها حرارة العبرة المسكوبة ، وشفاعة يقتاد بها زمام القبول ، لحصول المأربة المطلوبة ، فلهذا كاتب الإنشاء المعاني ، علم هذه المعاني ، ضارب في أعشار العلوم بالقدر المخل ، وراكب من صنويات الفضائل مطا المحل الأعلى ، فإن مواد صناعته وأمتعة بضاعته ، وشروط براعته معرفة الآيات القرآنية ، وأسباب نزولها ، وعلم الأحاديث النبوية ، وكيفية مدلولها ، وفهم سير الملوك الأولى في أفاعيلها وأقاويلها ، والتضلع من الحكمة والأمثال بتفريعها وتأصيلها ، والتطلع على وقائع العرب ، بجملها وتفصيلها ، والتوسع في أبحر المعاني الشعرية ما بين متقاربها وطويلها ، فبذلك يملك زمام البلاغة والبراعة ، ويرقى بقدمه على قمم أهل هذه الصناعة ، فإذا أمره السلطان بكتاب تخير له أفصح ألفاظه وأرجح معانيه ، وجعل مطلع دعائه مشعراً بالفرض المودع فيه ، ويختصر قارة ، ويطنب أخرى ، ويستعمل في كل مقام ما هو أليق به وأحرى » (١) .

ولما كانت جودة الأسلوب شرطاً أساسياً للكاتب ، بها يمتاز ، وتعلو مكانته ، غنى بهذه المادة عناية تامة ، فألفت الكتب التى تبين ألوان البلاغة ، وتأتى بالمثل والنماذج ، التى يمكن الاقتداء بها والسير على منوالها ، وقد رأينا ما صنعه صاحب معالم الكتابة ، ليقدم للكتاب ذخيرة صالحة ، يستمدون منها ما يرفع أسلوبهم ، وينهض بنثرهم .

ولا يكاد يؤلف كتاب فيه ذكر لديوان الإنشاء إلا تعرض صاحبه فيه لألوان البلاغة التى يجب أن تكون فى قلم الكاتب ، فنجد صاحب العقد الفريد للملك السعيد يعقد باباً لكتابة الإنشاء ، ويتحدث عن أثر بلاغة الكاتب ، فى استمالة القلوب ، وامتلاك النفوس ، فتنتجح المقاصد ، وتم الأغراض ، ويشرح شعب البلاغة العشرة : من الاستعارة ، والتشبيه ، والسكناية والإيجاز ، والإطناب ، وغيرها ، لأنها الأصول ، وما عداها يرجع إليها ^(١) .

ولما كان الكتاب فى تلك الفترة يؤمنون بأن الشعر هو النبوع الذى يستقون منه معانيهم ، مضوا إلى التراث الشعرى يدرسونه ، ويحفظونه ولعل هذا هو السبب فى كثرة ما أثر عن هذا العصر ، من المجموعات الشعرية ، كما رأينا ، ومضى بعض العلماء يضع نماذج للكتاب ، فى طريقة الاستفادة مما أثر من هذا الشعر بحله ثرا ، فرأينا ابن الأثير يؤلف كتابه : الوشى المرقوم فى حل المنظوم ، يبين بطريقة عملية كيف نستفيد من الشعر معانى ، يوحىها إلينا ، فنعبر عنها ، وكيف نولد معانى جديدة من معانيه . وإن فيما رواه القاضى الفاضل عن نفسه عندما قدم إلى مصر يريد أن يتعلم الكتابة الإنشائية لدلالة على المنهج العلمى الذى كان الكاتب يأخذ به نفسه إذا أراد التبريز فى فن الكتابة . قال القاضى الفاضل : « كان فن الكتابة بمصر فى زمن الدولة المصرية غصنا طريا ، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رئيس يرأس مكانا وبيانا ، ويقسم لسلطانه بقلبه سلطانا . . . فأرسلنى والدى . . . وأمرنى بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به تلك الأيام ، رجل يقال له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ، ومثلت بين يديه ، وعرفته من أنا ، وما طلبتى ، رحب بى وسهل ، ثم قال : ماذا أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شئ سوى أنى أحفظ القرآن وكتاب الحماسة ، فقال : فى هذا بلاغ ، ثم أمرنى بملازمته ، فلما ترددت إليه ، وتدربت بين يديه ، أمرنى بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة ، فخللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية ، فخللته » ^(٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٥٠ وما يليها .

(٢) الوشى المرقوم ص ٩ .

فالمنهج العملي لتكوين الكاتب يومئذ هو أن يعد نفسه بثقافة أدبية قوية ، يحفظ لها القرآن ، وقدرًا صالحًا من الشعر ، يمرن نفسه على حله ، ونثره ، ويأخذ نفسه في ديوان الإنشاء ، إذا استطاع ، بالقرن على الكتابة ، وقراءة ما يدبجه فطاحل رجال النثر في الديوان ، ثم يتدرج في مناصبه ، حتى يصل إلى الذروة ، إذا أهله لذلك استعداداً.. وتلك الخطوة المثلى في التدريب المتمر لدوى المؤهلات .

وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة كبيرة من الكتاب يومئذ ، منهم شاعر بن عبد الله ، كاتب الإنشاء لنور الدين محمود ، وابن المنقار الكاتب الدمشقي لملوك دمشق قبل نور الدين ، وعبد الرحمن بن علي الخزومي ، وإبراهيم بن محمود الأسواني ، اللذان كتبوا بالصلاح الدين ، وسناب الملك الزبيدي كاتب الأمر الفاطمي ، وعلي بن أبي أسامة الحلبي (١) ، كاتب الإنشاء للأمر والحافظ ، وابنه أبو المكارم الذي كتب للحافظ ، وسليمان بن محمود بن أبي غالب الذي كتب للكامل ، وشمس الدين بن قريش ، وأحمد بن عبد العزيز بن العجمي ، وفتح الدين بن القيسراني ، من كتاب الدرج في عهد بيبرس ، وإسماعيل بن إبراهيم بن أبي البشر ، وغير هؤلاء ممن سنترجم لهم من كبار كتاب الإنشاء في ذلك العصر .

وبما ينبغي أن يوجه إليه النظر أن الكتاب كانوا قلّة بالنسبة إلى شعراء ذلك العصر ، ولعل ذلك راجع إلى أن مناصب ديوان الإنشاء كانت محدودة يومئذ ، وفي هذه المناصب كانت تأتي شهرة الكاتب ، فإنه من النادر أن نرى التاريخ يحتفظ بأسماء كتاب غير ديوانيين ، وذلك طبيعي في عصر ما كان الكاتب يستطيع أن يعيش فيه معتمداً على الشعب وحده ، فقل لذلك عدد الكتاب ، على عكس الشعراء ، الذين لم تقيد هم مناصب محدودة ، بل كان كل من لديه موهبة الشعر يستطيع أن يحمل بضاعته إلى من يشاء : من خلفاء العصر ، وسلاطينه ، وملوكه ، ووزرائه .

كما ينبغي أن يوجه النظر أيضاً إلى أن كتاب هذا العصر الذين عملوا في الديوان ، كانوا جميعاً من مدرسة واحدة ، هي مدرسة ابن العميد . التي تعني أعظم عناية بالسجع ، وتجتهد في أن تضم إليه ما تستطيع من ألوان المحسنات البديعة ، كالجناس ، والطباق ، والتورية ، واقتباس آيات القرآن ، والأحاديث ، وما أثر من كلام البغاء ، وحل آيات الشعر المشهورة ، وتضمين الكلام

(١) راجع خطط القرظي ٣ : ٤٠ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٥ : ٧٩ .

الحكم البالغة ، والأمثال السائرة ، ونوادر التاريخ ، ومسائل العلوم ، مضموما إلى ذلك كله ألوان المجاز ، والتشبيه والاستعارة ، وأكد هذه الطريقة القاضي الفاضل ، الذي ألح في استخدام هذه الطريقة ، فالزم السير على منوالها ، لا يكاد يقلت نوعا من أنواع الزينة وبخاصة التورية ، والجناس ، والطباق ، والاستخدام ، مسرفا في ذلك مبالغا فيه .

ويتفاوت كتاب هذا العصر فيما بينهم من حيث قوة الأسلوب وغزارة الإنتاج . ولندكر أيضا أن حظ الشعر كان أعظم كثيرا من حظ النثر في ذلك العصر ، إذ بقي لنا كثير من دواوين الشعراء ، ومن مجموعات شعرهم ، بينما لم يبق لنا إلا بعض مجموعات من رسائل القاضي الفاضل ، والحصكفي ، والوهراني ، وصفي الدين بن ظافر ، وابن عبد الظاهر ، وابن سناء الملك ، ورسائل منتثرة هنا وهناك لكتاب ذلك العصر (١) .

ومما يسترعى النظر أن عظماء الكتاب في ذلك العصر كانوا بمصر لا الشام ، إذا استثنينا العباد الكاتب الذي كان يزور مصر مع ذلك أحيانا ، ومن السهل تعليل ذلك بوجود ديوان الإنشاء في مصر ، وقد كان مكانا لتدريب الكتاب ، ونخريجهم ، وبأن الشام كان في آخر عهد الدولة الفاطمية يحكم حكما إقطاعيا مجزأ أجزاء صغيرة ، لا تستطيع أن تهيم للكتاب جوا ينهض بهم إلى النبوغ في هذا الفن . أما في مصر المتحدة ذات الملك الواسع والثروة الكبيرة فلها من سعتها ومواردها ما يمكنها من دفع الكتاب إلى الإجداد والتبريز ، وبأن رأس الدولة منذ العصر الأيوبي كان القاهرة ، فلا عجب إذا تزعم كتابها ناثري عصرهم وكتابها .

ومما يسترعى النظر كذلك أن كبار الكتاب كانوا من نشأ في عهد الدولة الفاطمية ، أو تربى على أيدي رجال هذه الدولة ، مما يركى قول القاضي الفاضل الذي وصف الكتابة في ذلك العهد بأنها كانت غضة طرية ، واقتفى من جاء بعد هذه الدولة آثار رجالها ، ولم يجد عنها ، مما يدل على عناية هذه الدولة بالآداب ، واهتمامها بأمر رجالها .

وبعد فمن الخير أن نترجم لبعض الأعيان من كتاب ذلك العصر :

(١) راجع مراجع الكتاب ، ففيها أسماء المجموعات وأرقامها في دار الكتب .

ابن الصيرفي *

ولد بمصر يوم السبت ، ثمان بقين من شعبان ، سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، ولكن يذكر المقرئ أنه كان من بين أعيان رجال الدولة ، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فقد كان أحد المدعويين إلى حفل افتتاح جامع القبلة الذي بناه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكان في هذا الحفل هو وابنه أبو المجد ، فلعل المقرئ أخطأ في ذكر تاريخ بناء المسجد ، أو لعل افتتاحه تأخر عن ذلك التاريخ .

كان أبوه صيرفياً ، وجده كاتباً ، ومال هو إلى فن الكتابة ، فهر فيها على طريقة أهل عصره ، وعمل في ديوان الجيش ، وأخذ صناعة الترسل عن صاحب هذا الديوان : أبي العلاء صاعد بن مفرج ، كما اشتغل بكتابة الخراج مدة ، وأعجب بصناعته في النثر الوزير الأفضل ، فاستخدمه في ديوان المكاتبات ، ورفع قدره ، وأذاع ذكره ، منذ عهد الخليفة الأمر بأحكام الله سنة ٤٩٥ هـ ، أي في أوائل عصر الحروب الصليبية ، وكان هو الذي كتب السجل بانتقال المستعلى وولاية الأمر . وقد نال ابن الصيرفي ثقة الأفضل فأراد أن يعزل الشيخ ابن أبي أسامة عن ديوان الإنشاء ، ويفرده ابن الصيرفي ، واستشار في ذلك بعض خواصه ومن يأنس برأيه ، فقال له : إن قدرت أن تفسد ابن أبي أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ، ولا تخل الدولة منه ، فإنه جالها ؛ فأضرب عن ابن الصيرفي ، ويظهر من تلقب ابن الصيرفي بتاج الرياسة أنه ولي ديوان الإنشاء ، بعد موت الشيخ ابن أبي أسامة ، وربما شاركه في هذه الرياسة أبو المكارم ولد ابن أبي أسامة ، كما قد يفهم ذلك من السيوطي ، في حسن المحاضرة ، ثم تفرد به بعدئذ ، فصار فيه بفرده ، كما نص على ذلك ابن ميسر .

* مراجعه :

- (١) معجم الأدباء ١٥ : ٧٩ .
- (٢) خطط للمقرئ ٢ : ٤٩٩ : ٤٠٤ ، ٧٨ .
- (٣) تاريخ مصر لابن ميسر من ٣٥ ، ٤٠ ، ٨٧ .
- (٤) وفيات الأعيان ١ : ٨٨ ، ١١٢ ، ١٥٧ ، ٣٤٣ .
- (٥) صبح الأعشى ١ : ٨٩٧ : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ : ٣٢٦ .
- (٦) حسن المحاضرة ٢ : ١٤ ، ١٣١ .
- (٧) كتابه : قانون ديوان الرسائل ، والإشارة إلى من قال الوزارة (٨) عيون الأقبية ٢ : ٥٣ .

وظل يعمل في هذا الديوان زهاء سبعة وأربعين عاماً ، على ما ذهب إليه ابن ميسر ، الذي قال إنه توفي يوم الأحد لعشر بقين من صفر ، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وزهاء خمسة وخمسين عاماً إذا صح ما رواه ياقوت : من أنه مات في أيام الصالح بن رزيك ، بعد خمسين وخمسمائة ، وليس عندنا ما يرجح إحدى الروايتين . وقد هيا له طول هذه المدة شهرة وذكر .

عاش ابن الصيرفي حياته كلها في عصر الدولة الفاطمية ، وأنشأ رسائل عن خلفاء مصر تزيد على أربع مجلدات ، بقي لنا منها قدر قليل منشور في خطط المقريري ، وصبح الأعشى ، وحسن المحاضرة . وبرغم هذه القلة نرى فيها خصائص النثر الفاطمي ، وعقائد الدولة الفاطمية ، وعادات خلفائها . وأقدم ما حفظ من آثاره هذا السجل الذي يؤذن بوفاة المستعلي ، وولاية ابنه الأمر ، والذي قرئ على رموس كافة الأجناد والأمراء ، وكتابة هذا السجل منه تدل على الثقة التي جباه بها الأفضل ، برغم أن ابن الصيرفي لم يكن يومئذ رئيس ديوان الإنشاء .

بدأ ابن الصيرفي سجله بالحمد لله ، الذي استرعى الأئمة هذه الأمة . . . وجعلهم مصاييح الشبه إذا غدت داجية مدلهمة ، لتضيء للؤمنين سبل الهداية ، ولا يكون أمرهم عليهم غمة ، يحمد أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإنافة ، ونقله إليه من مبرات الخلافة .

وهو بذلك يسجل نظرة الشيعة إلى الخلفاء ، وأنهم مصاييح الهداية في الأرض ، وعقيدتهم في أن الخلافة تورث عن الآباء . ثم يصلي على رسول الله ، وعلى أخيه وابن عمه . أئبنا : أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، الذي أكرمه الله بالمنزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافة بالبرية ، وخصه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له ميزة التعظيم ومزية التفضيل ، وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل سواء السبيل . . وهنا تتجلى عقيدتهم في علي بن أبي طالب ، وأن الرسول قد خصه بتعليم غوامض علم التنزيل . وبعد حديث حزين عن موت المستعلي ، قال : « وقد كان الامام المستعلي بالله ، قدس الله روحه عند نقلته ، جعل لي عقد الخلافة من بعده ، وأودعني ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد إلى أن أخلفه في العالم ، وأجرى الكافة في العدل والاحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعني من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلى من الحكمة بالغامض المصون » ، والشيعة يعتقدون أن الخليفة يرث فيما يرث عن أبيه علومه .

وأسرار الشريعة . ثم يصف السجل تفويض الخليفة الجديد للوزير كل أمور الدولة ، وأن ذلك بوصية من الخليفة الراحل ، فقد أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل . . . خليلاً ، ويجعله للإمامة زعيماً وكفيلًا ، ويعلق به أمر النظر والتقرير ، ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير ، وأنه عمل بهذه الوصية ، . . . وأسند إليه أحوال العساكر والرعية ، وناط أمر الكافة بعزمته المأجنية ، وهمة العلية .

وفي ذلك أعظم الدلالات على ما صار لمنصب الوزارة من مكانة ، وما كان في يد الوزير من سلطان فعلى في الدولة ، حتى لم يعد الخليفة إلى جانبه شيئاً مذكوراً .

ولابن الصيرفي سجلات كثيرة ، منها ما كتبه خاصاً بنقل السنة الشمسية إلى العربية ، حتى يمكن جمع الخراج في وقت انضاج الثمر ، ومنها ما يسجل فيه ركوب الخليفة في أول السنة ، أو أول رمضان ، أو في أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان ، وهي الثانية، والثالثة، والرابعة ، أو في أول أيام عيد الفطر أو عيد النحر ، أو يوم قطع الخليج ، أو يوم عيد النصر ، أو غير ذلك . وفي هذه السجلات التي يشبه بعضها أن يكون بلاغا صادراً من القصر الملوكي ، يذاع في أرجاء المملكة — وصف لكثير من عادات الفاطميين ، وتقاليدهم في احتفالاتهم .

وكان له ولا ريب فضلاً عن الرسائل السلطانية رسائل إخوانية ^(١)، تنهج نهج الرسائل الديوانية في أسلوبها من حيث التزامها للسجع ، ولكنه سجع لم يستطع أن يخفى عواطف الكاتب ولا إحساسه ، كما أننا نرى فيها الاستشهاد بالشعر ، في المواضع التي تقوى فيها الانفعالات النفسية ، وتلك عادة كتاب ذلك العصر في رسائلهم . وكتب كتاباً مهماً ، دعاه : قانون ديوان الرسائل ، تحدثنا عنه فيما مضى . وحفظنا أسماء عدة كتب يظهر أن بعضها مختارات أدبية ، مثل كتاب منائح القرائح ، وكتاب ملح الملح . وقد كان ابن الصيرفي على ما يظهر محباً لجمع اختيارات أدبية ، فله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء : كديوان ابن السراج ، وأبي العلاء المعري ، وغيرهما ، وبعضها خلق ككتاب عقائل الفضائل ، وكتاب استئزال الرحمة ، وكتاب المظالم ، وبعضها لا يدل عنوان على موضوعه ، ككتاب عمدة المحادثة .

وبقي لنا من آثاره أيضاً كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة ، ترجم فيه لوزراء الدولة الفاطمية ، من عهد العزيز بالله ، إلى أيام الأمر بأحكام الله ، بدأه بمقدمة نهج فيها منهجه في

(١) راجع عبود الأبناء ٢ : ٥٣ .

أسلوبه الكتابي ، وأهداه إلى الوزير المأمون الأمرى ، اعترافاً منه بما نال في دولته من سؤدد ومجد .

ولإن فيما عرضناه من النماذج لابن الصيرفى لما نستطيع به أن نقبين خصائص نثره . فهو من الكتاب الذين يرون المثل الأعلى في السجع ، يلتزمون به التزاماً في رسائلهم الديوانية والإخوانية ، ولا يخرج إلى ميدان الكتابة الطلقة إلا عند ما كتب تاريخ وزراء الدولة الفاطمية ، في كتابه : الإشارة ، حيث ترك قلبه يجرى كما يشاء ، لا يقيدته سوى الفكرة التي يريد إجلالها . بل إنه في هذا اللون من الكتابة التاريخية آثر السجع ، عند ما أرخ للوزير : المأمون الأمرى .

غير أن هذه المدة الطويلة التي قضاها كاتباً في ديوان الإنشاء جعلت قلبه يسيل بالكتابة سبيل ، لا تشعر فيه بتكلف ، ولا اغتصاب كلفة في موضع لا يصلح لها ، بل تأتي الكلمات في أماكنها ، مطمئنة مستقرة .

وتدلنا كتبه على ثقافة أدبية واسعة ، وإطلاع كبير على التاريخ ، ومعرفة بأمور الدين . وهيات له هذه المدة الطويلة وتلك الكتب شهرة وبعد صيت ، غطى بهما حتى على رؤساء ديوان الإنشاء الذين كانوا في عهده .

وأورد له ياقوت أبياتاً من الشعر ، منها قوله في المدح ، وقد بالغ فيه :

هذى مناقب قد أغناه أيسرها عن الذى شرعت آباؤه الأول

قد جاوزت مطلع الجوزاء وارتفعت بحيث ينحط عنها الحوت والجل

ومنها قوله وهو يعبر عن روح العصر خير تعبير :

لا يبلغ الغاية القصوى بهمته إلا أخوال الحرب والجرأ لسهاب (١)

يطوى حشاه ، إذا ما الليل عانقه على وشيع (٢) من الخطى مخضوب

ولكنه شعر لا يبلغ درجة نثره .

(١) السهيب : الطوال (٢) الوشيع : الرماح . يريد أنه ينأى مطوياً على الرماح المخضبة بالدم

ابن قادوس الدمياطي *

محمود بن إسماعيل ، أصله من دمياط ، ولعل نشأته الأولى كانت بها ، فإن دمياط كانت يومئذ إحدى مواطن الثقافة في العالم الاسلامي ^(١) كله ، وإن احتاج الطالب فيها إلى أن يتم ثقافته العالية في القاهرة أو غيرها من مواطن الثقافة العليا . وربما جاء إلى القاهرة ، والتحق بديوان الإنشاء ، يتدرب فيه ، على أحد رجالاته ، وعمل مع ابن الصيرفي في هذا الديوان ، وتقدم به قلبه ، وارتقت به بلاغته ، حتى قدره ملوك عصره ، وصار أحد رجال الملك الصالح ، ومن أعيان مجلسه وشعرائه المقربين إليه .

وقد أخذ عنه القاضي الفاضل ، وكان يضم له في قلبه التعظيم والإجلال ، ويسميه ذا البلاغتين ، يريد بلاغة النثر وبلاغة الشعر ، ويقتدى به في الكتابة والشعر ، قالوا : وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالباً إلا في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر ، ومن منزله إلى القصر ، فكان الفاضل يسايره ، ويعرض عليه كتابته وشعره .

وكان ابن قادوس يكره الادعاء والإعجاب ، ويكره من يتصف بهما ، وبدلنا على هذا الخلق فيه أنه اجتمع ليلة عند الصالح بن رزيك ، هو وجماعة من جلسائه ، فأتى عليهم الصالح

* مراجعه :

- (١) صبح الأعشى ٩٦:١ و ٢٢٦:٨ ، ٢٧٨ .
- (٢) الروضتين ١٠٣:٢ و ٢٤٤:٢ .
- (٣) تاريخ مصر لابن ميسر ٩٧:٢ .
- (٤) وفيات الأعيان ١:٥٢ .
- (٥) حسن المحاضرة ١:٢٤٢ و ٢:١٦٨ ، ٢٠٢ .
- (٦) فوات الوفيات ١:٢٧٨ .
- (٧) كشف الظنون ٢: ٧٦٧ ، ٧٧٢ .
- (٨) النجوم الزاهرة ٧: ٣٣٧ .
- (٩) في أدب مصر الفاطمية ص ١٨٧ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٦٧ ، ٢٣٨ .
- (١٠) خريدة القصر (الطبوعة) ٢٢٦:١ والصورة ٨١:٢ .
- (١١) النسكت المصرية ص ٣٤ ، ٣٥ .
- (١٢) خطط القرينى ٢: ٣٠٦ و ٣: ٢٧ .
- (١٣) الطالع السعيد ص ٤٩ .
- (١٤) الفاطميون في مصر ص ١٦٧ .
- (١٥) معاهد التنصيص ص ٢٢٦ .
- (١٦) معجم الأدباء ٤: ٦٠٤ .
- (١٧) الرسالة المصرية ص ٥٦ .
- (١٨) الأعلام ٣: ١١١ ، ١٠١ .
- (١٩) البداية والنهاية ١٣: ٢٤١ .
- (٢٠) راجع كتب الحياة العقلية للمؤلف .

إن قلتَ : من نار خلقْتُ ، وقتُ كل الناس فهمنا
 قلنا : صدقت ، فما الذي أطفأك حتى صوت فجما

کا ہجاء مرة أخرى بقوله :

وكان الدافع له على هذا الهجاء هو ما لمسه في ابن الزبير من ادعاء وإعجاب .
 بقى حادث نسبه إليه مؤرخوه ظلماً من غير أن يتبينوا حوادث التاريخ ، أو يوازنوا
 بين أرقام أحداثه ، ففسبوا الرجل إلى الحسد ، وتدبير أمر القتل إلى زميل كبير من
 رجالات الدولة ، وقد قبل ذلك صاحب (الفاطميون في مصر) ومؤلف (في أدب
 مصر الإسلامية) .

ويدور هذا الحادث حول ابن الزبد ، الذي كان من رجالات الدولة ، وعن نال حظوة لدى الوزير : طلائع بن رزيك ، وكان مغالياً في الوفاء له حتى خاطر بحياته ، دفاعاً عن هذا الوزير ، وقاتل عنه أشد القتال ، ثم ألقى نفسه على الصالح ، ووقاه من الضربات التي انهمالت عليه ، حتى هبأ السبيل لنجاة الوزير (٢) .

قالوا : إن الحسد ملأ قلب ابن قادوس ، فنظم بيتين من الشعر ، هجا فيهما الحسن
ابن الخليفة الحافظ ، ودسهما ضمن أوراق لابن الزبد ، وسعى به إلى الحسن فأمر به
قتل .

(١) السالغ : اسم الأسود من الحيات .

هذا الخبر عار من الصحة كل العراء : ذلك أن ابن الزبد قد عاش إلى أيام الصالح طلائع ،
الذى لم يل الوزارة إلا في عهد الفائز، الذى ارتقى إلى عرش الخلافة الفاطمية سنة ٥٤٩ هـ^(١).
بينما قتل الحسن بن الخليفة الحافظ سنة ٥٢٨ هـ^(٢). وبين التاريخين أكثر من عشرين عاما .

وبرغم شهرة ابن قادوس بالكتابة لم يبق التاريخ إلا على القليل مما كتبه ، وكلن حظه في
الشعر أسعد منه في النثر ، برغم قلة ما بقى له من ذلك أيضاً ، فليس لدينا من شعره إلا
صفحات من ديوانه الذى قال عنه صاحب كشف الظنون : إنه في مجلدين ، وتجد هذا الشعر
في الخريدة ، ووفيات الأعيان ، والطالع السعيد ، ومعجم الأدباء ، وحسن المحاضرة ، وخطط
المقريزى ، وفوات الوفيات ، ومعاهد التنصيص ، والرسالة المصرية . وقد صف العباد أشعاره
بأنها محكمة التسج كالدر في الدرج .

وما بقى لنا من شعر ابن قادوس يجعلنا نستشف من ورائه نفساً مرحة ، وفقاً مبتسماً ،
وقلباً راضياً عن الحياة ، ورغبة في الاستمتاع بما في الوجود ، فلا تنجم ، ولا شكوى
ولكن بهجة وأمل ، وانتهاز لفرص السعادة والمسرة .

قم قبل تأذين النواقيس	واجل علينا بنت قيس
عروس دن ، لم يدع عتقها	إلا شعاعاً غير ملوس
تجلى علينا باسماً نغرها	فلا تقابلها بتعبس
مذهبة اللون ، إذا صفقت ^(٣)	مذهبة للهم والبوس
في روضة كانت أزاهيرها	كانها ريش الطواويس

وهذه ليلة من لياليه يصفها بقوله :

وليلة كاغتاض الطرف ، قصرها	وصل الحبيب ، ولم تقصر عن الأمل
بتنا نجادب أهداب الظلام بها	كف الملام ، وذكر الصد والمثل
وكلنا رام نطقاً في معاتبتى	سددت فاه بطيب اللثم والقيل

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٣ .

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٣١٨

(٣) التصفيق : تحويل العراب من إناء إلى إناء ممزوجاً ليصفو .

وبات بدو تمام الحسن معتنق والشمس في فلك الكسكسات لم تفل
فبت منها أرى النار التي سجدت لها المجوس من الإبريق تسجد لي
راح إذا سفك الندمان من دمها ظلت تفهقه في الكسكسات من جذل
بل يرى أن اقتراب الموت منه سبب يدفعه إلى النهل من متع الحياة ولذا نذرها .

ولا ثم يلومني يريد مني توبتي
يقول لي . الموت غداً فقلت : هذا حجتى

وإن هذه الابتسامة للحياة ، هي التي جعلته يتلبس الراحة ، حتى في مواقف الرثاء :

يا لجة هي في الجنان مسرة لقدومه تختال في غرفاتها
إن كان في الدنيا عليه مأتم فأراه عرس الحور في جناتها

ولا ريب أن ذكره لنعيم الجنة الذي يتقلب فيه الموتى لما يخفف لوعة المصاب وألم
الفجعة . وهذه النظرة المرحية الباسمة جعلته حين يهجو ينظر إلى الجانب المضحك في المهجو ،
فكان هجاؤه في أغلبه سخرية وتهكما ، فتجده يقول :

ابن فلان رجل صالح فامتحنوه ، واقبلوا رائي
ارموه في البحر ، لكي تنظروا فإنه يمشى على الماء

وبقى لنا من شعره ما أنشأه في مدح بعض الوزراء ، ويدل بعض هذا الشعر على ما كان
بين ابن قادوس والوزير من صلة قوية ، لم تدع حجاباً بينهما ؛ حتى صح له أن يقول :

يا من يكر على جريح اللحظ منه مجهز
ديباج خديه بسنسدس عارضيه مفروز
أبداً بسلاطان الجمال وبالمحوى يتعزز
ويسومنى ما لا يجوز من الأذى فأجوز
لولا الوزير وعدله لم يغن فيه تحزز
عدل يفيض وهمة تنهى العذول وتحجز

وبرغم هجاء ابن قادوس للأنف الطويل ، واستعاذته بالله منه ، وقف مدافعا عن أنف صديقه الجليس بن الحباب ، فقد كان كبير الأنف ، وكان الخطيب أبو القاسم هبة الله المعروف بابن الصياد مولعا بأنفه وهجائه ، وذكر أنفه في أكثر من ألف مقطوع ، فانتصر له ابن قادوس ، فقال :

يا من يعيب أنوفنا الشم التي ليست تعاب
الأنف خلقه ربنا وقرونك الشم اكتساب

ويظهر أن ابن قادوس كان ، كحكام هذا العصر وعظماء رجاله ، مغرما بالكتب ، معظما أمرها تعظيما أوحى إليه بمعنى شعري ، أعجب به العباد ، وعده من محاسنه ، التي تعلق بالنفوس ، وذلك قوله في صفة كتاب :

مداده في الطرس لما بدا قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللي أو ذاب فيه الحجر الأسود

وأرجح أن ابن قادوس كان واسع الثقافة ، وأنه عرف علم الهندسة الذي استقى منه في شعره بعض مصطلحاته ، كقوله :

لقد كان جاهي عريضا بكم فلم صار كالحظ لا عرض له
وقوله : ... وبخده .: خال لدائرة الملاحه مركز .

ولم يخل شعره مما صبغ هذا العصر من غرام بالمحسنات ، واحتفال بأمرها ، وهي هنا في يد صناع ، ولذلك لا تحس فيها غالبا بنبوة ، كقوله :

يقسول : طرفي شك صدقت . شاكى السلاح
وقوله :

تشيد بناء الحمد والمجد يبيضه ومن لأساس الهوادي هوادم
رقاق الظبا ، تجري بأجال ذي الوري وأرزاقهم ، فهي القواسى القواسم

ولم يبق لابن قادوس من النثر مثل ما بقى له من الشعر ، ومن ذلك قوله يصف حمام الزاجل :

«وأما حمام الرسائل فهي من آيات الله ، المستنطقه الألسن بالتسبيح ، العاجز عن وصفها
لعجز البليغ القصيح ، فيما تحمله من البطائق ، وترد به مسرعة من الأخبار الواضحة الحقائق ،
وتعالیه فی الجو محلقاً عند مطاره ، وتهديه إلى الطريق التي (يطير) عليها ، ليأمن من فوت
الإدراك وأخطاره ، ونظره إلى المقصد الذي يسرح إليه من عل ، ووصوله في أقرب
الساعات بما يصل به البريد في أبعد الأيام من الخبر الجلي ، ومجيئه معادلاً رموس السفار
مسامتاً ، وإيثاره بالمتجددات فكأنه ناطق وإن كان صامتاً . . . وفي تقدمه بالبشائر ، يكون
المعنى بقولهم : أيمن طائر ، ولا غرو إن فاق رسل أهل الأرض وفاتهم ، وهو مرسل
والعنان (١) عنانه ، والجو ميدانه ، والجناح مركبه ، والرياح موكبه . . . مع أمنه ما يحدث
لمنتاب السفار ، ومحبآت القفار ، من مخاوف الطوارق ، وطوارق المخاوف ، ومتلف الفوائل
وغوائل المتالف ، إلا ما يشد من اعتراض جارح وانقضاء كاسب كاسر . . . »

وهذا (بلاغ) كتبه ابن قادوس في خروج الخليفة الفاطمي في عيد النحر . بدأه ببراعة
استهلال في فضل الحج ، وبالصلاة على محمد ، وأخيه علي ، والأئمة من ذريتهما . ثم تحدث عن
حشد الجمهور الكبير أمام القصر ، وكانت جموعه تتوافد منذ الفجر ، لتأخذ مكانها ، بين
الصرين ، وابن قادوس يصف ذلك في قوله : « وإن من الأيام التي كملت محاسنها وتمت ،
وكثر فضائلها وجمت ، ووجب تخليد غر صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد
النحر من سنة كذا ، وكان من قصصه أن الفجر لما سل حسامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ،
نهض عبيد الدولة في جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين
القصور الزاهرة متبركين بأفنيتهما ، ومستملين بسعادتهما ، وتألفوا صفوفا تبهر النواظر ،
ويخجل تألفها تألف زهرالروض الناضر ، مستصحبين فنوناً من الأزياء تروى ، ومستتبعين
أصنافاً من الأسلحة يفض لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام خافقة ، والرايات بالسنة
النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة ، فأقاموا على تشوف لظهوره وتطلع للتبرك
بلامع نوره . . . »

(١) يريد عنان السماء .

ومضى السجل يصف موكب الخليفة ، وما تبعه من جند حاشد . ويلحظ في هذا السجل الإطالة في الثناء على الوزير ، ثناء طغى على صفات الخليفة ، فهو وزيره السيد الأجل الذى قام بنصر الله فى إنجاء أوليائه ، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه ، وناضل عن حوزة الدين وجاهد ، وناضل أحزاب الكفار وناهد ، يقوم بأحكام الوزارة ، وتدير الدولة تدبير أولى الإخلاص والطهارة . . . ويحسن السياسة والتدبير ، ويتوخى الإصابة فى كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير ، ويخلص لله جل وعز وإمامه ، ويكشف عن الأعداء ببذل الجهد فى أعمال لهذمه وحسامه . . .

ووصف الموكب ماضياً إلى المسجد ، والخليفة مصلياً ، وخطيباً ، وعائداً إلى قصوره ، ويظهر أن مثل هذه السجلات كانت تستخدم للدعاية للدولة الفاطمية ، وللخليفة ، والوزير ، فهى لا تمل من الحديث عن أساس عقيدة الفاطميين ، وعن احتشاد الجماهير لرؤية الخليفة وتقديم الولاء له ، وعن الوزير وأعماله .

وظل ابن قادوس فى ديوان الإنشاء حتى مات سنة ٥٥١هـ ، أو فى سابع المحرم سنة ٥٥٣هـ ، على ما ذهب إليه ابن ميسر . وهم المقرئ الذى زعم أنه قتل على يد يانس الأرمنى ، وزير الحافظ لدين الله ، فإن ابن قادوس عاش كما سبق أن ذكرنا — إلى أيام طلائع ابن رزيك ، وزير الفائز الذى تولى الخلافة سنة ٥٤٩هـ . ولما مات حضر الصالح طلائع من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه ، ومشى فى جنازته ، حتى وورى التراب .

ابن الخلال*

يوسف بن محمد، آخر من ولي ديوان الإنشاء في عصر الدولة الفاطمية، وعليه تخرج القاضي الفاضل، وهو الذي كتب تقليد الوزارة لطلائع بن رزيك وزير الفائز.

وارتفعت مكانة ابن الخلال في الدولة حتى صار من جلساء الوزير طلائع، الذين أعجب بهم عمارة عند ما قدم إلى مصر، ورآهم قد ضربوا في الآداب بسهم وافر، بل مدحه عمارة بقصيدة بقي لنا منها غزلها^(١). وعمر ابن الخلال حتى وهن عظمه، وكف بصره، فلزم بيته، ولكن القاضي الفاضل لم ينس جيله الأول، فكان يوليه بالرعاية والعطف، ويجري عليه ما يحتاج إليه، حتى مات في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ست وستين وخمسائه.

وأورد له مؤرخوه شعراً، وكان الكتاب يومئذ حريصين على أن يؤثر لهم إلى جانب نثرهم شعر يذيع عنهم، رأينا ذلك في ابن قادوس، وابن الخلال، والقاضي الفاضل، والعماد الكاتب. وفي هذا الشعر قلبس منهمجهم الفنى، في العناية بالزخرف، والصنعة، نهجوا ذلك النهج في نثرهم، وساروا عليه في شعرهم، والباقي له قليل من الغزل، ووصف الشمعة، وهو حين يتحرر من قيود الصنعة يرق شعره ويجود، ولعل من أجمله ما قاله حديثاً عن تقلبات الأيام، وربما أنشأه بعد أن أدبرت عنه الدنيا، واضطر إلى البقاء ضريحاً في منزله، فقال:

* مراجعه :

- | | |
|---|---|
| (١) وفیات الأعيان ٢: ٧-٤ . | (٢) حنين المحاضرة ١: ٢٤٣ . |
| (٣) النجوم الزاهرة ٥: ٢٩٢، ٢٩٤، ٧ و ٣٣٧ . | (٤) نسكت المبيان ص ٣١١ . |
| (٥) خطط المقرئ ٢: ٢٤٨ . | (٦) صبح الألفى ١: ٩٦ و ١٠٠ و ٣١٠ . |
| (٧) الروضتين ١: ١٩١، ١٩٢ . | (٨) النسكت المصرية ص ٣٤، ٣٥، ٩٨ . |
| (٩) الكامل لابن الأثير ١١: ١٦٤ . | (١٠) تاريخ ابن الوردي ٢: ٧٩٥ . |
| (١١) خريدة القصر المطبوعة ١: ٢٣٥ . | (١٢) المغرب نسخة الجامعة العربية ، ورقة ١١٣ . |
| (١٣) شذرات الذهب ٤: ٢١٩ . | |
| (١٤) في أدب مصر الفاطمية ص ٣٤٤ . | |
| (١) النسكت المصرية ص ٢٩٨ . | |

شيم الأيام صد بعد ود والليالي عهدا أهون عهد
إن أعانت عدلت، أو خذلت سلبت، أو أوجدت راعت بفقد
أف للدنيا ، فكم نخدعنا من جباهها بعمار مسترد
ما وفّت أعوام قرب بالذي جنت اللوعة من ساعة بعد
يا أغا العزة ، حسب الدهر من عظمة المفرور ما أصبح يبدى
تؤثر الدنيا، فهل نلت بها لحظة تخلص من هم وكد

وهي قطعة نابضة بالحياة، تصف ألمه في آخر أيامه .

القاضي الفاضل*

في يوم الاثنين الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٣ من أبريل سنة ١١٣٥ م) ولد عبدالرحيم بن علي بن محمد اللخمي ، ويكاد مؤرخوه يجمعون على أن ولادته كانت بمدينة عسقلان ، وهي إحدى مدن فلسطين .

وينحدر عبد الرحيم من قبيلة عربية ، هي قبيلة الحتم ، وإليها ينسب ، وكان والده يدعى القاضي الأشرف ، انتهى أمره بأن ولي قضاء عسقلان ، والنظر في أمورها . وكان خليقاً بعبد الرحيم أن يتخذ لنفسه الطريق الذي سار فيه أبوه من قبل ، فينتهي أمره بأن يلي قضاء إحدى المدن بالشام ، لولا أن كان بين والده وبين المرتضى الطرابلسي وإلى عسقلان عداوة ، رأى علي بن محمد أن الحياة ستكون فيها عسيرة شاقة على ولده ، فأوصاه أن يمضي إلى مصر ليختط بها طريقه في الحياة ، وإنما اختار له والده مصر لأن عسقلان وما حولها كانت يومئذ جزءاً منها ، قبل أن يأخذها الفرنج .

قدم عبد الرحيم إلى القاهرة حول سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) في أيام الحافظ لدين الله ، وهو في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وأراد عبد الرحيم أن يتخذ له مهنة الكتابة في دواوين الدولة ، ففضى إلى ديوان الإنشاء ، وكان يرأسه ابن الخلال ، فلازمه القاضي الفاضل ، وتردد عليه ، وتدرّب بين يديه ، كما اتصل بابن قادوس ، وكان القاضي يعظمه ويحلّ بلاغته .

ولم تطل إقامة الفاضل بالقاهرة ، ولعل ذلك راجع إلى رغبته في مكان يكون فيه شيئاً مذكوراً ، لا كهذا العمل الثانوي ، بديوان الإنشاء بالقاهرة ، وأكاد أرجح أن الشكوى من مهنة الكتابة التي نجدها في شعره ، وأن شكواه من حظه البائس الذي انفرد به بين الكتاب ، أرجح أنها كانت في ذلك العهد ، فتسمعه يقول :

أرى الكتاب كأنهم جميعاً بأرزاق تعمسهم حيناً
ومالي بينهم رزق ، كأنى خلقت من الكرام الكاتبين

* مقتبسة من مقدمة ديوانه الذي قام المؤلف بتحقيقه ، وفي هذه المقدمة ذكر مراجعته التي تربو على التسعين .

ترك القاضى القاهرة ، ومضى إلى الإسكندرية ، وهناك اتصل بابن حديد قاضها والناظر بها ، وعرفه بوالده فعرفه بالسمعة ، فاستكتبه ابن حديد، وقرر له مرتباً يتقاضاه . وظل القاضى الفاضل بالإسكندرية زهاء ثمانى سنوات ، حتى تولى الوزارة فى القاهرة العادل رزىك بن الصالح طلائع ، فإن الرسائل التى كانت ترد من الإسكندرية بقلم الفاضل قد أثارت انتباهه ، فبعث إلى والى الإسكندرية أن يرسل القاضى الفاضل إلى القاهرة ، حيث جعله رئيساً لديوان الجيش .

وتوثقت الصلة بين الفاضل ورزىك ، ويحتفظ ديوانه بأشعار كثيرة قالها فى مدحه ، منها قصيدة طويلة ، أرجح أنها أولى قصائده فيه ، وفيها يقول :

رعى (لى رعاه الله) أكرم صحبة وأخطأت ، بدر التم ليس له صحب
وأحضرنى من مجلس الانس حضرة لعيشى بها خفض ، وقدرى بها نصب
فتنظر عيني ملك كسرى ودسته وتسمع أذنى ثم ما قالت العرب
فراقنى الخلق الجليل ، وزادنى اخـ تصاصاً ، إلى أن راقنى الخلق العذب
وكان لى الدهر الغشوم محارباً وقد وضعت أوزارها عندك الجرب
فيهم ، حرب ، ثم لا صلح بعدها ويا دهر ، صلح ، مالنا بعده عتب

ولكن الزمن لم يمهل رزىك ، حتى ينال القاضى آماله على يديه ، فلم يلبث أن قتل على يد شاور ، ودفع الوفاء شاعرنا إلى أن يرثى بنى رزىك ، ولكن لم يكن من الطبيعى لرجل كالقاضى الفاضل ، يعيش من رزق ديوان السلطان ، أن يعيش بعيداً عن أصحاب الدولة الجديدة ، فاتصل بهم ، وتوثقت الصلة بينه وبين شجاع بن شاور ، حتى صار أكبر من اتصل به القاضى الفاضل فى عصر الدولة الفاطمية ، ويحتفظ ديوانه بكثير من القصائد التى مدحه بها ، وقد هيات له هذه الصلة أن يتصل بالعاقد آخر الخلفاء الفاطميين ، وفى ديوانه مفتتح قصيدة مدح بها خليفة فاطمياً ، يقول فيها متخلصاً من الغزل إلى المدح :

فإن فؤادى بعدكم قد فطمته عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم

وعن العاقد صدرت سجلات ومكاتبات ، بقلم القاضى الفاضل ، منها تلك الرسالة التى أرسلها العاقد إلى نور الدين محمود ، يطلب أن يقيم عنده أسد الدين شيركوه ، كما كتب سجل تنصيب أسد الدين وزيراً ، فلما مات كتب سجل تنصيب صلاح الدين وزيراً من بعده .

ويظهر أن لاضطراب الدولة الفاطمية في ذلك العهد أثراً في تفكير القاضي الفاضل ، ولعله اقتنع بأن مصير البلاد مظلم ، وأن الهاوية تنتظرها ، فكان يغري نور الدين محموداً بحمايتها ، وبسط سلطانه عليها . وربما كان لذلك أثر في اختيار القاضي الفاضل كاتباً لأسد الدين شيركوه ، عند ما طلب كاتباً يكتب بين يديه ، وقد سر به أسد الدين ، وأعجبه إعتقاده ، وسمته ، ونصحه . فلما ولي صلاح الدين أمر مصر استخلصه لنفسه ، وحسن اعتقاده فيه .

فتح القاضي الفاضل أشرق صفحات حياته يوم اتصل بصلاح الدين ، ففوض إليه الوزارة ، وديوان الإنشاء ، واتخذ ساعده الأيمن فيما أراده من إصلاحات مالية وحربية ، وصار القاضي الفاضل لسان صلاح الدين ، إلى الخلفاء ، والملوك ، والأمراء ، والمسجل في رسائله لحوادث الدولة ، وأحداث هذه الحقبة من الزمان ، وتمكن من السلطان غاية التمكن ، حتى لم يعد في الدولة إنسان يعلوه ، في مكانته ومنزلته ، وصار أعز على السلطان من أهله وأولاده ، يعظمه ، ويرجع إلى قوله ، ويزوره مستشيراً ، إذا سافر إلى الغزو ، ويكتب إليه بخطه طالباً منه وجه الرأي ، وإذا أناب عنه حاكماً بمصر كابنه العزيز ، وأخيه العادل ، أو ابن أخيه تقي الدين ، أصحبه القاضي الفاضل ، يحكم معه ، ويدير دقة السياسة ، ويطلع السلطان ، وهو غائب عن البلاد ، بما يجري فيها ، ويوافيه بأخبارها ، ويشناق السلطان إليه إن غاب عنه ، ويفرح به إن قدم عليه . وقد صحب القاضي الفاضل السلطان صلاح الدين في غزواته بسوريا ، بين سنتي ٥٨٥ و ٥٨٦ هـ ، ثم أقام بمصر ، ليشرف على الإدارة المالية ، ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول ، وبعدئذ عاد إلى سوريا ، بجوار صلاح الدين ، وظل بالقرب منه ، حتى مرضه الأخير ، وشاهد وفاته ، في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ ، ولم يذهله موت السلطان عن أن يفكر في مصير إمبراطورية صلاح الدين ، وأن يدعو بنيه إلى اجتماع الشمل ووحدة الكلمة .

وبقي الفاضل قليلاً في دمشق ، بعد وفاة صلاح الدين ، ولكن لم تطب له الحياة فيها ، فإن سلطانها الأفضل بعد أن استوزر ابن الأثير أعرض عن أصدقاء أبيه ، وأركان دولته ، فترك دمشق ، وعاد إلى القاهرة ، فخرج ملك مصر العزيز إلى لقائه ، وظل الفاضل واداً للعزيز محباً له ، فلما شبت الحرب بين الأخوين : العزيز ، والأفضل ، تقدم الفاضل والعادل ، لإصلاح ذات البين بينهما ، ولكن يظهر أن القاضي الفاضل أثر اعتزال السياسة ، بعد أن

رأى اختلال الأحوال ، وتفرق الكلمة ، فعاش بعيداً عن خضم الحياة العامة ، وإن ظل على وفائه للعزير ، حتى مات ، ورثاه الفاضل بقصيدة مؤثرة ، وظل الفاضل في معتزله ، حتى أقبل العادل من الشام إلى مصر ، يريد أخذها من الأفضل ، وكان القاضي يخاف أن يسيء إليه وزيره : صفي الدين بن شكر ، وكانت بينهما وحشة ، وفي ليلة اليوم الذي دخل فيه العادل القاهرة ، توفي الفاضل ، سخر يوم الثلاثاء أو الأربعاء ٦ أو ٧ ربيع الآخر سنة ٩٦ هـ (٢٦ أو ٢٧ يناير سنة ١٢٠٠ م) . ودخل الملك الأفضل فصلى عليه ، وكان له يوم مشهود .

تعلم القاضي الفاضل الكتابة الانشائية أول ما تعلم بحل أبيات الشعر ، وجعلها مثورة ، وقد أخذ القاضي نفسه بإتقان فن الكتابة ، على الطريقة الشائعة في عصره ، حتى برع في هذا اللون من الكتابة ، وصار أبرع أهل زمانه فيه ، وهو يجرى على طريقة ابن العميد ، التي تلتزم السجع ، والطباق ، وتتوسع في المعاني الخيالية ، ويزيد على ذلك أنه يكثر من استعمال فنون البديع الأخرى ، المستعملة في الشعر : من تورية ، وجناس ، وتلبيح ، واستخدام ، وتوجيه ، ومراعاة نظير ، واقتباس آيات من القرآن ، وكثيراً ما استعان بآيات الكتاب في رسائله ، وضمنها الأمثال ، ومأثور الأقوال ، ومصطلحات العلوم ؛ وحل أبيات الحكمة ، وبالف في صنع ألوان البيان ، حتى ازدحمت رسائله بأفانين البلاغة . وبما يدل على طول باع الفاضل ، وغزارة مادته ، أنه لم يكن يكرر في رسائله ماسبق أن استعمله . فسا كرر دعاه ذكره في مكاتبتة ، ولا ردد لفظاً في مخاطبته ، بل تأتى فصوله مبتكرة مبتدعة (١) ، ولم تحل الصناعة اللفظية بين القاضي الفاضل وبين أن يتناول برائله جميع ما تتطلبه الدولة من شئون داخلية وخارجية ، فقد صار الفاضل لسان الدولة ، يكتب على لسان صلاح الدين إلى الخلفاء ، والملوك ، والأمراء ، ويسجل أحداث المملكة ، ويذيع المنشورات ، ويصور حوادث الحروب مع الفرنج ، ويكتب رسائل الفتوح ، والاستنهاض ، والاستنفار ، ويصف الحصون ، والمعارك . ولهذا كان لرسائله قيمة تاريخية كبرى ، إلى جانب قيمتها الأدبية . ولم تقتصر رسائل الفاضل على الشئون الديوانية ، بل له رسائل في الشوق ، والشكر ،

والعتاب ، والتعزية ، ورسائل إخوانية ، ووصفية ، وغيرها ، مما يدل على قوة الفاضل
البيانية ، وأن الصناعة البلاغية كانت طوع يده ، لهذه الأغراض المتنوعة ، ولكثرة ما أنشأه .
ذكر مؤرخوه أن رسائله لو جمعت في مجلدات لبلغت مائة .

كان القاضي الفاضل يعنى بما يكتب ، ويوجه إليه كل اهتمامه وقوته ، حتى لتبدو هذه
العناية ظاهرة على وجهه وجسمه ، قال عبد اللطيف البغدادي ، يصف القاضي الفاضل ،
عند ما دخل عليه :

« رأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب ، وهو يكتب ، ويملى على اثنين ، ووجهه وشفاه
تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه في إخراج الكلام ، وكأنه كان يكتب بحمالة
أعضائه (١) . »

ويكاد يكون القاضي الفاضل من بين كتاب هذا العصر الوحيد الذي بقيت له رسائل
كثيرة إلى وقتنا هذا .

وإلى جانب رسائل القاضي الفاضل ، له مذكرات دعاها المتجددات ، يروى فيها حوادث
زمنه ، بعد صلاح الدين ، مؤرخة ، وقد نقل منها المقرئ كثير في كتابه ، وليس في هذه
المذكرات ملحوظات إعجاب فحسب ، ولكنها نظرات تأملية في الحوادث المهمة
للإمبراطورية ، والفاضل في هذه المتجددات لا يلتزم السجع ، بل يمضى في سرد حوادث
التاريخ ، والتعليق عليها في طلاقة لا تحدها صناعة .

وذكر بعض مؤرخيه أن له رسالة في البلاغة كانت بين مراجع صاحب بدائع
القرآن (٢) .

أما موقف القاضي من الشعر فقد كان بمن يؤمنون بمجده ، وخلوده ، ويرون الدهر
أعجز عن أن يقضى عليه ويبيده ، إذ يقول :

ولم أقرنا يعجز الدهر حربته سوى الشعر ، إن الشعر يبق على الدهر
ولهذا عد الفاضل من مفاخره أنه ذو شعر خالد على الزمن :

بقيتم بقاء القول منى ، فإنه على رغم أنف الدهر يبقى على الدهر
وقد تناول القاضى الفاضل فى شعره الأغراض المعروفة للشعر العربى : من غزل ،
ومدح ، ونفر ، وغيرها ، ولكن أجود شعره ما قاله فى المدح .
وشعره يمتاز كما يمتاز ثمره بجودة سبك الصناعة اللفظية ، فهو لا يدع نوعاً منها ، إذا تأتى
له استخدامه ، ولكن هذه الصناعة لبراعته فيها لم تذهب بجودة شعره .
ولهذه الناحية من خصائص شعر القاضى الفاضل أعجب رجال الصناعة به ، ومثلوا
لألوانها المختلفة بشعره ، مسجلين له أعظم تقدير وإعجاب ، فترى صاحب خزانة الأدب
يقول : « وأما سحر البلاغة فقول القاضى الفاضل :

دام صاحى وداده عمر الدهر حبيباً لشكرى النشوان
انظر أيها المتأمل ، ما أبدع ما أبرز المطابقة فى حلق هاتين الاستعارتين الغريبتين ، وما
الطف ما أيد معنى المطابقة بقوله بعدها :

وبسات الصدور أرفع فيما زعم المجد من بنات الدنان (١) ،
وقال فى موضع آخر : « ومن تجاهل العارف للبالغة فى المدح ، قول إمام هذه
الصناعة ، ومالك أزمة البلاغة والبراعة ، القاضى الفاضل فى مديح العادل :

أهدى كلفه ، أم غيث غوث ولا بلغ السحاب ولا كرامة
وهذا بشره ، أم لمح برق ومن للبرق فينا بالإقامة (٢) ،
وفى باب التورية قال : « وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنها ... إلا من تأخر
من الشعراء والكتاب ، وتضلع من العلوم ، وتطلع من كل باب ، وأظن أن القاضى الفاضل
رحمه الله هو الذى ذلل منهما الصعاب ، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب (٣) . ومن
مختصرات الفاضل فى التورية قوله من مديح قصيدة طائية ، وهى نكتة لم تختلج فى
صدر غيره :

أما الثريا فنعمل تحت أخصه وكل قافية لذلك : طا

(٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

(١) خزانة الأدب ص ٨٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٧ .

ومثله قوله .

وكننت وكنا ، والزمان مساعد فصرت وصرنا ، وهو غير مساعد
وزاحني في ورد ريقك شارب ونفسي تأبى شركها في الموارد^(١) ،
ولما تحدث صاحب معاهد التنصيص عن حسن المطلع في القصيدة قال : « ولندكر هنا
من مطالع المتأخرين ما يزرى بمطالع البدور ، ويهر نظمه محاسن الدر المنثور ، فمن ذلك
قول القاضي الفاضل :

زار الصباح ، فكيف حالك يا دجى قم فاستدم بفرعه ، أو فالنجبا
وقوله أيضاً يخاطب العاذل :

أخرج حديثك من سمعي ، وما دخلا لا ترم بالقول سهماً ربما قتلا
وما ألفت ما قال بعده :

ولا يخف على قلبي حديثك لى لا ، الذى خلق الإنسان والجبلا

وقوله :

سمعتك ، والقلب لم يسمع فكم ذا تقول ، وكم لا يعي
يقول وما عنده أتى بغير فؤاد ولا أضلع :
أما مع هذا الفتى قلبه فقلت : نعم ، يا فتى ، ما معى^(٢) ،

ولما تحدث عن حسن التخلص ذكر من المخالص البديعة قول القاضي الفاضل متخلصاً
من الغزل إلى مدح الخليفة الفاطمي :

فإن فؤادى بعدكم قد فطمته عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم^(٣)

وهكذا وجد رجال الصناعة في شعر الفاضل معيناً لأمثلة رائعة ، يختارونها ، وقدروا
شعره تقديرأ رفيعاً . أما هؤلاء الذين لاتعنيهم هذه الصناعة فلا يرتفعون في تقدير شعره
إلى هذا المستوى ، كصاحب قلادة النحر ، فإنه قال : وله في النظم أشياء حسنة (٤) .

(٢) معاهد التنصيص ص ٢٤ .

(٤) قلادة النحر : ١ : ٢٧٦ .

(١) المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٣٣ .

وشعر الفاضل لا يسرف في استعمال الألفاظ الغريبة ، وعبارته محكمة النسيج ، ومعانيه واضحة ، إلا في القليل النادر ، وله ديوان كبير ، منه قوله مادحا :

لقد سالتنا صروف الزمان	وما برحت قبلها عاندة
وأمرت نوء الندى دائما	فهزت به أرضنا الهامدة
وأطفئت حرارة آمالنا	مفانم إحسانك الباردة
وبوأك الجود يا بن الكرا	م نجائب أقوالنا الخالدة
فكم نعمة بعدها مثلها	وقائدة بعدها فائدة

العماد الكاتب

محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة ، سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقدم بغداد في حداثة ، وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية ، فتفقه بها وأتقن الخلاف والنحو والأدب ، وفي بغداد اتصل بالوزير : عون الدين بن هبيرة ، فولاه النظر بالبصرة ، ثم بواسط ، فلما مات الوزير تشبّت شمل أتباعه ، ونال المكروه بعضهم ، وظل العماد حيناً من الزمن في عيش تعس ، لم يرق العماد ، فضى إلى دمشق سنة ٥٦٠ هـ ، وحاكها الملك العادل نور الدين محمود ، فاتصل به ، ووكّل إليه كتابة الإلشاء ، وكان العماد يكتب بالعربية والفارسية ، وارتقت منزلته عند نور الدين ، حتى صار موضع سره . ووكّل إليه التدريس في المدرسة التي عرفت باسمه ، وجعله مشرفاً على الديوان ، وظل في عيش رخى ، حتى توفي نور الدين ، فرثاه بقصائد ، منها قوله في إحداها :

لفقد الملك العادل	يبكى الملك والعدل
وقد أظلمت الآفاق	لا شمس ، ولا ظل
ولما غاب نور الدين	عنا أظلم الحفل
وزال الخصب ، والخير	وزاد الشر والمحل
ومات البأس ، والجود	وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لما هان أهل	الفضل ، والفضل
وهل ينفق ذو العلم	إذا ما نفق الجهل

- * مراجعه : (١) الروضتين ١ و ٢ في مواضع كثيرة . (٢) حسن المحاضرة ١ : ٣٤٢ .
 (٣) بدائع البدائ من ٦٢ . (٤) صبح الأعشى ٢ : ٤٤٦ و ٦ : ٥١٧ و ٨ : ١٦٧ .
 (٥) وفيات الأعيان ١ : ٦٠ و ٦١ و ٢ : ٧٤ . (٦) معجم الأدباء ١٩ : ١١ .
 (٧) خطط للقرنيزي ٣ : ٢٩ . (٨) النجوم الزاهرة (ج ٥ و ٦ في مواضع كثيرة) .
 (٩) ذيل الروضتين من ٢٧ . (١٠) تاريخ دمشق (حرف الميم) .
 (١١) السلوك ١ : ٦٠ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٧ . (١٢) طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٩٧ .
 (١٣) الكامل لابن الأثير ١٢ : ٨٠ . (١٤) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ١١٦ و ٢٣٢٢ و ٣٦٠ .
 (١٥) شذرات الذهب ٤ : ٣٣٣ . (١٦) الفتح القسي في الفتح القدسي . (١٧) خريدة القصر .
 (١٨) تاريخ السلجوقية . (١٩) البداية والنهاية ١٣ : ٣٠ . (٢٠) الوافي بالوفيات .

ولما قام ولده الملك الصالح إسماعيل مقامه كان صغيراً ، فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد فضايقوه ، وأخافوه ، فسافر قاصداً بغداد ، ولكنه عند ما وصل إلى الموصل مرض مرضاً شديداً ، وهناك بلغه خروج صلاح الدين من مصر ، لآخذ دمشق . وكان مدة مقامه بدمشق قد اتصل بصلاح الدين وأبيه ، فعزم على العود إلى الشام ، فوصل إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ ، وهناك اتصل بصلاح الدين ، واستكبه ، وكان القاضي الفاضل كثيراً ما ينقطع عن خدمة السلطان ، ويتوفر على مصالح الديار المصرية ، أما العماد فكان ملازماً للسلطان ، وحضر إلى مصر مع صلاح الدين ، وكان لهذه الرحلة أثرها في نفسه ، فقد ترك دمشق مروع القلب بفراق أهله ، فما نزل منزلاً إلا نظم أبياتاً يذكر فيها شوقه إلى دمشق ، ثم نظم قصيدة يشاقق فيها إلى دمشق ، ويقول :

هجرتكم ، لا عن ملال ولا غدر	ولكن لمقدور أتبع من الأمر
وأعلم أني مخطيء في فراقكم	وعذري في ذنبي ، وذنب في عذري
أرى نوباً للدهر تحصى ، ولا أرى	أشد من الهجران في نوب الدهر
بعيني إلى لقياس سواكم غشاوة	وسمعي عن نجوى سواكم لذو وقر
وقلبي وصبري فارقاني لبعديكم	فلا صبر في قلبي ، ولا قلب في صدري
وإن على العهد الذي تعهدونه	وسرى لكم سرى ، وجهرى لكم جهرى
تجرعت كأس الهم من كأس شوقكم	وها أنا في صحوى تريف من السكر
أسير إلى مصر ، وقلبي أسيركم	ومن عجب أسرى وقلبي في أسر
أخلأى قد شط المزار ، فأرسلوا الخيال	وزوروا في الكرى ، واربحوا أجرى
تذكرت أحبابي بجلق ، بعد ما	ترحلت ، والمشتاق يأنس بالذكر
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب	فأسبلت دمعي للبكاء على صبري

ومضى العماد يذكر المنازل التي مر بها من دمشق إلى القاهرة ، ويسجل الأماكن التي نزل بها وارتحل عنها . ولكن العماد عندما نزل القاهرة وجد أهلاً بأهل ، ورأى من القاضي الفاضل ما أبدل وحشته أنساً ، وأجله أعضاء الأسرة الأيوبية ، وأكرموه ، ومضى العماد يستمتع بالحياة في القاهرة ، قال : « وتوفرنّا على الاجتماع في المغاني ، لاستماع الأغاني ، والتنزه في الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك

والنيل ، والمقياس ، ومرامى السفن ، ومجارى الفلك ، والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية ، والمعاني الأدبية (١) .
 وصاحب العباد السلطان فى رحلته إلى دمياط والإسكندرية ، وتردد معه إلى أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى ، ولم تلبث مصر أن أسرت العباد ، حتى لقد فكر فى أن يتخلف عن السلطان ، عند ما عزم أن يفارقها إلى الشام ، ولكنه استشار أحد أصحابه ، فأشار عليه بملازمة صلاح الدين ، فخرج العباد كارهاً للخروج ، وكتب إلى من أشار عليه بمبارحة مظهر قصيدة منها :

إذا رضيتكم بمكروهمى فذاك رضا	لا أبغى غير ما تبغون لى غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب فى مرضى	فإننى مستطيب ذلك المرضا
أتمم أشترتم بتعذبي ، فصرت له	مستغنيا أسئلذ الهم والمضنا
لله عيش تقضى عندهم ، ومضى	وكان مثل سحاب برقه ومضا
العيش دان جناه الغض عندهم	والقلب محترق منى بجمر غضا
طوبى لكم مصر ، والدار التى قضيت	فيها المآرب والعيش الذى خفضا

ولما رجع إلى دمشق كان الحنين يهزه إلى مصر ، فيقول :

ساكنى مصر ، هناك طيبها	إن عيشى بعدكم لم يطب
لا عدتم راحة من قربها	فأنا من بعدهم فى تعب
بعد العهد بأخباركم	فابعثوا أخباركم فى الكتب
ليت مصرا عرفت أنى وإن	غبت عنها فالهوى لم يغب

ولازم العباد صلاح الدين فى حله وترحاله ، لم يكذب يتخلف عنه فى غزواته ، وسجل العباد انتصارات صلاح الدين وغزواته شعراً ونثراً ، فكتب فى ذلك الفتح القسى فى الفتح القدس ، يؤرخ بلغة الأدب فتوح صلاح الدين ، كما تغنى فى شعره بهذه الفتوح ، وله قصيدة من قصائده الطوال ضمنها فتح القدس وفلسطين ، ومدح السلطان صلاح الدين ، بدأها بالغزل ، حتى إذا انتهى منه قال :

رأيت صلاح الدين أفضل من غداً
وقيل : لنا في الأرض سبعة أبحر
سجيته الحسنى ، وشيمته الرضا
فلا عدمت أيا منّا منه مشرقاً
جنودك أملاك السماء ، وظنهم
سحب على الأردن ردنا من القنا
ونعم بجال الخيل حطين ، لم تكن
غداة أسود الحرب معتقلو القنا
أتوا شكس الاخلاق ، خشنا، فلينت
طردتهم في الملتقى وعكستهم
فكيف مكست المشركين رموسهم
كسرتهم إذ صح عزمك فيهم
بواقعة رجعت بها أرض جيشهم
بطون ذئاب البر صارت قبورهم

وأمنّا في فتح بيت المقدس :

فأنت الذي من دونهم فتح القدس
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدس
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجس
وألبيتها الدين الذي كشف اللبس
فلا بطركا أبقيت فيها ، ولا قسا

فلا يستحق القدس غيرك في الورى
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وعادت بيت الله أحكام دينه

ومن قبل صلاح الدين سجل العباد غزوات نور الدين ، وتغنى بها شعراً ، وكان يكتب
الرسائل على لسانهما ، وييده تكتب بشار الفتح ، فلما هزم العدو عند عكا مثلاً كتب
ثلاثين أو أربعين كتاب بشارة^(١) ، ولما فتح القدس كتب سبعين كتاب بشارة^(٢) ، منها ذلك

(٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

(١) الروضتين ٢ : ١٥٩

الكتاب الذى أرسل إلى بغداد وقد بدأه العباد بهذه الآية الكريمة : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . » . وهى آية مناسبة تمام المناسبة للمقام الذى وردت فيه ، إذ فتح القدس لإنجاز لهذا الوعد الذى وعده الله ، من استخلاف المؤمنين فى الأرض ، والتسكين لهم فى دينهم ، ثم أطلال فى حمد الله ، إذ قال : « الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، ومكن دينه المرتضى وبذل الأمن من المخافة ، وذخر هذا الفتح الأسنى ، والنصر الأهنى ، للعصر الإمامى النبوى الناصرى ، على يد الخادم أخلص أوليائه ، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه ، » ، وأخذ بعدئذ يتحدث عن عظمة هذا الفتح ، فقال : « وهذا الفتح العظيم ، والنجح الكريم ، قد انقضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حسرة تمنيه ، وحيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسليه ، وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذى أعاد القدس إلى القدس ، وأعاده من الرجز ، وحقق من فتحه ما كان فى النفس ، وبذل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ماحياذل أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء ، بعد الجهال والضلال ، من البطرك والقس ، وعبيدة الصليب ، ومستقبلى الشمس ، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين ، وقطع دابر القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين ، فكان الله شرف هذه الأمة ، وقال لهم : اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التى بها فضلكم ، وحقق فى حقهم امتثال أمره فى قوله الكريم : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، » ثم يصور الفتح قائلاً : « وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان ، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الأنصار وأظهر الأعوان ، وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحاد ، وقع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول : هو الله أحد . وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح ، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً ، وعبد الله فى البيت المقدس سرّاً وجهرّاً ، وملكت بلاد الأردن ، وفلسطين ، غوراً ، ونجداً ، وبراً ، وبحراً ، وملئت إسلاماً وكانت قد ملئت كفرّاً ، وتقاضى الخادم دين الدين الذى غلق رهنه دهرّاً ، والحمد لله شكراً ، حمداً يجدد للإسلام كل يوم

نصرأ ، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشرأ ، وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم ، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم ، ولأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم ، وقتل رجالهم ، وسبي ذراريهم ، وتسائهم ، ولما أيسوا من النجاة ، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجة ، خوفوا بقتل الأسارى المسلمين ، وهم أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنهم يفسدون جميع ما فى البلد من مال وبناء ، بهدم ، وإحراق ، وإتلاف ، وعرف أن جهلهم على كل مكر شنيع ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع ، وبذلوا إطلاق الأسرى ، وشرطوا حمل مال الفدا ، وما زالوا يبتهلون ، ويضرعون ، ويدلون ويخشعون ، حتى استقر الأمر أنهم يفادون ، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها . . . وغسلت من أوضارها وأوزارها ، بعبرات العيون ، ورجع اضطرابها إلى السكون ، وفديت بنواظر أهل الإيمان ، وصوخت للوفاء بعهدتها المجدد بالإيمان ، وذكرت فى يوم خلاصها من رجب ليلة المعراج ، وتجلى لإظلامها بإضاءة سناء السراج ، وأعيدت الكنائس مدارس ، أضحت بإحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس ، وزالت ضجرة الصخرة ، ونعشها الله من العثرة ، وبدل بالأنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة ، والحمد لله على هذه النصرة ، والمنة له على هذه المبرة ، وقد تسلىنا مع بيت المقدس جميع المعازل ، من حد الداروم إلى حد طرابلس ، وكل ما كان جارياً فى مملكة ملك القدس ونابلس ، ولم يبق إلا صور فإنه قد تأخر أنتزاعها ، وتقدم امتناعها ، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها أطباعها ، وهى بتأييد الله مستفتحة ، والقلوب بتدليل جاحها ملشرة (١) .

وأسلوب العباد لا يختلف عن أسلوب عصره : فى التزام السجع ، والصناعة البديعية ، وقد يبالغ فى ذلك ، ولا سيما حين يكتب إلى شيخ الصناعة فى عصره ، وهو القاضى الفاضل ، وحيثئذ تحس بمبلغ العناية الذى كان العباد يتكلفه ، ليرضى زعيم أسلوب الصنعة فى عصره ، كهذه الرسالة التى كتبها إليه عند ما حج سنة ٥٧٤ هـ ، فقال فى رسالته : « طوبى للحجر والحجون ، من ذى الحجر والحجا ، منيل الجدا ، ومنير الدجى ، ولندى الكعبة من كعبة الندى ، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى ، وللمقام الكريم من مقام الكريم ، ومن حاطم

(١) الروضتين ٢ : ٩٦ .

فقار الفقر للحطيم ، ومتى رثى هرم في الحرم ، وحاتم ماتح زمزم ، ومتى ركب البحر البحر ،
وسلك البر البر ، لقد عاد قس إلى عكاظه ، وعاد قيس لحفاظه ، ويا عجباً لكعبة يقصدها
كعبة الفضل والإفضال ، ولقبة يستقبلها قبله القبول والإقبال . والسلام ^(١) . وهي رسالة
مفرقة في الصناعة ، كما ترى .

وظل العباد رفيع الجانب ، عظيم المكنة ، حتى مات صلاح الدين ، فرثاه العباد ، بقصائد
كثيرة منها واحدة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتاً ، منها قوله :

شمل الهدى والملك عم شتاته	والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي كانت له طاعاتنا	مبذولة ، ولربه طاعاته
بأنه أين الناصر الملك الذي	لله خالصة صبغت نياته
أغلال أعناق العبيد أسيافه	أطواق أجياد الورى مناته
مسعودة غدواته ، محمودة	روحاته ، ميمونة ضحواته
في نصرة الإسلام يسر دائماً	ليطول في روض الجنان سناته

واتصل بعد وفاته بالأفضل ولده ، وهو الذي كتب الرسالة التي أعلن الأفضل ولاءه
فيها لبغداد ^(٢) . ولكن يظهر أن الأفضل بعد أن استوزر ابن الأثير لم يأنس به أعوان
أبيه ، فانكش القاضى الفاضل في مصر ، والعباد في دمشق ، فلزم بيته ، وأقبل على الاشتغال
بالتأليف ، وقد ترك لنا العباد كتباً عدة : منها كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، ذكر فيه
الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجمع فيه شعراء
العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ، وهذا الكتاب ذيل على زينة دمية الدهر ،
لأبي المعالى سعد بن علي الوراق الخطيرى ، والخطيرى جعل كتابه ذيلاً على دمية القصر ،
وعصرة أهل العصر ، للباخرزى ، الذى جعل كتابه ذيلاً على يتيمة الدهر للشعالبى ، والشعالبى
جعل كتابه ذيلاً على كتاب البارع ، لهرون بن علي المنجم .

وصنف العباد كذلك كتاب البرق الشامى ، وهو كتاب تاريخى ضخيم ، بدأ فيه بذكر
نفسه ، وصورة انتقاله من العراق إلى الشام ، وما حدث له في خدمة نور الدين محمود ،

(١) وميات الأعيان ٢ : ٧٥

(٢) الرسالة في الروضتين ٢ : ٢٢٥ .

وكيف اتصل بخدمة صلاح الدين ، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام ، قال ابن خلكان : « وهو من الكتب الممتعة ، وإتمامها : البرق الشامي ، لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف ، لطيفها وسرعة انقضائها . » ووضع كتاب السيل على الذيل ، جعله ذيلاً لكتابه : خريدة القصر .

وصنف كتاب نصرة الفطرة ، وعصرة الفطرة ، في أخبار الدولة السلجوقية . وألف كتاب الفيج القسى في الفتح القدسي ، وهو يؤرخ لحروب صلاح الدين ، في لغة أدبية رفيعة ، وله رسالة تعرف بالعتي والعقبى^(١) ، أرخ فيها ما جرى بعد وفاة صلاح الدين إلى سنة اثنتين وتسعين . وكتاب آخر سماه نحلة الرحلة^(٢) ، أرخ فيه لرحلته إلى مصر بعد وفاة السلطان ، وعودته منها إلى دمشق . وكتاب ثالث دعاء : خطفة البارقي ، وعطفة الشارق^(٣) ، ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين ، إلى أن توفي العهاد في سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وللعهاد ديوان شعر في أربعة مجلدات ، ونفسه في قصائده طويل ، وله ديوان صغير جميعه دوبيت ، وديوان رسائل في مجلدات ، كما عرب كتاب كيمياء السعادة ، للإمام الغزالي في مجلدين ، برغبة من القاضي الفاضل^(٤) . ولنختم الحديث عن العهاد بحكم خليل بن أبيك الصفدي عليه ، لأنه يوافق رأينا إلى مدى بعيد ، قال ، بعد أن ذكر قدرته على كل من النظم والنثر : « أرى أن شعره ألطف من نثره ، لا كثار الجناس في نثره ، وأما النظم فكان الوزن فيه يضايقه فلا يدعه يتمكن من الجناس . » ثم ذكر من كلام العهاد الخالي من الجناس قوله : « فلما أراد الله الساعة التي جلاها لوقتها ، والآية التي لا أخت لها فنقول : هي أكبر من أختها — أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها ، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها ، وجاءت بواحدتها الذي يضاف إليه الأعداد ، وملكتها الذي له الأرض بساط ، والسماء خيمة ، والحبك أطناب ، والجبال أوتاد ، والشمس دينار ، والقطر دراهم ، والأفلاك خدم ، والنجوم أولاد . » وقال : « هذا لما كان خالياً من الجناس ، عذب في السمع وقعه ، واتسع في الأحساب شفعه ، ورشف اللب مدامه وكان عند من له ذوق أطيّب من ثغر دحماته . »

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١

(٤) المرجع السابق ص ٢٠

(١) الروضتين ٢ : ٢٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

ثم ذكر من كلامه المشتعل على الجناس قوله من جواب مكاتبة : « فوقف الخادم عليه ، وأفاض في شكر فيض فضله المستفيض ، وثلج وجه وجهته ، وتأرج بناء نباهته ، ما عرفه من عوارف البيض » . ثم قال : « فانظر إلى قلق هذا التركيب ، وتعسف في هذا الترتيب » .
والعباد في شعره أجود منه في ثمره حقاً ، وإن كان يتلبس في كليهما المحسنات والزخارف .
ومات العباد في ستهل شهر رمضان ، مئة سبع وتسعين وخمسمائة هجرية .

ابن لقمان*

إبراهيم ، ولد سنة اثنتى عشرة وستائة ، تخرج فى ديوان الإنشاء على يد صاحب بهاء الدين زهير ، الذى كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما غضب الصالح على صاحبه قلد ابن لقمان رئاسة الديوان ، فكان آخر من ولى هذا المنصب فى عهد الدولة الأيوبية ، وظل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن انقرضت هذه الدولة ، فكتب لمن ولى العرش من سلاطين المماليك ، كتب للبعز أيبك ، ومن بعده للظفر قطز ، ثم للظاهر بيبرس ، ثم للنصور قلاوون .

ونال ابن لقمان حظوة كبرى لدى هذين السلاطين ، فهو الذى كتب بقلبه تقليد الظاهر بيبرس ، وفيه يعلن الخليفة العباسى الذى أقامه الظاهر بيبرس خليفة فى القاهرة — أنه فوض السلطنة وأمور المسلمين إلى الظاهر بيبرس ، فى مستهل شعبان ، سنة تسع وخمسين وستائة ، تقدم الخليفة بتفصيل خلعة سوداء ، وبعمل طوق ذهب ، وقيد ذهب ، وبكتابة تقليد بالسلطنة ، للملك الظاهر بيبرس ، ونصب خيمة ظاهر القاهرة ، فى البستان الكبير . وفى يوم الاثنين رابعه ركب السلطان ، ومعه أهل الدولة ، وأفيضت عليه خلع الخليفة ، كما أفيضت الخلع على كبار رجال الدولة ، وكان منهم ابن لقمان الذى نصب له منبر ، وجل بثوب حرير ، أطلس أصفر ، فصعد عليه ، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان ، وافتتحه بالبسملة بقوله : الحمد لله الذى أضنى على الإسلام ملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره ، وكادت خافية بما استحكم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر من سلف ، وقبض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف وبعد الحمد والشهادتين ، والصلاة على الرسول ، أخذ يثنى على

* مراجعه :

- (١) صبح الأعشى ١ : ٩٧ ، ٩ : ٦ و ١١١ .
- (٢) السلوك ١ : ٤٥٣ و ٦٦٦ و ٥٧٣ و ٤٨٩ و ٦٨٢ و ٣٥٦ و ٤٥٣ و ٥٨٠ .
- (٣) حسن المحاضرة ٢ : ٤٥ .
- (٤) خطط المقرئى ١ : ٣٥٨ .
- (٥) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٣٥ و ٣٦٦ و ٣٧٠ ، ٧ : ٢٩٣ و ١١١ و ١٤٤ و ١٤٦ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٨ و ٨ : ٥٠ و ٥١ .
- (٦) فوات الوفيات ١ : ٨٣ .
- (٧) نهاية الأرب ٢٨ : ٦٨ و ٦٩ .
- (٨) البداية والنهاية ١٣ : ٣٣٧ .

الظاهر بيبرس الذي أحيا الخلافة العباسية قائلاً : « وبعد ، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راعياً وساجداً في تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدماً ، ودعا إلى طاعته ، فأجاب من كان منجداً ومتهما ، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً ، وأجراه دماً ، ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى ، شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الامامى المستنصرى ، أعز الله سلطانه ، تنوياً بشريف قدره ، واعترافاً بصنعه الذى تنفذ العبارة المسببة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان ، وعتب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب ، فأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً ، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحباً ، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم حنواً وعطفاً ، وأظهر من الولاء رغبة في ثواب الله مالا يخفى ، وأبدى من الاهتمام بأمر البيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه ، ولو تمسك به متمسك لا ينقطع به قبل الوصول إليه ، ولكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها في الميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابها ، والسعيد من خفف من حسابها ، فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه ، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه ، بعد أن حصل الإيثار من جمعه ، وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعرف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قللك الديار المصرية ، والبلاد الشامية ، والديار بكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفراية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ، وفوض أمر جندنا ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكازم فرداً ، ولا جعل منها بلداً من البلاد ، ولا حصناً من الحصون يستثنى . . . ، ومضى التقليد يوصيه بأمر الرعية ، ويذكر فضل الرفق بها ، والعناية بشأنها ، في إطناب وتطويل .

وابن لقمان هو الذى كتب تقليد الملك السعيد سنة ٦٦٧ هـ ، بنبابة السلطنة عن أبيه :
الظاهر بيبرس ، وكان من حاشية السلطان عند ما حج سنة ٦٦٦ هـ .

أما المنصور قلاوون فقد ولاء وزارته كما ولى الوزارة لابنه الأشرف خليل ، قال مؤرخوه عنه : إنه كان في أيام وزارته مشكور السيرة ، كثير العدل والإحسان إلى الرعية ،

وأنه سعى في إبطال مظالم كثيرة ، وما كان يتأثر بعزله من الوزارة ، بل كان يمضى بعد عزله للعمل في ديوان الإنشاء وكأنه ما تغير عليه شيء . بل كان يتقاضى وزيراً مرتبه رئيساً لـديوان الإنشاء .

وقد اشتغل ابن لقمان بالتدريس ، وأخذ عنه الطلبة ، وكان ناظماً ناثراً ، ومن شعره :

كن كيف شئت ، فإننى بك مغرم	راض بما فعل الهوى المتحكم
ولئن كتمت عن الوشاة صبايتى	بك فالجوانح بالهوى تكلم
أشتاق من أهوى ، وأعجب أنى	أشتاق من هو فى الفؤاد مخيم
يا من يصد عن المحب تدللاً	وإذا بكى وجدا غدا يتبسم
أسكنتك القلب الذى أحرقته	فذار من نار به تتضرم

وهو فيما أوردنا له من نصوص لا يخرج عن طريقة أبناء عصره فى النثر والشعر .
وقد سجل ابن مطروح دار ابن لقمان فى شعره الذى هدد به ملك فرنسا الذى أسر بالمنصورة ، فى الدار التى كان ينزل بها ابن لقمان إذا جاء إلى المنصورة فى شئون الدولة ، وذلك حين قال ابن مطروح :

دار ابن لقمان على حالها ————— والقيد باق ، والطواشى صبيح
وبعد إحدى وثمانين سنة ، توفى ابن لقمان ، فى جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وتسعين وستائة .

ابن عبد الظاهر *

فتح الدين محمد ، ابن القاضي محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، آخر من ولى ديوان الإنشاء فى عصر الحروب الصليبية ، ولىه بعد ابن لقمان الذى استوزره المنصور قلاوون ، وكان أول من سى بكاتب السر ، فقد نفذ المنصور قلاوون فكرة الظاهر بيبرس ، فى ضرورة أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم شفاهاً منه بلا وساطة ، وحظى فتح الدين عند المنصور قلاوون ، وسمت منزلته عنده ، وكان يعتمد عليه ويثق به ، كما حافظ على هذه المكانة عند ما ولى العرش الأشرف خليل بن قلاوون ، وزادت مكانته عنده ، وعظم أعجابه به ، عند ما طلب منه ابن السلجوس أن يعرض عليه كل ما يكتبه عن السلطان ، فقال فتح الدين : هذا لا يمكن ، فإن أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، فإن اخترتم ، وإلا فعينوا عوضى يكون معكم بهذه المثابة . فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه ، وازدادت عنده منزلته .

وكان فتح الدين من بيت تأصل فيه الأدب : كان أبوه محي الدين من كبار كتاب الإنشاء فى عهد الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، ولعله لم يل ديوان الإنشاء عوضاً من ابنه لأن فتح الدين قد أظهر براعة فى إدارة الديوان وتدبير أموره ، جعلته أولى من أبيه بأن يسند إليه أسر الديوان ، كما كان علاء الدين على بن فتح الدين من المجيدين فى كتابة الإنشاء . وبهذا كان هذا البيت من توارث بنوه هذا الفن الرفيع .

وقد اتسعت ثقافة ابن عبد الظاهر فشملت الحديث والفقه ، وأغلب الظن أنه تمرن فى ديوان الإنشاء ، وأظهر كياسة ، وحسن سياسة ، وبعد نظر ، ومقدرة عقلية ، هيأته لتولى هذا المنصب الخطير .

وسار فتح الدين كما سار أبوه محي الدين ، على المنهج الذى أعجب به القاضى الفاضل من قبلهما ، فهما من أخلص تلاميذ الفاضل لطريقته ، وهذا نموذج مما كتب به أماناً عن المنصور قلاوون ، للتجار الذين يصلون إلى مصر ، من الصين والهند ، والسند ، واليمن ، والعراق ، وبلاد الروم ، وهو بذلك يفتح أبواب بلاده أمام التجارة الخارجية ، ويبدأ الأمان ببراعة استهلال ، يدعو فيها للعرش قائلاً : رسم ، أعلى الله الأمر العالى ، لا زال عدله يحل الرعايا

* مراجعة : (١) حسن المحاضرة : ٢٤٥ .

(٢) النجوم الزهرة : ٧ : ٢٩٣ و ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٠ و ٣٤١ .

(٣) صبح الأعشى : ١ : ٩٧ و ١٣ : ٣٣٩ . (٤) السلوك : ١ : ٥٩٨ و ٧٧٩ و ١٣١ .

(٥) البداية والنهاية : ١٣ : ٣٣١ . (٦) خطط للقرن : ٤ : ١٣٠ و ١٣١ .

(٧) شذرات الذهب : ٥ : ٤١٩ . (٨) المنهل الضائق : ج ٣ ص ١٩١ ب .

من الأمن في حصن حصين ، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة من أهل المشارق والمغارب ، فلا أحد إلا وهو من المخلصين ، ويهيء برحابها للمعتفين جنة عدن ، من أى أبوابها شاء الناس دخولا : من العراق ، من العجم ، من الروم ، من الحجاز ، من الهند ، من الصين — أنه من أراد من الصور الأجلاء الأكابر التجار ، وأرباب التكسب ، وأهل التسبب ، من أهل هذه الأقاليم التى عدت ، والتي لم تعد ، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد ، التقل إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفيائها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير خيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ، ولا إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة نس ، لمن قطن ، ومسلة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر ، ولا تهجر للإفراط في الخصر ، والمقيم بها في ربيع دائم ، وخير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه ، وأن بركة الله حاصلة في رحل من جعل الإحسان فيها من إقراضه والحسنة من قرضه ، ومنها ما إذا أهبط إليها أمل كان له ما سأل ، إذ أصبحت دار إسلام تسبق سيوفهم العدل ، وقد عمر العدل أوطانها ، وكثر سكانها ، واتسعت أبنيتها ، إلى إن صارت ذات المدائن ، وأيسر المعسر فيها ، فلا يخشى سورة المدائن ، إذ المطالب بها غير معتسرة ، والنظرة فيها إلى ميسرة . وسائر الناس وجميع التجار ، لا يخشون فيها من يجور ، فإن العدل قد أجار .

ويمضى المرسوم مغرباً التجار من جميع الجهات بالحضور إلى مصر ، وليأخذ كل الالهبة للقدوم ليجد الفعال من المقال أكبر . ويرى إحساناً يقابل في الورى بهذه العهود بالأكثر، ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ، وفي نعمة جزاؤها الشكر ، وهل يجازى إلا الشكور ، وفي سلامة في النفس والمال ؛ وسعادة تجلى الأحوال ، وتمول الآمال ولهم منا كل ما يؤثرونه : من معدلة تجيب داعيها ، وتحمد عيشتهم دواعيها ، وتبقى أموالهم على مخلفيهم . . . ومن أحضر معه بضائع . . . فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف أمراً يشق . . . ومن أحضر معه منهم بمالك وجوارى فله في قبضتهم ما يزيد ، على ما يريد . . . لأن رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود . . . فليستكثر من يقدر على جلبهم ، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الخات على طلبهم . . .

ويحس قارئ هذا النموذج بما كان يبذله فتح الدين من جهد ، ليسير في الطريق الذي

مجدده القاضي الفاضل ، ولم يرتض سواء ، كما نلاحظ طول الجمل المعترضة بين أجزاء الجملة ، مما لم يستسغه القاضي الفاضل كثيراً .

ويظهر أن فتح الدين كان جارى القلم بالكتابة ، وما يروى له في ذلك أنه كتب مرة في يوم وليلة بين يدي السلطان ثمانين كتاباً ، أرسلت إلى أنحاء الإمبراطورية يومئذ .
وعالج فتح الدين قرض الشعر إلى جانب صناعة النثر ، كأغلب كتاب ذلك العصر ، فقد حاولوا أن يجمعوا بين الفنين . وما يروى من شمره ما كتبه إلى والده وقد توجه إلى دمشق صحبة السلطان ، وحصل ته توعك ، فكتب يقول :

إن شئت تنظرنى وتبصر حالى	قابل إذا هب التسيم قبولا
تلقاه مثلى : رقة ونحافة	ولأجل قلبك لا أقول : عليلا
فهو الرسول إليك منى ، ليتنى	كنت اتخذت مع الرسول سبيلا
ومن شعره ، وفيه حسن تعليل :	

ذو قوام يحور منه اعتدال	كم طعمين به من العشاق
سلب القضب لينها ، فهي غيظاً	واقفات تشكوه بالأوراق

ولم يعمر فتح الدين طويلاً ، فبعد أربع وخمسين سنة ، توفي بدمشق ، في ١٥ رمضان ، سنة ٦٩١ هـ ، وكان مولده بالقاهرة سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

الباب الثالث

الخطابة

كان للخطابة في ذلك العصر شأن مرموق ومكانة سامية ، يمجّد العظيم فيقال : من بيت
رياسة وخطابة ^(١) . يتولى الخليفة الفاطمي بنفسه أمرها ، في مساجد القاهرة ومصر ، فيخطب
من إنشائه ، أو يهيئ له ديوان الإنشاء خطبة يلقيها ، وأحياناً ينوب عنه وزيره فيها ^(٢) ،
ويختار لكبار المساجد كبار العلماء والقضاة ^(٣) ، وظلت العناية بأمر الخطابة على حالها
بمصر والشام في عصر الأيوبيين ، وأوائل عصر المماليك . ولما أعيدت الخلافة العباسية في
مصر كان الخليفة العباسي يتولى أحياناً أمر الخطابة ^(٤) . وكانوا يشترطون في الخطيب فصاحة
اللسان ، وحفظ القرآن ، وربما اشترط فيه في العصر الفاطمي أن يكون شريفاً ^(٥) . وقراءة
التوقيع الذي كتب به لقاضي القضاة كمال الدين عمر بن العديم بخطابة جامع تدل على ما كان
يراعى في اختيار خطباء المساجد الكبرى يومئذ ، من اتصافهم بصفات تجعل لكلامهم تأثيراً
في النفوس : من العلم والبلاغة ، والأخلاق السامية . إذ جاء في هذا التوقيع : ... لأنه
الإمام الذي لو تقدم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد ، والعارف الذي بلغ بولايته مرید
الفضل غاية المراد ، والعالم الذي وجدت أخبار علومه نسبة يطابقها في الخارج صالح العمل ،
واتبع سنن السكتاب والسنة ، فلم يتخلل طريقته المثلى خلل ، والمحقق الذي وجد إلى كنه
الحقيقة أكمل مجاز ، والمفوه الذي بلغ من البلاغة في كلام البشر حد الإعجاز ، إن خطب
شنف بدرر مواعظه الأسماع ، وشرف بغير فرائده الأسجاع ، واهتزت أعواد المناير طرباً
لكلمه الطيب ، وروى أوام ^(٦) . القلوب سح فضله الصيب ... ولو نظر الملكان : هاروت ،
وماروت ما ملكه من كتابته الساحرة لأقرا أنه السحر الحلال ... فليأشر هذه الخطابة

(١) الطالع السعيد من ٢٩٥ . (٢) راجع النجوم الزاهرة ج ٥ من ١٧٥ .

(٣) راجع طبقات الشافعية ج ٥ من ٦٣ وصبح الأعشى ج ١٢ من ٤٤٠ .

(٤) راجع حسن المحاضرة من ٤٨ ج ٢ والسلوك من ٤٧٧ ج ١ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٥ من ١٧٥ . (٦) الأولام بالضم : العطش .

مباشرة ترشف منها كثوس كلبه الأسماع ، وليكشف لها عن وجوه فضائله القناع ، وليبشر عليهم من درر بلاغته ما تلتقطه أفواه المسامع وليطرب بمواصيل أجماعه القاطعة بفضائله المسكلة ولينفق على الجمع يوم الجمعة بما آتاه الله تعالى من كنوز الفضائل ، وليبلغهم من بلاغته التي أخملت ذكر دقس ، و د سحبان وائل ، (١) وقد تستقر الخطابة في بيت من بيوت العلم ، كما استقرت حيناً في بيت ابن دقيق العيد (٢) .

وكان المسجد غالباً مكان الخطابة في أيام الجمع ، وأحياناً عند الظروف القاسية ، يجمع الناس في المسجد للاستماع إلى خطبة استدعاها ذلك الظروف الخاص ، كما حدث بعد موت الملك الصالح ، وتحرك الفرنج من دمياط ، يريدون الاستيلاء على مصر ، فقد ورد من العسكر كتاب إلى القاهرة ، فقرأ على منبر جامعها ، أوله : « انفسروا خفاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . وفيه مواظ بليغة بالحث على الجهاد ؛ فارتجت القاهرة ومصر وظواهرهما بالبكاء والويل ، لكنهم لم يهنوا ، وخرجوا للجهاد في عالم عظيم (٣) . وليس هذا الكتاب الذي قرأ على منبر الجامع سوى خطبة مكتوبة .

وأحياناً لا تكون الخطبة في الجامع ، ولا تلقى على عامة الشعب ، كهذه الخطب القصيرة التي كانت تلقى في خيمة صلاح الدين ، إذا حزب الأمر واشتد الضيق . روى ابن شداد وهو يصف معركة عكا أن صلاح الدين استحضر الأمراء وأرباب المشورة في خيمته ، وأمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، ثم قال : « بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله . اعلوا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل في بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ، إن شاء الله تعالى ، وقد بقى في هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك . وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ، فليس وراءنا نجدة ننتظرها ، سوى الملك العادل وهو واصل . وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندي مناجزتهم ، فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك (٤) . » وروى وهو يصف حصار العدو للقدس أن جماعة الأمراء حضروا في خيمة السلطان ،

(١) صبح الأعشى ج ١٢ ص ٤٤٠ وما يليها . (٢) الطالع السعيد ص ٢٩٦ .
(٣) خطط المقرئ ج ١ ص ٣٥٦ . (٤) النوادر السلطانية ص ٩٧ .

فأمرني أن أكلهم ، وأحشهم على الجهاد ، فذكرت ما يسره الله من ذلك ، وكان مما قلته :
 « إن النى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بإيعة الصحابة رضى الله عنهم على الموت ،
 فى لقاء العدو . ونحن أولى من تأسى به ، صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند
 الصخرة ، والتحالف على الموت ، ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو . ثم شرع السلطان
 بعد أن سكنت زماناً فى صورة مفكر ، والناس سكوت ، كأن على رموسهم الطير . فقال :
 « الحمد لله ، والصلاة على رسول الله اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ، ومنعته ، وأنتم
 تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذرايرهم معلقة بدمكم ، وأن هذا العدو ليس له من
 المسلمين من يلقاه إلا أنتم ، فإن وليتم بأنفسكم ، والعياذ بالله ، طوى البلاد طى السجل
 للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ،
 فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام (١) . » وما يلحظ أن خطبتي صلاح الدين
 أريد بهما تبليغ أفكاره إلى سامعيه ، من غير تكلف زخرفة ولا زينة .

وإلى جانب الخطابة ظفر الوعظ بنصيب محمود فى ذلك العصر ، لما فيه من تهية النفوس
 لفعل الخير ، وهدايتها إلى منهج الحق والصواب ، وكان يقوم به من مرت ألسنتهم على
 القول البليغ ، وعرفوا كيف يستميلون القلوب لإلهم ، وكان بعض سلاطين هذا العصر
 يعرفون أثرهم فى الشعب ، فيقرهم إليه ، أو يفدق عليهم المنح والهبات ، فهذا صلاح الدين
 يوزع المنح على الوعاظ ، ويظل أسبوعين يستمع إلى الوعظ ، وذكر الحلال والحرام ،
 والبعث والمحشر ، ويخلع على الواعظين (٢) ، ولما اشتدت وطأة الصليبيين على المصريين فى
 دمياط ، كتب المعظم عيسى إلى سبط ابن الجوزى ، يحثه على أن يعظ الناس ، ويحرضهم
 على الجهاد (٣) .

وقد تنوعت أهداف الخطابة يومئذ ، فمن خطابة دينية ، إلى خطابة تحث على الجهاد ،
 وتذكر بفضلته ، وبخاصة فى الأوقات التى كان المسلمون يقاتلون فيها أعداءهم ، إلى أخرى
 تعلن حمد الله وشكره على ما آتى من نصر ، وأكرم به من فتوح ، وقد يقف بعض الخطباء
 فى جراءة الحق ، ينتقد تصرف الحاكم ، يعلن مخالفته للدين ، كما حدث من عز الدين

(٢) الروضتين ج ٢ ص ٧٤ .

(١) المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٣) الإسلام والحضارة العربية ج ٧ .

ابن عبد السلام خطيب جامع دمشق ، فإن الصالح لما ملكها ، وأعطى الفرنج صفد والشقيف ذمه ابن عبد السلام على المنبر ، ولم يبال أن الصالح يعزله ويحبسه ^(١) .

وقد أنتج هذا العصر كثيراً من دواوين الخطب التي أنشأها خطبائه ، مثل تنائج الإخلاص في الخطب لشميم الحلبي ^(٢) ، وديوان خطب ابن المنير السكندري ^(٣) ، وابن دقيق العيد ^(٤) ، ويحيى بن سلامة الحصكفي ^(٥) ، ويحيى بن معطى الزواوى ^(٦) ، ومحمد بن هبة الله البرمكي ، الذي وجد في تركته خمسون ديوان خطب ^(٧) ، والقاسم بن القاسم الواسطي ^(٨) ، والحسن بن الخطير ، وكانت مليئة بجوشى الكلام ^(٩) ، وأحمد بن المبارك بن نوفل ^(١٠) ، وأبى محمد الواسطي ^(١١) ، وغيرهم . ولو أن هذه الدواوين قد بقيت لاستطعنا أن نقف على الكثير من اتجاهات الخطابة في ذلك العصر ، وعلى الكثير من ألوان الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والخلقية ، التي كانت سائدة يومئذ ، مما كان الخطباء يعالجون إصلاحه على المنابر . غير أنه لم يبق لنا من هذه الآثار إلا خطب تعد على الأصابع . ولعل أهم نص لخطبة بقيت لنا من ذلك العصر هو الخطبة التي قبلت عقب فتح صلاح الدين بيت المقدس في رجب سنة ٥٣٨ هـ ، قال ابن خلكان : « لما فتح القدس تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا في خدمته حاضرين ، وجهر كل واحد منهم خطبة بليغة ، طمعا في أن يكون هو الذي يعين لذلك ، فخرج المرسوم إلى القاضي محيى الدين أن يخطب هو ، وحضر السلطان وأعيان دولته . وذلك في أول جمعة صليت بالقدس ^(١٢) ، بعد الفتح . وقد أجاد محيى الدين ^(١٣) فيما افتتح به خطبته ، فقد بدأها بجميع تحميدات القرآن الكريم .

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) معجم الأدياء ج ١٣ ص ٧١ . (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٧٢ .

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ . (٥) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٨ . (٦) بقية الوعاة ص ٤١٦ .

(٧) طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٩٦ . (٨) معجم الأدياء ج ١٦ ص ٢٩٧ .

(٩) المرجع السابق ج ٨ ص ١٠٨ . (١٠) بقية الوعاة ص ١٥٤ .

(١١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٨ . (١٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٨ .

(١٣) هو أبو المعالى محمد بن على بن محمد كان فقيهاً أديباً له نظم حسن ، وخطب ، ووسائل ، تولى القضاء بدمشق ، وكذلك أبوه ، وجدته ، ووالده ، كانوا قضاتها وكان له عند صلاح الدين منزله عالية ومكانة مكيئة . وذكر ابن خلكان نسبه حتى انتهى به إلى عثمان بن عفان . وقد خطب محيى الدين هذا أربع خطب متوالية في أربع جمع ، ولكن لم يبق من خطبه إلا هذه الخطبة التي ندرسها . ولد سنة ٥٥٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٨ هـ . راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٧ ، والروضتين ج ٢ ص ١٥٨ ، وما يليها ص ٤٦ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٥ وصبح الأعشى ج ٦ ص ٧٤ .

استفتح بسورة الفاتحة ، وقرأها إلى آخرها . ثم قال : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » . ثم تلا ذلك بتحميدات سور القرآن ، وكان المقام يستدعى هذا الحمد الكثير ، فقد فتح بيت المقدس ، بعد أن ظل في أيدي مغتصبة تسعين عاما ، وكان المسلمون قد يؤسوا من استعادته . ولم يكتف بتحميدات القرآن ، بل أنشأ هو حمدا قدمه إلى الله ، ووصفه بما يناسب هذه النعمة العظيمة ، فقال : الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذي قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده ، فلا يمانع ، والظاهر على خليفته ، فلا ينازع ، والآمر بما يشاء ، فلا يراجع ، والحاكم بما يريد ، فما يدافع . ثم عاد مرة ثالثة إلى حمد الله قائلا : « أحمد على إظهاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ، ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره . » وبعد ذكر الشهادتين محاطتين بما يناسب المقام غير نافي عند ذكر محمد أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — اتجه إلى هؤلاء الذين تم على أيديهم هذا النصر المؤزر ، فأثنى على جهدهم الموفق ، قائلا : أيها الناس أبشروا برضوان الله ، الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم : من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، ... ثم أخذ يعدد فضائل المسجد الأقصى « فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومدفن الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل به ينزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر وهو البلد الذي بعث إليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحها ، عيسى الذي كرمه برسالته ، وشرفه بنبوته . . . وهو أول القبلتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد المواطنين إلا عليه . وهو بذلك يبين لهؤلاء الذين كان لهم شرف فتحه مقدار ما قدموه من فضل يحمدون عليه . ولذا قال بعد ذلك « فلو لا أنكم بمن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم

من جيش ظهرت على أيديكم من المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه : محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقاومة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقرّبتم به إليه من إهراق الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء . . وإذا كان الله قد أجرى على أيديهم هذا الفتح المبين فإنه نعمة كبرى يجب أن يقدروها حق قدرها ، ويقوموا لله بواجب شكرها . وهنا يتحدث عن فضل بيت المقدس مرة أخرى ، ليبين نعمة الله عليهم في فتحه ، فيقول :

« أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في محكم خطابه ، فقال تعالى : سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . أليس هو البيت الذي عظمته الملل ، وأثنت عليه الرسل . . . فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلت على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع لأجله كلمتكم ، وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان ، وقد ، عن سوف ، وحتى وبعدئذ أمرهم بحراسة هذه النعمة بالتقوى ، وترك العجب والغرور ، والاستعداد بإزالة ما بقي من آثار الغاصبين للديار . فقال : « فاحرسوا ، رحمكم الله ، هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقعة الردى ، ورجوع القهقري ، والنكول عن العدا ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا ، عباد الله ، أنفسكم في رضاه ، إذ جعلكم من خير عباد ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الضنيان فيخيّل لكم أن هذا النصر بسيفكم الحداد ، وخيولكم الجياد ، وبجلادكم في مواطن الجلال ، لا والله ، ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فاحذروا ، عباد الله ، بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً والجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم . . . ومضى يركي فيهم نار الحماسة ، كي يستمروا في جهادهم ، مهوناً من شأن عدوهم ، شاداً عزائمهم ، مؤملاً

أن ينتهزوا هذه الفرصة ، كي يلقوا بعدوهم إلى البحر . وفي الخطبة الثانية مضى يدعو لقائد المسلمين في هذه المعركة ، وهو صلاح الدين ، دعاء حاراً ولا عجب فقد كانت روحه المعنوية التي بثها في صدور جنده سبباً لهذا النصر المبين ، فقال الخطيب : « اللهم وأدم سلطان عبدك ، الخاضع لحيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامي عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمك ، المانع ، السيد ، الأجل ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبي المظفر ، يوسف بن أيوب ، محيي دولة أمير المؤمنين ، اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك برأياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاهه ، اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر في المشارق والمغارب دعوته ، اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه داني الأرض وقاصيها ، وملكه صياصي الكفر ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها ، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه ، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء المملكة وأكنافها ، اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وابثث سرايا جنوده في سبل الأقطار ، اللهم أثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الإسلام ، هذه الحسنة التي تبقى على الأيام ، وتتخلد على مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدي ، الذي لا ينقذ في دار المتقين ، وأجب دعاءه في قوله : « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين »^(١) . وإن هذا الدعاء الحار الصادر من قلب الخطيب ليحبر أصدق تعبير عما كان يشعر به المسلمون في عصر صلاح الدين من حب وإجلال ، لهذا القائد الموفق ، وما كانوا يحملونه من كبار الآمال فيه . وإن موازنة بين هذا الدعاء الحار المليء بالآمل والقوة والتفاؤل ، وبين ما كان يدعى به لنور الدين محمود ، وهو : « اللهم أصلح عبدك

(١) الخطبة بتأديتها في وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٨ ، والروضتين ج ٢ ص ١١٠ .

الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد في سبيلك ، الم رابط لأعداء دينك :
أبا القاسم محمود بن زكري بن آق سنقر ناصر أمين المؤمنين (١) ، . إن هذه الموازنة لتدل
على الخطوة الواسعة التي خطاها المسلمون نحو تحقيق جزء من أهدافها في إجلاء الصليبيين
عن أرضهم ، فبينما نور الدين كان مجاهداً في سبيل الله ، مرابطاً لأعداء دينه ، إذا بصلاح
الدين سيفه القاطع ، وشهابه اللامع ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان . كما أن موازنة
بين هذين الدعامين وبين ما كان يدعى به لوزير الحافظ الفاطمي : أحمد بن الأفضل وأمير
الجيش وهو : ناصر إمام الحق ، هادي العصاة إلى اتباع الحق ، مولى الأمم ، ومالك
فضيلتي السيف والقلم (٢) ، — لترينا الفرق في الاتجاه بين عهدين ، فبينما هي في أيام الأفضل
نزاع على إمامة إمام ينصر الوزير الصادق منهما ، ويهدى العصاة إلى سبيل الصواب ، ونحذر
بأن الوزير عالم قائد ، إذا بها في عهد نور الدين رباط في سبيل الله ، وجهاد لأعدائه ، ثم إذا
بها في عهد صلاح الدين تقليم لأظافر العدو ، وتحطيم لقواه .

وبني لنا من ذلك العصر أيضاً خطبة خطبها الحاكم بأمر الله العباسي ، وهو الخليفة الذي
أقامه الظاهر بيبرس ، بعد سقوط الخلافة ببغداد ، فإن أحد أمراء العباسيين واسمه أحمد ،
قدم القاهرة ، ومعه واده ، وجماعة ، فلما كان يوم الخميس ، ثامن المحرم ، سنة إحدى وستين
وستمائة ، جلس السلطان مجلساً عاماً ، وجاء الأمير العباسي ، فجلس معه ، ثم قرىء نسبه على
الناس ، وأقبل عليه السلطان ، وبايعه بإمرة المؤمنين ، ثم أقبل هو على السلطان ، وقلده
الأمور ، ثم بايعه الناس على طبقاتهم ، ولقب الحاكم بأمر الله ، وكان يوماً مشهوداً (٣) ، فلما
كان الغد يوم الجمعة ، خطب الخليفة بالناس مشيراً إلى فرضية الإمامة في الإسلام ، وأن
الجهاد فرض على جميع المسلمين ، حتى يردوا التار الذين هاجوا بلاد الإسلام ، وسفكوا دماء
المسلمين ، وصور لهم ما حدث ببغداد : من أنواع المظالم ، وما ارتكبه الغزاة ، من أقسى
ألوان الوحشية ، ودعاهم إلى الجهاد حتى يردوا هذا الطغيان ، ثم عرج على جميل فعل بيبرس
من إعادته للخلافة ، وعنايته بإقامة منارها . وبما جاء في هذه الخطبة : الحمد لله الذي أقام
لآل العباس ركناً وظهيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً ، أحمد على السراء والضراء ،

(١) الروضتين ج ١ ص ١٢ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٨ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٧ .

وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء ، وأستنصره على الأعداء أيها الناس ،
اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم
علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد فلو شاهدتم أهل الإسلام حين دخلوا دار السلام ،
واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأطفال ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ،
وأذاقوا من استبقوا العذاب الآليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعلت الضججات
من هول ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم
يرحم لبكائه ، فشمروا ساق الاجتهاد ، في إحياء فرض الجهاد قاتقوا الله ما استطعتم
واسمعوا ، وأطيعوا ، وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . (١) ،
وخطب بالقلعة مرة ثانية ، يوم الجمعة ، رابع شوال ، سنة تسعين ، وذكر في خطبته توليته
السلطنة للأشرف خليل . قال المقرئ : « وهى نفس الخطبة التى خطب بها في أيام الظاهر
يبرس ، إلا أنه ذكر فيها الملك الأشرف ، وكان بين الخطبتين ثلاثون عاماً ، وتسعة أشهر
وثلاثة وعشرون يوماً . (٢) ، وخطب مرة ثالثة بالمنصورية ، بحضرة السلطان والقضاة .
وحض على غزو التتار ، واستنقاذ بلاد العراق ، من أيديهم ، وذلك في ذى القعدة ، سنة
تسعين ، ثم خطب مرة رابعة ، في التاسع والعشرين من ربيع الأول ، سنة إحدى وتسعين ،
وحدث على الجهاد والتفكير ، وصلى بالناس الجمعة (٣) . ولم يبق لنا من خطبه سوى الخطبة الأولى .
وأهم ما نلمسه من الصفات فيما بقى لنا من الخطب والمواعظ :

أولاً : التأني في اختيار الألفاظ والعبارات ، فالخطيب ينثر كلماته ، ليختار أجود ما
عنده من لفظ .

ثانياً : التزام السجع ، وقد تلتزم الفاصلة أكثر من جملتين . والعناية ببعض ألوان
المحسنات البديعية كالجناس ، والطباق .

ثالثاً : الاقتباس من القرآن الكريم ، واتخاذ مصدره من الاستشهاد ، والحث
والتهريض .

رابعاً : الاستشهاد بالشعر ، وقد يطول هذا الاستشهاد ، كما فعل سبط ابن الجوزى في
بعض عظائمه .

(١) الخطبة كلها في كتاب حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨ . (٢) السلوك ج ١ ص ٧٧٤ .

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨

وكان لخطب ابن نباتة^(١) في هذا العصر شأن كبير ، واتخذها الخطباء يومئذ نموذجاً يتأثرون به ، ويقتدون به ، حتى صرح لابن الأثير أن يقول إنها عكاز أهل هذا الزمان^(٢) . وكانت الخصائص الثلاثة الأولى من خصائص هذه الخطب ، وربما كان من الأسباب التي دفعت إلى هذا الحب ، فضلاً عن جمال الأسلوب ، كثرة خطب الجهاد فيها . ولعل من الخير أن نورد هنا جزءاً من خطبه لابن نباتة ، لنبين المثل الأعلى المقتدى به في ذلك الزمان . قال ابن نباتة يحض على الجهاد : الحمد لله الكريم الوهاب ، الرحيم التواب ، الشديد العقاب ، العتيد^(٣) الثواب ، جل عن الأشكال والأضراب وتعالى عن مشاكلة الخططاء والأصحاب ، وقصرت عن إدراك صفاته غايات الإسهاب ، وحسرت دون تفسير ذاته عبارات ذوى الإطناب ، فهو الباطن المعبود بلا مواراة حجاب ، والظاهر الموجود في العقول بلا ارتياب ، أحده على نعمه الهنيئة العذاب ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة دائمة بلا انقضاب ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله انتخبه من أشرف العرب العرباء ، وابتعته من أظهر أصل ونصاب ، من شجرة عبد مناف بن قصي بن كلاب ، مبرأ من كل دنس وعاب ، مطهر القول عن الخطل والكذاب ، ففرق الله جموع الأحزاب ، وشد أزره بخير صحاب ، صلى الله عليه وعلى آله الخيرة الأطياب ، وصحابة البررة الانجباب ، صلاة تفيض عليهم بركاتها فيض السحاب ، وسلم تسليماً . أيها الناس أن الدنيا قد أدبرت وأذنت بانقلاب ، وإن الآخرة قد أقبلت وأذنت باقتراب ، فلا نحن لما أدبر من هذه ذو واجتناب ، ولا لما أندر من تلك أولوارتقاب ، كأن قلوبنا من الصم الصلاب ، أو كأن نفوسنا واثمة بحسن المآب ، كلا ، بل وإن عليها خبث الاكتساب ، وأعمى بصائرنا طول اللعاب ، فليس ينفعها قرع العتاب ، ولا صدع الكتاب . قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا لإطماع السراب ، تهارش على خطاها تهارش الكلاب ، ونابس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب

(١) قال عنه ابن خلدون : كان إماماً في علوم الأدب ، وورق السواد في خطبه ، التي وقم الإجماع على أنه ماعل مثلاً ، وفيها دلالة على غزارة علمه ، وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب ، وبهسا اجتمع بأبي الطيب المنجي في خدمة سيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الفزوات ، فلم يذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ، ليحرض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد في سنة خمس ومائة وثلاثمائة وموت في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ، بمغافرة ودفن بها . وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨٣ .

(٢) العتيد : الحاضر .

(٣) الوثائق للرقوم ص ٦ .

تنظر إلى المعروف نظر الخزر^(١) الغضاب ، ونسكن إلى المنكر سكون الباني بالخود الكعاب ، وقد أظلنا من العدو سحب ممتدة الأطناب ، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب ، وعم الغلاء والبلاء بقبس الاكتساب ، فإعجاب الفادح عندنا بعجاب ، ولا نفوسنا تكترث بعظيم المصاب ، وما ذاك إلا لصول العبيد فيكم على الأرباب ، وعدلكم الهجان بالصرح اللباب ، وانقياد الرؤس فيكم للأذنان ، وارتكاب كل هواه إلى ضد الصواب ، شأنكم بينكم التنازع باللقاب ، واغتيال أنفد في الأعراض من الحراب ، وشهد ملق أقتل من سم الحباب ، وخبيث فعال ينقض مبرم الأسباب ، وأرواح عن الانقياد للحق صعاب ، فلا العالم يعمل بما عليه من حكم الكتاب ، ولا يردعه ما أتقنه من السنن والآداب ، فأنيبوا عباد الله إلى ربكم^(٢) ، فأنت ترى مقدار الصناعة التي جعلت ابن نباتة يلتزم في السجع حرفا واحدا في الخطبة كلها ، ولكن ذلك لم يكن منهجه في كل خطبه ، وإن التزم السجع فيها جميعاً .

وما يجب أن يشار إليه أن بعض خطباء ذلك العصر آثر العبارة المرسلة ، وترك السجع جانباً ، مثل عز الدين بن عبد السلام ، ولكن يظهر أن الكثرة الساحقة كانت تتبع السجع ولا تحيد عنه .

واشتهر من رجال الخطابة والوعظ في ذلك العصر عدد كبير ، نذكر منهم إبراهيم ابن منصور العراقي^(٣) ، المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، إمام الجامع العتيق وخطيبه ، كان فقيها معظما في القاهرة أخذ عنه فقهاؤها ، وولى الخطابة بعده ولده محمد . قال السبكي : ولولده ديوان خطب مشهور . وأمين الدين هاشم خطيب حلب ، الذي نقل إليه صلاح الدين الخطابة بدل بني العديم سنة ٥٧٩ هـ^(٤) . ومنهم بنو العديم ولى عدد كبير منهم قضاء حلب

(١) الخزر : جم أخزر وهو الذي ينظر بطرف عينه . (٢) ديوان خُطب ابن نباتة ص ١٧٧ .

(*) مراجعته : ١ - طبقات الشافعية للسبكي ج ٤ ص ٢٠١ - ٢ - حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٠ .

٣ - السلوك ج ١ ص ١٥٣ . ٤ - شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٢٣ .

٥ - كشف الظنون ج ٢ نهر ١٩١٢ .

(٣) الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .

وخطابتها^(١) ومن هذه الأسرة الكمال بن العديم** أول حنفي خطب بجامع الحاكم ، وخطب في جامع دمشق . ومنهم ابن زكي الدين صاحب خطبة فتح بيت المقدس التي سبق الحديث عنها . ومنهم ابن دقيق العيد ، فكان له الخطب الصاعدة الفصيحة^(٢) البليغة ، وقد ساعده على البراعة في الخطابة لسان طيع ، ومعرفة بالأدب واسعة ، وعلم غزير بالعلوم الشرعية والعقلية ، والمعارف الصوفية ، وذهن لماح ذكي^(٣) . ومنهم شمس الدين محمد بن أبي المعضاء أول من خطب بمصر لبني العباس في عهد صلاح الدين ، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة العباسي يحمل رسالة ، وصفه فيها صلاح الدين بأه خطيب الخطباء بمصر ، وقد بلغ شمس الدين هذا مكانة سامية فكلن مقصد الشعراء ومحط آمالهم^(٤) . ولعل جرأته في الخطابة لبني العباس هي التي جعلت صلاح الدين يغدق عليه ويرفع من أمره . ومنهم ابن المنير السكندري . عالم الإسكندرية وخطيبها^(٥) . ولعل من الخير أن نعرف تعريفا يسيراً بأشهر وعاظ هذا العصر وهم ابن نجا وسبط ابن الجوزي ، وأشهر خطبائه وهو عز الدين بن عبد السلام .

-
- (١) راجع على هذه الأسرة معجم الأدباء ١٦ : ٥٠ . (٢) الطالع السعيد ص ٣١٧ .
(٣) راجع كتاب الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١٤٢ . (٤) راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٣٤٣ ، والروستين ١ : ١٩٣ و ١٩٥ و ٢٤١ و ٢٤٤ . (٥) راجع كتاب الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١١٩ .
(**) مراجع ١٥ : تاريخ الواصلين ج ٢ ص ٤٠٧ . ٢٥ : السلوك ج ١ ص ٢٧٩ و ٤٧٦ . ٤٤ : ذيل الروستين ص ٢١٧ . المختصر في أخبار البهر ج ٣ ص ٢١٥ . ٦٥ : قوات الوفيات ج ٧٢ . ٧٥ : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ . ٨٥ : أهلام النبلاء بتاريخ حلب القدياء . ٩٥ : الفوائد البهية ص ١٤٧ . ١٠٥ : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٠ . ١١٥ : ناج التراجم ص ٣٥ . ١٢٥ : معجم المطبوعات ص ١٧١ ج ١ . ١٣٥ : معجم الأدباء ١٦ : ٥٠ .

ابن نجاشي*

أبو الحسن علي بن إبراهيم ، ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة ، ونشأ بها ، من أسرة مثقفة ، كان جده لأمه أبو الفرج الشيرازي الحنبلي أحد أعلام الحنابلة ، ألف كتاب الجواهر ، في ثلاثين مجلداً ، ولعله في الفقه أو التفسير ، وكانت والدته حافظة تعرف التفسير ، وقيل إنها كانت تحفظ كتاب الجواهر لوالدها . وكان خاله شرف الإسلام عبد الوهاب مدرساً ، وعاليه تفقه ، وسمع التفسير ، كما درس الحديث أيضاً . وشغف بالوعظ منذ صغره ، واشتغل به . قال أبو الحسن : حفظني خالي مجلس وعظ ، وعمرى يومئذ عشر سنين ، ثم نصب لي كرسيًا في داره ، وأحضر لي جماعة ، وقال : تكلم ، فتكلمت ، فبكي . وكان يذكر هذا المجلس وهو ابن تسعين سنة ، وظل هذا الأثر الأول عالقا بذهنه ، لا ينمحي فقد كان بطيء النسيان ، ولعل مقدرته في الوعظ ، وجودة رأيه ، ودهاءه ، مهدت أمامه السبيل للاتصال بنور الدين محمود ، ملك الشام ، ونيل ثقته ، وتقديره ، حتى اختاره رسولا إلى بغداد ، سنة أربع وستين . وقد ظفر بحسن التقدير ، فخلع عليه خلعة سوداء كان يلبسها في الأعياد ، وهناك سمع الحديث ، ووعظ بجامع المنصور ، ثم عاد إلى دمشق ، وانتقل إلى مصر ، في عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ولا يذكر التاريخ سبب انتقاله إلى مصر ، ولكن صلته بنور الدين تجعلنا نرجح أن سبب هذا الانتقال سياسي ، وأن نور الدين أراد أن يجعله ، وهو كبير الثقة فيه ، عيناً له بمصر ، ولا سيما أن طلائع كان يريد أن يعقد بين مصر ونور الدين اتفاقاً ، يتحدان به على مواجهة الصليبيين وحرهم في وقت واحد معاً ، ويظهر أن الصلة قد توثقت بين الوزير والواعظ ، فروى أبو الحسن بعض شعر طلائع ، وكان ينشد على المنبر من شعره ما يصلح الاستشهاد به ، كقوله :

مشيبك قد نضاً صبغ الشباب وحل الباز في وكر الغراب

(*) مراجعه : ١٥ المنهج الأحمد ٢ : ٣٢٢ . ٢٥ النجوم الزاهرة ٦ : ١٨٣ . ٣٥ ذيل الروضتين ص ٣٥ . ٤٤ خطط المقرئ ٤ : ٨١ . ٥٥ السلوك ١ : ٩٧ و ٩٨ . ٦٥ وفيات الأعيان : ١ : ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٥٨٩ و ٥٩٩ . ٧٥ حسن المحاضرة ١ : ٢٣٧ . ٨٥ النكت العصرية ٦٢١ و ٦٢٣ و ٦٥١ . ٩٥ الروضتين ٢ : ٥٧ و ٥٨ و ١٠٩ . ١٠٥ الحريدة المطبوعة ص ١٨٢ . ١١٥ هذرات الذهب ٤ : ٣٤ . ١٢٥ الكامل في التاريخ ١١ : ١٧٩ .

تنام ، ومقلة الحدثان يقظى وما ناب النواب عنك ناب
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد أنفقت منه بلا حساب

بل قد استطاع أن تتوثق الصلة بينه وبين كبار أركان الدولة الفاطمية، لدرجة أن المؤامرة التي دبرت بعد أن أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية ، والتي فكر فيها المؤتمرون أن يقضوا على صلاح الدين ، وأن يعيدوا دولة الفاطميين — كان ابن نجبا أحد أركانها . وفي الوقت نفسه كانت صلته شديدة الوثاقة بصلاح الدين ، وزاد من وثاقها وشدها أنه وشى لصلاح الدين بنبا هذه المؤامرة ، فاستطاع السلطان أن يقضى عليها ، وصار بذلك مدينا لابن نجبا بالشيء الكثير من سلطانه ، فقربه إليه وصار له عنده وجاهة عظيمة ، ومكانة ممتازة ، وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص ، لما لمسه فيه : من الدهاء ، ويعمل برأيه ، ويكاتبه إذا غاب ، ويحضر مجلس وعظه ، هو وأولاده ، ولما فتح السلطان بيت المقدس كان معه ، وفي أول جمعة أقيمت فيه بعد الفتح نصب له كرسي ، فوقف عليه بعد الصلاة ، يعظ في هذا اليوم المشهود . ويظهر أن الحياة قد طابت له في مصر ، فلم يفكر في العودة إلى دمشق ، بل يذكر العباد أنه أرسل إلى صلاح الدين رسالة يشوقه فيها إلى مصر ، ويذكر له ما امتاز به هذا البلد : من طبيعة ساحرة ، وما فيه : من آثار رائعة ، وأورد في كتابه ما دل به على فضيلته : من الآيات ، والأخبار ، والآداب ، والآثار .

وكان ابن نجبا يعظ بجامع القرافة بمصر ، ولما أنشأ الصالح مسجده خارج باب زويلة استمر جلوس زين الدين الواعظ به ، وحضور الصالح إليه . وقد وصف وعظه العباد الأصمغاني ، فقال : « هو ذو لهجة في الوعظ فصيحة ، وبهجة للفضل صحيحة ، وقبول من القلوب ، وفصول في فصل الخطاب للخطوب » . وذكر صاحب شذرات الذهب أنه كان يعظ بالعربية وغيرها . ولست أدري المقصود بغير العربية ، أم العامية ، أم التركية ، أم لغة أخرى .

وعما ينبغى الإشارة إليه أن وعظه لم يحل بينه وبين الاستمتاع بمباهج الحياة ، وحبه للمال . وقد أغدق عليه السلطان صلاح الدين المال والإقطاعات ، حتى اجتمع عنده مال كثير ، وجوار مترفات غاليات الثمن . ويبدو أنه كان يحب مظاهر الفخامة والعظمة . فكان يعمل في داره من الأطعمة ما لا يعمل في دور الملوك ، ويمد له سباط يؤكل عليه . ولعل هذا

الكرم هو الذى بدد هذه الثروة الكبيرة ، ومزق أمواله حتى قال مؤرخوه : إنه مات فقيراً ، كفته بعض أصحابه .

ولم يمنعه وعظه أيضاً من أن تتأجج المنافسة بينه وبين واعظ آخر هو الطوسي ، فكانت تجرى بينهما أقذع الخصومات .

كان الوعظ أعظم ما شهر به ابن نجا . ولكنه كان يفسر القرآن ، ويروى الحديث ، وهما ينبوعان يتكئ عليهما الواعظ ، ليسكسب كلامه القبول ، ويؤثر تأثيراً قوياً فى نفوس سامعيه ، وليتخذ منهما أدلته وبراهينه . وقد سمع منه الحديث جماعة كبيرة ، منهم الحافظ عبد الغنى المقدسى ، وأجاز للمندرى وغيره .

وبعد حياة طويلة أربت على التسعين ، توفى ابن نجا ، يوم الأربعاء ، ثامن رمضان ، سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمصر .

سبط ابن الجوزي (٥)

يوسف بن قزأوغلي ، وأمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ ببغداد^(١) ، ولد سنة ٥٨٢ هـ ، ببغداد ونشأ بها ، تحت كنف جده . درس الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والتاريخ ، والأدب ، وكان مفرط الذكاء سريع الخاطر ، اجتمع له من الأسباب ما هيأه لأن يشغل مكانة عظيمة في الوعظ ، فإنه فضلا عن علمه الغزير ، وذكائه الحاد ، كان حسن الصورة ، طيب الصوت ، طلق الوجه ، دائم البشر ، حسن المجالسة ، مليح المحاوره يحكي الحكايات الحسنة ، وينشد الاشعار المليحة . . نشأ في بيئة وعظ ، أعجب بها . فأحب أن يسير على سننها . اشتغل بالوعظ في بغداد ، ويظهر أنه وفق في ذلك ، منذ رغب أن ينهض بإرشاد الناس ووعظهم ، غير أنه لم يقم في وطنه بغداد ، بل غادرها إلى الشام ، في أول سنة ستمائة ولما يبلغ العشرين من عمره ، ولست أدري الأسباب التي حملته على مغادرة أهله ووطنه ، وكان يستطیع أن يبقى في بغداد ، ليعظ مكان جده ، الذي توفي سنة ٥٩٧ هـ . ومؤرخوه لا يذكرون عن أسباب رحلته شيئا .

أخذ يوسف يتنقل في البلاد ، بعد ترك بغداد ؛ وكان يعقد مجالس الوعظ في البلاد التي ينزل بها . قال . « ثم قدمت الموصل ؛ وجلست بها ؛ وحصل لي القبول التام ؛ بحيث إن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس في الجامع ؛ من كثرة الزحام . » ، ثم قدم حران ، وحلب ، وبيت المقدس ، ودمشق ، ورزق بالتوفيق في مواعظة بدمشق ، قال : « وحضر مجلسي بجامع دمشق في سنة عشر وستمائة القضاة ؛ والاشراف والأعيان ، والملك المعظم عيسى بن العادل رحمه الله ، وشيوخنا : جمال الدين الحصري ، وتاج الدين الكندي ، والقاضي شمس الدين

(١) راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٩ .

(*) مراجعه : (١) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٩ ، وينقل عنه كثيرا . (٢) السلوك ١ : ٢٣٣ و ٤٠١ . (٣) طبقات الشافعية ٥ : ٩٨ . (٤) ذيل الروضتين ٨ : ٤٩ و ٥٧ و ٥٩ و ٦٩ و ١٠٤ و ١٠٧ و ١٩٥ . (٥) الفوائد السنية ص ٢٣٠ . (٦) البداية والنهاية ١٣ : ١٩٤ . (٧) معجم المطبوعات لسركيس ١ : ٦٧ . (٨) مفتاح السعادة ١ : ٢٠٨ . (٩) مرآة الزمان . (١٠) وفيات الأعيان ٢ : ٢٤٦ . (١١) ديوان ابن عنيث ص ٢٢٦ و ٢٢٧ . (١٢) تاج التراجم ص ٦١ . (١٣) المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٩٧ . (١٤) أعلام الأخبار ص ٣٣٧ . (١٥) شذرات الذهب ٥ : ٢٦٦ . (١٦) المنهج الأحمد ٢ : ٣٦٥ .

ابن الشيرازي ، والقاضي شمس الدين بن سني الدولة ، وكان مجلساً عظيماً احتوى على عشرة آلاف وزيادة ، . وقد وصف صاحب ذيل الروضتين مجالس وعظ السبط ، فقال :
« كانت مجالس الوعظ التي للذكور من محاسن الدنيا ، ولذاتها ، فكان الله قد جمع له حسن الصورة ، وطيب الصوت ، وظرافة الشئائل في الإيراد ، والجوابات ، واللباس ، وسائر الحركات ، فكان يزدحم في مجلسه ما لا يحصى من الخلق رجالاً ونساءً والنساء بمعزل عن الرجال ، في جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرت مجالسه صغرى وكبرى في الموضع مراراً ، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انقض ، إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر ، فإنه كان يجلس كل سبت ، وتبسط السجادات والحصر والبسط ، في كل المواضع القريبة من المنير ما بينه وبين القبة ، في يوم الجمعة ، ويبعث الناس ليلة كل سبت حلقاً ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحاً بالمجلس ، مسابقة إلى الأماكن وعادة . الدمشقيين التفرج في أيام السبت ، ويبطلون عن أشغالهم بالمدينة ، وينقطعون في بسائهم ، وكانوا لا يفوتون حضور المجلس ، ثم ينصرفون عنه ، إلى فرجهم ، فلا يتقضى يومهم إلا بالتذاكر لما فيه من المحاسن ، وإنشاد الأشعار ، والتحدث بمن أسلم فيه ، أو تاب ، وإيراد ما كان فيه : من سؤال ، وجواب ، ولم يزل على ذلك مدة سنين ، ثم اقتصر على المجلس في الأشهر الثلاثة : رجب ، وشعبان ، ورمضان ، كل سبت ، فانقطع بمنزله عند تربته بالجبل ، إلى أن توفي سنة أربع وخمسين وستائة (١) .

ظل سبط ابن الجوزي إذاً أكثر من نصف قرن يعظ الناس ، وكان لوعظه أثره في نفوس سامعيه ، فكانوا يحتملون في سبيله مشقة النوم بالمسجد ، كي يظفروا بمكان يستمعون فيه إلى الوعظ ، وكان ينكر على أرباب الدولة ما يقترفونه من الإثم ، وعلى الفساق ما يأتونه من المنكرات ، وكان صوته الرطب يؤثر في سامعيه ، فيقبلون إليه تائبين عن المعاصي والآثام ، وما يلحظ أن من كان يتوب على يد السبط يقدم إليه جزءاً من شعره ، ولست أدري سر ذلك اللهم إلا ما قد يكون من رغبة التائبين في أن يجعلوا من شعورهم مجتمعة قيوداً لأفراس تجاهد في سبيل الله ، وقد هياً من بعضها سبط ابن الجوزي ثلاثمائة شكال (٢) .
ولم يكن سبط ابن الجوزي ممن يرغبون في إثارة الفتنة ، اختصمت جماعة في أيهما أفضل .

(٢) راجع ذيل الروضتين ص ٦٩ .

(١) ذيل الروضتين ص ٤٩ .

أبو بكر أو علي ؟ فسألوه وهو على منبر الوعظ فأجابهم : أفضلهما من كانت ابنته تحته ، فضى كل فريق منهما ينتصر لمن يفضله ، فقال فريق أبي بكر : أفضلهما أبو بكر لأن ابنته كانت تحت رسول الله . وقال فريق علي : أفضلهما علي لأن ابنة رسول الله كانت تحته . وهذه الإجابة المحتملة لم يوقع الشجار بين الفريقين .

والظاهر أن سبط ابن الجوزي كان يعتمد على إشارته المؤثرة ، فضلا عن طلاقة لسانه وحلاوة بيانه ، بل قد يعتمد على هذه الإشارات وحدها إذ كان في الظروف المحيطة ما يساعد على فهم المراد بهذه الإشارة وحدها ، قالوا : كان يطلع على المنبر في بعض الأيام ويحذق الناس إليه ، ويفتجب ، ويبكى ، ويبكى الناس معه ، ويقتلون أنفسهم ، ويذهب هائماً على وجهه ، ويذهب الناس من مجلسه وهم سكارى حيارى . ومثل في يوم عاشوراء أن يذكر للناس شيئاً من مقتل الحسين ، فصعد المنبر ، وجلس طويلاً ، لا يتكلم ، ثم وضع المنديل على وجهه ، وبكى شديداً ، ثم أنشأ يقول ، وهو يبكى :

ويل لمن شفع — أوه خصماؤه والص — ورفى نشر الخلائق ينفخ
لا بد أن ترد القيامة فاطم — م وقبصها بدم الحس — ين ملطخ
ثم نزل عن المنبر ، وهو يبكى .

وما حفظه التاريخ له من مجالس وعظه المؤثرة أن الملك الكامل لما سلم القدس للفرنج نفرت قلوب الرعية ، وجلس الحافظ شمس الدين بجامع دمشق ، وذكر فضائل بيت المقدس ، وحزن الناس على استيلاء الفرنج عليه ، وبشع القول في هذا الفصل ، فاجتمع في ذلك المجلس ما لا يحصى عدده ، من الناس ، وعلت أصواتهم بالصراخ ، واشتد بكاءهم وأنشد الحافظ قصيدة ، أبياتها ثلاثمائة بيت ، منها :

على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من ضحرات
مدارس آيات خلقت من ت — ملاوة ومنزل وحى مقفر الع — رصات

فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم (١) . وقد سبق أن رأينا المعظم عيسى يرسل إليه ، ليحرض الناس على الجهاد ، بعد أن أخذ الفرنج دمياط .

وبرغم كثرة مجالس سبط ابن الجوزي لم أر له إلا بعض جمل ، ذكرها صاحب طبقات الشافعية حين قال : دخل على السلطان الملك الأشرف الشيخ شمس الدين سبط ابن الجوزي ، وكان واعظ الزمان ، وكان له قبول عظيم فناوله السلطان مقاصد الصلاة ، وهو كتاب ألفه عز الدين بن عبد السلام . وقال : اقرأها . فقرأها بين يديه واستحسنها ، وقال : لم يصنف أحد مثلها ، فقال له : طرز مجلسك الآتي بذكرها ، وحرص الناس عليها . فلما جاء الميعاد صعد المنبر ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم : وقال : اعلموا أن أفضل العبادات البدنية الصلاة ، وهي صلة بين العبد وربّه . فعليكم بمقاصد الصلاة تصنيف ابن عبد السلام ، فاسمعوها ، وعوها ، واحفظوها ، وعلّموها أولادكم ، ومن يعز عليكم^(١) .

وأغلب ظني أن مجالس وعظه كانت على هذا النسق : رسالة لا يسمع فيها ، ولا تكلف ، يزينها السهولة والتدفق .

هذا ، ولم يكن سبط ابن الجوزي يرى الترهّب في الحياة ، أو النفور من السلطان ، فزوج ، واستقبل الملوك ، وأرباب المناصب زائرين ، وبلغ عند الملك المعظم عيسى منزلة سامية ، وأمله كان يرى حب هؤلاء له وسعيهم إليه مما يسهل عليه أن يبلغ أهدافه ، من الوعظ والإرشاد ، فتصلح الرأس ، ويصلح بصلاحياتها الجسد كله . ولذا كان له جاه عريض عند الملوك والعوام ، يحيا حياة طيبة ، ولكنه كان مقتصداً في ملابسه .

وكان نجاحه في الوعظ يتطلب منه اطلاعا واسعا ، ومواظبة على القراءة والدرس ، كي يستطيع أن يتخذ من هذا المعين الفياض مورداً يجيب به عما يوجه إليه من أسئلة ، وينبوعا يستقى منه أمثلته ونماذجه ، وقد أثمرت هذه القراءة الدائمة والاطلاع المستمر ، فضلا عن نجاحه في الوعظ ، كتباً منها تفسير في تسعة وعشرين مجلداً ، وشرح الجامع الكبير في فقه الحنفية ، كما جمع مجلداً في مناقب أبي حنيفة ، وكتب منتهى السؤل في سيرة الرسول . وكتاب اللوامع في أحاديث المختصر والجامع ، وله أيضاً كتاب مرآة الزمان في التاريخ ، ابتداء من أول الزمان إلى أوائل سنة ٦٥٤ ، التي توفي فيها . قال صلاح الدين الصفدي : أنا من يحسده على هذه التسمية ، فإنها لا ثقة بالتاريخ ، كأن الناظر في التاريخ يعاين من ذكر فيه من مرآة .

ولم يكن محتاجا إلى الاطلاع الغزير لمجالس وعظه لحسب ، ولكن ليفيد طلبته ، فقد كان مدرسا بالمدرسة العزية البرانية ، التي بناها عز الدين أيبك المعظمي ، أستاذ دار المعظم ، ودرس أيضا بالشبلية التي بالجبل ، وفوض إليه أمر البدرية التي تقع يومئذ تجاهها ، فأتخذ فيها مسكنه إلى أن مات ، وحضر جنازته عالم عظيم : سلطان البلد ، فن دونه ، وقام مقامه في التدريس بالعزية ابنه عبد العزيز ، الذي تثقف على أبيه ، وأخذ عنه .

ولست أدري ما الذي لم يعجب ابن عنين من سبط ابن الجوزي حتى هجاه ، ولقد قرأت هجاءه ، فلم أر شيئا معينا يوجه ابن عنين إليه ، سوى قوله فيه ، وقد خرج حاجا ، فرماه الهجين عند مسجد القدم ، فرجع ولم يحج ذلك العام ، فقال ابن عنين :

إذا ما ذم فعل النوق يوما فإني شاكر فعل التيقاق

أراد الله بالحجاج خيرا فشبط عنهم أهل النفاق

فهو هنا يرميه بالنفاق ، ولعله أخذ عليه ما أخذه بعض أهل عصره عليه : من تحوله عن مذهب ابن جنبل إلى مذهب أبي حنيفة ، ليستدعي بذلك عطف المعظم عليه ، وكان المعظم حنفيا . ومن تقربه إلى الملوك وأرباب الدولة . وقد بينا مذهب السبط في ذلك ، وأنه يرى التقرب من أولى الأمر وسيلة لنجاح مهمته ، وليس شيء يستحق الرد عليه في هجاء ابن عنين غير هذه التهمة .

عز الدين بن عبد السلام (*)

لا نريد أن نتعرض للنواحي المختلفة لهذه الشخصية القوية الممتازة ، وحسبي أن أعرض منه لناحية خطابته ، التي أعانه على التبوغ فيها علم غزير بمختلف علوم عصره ، وجرأة في قول الحق لا يخشى أن ينطق به ، حتى ولو تعرض لفضب السلطان وسخطه ، وإخلاص فيما يقول ، وإيمان بما يدعو إليه ، ولما في دمشق سنة ٦٣٧ هـ خطابة جامعها الأموي والإمامة فيه . قال أبو شامة أحد تلامذته : « وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة ، وقد استن في خطابته سننا : منها أنه لم يحب السجع في خطابته ، بل أرسلها لإرسالا ، ومنها أنه اجتنب الثناء على الملوك ، واستعاض عن ذلك بالدعاء لهم ، كما أنه أبطل دق السيف على المنبر .

(*) راجع ص ١٦٢ من كتاب الحياة العقلية ففيها ذكر مراجعه وحديث عنه .

وكان عز الدين كسبظ ابن الجوزي متصلا بملوك الأسرة المالكة ، رأسلوه ، وأحبوا لقائه ، واستشاروه ، واستنصحوه ، واتخذ هو من هذه الصلة وسيلة لصالح الشعب ، والنهوض ، بأخلاقه ، وإصلاح الأداة السياسية . مرض الأشرف موسى ، فأرسل إليه يستزيه ، نجاء إليه ، فلما استنصحه الأشرف نصحه العز بأن يولى وجهه ، ويكرس جهوده على حرب التار ، لا على حرب أخيه الكامل ، وكانت جفوة قد حدثت بينهما ، فقبل الأشرف نصيحته ، ولما استزاده طلب منه العز أن يرسل إلى نوابه يحرم عليهم شرب الخمر ، والفسق ، وفرض ضرائب على المسلمين ، فأطاع أمره . ثم أمر له الأشرف بألف دينار ، فردها قائلا : هذه اجتماعة لله لا أكرها بشيء من أمور الدنيا . ولم تمنعه صلته بالملوك أن يجهر بالحق ، وينقد تصرفهم ، إن حادوا عن الحق والطريق المستقيم ، حدث أن الصالح إسماعيل لما ملك دمشق صالح الفرنج على أن يساعده على الصالح أيوب سلطان مصر ، ويسلم إليهم صيدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين ، ودخل الفرنج دمشق لشراء السلاح كي يقاتلوا به عباد الله المؤمنين ، فشق ذلك على الشيخ مشقة عظيمة وعلى المتدينين من بائعي السلاح ، واستفتوا الشيخ في بيع الفرنج السلاح ، فقال : يحرم عليكم البيع لهم ؛ لأنكم متحققون أنهم يشترونه . ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين . ويظهر أن عز الدين قد أثاره هذا الأمر ، فنال من الصالح إسماعيل ، ولم يدع له ، ودعا بعد فراغه من الخطبتين ، وقبل نزوله من المنبر ، بقوله : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمرا رشدا ، تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » . والناس يدهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين ، بالنصر على أعداء الله الملحدون . فأخبر السلطان أعوانه بذلك ، فأصدر أمره بعزل الشيخ واعتقاله ، فبقى مدة معتقلا ، ثم أطلقه على أن يغادر بلاده ، فخرج عبد العزيز من دمشق ، ثم بدا للصالح إسماعيل أن يعيده ، فأرسل خلفه رسولا أخذ يسوسه ، ويدلله القول ، ويقول له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان ، وتقبل يده ، لا غير . فقال له : والله يامسكين ما أرضاه أن يقبل يدي ، فضلا أن أقبل يده . ومضى إلى مصر ، فقدمها سنة ٩٥٦ هـ ، فتلقاء الصالح أيوب عدو الصالح إسماعيل ، خير لقاء وأكرمه ، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص ، والقضاء بمصر ، وبالوجه القبلي ، فقام بمنصبه أتم قيام ، وتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يخشى في الله لومة لائم ، وكان

حينما يسلك في الإرشاد طريقا عنيقا . قال تلميذه الباجي : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان ، في يوم عيد ، إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفىين بين يديه ، ومجلس المملوكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الابهة ، وقد خرج على قومه في زينته ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوء لك ملك مصر ، ثم تبيع الخور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال : نعم . الحانة الفلانية يباع فيها الخور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملوكة . يناديه كذلك بأعلى صوت ، والعساكر واقفون . فقال : يا سيدي ، هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا أباءنا على أمة ؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة . وحدث أن أستاذ دار الصالح عماد إلى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره بناء لطبل خانة ، وظلت تضرب هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين أمر بهدم ذلك البناء ، ومضى بجماعته وهدمه . وعلم أن السلطان والوزير يغضبان ، فعزل نفسه عن القضاء ، وعظم ذلك على السلطان ، وقيل له : اعزله عن الخطابة ، وإلا شنع عليك على المنبر ، كما فعل في دمشق ، فعزله .

نحن إذا أمام شخصية واثقة بنفسها ، نعتقد أن عليها رسالة يجب أن تؤديها ، ولا تريد أن تفرط في شيء من حقوقها ، جريئة لا تخشى صولة سلطان ، ولا تفكر في عاقبة ما تقدم عليه إذا آمنت به . وكل هذه الصفات يجب أن تكسو الخطابة صفة الوضوح والقوة والصرامة وكم كنا نود أن لو بقيت لنا آثار العز الخطابية ، لتكشف لنا ما كان يدور في مجتمع هذا العصر : من اتجاهات اجتماعية ، واقتصادية ، وكيف نصب عز الدين نفسه ، لإصلاح الفاسد منها وتقويم المعوج ، ولم يرو مؤرخوه أنه جمع لنفسه ديوان خطب ، مما يجعلني أميل إلى أنه كان يرتجل خطبته ، ويمضي بها مراسلا ، لا يتقيد بسجع ، ولا يعنى بزخوف ، وثفته بنفسه هي التي دفعته إلى أن يخرج عما ألفه أهل عصره ، من الجري وراء السجع ، واتخاذ ابن نباتة الفارقي مثلا يقتدى به ، ويتخذ نموذجاً وإماماً .

وما لا ريب فيه أن عز الدين كان فصيح اللسان . يؤثر في نفوس سامعيه ، فينفادون له ويعملون بإشارته ، ويجمع حوله القلوب ، وكان لهذه الخطابة إلى جانب علمه أثرها في حب الناس له ، وإعجابهم به ، ولقوة البيان فعل السحر في النفوس ، ولهذا ذكر مؤرخوه

أنه لما مزت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصه : اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان قال للناس : اخرجوا عليه ، لانتزع الملك منى

وإن الحق ليدفعنى إلى أن أقرر أن ما بقى لنا من خطب هذا العصر فى العربية ضعيف إلى جانب ما قرأته من خطبتين أعلن بأولها البابا أوربان الثانى Urban 11 بدء الحزوب الصليبية ، وخطب الثانية سان برنار ، بعد أن سقطت الرها فى أيدي المسلمين .

فى السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ م^(١) ، وفى أكبر ميادين كليرمون Clermont ، بفرنسا اجتمع الناس من كل فج عميق ، ليستمعوا فى شوق ولهفة إلى الخطاب الذى أزمع أوربان الثانى أن يلقيه فيهم . وضعد البابا على منصة أقيمت له ، ووقف إلى جانبه بطرس الراهب الذى أخذ يحدث جمهور السامعين عما شهده : من تدنيس الأماكن المقدسة ببيت المقدس ، وما يقاسيه زوار هذه الأماكن : من العذاب والنكال ، تحت حكم شعب لا يؤمن بالله ، وما رآه من مسيحيين يقادون عبيداً فى الأغلال ، مصفدين فى النير كالبهايم ، وآخرين منهم لا يسمح لهم بأن يحيا قبر لإلههم إلا إذا سلبهم ظالموهم ما يملكون . وبينما كان يقص ما يلاقيه المسيحيون من الشقاء والذل ، كان وجهه كدراً ، مدعوراً ، وصوته تخنقه العبرات . فلما أتم حديثه وقف البابا ، وقال : لقد سمعتم ما قصه عليكم مبعوث مسيحي الشرق ، فحدثكم عن الحظ النعس لبيت المقدس ، وشعب الله ، وكيف اضطرت مدينة ملك الملوك أن تخضع لعبدة الأوثان . لقد نشر الكفر المنتصر ظلمته فوق أغنى بقاع آسيا ، وصارت أنطاكية ونيقية من المدن الإسلامية ، وإن قبائل الترك البرابرة قد ركزوا أعلامهم على شواطئ الدردنيل ، يهددون منها العالم المسيحي ، وإذا لم يسلح الله نفسه أبناءه ، ويوقف نصر هؤلاء القوم فأى بلاد وأى مملكة تستطيع أن تغلق أبواب الغرب فى وجوههم .

إن فضلاء الناس الذين باركهم إلهنا يثنون ، ويرزحون ، تحت ثقل أعظم الإهانات المخجلة ، وأحط أنواع الظلم . وإن الشعب المختار ليحتمل المظالم المهيمنة . وإن غضب العرب الكافر لم يحترم العذراء ولا الكهنة . لقد أثقلوا بالحديد أيدي المرضى والعجزة ، وانتزعوا أطفالاً من صدور أمهاتهم ، ففسدوا عند البرابرة اسم الله الحق . والمشاوى التى أنشئت لتستقبل الفقراء من حجاج الأماكن المقدسة ضمت تحت سقفها شعباً كافراً .

ها أشد يؤسنا ، أى أطفالي وأبنائي ، نحن الذين نعيش في أيام النكبات ، أجبنا في هذا القرن المحروم من رحمة الله ، لنرى يوبس المدينة المقدسة ، أو نظل نحن في سلام بينما هي ساقطة في أيدي أعدائها ؟ أليس الموت في القتال أفضل من أن تتحمل هذا المشهد المخيف ؟ فلتنبك جميعاً على أخطائنا التي أثارت غضب الرب . فلتنبك ، ولكن لا على أن تكون دموعنا كبذور قذف بها فوق الرمال . إن الحرب المقدسة ستشتعل من حرارة توبتنا ، وإن حب إخواننا سيدفعنا إلى المعارك ، وسيكون أقوى من الموت نفسه في مهاجمة أعداء المسيحيين .

أيها المحاربون الذين تصغون إلى إنكم تبحثون بلا انقطاع عن أسباب تشبون بها نيران الحروب ، هتثوا أنفسكم ، فهذه حرب مشروعة ، لقد دنت الساعة التي تبهنون فيها على أن الشجاعة الحقبة تملأ نفوسكم ، وأن أن تكفروا عما ارتكبتم من قسوة وانتصارات دنسها الظلم ، أتمم الذين طالما نشرتم الرعب في نفوس بني وطنكم ، وبعثم أذرعكم بأجناس الاثمان لإخافة غيركم . هيا ، دافعوا عن بيت إسرائيل .

ليس هدفنا أن نأخذ بالثأر لإهانات لحقت المخلوقين ، ولكنها إهانات لحقت الذات الخالدة ، ولا أن نهاجم مدينة أو قصرأ ، ولكن أن نستولى على الأماكن المقدسة ، إنكم إذا انتصرتم فبركة السماء وممالك آسيا نصيبكم ، وإذا سقطتم فسيكون لكم شرف الموت حيث مات المسيح .

لا يمسكم في أوطانكم ميول جبانة ، ولا إحساسات دنسة ، يا جند الله ، لا تستمعوا إلا إلى أنين صهيون ، وافصموا كل صلات الأرض ، وتذكروا دائماً قول المسيح : من يحب أباه وأمه أكثر مني ، ليس جديراً بي ، وأى امرئ هجر ، من أجل بيته أو ماله ، نسيكافاً مائة ضعف ، وسينال الحياة الخالدة .

(وهنا ملأت الحماسة قلوب السامعين ، وأخذت أرجاء المكان تتجاوب بقولهم : تلك إدارة الله . وعندما عاد الهدوء استمر البابا ، قائلاً :

إنكم ترون هنا تحقيق الوعد الإلهي . لقد أعلن عيسى أنه سيكون . بين تلاميذه إذا اجتمعوا من أجله . أجل إن منقذ العالم الآن بينكم ، وهو الذي أوحى إليكم بتلك الجملة التي سمعتموها الساعة منكم ، فلتكن تلك في الحرب صيحتكم ، المنبئة بحضرة ربكم بينكم . إن عيسى

نفسه قد نشر ، ويقدم لكم صليبه ، فليكن الصليب شعار مختلف الشعوب ، واحملوه على أكتافكم ، وفوق صدوركم ، وليضئ على سلاحكم ، وفوق أعلاككم ، وليكن ضامن نصركم أو غاراستشهادكم ، وسوف يذكركم دائماً أن عيسى قدمنا من أجلكم ، وأن واجبكم أن تموتوا من أجله (١).

تلك كانت الخطبة الأولى ، التي أعلنت قيام الحروب الصليبية ، وفيها نرى كيف استطاع أن يملأ خطبته بالدوافع المثيرة لسامعيه ، كي ينهضوا إلى أكبر حرب بين الإسلام والصليبيين . فبدأ خطبته ببيان ما يهددهم هم أنفسهم من هجوم أولئك الغزاة من المسلمين ، الذين نصبوا أعلامهم فوق شواطئ الدردنيل ، وصارت أوروبا لا تجد قوة على صد هجومهم ، فإذا لم يتضافروا على حربهم وقعوا فريسة في أيديهم .

ثم أثار نخوتهم على ما أصاب لإخوانهم في زعمه : من ظلم ، ونكال ، وصور لهم الأطفال الصغار ينزعون من صدور أمهاتهم في قسوة وظلم .

وهذان السببان كافيان لأن يدفعنا سامعيه إلى القتال ، لأن الموت فيه أفضل من تحمل هذه المشاهد المؤلمة .

وفضلاً عن ذلك يستغل البابا رغبتهم في القتال ، وشغفهم به ، فأراد أن يوجه هذه الرغبة إلى الناحية التي يريدونها من حرب المسلمين ، ثم يظهر لهم أنه يسمو بهم عن أن يكون هدفهم الثأر لما لحق المخلوقين ، من إهانة ، ولكن الثأر لإهانات لحقت ربهم ، ويمضى مبيناً لهم عاقبة النصر ، من ظفر دنيوى وأخروى ، حتى إذا دعاهم جند الله وأسمعهم أنين صهيون ، وذكرهم بقول المسيح ، ثارت حماسهم ، وفاضت عواطفهم ، وأعلنوا استجابتهم لرغبة البابا . وهنا يغتبط الخطيب ، ويسجل هذه الاستجابة ، مثيراً عواطفهم تارة أخرى ، بأن ربهم الآن بينهم ، وأن عيسى قد نشر ، ليقدم لهم صليبه .

تلك أفكار مثيرة دافعة ، استغلها البابا أعظم استغلال . ولست أشك في أن كثيراً من الخطب التي صيغت بالعربية في ذلك العصر قد حوت كثيراً من المثيرات والدوافع ، التي تقود العاطفة ، وتدفع إلى الجهاد ، وكان المسلمون ينقادون لها أعظم الانقياد ، فيمضون إلى الحرب جماعات جماعات ، ولكن هذه الخطب لم تصل إلينا ، وربما كان سبب ذلك أن قائلها كانوا

من المغمورين . وفي الشعر الذي قاله الهروى بعد سقوط بيت المقدس لإمام بكثير من هذه المعاني ، التي أملت الخطب بالكثير من أمثالها ، ولا ريب .

وهذه خطبة أخرى ، قيلت بعد سقوط الرها في أيدي المسلمين سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) . ففي مدينة فيزيلاي Vézelay بفرنسا ، عند اجتماع أقبل عليه المسيحيون من كل مكان ، كما أقبلوا على اجتماع كلير مونت منذ خمسين عاماً ، فاجتمع جم غفير من الأمراء والفرسان والقادة ، والجهال ، من جميع الطبقات ، وأقيمت منصة كتلك ، ظهر عليها ملك فرنسا ، يرتدى أنفم ملابسه الملكية ، وإلى جانبه سان برنارد في ملابس راهب فقير ، فبعد أن حيتهما الجماهير المحتشدة أعظم تحية ، أخذ سان برنارد وكان خطيباً مصتقاً يتحدث عن أخذ العرب مدينة الرها ، وعن الحزن الذي عم الأماكن المقدسة لذلك ، وعن الرعب الذي شمل الدنيا عند ما علمت أن الرب بدأ يفقد أرضه العزيزة ، ثم قال :

« إنكم لتعلمون أننا نعيش في عصر الجريمة والخراب ، فأعداء الإنسانية قد نشروا الفساد في كل مكان ، وأصبحنا لانرى إلا جرائم لا يعاقب مرتكبوها ، إن قوانين الوطن ، وقوانين الدين ، لم يعد لها سيطرة على نزوات النفوس ، ولا سلطان على الأشقياء . فأسرعوا يا من تصغون إلى ، لتخففوا غضب السماء ، ولا تطلبوا الرحمة بتنهيدات لا قيمة لها ، ولا ترتدوا بعد اليوم إلا دروعكم . إن ضوضاء السلاح والاختار ومتاعب الحرب هي التوبة التي يفرضها الله عليكم . هيا كفروا عن خطاياكم ، بانتصاركم على المشركين . وليكن إنقاذ الأماكن المقدسة هو الثمن النبيل لتوبتكم .

وهنا ثارت الحماسة في نفوس المجتمعين فقساطعوا الخطيب ، كما قوطع أوربان في اجتماع كلير مونت بقولهم : « تلك إرادة الله » . ومضى الخطيب يقول :

إذا أخبرتم أن عدواً لكم دخل مدنكم ، وسلبكم نساءكم وفتياتكم ، ودنس معابدكم ، فن منكم لا يطير إلى سلاحه ؟ أجل لقد حدثت هذه المصائب ومصائب أجل منها ، فإن أبناء المسيح قد شتتهم أسياف المشركين ، وإن البرابرة قد هدموا بيت الرب ، واقتسموا ميراثه : فإذا تنتظرون إذاً لإصلاح هذه المآثم ، وللانتقام من تلك الإهانات ؟ أتركوا المشركين يعيشون آمنين ، برغم ما قاموا به ، من التخريب ؟ فكروا في أن انتصارهم سيكون مصدر

ألم دائم للأجيال المستقبلية ، على مر العصور ، وقد كلفني الله الخالد أن أخبركم أنه سيعاقب أولئك الذين لا يردون أعداءه . أسرعوا إذاً إلى أسلحتكم ، وليدفعكم الغضب الشريف إلى المعركة ، وليردد العالم المسيحي قول النبي : ويل لمن لا يخضب سيفه بالدماء ^(١) .

وفي هذه الخطبة يلقي الخطيب سقوط المدينة في أيدي المسلمين على كاهل سامعيه ، ويصور لهم غضب الله شديداً عليهم ، وأن ثمن توبتهم هو الانتصار على أعدائهم . ثم ينتقل إلى ما يثير فيهم النخوة والشهامة ، فصور لهم سلب نساء إخوانهم ، وقتياتهم ، وتهديم بيوتهم ، وبعث فيهم المخاوف على مستقبل أبنائهم من بعدهم ، وبهذا نجح في دفعهم إلى الحروب . وبما لاحظ أن تهمة الإشراك قد رمى بها كلا الطرفين صاحبه ، وكانت سلاحاً في يد كل من الفريقين ، يسوق بها الناس إلى الجهاد .

وترى في هاتين الخطبتين الدافع الديني قويا ، وأن الخطيبين كانا من رجال الدين ، وقد اصطبغت خطبتهما بصبغة دينية ، كما كانت الخطب التي أنشئت بالعربية يومئذ مصطبغة بهذه الصبغة الدينية أيضاً .

الباب الرابع

أثر الحروب الصليبية في الأدب العربي

تركت الحروب الصليبية التي دامت زهاء قرنين آثاراً ظاهرة في الأدب بمصر والشام ،
تبيينها واضحة فيما أنتجه الشعراء والكتاب . وينبغي أن نقول : في صراحة إن هذه الآثار
قامت على أساس من الأدب العربي الموروث ، فقد عرف العرب الحروب في الجاهلية والإسلام ،
وعرفوا حرب الروم منذ هاجموا بلادهم في صدر الإسلام ، ومنذ تآخمت بلاد الإسلام ببلاد
الروم ، فإن غزو كل واحد منهما لصاحبه لم ينقطع في عصر من العصور . ولم يقصر الشعراء
في تمجيد أبطال هذه الحروب ، ووصف تلك الوقائع . وإذا فنحن واجدون لتلك المظاهر
مشابهة في الأدب العربي ، الذي كان قبل عصر هذه الحروب ، ولكنه برغم أن أسس هذه
المظاهر متصلة في الأدب العربي ، فإن هذه الحروب تمتاز بمظهرها الديني ، الذي طبعها
بطابع خاص ، وجعل النزاع فيها صراعاً بين دينين ، لا بين فريقين يتنازعان أرضاً ، كما أن
ضخامة الجيوش التي استخدمت فيها ، وما صاحب هذه الحروب من جانب الفرنج : من قسوة
وتدمير ، وإجلاء للسليين عن أرضهم ، وطول المدة التي استغرقتها هذه الحروب ، جعل
لهذه المظاهر من البروز والوضوح وفيضان المظهر الديني عليها ، ما ليس لها من ذلك كله
فيما سلف ، قبل ذلك العصر .

عرف الإسلام معركة عمورية ، ومعارك سيف الدولة مع الروم ، ولكنه لم يعرف
فيما عرف مجازر كجهازر القدس ، وأنطاكية ، ومعرة النعمان ، وكان الإسلام قوياً لإمام كان
يهاجم في عصر الدولة العباسية ، فكان يصمد ، ويدفع العدو ، ويتوغل في أرضه ، أما في
عهد هذه الحروب فقد كان الإسلام في أولها شيعاً ، وبلادهم مجزأة ، حطم قواها العدو
واحدة واحدة ، وطمع في أن يستولى على كل هذه الرقعة الإسلامية ، وانحسر الإسلام ، ثم
أخذ يجتمع ، ويقوى ، ويشتد ساعده ، حتى استعاد بلاده شبراً شبراً .

ويمتاز الأدب الذي أوحى به هذه الحروب بالحساسة المتدفقة في أرجائه ، وبحرارة العاطفة التي تبعث في هذا الأدب الحياة والقوة ، وتدل على ما كان يعمل في نفوس الشعراء يومئذ : من اضطرام نيران الألم ، لاغتصاب هذه الأرض من المسلمين ، ولما أصاب سكانها من تشريد ، وذبح ، وتقتيل . ويدلنا هذا الأدب على أن سكان مصر والشام لم ينسوا ، برغم مرور الزمن ، وتطاول الأعوام ، هذه البلاد التي أغتصبها العدو منهم ، ولم يفقدوا الأمل في أنهم سيستردون يوماً ما فقدوه ، ويدلنا على ذلك أن من أكبر أهداف الحكومات التي وليت البلاد يومئذ الجهاد في سبيل الله وإعداد القوة لاستنقاذ بلاد الإسلام من يد أعدائه ، وقد تلون هذا الأدب ألواناً شتى : بين حزن ، وحسرة ، وفرح ، وبهجة ، وبين تمجيد للأبطال ، وحث على النزال ، وبين قوة وإقدام ، أو خوف وذعر ، إلى غير ذلك من ألوان العواطف والانفعالات ، التي أملت بالآمة في تلك العصور ، وصورها الأدب وأبقاها على مر الدهور ، وسنحاول أن نصف هذه المظاهر التي استخلصناها من زهاء سبعة عشر من النصوص .

١ - استنجد

كان من الطبيعي أن يستنجد أهل الإسلام بعضهم ببعض ، يطلبون العون ، ويسألون المساعدة ، لرد هذا الخطر الداهم ، والعدو المنقض بكل ما أوتي من قوة ، وأن يرسل بعض ملوك الإسلام إلى بعض عسى أن تتكاتف القوى ، وتتحد الجهود ، لاستخلاص البلاد من يد أعدائها ، وبقي لنا قدر وفير من هذا الأدب الذي يطلب مديد المعونة ، ويستنجد بمن يعتقد أنهم سيسرعون إلى نجده ، وكثر هذا الأدب في أوقات المحن التي مرت بمصر والشام ، وهما ينهضان بأعباء هذه الحروب . روى صاحب النجوم الزاهرة أن الفرنج بعد أن استولوا على بيت المقدس ، وأظهروا فيه ما أظهروا : من ضروب الوحشية ، وألوان القسوة والجبروت ، خرج المستنقرون من دمشق ، مع قاضيها : زين الدين أبي سعد الهروي ، فوصلوا بعداد ، وجفروا في الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا ، وبكوا ، وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين ، وأنشأ القاضي الهروي قصيدة مؤثرة أولها :

مرجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرضة للبراجم^(١)
ومنها : وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم

(١) المراجع : جمع مرجة ، وهي القبيح من الكلام .

ولأخوانكم بالشام يضحي مقيالهم
ومنها: وكاد لمن المستجن بطيبة
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا
ومنها: وليتهم إذ لم يذودا حمية
ولأذهدوا في الأجر لأذحي الوغى
وقال آخر .

أحل الكفر بالإسلام ضيا
فحق ضائع ، وحى مباح
وكم من مسلم أمسى سليبا
وكم من مسجد جعلوه ديرا
دم الخنزير فيه لهم خلوق
أمور لو تأملهن طفل
أتسبي المسلمات بكل ثغر
أما لله والإسلام حق
فقل لذوى البصائر حيث كانوا :
وقال الناس في هذا المعنى عدة مرات (٥) .

ورأينا الاستنجد ببغداد أيضا أيام الدولة الأيوبية في مصر والشام ، فرأينا صلاح الدين
وهو عند عكا التي كانت من أشد المعارك قسوة على المسلمين ، يكتب إلى بغداد رسالة بقلم
القاضي الفاضل يطلب منها العون ، قائلا : « ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا ، يمدحهم
البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجاجه ، وقد
تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة ، ويرسلوا إليهم من كل سلاح

(١) المذاكي : الخيل التي تم سننها ، وكانت قوتها (٢) القشاعم : جمع قشعم ، وهو المسن من النسور .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥٠ و ١٥١ . (٤) طفل : أبل وأطل

(٥) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٥١ و ١٥٢ .

شوكة ، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر ، بعثوا ألفاً عوضه في البحر ، فالزرع أكثر من الحصاد ، والثرثرة أنمى من الجذاذ ، وهذا العدو المقابل ، قاتله الله ، قد زر عليه من الخنادق دروعاً متينة ، واستجن من الجنانات بحصون حصينة ، فصار محصوراً ومتنعاً ، حاسراً ومتدرباً ، مواصلاً ومنقطعاً ، وعددهم الجم قد كثر القتل ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل ، لشدة ما قطعها النصل ، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة ، والكلف الثقيلة ، في استطاعتهم لا في طاعتهم ، وفي أحوالهم ، لا في شجاعتهم ، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية ، في الصلابة البدنية ، اللهم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدعاء ، ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة . وقد حرم باباهم . . . عليه وعليهم كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنسائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم ألا يزالوا كذلك ، أو يستخلصوا المقبرة ، فيأعصبة محمد عليه السلام ، أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه ، ووفه الحق فينا ، فإننا والمسلمين عندك ودائمه ، وما مثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعبات ضارعا ، وقبل تراها خاشعا ، وتاجاها بالقول صادعا ، ولو رفعت عنه العوائق لها جر ، وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر . . . ولولا أن في التصريح ، ما يعود على العدالة بالتجريح ، لقال ما يبكي العيون وينكي القلوب ، ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب ، رب إني لا أملك إلا نفسي وهاهي في سبيلك مبذولة ، وأخى وقدها جر إليك هجرة يرجوها مقبولة ، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم ، وهان على محبوبك بمكروهي فيهم ومكروهم ، ونقف عند هذا الحد ، والله الأمر من قبل ومن بعد ، (١) .

ومما كتب به استنجاجا برجال أطراف المملكة الإسلامية كتاب جاء فيه : : والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك هم المؤمنين في تسكين نائزهم ، وتخريب عامرهم ، وما دام البحر يمدهم ، والبر لا يصددهم ، قبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم ، فأين حمية المسلمين ، ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليمين ، وما ينقض عجبنا من تضافر المشركين ، وقعود المسلمين ، فلا ملجئ منهم لمناد ، ولا مثقف لمناد ، فانظروا إلى الفرنج

أى مورد وردوا ، وأى حشد حشدوا ، وأى ضالة نشدوا ، نجدة أو أية نجدوا ، وأية أموال غرموها ، وأنفقوها ، ونجذات جمعوها ، وتوزعوها ، فيما بينهم وفرقوها ، ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ، ولا عظيم ولا كبير من عظماهم وأكابرهم ، إلا جارى جاره فى مضمار الإنجاد ، وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد ، واستقلوا فى صون ملتهم بذل المهبج والأرواح ، وأمدوا أجناسهم الانجاس بأنواع السلاح ، مع أكفاء الكفاح ، وما فعلوا ما فعلوا ، ولا بذلوا ما بذلوا ، إلا للمجود الحمية لمعتبدهم ، والنخوة لمعتقدم . . . والمسلمون بخلاف ذلك ، قدوهنوا وفشلوا ، وغفلوا وكسلوا ، ولزموا الحيرة ، وعدموا الغيرة ، ولو اتنى والعباذ بالله للإسلام عنان ، أو خبا سناً ونبا سنان ، لما وجد فى شرق البلاد وغربها ، وبعد الآفاق وقربها ، من لدين الله يغار ، ومن النصرة للحق على الباطل يختار ، وهذا أو ان رفض التواني ، وإستدناء أولى الحمية من الأقاصى والأداني ، على أنا بحمد الله لنصره راجون ، وله بإخلاص السر وسر الإخلاص مناجون ، والمشركون بإذن الله هالكون ، والمؤمنون آمنون ناجون ،^(١) . والكتاب كما نرى يصف الفرنج ، ويبين خطر تجمعهم ، ويصف إقبالهم على الحرب فى حماسة وغيرة ، ليكون ذلك حافزاً للمسلمين على الإقبال على الجهاد .

ولم يكشف صلاح الدين ، وهو يخوض غمار هذه المعركة التى دامت طويلاً ، والتى ذاق فيها المسلمون المحاصرون فى عكا أعظم الويلات — بأن يستنجد بأمر المؤمنين فى بغداد ، ولا برجال الأطراف ، بل فكر فى أن يستعين بكل من يستطيع أن يمد إليه يد المعونة ، ففكر ، والمعونة إلى الفرنج ترد إليهم من الغرب ، فى أن يستنجد بملك المغرب ، عساه أن يعمل على أن يعوق العون عن الوصول إلى العدو ، وأن يرسل إليه مداداً : من الأسطول ، والرجال ، فكتب القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين كتاباً إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أحد خلفائهم ، فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، بداه بتحية متأنية إلى الملك ، ثم تحدث إليه فى أنه كان يرغب أن يعقد صلة وثيقة بينه وبينه ، يجتمعان فيها على جهاد العدو ، كل فى ناحيته ، وذكر له ما تم على يده من فتح بيت المقدس ، وما جره ذلك من اجتماع الفرنج ، وحشدهم جموعهم ، يريدون استخلاصه ثانية ، وقدومهم إلى عكا ، وحصارهم لها ، وقدوم طوائف جديدة تتجه إليها ، منضمة إلى الجيوش المتراكمة حولها ، ثم قال ، ولما غنض النظر زبده ، وأعطى رأى حقيقة ما عنده ، لم نر لمسكثرة البحر إلا بحراً من أساطيله

المنصورة ، فإن عددها واف ، وشرها كاف ، ويمكنه أدام الله تمكينه : أن يمد الشام منه بعد كثيف ، وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطر الأسطول طاغية صقيلة ، ليحص^(١) . جناح قلوعه أن تطير ، ويعقل عباب بحره أن يغير ، ويعتقله في جزيرته ، ويجرى إليه قبل جريرته ، فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا ترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها . . . ثم يمضى مبيناً آماله التي يعقدها على هذه النجدة ، وما سترتب عليها من فصر الإسلام والمسلمين^(٢) .

ويظهر أن ملك المغرب لم يستجب إلى هذه الدعوة ، ولم يرسل أسطولا إلى الشام ، ولا أسطولا يحول بين الفرنج وبين الذهاب لقتال المسلمين على بيت المقدس ، فكتب إليه صلاح الدين كتابا آخر ، سنة ست وثمانين وخمسمائة ، بعث به مع الأمير عبد الرحمن بن منقذ وأصحبه هدية ثمينة ، وكان الكتاب مطولا ، بدأه القاضي الفاضل بحمد الله ، والثناء عليه والصلاة على رسول الله وآله ، ثم أزجى تحية كلها ثناء وإجلال للملك المغرب ، « رجل الجلالة ، وأصل الأصاله ورأس الرياسة ، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه ، ومقدم الإسلام ومقدمه ، ومقتضى دين الدين ، ومثبت المتقين على اليقين ، ومعلّى الموحدين على الملحين ، أدام الله له النصرة ، وجهز به تيسير العسرة ، ورد له الكرة ، وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الألفة ، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعا جزيلا جميلا ، ولطفأ حفيأ جميلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو أشد وطأة وأقوم قليلا . . . ثم مضى يحدثه عما فتحه الله على المسلمين من بيت المقدس والثغور والمدن والأمصار ، وأخبره أن الذي بقي منها بيد العدو « ثغرا طراباس وصور ومدينة أنطاكية » ، ثم قال : « ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيئا وشبانا ، وزرافات ووحدا ، وبرأ وبحراً ، ومركبا وظهرا ، وركبوا إليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ما عونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ، ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه . . . وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملتوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات . . . وأطعمة ، وآلات ، وأسلحة . . . إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة

(١) الخص : حلق الشعر .

(٢) الكتاب كله في صبح الاعشى ٦ : ٥٢٨ .

من حربهم والآجلة ، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة ، تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، وبطروا لما كثروا . . . وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، كلما أفناهم القتل ، أخلفتهم للنجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون . وبعد هذا التصوير لقوة العدو التي تزيد في كل يوم ، والإمدادات التي قوت عزيمته ، حدثه عما قام به المسلمون من جهاد العدو المحاصر لعكا ، وملاقة إمداداته ، وتوجهه إلى ملك المغرب مستنجداً به قائلاً : « لما كانت حضرة سلطان الإسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام ، أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه ، واستعان على حماية نسله وحرثه ، وكانت مساعيه ومساعى سلفه في الجهاد الغر المحجللة ، المؤمرة الكاشفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة ، والأخبار بذلك سائره ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معلية وعالمة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في أغمارها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادها ، لا يزال في سبيل الله غاديا ورائحاً ، ومواجهاً ومكافحاً ، وبماسياً ومصابحاً . . . كان المتوقع من تلك الدولة العالية ، والعزمة الغادية ، مع القدرة الوافية ، والهبة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين ، فيملاها عليهم جوارى كالأعلام ، ومدنا في اللجاج سوائر كأنها الليالي مقلعة بالأيام ، تطلع علينا معشر الإسلام آمالاً ، وتطلع على الكفار آجالاً ، وتردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة ، تمدها ملائكة مسومة ومعلمة . . . ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فصرخنا به في هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ، ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح ، وقد ترك النصره فلا تظهر إلى أن تضرع إليها السنة الصفاح ^(١) . . . » ، وتحتم الرسالة بالحديث عن حاملها ، وأنه كفء قدير على أن يجيب عما يوجه إليه من أسئلة استيضاحية ، وبالثناء إلى الله أن يجعلها رسالة ناجحة ، بالغة هدفها ومبتغاهها .

ولما أخذ العدو عكا أرسل صلاح الدين بقلم القاضي الفاضل رسالة إلى ابن منقذ وهو في المغرب ، يصف له ما جرى على هذه المدينة التعسة ، ويطلب إليه أن يبلغ ذلك إلى من بالمغرب ، وأن يسرع بالعودة مصحوباً بالنجدة البحرية ، والأساطيل المغربية ، فإن عاريتنا

(١) الرسائل كلها في الروضتين ج ٢ ص ١٧١ .

به ترد ، وعاديتنا بها تشتد (١) ولم يستنجد صلاح الدين ببغداد والمغرب لمخسب ، ولكننا رأينا يستنجد بأخيه سيف الإسلام ، ويستقدمه إليه ، لينجتمع شمل الأسرة على قتال الفرنج ، ويتعاون أفرادها جميعاً على لقاء العدو ، الذي أخذ يجمع شمله المبدد ، بعد معركة بيت المقدس ، فكان لا بد من الإعداد له ، والتأهب لرده ، ومنازلة ما بقي في يده من أرض معتصبة . وفي هذه الرسالة يقول له القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين : « فالبدار إلى النجدة البدار ، والمسارة إلى الجنة فإنها لا تنال إلا بإيقادنا الحرب على أهل النار ، والهمة الهمة فإن البحار لا تلتقي إلا بالبحار ، والملوك الكبار . . . ونحن في هذه السنة إن شاء الله تعالى — نزل على أنطاكية ، ونزل ولدنا الملك المظفر — أظفروه الله — على طرابلس ، ويستقر الركاب العادل — أعلاه الله — بمصر ، فإنها مذكورة عند العدو — خذ له الله — بأنها تطرق ، وإن الطلب على الشام ومصر تفرق ، ولا غنى من أن يكون المجلس السيفي — أسماء الله ، بجزاً في بلاد الساحل يزخر سلاحاً ، ويجرد سيفاً ، يكون على ما فتحناه قفلاً ، ولما لم يفتح بعد مفتاحاً . ليس لأحد ما للأخ من سمعة ، لها في كل مسمع سمعة ، وفي كل روع روعه ، وفي كل محضر محضر ، وفي كل مسجد منبر ، وفي كل مشهد منبر ، فما يدعى العظيم إلا للعظيم ، ولا يرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم . . . على علم منا أنه لا يقعد عنا إذا قامت الحرب بنفسه وماله ، فلا نكن به ظناً أحسن منه فعلاً ، ولا نرضى وقد جعلنا الله أهلاً ، ألا نراه لنصرنا أهلاً . وليستشر أهل الرشاد . . . وليعص أهل الغواية ، فإنهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضاً ، ومن بيته يظعن ، وإلى بيته يقفل ، وهو يجهلنا جواب مثله لمثلنا ، وينوى في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام ، قبل نية جمع شملنا (٢) . . . »

هذا وبرغم أن بغداد لم تقدم عوناً إلى هؤلاء الذين استنجدوا بها في أول عصر الحروب الصليبية ، كما أنها لم تقدم عوناً إلى صلاح الدين ، رأينا المعظم عيسى يستنجد ببغداد ، ويحذر الخليفة من تمادى الفرنج في الاستيلاء على البلاد ، فلما حاصر الفرنج الطور بعث المعظم بكتاب إلى الخليفة ، وفي أوله بيتان ، وهما للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي :

(١) جزء كبير من الرسالة في الرضعتين ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) الرسالة كلها في صبح الاعشى ٧ : ٢٣ .

قل للخليفة ، لا زالت عساكره لها إلى النصر لإصدار وإيراد :
 إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا لا يغفلن ، فخصن الطور بغداد^(١)
 ولما اشتد الأمر بالملك الكامل عند ما حاصر الفرنج دمياط ، وبلغ الضيق بالنفوس
 مبلغاً كبيراً ، كتب الملك الكامل إلى أخيه الملك الأشرف موسى ، يستنجد به ، ويحثه على
 الحضور ، وصدر رسالته بهذه الآيات .

يا مسعدى ، إن كنت حقا مسعفا	فانهض به — ير تلبث وتوقف
واحشك قلوبك مرقلا أو موجفا	بتجشم في سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ، ولا تنخ	إلا على باب الملك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له	متوقع لقدمه متشوف
وإذا وصلت إلى حماه فقل له	عنى بحسن توصل وتلطف :
إن تأت عبدك عن قليل تلقه	ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه	بك في القيامة في عراض الموقف ^(٢)

وقد كان لهذا الخطاب أثره ، فقد أقبل الأشرف موسى على عجل ، وقوى بقدمه أمر
 الملك الكامل ، حتى ليقال إن بنى أيوب لم يلتئم شملهم منذ عصر صلاح الدين ، ولم تتحد
 كلمتهم ، مثلما كانوا في معركة دمياط ، وفي هذه المعركة نفسها ، والفرنج قد أحاطوا بدمياط
 من البر والبحر ، وأحرقوا بها ، وحاصروها ، وضيقوا على أهلها ، ومنعوا الأقوات أن
 تصل إليهم ، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا ، وبنوا عليه سوراً ، قلت
 الأقوات ، واشتد غلاء الأسعار ، وكان في دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنائى ،
 فكتب هذه الآيات ، وألقاها إلى الملك الكامل في سهم نشاب ، وهى :

يا مالكي ، دمياط ثغر هدمت	شرقاته ، كادت تبحث أصوله
يقريك من أركى السلام تحية	كالمسك ، طاب دقيقه ، وجليده
ويقول عن بعد ، وإنك سامع	حتى كأنك جاره ونزله
يأبها الملك الذى ما إن يرى	بين الملوك شبيهه وعدله

(١) ذيل الروضتين ص ١٠٣ .

(٢) خطط القرئزى ج ٤ ص ٢١٢ .

هذا كتاب موضح من حالى
أشكو إليك عدو سوء أهدقت
فالبر قد منعت إليه طريقه
نفضوعه باد على أبراجه
ولو استطاع لام بابك لائذا
فقد انتهت أدواؤه ، وتحكمت
وبقى له رمق يسير ، يرتجى
فاحرس حماه بعزمة تشفى بها
فالله أعطاك الكثير بفضله
فالعذر فى نصر الإله ودينه
والشعر ناظره إليك محقق
ولئن قعدت عن القيام بنصره
ووهت قوى القرآن فيه ، ورفعت
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه
هذا وحققك وصف صورة حاله
وكففاك يابن الأكرمين بأنه
حقق رجاء فيك ، يامن لم يخب
وادخر ليوم البعث فعلا صالحاً

ما ليس يمكنى لديك أقواله
بجميعه فرسانه وخيوله
والبحر عز لنصره أسطوله
وحنيه ، وبكاؤه ، وعويله
لكنه سدت عليه سيده
علائه ، ونحنا عليه نحوا
أن يشتنى لما دعاك عليه
داء بمثلك يرتجى تعليه
ورضاه من هذا الكثير قليله
ما ساع عند المسلمين قبواله
ما إن يمل من الدموع هموله
جفت نضارته ، وبان ذبوله
صلبانه ، وتلى به إنجيده
وخفى على سمع الورى تهليه
حقا ، وجملته ، وذا تفصيه
أضحى عليك من الورى تعويله
أبدا لراجى جوده تأميه
الله ضامن أجره وكفيله^(١)

وكان لهذه الرسالة من الشعر أثرها فى نفس الكامل ، حتى إنه نادى بالجهاد العام فى مصر والقاهرة . ويبدو مما أوردناه من النصوص أن أدب الاستنجد يتصف بالغيرة المؤمنة ، والحرارة التى تشع منه ، وتسرى فى جملة وعباراته ، مما يدل على أنه ينبعث عن إيمان قوى ، وانفعال عميق ، وغيره بالغة ، ويتصف كذلك بتصوير الحال تصويراً يبلغ من نفس السامعين ، ما يبعثه الأدب : من إثارة نفوسهم ، ليسرعوا إلى النجدة والمعونة . فى النصين :

الأول والثاني ، صور الشاعران منازل بالبلاد التي دخلها الفرنج : من ضيم ، وإرغام للإسلام ، وترويع للآمنين ، وتحكيم السيف في رقابهم ، واستباحة كل حقوقهم ، ويضرب على الوتر الحساس ، وهو أعراض المسلمات ، وكيف استبيحت ، ليثير الحمية في نفوس سامعيه ، ويبعث فيهم الغضب ، وحب الانتقام ، ويصور النص الأول رسول الله متألماً في قبره ، يدعو المسلمين إلى الجهاد ، ويحثهم على إنقاذ إخوانهم في الدين ، ويوحى هذا النص بأن قائله كان يؤمن في أغوار قلبه ، بأن وحدة المسلمين كفيلة بأن ترد هؤلاء المهاجمين مغنم للمسلمين . ويصور استنجد صلاح الدين للملك المسلمين تصافر قوى الفرنج ، وكثرة ما يريد لإلهم من إمدادات متدفقة ، وكثافة جندهم ، وضخامة عددهم ، وما ينتظر أن يكون لهجاتهم من صدى عميق في بلاد الإسلام ، وهو من أجل ذلك يطلب النجدة ليعد العدة للملاقاتهم ، كي لا تنزل الكارثة بالإسلام ، ومن أشد ألوان وصف الحال تأثيراً ما جاء على لسان دمياط تشكو حالها إلى الملك الكامل ، فتحدثت عن شرفاتها التي تهدمت ، وضعف قواها المعنوية التي كادت تنهار ، وإحداق عدوها بها بخيله ورجله ، فسد الطريق إليها في البر والبحر ، حتى لقد امتلأ قلبها ألماً وحنيناً ، وأعولت بالبكاء .

ويشمل هذا الأدب تحذيراً من عاقبة التقاعد عن النصرة ، وما يستتبع ذلك من أوجم العواقب ، وأشد ألوان الأضرار ، وقصيدة الكنانى تصف هذه العواقب في صراحة ، وتحذر من وقوعها .

كما نرى فيه طلب الإسراع بهذه النجدة ، فالعدو يتقوى في كل يوم ، والامداد تتوالى عليه ، وكل تأخر عن النجدة يضعف من قوى الإسلام ، بقدر ما يزيد في قوى عدوه ، وترى في رسالة الكامل إلى أخيه الأشرف أن طلب الإسراع في النجدة أقوى عناصرها ، فهو يريد من رسوله أن يطوى المنازل ما استطاع ؛ حتى يصل مسرعاً إلى باب الملوك الأشرف ، وكأنه يريد من الرسول أن يعود مسرعاً ، وفي صحبته أخوه الملك .

ومن سمات هذا الأدب مدح المستنجد به ، ليثير فيه الشعور بالشهامة ، والنخوة ، والآنفة ، فيدفعه إلى أن يساهم بنصيب في ميدان الشرف والفخار . هذا ، وبرغم أن كتب الاستنجد كانت تكتب في أحلك الظروف وأقساها ، لا تسود هذه الكتب روح القشائم

والياس ، إذا استثنينا النصين الاولين ، بل غمرها التفاؤل ، والامل ، والإيمان بالنصر ، مهما اشتدت الامور واستحكمت حلقات المصاعب .

وعما هو جدير بالذكر أن أدب الاستنجد الذي أنتجته مصر والشام لم يندفع ملوك الإسلام في بغداد واليمن والمغرب إلى أن يمدوا يد الغون إلى هذين القطرين في أيام محتتهما ، ولم يقف في وجه هذه الحروب الطويلة سوى ملوك هذين البلدين ، وربما أثر هذا الأدب ثورة وانفعالا في نفوس سامعية في تلك البلاد ، لكن أثره لم يتعد ذلك إلى إعداد الإمدادات وتجهيزها ، لدفاع الفرنج المغيرين .

٢ - حث وتحريض

وكثر في هذا العصر التحريض على قتال الفرنج ، والحث على جهادهم ، كثر تحريض الشعب ، كما في خطب الجهاد ، التي كانت تلى في ذلك العصر ، والتي شغف الخطباء فيها باقتفاء آثار خطب ابن نباته ، والتي كان قد أعدها بعناية ، يحض الناس فيها على الجهاد ، وبخاصة هذه الاوقات الحرجة التي مرت بمصر والشام ، في هذه السنين الطويلة ، ولم تكن الخطب وحدها هي التي تدعو الشعب إلى الجهاد ، بل كان أبطال الحروب الصليبية من الملوك يكتبون الكتب التي تصف أفعال الفرنج ، وتستنهض همم المسلمين إلى الغزو ، ودفاع العدو ، وكان لهذه الكتب التي ترسل لتقرأ على الشعب أثرها القوي في النفوس . روى ابن الأثير في كامله أن نور الدين محمود لما عاد منهزما من البقعة سنة ٥٥٩ هـ ، أخذ في الاستعداد للجهاد ، والاختذ بشأره ، واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر ، فأراد أن يقصد بلادهم ؛ ليعودوا عن مصر ، فأرسل إلى أخيه قطب الدين مودود ، صاحب الموصل ، وديار الجزيرة ، وإلى نخر الدين قرا أرسلان ، صاحب حصن كيفا ، وغيرهما ، من أصحاب الأطراف يستنجدهم فأما قطب الدين فإنه جمع عسكره وسار مجداً ، وأما نخر الدين صاحب الحصن فبلغنى عنه أنه قال له ندماءؤه وخواصه : على أى شىء عزمت ؟ فقال على القعود ، فلما كان الغد أمر بالتجهيز للغداة ، فقال له أولئك : ما عدا عما بدا ؟ فأرقتك أمس على حالة ، فذاك اليوم على ضدها ، فقال : إن نور الدين قد سلك معى طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعى وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه قد كاتب زهادها ، وعبادها ، والمنقطعين عن الدنيا ، ويذكر لهم ما لى المسلمون من الفرنج ، وما نالهم : من القتل ، والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحشوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ، ومعه أصحابه ، وأتباعه وهم يقرءون كتب نور الدين ، ويبكون ، ويلعنوننى ، ويدعون على ، فلا بد من المسير إليه ، ثم تجهز ، وسار بنفسه (١) .

(١) السكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٣٥

ومن كتب التحريض ما كتبه العباد الكاتب عن صلاح الدين بعد استيلاء الفرنج على عكا وعدهم بمن أسروهم في المدينة ، إذ قال : « وللكرام آجال ، والحرب سجال ، والله من المؤمنين رجال ، والآل فقد ثارت الحيات ، وهبت النخوات ، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام ، ويتدارك ما حدث من الكسر بالجبر والإحكام ، ويعيد ما وهى من عقد الفتوح إلى النظام ، فأين ذوو الأنفة والحمية ، والهمم العلية ، والنفوس الالوية ، أما يهتمون لمصرع من استشهد من إخوانهم ، أما يشعرون لثأر إيمانهم ، أما تبكى العيون لمن قتل من أمثالهم وأعيانهم ، فإن مصابهم عظيم ، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم ، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة ، وإثارة العزائم الراكدة ^(١) . » وفي هذا الكتاب برغم قسوة الظرف الذى أنشئ فيه صلابة وعدم يأس ، فالحرب سجال ، وهذه الهزيمة لتنبية الهمم الراقدة ، وإثارة العزائم الراكدة ، وبعدئذ نرى التحريض للأخذ بثأر الإيمان ، ومن صرع بمن استشهد في سبيله .

ومن هذه الأوقات العصبية التى استدعت تحريض الشعب وحثه على الجهاد ما كان بعد موت الصالح أيوب بالمنصورة ، وخروج الفرنج من دمياط بفارسهم وراجلهم ، وأسطولهم يحاذيهم في نهر النيل ، فرأى أولو الأمر بالمنصورة أن يرسلوا كتاباً إلى القاهرة يحض الناس على الجهاد ، فورد الكتاب في يوم الجمعة ، وقرئ على الناس ، فوق منبر جامع القاهرة ، وكان أوله آية قرآنية هي : « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا في سبيل الله ، بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . قال المقرئ : « وكان كتاباً بليغاً ، فيه مواظبة جمعة ، ويرجع ابن واصل أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير ^(٢) . » وأثر هذا الكتاب في نفوس سامعيه تأثيراً بالغاً ، وحدث عند قراءته من البكاء ، والنحيب ، وارتفاع الأصوات بالضجيج ، ما لا يوصف ، وأقبل الناس أفواجاً على الجهاد ، فارتجت القاهرة ومصر ، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للسير ، وخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم ^(٣) .

وأقبل الناس على من يتوسمون فيهم من الملوك حب الجهاد يشدون من عزائمهم ، ويباركون خطواتهم ، وهم يعلمون ما للأدب من التأثير في النفوس ، فتأثروا في الكتابة إليهم ،

(١) الروضتين ج ٢ ص ١٩٠ . (٢) مفرج السكروب ص ٣٦٤ ب .

(٣) السلوك ج ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

بالنثر تارة ، وبالشعر تارة أخرى ، ولعل من أكبر الذين عقدت بهم الآمال للقضاء على الفرنج نور الدين محموداً ، وصلاح الدين ، وقد عبر الأدب خير تعبير عن آمال البلاد فيهما ، فأقبل الشعر والنثر إليهما ، حاثاً لهما على مواصلة الجهاد ، حتى الظفر والانتصار ، وها هو ذا الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير المصري يرسل إلى أسامة بن منقذ ، يرجوه أن يبحث نور الدين ، على أن يتفقا معاً على جهاد الفرنج ، أحدهما من الشمال ، والثاني من الجنوب ، فيقضيا عليهما معاً ، وكان الصالح طلائع من المتحمسين لحرب الفرنج ، والداعين إلى وحدة الجهود في هذا السبيل ، وعما كتبه من ذلك إلى أسامة بن منقذ .

كره الشام أهله فهو محقو ق بالألا يقيم فيه لييب
إن تجلت عنه الحروب قليلا خلقتها زلازل وخطوب
إن ظني ، والظن مثل سهام الرمى : منها الخطى ومنها المصيب
إن هذا لأن غدّت ساحة القد سن وما للإسلام فيها نصيب
منزل الوحي قبل بعث رسول الله ، فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر ، وبارى الناقوس فيها الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا زعموا أنه له منسوب
أبعد الناس عن عبادة رب الناس قوم إلههم مصلوب
ولعمري أن المناصح للدين على الله أجره محسوب
وجهاد العدو بالفعل والقول على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأمرين مذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك في الطعن ولا في الضراب يوما ضريب
وإذا ما حرصت فالشاعر المفلح فيما تقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالخزم لا ينكر أن التدبير منك مصيب
لك رأى مذ قط إن ضعف السرأى على حاملي الصليب صليب
فانهض الآن مسرعاً فبأمثالك ما زال يدرك المطلوب
والق عنا رسالة عند نور الدين ما في إلقاتها ما يريب
قل له ، دام ملكه ، وعليه من لباس الإقبال برد قشيب :

أيها العادل الذي هو للدين شـباب ، وللحروب شـيب
والذي لم يزل قديماً عن الإسلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج إذا لاقوه يوم من الزمان عـصـيب
إن ترم نـزف حـقـدهم فلاشـطـان قناه في كل قلب قـليب
غيرنا من يقول ما ليس يمضيه بفعل ، وغيرك المكذوب
قد كتبنا إليك فوضح لنا الآ ن بماذا عن الكتاب تجيب
قصدا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ماضاق بأدناسهم الفضلاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشام مكان الغيـوث مال صـيب
أو تراها مثل العروس : تراها كله من دم العـدا مخضوب
لطعين السيوف في فلق الصـبـح على هام أهلها تطريب
ولجمع الحشود من كل حصن سلب مهمل لهم ونهب
وبجول الإله ذاك ومن غالسب ربي فإنه مغلوب (١)

وكررت بين الشاعرين القصائد التي تدور حول هذا الهدف .

ولما حدثت الوحشة بين نور الدين محمود وبين قليج أرسلان صاحب الروم ، ووقعت
الحرب بينهما ، عز ذلك على الصالح طلائع ، وتألم أن يرى جهود أحدهما تنصرف إلى
صاحبه ، وأن تتمزق وحدتهما ، بدلا من أن تتحد جهودهما ، وتتجه إلى عدوهما المشترك ،
وهم الفرنج ، فقال يحثهما على الوحدة في قتال العدو :

نقول ، ولكن أين من يفهم	ويعلم وجه الرأي ، والرأي مبهم
وما كل من قاس الأمور وساسها	يوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبق مغلدا	وما أحد بما قضى الله يسأم :
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم	بفنيهم ، وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم إلى حكم التنافس بينكم	وفيك من الشحنة نار تغسرم

أما عندكم من يتقى الله وحسده أما في رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا ، لعل الله ينصر دينه إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزيمة بأمثالها تحوى البلاد وتقسم^(١)
وأكاد ألمح في هذا الشعر الرغبة الملحة في تناسي المنصب القاني ، والاتجاه إلى أسمى
الاهداف ، وأشرف الغايات .

وكانت الآمنية التي تجول بالنفس يومئذ استرداد بيت المقدس ، وقد عبر الشعر عن
هذه الآمنية الغالية ، عند ما قال يحرض نور الدين على استعادته ، بعد أن اتحدت مصر
والشام تحت سلطانه ، واجتمع في يده من الأسباب المادية ما يمهد أمامه السبيل ، وها هو ذا
على بن الحسن بن هبة الله الدمشقي يقول له :

ولست تعذر في ترك الجهاد ، وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممثلاً لما تريد ، فبادر لجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزمته حتى ينال بها العالی من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة عليّة ، فأقصد العالی من القرب
فالجد والجهد مقرونان في قرن والحزم في العزم ، والإدراك في الطلب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والإشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن منقلب^(٢)

وجد الشعراء في صلاح الدين أمنيته الممشودة ، فأحاطوا به ، ياركون خطواته ،
ويشجعونه على تحقيق أمنيته ، وكان استخلاص القدس كذلك أعز هذه الآماني ، وأعلى
تلك الرغبات ، وقد أكثر شعراؤه من الحديث عن تلك الغاية ، فرأينا العباد يحثه على
تحقيقها في قوله :

ويوسف مصر بغيز التقى وبذل الصنائع لم يوصف
فسر ، واقتح القدس ، واسفك به دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى الاستبصار التبار ، وهد السقوف على الاستقف

(١) السكندر لابن الأثير ١١ : ١٤٢ . (٢) الخريدة المخطوطة ص ٤٧ .

وخلص من الكفر تلك البلا د يخلصك الله في الموقف (١)
ويقول له في قصيدة أخرى :

وما يرتوى الإسلام حتى تغادروا لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الإفرنج سوط عذابها بأن يقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا على فتحه غازين، وافترعوا البكرا (٢)

ولست الفتوح التي يقوم بها صلاح الدين سوى مهد لهذه الغاية الكبرى ، التي يرنو إليها الجميع ، قال له محي الدين محمد بن علي يهنئه ، بعد أن استولى على حلب :

وفتحك القلعة الشبهاء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب (٣)

وللحكيم أبي الفضل كثير من القصائد التي حث بها السلطان ، وبشره فيها بفتح بيت المقدس ، منها تلك التي يقول فيها ، سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة :

فيا ملسكالم يبق للدين غيره وهت عمد الإسلام ، فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك في الشام طائر فقص جناحيه بأقصى القوى قصا
خصصت بتمكين ، فعم العداردى فإنهم يأجوج ، أفرغ بها ردما
إذاصفرت من آل الاصفر ساحه سمقدس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى ، وهمتك العلا وعزمتك القصوى ، ورميتك الصبا
فما هو إلا أن تم ، وقد أتت فتوح ، كما فاض الخضم الذي طما
وإن أنت لم ترد الفرنج بوقعة فن ذا الذي يقوى لبنيانها هدماً
وما كل حين تمكن المرء فرصة ولا كل حال أمكنت تقتضى غنما
وليس كفتح القدس منية قادر وما إن تلقاها سوى يوسف جزما

فلما فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين مضى الشعراء يحثون صلاح الدين ، على أن يمضى إلى ما بقى تحت يد الفرنج من بلاد ، فينقض عليها ، ويقضى على قواها ، ويستردّها إلى أيدي المسلمين ، ومن أنشأ في ذلك العهد الاصبهاني ، إذ يقول :

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) الروضتين ١ : ١٧٩ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٨ .

قل للمليك صلاح الدين أكرم من
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
أثر على يوم أنظر سوس ذا لجب
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه
ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً
يمشى على الأرض، أو من يركب الفرسا:
صور، فإن فتحت فاقصد طرابلسا
وابعث إلى ليل أنطاكية العسسا
من العداة ومن في دينه وكسا
فإنهم يأخذون النفس والنفسا^(١)

وكان الأدب إلى جانب الأزمات يبحث على اجتيازها، ويهون من أمرها، ويشد العزائم على التغلب عليها، والصبر لها، حتى تمر، وتنقضي. وقد سجل الأدب هذه الشدائد، وصور نبضات، القلوب عندها، وارتجاف الاقئدة من شدتها، ثم وقوفه يمسح بيده آثارها، ويدأوى كلومها، ويحفز على التغلب عليها، وكان الأدب يطيل في معرفة أسبابها ليتغلب عليها، ولعل من أشد هذه الأوقات الحرجة ضيقاً حصار عكا سنة ٥٨٥ هـ، ورسائل القاضي الفاضل إلى صلاح الدين، وهو على الحصار، ناطقة بشدة ما كان يعانيه الإسلام يومئذ: من الضيق، والحرج، فالعدو يشدد الحصار، ويسدد الضربات، ويتلقى التجددات، وجند الإسلام قد طال بهم المقام، فلفهم الضرر، ويتطلب الجيش مالا تضيق به موارد الدولة، إلى غير ذلك من أسباب الوهن، ويصف الأدب ذلك كله، ثم يضرب الأمثال، مشجعاً على الثبات، حاثاً على الصبر، ولئنصت إلى القاضي الفاضل، يصور نبضات القلوب المرتجفة يومئذ، حين يقول من كتاب له إلى صلاح الدين: «... بينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعاً للأكباد، مفتتاً للقلوب، ولو أنها جماد... والعيون ممدودة، والأيدى مرفوعة، بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها، فن شبع في هذه الأيام فما واسبى المسلمين، ومن نام ملء عينه فما هو من إخوة المؤمنين... فما المملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط: رب، سلم رب، سلم، فنسأل الله سبحانه، ألا يكانا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، ومجهود أهل الأرض قد انتهى، وبقي ما يفعله الله... وفي هذا الكتاب يصف القاضي الفاضل ما يواجهه الإسلام من الصعاب، ويقرنها بالأمل في التغلب عليها، إذ يقول: «وما

تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدين الفرنجيد ،
الواصلة ، والبعيدة ، واقتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة ، والتماس العسكر الشرى
الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الإنفاق إلى ما لا يسعه التدبير ، ويضيق عنه الإمكان
... وضياع فرصة ، واختلاف رأى ، بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الألسنة بالآراء
وبخل الأيدى بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس في الراحة ، وما ابتلى به
المسلمون من مرض أظهره ، ليكون لهم عذراً في العقود ، وكنتمه المولى على نفسه ، لئلا
يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على العوائد ،
فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر ، وحسبته
يعقبها الأجر . ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى ، وعروة عزمه أوثق العرى ،
لما أهله لأن ينصر ملة لا يعرف المملوك غير الله ينصرها ، وغير مولانا يباشر النصرة
ويحضرها ... ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ، ثم يغلقها ... ثم معاذ الله أن تغلب على
النصر ، ثم معاذ الله أن تغلب على الصبر ... فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ،
وتملأ صدره ، فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون ، والله معكم . وهذا على دين ما
غلب بكثرة ، ولا نصر بشرة ، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوى قلوب معه
وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف ، لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة
حسنة ، واشتدى أزمة تنفرجى ، والغمرات تذهب ، ولا تجى ، والله تعالى يسمع الأذن
ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب (١) . . . ومن كتاب آخر
يقول . . . ليس لنا إلا الاستعانة بالله ، فما دلنا الله في الشدائد إلا على الدعاء له ، على
طروق باب كرمه ، وعلى التضرع إليه ، «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ،
ونعوذ بالله من القسوة ، ومن القنوط من الرحمة ، ومن اليأس من الفرج ، فإنه لا ييأس
منه إلا مسلوب الرشد ، مطرود عن الله ، مقطوع الحفظ منه ، ولا حيلة إلا بترك المعجز ،
قيل للمهلب : أيسرك ظفر ليس فيه تعب ، فقال : أكره عادة المعجز . . . وما يستحسن من
وصايا الفرس . إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز ، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة ،

والعياذ بالله ، فلا تجزع . . . وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ؛ ولا تعويلاً على قوة إلا على قوته ، فهناك الفرج ميعاده ، واللفظ ميقاته ، فلا يقنط من روح الله ، ولا يقل متى نصر الله ، وليصبر ، فإنما خلق للصبر ، بل ليشكر ، فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر ^(١) . . .

وقام الشعر كذلك بتشجيع صلاح الدين ، وهو على عكا ، فأرسل إليه حكيم الزمان قصيدة مطولة ^(٢) . وجرى الأدب عن ألسنة بعض أبطال الحروب الصليبية ، يستمدون من معانيه القوة ، ويستلهمون معاني الفداء كما سنرى .

وبعد فهل صور الأدب تصويراً واضحاً قويا نفوس المستنجدين ، وعواطف الحائنين المحرزين . وهل استطاع أن ينقل إلينا ما كان يجده المسلمون يومئذ : من آلام ، وغىظ . مكبوت ، وأن يجعلنا نحس بما كانوا يحسون به يومئذ : من انفعال ناثر عنيف ، إن الحلق ليدفعني إلى أن أقر أن بعض أدب هذين اللوتين قد أخطأه التوفيق ، فلم يستطع أن يعبر عما كان يجده القائل في هذا المقام ، ولم يوفق إلى تعبير يبرز المعنى ويبينه ، ففي قصيدة الهروي نجد التوفيق قد خانته في الشطر الثاني من البيت الأول ، لأن مزجهم الدماء بالدموع لا يخلطهم من الدم ، ولا يبرئهم من التفتير ، وإنما الذي يخلطهم من الدم هو جهادهم العدو بكل ما أوتوا من قوة ، وبذلهم كل ما في طوقهم من أسباب الدفاع ومقاومة الأعداء ، أما أن تمتزج الدماء بالدموع فلا دلالة فيه على جهاد ، ولا بذل مجهود . كما خانته التوفيق عندما عبر عن الأحداث التي جرت بالشام ، والتي يشيب من هولها الولدان ، بأنها هفوات ، يعجب كيف تنام عليها العين ملء جفونها ، وفي وصف الرسول بأنه مستعجن بطيية ضعف ظاهر . ولكن النص إلى جانب ذلك لمس ، كما قلنا ، التوتر الحساس من نفوس المسلمين حين دعاهم إلى الزيادة عن المحارم ، غيرة عليهم ، وحين لمس طبائع الناس ، ورغبتهم الكامنة في نفوسهم ، والتي تدفعهم إلى جلب المغانم ، والسعى وراء الغنائم . وكان النص الثاني أكثر توفيقاً من صاحبه في اختيار عبارته ، وصنع صوره ، ووفور دلالاته على ما كان يجده قائله ، إذ صور الدين بأكيا متحجاً ، وصور ما أصاب المسلمين ، حين تحدث عن سي المسلمات

(١) المرجع السابق ص ١٦٩

(٢) القصيدة كلها في حيون الأنباء ٢ : ١٥٧ .

في كل ثغر ، وقد واتته العبارة ، ونجح في تصوير صور ثير الانفعال : من نصب الصلب على المحاريب ، واتخاذ دم الخنزير المحرم لدى المسلمين خلوقاً لمساجدهم ، وحرق المصاحف طيباً لها ، مكان تطييبها بذكى الأعواد .

ودلت عبارة الآيات التي كتبها الكامل إلى أخيه الأشرف على المعنى الذي قصد إليه الكاتب في قرب وسلامة ووضوح ، ولم تلجأ إلى الخيال تستعين به على تصوير الحال ، بل وجدت في الحقيقة ما يثير الانفعال ، ويهيج الوجدان ، ودلت في جلاء على ما كان في نفس مرسلها : من لفة بالغة على أن تصل الرسالة في سرعة خاطفة ، إلى الأشرف أخيه ، فاختياره ألفاظ النهوض ، والحث ، والإرقال ، والإيجاف ، والتجشم ، والتعسف ، وطى المنازل ، يشير في وضوح إلى هذه اللفظة على الإسراع ، كما دل هذا التعبير على ما يشعر به من خطر بالغ إذا تأخر المدعو عن إنجاده .

وكان أدب الحث والتحريض في جملته مؤثراً ، فهذا طلائع بن رزيك قد اختار تعبيراً واضح الدلالة ، على ما عني به من تصوير ما أعده لقتال العدو : من جيش ضخم ، ومال جم ، وإن ضعف أسلوبه في قوله : مذ قط ، والشعر الذي حث صلاح الدين على فتح القدس قريب الدلالة ، سليم في تعبيره عن معناه ، قريب واضح .

٣ - تمجيد البطولة

ومضى أدب هذه الحقبة من الزمن يمجّد الأبطال الذين خاضوا غمار هذه الحروب ، وأبلوا فيها بلاء حسناً ، فسجلوا في الأدب أسماءهم ، وأحاطهم الأدب بهالة من التقديس والإعجاب ، وخلد لهم في صورة حبيبة إلى النفس ، قريبة إلى القلب ، يزينها الإيمان ، ويحملها اليقين ، وصورهم يحيط بهم شعب مطيع لهم ، محب ، معجب بهم . وترك لنا الشعر كثيراً من صور هؤلاء الأبطال ، فصورهم لنا عماد الدين زنكي أول أعظم أبطال الحروب الصليبية ، حين قال أحمد بن منير .

في ذرا ملك هو الدهر عطاء واستلاباً
من له كف تبد الغيبت سحاً وانسكاباً
ترجف الدنيا إذا حرك للسير الركاباً
وتخسر المشمخـرات اختلالاً واضطراباً
وترى الأعداء من هيبته تأوي الشعاباً
يا عماد الدين ، لا زلب على الدين سحاباً
جاعلاً من دونه سيفك إن ريع حجاباً
فالبس النعماء في الأمـن الذي طبـت وطاباً
واصف عيشاً ، إن أعداءك قد صاروا تراباً (١)

والشاعر يصفه ملكاً عظيم السطوة ، يعطى ويمنع ، جواداً ، ذا جيش نجب ، يخافه الأعداء ، ويحـمى الدين ، ويرعاه . وحين قال فيه :

فدتك المـلوك وأيامها ودام لنقضك إبرامها
وزلت لعيشك أقدامها وزال لبطشك إقدامها
ولولم تسلم إليك القلو ب هواها لما صح إسلامها
أيا محي العـدل لما نعا ه أياي البرايا وأيتامها

ومستنفذ الدين من أمة أزال المحاريب أهنامها
 دلفت لها تقتفيك الأسود ، والبيض ، والسمر آجامها^(١)
 وفي هذه الآيات يمجّد فيه صفة العدل الذى نسيه الناس زماناً طويلاً ، ويتغنى بوقوفه
 للفرنج ، واستنقاذه بلاد الإسلام من أيديهم ، وتكوينه جيشاً من أبطال صناديد .
 وقال أبو المجد المسلم الحموى :

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
 أيلتمس الفرنج لديك عفواً وأنت بقطع دابرها زعيم
 وكم جرعتها غصص المنايا يوم فيه يكتهل الفطيم^(٢)
 وهو هنا يصوره ماضى العزم ، قوى الإرادة ، لا يألو جهداً فى تحطيم الفرنج ، والعمل
 على سحق قواهم ، ومنازلتهم فى معارك قاسية ، يشيب لها الوليد .
 ولنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، وهو أحد كبار أبطال الحروب الصليبية — صور
 مشرقه ، تغنى فيها الشعراء بمجده ، وأشادوا ببطولته ، وحفظوا للأجيال تذكّاراً من سامى
 صفاته ، ونبيل خلّاله ، وظفر نور الدين بكثير من مدائح الشعراء ، فمن مدحه
 ابن منير بقوله :

فداك من صام ، ومن أفطرا ومن سعى سعيك ، أو قصر
 وما الورى أهلاً ، فتفدى بهم وهل يوازى عرض جوهرا
 عدل تساوى تحت أكنافه / مطافل^(٣) العين^(٤) ، وأسد الشرى
 يا نور دين الله ، كم حادث دجا ، وأسفرت له فانشرى
 وكم حمى للشرك لا يهتدى الوهم له غادرته مجزرا
 يا ملك العصر الذى صدره أفسح من أقطارها مصدرا
 لله أصل ، أنت فرع له ما أطيب المنجى ! وما أطهر !
 لا عدم الإسلام من كفه كهف لمن أرهق أو أحصرا
 كأنما ساحتها جنة أجرت بها راحتها كوثر

(١) الروضتين ١ ص ٣٥ . (٢) المرجع السابق ص ٣٢ . (٣) مطافل جمع مطفل ، ومى ذات الطفل ، من
 الوحش (٤) العين : بحر الوحش .

تصبرم الشهر الذى كنت فى أوقاته من قدره أشم—را
 جهاد لـ ل فى نهار غ—را إذ كنت فيه الأصبر الأشكرا (١)
 والشاعر هنا يصوره إنساناً ممتازاً ، ومن الإنسان الممتاز يستمد الشعب حياته وقوته ،
 ويمجد فيه العدل الذى يأمن فى ظله الضعيف والقوى ، والإقدام على تحطيم قوى الشرك
 وإباحة حماه ، قد سما فوق ملوك عصره ، ورحب صدره ، فلا يملكه غيظ ولا غضب ، قد
 اتقى إلى أصل زاك ، كان هو أطيب ثمره وأطهره ، ثم هو ملك جواد ، يلجأ إليه الفقير
 والمضطرب ، فيجد فيه الأمن والحماية ، ويقضى شهر رمضان بين اعتكاف فى الليل ، وغزو فى
 النهار . ويقول فيه ابن القيسراني :

لك المساعى الفر ، يا جامعا من طرفيـا بين أضـدادها
 يغشى الوغى أفرس فرس—انها وفى التقي أزهد زهادها
 فانت ، نسكا ، غيث أبادها— وأنت ، فتكا ، ليك آسادها—
 فى أمة أنت حمى دينها— حيناً ، وحيناً شمس عبادها—
 يطوى بك العمـر إلى غاية حسبك تقوى الله من زاده—
 والشاعر يصفه فارساً مغواراً فى ميدان القتال ، وتقياً زاهداً ، يعبد الله ويتقيه ، كما
 يعبده ويتقيه أزهد الزهاد ، وأتقى الاتقياء . ويصفه بعض الشعراء بقوله :

أظنوا أن نار الحرب تخبـو ونور الدين فى يده الزنـاد
 وجند كالصقور على صقور إذا انقضوا على الأبطال صادوا
 إذا أخفوا مكيدهم أخافوا وإن أبدوا عداوتهم أبادوا (٢)
 ويصفه آخر بقوله :

يا ساهد الطرف والأجفان هاجمة وثابت القلب والاحشاء تضطرب
 أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
 ضربت كبشهم منه—ا بقاصمة أودى بها الصلب، وانحطت بها الصلب
 غضبت للدين ، حتى لم يفتك رضا وكان دين الهدى مرضاته الغضب

(٢) الروضتين ١ : ٨٣ .

(١) الروضتين ١ : ٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٦ .

طهرت أرض الأعداء من دماهم طهارة كل سيف عندها جنب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرة ماسمت ، والليل معتكر ، إلا تمزق عن شمس الضحا الحجب
كنا نعد حتى أطرافنا ظفراً فلكتك الظبا ما ليس نحتسب
عمت فتوحك بالعسودى معاقلها كأن تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رفق كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليك أقصى المني ، فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله فإنما أنت بحر لجه لب (١)

والشعر هنا يصفه قائداً قديراً ، على رأس جيش قوى مدرب ، وحاكماً يسهر على أمن رعيته وخيرها ، بينما هذه الرعية تعيش في أمن ودعة ، لا يعكر صفو حياتها خوف ولا ظلم ، ثابت الجنان لا يضطرب أمام صعاب الحياة ، مقداما على حرب الفرنج ، يصيهم بقاصمة الظهور ، وينالهم بفتك وتدمير ، يبلغ أمرهما أذن روما ، فيجب قلبها ، وتمتلىء خوفاً ورهبة ، وذلك كله غضباً لدين الله ، وتلبساً لمرضاته ، واحتساباً في سبيله ، لا طمعاً في غنيمة ، ولا رغبة في كسب مال ، وهو حاكم مجاهد ، كانت كل آمال المسلمين قبله أن يحافظوا على ماتحت أيديهم : من أرض وقف الفرنج عند حدودها ، أما هو فقد كسب بسيفه بلاداً ، ما كان أحد يؤمل في اكتسابها ، ولذا يضع الإسلام أمله فيه أن يطهر المسجد الأقصى ، وأن يرده إلى أيدي المسلمين .

ويقول فيه بعضهم :

فسر ، واملأ الدنيا ضياءً وبهجة فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر
كأنى هذا العزم ، لا فل حده وأقصاه بالأقصى ، وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر (٢)

وهو في هذا الشعر كسابقه مناط أمل المسلمين ومحط رجائهم في استرداد بيت المقدس .

(١) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢) الروضتين ١ : ٧٣ .

ويقول أيضاً :

يهب التلاد من البلاد وما حوت إن السـحابة للبحار بحار
يقظان ، يخشى الله في خلقه الوات لا مترف لاه ، ولا جبـار
نصب المراقب للعواقب ناظر فيها ، كذلك تربأ الأبـرار
صاف إذا كدر المعادن ، عادل إن حاف حكام الملوك وجاروا^(١)

والشعر هنا يصفه كريماً سمحاً يقظاً ، يتدبر عواقب الأمور ، ليتبين مواقع الصواب ، حتى يقدم إذا أقدم عن بينة ، وهو يفكر في هذه العواقب بذهن صاف ، يسبغ على رعيته عدلاً ، لا يخشون معه حيفاً ولا جوراً . ويقول أيضاً :

بأيها الملك المنـ ... ادى جوده في سائر الآفاق : هل من معسر
ولانت أكرم من أناس نوهوا بأهـ ... هم ابن أوس ، واستنصوا بالبحرى^(٢)

فهو إلى جوده يغدق على الشعراء ويرعاهم ، ويقول أيضاً :

لقد أشعرت دين الله عـ ... زاً تنيه له المشاء ر والحجون
وقام بنصره ، والناس فوضـ ... ي قوى منك في الجلى أمين
وكم عبر الصليب بهـ ... م صليبا فردته قناك ، وفيه لـ ... ين
وما خطـ ... رت بدار الشرك إلا هوى الناقوس ، وارفع الأذن^(٣)

وهو في هذا الشعر بطل من أبطال الجهاد في سبيل إعزاز دين الله . ومن أجمع القصائد التي رست صورة نور الدين هذه التي أنشأها فيه العماد الكاتب ، وهي :

أدركت من أمر الزمان المشتى وبلغت من نيل الأمانى المنتهى
وبقيت في كنف السلامة آمنا متكرماً بالطبع لا متكرها
لا زلت نور الدين في فلك الهدى ذا غرة للعالمين بها إليها
يا محي الهـ ... دل الذى في ظلمه من عدله رعت الأسود مع المها
محمود المحـ ... ود من أيامه لبها ضحك الزمان وقهقهها

(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .

(١) للرجع السابق ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٢ .

مولى الورى ، مولى الندى ، معلى الهدى
آراؤه بصوابها مقرونة
متلبس بحصافة وحصانة
يامن أطاع الله فى خلواته
يامن تقدم فى المعاش لوجهه
كل الامور وهى ، وأمرك مبرم
ماصين عنك الصين لو حاولتها
ما للملوك لدى ظهورك رونق
إن الملوك لهوا وإنك من غدا
شرهت نفوسهم إلى دنياهم
ما نمت عن خير ، ولم يك نائماً
أخلت ذكر الجاهلين ، ولم تزل
ورأيت إرعاء الرعايا واجبا
لرضاهم متحفظاً ، ولحماهم
وبما به أمر الإله أمرتهم
عن رحمة لصغيرهم لم تشغل
باليأس عندك أمل لم يمتحن
أتعبت نفسك ، كي تنال رفاهة
فقت الملوك سماحة وحماسة
ولك الفخار على الجميع فدوهم
وأراك تحلم ، حين تصبح ساخطاً

مردى العدا ، مسدى الجدا ، معطى اللهى
وبمقتضاها دائر فلك النهى
متقدس عن ثوب مكر أودها
متأوباً من خوفه متأوها
عملاً يبيض فى المعاد الأوجها
مستحکم لا تقض فيه ولا وها
والمشرقان ، فكيف منبج والرها
وإذا بدت شمس الضحا خفى السها
وبماله والملك منه مالها
وأبى لنفسك زهدا أن تشرها
من لا يزال على الجليل منها
ملكاً بذكر العالمين منوها
تغنى فقيراً ، أو تجير مدلها
متفقداً ، ولدينهم متفقها
من طاعة ، ونهيتهم عما نهى
عن رافة لكبيرهم لن تشدها
بالرد دونك سائل لن يجبها
من ليس يتعب لا يعيش مرهفا
حتى عدنا فيهم لك مشهرا
أصبحت عن كل العيوب منزها
ويكاد غيرك ساخطاً أن يسفها (١)

وهذه القصيدة قد لمست معظم ما لنور الدين من سمات ، جعلته محبباً إلى رعيته ، مطاعاً
لدى جيشه ، عظيماً فى أعين المسلمين . وأول هذه الصفات التى أشاد بها العباد صفة العدل ،

الذى عاش الجميع فى ظله فى أمن ودعة ، ضعافاً وأقوياء ، ثم مضى يعدد باقى هذه الصفات من جمال ساد أيامه ، وإن هذا الجمل مصدره الأمل المشرق فى الانتصار على العدو واستتباب الأمن ، وسيادة العدل والقانون ، وإن كان العباد قد أخطأه التوفيق فى التعبير ، فجعل الزمان يضحك ويقهقه ، ومن تلك الصفات السامية سيادة نور الدين لبنى عصره ، وجود يده ، وقدرته على الانتصار على عدوه ، وصواب آرائه ، وحصافته ، وصراحته ، وبعده عن أساليب المكر والدهاء ، وتقوى الله فى سره وعلايته ، ومراقبته ، حتى لا يبدى منه ما يسود له الوجه يوم القيامة ، ويثنى على ما ناله من ظفر لا يبعد عليه شيء أرادته ، وعلى جده فى الأمور ، وزهده فى الحياة الدنيا ، وسهره على خير رعيته وصوالحهم ، ومد يد العون إليهم ، وتفقد أحوالهم ، وتنبع مواضع رضاهم ، وأخذهم بأداب الدين ، والرحمة بصغيرهم ، والشفقة على كبيرهم ، وبالكرم الذى ينجح أمل الآمل ، ويجبر فؤاد السائل ، ويشهد إعجاب العباد بنور الدين حتى لينزهه عن كل عيب ، ويرفعه عن كل نقيصة ، ويختتم قصيدته بالإشادة بحله الذى قال عنه بعض مؤرخيه : إنه لم يسمع منه كلمة فحش فى رضاء ، ولا فى ضجره (١) .

هكذا مجد الشعراء هذا البطل ، الذى صرف معظم جهوده لإضعاف الصليبيين ، وتقليم أظافرهم ، واسترداد ما استطاع استرداده مما اغتصبوه من البلاد . ورسموا صفاته كذلك قرأ . قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : « جمع الله له من العقل المتين ، والرأى الثاقب الرصين ، والاقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبه بالعلماء والصالحين ، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم ، فى حسن سمتهم ، والاتباع لهم فى حفظ حالهم ووقتهم ، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وأسمعه ، وكان قد استجيز له من سمعه وجمعه ، حرصاً منه على الخير فى نشر السنة بالأداء والتحديث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء فى الحديث ، فمن زآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره ، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره ، يحب الصالحين ، ويواخيهم ، ويزور مساكنهم ، لحسن ظنه فيهم ... ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله بإسقاط المنزلة والعزل ، فلما جمع الله له من شريف الخصال ،

(١) المرجع السابق ص ١٥١ .

يسر له جميع ما يقصده من الأعمال ، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ، ويمكن له في البلدان والبقاع ، ^(١) .

ولعل أعظم بطل في الحروب الصليبية ظفر بتقدير الشعراء وإعجابهم ، فأحاطوا به ، ينظمون أسباب مجده ، ويشيدون بوقائعه . جهاده ، ويسجلون كل مقام به من حركات مباركة في سبيل مجد الإسلام ، هو صلاح الدين ، فقد تضافر على رسم بطولته عدد كبير من شعراء عصره ، عرفت منهم زهاء خمسين شاعراً ^(٢) . منهم المصري ، والشامي ، والعراقي ، يقدمون إليه مآدحين حيث هو .

(١) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

(٢) هذه أسماء بعض هؤلاء الشعراء ومراجع مدحهم لصلاح الدين ، وهم :
أسامة بن منقذ . راجع الروضتين ١ : ١٥٦ و ١٧٧ و ٢٣٧ ، والاعتبار لأسامة ص ١٦٤ ،
ومعجم الأدباء ٥ : ٢٠٧ .

العقاد الكاتب . راجع الروضتين ١ : ١٤٦ و ١٧٦ و ١٧٩ و ١٨٠ و ٢٤٥ و ٢٤٧ و ٢٥٢ و
٢٥٧ و ٢٦٩ و ٢ : ٨٣ و ٨٨ و ١٠١ و ١٠٢ : ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٢ و خطط المقرئ ٣ : ٢٩ .
فتيان الشاغوري . راجع الروضتين ١ : ١٨٢ و ٢ : ٨٤ و ١١٨ و ١٣٢ .

ابن الذروي : وجه الدين علي بن الحسن بن الذروي — شاعر مصري ، راجع الروضتين
١ : ١٥٦ و ٢٠٩ و ٨٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ . وحسن المحاضرة ١ : ٢٧٠ .

ابن قلاقس . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ .

الحكيم أبو الفضل الجلياني . راجع الروضتين ٢ : ١٠٣ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١٥١ ،
وعيون الأنبياء ٢ : ١٥٧ وفوات الوفيات ٢ : ١٦ .

حسان العرقلة . راجع الروضتين ١ : ١٠٠ و ١٠٧ و ١٤٢ و ١٥٥ و ١٥٧ و ١٧٧ ،
وخريدة القصر ١ : ٢٦ و ٣٧ .

المهذب بن أسعد بن الدهان الموصل نزيل حمص . راجع الروضتين ١ : ٢٤٠ و ٢ : ١٦ و
٢٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٥٦ .

علم الدين الشافعي . الحسن بن سعيد . راجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٠ ، والروضتين ١ : ٢٧١ .
محمود بن الحسن بن نهسان العراقي . راجع الروضتين ٢ : ١٢ .

الرشيدي بن بدر النابلسي . راجع الروضتين ٢ : ١١٨ و ٢٠٨ و ٢٢١ .

ابن زكي الدين : محمد بن علي . راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٨ والروضتين ٢ : ٤٦٠ و ١٠٨
سبط ابن التعاويذي . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٢٣ و ديوانه ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ و ٤٢٠ =

- ابن الساعاتي . راجع الروضتين ٢ : ٨٤ و ١٠٦ و ١٠٧ و ٢٩٤ و ديوانه ١ : ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٢ : ٢٨٥ و ٤٦٠ .
- موفق الدين الإربلي . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٢٣ ، والنجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ .
- عمارة اليني . راجع الروضتين ١ : ١٦٣ و ١٦٤ و ١٨٣ و ١٩٣ ، ومختار ديوان عمارة ص ١٩٢ و ٢٦٩ و ٢٩٩ و ٤٠٧ و ٤٠٨ .
- محمد بن إسماعيل الخيراني . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ ، والنجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ .
- وحيش الأسدي : أبو الوحش سبع بن خلف . راجع الروضتين ١ : ٢٣٧ وخريدة القصر ١ : ٤١ .
- ابن سعدان الحلبي : راجع الروضتين ١ : ٢٥ و ٢٥٦ و ٢٧٤ و ٢ : ٢٦ و ٣٩ و ٤٤ .
- سعيد الحلبي . راجع الروضتين ٢ : ٢٩ .
- سعادة الأعمى : سعيد بن عبدالله : راجع الروضتين ١ : ٢٥٣ و ١٢ ، وخريدة القصر ١ : ٧٨ ، ونسكت الهميان ص ١٥٨ .
- البهاء السنجاري : أسعد بن يحيى بن موسى . راجع الروضتين ١ : ٢٥٣ .
- الأسعد بن عاتق . راجع الروضتين ١ : ٢٧٠ .
- ابن جبير . راجع الروضتين ٢ : ١٠٥ .
- نشو الدولة أحمد الدمشقي . راجع الروضتين ٢ : ١١ و ٢٠٩ ، والخريدة ١ : ٥٩ ، والكامل لابن الأثير ١١ : ٢٠٧ .
- محمد بن سلطان بن الخطاب . راجع الروضتين ٢ : ١٦ .
- ابن سناء الملك . راجع الروضتين ٢ : ٤٣ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ ، والنجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ ، وديوانه ص ٣ و ٧٦ و ٨٣ و ١٠١ و ١١١ و ١٣٤ .
- أبو الفضل بن حميد . راجع الروضتين ٢ : ٤٤ .
- يوسف البراعي . راجع الروضتين ٢ : ٤٥ .
- سعيد بن محمد الحريري . راجع الروضتين ٢ : ٤٥ .
- أبو طي التجار . راجع الروضتين ٢ : ٤٥ .
- القاضي الفاضل . راجع الروضتين ٢ : ١٢١ .
- يوسف بن الحسين بن المجاور . راجع الروضتين ٢ : ٣ و ١٠٣ و ٢٩٤ .
- الحسن بن علي الجويني . راجع الروضتين ٢ : ٩ و ١٠٤ =

- محمد بن أسعد بن علي الجواني نقيب الأشراف بمصر . راجع الروضتين ٢ : ١٠٥ .
 الحسين بن عبد الله بن رواحة . راجع معجم الأدباء ١٠ : ٤٦ ، والروضتين ١ : ٢٧٠ .
 علي بن المبارك بن الزاهدة . راجع معجم الأدباء ١٤ : ١١٠ .
 محمد بن هبة الله البرمكي . راجع طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤ : ١٩٥ .
 علي بن أحمد بن الزبير . راجع خريدة القصر ٢ : ٦١ .
 محمد بن محمد بن الفراش : راجع خريدة القصر ١ : ٥٣ .
 أبو طالب بن الخشاب ، عقيل بن يحيى ، راجع خريدة القصر ١ : ٧٢ .
 عمر بن محمد بن الشعنة . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٩٨ و ٤٠٤ ، والروضتين ٢ : ٦١ .
 أحمد بن علي بن زنبور . راجع بغية الوعاة ص ١٤٨ .
 علي بن مفرج : ابن المنجم . راجع النجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ و وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ .
 أبو الفضل بن حميد الحلبي . راجع الروضتين ٢ : ٤٤ .
 علم الدين السخاوي . راجع حسن المحاضرة ٢ : ٢٧ .
 رشيد الدين الفارقي . راجع حسن المحاضرة ٢ : ٢٧ .
 ابن ذهن الموصلي . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ .
 تقي الدين عمر بن شاهنشاه . راجع تاريخ الواصلين ص ٢٧ .
 ومن ذلك يبدو أن الشعر الذي أنشئ لتمجيد بطولة صلاح الدين مراجعه هي :

— كتاب الروضتين ١ : ١٠٠ و ١٠٧ و ١٤٢ و ١٤٦ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٧
 و ١٥٨ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣ و ١٩٣ و ٢٠٩
 و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٤٥ و ٢٤٧ و ٢٥٠ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٦٩
 و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٤ و ٢٩ : ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٦ و ٢٦ و ٢٩ و ٣٩ و ٤٣ و ٤٤
 و ٤٥ و ٤٦ و ٦١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٨ و ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦
 و ١٠٧ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٥١ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢٢١
 ٢ — ديوان ابن الساعاتي : ١ : ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٧٣

و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٢ : ٣٨٥ و ٤٠٦

- ٣ — ديوان ابن سناء الملك . ص ٣ و ٧٦ و ٨٣ و ١٠١ و ١١١ و ١٣٤ .
 ٤ — خريدة القصر ١ : ٢٦ و ٣٧ و ١١ و ٥٣ و ٥٩ و ٧٢ و ٧٥ و ٧٨ و ٢ : ٦١ .
 ٥ — ديوان سبط ابن التعاويني ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ و ٤٢٠ .
 ٦ — مختار ديوان عمارة ص ١٩٢ و ٢٦٩ و ٢٩٩ و ٤٠٧ و ٤٠٨ .
 ٧ — معجم الأدباء ٥ : ٢٠٧ و ١٠ : ٤٦ و ١٤ : ١١٠ و ١٩ : ٢٢ .

مقيم في إحدى المدن ^(١)، أو وهو مخيم في ميدان القتال ^(٢)، أو يرسلون إليه بقصائدهم من غير أن ينتقلوا ^(٣) إليه، حيث يتولى عرضها عليه أحد المقربين منه، ويبقى لنا بما مدح به من شعر الشعراء زهاء ألفي بيت، وليس ذلك كل ما مدح به، ولكن فقد من ذلك قدر كبير، نقيضه إذا علمنا أن ابن الساعاتي، قد مدح صلاح الدين بقصائد طويلة كثيرة، ولم يبق من معظمها سوى غزلها، والبيت الذي تخلص فيه من الغزل إلى المدح ^(٤). وأن القصيدة الطويلة قد يبق منها بيت أو بيتان ^(٥)، وهذه قصيدة طويلة نسبها ابن خلكان ^(٦) إلى ابن الشحنة الموصل، وذكر أن عدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، ومع ذلك لم يبق لنا من هذه القصيدة سوى مطلعها، وهو:

سلام مشوق قد براه التشوق على جيرة الحى الذين تفرقوا
وسوى بيتين كانا سائرين وقت إنشائهما، وهما.

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها، والأذن كالعين تعشق
وقالت لي الآمال: إن كنت لاحقاً بأبناء أيوب فأنت الموفق
وقد يكون للقصيدة حظ أفضل، فيبقى خمسة وعشرون بيتاً، من مائة واثنين وخمسين ^(٧).

- (٨) = (٨) وفيات الأعيان ١: ١٤٠ و ٢٥٦ و ٤٦٨ و ٢: ٢٣ و ٩٨ و ٤٠٤ و ٤٠٥.
- (٩) الاعتبار لأسامة ص ١٦٤. (١٠) حسن المحاضرة ١: ٢٧٠ و ٢: ٢٧.
- (١١) خطط المقرئ ٣: ٢٩. (١٢) طبقات الشافعية ٤: ١٩٥.
- (١٣) عيون الأنباء ٢: ١٥٧. (١٤) فوات الوفيات ٢: ١٦.
- (١٥) النجوم الزاهرة ٦: ٥٩. (١٦) نكت الهميان ص ١٥٨.
- (١٧) الكامل لابن الأثير ١١: ٢٠٧. (١٨) بغية الوعاة ص ١٤٨.
- (١٩) تاريخ الواصلين ص ١٧ و ٢٧ و ٦٦.
- (١) راجع الروضتين ١: ٢٥٢ و ٢٥٣.
- (٢) راجع الروضتين ٢: ١٦.
- (٣) راجع الروضتين ٢: ٩ و ١٠٢ و ٣ و ١٠٤ و ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ و ٤٢٠ و وفيات الأعيان ٢: ٤٠٣.
- (٤) راجع ديوان ابن الساعاتي ١: ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٧٣ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧.
- (٥) راجع معجم الأدباء ١٤: ١١٠.
- (٦) راجع وفيات الأعيان ٢: ٤٠٤.
- (٧) راجع الروضتين ٢: ١١٧.

والتاريخ يذكر أن شعراء مدحوه من غير أن يروى من مدحهم شيئاً .
وما بقي لنا من شعر المعجبين ببطلوته والمشيدين بمجده يصوره لنا عادلاً . قال فيه سبط
ابن الجوزي :

الملك العادل الذي كشف الله به هم كل مكروب
وقال عمارة .

يا شبيه الصديق : عدلاً ، وحسناً وسمياً ، حكاماً معي ومغني
كريمياً قال فيه العماد .

ولما صبت مصر إلى عصر يوسف فأجرى بها من راحتيه بجوده
أعاد إليها الله يوسف والعصرا بحاراً ، فسيماها الوري أنملاً عشراً
وقال مرة أخرى :

وقيل لنا : في الأرض سبعة أبحر
وقال سبط ابن الجوزي :

قسماً لقد فضل ابن أيوب الحيا مخلوقة من سؤدد وندى ، وقد
خلق الأنام سلالة من طين يامن إذا نزل الوفود ببابه
وقال غبيد الله بن أسعد بن الدهان :

بيدي فتي لو أن جسود يمينه فاذا تبسم قال : يا جسود اندفقي
ولعل عمارة هذا الكرم بقوله .

ملك تقلد سلك الملك منتظماً ففرق المال ، جمعاً للقلوب به
إن الملوك الذين امتد أمرهم كذا السياسة : فالاجناد لو علموا
وقال للبال : هذا منك لي بدل وحسبه فيهم إدراك ما سألوا
لم يخزنوا المال ، بل مهماحوا بذلوا بخل المليك ، وجاءت شدة ، خذلوا

شجاعاً قال فيه أسامة .

يعطى الآلاف ، ويلتقيها باسمها طلق المحيا في القنا المتشاجر
يقود جيشاً ضخمًا ، قد اختار أفراداً من شجعان الجند الذين يخوضون غمار المعارك ،
يستمدون من قوة قلبه قوة لهم ، قال فيه سعادة الضير :

وقدت إلى الأعداء جيشاً عرمرماً
فلم تبق للطفيان شئلاً جمعاً
فناهيك من جيش نهضت بعثه
حملت ذبالاً في ذوابل سمـره
وزرت به الحصن الذي لو تحصنت
وفض بما قد فضه من سهامه
وقال مذهب الدين الموصلى .

ملأت بلادهم سمـلاً وحزناً
وقال العماد :

جنودك أمـلاً لك السماء ، وظنهم
وقال سبط ابن التعاويذى :

تحمل آجام القنا في الوغى
عتاده للرعب عسالة
ومحركات النسيج موضونة (١)
ومرهفات الحد مطرورة (٢)
له أسود الغابة السود
سمـر ، وأبطال مذاويد
قدرها في السرد داود (٣)
وضمر (٤) ، أقرابها (٥) قود (٦)

وهو بهذا الجيش العرمرم يهين الفرنج ، ويذلهم ، ويحطم قواهم ، ويخضع شوكتهم ، قال
ابن الساعاتى :

جلت عزما تك الفتح الميئنا
وهان بك الصليب ، وكان قدما
وقال أسامة بن منقذ :

الناصر الملك الموفق بذمته
ومن إذا جرد البيض الصوارم في الهـ
ورد طاغية الإفرنج يحسب ما
ولى ، وراحته صفر ، وقد ملئت
ومن ندى كفه يقنى عن الديم
يجاء أغمدتها في البيض والقمم
رجاء من ملك مصر كان في الحلم
بعد الطاعة ، من يأس ، ومن ندم

(١) الموضونة . الدرع المقاربة للذئب .
(٢) الطرة : تحديد السكن .
(٣) الأقرباب : الحاضرة .
(٤) فرس ضامر : مهضم الضن .
(٥) قود : طويلة العنق .
(٦) السرد : نسيج الدرع .

يصعدون على ما فاتهم نفساً
وفي السلامة، لولا جهلهم، ظفر
وهم أسود الشرى، لكن أذلهم
وقال أبو الحسن بن الذروري :

ولسكم أشمت الروم أشأم بارق
وإفك بحر دروعها عن مده
ولقيت مرياً^(١)، وطعم حياته
وقال العباد :

بنو الأصفر الإفرنج لاقوا ببيضه
وما أبيض يوم النصر وأخضر، روضه
وقال ابن الساعاتي :

أدرت على الفرنج ، وقد تلاقى
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً
وخانهم الزمان ، ولا ملام
لقد أتعبت من طلب المعالي
وإن تك آخر ، وخلاك ذم
وبجهاده استطاع أن يحافظ على مصر زعيمة بلاد الإسلام وحافظة مجده :

ولورجعت مصر إلى الكفر لا تطوى
واستطاع أن ينصر الدين الخفيف غاضباً له ، قال سعادة الضير :

نصرت الهدى ، لما تخاذل حزبه
غضبت لدين أنت حقاً صلاحه
فناداك حزب الله : يا ناصر الهدى
فأرضيت ، لما أن غضبت ، محمداً
وصح أن يدعى لذلك والد الدين ، يحنو على بنيه . ويرحمهم ، قال نجم الدين بن المجاور :
مولى غدا للدين أكرم والد
وقد وصل صلاح الدين إلى قمة البطولة ، ونظر إليه منقداً للإسلام ، وبحيياً لمجده القديم .
بعد فتحه لبيت المقدس ، قال أبو الفضل عبد المنعم الجلياني :

(١) الملك Amary أحد ملوك بيت المقدس .

أبا المظفر أنت المجتبي الهدى
أما رأيت معالي يوسف نسقت
أضحى للنشر الهدى في فتح منهجه
واستقيح الرجس بمنوا بمشهده
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
يعي الجوارح والفرسان ، وهو على
يا فاتح المسجد الأقصى على بهم
أبشر بملك كظهر الشمس ، مطلع
حتى يكون لهذا الدين ملحمة
وقال نجم الدين بن المجاور :

أحييت دين محمد ، وأقمت
نخذ الخراج من البسيطة كلها
واقبض على الدنيا بكف زهادة
جاءت جنود الله تطلب ثأرها
فانهض بها ، وتقاض حقلك موقنا
أنت اصطفتهم لنصرة ديننا
وقال أيضا :

ومن أحق بملك الأرض من ملك
وقال ابن جبير :

فتحت المقدس من أرضه
وجئت إلى قدسه المرتضى
وأعليت فيه منار الهدى
لكم ذكر الله هدى الفتى
وخصك من بعد فاروقه
بها لاصطناعك في الآخر

وصفه الشعر محباً للجهاد ، مؤثراً لحياته الحثيثة ، على الترف والدعة ، مرابطاً لحرب
الكفار ، مثابراً ، لا يكل ولا يئى . قال ابن جبير :

ثأرت لدين الهدى في العدا فأثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً فله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم وترفل في الزرد السابري^(١)
وتؤثر جاهد عيش الجهاد على طيب عيشهم الناصر
وتسهر ليلك في حق من سيرضيك في جفئك الساهر
وقال الرشيد بن النابلسي :

ما أبهج الدين والدنيا بما لكها ——— صديق : يوسف ، لالذت به الغير
ملك تساوى جمادى في الجهاد وتم ——— وز^(٢) لديه وضاهى ناجرا^(٣) صفر
فليس يثنيه حر إن توقد عن رضا الإله ، ولا إن أغدق المطر
ولا ينهنه عما يكابده ضج ، أعيد معاليه ، ولا ضجر
ولا يرى الروح إلا ظهر سلبيه^(٤) في بطن معركة مركوبها وعسر
صبر جميل كقطع الشهد في فمه وعند كل ملوك طعمه العسير
لبي دعوة الإسلام بعد أن خام عنها ملوك المسلمين ، وتركوه نهياً مقسماً ، قال
الحسن الجويني :

جنود السماء لهذا الملك أعوان من شك فيه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه في زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء . وما له سوى الشكر بالأفعال أئمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده صيداً ، وما ضعفوا يوماً ، وما هانوا
كم من لحول ملوك غودروا ، وم خوف الفرنجة ، ولدان ونسوان
استصرخت بملسكشاه طرابلس نغام عنها ، وصمت منه آذان
هذا ، وكم ملك من بعده نظر الإله ——— لام يطوى ، ويحوى ، وهو سكران

(١) السابري : درع دقيقة النسيج في إحكام .

(٢) أحد شهور الصيف : يولية . (٣) ناجر : كل شهر من شهور الصيف . وفي هذا الجزء ضعف

إذ صفر ليس من شهور الشتاء . (٤) الساهية : الفرس الطويلة .

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ، والإسلام أنصاره صم وعميان
 فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم بأمر من هو للمعوان معوان
 للناصر ادخرت هذى الفتوح، وما سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
 حباه ذو العرش بالنصر العزيز، فقا ل الناس : داود هذا أم سليمان
 لو أن ذا الفتوح في عصر النبي لقد تنزلت فيه آيات وقرآن
 فالله يبيئك للإسلام تحرسه من أن يضام ، ويلقى وهو حيران
 يا جامعاً كلمة الإيمان، قامع من معبوده دون رب العرش صلبان
 إذا طوى الله ديوان العباد فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان
 وبلغ من شجاعته وإقدامه أن صار اسمه يبعث الرعب في نفوس العدو، ويشير الخوف
 فيهم ، ويدفعهم إلى الهزيمة ، قال أبو الفضل الجلياني :

فكم ملك لهم شق البحار سرى لينصروا القبر ، والأقذار تحذله
 وكم ترحل منهم فيلق بفلا إلى الصوامع ألقاه ترحله
 استصرخوا الأهل ، والعدوى تمزقهم واستكثروا المال ، والهيجا تنقله
 كم قد أعدوا ، وكم قد قل جمعهم من غير ضرب ولا طعن يزيله
 وإنما اسم صلاح الدين يذكر في جيش العدو ، فيسيبهم تخيله
 وقال الحسين بن عبد الله بن رواحة :

لقد خبر التجارب منه حزم وقلب دمه ظهره لبطن
 فساق إلى الفرنج الخيل برا وأدركهم على بحر بسفن
 يرون خياله كالسيف يسرى فلو جمعوا أتاها بعد وهن
 أبادهم تخوفه ، فأسمى مناهم لو يبيتهم بأمن
 زمنه جد لا هزل فيه ، قال نجم الدين بن المجاور :

الجد في هذا الزمان مبین والهلزل فيه مع الغواية محتف
 يتقى الله ويخشاه ، قال العباد :

رأى النصر في تقوى الإله ، وكل من تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
 ولما رأى الدنيا بعين ملالة أغد من الأولى مسيراً إلى الأخرى

متواضع ، لا يزهو بما قدم للإسلام من نصرله، ودفاع عنه، قال الشهاب فتيان الشاغوري:

لا يعد منك المسلمون فكم يد أوليتهم ، معروفها لم تنكر
أمنت سربهم ، وصنت حريمهم ودرأت عنهم قاصمات الأظهر
ما إن رآك الله إلا آمراً فيهم بمعروف ، ومنكر منك
متواضعاً لله جل جلاله وبك اضمحلت سطوة المتكبر
يقاتل عن عقيدة ، لا رياء وسمعة ، قال ابن الساعاتي :

يقاتل كل ذى ملك رياء وأنت تقاتل الأعداء ديناً
زاهد ، برغم سعة ملكه وعظمة سلطانه ، قال الحكيم أبو الفضل :

زهدت فيما سبي الأملاك منكدرأ علماً بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفساً عن الدنيا وزخرفها وجئت تقدم حيث الهول والخطر
عظيم القدرة ، قال ابن سناء الملك :

رقيت إلى أن لم تجد لك مرتقى وأقدمت ، حتى لم تجد متقدماً
فما يبرم المقدار ما كنت ناقضاً وما ينقض المقدار ما كنت مبرماً
عظيم الهمة بعيد الآمال قال ابن سناء الملك :

حتى أتى من منال النجم مطلبه ياطالب النجم ، قد أوغلت في الطلب
يقرن الرأي بالعزم ، قال أبو الفضل الجلياني :

لظفرون بما لم يح — وه ملك أبا المظفر ، حظاً خطه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت بالحزم والعزم ، لم يخص بها الأول
دائم اليقظة والتنبه ، فلا غرابة إذا ظفر بما لم يظفر به سواه ، قال ابن سناء الملك :

أراد ملوك الأرض سعدك ، واشتهوا تعلمه ، والسع — لا يتعلم
ملكك أقاليم الملوك ، وإنما سهرت ، وأملاك الأقاليم نوم
ربما قيل في تمجيد بطولته قول ابن الساعاتي ، وقد خرب حصناً قرب صفد :

بجهدك أعطاف القنا تتعطف وطرف الأعداء دون مجده يطرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على حصن الخاض ، وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف

فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه
وجرداء سلهوب^(٢)، ودرع مضاعف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة
كبا من أعاليه صليب وبيعة
أيسكن أوطان النبين عصة
نصحتكم ، والنصح في الدين واجب
ويصفه كذلك بطلا حربيا فاتحا البيت المقدس في قوله :

عصفت به ريح الخطوب زاعزا
هو منقذ البيت المقدس بعدما
أمشيت الأعداء ، وهي جحافل
أوتيت عزما في الحروب مسددا
أحسنن بالبيت العتيق ويثرب
هذى سيوفك محرمات دونه
وقول سبط ابن التعاويذي ، وله فيه قصائد مطولة ، منها قوله :

ملك ترفع عن ضرب قدره
أردى له الأعداء جد غالب
يرجى . ويرهب بأسه . والماجد المـ فضال من يرجى نداءه ، ويرهب
ثبت إذا غشى الوغى ، والزاعبيـ^(٣) شرع ، والأعوجية^(٤) شرب^(٥)
مخضرة أكتافه لوفـرده^(٦) والـامام محمر الذوائب أشهب
أرض بروض المكرمات أريضة ، وثرى بنوار الفضائل معشب
صب بتشديد المآثر متعب فيها ، ومن شاد المآثر يتعب
ماسكت سجاياه القلوب محبة إن السكريم إلى القلوب محب
كف تكف الحادثات . وراحة ترتاح للجدوى ، وقلب قلب

(١) أي والأرض تزلزل : (٢) الجرداء السلهوب : الفرس السبابة الطويلة .

(٣) اللدن المثقف : الرمح .

(٤) يريد بيت يعقوب : المسلمين ، ويوسف : صلاح الدين . وفي الكلام تورية .

(٥) ديوان ابن الساعاتي ص ٤٠٩ . (٦) المرجع السابق ص ٩٠ .

(٧) هكذا في الأصل . (٨) أعوج : فرس لبني هلال تنسب إليه الأعوجيات

(٩) شرب : ضامرة .

وندى يهش إلى العفاة تكرما ومواهب بالطارقين ترحب
وصرامة كالنار شاب ضرامها خلق أرق من المدام وأطيب
تغريه بالعفو الجناة، كأنما الجاني إليه بذنبه يتقرب
فيرى لهم حقاً عليه، ولم يكن لبيد فضل العفو لولا المذنب
بك يا صلاح الدين يوسف أكب الناقى، ورف المقشعر المجذب
ذلك أخلاق الزمان لأهله فأطاع، وهو الخاليع المتصعب
ونهضت للإسلام نهضة صادق الـ مرمات، ترأب من ثأه^(١) وتشعب
وغضبت للدين الحنيف، ولم تزل في الله ترضى منذ كنت، وتغضب
غادرت أهل البغي بين مجدل لقي الحمام، وخائف يترقب
أو هارب ضاقت عليه برحبها الـ أرض الفضلاء، وأين منك المهرب
فأصبح بلاد الروم منك بغارة للنصر فيها رائد لا يكذب
أحسم بحد ظباك داء حسمه ودواؤه بعد التفاقم يصعب
فالعديل ليس بناجع، أو تفتنى وغرار فصلك بالنجيع يغضب
لا تعفون إذا ظفرت بمجرم منهم، قرب جريمة لا توهب
فلتشكرنك أمة تحنسر على ضمفائها حدبا كما يحنو الأب^(٢)
ولم أعر في الأدب على شعر هجى به صلاح الدين، إلا ما قاله ابن عنين يهجو بعاهة
خلقية، هي العرج، قائلا:

سلطاننا أعرج، وكاتبه ذو عمش، والوزير منحذب^(٣)

وبعد فهذه كثير من النصوص التي تعرضت لصلاح الدين، ترسم سماته الخلقية. ولست
أنكر ما في بعض هذه النصوص من ضعف في التعبير، وفقر في التصوير. وبعد عن الهدف
المقصود في تمجيد صلاح الدين، وتقدير خلاله، حتى صار بعضها فارغ المعنى، بعيدا عن
الصواب، فهذا عبارة انبى يشبه صلاح الدين بيوسف بن يعقوب في العدل والحسن،

(١) الذأى الإساد والجراح .

(٢) ديوان سبط ابن التماوينى ص ٢٢ .

(٣) ديوان ابن عنين ص ٢١٠ .

وليس العدل من بين الصفات التي شهر بها يوسف ، ولكنه شهر بحسن تدبير المال ، حتى أنقذ مصر من سنيها المجذبة العجاف . وليس الحسن مما يمدح به أبطال الرجال . كما مدحه بأنه يشبهه في الاسم ، وليس ذلك مما يوجب المدح والثناء ، ولا في أنه أشبهه في أنه مقيم بمصر . ودفع الاسم الواحد لصالح الدين ويوسف بن يعقوب — العباد إلى الخطأ في زعمه أن مصر قد صبت إلى عصر يوسف ، فلم يكن عصره سوى عصر جدد وجوع ، ولم يرد الله إلى مصر عصر يوسف المجذب ، الذي كان كثير التقدير والتقدير ، لا عصر أفاض فيه الجود الذي سماه العباد بحاراً .

كما أخطأ عمارة التوفيق في تقليده صلاح الدين سلك الملك ، وإنما يقلد الملك تاج الملك أو صولجانه .

وانحرفت الصناعة بالعباد ، ودفعته الرغبة في جمع أكبر عدد من الألوان ، إلى الخطأ في أن ينسب إلى يوم النصر روضاً قد اخضر من الخصب ، حين قال :

وما ابيض يوم النصر ، واخضر روضه من الخصب ، حتى اسود بالنقع واغبرا
اذ لا روض هناك ، فلا اخضرار لهذا الروض ، ولا خصب فيه .

وإذا استثنينا هذه الهنات وأمثالها ، رأينا الباقي لنا مما صور به بطولة صلاح الدين ، واضح التعبير ، سليماً في دلالة على معناه ، قريب المأخذ ، لا غموض في فهمه ، ولا التواء في دلالة ، ووجدنا الصور التي اختارها الشعراء واضحة بيّنة ، مما يدل على أن قائل هذا الشعر كانوا يجدون في أنفسهم إيجاباً قوياً بالبطل ، واستطاعوا أن يعبروا عن هذا الإعجاب بخير ما في وسعهم من الشعر .

ولم يقف تمجيد البطولة في عهد صلاح الدين عنده وحده ، بل مجد كثير من الأبطال من أبناء أسرته وغيرهم ، ممن خاضوا غمار الحروب ، ضد الفرنج ، وأكبر هؤلاء الأبطال تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، الذي ظفر بإعجاب عمه صلاح الدين ، فكان ينيبه عنه كما في مصر . ولما بلغه نعيه بكى بكاء حاراً ، وأخفى خبر موته عن الجيش ، حتى لا يضعف ذلك من قواه المعنوية ، ولثلاً يعلم العدو فيشتد أزره ^(١) . ومن مجد بطولته في حرب الفرنج ابن الساعاتي ، إذ يقول فيه :

(١) الزواهر السلطانية ص ١٩١ .

لولا بسالته لما ظمئت أسل الفرنج إلى دم بسل (١)
 سل عنه إذ لف القناة غداة السعد منه بساعد عسل
 وأعاد يومهم كأس ، وليث الغراب لا يفضى على ذحل (٢)
 أبقي لقي أسد اللقاء ، فإبقى وفلل حدة الفل (٣)
 حتى كأن ديارهم خلقت مذ كن أطلالا بلا أهل
 كم طعنة لك فيصل حصدت آثارها ، ومقالة فصل
 يثنى رباط الجيش منك رباط الجأش ماضى العقد والحل
 يلتقى أعاديه مجاهرة ويعيد سطوته من الختل
 يخشى ، ويرجى ، سطوة ، وندى ، ويهاب في جند وفي هزل (٤)

والشاعر هنا يمجّد في تقى الدين بسالته في القتال تلك البسالة التي أذاقت الفرنج أقصى ألوان القتال ، فتمنوا أمنيّه محالة : أن يظفروا بدمه ، ويمضى الشاعر في وصف بسالته في القتال ومكانته في الجيش ، وثقته بنفسه ، حتى ليجاهر أعداءه ، ولا يأخذهم على غرة . كما يسجل صفة الشخصية القوية التي تكسب صاحبها هيبة ووقاراً ، وكان تقى الدين كذلك كما يقول مؤرخوه . وعن أشاد ببطولة تقى الدين أيضاً البهادر الكاتب (٥) .

ومنهم العادل أخو صلاح الدين ، مجد بطولته في القتال كثير من الشعراء منهم ابن سناء الملك ، حين قال :

إن رام أمراً عظيماً ساقه قدر	إليه ، أو جاءه يسعى على قدر
ويا أعاديه ، لا يغركم مهل	منه ، فإنكم منه على غرر
ألم يذقكم على رغم بواتره	وكل درع عليكم قد من دبر
يرى الشجاع ، وإن أضحي وبينهما	نقع يفرق بين الشخص والبصر
ويعشق الورد ، والأبطال صادرة	والموت في الورد ، والمنجاة في الصدر
تقلد الدين سيفاً منه ، ما برحت	سيوفه البيض حمراً من دم هدر

(١) الأسل : الرماح . والبسل : المحرم . أى أن دمه محرم على الفرنج ، فلا يستطيعون الوصول إليه .

(٢) الذحل : الثأر .

(٣) المعنى أنه جعل أسد اللقاء ، مطروحة ، وقلل

(٤) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٢٠ .

حدة المنهزم .

(٥) راجع شعره فيه بالروضتين ٢ : ٧١ و ٢٧٤ .

لله موقف حرب كنت قائمه وقائم النصر فيه غير منتظر
صدمت فيه جموع الشرك فانفطروا إن الزجاجة لا تقوى على الحجر^(١)

ومن ظفر في أيام صلاح الدين بتقدير ضخم ، وتمجيد سام ، لبطولته في حرب الفرنج
قائد الاسطول المصري يومئذ : حسام الدين لؤلؤ ، الذي أبلى بلاء حسناً في حرب أساطيل
الفرنج في البحر الأبيض ، وكان له الفضل في القضاء على الفرنج الذين مضوا في البحر الأحمر ،
يريدون قبر الرسول ، كما سبق أن ذكرنا ، قال فيه ابن الذروري أشعاراً منها :

يا حاجب المجد الذي ماله	ليس عليه في الندى حجة
ومن دعوه لؤلؤا عندما	صحت من البحر له نسبة
لله ما تعمل من صالح	فيه ، وما تظهر من حجة
كفيت أهل الحرمين العدا	وذدت عن أحد والكعبة ^(٢)
ومنها: قلت وقد سافرت ، يا من غدا	جهاده يعضد من حجه
إذ قيل: سار الحاجب المرتجي	في البحر : يارب السماء نجه ^(٣)
ومنها: مر يوم من الزمان عجيب	كاد يبدى فيه السرور الجاد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى	قرتهم في طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال	وعلوج كأنها أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى:	هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي	وسواه من اللآلى يصاد ^(٤)

والشاعر هنا يتخذ من اسمه : لؤلؤ أحد بنايع مدحه ، ويسجل له هنا يده التي قدمها
للمسلمين ، بدفاعه عن الحرمين ، وما فيهما : من الكعبة وقبر الرسول ، وإن في دعاء الشاعر
للقائد ، وقد أزمع السفر للجهاد بقوله : يارب السماء نجه ، ترجيحاً صادقاً لما كان يدور في نفوس
المسلمين يومئذ : من تقدير للقائد ، وإشفاق عليه ، وحب له ، ورغبة قوية في سلامته .

هذا وقد تلقى لواء الجهاد بعد صلاح الدين والملك العادل أولادهما ، فالتف الشعراء
حولهم ، يمجدون بطولاتهم في هذه الحروب ، وكان من أكثر أولئك حظاً العزيز بن صلاح الدين

(٢) و (٣) و (٤) الروضتين ٢ : ٣٦ .

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٤١ .

قال الكامل ، والمعظم والاشرف أبناء العادل ، وبخاصة بعد أن انتصر هؤلاء على الصليبيين في معركة دمياط ، فها مجد به الملك العزيز قول ابن سناء الملك :

لله عزمته التي لا ترتقى حتى يكون لها المجرة مسوردا
ولقد أقام الدين ، بعد قعوده عزم أقام الدهر منه ، وأقعدا
ضرب الرقاب ، وسيفه في غمده بأساً ، فكيف تظنه لو جردا
أرضيت ربك في حراسة دينه وسررت عيسى إذ نصرت محمداً^(١)

وهذه نظرة جديدة في هذه الحروب فهي ترضى عيسى لأنها انتصار لمحمد . وهو يثنى على العزيز بأنه ينتصر على عدوه بالرعب ، وكان في العزيز كثير من صفات أبيه ، فلا غرو كانت له في نفوس الأعداء هذه المهابة التي تبهت في صدورهم الخوف والرعب ، وقد صرح ابن سناء الملك بهذا المعنى في قوله :

وما سمعنا قط فتحاً جرى ما فيه ، لا بل ما عليه غبار
يا ملكاً يهزم أعداءه بالرعب ، هذا وأبيك الفخار^(٢)
ولما جاءت دولة المماليك بعد الدولة الأيوبية نهض بعض سلاطينها بعبء قتال الفرنج ، واسترداد البلاد من أيديهم ، وقد التفت الشعراء حول ثلاثة من سلاطين هذه الدولة ، فجدوا بطولتهم ، وأشادوا بمجدهم ، وسجلوا خطواتهم في الحرب ، مقترنة بالإكبار والتعظيم والإعجاب ،
فما أثنى به على جهود بيبرس في حرب الفرنج قول جمال الدين بن الحشاش :

قصد الملوك حماك والخلفاء فاغفر فإن عمالك الجوزاء
ملك تزينت الممالك باسمه وتجملت بمدح الفصحاء
كم للفرنج وللتتار بيا به رسل منها العفو والإعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة وطريقهم لبلاده عذراء
دامت له الدنيا ودام غلداً ما أقبل الإصباح والإمساء^(٣)

وهو هنا يشير إلى التجاء الخلافة العباسية إلى مصر وإقامة بيبرس خليفة عباسياً ، من

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ .

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٤١ .

(٣) خطط القرطبي ج ٤ ص ٢١٧ .

بين الأمراء الذين أفلتوا من ذبح التار ، كما يشير إلى جهود بيبس في حرب التار . وما جاء في وصف جيش الملك الظاهر بيبس قول أبي محمد الواسطي :

فعلى الأفق للغمام ملاء طررتها البروق بالإيماض
وكان الرعود إرزام نوق فصلت دونها بنات المخاض (١)
أوصيل الجياد للملك الظاهر تسرى بالجحفل النهاض (٢)
وما قيل في المنصور قلاوون ، وكان يدعى بالآلني :

تهب الآلوف ، ولا تهاب لها ألفا إذا لا قيت في الصف
ألف وألف في ندى ووغى فلاجل ذا سموك بالآلني (٣)
ويمجده شهاب الدين محمود لما فتح حصن المرقب سنة ٦٧٨ هـ ، وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة ، وكان كبيراً جداً لم يفتحه صلاح الدين فيما فتح ، فلما استولى عليه قلاوون مضى الشعراء يمجّدونه ، وأنشثوا في ذلك قصائد كثيرة ، منها قول الشهاب محمود :

الله أكبر ، هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض ، وسر ، واملك الدنيا ، فقد نخلت شوقاً منا برها وارتاحت السرر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك فطال عنه ، وما في باعه قصر
وكيف تمنحه الأيام ملكه كانت لدولتك الغبراء تدخر
وكيف يسمو إليها من تأخر عن إسعاده منجداك : القدر والقدر
غر العدا منك حلم تحته همم لأشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى معنى العواصف لا تبق ولا تذر (٤)

وأكبر ما سجله الشاعر هنا لقلاوون حله ، وعظم همته .

وظفر ابنه الأشرف خليل بتقدير سام للشعراء ، ومضوا يصورونه في صورة محبة إلى النفوس ، ولا غرابة فعلى يديه تم إلقاء الفرنج في البحر ، واستولى على آخر ما بقي في أيديهم من البلاد ، وهو ثغر عكا فما قيل فيه :

(١) أرزم الرعد : اشتد صوته ، والفصل : فطم الولود وبنات المخاض : ما دخلت في السنة الثانية .
(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٤) النجوم الزاهرة ٧ : ٣١٧ .

لك الراية الصفراء ، يقدمها النصر
إذا خفقت في الأرض هدت بنودها
وإن نشرت مثل الأصائل في وغي
وإن يمت زرق العدا سار تحتها
كان مشار النفع ليل ، وخفقتها
لها كل يوم أين سار لواؤها
وفتح بدا في إثر فتح ، كأنما
فإن رمت حصناً سابقتك كئائب
ففي كل قطر للعدا وحصونهم
فلا حصن إلا وهو حصن لأهله

وما قيل في الأشرف خليل أيضاً، بما نظر فيه إلى بعض خصاله الأخرى قول بعضهم فيه :

يداك يا عادل يا منصف
أغن عباد الله عن نيلهم
أطاعك الناس اختياراً ، وما
كم ملكك مصر ملوك وكم
حتى أتى المنصور أنسى الوري
ما قدموا مثل تقاه ، ولا
فيه على الأملاك ثغر بما
أرجى من الغيث الذي يوصف
بحودك البحر الذي يغرف
أذلهم ربح ولا مرهف
جادوا ، وما حادوا ، ولا أسرفوا
بفعله سائر ما أسلفوا
مثل الذي خلفه خلفوا
نلت ، فأنت الملك الأشرف (٢)

هكذا مجد الأدب العربي أبطال الحروب الصليبية ، ولم يقف ثناؤه عند كبار أبطالهم
الذين تحدثنا عنهم في هذا الفصل ، بل مجد كثيراً ممن مدوا أيديهم لاستنقاذ البلاد المغتصبة ،
أو دافعوا عن بلادهم ضد الفرنج ، وإن لم يهيا لهم من النجاح ما هيء لهؤلاء الأبطال ، وهذا
يدل على مقدار ما كان يتجاوب في نفوس المسلمين يومئذ : من رغبة ملحة في استرداد
ما فقده الإسلام من بلاد ، ومن أمل في أن يجدوا البطل الموفق ، الذي يحقق لهم هذا الحلم
المأمول . يدلنا على هذه اللبقة قول بعضهم لإلغازي بعد أن هزم الفرنج سنة ٥١٣ هـ ، في
معركة دارت بأرض حلب ، بينه وبين الفرنج :

(١) فوات الوفيات ١ : ١٥٥ . (٢) نهاية الأرب ٢٩ : ٥٠ .

قل ما تشاء ، فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن ، حين نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيل (١)
وتأمل قوله : وعليك بعد الخالق التعويل ، ففيها اللفتة والأمل معاً .

وتجد كثيراً من الشعر في تمجيد تاج الملوك بوري ، وحفيده بجير الدين ، ومعين الدين أنر ، الذين دافعوا عن دمشق دفاعاً مجيداً (٢) . ولما كان الصالح طلائع بن رزيك أكبر من تحمس من المصريين للحروب الصليبية في عهد الفاطميين ، التف حوله كثير من الشعراء ، فأشادوا بهذه الخلة من بين خلاله ، ومجدوا أفعاله ، وسجلوا غزواته ، مقرونة بالتشجيع والإعجاب (٣) .

كان لهذه الحروب أثرها في تمجيد أبطالها ، وفي إبراز سمة الشجاعة والإقدام من بين صفاتهم ، حتى صار الحديث عن الشجاعة والتفن في وصفها عنصراً أساسياً من عناصر المدح ، ولم يقتصر المدح بها على من خاضوا غمار الحروب الصليبية وحدهم ، بل وصف بها الشعراء معظم مدوحيههم ، مما يدل على ما تبوأته هذه الصفة من بين باقي الصفات الإنسانية من مكانة وتقدير ، في ذلك العصر .

وبعد فإلى أي مدى استطاع الشعر العربي أن يرسم سمات أبطال هذه الحروب ؟ وأن يميز بين بطل وآخر ، بلح الفروق الدقيقة بينهما ، حتى يمتاز في تصورنا أحدهما عن صاحبه ؟ ويبدو على ما يظهر لي — أن تشابه هؤلاء الأبطال في أهدافهم جعل شعراءنا يخلعون على كل ما يعرفونه : من صفات مثالية ، فهم جميعاً شجعان ، أتقياء ، كرماء ، زينة العصر ، وجمال الدنيا ، ولولا سمات خارجية مستمدة من التاريخ ، كاختصاص بعض المعارك ببعض الملوك ، وكذكر أسماء بعض الأبطال لاستطعت أن تنقل شعرا قيل في نور الدين مثلاً ، وتزعم أنه قيل في صلاح الدين مثلاً ، فلم يستطع الشعراء برغم كثرة أشعارهم أن يتركوا لنا صورة متينة المعالم ، واضحة القسمات ، لكل بطل من هؤلاء الأبطال ، وربما كان لتقاليد شعر المدح في الأدب العربي دخل في ذلك . ولو أن شعراءنا عرفوا الشعر القصصي ، أو التمثيلي ، لاستطاعوا أن يميزوا بين بطل وبطل . وأن يرسموا صورة كل واضحة بيّنة .

(١) المختصر ٢ : ٢٣١ . (٢) راجع الروضتين ١ : ٥٤ ، وديوان أسامة بن منقذ ١ : ٢٠٥ .

(٣) راجع الجريدة ١ : ٢٨ و ٣٨ و ٥٦ و ٥٧ و ٢١١ : ٢ ، وديوان أسامة من ٢٣١

و ٢٤٤ و ٢٤٥ ، ونكت عمارة من ١٧٦ ، والروضتين ١ : ٩٧ و ١٢٥ .

٤ — تسجيل المعارك الكبرى

سجل الأدب في ذلك العصر ما دار من معارك انتصر فيها المسلمون على الفرنج ، وأشاد
بمن شاركوا في هذه المعارك وكان لهم يد في الظفر والانتصار ، وتغنى بمجد الإسلام ،
واستبشر بتحقيق الآمال ، وإنقاذ البلاد . ولعل أكبر المعارك التي نالت أكبر قدر من أدب
ذلك العصر هي معارك الرها ، وحطين ، وبيت المقدس ، ودمياط ، وعكا .

أما معركة الرها فكان بطلها عماد الدين زنكي ، وسقطت في يده في جمادى الثانية سنة
٥٣٩ هـ ، من يد صاحبها جوسلين الثاني Jocelin 11 بطل الفرنج وشيطانهم ، وبالإستيلاء
عليها استطاع أن يبيد إمارة من إمارات الفرنج . وهي العين المطلة على الجزيرة بالعراق ،
وهي امتلاكها للفرنج أن يخضعوا ما حوّلها من الأقاليم . ولقد فكر زنكي عند ما سقطت
المدينة في يده أن ينزل عقوبة مخيفة بالصليبيين في المدينة ، انتقاماً لمذابح بيت المقدس ،
ولكن إنسانيته غلبت غضبه ، فلم يقتل عدا المحاربين أحداً ، ولم يأسر رجلاً ولا امرأة
ولا طفلاً ، ولم يستول على ممتلكات أحد (١) .

وترجع أهمية الرها إلى مكانها الجغرافي ، وإلى أن سقوطها استتبع سقوط ما يخضع لها
من مدن وقرى ، وإلى أنها أول مدينة كبيرة ذات أهمية تسقط في يد المسلمين ، فأثار سقوطها
في نفوسهم الآمال في استعادة ما فقدوه ، والثقة بأنفسهم وقدرتهم على طرد العدو من
ديارهم ، فلا جرم أثار سقوطها في نفوس الشعراء أعظم الآثار ، فأقبلوا يتغنون بهذا النصر
المبين . فمن تغنى بهذا النصر القيسراني إذ قال :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده وهل طوق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام غفراً بطوله ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وهو في هذه الأبيات يشيد بالقوة التي ذلت هذا الفتح ، ومهدت إليه السبيل ، ثم يذكر
أثر هذا الفتح في رفع شأن الإسلام وإعلاء مجده ، ثم يقول :

لبن بنى الإيمان أمن ترفعت	رواسيه عزا ، واطمان مهاده
وفتح حديث فى السماع ، حديثه	شهى إلى يوم المعاد معاده
مدينة إفلك منذ خمسين حجة	يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار ، حتى لو أنها	ترقت إليها خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها	إلى أن ثناها من يعز قياده
فأضرهما نارين : حربا ، وخدعة	فا راع إلا سورها وانهداده
فيا ظفرا عم البلاد صلاحه	بما كان قد عم البلاد فساده
فلا مطلق إلا وشد وثاقه	ولا موثق إلا وحل صفاده
ولا منبر إلا ترنخ عنوده	ولا مصحف إلا أنار مداده

أشاد الشاعر أول ما أشاد بما نتج من هذا الفتح : من أمن سابغ ، لهؤلاء الذين كانوا يعيشون خائفين مضطربين إلى جوار إمارة الرها ، فقد كان الفرنج يباكروهم بالغارات ويفادونهم . أما اليوم فقد زال هذا الخوف إلى غير رجعة ، فقد توطدت دعائم الأمن ، واستقرت أركان السلام ، فلا غرو كان لهذا الفتح قيمته ، التى تكبر فى العيون ، كلما تجدد ذكرها ، ثم مضى يتحدث عما كانت تتصف به المدينة من حصانة ومناعة ، ردت آمال الملوك دونها حسرى ، حتى جاء هذا البطل ، فأضرم نارين : نار الحرب ، ونار الخدعة ، والشعر يسجل أن زنى استعمل مع الحرب الحيلة والخداع ، وإن لم يحدثنا التاريخ عن ألوان هذا الخداع . وبعد كل مرحلة يعود الشاعر إلى التفتى بالنصر فى نعمة جديدة ، ثم يهدد الشاعر الفرنج بهزائم متتالية على يد هذا البطل المظفر ، ويرى عهده لجرا جديدا طوى الظلمة الدامسة التى غمرت البلاد حقبة من الزمان ، فيقول :

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها	لقد ذل غاويكم ، وعز رشاده
رويدكم ، لا مانع من مظفر	يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأى ، لو أن عزمه	رمى سد ذى القرنين أصمى سداه
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها	بما لكها إن البلاد بلاداه
كذا عن طريق الصبح فليفتنه الدجى	فيا طالما غال الظلام امتداده

ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترضها جياده (١)
 أما ابن منير فقد اتجه إلى تمجيد بطل المعركة في أسلوب قوى ، إذ قال :
 صفات مجدك لفظ جل معناه ، فلا استرد الذي أعطاك الله
 يا صارماً يمين الله قائمه وفي أعالي أعادى الله حده
 أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً بلا شبهه ، إذ الأملاك أشباه
 فذاك من حاولت مسعاك همته جهلاً ، وقصر عن مسعاك مسعا
 قل للأعادي : ألا موتوا به كذا فإله خبيكم ، والله أعطاه
 ملك تنام عن الفحشاء همته تقى ، وتسهر للمعروف عيناه
 أين الخلائف عن فتح أتيح له مظلل أفق الدنيا جناحاه
 فتح أعاد على الإسلام بهجته فافتقر مبسمه ، واهتز عطفاه
 يهذى بمعتصم بالله فتكته حديثها نسخ الماضي ، وأنساه
 إن الرما غير عمورية ، وكذا من رامها ، ليس مغزاه كغزاه
 أخت الكواكب عزا ، ما بغا أحد من الملوك لها وقا (٢) ، فواتاه
 حتى دلفت لها بالعز يشحذه رأى يبيت فوق النجم مسراه
 مشمراً ، وبنو الإسلام في شغل عن بدء غرس ، لهم أثمار عقباه
 أبقاك للدين والدنيا تحوطهما من لم يتوجك هذا التاج إلا هو (٣)

ولم يقف ابن منير عند حد الإشادة ببطل المعركة الذي يراه جديراً بإمارة المؤمنين ،
 وأنه أولى بهذا اللقب من الجالس على عرش بغداد . ولم لا ؟ والجالس على عرش بغداد
 مقيد ، لا سلطان له ولا نفوذ ، ولم يقم بأول واجب عليه ، من الدفاع عن دين ، هو أمير أصحابه .
 قال ابن منير :

لو جرى الإنصاف في أوصافه كان أولها أمير المؤمنين (٤)
 والواقع أن عماد الدين زنكي كان أول بطل كبير للحروب الصليبية ، شق الطريق أمام

(٢) ولعمه : أذله وأخضعه .

(٤) الروضتين ١ : ٣٩ .

(١) الروضتين ١ : ٣٧ .

(٣) الروضتين ١ : ٣٩ .

خلفه ، وأوضح لهم النهج المستقيم . لم يقف ابن منير عند هذا الحد ، بل مضى في قصائد أخرى (١) يتحدثنا عن أثر هذه المعركة في المسلمين والفرنج ، مهدداً الفرنج بما سيلقونه على يده من شر المصير .

أما معركة حطين فكانت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان بطلها صلاح الدين ، وهي أعظم معركة حدثت بين المسلمين والفرنج ، منذ قدم الفرنج إلى بلاد الشام ، اجتمع منهم عدد ضخم ، قدره بعضهم بخمسة وأربعين ألفاً ، وزاده بعضهم إلى ثلاثة وستين ألفاً ، بين فارس وراجل ، لم ينج منهم في رواية بعض المؤرخين سوى ألف ، ومضى باقيهم بين القتل والأسر . أما عسكر الإسلام فكان يبلغ اثني عشر ألف مقاتل . ومضى الأدب يمجّد هذه المعركة ، ويتغنّى بهذا النصر المؤزر . فما كتب إلى بغداد في وصف هذه الواقعة كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسي ، يقول فيه : « ولو حدثنا الله عز وجل طول أعمارنا ، ما وفينا بعشر معشار نعمته التي أنعم بها علينا ، من هذا الفتح العظيم ، فإننا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين ، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل ، وديار بكر ، وإربل ، لجمع صلاح الدين الأمراء ، وقال : هذا اليوم الذي كنت أنتظره ، وقد جمع الله لنا العساكر ، وأنا رجل قد كبرت ، ولا أدري متى أجلى ، فاغتنموا هذا اليوم ، وقاتلوا الله تعالى لا من أجل . فاختلفوا في الجواب ، وكان رأى أكثرهم لقاء الكفار ، فعرض جنده ورتبهم ، وجعل تقى الدين في الميمنة ، ومظفر الدين في اليسرة ، وكان هو في القلب ، وجعل بقية العسكر في الجناحين ، ثم ساروا على مراتبهم ، حتى نزلوا الأقحوانة ، فتركوا بها أثقالهم ، وساروا حتى نزلوا بكفر سبت ، فأقاموا يومين ، ينتظرون أن يبرز لهم الكفار ، وكان عسكر الكفار على صفورية ، فلم يبرزوا ، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية ، فتقدم فرسانه وحاماته ورماته والنقابون ، فدخلوا تحت الحصن ، فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار ، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس ، وأصبحوا يوم الجمعة ، فشرعوا في نقب القلعة ، فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا : فارتحل صلاح الدين على صفوفه ، فلقبهم ، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم ، وصار قلب المسلمين خلفهم ، فقاموا ساعة ، وبات كل

(٢) ارجع إلى هذه القصائد في الروضتين ١ : ٤٠٣٩ .

فريق على مصافهم ، ثم أصبحوا ، فسار الكفار يقصدون طبرية ، والمسلمون حولهم ، يلحون عليهم بالرمي ، فاقتلع المسلمون منهم فوارس ، وقتلوا خيالة ورجالة ، فانهز المشركون إلى تل حطين ، فنزلوا عنده ، ونصبوا الخيام ، وأقام الناس حولهم ، إلى أن انتصف النهار ، وهبت الرياح ، فهجم المسلمون عليهم ، فانهزموا ، لا يلوون على شيء ، ولم يفلت منهم إلا نحو من مائتين ، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً ، وقيل ثلاثة وعشرين ألفاً ، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً . . . (١) . عني هذا الكتاب ، بأسلوبه الطبيعي ، الذي لم يقصد فيه صاحبه زخرفة ولا زينة ، بوصف المعركة كما دارت ، متبوعاً مراحلها وخطواتها ، واقفاً عند حد هذا الوصف ، الذي نستطيع أن نقبين فيه مدى ما تملك الفرنج من خوف واضطراب ، عند ما رأوا هذا الجحفل الضخم من جحافل الإسلام ، وسبقت لإليهم أنباء انتصارات صلاح الدين ، فتجنبوا الاشتباك بالمسلمين ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، فلما وجدوا أنه لا سبيل إلى تجنب القتال لجثوا إلى الفرار ، فعملت فيهم سيوف المسلمين ، ومضوا بين أسير وقتيل .

ويتحدث كتاب آخر عن أسرى الفرنج وما غنم منهم ، فيقول : « . . بلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير . واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم ، بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك ، وما سلم من معسكر الفرنج سوى قص طرابلس ، مع أربعة نفر ، وهو مجروح ثلاث جراحات ، وأخذ جميع أمراء الفرنج ، وكم قد سبي من النساء والأطفال ، يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة ، ولقد بيع بحضور رجل وامرأته وخمسة أولاد ، ثلاث بنين ، وابنتان ، ثماني ديناراً ، وأخذ صليب الصلבות (٢) فعلق ... منكساً ، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق . . . وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال ما لم يحصى من يشتريها من كثرة السبي والغنائم (٣) .

أما القاضي الفاضل فكان غائباً بدمشق ، فلما بلغه نبأ النصر كتب إلى صلاح الدين : ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم ، وأنه كما قيل : أصبحت مولاي ومولى كل مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين : الباطنة والظاهرة ، وأورثه الملكين : ملك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة ، والرموس إلى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم أن البيعة تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة ، يقال اليوم فيه : إنه الواحد — جدد لله شكراً ، تارة يفيض من لسانه ،

(٢) يعتقدون أن صليب الصلבות من الخشب التي صلب عليها المسيح .

(١) الروضتين ٢ : ٨٢

(٣) الروضتين ٢ : ٨٢ .

وتارة يفيض من جفنه . . . تلك المكارم لا قعبان من لبن ، وذلك الفتح لا عمان واليمن ، وذلك السيف لا سيف ابن ذى يزن . . . (١) . وهذا الكتاب جدير أن يكون وصفاً لحال المسلمين ، عند ما بلغتهم أنباء هذا النصر المبين ، فقد طغى الفرح على مشاعرهم ، حتى فاضت له عيونهم غبطة وشكراً .

ولم يقصر الشعر عن مجازاة النثر ، في الحديث بفخر ، عن هذه المعركة الموقفة ، فقال ابن الذرؤى قصيدة ، منها يصف ما أصاب الفرنج : من إنهاك أودى بقوتهم ، إذ قال :

أسرت ملوك الكفر حتى تركته وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض (٢)

وقال العماد يخاطب صلاح الدين :

حططت على حطين قدر ملوكهم	ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
غداة أسود الحرب معتقلو القنا	أساود تبغى من نحور العدائهمسا
أتوا شكس الأخلاق ، خشنا ، فليئت	حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم	دمارا ، كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم	ولم ترض أرض أن تكون لهم رما
وطارت على نار المواضى فراشهم	صلاء ، فزادت من خمودهم قيسا
وقد خشعت أصوات أبطالها ، فإ	يعى السمع إلا من صليل الظبي همسا
سبايا ، بلاد الله ملوءة بهسا	وقد شربت بخسا ، وقدرضت نخسا
يطاف بها الأسواق ، لاراغب لها	لكثرتها ، كم كثرة توجب الوكسا (٣)

وعندما فاضت أنباء هذا النصر :

لم يخل سمع من هناء مهني . للسلين ، ومن سماع مبشر (٤)

كما قال الشهاب فتیان الشاغورى من قصيدة طويلة .

ولم ينتظر صلاح الدين حتى يستفيق الفرنج من كسرتهم ، بل مضى يتبع فلولهم المنهزمة ، ويفتح بلاد الفرنج ، حتى إذا فتح الأماكن المحيطة بالقدس ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل ، مضى إلى القدس ففتحها ، وكان لهذا الفتح رنة فرح كبيرة في صدر العالم الإسلامى كله ، وظفرت هذه المعركة الخالدة بنصيب موفور من الأدب شعره ونثره ، لم تظفر به معركة منذ شبت الحروب الصليبية ، إلى أن وضعت هذه الحروب أوزارها . فأعد كبار الخطباء خطبا يلقونها على منبر المسجد الأقصى ، ومضت رسائل البشرى تحمل

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق ص ٨٤

(١) الروضتين ٢ : ٨٢ .

(٣) الروضتين ٢ : ٨٣ .

النبي السعيد إلى جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وأقبل الشعر إلى صلاح الدين من جميع الأرجاء ، يمجّد هذا النصر ، ويثني على ذلك الفتح. المبين ولا غرو كان بيت المقدس الهدف الذي جمع له الصليبيون كل ما استطاعوا من قوة ، له خرجوا من بلادهم ، ومن أجله حشدوا جموعهم ، وأقبلوا بخيلهم ورجلهم ، فإذا سقط هذا الهدف في يد المسلمين كان معنى ذلك أن هذه الحروب التي شنها الفرنج ، لم تؤد إلى غاية ، ولم تصل إلى هدف ، وأن بقاء الفرنج في هذه الديار بقاء محدود الأمد فضلا ، عما في هذا البلد من آثار مقدسة لدى المسلمين ، أهاها الصليبيون عندما استولوا عليها ، وكان تطاول الأمد على امتلاك الصليبيين هذه المدينة زهاء تسعين سنة ، قد خلق في النفوس استبعاد أن تعود إلى حظيرة الإسلام ، فكان استرجاعها محققا لأمنية كادت تكون في عداد المستحيل ، ومن أجل هذا ظفر هذا الفتح بتقدير خاص لم يظفر به فتح سواه ، في تاريخ هذه الحروب الطويلة. ويطول بي وجه القول إذا أنا حاولت ، أن أعرض نماذج مطولة ، يظهر فيها أثر هذا الفتح ، وحسبي أن أقول : إن الأدب يومئذ سجل نبضات قلوب المسلمين خير تسجيل ، وتحدث عن آمالهم وأحاسيسهم أصدق حديث وأوفاه ، وانك لتقرؤه فترى فيه صورة العواطف التي كانت تجول يومئذ في القلوب ، وتملك النفوس . وها هو ذا العباد الكائب يصف لنا مجلس صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس : « وجلس السلطان للهناء ، للقاء الأكابر والأمرأ ، والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع وهيئة الوقار ، بين الفقهاء ، وأهل العلم جلسائه الأبرار ، ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجاح ظافر ، وبابه مفتوح ، ورفده بمنوح ، وحجابه مرفوع ، وخطابه مسموع ، ونشاطه مقبل ، وبساطه مقبل ، وبحياه يلوح ، ورياه يفوح ، ومحبه تروق ، ومهابته تروع ، وآفاقه تضيء ، وأخلاقه تضوع ... قد حلت له حالة الظفر ، وكان دسه بهالة القمر ، والقراء جلوس يقرءون ويرشدون ، والشعراء وقوف ينشدون ، والأعلام تبرز لتنشر ، والأقلام تبرز لتبشر ، والعيون من فرط المسرة تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والالسنه بالابتهاال إلى الله تضرع ... »^(١) ، ومن الرسائل التي تحدثت عن هذا الفتح كتاب أنشئ على لسان صلاح الدين جاء فيه : « فتح بيت الله المقدس ، الذي عجز الملوك عن تمنيه ، فكيف تسنيه ؟ وماتت الأطماع دونه ، فلم تطمع فيه ، فمن الله علينا بتذليل صعبه ، وإعذاب شربه ، وتسهيل وعره ، وتحصيل غفره ، وقضى الملوك في ليله ، وجئنا نحن عليه بإسفار جره ، وقد كانت الصخرة مستصرخة ، ومطايا الكفر بكلا كلها عليه منوخة ، فأجبت دعوتها ، وأصيبت حظوتها ، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء ، وقوبلت قبلتها بقبل

الأفواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن، وقرت عين الراني، هذا فتح عظيم قدره، جسيم ثغره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسى إلى يوم الحشر ذكره... وجاء من نعم الله ما لزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، وإغراقهم في أمواه الطلي والجماجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنّت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى، في ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ما وضع من المنهاج... وخلا بيت الله لقصد الحاج... مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكتنا، وطرز به ملكتنا، وهو فتح بيت الله المقدس، الذي غلق رهنه دهرأ، واغتصب من الإسلام قهراً، وارتد كفراً، وامتدت به الأيام عمراً فعمراً، وتقاشرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكايه اجترامه واجتراحه، فلا جرم أعده الله لآيائنا، وذخره لمواسم اعتزائنا... وعلّموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والأسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان، ويبدلون الإذعان. حتى يسلبوا المكان، فقبل لهم: الآن وقد عصيت، ورضيت بما فيه هلاككم وأبيتم، فروعوا بقتل أسارى المسلمين وهم ألوف، وعرفنا أنهم لا يقصرون في الشر، فإن جهلهم معروف، فتضرعوا، وتشفعوا، وتعفروا في تراب الذل وتوقعوا، وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فزعوا به من الخوف ملبسهم، وسلبوا القدس، فأعدناه إلى القدس. وطهرناه من الرجس... وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم له نظير، وأفق الدين به منيف منير... فما أسر البيت الحرام بفكأك أخيه من الأسر، وإجراء الإسلام فيه لغسل أضرار الكفر، وإنقاذ الصخرة المباركة من قلوبهم كاللحجارة أو أشد قسوة، وإلحاقها من البهاء والرونق والعز الإسلامى بكسوة، ولقد غسلت من أوراق الكفر وأدناسة، وطهرت من أرجاس أنجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاة المؤمنين وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها في عهد الصحابة رضى الله عنهم من حسن الصحبة، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة، وخرج البطارقة والقسيسون من مساجد الأئمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الإيمان

باشرة ، ووجوه أهل الصليب عوايس ، ومحت أيا من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس . وقد أقيمت الجمع والجماعات ، ونظفت بل طهرت تلك الساحات ، وصلى في محرابه المحرب ، ودرس فيه الخلاف والمذهب ، والحمد لله الذي تسنى بفضل هذه المطلب ، وتيسر بتأييده الأمر الأصعب (١) .

وتنوعت الإشادة في الأدب بهذه المعركة ؛ فحينما يصفها ، وحينما يتحدث عن نتائجها ، وحينما يصور بهجة المسلمين بها ، وحزن الفرنج على فقدانها ، وتغنى الشعراء ، وأطالوا ، وامتلا العالم الإسلامي كله بنغمات من الطرب والبهجة ، وتدفق الشعر قوياً فياضاً ، يصف ذلك كله فمن ذلك قول الشريف محمد بن أسعد بن معمر ، نقيب الأشراف بمصر ، وقد بدأها بما ينم على الدهشة والذهول اللذين ألما بالعالم الإسلامي ، لدى سماع خبر فتح القدس ، إذ قال :

أترى مناماً ما بعينى أبصر	القدس يفتح ، والفرنجية تكسر
ومليكمهم في القيد مصفود ، ولم	ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي	وعد الرسول ، فسبحوا واستغفروا
فتح الشام ، وطهر القدس الذي	هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد	ماذا يقال له ، وماذا يذكر
ملك غدا الإسلام من عجب به	يختال ، والدنيا به تبخر
نثر ونظم طعنه وضرا به	فالرمح ينظم ، والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع ، حيث	العيون خواضع ، حيث الجباه تعفر
غاراته جمع ، فان خطبت له	فيها السيوف فكل هام منبر (٢)

وقول ابن جبير الأندلسي :

أطلت على أفقك الزاهر	سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا	تمد إلى سيفك الباتر
وكم لك من فتك فيهم	حكمت فتك الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة	فله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها	فليس لها الدهر من جابر
وأدبر ملكهم بالشأ	م ، وولى كأمسهم الدابر

جنودك بالرعب منصوره ففناجزمتى شئت، أو صابر
فكلهم غارق هالك بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى فى العدا فآثرك الذى من ثائر
وقت بنصر إله الورى فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً فله أجرك من صابر
تبیت الملوك على فرشهم وترفل فى الزرد السابرى
وتؤثر جاهد عيش الجهاد على طيب عيشهم الناصر
وتسر ليلتك فى حق من سيرضيك فى جفئك الساهر
فتحت المقدس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخرك الله هذا الفتو ح من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد فاروقه بها لاصطناعك فى الآخر
محبتم ألقيت فى النفوس، بذكر لكم فى الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملو كالمثلك من مثل سائر^(١)

وقال ابن الساعاتى، وهو يرى هذا الفتح خليقاً أن يثير العواطف، فيفيض الشعر والنثر:

أعياء وقد عاينتم الآية العظمى لأية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
تحل به الأضداد، واللفظ واحد فتكم سر قلباً فى الأنام، وكم غما
حبا مكة الحسنى، وثنى بيشرب وأطرب ذياك الضريح، وما ضما
فليت قفى الخطاب شاهد فتحها فيشهد أن السهم من يوسف أصمى
وقد أوتى الفتحين: مالا، وبلدة فلم يبق نصراً ما حواه، ولا غما
ففى لهوات الشرك أرسلها شجى وفى جبهة الأيام غادرها وسما

(١) المرجع السابق نفسه .

وما كان إلا الداء أعيا دواؤه وغير الحسام العضب لا يعرف الحسا
سلوا الساحل الخشبي عن سطواته فما كان إلا ساحلا صادف اليما
تجاوزت ما أعيا الجبال مناله فهل يقظة كانت مساعيك أو حلما^(١)

أما معركة دمياط فكانت سنة ٦١٥ هـ هاجمها الصليبيون طمعاً في امتلاك مصر حتى يأمنوا جانبها ، ويستطيعوا الاستيلاء على الشام ، من غير أن تمتد مصر يداً إلى معونة أهله ، فيصفو لهم الجو . وثبتت أقدامهم في الأرض . وقد ظل الحصار مضروباً على المدينة زهاء سبعة عشر شهراً ، حتى قلت الأقوات ، واشتد غلاء الأسعار ، وأنهكت الأمراض أهل المدينة ، وامتلات الطرقات من الأموات ، وبدأ الجوع يفعل فعله في أهل المدينة ، فلم يبق من حاميتها التي كانت تقدر بخمسين ألف رجل سوى أربعة آلاف ، بينما كانت الإمدادات تتوالى بكثرة على الصليبيين^(٢) ، فلم يستطع أهل دمياط الجياع المنهوكو القوى ولا حاميتهم الضعيفة قتالا ، فسلمت البلد إلى الفرنج في ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ ، ودخل الفرنج دمياط ، بروح كهذه الروح التي دخل بها أجدادهم بيت المقدس ، فوضعوا السيف بدون رحمة في بقية الحامية البائسة^(٣) ، وفي الناس ، حتى إنه لم يعرف عدد من قتل لكثرتهم^(٤) .

كان لسقوط دمياط أثر بالغ في نفس المسلمين ، فأعلن الملك الكامل في مصر الجهاد العام ، وكتب إلى إخوته وأقاربه بالشام يستنجد بهم ، فحضر إليه أخواه : المعظم عيسى ، والأشرف موسى ، وأمراء الشام ، حتى ليقال : إنه منذ معركة عكا في أيام صلاح الدين لم تتعد الأسرة الأيوبية في جبهة واحدة ، كاتحادها أمام خطر الفرنج بعد أن أخذوا دمياط^(٥) . وكان الكامل قد عسكر على البر الشرقي أمام طلخا ، في المكان الذي عرف بالمنصورة ، واجتمع لديه من المسلمين عالم لا يقع تحت حصر . ومع ذلك أرسل الكامل إلى الصليبيين يعرض عليهم أن يرد إليهم مملكة بيت المقدس ، وجميع ما فتحه صلاح الدين ، على أن يردوا إليه دمياط لحسب ، ولكن هذا العرض المغري قوبل بالرفض من جانب الصليبيين ، فلم يجد المسلمون بداً من القتال ، وانتشرت فرق الجيش الإسلامي خلف العدو وحوله ، وقطعوا سد النيل فأنفجر الماء ، وأصبح معسكر العدو كأنه بحيرة ، ووجد الصليبيون أنفسهم في شبه جزيرة يحيط بهم الماء والأعداء ، لا يستطيعون التقدم ولا التقهقر ، وفي ليلة حاولوا الهرب إلى دمياط ، فحال

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٨٥ .

(٢) Lane poole P . 221 (٢)

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

(٤) السلوك ١ : ٢٠١ .

(٥) Lane poole p . 223

المسلمون دونه ، فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، فأرسلوا إلى الكامل يسألون الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون دمياط ، بغير عوض ، فأجابهم الكامل إلى ما طلبوا ، وتسلم المسلمون دمياط ، في ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ . ودخل الكامل دمياط بعساكره وآله ، وكان لدخوله سرور شامل ، وبهجة مستولية ^(١) .

كان الاستيلاء على دمياط إذا يهدد العالم الإسلامي كله ، فلا غرابة إن وجدنا الأدب يحتفل احتفالاً قوياً بعودتها إلى حظيرة الإسلام ، ولانقاذها من أولئك الغزاة ، وما زاد من غزارة الشعر الذي تحدث عن هذه المعركة كثرة الملوك الذين شاركوا فيها ، وكان حول كل ملك شعراء ، رأوا من واجبه تمجيد هذا الجهاد المقدس ، ولعل من خير الشعر الذي يمثل شعور المسلمين لدى هذه الوقعة خير تمثيل ، قصيدة البهاء زهير التي أهداها إلى الملك الكامل ، فقد بدأها مشيداً بفضله في صيانة الدين ، ورد عادية الفرنج ، إذ قال :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت ، والحمد لله ، نعمة يقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقل لها بذل النفوس لشارة ويصغر فيها كل شيء من النذر

وهذان البيتان يدلان على مقدار ضخامة ما كان المسلمون يشعرون به : من نعمة في رد عادية الفرنج عنهم . ويمضى البهاء في مدح الكامل ، ثم يتحدث عن الموقعة ، فيذكر أن هذا النصر لم تفرح به مصر وحدها ، ولكن سعد به العالم الإسلامي كله : بغداد ، ومكة ، والمدينة ، ولولا هذا الفوز المبين لسرى الذعر في أرجائه ونواحيه . يقول البهاء زهير :

وما فرحت مصر بذلك وحدها لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلولم تقم لله حق قيامه لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همه كامليته لحافت رجال بالمقام وبالبحر
فن مبلغ هذا الهناء بمكة ويثرب ، ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله : إن سمي حتى بيضة الإسلام من نوب الدهر

ويصف طول المعركة وما أبداه الكامل فيها من الثبات والصبر ، وكيف انتهى ذلك بمحاصرة العدو في البر والبحر ، حصاراً دفعه إلى الاستسلام ، إذ يقول :

ثلاثة أعوام أقمت ، وأشهرًا تجاهد فيهم ، لا يزيد ولا عمرو

(١) الملوك ١٠٦٠١ .

صبرت ، إلى أن أنزل الله نصره
وليلة غزو للعدو ، كأنها
في ليلة قد شرف الله قدرها
سددت سبيل البر والبحر عنهم
أساطيل ليست في أساطير من مضى
وجيش كمثل الليل : هولا ، وهيبة
وباتت جنود الله فوق ضوامر
فلا زلت حتى أيد الله حزبـه
فرويت منهم ظالمى البيض والقنا
وجاءت ملوك الأرض نحوك خضعا
فمن عليهم بالأمان تمكـرما

لذاك قد استحققت عاقبة الصبر
بكثرة من أرديته ، ليلة النحر
ولا غرو إن سميتها ليلة القدر
بسابحة دهم ، وسابحة غـر
بكل غراب (١) راح أفتك من صقر
وإن زانه ما فيه : من أنجم زهر
بأوضحها تغنى السراة عن الفجر
وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
وأشبع من طوى الذئب والنسر
تجرجر أذيال المهانة والصغر
على الرغم من بيض الصوارم والسمر

فهو في هذه الآيات يصف المعركة ، وكيف استمرت متطاولة ، حتى كانت هذه الليلة
السعيدة التي أحيط فيها بالعدو ، وربما أشار الشاعر في البيت الأخير إلى ما كان من خلف
بين الكامل وإخوته وأمرائه على مصير الأعداء ، بعد أن استسلموا ، وطالبوا الأمان ، فقد
كان من رأى هؤلاء ألا يعطوهم أمانا حتى يبيدوهم ، عن آخرهم ، بما كان في أيديهم من قوة .
أما الكامل فرأى أن يعطيهم الأمان على أن يسلموه دمياط ، ويفادروا مصر ، وفضل ذلك
حسما للشر ، ورغبة في الوصول إلى الهدف ، من غير إسراف في إراقة الدماء ، وحتى
لا يضطر إلى الدخول في حرب جديدة ، مع الفرنج المقيمين في دمياط ، إذا تحصنوا بها ،
وأبوا تسليمها .

ثم يتحدث البهاء زهير عن تقدير المسلمين لدمياط ، فيدعو لها ألا تحبس بسوء ، ويعلل
لعدوثة النيل تعليلا رقيقا ، إذ يقول :

كفى الله دمياط المكاره ، إنها
وما طاب ماء النيل إلا لأنه
يحل محل الريق من ذلك الشر
ويصف هذا اليوم السار الذي دخل فيه الكامل ، وأهله دمياط ، بعد خروج الفرنج
منها ، فيقول :

(١) اسم نوع من السفن و ذلك العصر .

فله يوم الفتح ، يوم دخولها وقد صارت الأعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها وأنسى حديثا ، عن حنين ، وعن بدر
ويأسعد قوم أدركوا فيه حظهم لقد جمعوا بين الغنيمة والأجر
وينتقل بعدئذ ، ليحدثنا عن شوقه وفرحه بسماع أحاديث هذا الفتح ، ولعله يصف
بذلك شوق المسلمين جميعهم ، إلى سماع هذا الحديث ، إذ يقول :

وإني لمرتاح إلى كل قادم إذا كان من ذاك الفتوح على ذكر
فيطربني ذاك الحديث ، وطيبه ويفعل بي ما ليس في قدرة الخمر
وأصغى إليه مستعيدا حديثه كأنى ذو وقر ، ولست بذى وقر
يقوم مقام البارد العذب في الظما ويفنى عن الأنوار في البلد القفر
ثم يعود مرة أخرى ، فيتخيل هذا المصير المشئوم على أيدي الفرنج ، إذا كان قد قدر لهم
النصر ، فيقول مخاطبا الكامل :

لك الله من أثنى عليك ، فإنما من القتل قد أنجيت ، أو من الأسر
يقصر فيك المدح من كل مادم ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر^(١)

وعنى ابن عنين بوجه خاص في قصائده التي تحدث فيها عن هذه الواقعة ، بالحديث عن
جيش الفرنج ، وكيف أقبل لجبا ضخمها ، ثم لم يلبث أن انهارت تحت ضربات الإسلام ، ولم ينس
أن يوازن بين ما كان المسلمون يفعلون عندما يملكون : من الرفق ، والصفح ، والعفو ، وبين
ما كان الفرنج يأتون : من سفك الدماء ، والإسراف في القتل ، فقال مبتدئا بفخر قوى :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا ، وعزما ، وهمة ودينا ، وإن كانوا قد اختلفوا لسا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت جموع ، كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى كل مفاضة دلاص ، كقرن الشمس قد أحكت وضنا
وأطعمهم فينا غرور ، فأرقلوا إلينا سراعا بالجياذ ، وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها ، حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمانا
لقد صبروا صبرا جميلا ، ودافعوا طويلا ، فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحنا

وما برح الإحسان منا سجيّة توارثها عن صيد آباءنا الأبناء
منحنا ببقاياهم حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملوكوا لم يأتلوا في دمائنا ولوغا، ولكننا ملكنا فأسجحنا
فكم من مالِك قد شددنا إيساره وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى لولا قسراع سيوفنا لما ركبوا قيداً، ولا سكنوا سجننا
وبعد حديث عن أحد قواد هذه المعركة، وهو المعظم عيسى، وعن أثر فتح دمياط في
بهجة قلوب المسلمين، ختمها مهدياً بقوله :

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها فيها، فإن عاودوا عدنا (١)
أما ابن النبيه فبعد تغنيه بيوم دمياط، يتخذة فاتحة خير، تدفع إلى اقتلاع بقايا الفرنج
من الشام، فيقول مخاطباً الأشرف موسى :

عكا وصور إلى رؤياك عاطشة فانهض فقد أمكنت منهن خلوات
واستخبر الريح عنها، إذ تسيره إليك فهو سلام، أو تحيات
الله أكبر أن تسمى منامهم تتلى، وتنسى من القرآن آيات
وأن يخور على القرآن عجلهمو جهرأ، ويخفي أذان، أو تلاوات
ماكل من طلب العلياء أدركها ووافقت سعيه فيها سعادات (٢)

هذا وقد كان الملك الكامل حريصاً على تسجيل هذه المعركة في النصر، حتى تضم إلى
هذه المعارك الخالدة في تاريخ هذه الحروب الطويلة . قال صاحب النجوم الزاهرة : وأما
الفرنج ... فلما عاينوا الهلاك، أرسلوا إلى الملك الكامل، يطلبون الصلح، والرهائن،
ويسلبون دمياط، فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا
برقابهم ... وجاء ملوكهم إلى الكامل ... فالتقاهم، وأنعم عليهم، وضرب لهم الخيام، ووصل
المعظم والأشرف في تلك الحال، إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلساً عظيماً،
في خيمة كبيرة عالية، وقد مد سباطاً عظيماً، وأحضر ملوك الفرنج، والخيالة، ووقف المعظم،
والأشرف، والملوك في خدمته، وقام الحلى الشاعر، رحمه الله تعالى، فأنشد :

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٩ . (٢) ديوان ابن النبيه ص ٥٦ .

هنيئنا ، فإن السعد راح مخلصا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
 حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا مينا ، وإنعاما ، وعزا مؤيدا
 بهل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشر بالظلم أسودا
 ولما طغى البحر الخضم بأهله الطفاة وأضحى بالمسراكب مزبدا
 أقام لهذا الدين من سل سيفه صقيلا ، كما سل الحسام مجردا
 فلم ينج إلا كل شلو مجدل ثوى منهم ، أو من تراه مقبدا
 ونادى لسان الكون في الأرض رافعا عقيرته في الخافقين ، ومنشدا :
 أعباد عيسى ، إن عيسى ، وحزبه وموسى جميعاً يخدمون محمدا

قلت : صرح للشاعر فيما قصد من التورية في المعظم عيسى والأشرف موسى ، لما وقفنا في خدمة الكامل محمد (١) . وكان المعظم عيسى والأشرف موسى حريصين من ناحيتهما كذلك على أن يسجلا دورهما في هذه المعركة . قيل : إنه لما رحل الفرنج إلى بلادهم ، جلس الكامل يقصره في المنصورة ، وبين يديه أخواه : المعظم عيسى ، والأشرف موسى ، وغيرهما من أهله ، وخواصه ، فأمر الملك الأشرف جاريته ، فغنت على عودها :

ولما طغى فرعون عكا وقومه وجاء إلى مصر ليفسد في الأرض
 أتى نحوهم موسى ، وفي يده العصا فأغرقهم في السيم بعضاً على بعض
 فطرب الأشرف ، ثم أمر الكامل جاريته ، فأخذت العود وغنت
 أيا أهل دين الكفر ، قوموا ، لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا
 أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه وموسى جميعاً ينصران محمدا
 فأعجب ذلك الملك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار (٢) .

ولا بد أن يكون كلا الملكين قد أعد جاريته لتغنى ، بما يرفع من شأنه ، وبما يسجل بلاءه في هذه المعركة . وقد نهض شعراؤهم بهذه المهمة وأشبعوا رغبتهم فيها (٣) .

وقد هوجمت دمياط قبل ذلك في عهد صلاح الدين ، ورجع الفرنج خائبين عنها ، ووصف المعركة فتيان الشاغوري ، إذ قال :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا وليس له من كثرة القوم ساحل
 يزيد عن الأحصاء والعبد جمعهم ألوف ألوف خيلهم والرواحل

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤١ . (٢) خطط للفريرى ١ : ٣٧٣ .

(٣) راجع ديوان ابن عتير ص ١٤٥٩ و ٢٩١٩ ، وديوان أيدمر ص ١٣ ، وديوان ابن التتية ص ٦٨ و ٦٩ والبلوك ١ : ٢٠٩ ومايلها ، والنجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٢ و ٢٤٣ وذيل الروضتين ص ١٢٩ .

رأوا دونهم أسـداً، بأيديهم القنا وييضاً رفاقاً ، أحكمتها الضياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب ومن دونها سد من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم إذ ذاك فتحتها تخاف ، فأم الملك والروم . هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة كأنهم ذلاً نعام جوافل
وما ملوا أن يلحقوا ببلادهم لتعصمهم بما رأوه المعازل^(١)

كما هوجت دمياط ، واستولى عليها الفرنج في عهد الصالح أيوب بن الملك الكامل، وتقدم الفرنج يزيدون الاستيلاء على مصر كلها، ولهكنهم هزموا في المكان الذي هزموا فيه أول مرة ، لدى المنصورة ، غير أن هذه المعركة الثانية لم تجد من عناية الأدب ما لقيته المعركة الأولى ، وربما كان مرجع ذلك إلى ما حدث في المعركة وبعدها : من اضطرابات ، فقد مات الصالح في أثناءها ، ولم يبق بماليكه على ابنه المعظم توران شاه ، وجلس على العرش شجرة الدر ، من غير سابقة عهد بأن تجلس امرأة على العرش ، فكان ذلك الاضطراب سبباً في الانصراف إليه ، دون العناية بالتغنى بالمعركة ، وتمجيد أبطالها .

أما معركة عكا فكانت آخر المعارك التي دارت بين المسلمين والفرنج ، ألقى بعدها الصليبيون في البحر ، وعادت البلاد كلها إلى الإسلام ، كما كانت قبل أن يغزوها العدو ، وكان بطل هذه المعركة الأشرف خليل بن قلاوون، أعد العدة لهذه المعركة ، وهياً لها جيشاً لجباً ، كي يستأصل شأفة الفرنج به ، فلا جرم كان لهذه المعركة صداها في الأدب العربي ، وأن يكثر الشعراء من الحديث عن هذا الفتح، وأطال بعضهم إطالة تناسب قيمة هذا الفتح العظيم ، فمن ذلك ما أنشأه شهاب الدين محمود ، وقد بدأ قصيدته شاكرًا لله ، متحدثاً عن تحقق أمل ، كان المسلمون يعدونه بعيد التحقيق ، عسيراً لا ينال :

الحمد لله زالت^(٢) دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت رؤياه في النوم لاستحييت من الطلب
ما بعد عكا ، وقد هدت قواعدها في البحر ، للشرك عند البر من أرب
عقبه ذهب أيدى الخطوب بها دهرأ ، وشدت عليها كف مغتصب

(١) الروضتين ١ . ١٨٢ . (٢) هذه رواية نهاية الأرب ، وفي نوات الوفيات : ذات .

لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت
شيم يصف مناعة عكا قائلا :

كانت تخيلها آمالنا ، فـ ترى
سوران : بر ، وبحر ، حول ساحتها
مصفتح بصفاح ، حولها أكم
مثل الغنائم ، تهدى من صواعقها
كأنه - اكل برج حوله فـ ملك
ففاجأتها جنود الله يقدمها
كم رامها ورماها قـ له ملك
أن التفكير فيها أعجب العجب
دارا ، وأدناها أنأى من القطب
من الرماح ، وأبراج من اليلب
بالنبيل أضعاف ما يهدى من السحب
من المجانيق ، يرمى الأرض بالشهب
غضبنا لله ، لا للملك والنشب
جم الجيوش فلم يظفر ، ولم يصب

ويمضى الشاعر مجدداً الأشرف خليلاً وجيشه الباسل ، فيقول :

ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم
لم يله ملكه ، بل فى أوائـ له
فأصبحت ، وهى فى بحر من ماءـ له
جيش من الترك ترك الحرب عندهم
تسمنوها ، فلم يترك تسمنها
يدعون رب الورى ، سبحانه ، بأب
نال الذى لم ينله الناس فى الحقب
ما بين مضطرم ناراً ومضطرب
عار ، وراحتهم ضرب من الوصب
فى ذلك الأفق برجا غير منقلب

ويستمر بعدئذ فى وصف آثار هذا الفتح ، فيقول .

يا يوم عكا ، لقد أنسيت ما سبقت
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك ، فما
كانت تمنى بك الأيام عن أمم
أغضبت عباد عيسى ، إذ أبدتهم
وأطلع الله جيش النصر ، فابتدرت
وأشرف المصطفى الهادى البشير على
فقر عيننا بهـ هذا الفتح ، وابتهجت
وسار فى الأرض سير الريح سمعته
به الفتوح ، وما قد خط فى الكتب
عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
والحد لله ، شاهدناك عن كـ
الله ، أى رضا فى ذلك الغضب
طلائع النصر بين السمر والغضب
ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
بفتححه الكعبة الغراء فى الحجب
فالبر فى طرب ، والبحر فى حرب

في هذه الآيات يتحدث عن يوم فتح عكا وكيف أنسى بعظمة نتائجه وضخامة هدفه ، ما سبقه من فتوح ، وما حفظه التاريخ من أيام نصر مجيدة ، ويبين أن الشعر والخطب لا يستطيعان الوفاء بالحديث عن مجد هذا اليوم الخالد ، وكيف لا ؟ وقد كان أهل الأعصر الأولى يرقبونه ، ويرجونه ، ولكن الله قد ادخره لهذا العصر السعيد . وقد أغضب هذا اليوم الفرنج بإبادتهم ، وبهذا الغضب رضى الله أى رضا ، وسر الرسول الكريم ، وقرت عينه ، وابتهجت الكعبة الغراء طربا في حجبتها ، ومضى النبأ السار يحوب أنحاء الأرض ، في البر والبحر .

وانتقل بعدئذ إلى وصف المعركة ، وما أبلاه المسلمون فيها ، وما أصيب به الصليبيون ، فقال ما زجا ذلك بمدح الأشرف :

وأخاضت البيض في بحر الدماء ، وما	أبدت من البيض إلا ساق محتضب
وخاض زرق القنا في زرق أعينهم	كأنها شطن تهوى إلى قلب
توقدت ، وهى تروى في نحورهم	فزادها الرى في الإشراف واللب
أجرت إلى البحر بحراً من دماهم	فراح كالراح ، إذ غرقاه كالحب
وذاب من حرها عنهم حديدهم	فقيدتهم بها ذعرأيد الرهب
كم أبرزت بطلا كالطود ، قد بطلت	حواسه ، فغدا كالمزل الخرب
كأنه ، وسنان الرمح يطلبه	برج هوى ، ووراه كوكب الذنب
بشراك يا ملك الدنيا ، لقد شرفت	بك الممالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا ، وقد لانت عريكتها	لديك شيء تلاقيه على لغب
فانهض إلى الأرض ، فالدنيا بأجمعها	مدت إليك نواصيها ، بلا نصب
كم قد دعت ، وهى في أسر العدا زمنا	صيد الملوك فلم تسمع ، ولم تجب
أدركت ثأر صلاح الدين ، إذ غضبت	منه لسر طواه الله في اللقب
وجتتها بجيوش ، كالسيول على	أمثالها ، بين آجام من القضب
وحطتها بالمجانيق التى وقفت	لزام جدرانها في ججفل لجب
مرفوعة نصبوا أضعافها ، فغدا	للكسر والحطم منها كل منتصب
ورضتها بنقوب ذلت شما	منها ، وأبدت محياها بلا نقب

وغنت البيض في الأعناق، فارتقصت
 وخلقت بالدم الأسوار، فابتهجت
 ظنوا بروج البيوت الشم معقلهم
 فأحرزتهم، ولكن للسيوف، لكي
 وجالت النار في أرجائها، وعلت
 وأفلت البحر منهم من يخبر من
 وأرجها لعباً ممن باللعب
 طيباً، ولولا دماء القوم لم تطب
 فاستعقلتهم، ولم تطلق، ولم تهب
 لا يلتجئ أحد منهم إلى هرب
 فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
 يلقاه من قومه بالويل والحرب
 ويختم القصيدة بمدح الأشرف، والدعاء له، إذ يقول :

علا بك الملك، حتى إن خيمته على الثريا غدت بمدودة الطنب
 فلا برحت عزيز النصر، مبتهجاً بكل فتح مبین المنح مرتقب^(١)
 ولبدر الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة لامية مطولة، لما فتح الأشرف خليل عكا،
 ألم فيها بهذه الخواطر التي أملت بالشهاب محمود، وبدأها بقوله .

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل وفتشأو ملوك الأعصر الأول^(٢)
 ويطول بي القول إذا أنا عرضت هذه القصيدة التي أشادت بالأشرف خليل، وصفاته
 الدينية والحربية، وبعكا، وما تمتاز به من حصانة ومنعه، وبالجيش الذي حارب عكا،
 حتى استسلمت، وتغننت بما أصيب به الفرنج : من ذل، وانهيار، وختم القصيدة كذلك
 بالدعاء للأشرف .

وأنشد غير الشهاب وبدر الدين من الشعراء قصائد ومقطوعات في فتح عكا، التي ختم
 بفتحها عصر الحروب الصليبية . وهكذا سجل الشعر هذه المعارك الكبرى التي كان لها أثرها
 في سير الحروب الصليبية، واتجاهاتها . وينبغي أن يوجه النظر إلى أن الأدب لم يقف عند
 حد المعارك الكبرى، يشيد بها، ويمجد أبطالها، ولكنه كان يعد كل نصر على العدو رجحاً،
 وكل معركة يظفر فيها تقدماً وفوزاً، فيشيد بها، ويتفاءل بالنجح فيها، ويعد ذلك فاتحة
 خير، ومقدم سعادة . وبهذا يستطيع المؤرخ لهذه الحروب أن يجد في الشعر صدق ما يتحدث
 عنه، من معارك في نفوس المسلمين يومئذ، وإن كنت ألحظ أن الشعر الذي قيل في معارك

(١) نهاية الأرب ٢٩ : ٥٧، وقوات الرميات ١ : ١٥٣ .

(٢) نهاية الأرب ٢٩ : ٥٦ .

القرن الأول من قرنى الحروب الصليبية أغزر وأقوى مما قيل فى قرنهما الثانى ، وأن ما قيل فى معارك عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، أكثر مما قيل فى غيرها ، وبخاصة ما أنشئ فى معارك صلاح الدين ، ولعل عصره أعظم العصور التى اشتبك فيها المسلمون بالفرنج ، وكانت الحروب التى دارت فيه حروب الجبابة ، وبموته فقدت الحروب الصليبية ما كان لها من شدة وقوة ، فقد أراد فى مدى عمره القصير أن يحطم ما بناه الفرنج فى عقود من السنين طوال .

لم يقف الأدب عند حد تسجيل المعارك الكبرى ، كما ذكرنا ، بل رأيناه يرصد أحداثها إلى درجة أنه أصبح سجلا ، يرصد خطوات هذه الحروب ، وصار من المستطاع اتخاذه مفسراً لأحداث التاريخ ، فقد اتخذ حقائقه ميداناً جال فيه ، فسجلها ، وسجل شعور الناس بها .

٥ — أسف وحسرة

وكان كثير من الأحداث الجارية فى هذه الحروب يثير الألم ، ويبعث الحسرة والندامة ، فهذا جسم الإسلام يمزق ، ويقطع العدو منه قطعاً ، وهذه بلاده تحطم ، وتخرب ، ويدبح أهلها ، فى غير رحمة ، ولا إشفاق ، وهؤلاء ملوك المسلمين يتنازعون أمرهم بينهم ، كل يجذب ثياب صاحبه ، بل لقد اضطر المسلمون أنفسهم إلى أن يخربوا بعض البلاد بأيديهم ، كي لا تقع فريسة فى يد العدو ، يتقوى بها ويتحصن ، كما كان ضعف المسلمين وتفرقهم مما بعث الأسى فى النفوس ، وأثار كوامن الأحزان ، وقد انطبع كثير من الأدب بهذا اللون ، من الأسف ، الذى كان يتجاوب فى نفوس المسلمين ، لدى هذه الأحداث ، فهذه معرة التعمان لما خربها الفرنج وقف الشاعر يبكىها قائلاً :

هذه صاح بلدة قد قضى الله عليها ، كما ترى ، بالخراب
وقف العيس وقفة ، وابك من كان بها : من شيوخها ، والشباب
واعتبر إن دخلت يوماً إليها فهي كانت منازل الاحباب (١)
ولما سقطت دمايط فى يد العدو بكاهما ابن الخيمى فى قوله :

ولقد بكيت لشجر دمياط دما ووجدت وجد الفاقد المحزون
أرض العبادة ، والزهادة ، والتقى وتلاوة القرآن ، والتأذين
وبثت ، وبوئها العدو ، فأهلها شهداء بين الطعن والطاعون (١)
وخاف المعظم عيسى بعد سقوط دمياط أن يذهب الفرنج إلى القدس ، ويملكوه ، فضى
إليه ، ونحرب المواضع التي يستطيع الفرنج أن يتقووا بالتحصن فيها ، وكان لذلك وقعه الأليم
في نفوس المسلمين ، ورثاه شعراؤهم ، وبكوا عليه ، فمن رثاه شهاب الدين أبو يوسف بن المجاور ،
إذ قال :

أعني ، لا ترقى من العبرات	صلى بالباكال آصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطغى فيضها	توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب ، أسعرت نار وجدك ، كلما	خبث ، يادكار يبعث الحشرات
ويا فم ، ببح بالشجو منك ، لعله	يروح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره	على موطن الإخبات والصلوات
على سلم المعراج ، والصخرة التي	تفاخر ما في الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التي اتجهت لها	صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمر ، وأكرم عامر	وأشرف مبنى لخير بناء
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله	الرفيع العماد ، العلى الشرفات
عفا ، بعد ما قد كان للخير موسما	والبر ، والإحسان ، والقربات
يوافى إليه كل أشعث ، قانت	لمولاه ، بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها	توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين ، وحزنهم	فن بين نواح وبين بكاء
لتبك على القدس البلاد بأسرها	وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة ، فهي أختها	وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة	وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد شفتوا عنها جماعة أهلها	وكل اجتماع مؤذن بشتات

وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها وقد أخذوا صوتاً ، وصيتاً أثاره
لهم عظم ما والوا من الغزوات فبنى بنسواح ينحن على الذى
شجاني بأصوات لهن شجاة يرددن بيتاً للخرزاعى قاله
يؤبن فيه خيرة الخيرات : مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصات (١)

كما رثاه قاضى الطور بمقطوعة باكية (٢) .

وقد عم الحزن والأسف قلوب المسلمين ، عندما أعطى الملك الكامل بيت المقدس
الفرنج ، واشتد تشنيع الملك الناصر داود على عمه الكامل ، فنفرت قلوب الرعية ، وجلس
ابن الجوزى بجامع دمشق ، وأطال القول فى شناعة هذا الفعل ، وعلا صراخ الناس ،
واشتد بكاءؤهم (٣) .

وفى شعر الناصر داود أسف وأسى على ما أصاب الإسلام : من خلل ، وما ناله : من
ضعف . أرسل مرة إلى عز الدين بن عبد السلام مقطوعة ، يتمنى فيها أن لو لم يكن قد خلق ،
أو لو لم يتطاول به العمر ، حتى يرى ما نزل بالإسلام من خلل ، ونحن ، إذ يقول .

أيا ليت أمى أيم طول عمرها فلم يقضها ربى لمولى ولا بعلى
ويا ليتة لما قضاه لسيّد لبيب أريب طيب القرع والأصل
قضاه من اللاتى خلقن عواقرأ فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بى حاملا أصيبت بماضت عليه من الحمل
ويا ليتنى لما ولدت وأصبحت تشد إلى الشدقيات بالرحل
لحقت بأسلافي ، فكنت ضجيعهم ولم أر فى الإسلام ما فيه من خل (٤)

ويشف أدب هذا العصر فى بعض الأحيان عن الأسى والحسرة ، عندما يوازن بين جند
الإسلام وجند الصليبيين ، وربما اتخذ من هذه الموازنة ذريعة لاستنهاض همم المسلمين وحثهم
على الجهاد ، والصبر . والأدب العربى يسجل حينئذ إعجابه بتضحية الفرنج وإقدامهم ، وما

(١) الروضتين ٢ : ٢٠٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٥ ، وذيل الروضتين ص ١١٦ .

(٣) السلوك ١ : ٢٣٣ .

(٤) المختصر ٣ : ١٩٦ .

في جند المسلمين من تخاذل وتفرق ، كما تجد ذلك من رسالة كتبت إلى بغداد ، ومنها : « قد إلى الإسلام منهم يقوم قد استطابوا الموت ، واستجابوا الصلوات ، وفارقوا المحبوبين : الأوطان ، والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل ، والديار ، وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامثالاً لأمر مركيسهم ، وغيره لمتعبدهم ، وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرقا على قامتهم . لا يطلبون مع شدة الإملاق مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبي تساقط الفراش ، ويقتحمون الردى متدريعين الصبر مثبتى الجأش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات . . . وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات ، يحملن إلى الطعان الطوارق . والقنطاريات ، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدة منهن بين القتلى ، وما عرفن حتى سلبن ، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعهم ومشاربهم ، وقال : من لا يتوجه إلى القدس مستخلصاً ، فهو عندى محرم : لا منسكح له ، ولا مطعم ، فلاجل هذا يتهافون على الورد ، ويتهاالكون على يومهم الموعود . . . فهذا شرح هؤلاء ، وتعصبهم في ضلالتهم ، ولجأجتهم في غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام : فإنهم يتضجرون ، ولا يصبرون ، بل يتفللون ، ولا يجتمعون ، ويتسللون ، ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة ^(١) . . . ، كما شكك الأدب مرة أخرى من تفرق كلمة الإسلام حيناً ^(٢) ، ومن أن طائفة من المسلمين تناصر العدو وتتفق معه ^(٣) . وهكذا عبر الأدب عما كان يشعر به مخلصو المسلمين : من أذى ، وأسف ، لرؤية هؤلاء الغزاة يوطدون أقدامهم فيما اغتصبوه ، من أرض ، وتتضافر جموعهم ، برغم بعد الدار ، وفراق الأهل ، وكان الأدب محققاً في ألمه وشكواه ، فلم يكن المسلمون في وضع يقبضون عليه ، وفي كل حين تتجدد عليهم غارات العدو الدخيل ، فتتمزق أوصال بلادهم ، ويقاسون أشد ألوان العذاب ، ولا يجدون من ملوك الإسلام تضامراً يرد بغى العدو وبطشه ، بل مضوا يغنون بمصالحهم الخاصة ، ويكيد بعضهم لبعض ، وينازع أخاه ما تحت يده ، ويتفق بعضهم مع العدو على أخيه ، ولو أن الجهود قد تضافرت ، واتفقت كلمة المسلمين على التضحية والجهاد ، واضعين نصب أعينهم أولاً وقبل

(٢) المرجع السابق ١ : ٤٢ .

(١) الروشتين ٢ : ١٦١

(٣) المرجع السابق ٢ : ٤٦

كل شيء إنقاذ البلاد — ما احتاج إخراج العدو إلى قرنين من الزمان، وبما هو جدير بالذكر أن هذا الأدب الشاكي الباكي له أكبر نصيب من الصدق ، لأنه يستوحى الشعور وحده ، ولم يصدر إلا عن إحساس عميق ، وانفعال بالغ ، ولا تدفع إليه رغبة ولا رهبة .

٦ - خوف وذعر

وقل هذا اللون في أدب الحروب الصليبية ، فبرغم قسوة الغارات الصليبية ، وكثرتها ، لم أجد أدبا يعبر عن الفزع والرعب الذي ساد البلاد وملأ القلوب . ويظهر لي أن علة ذلك هو أن النفس غالباً تسجل إحساسها بعد أن تهدأ ، فإذا ذهب الخوف عن النفس . انصرفت هذه الطاقة النفسية تلتبس التغلب على هذا الذعر ، بالابتهاال إلى الله حيناً ، والانصراف إلى التجمع للانتصار عليه ، ولهذا نرى الرسائل التي تتحدث عن مقدم العدو ، بعد أن تتحدث عن عنفه ، وقسوته ، وما ينتظر أن يكون منه من ظلم وإرهاق — تدعو إلى اجتماع الكلمة ، وتضافر القوى ، كي يرد العدو المعتدى على عقبيه، ومن الشعر الذي دفع فيه الخوف إلى الابتهاال قول عمارة النيني ، حين أرجف الناس بقصد الفرنج أرض مصر :

يارب ، إني أرى مصراً قد انتبهت لها عيون الأعادى بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عوناً نستجير به من فتنة يتلظى جمر وقنتها (١)

ولا يدل الأدب على أن أخبار إمداد العدو كانت تلتقي بالخوف والذعر ، بل كادت تستقبل بالهدوء والتريث ، وأحياناً بالتهديد والوعيد . فمن ذلك ما قاله أبو الفضل الجلياني ، وقد ورد الخبر بخروج ملك الألمان لحرب مقدسة صليبية ، بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس :

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة قد أقسموا بذراع الرب تدخله
أما رأيت ابن أيوب اسـتـقل بما يعي الزمان وأهليه تحمله

هاج الفرنج وقد خاروا لفتكته
لما سبي القدس قالوا : كيف تركها
فكم مليك لهم شق البحار سرى
وكم ترحل منهم فيلق بفلا
استصرخوا الأهل ، والعدوى تمزقهم
سيف أمام فلسطين ، يرى أممها
كم قد أعدوا ، وكم قد فل جمعهم
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في
فاستقروا كل مرهوب تغلغله
والرب في حفرة منها تمثله
لينصر القبر ، والأقدار تخذله
إلى الصوامع ألقاه ترحله
واستكثروا المال ، والهيجا تنفله
خاف البحار لقد أمها (١) صيقله
من غير ضرب ، ولا طعن يزيله
جيش العدو فيسببهم تخيله (٢)

ولا ريب أن شخصية صلاح الدين هي التي أوحى إلى الشاعر بهذه الثقة وذلك الاطمئنان ،
برغم الموقف الذي يثير الرهبة والخوف ، كما كانت هذه الشخصية سبب اطمئنان الرشيد بن
النايلسى ، عندما قصد الفرج بيت المقدس ، يريدون استخلاصه ثانية من يد المسلمين ، فقال :

ويح الفرنجة ، بل ويل امهم ، أو ما
فكم نثرتهم ضربا إذا انتظموا
كم قد سقيتهم ذلا ، فلا عجب
إن يموك فلا بدع لجهلهم
فحام عن حوطة البيت المقدس ، لا
هو الشريك ، وقد ناداك معتصما
وسوف تستغفر الأيام هفوتها
فيهم لبيب على العـلات يعتبر
وكم نظمتمهم طعنا ، إذا انتشروا
إن عربدوا سفها ، فالقوم قدسكروا
تسعى إلى الأسد في غاباتها الحر
خوف ، وحاشاك من خوف ، ولا ضرر
فما على مجده من بعدها حذر
وتحصد الفئة الأوغاد ما بذروا (٣)

فيرغم أخذ العدو لعكا ، واضطرار صلاح الدين إلى تخريب عسقلان ، لا نجد في الأدب
ذعرا ، ولا يحدثنا عن قلق ولا خوف ، بل إن التهديد الذي كان يخيفهم به ملوك الفرنج ، سجل
الأدب مقابلته بالثبات ، والثقة الرزينة . كتب لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد الحملة
الصليبية إلى مصر رسالة إلى الصالح أيوب ، هذا نصها :

(١) أمهى الجديدة : أحدها ، وسقاها الماء . (٢) الروضتين ٢ : ١٥١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٤ .

« أما بعد ، فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية ، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس ، وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل الرجال ، ونستأثر بالبنات والصبيان ، وتخلى منهم الديار . وأنا قد أبدبت لك الكفاية ، وبذلت لك النصيحة إلى الغاية والنهاية ، فلو حلفت لى بكل الايمان ، وأدخلت على القسس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصليبان ، لكنت واصلا إليك ، وقاتلك فى أعز البقاع عليك ، فيما أن تكون البلاد لى ، فياهدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلاد لك ، والغلبة على ، فيدك اليمنى ممتدة إلى ، وقد عرفتك وعرفت ، ما قلت لك ، وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون . إليك بأسيا فى القضاء (١) . »

فكتب إليه بهاء الدين جواب هذه الرسالة قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم . وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخربنا ديار الأواخر منكم والأرائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا ، وآخره عليك ، فهناك تسيء الظنون ، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) . فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل : (أنى أمر الله فلا تستعجلوه) ، وتكون أيضا على آخر سورة ص : (ولتعلن نبأه بعد حين) ، ونعود إلى قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين) وقول الحكماء : (إن الباغى له مصرع) وبغيتك يصرك ، وإلى البلاء يسلمك ، والسلام (٢) . »

وبما يلحظ أن رسالة ملك فرنسا كانت ترمى إلى تحطيم القوة المعنوية فى نفوس المسلمين ، وبث الرعب والخوف فى قلوبهم ، بوضع صورة شوهاء لمسلمى الأندلس أمام أعين المصريين ، تحذر هؤلاء مصيراً مشئوماً كصير أولئك ، وبوصف ضخامة الجيش الغازى الذى يملأ السهل والجبل ، وبرغم أن هذه الرسالة أثارت الملك الصالح ، حتى بكى ، كما يقول مؤرخوه ، فإنه لم

(١) خطط الميرزى ١ : ٣٥٤ . (٢) المرجع السابق نفسه .

يهن ، وقد كان بكاؤه لهذا المرض الذى أقعده ، فلم يستطع حرا كا ، وقد كان بوده أن لو شارك بسيفه فى ميدان القتال ، ولكنه كان كبير الأمل فى النصر . ومع ضخامة أمله كان ينبوع قوته اعتماده على ربه الذى يهزم الفئة الكثيرة بالطائفة القليلة . وكما وضع كتاب ملك فرنسا أمام الصالح صورة مسلمى الأندلس ، وضع الصالح أمام ملك فرنسا صورة الممارك التى هزم فيها الفرنج بالشام ، ودمرت حصونهم ، وفتحت بلادهم ، ويستشهد له بأى القرآن ، ليؤكد له صلابة إيمانه ، وقوة يقينه ، وليوحى إليه بأن الكتاب الذى يعتقد صحته يكفل له النصر ، ويضمن له النجاح ، وهو لذلك يتقدم إلى المعركة ثابت الجنان ، مطمئن القلب ، كله ثقة ويقين ، ولا ريب أن ذلك يضعف من القوى المعنوية للعدو ، إذ يرى نفسه أمام خصم عنيد ، واثق بنفسه .

خلا الأدب العربى إذاً من روح الخوف والفرع ، أو كاد ، وإذا كان بعضه قد صور المأسى التى قام بها الفرنج يومئذ ، فلم يكن ذلك لتحطيم الروح المعنوية ، ولا لبث الفشل فى صفوف المسلمين ، ولكن لإثارة الحمية ، وتجميع القوى ، ولم شعث الجهود المتفرقة ، وقد أدى الأدب واجبه فى هذه السبيل ، فعمل بقدر ما يستطيع على حفظ الروح المعنوية قوية عالية ، وتلك إحدى غايات الأدب الاجتماعية .

٧ - تهديد ووعيد

نستطيع أن نلمس فى الأدب صورة لما كان يشعر به الفريقان المتحاربان : من بأس ، وقوة ، يعتداف بها ، ويزهوان بما معهما منها . وشعورهما بالقوة هو الذى يوحى إليهما بالتهديد ، وإرسال الوعيد ، وكان كلا الفريقين يتخذ منه وسيلة لتحطيم القوة المعنوية لدى خصمه ، وكان التهديد فى القرن الأول من قرنى الحروب الصليبية ، والنصف الأول من القرن الثانى ، يأتى من قبل الصليبيين ، وكان وعيدهم مليئاً بالطعن والادعاء ، يحيط به الكبرياء والجبروت ، وقد رأينا شيئاً من ذلك فى الكتاب الذى أرسله ملك الفرنج مع رسوله إلى الملك الكامل ، يقول له : الملك يقول لك : كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ، ولا أجيء إليهم ، والآن قد كنتم بذلتهم لنا نبي فى زمن حصار دمياط الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية ، وما فعلنا ، وقد فعل الله لكم ما فعل : من ظفركم ، وإعادتها إليكم . ومن نائبي ؟ إن هو إلا أقل غلمانى ، فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتوه له^(١) .

(١) السلوك ١ : ٢٢٨ .

ولكن يظهر أنه بعد معركة المنصورة الثانية التي انتهت بفوز المصريين سنة ٦٤٨ هـ، وتحطيم جيش الصليبيين تحطياً كاملاً، وأسر ملكه وأمرائه، وحبسهم في بيت ابن لقمان — خضدت شوكة هؤلاء الفرنج، وأفل نجمهم في بلاد الشام، وأصبح المسلمون ينظرون إليهم نظرتهم إلى غاصب موقوت الأجل، ضعيف المنة، من المستطاع التغلب عليه في يسر وسهولة، فانتقل المسلمون إلى التهديد والوعيد. ويمتاز تهديد الأدب العربي بالسخرية والتهكم. يبدو ذلك في شعر ابن مطروح، وقد قيل: إن ملك فرنسا يتهاً لغزو مصر، بعد هزيمته لدى المنصورة، فقال الشاعر (١).

قل للفرنسي، إذا جئته	مقال صدق، من قتل فصيح:
آجرك الله على ما مضى:	من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرًا تبتغي أخذها	تحسب أن الزمرياً طبل ريح
فساقلك الحـين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت، وأصحابك أودعتهم	بقبح أفعالك، بطن الضريح
خمسون ألفاً، لا يرى منهم	إلا قتيل، أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباك بذا راضياً	فرب غبن قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهناً، إنه	أنصح من شق لكم، أو سطوح
وقل لهم، إن أضمرنا عودة	لأخذ ثأر، أو لقصد صحيح:
دار ابن لقمان على عهدها	والقيد باق، والطواشي صبيح (٢)

وهي قطعة مليئة بالتهكم والسخرية والتهديد معاً، فهو يدعو له الله أن يجزيه خير جزاء، عما أسدى: من قتل المشركين عبدة المسيح، يتهكم بسوء ما تعرض له من نتيجة، ما كان ينتظرها، حين قدم إلى مصر، ظاناً أنها قريبة المنال، سهلة الأخذ، ولم يكن يدري أن خاتمة ذلك قيد من حديد يمسكه، فلا يستطيع الانطلاق، فتضييق الدنيا في عهده، ولم يكن يعلم أنه سيعود منهزماً وحيداً، قد خلف أصحابه في القبور، تحت ثرى مصر، أما جيشه الضخم اللجب ذو الخمسين

(١) ديوان ابن مطروح ص ١٨١ . (٢) خادم كان موكلاً بالملك الأسير المقيد .

ألفا فلم يفلت منه أحد ، ومضى بين قتيل وأسير أنخن بالجراح ، والشاعر يدعو أن يعود الملك إلى حرب أخرى ، عسى أن يصيبه ما أصابه في الأولى ، فيستريح عيسى منهم ، ومن دعاوهم ، والبيتان الأخيران فيهما تهديد الواقع المطمئن الذي لا يخاف .
وقال آخر ، وألم بهذا المعنى أيضاً :

قل للفرنسيس : إن كلا	له من المسلمين شاكر
لأنه محسن إلينا	بقوده نحونا العساكر
ساق إلى مصر ما اقتنته	أمة عيسى من الذخائر
وأورد الجمع بحر حرب	مصدره بالمنون آخر
أوردهم أدهما خضما	وراجح الشر فهو خاسر
ورام باباهم أمورا	فأخلفت ظنه المقادر
وأذهل القوم هول حرب	تشخص من خوفه النواظر
لم تعم أبصارهم ، ولكن	قد عميت منهم البصائر
فإن يعد طالبا لشار	من أرض دمياط ، فليبادر
فذلك البحر تعرفوه	والسيف ماض ، والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب	لمثلها ، إنه لقادر
بحيث لم يبق للنصارى	من بعد كسر الصليب جابر
ويستريح المسيح منهم	من كل عالج وكل كافر ^(١)

وهي قطعة لا تقل في السخرية والتهكم والتهديد عن سابقتها ، وتكاد تنهج نهجها مما تجعلنا نرجح أن واحدة قد تأثرت بصاحبها .

أما أكبر سلطان مسلم تهكم بهم فهو الظاهر بيبرس ، الذي توجه إلى الفرنج بكل ما يملك من قوة ، راجياً أن يحطم قواهم ، ويستخلص البلاد من أيديهم ، وكان يشعر بقوته وضعفهم ، فيخاطبهم بلهجة القوى الوثائق^(٢) . وله رسائل كتب بها إلى ملوك الفرنج ، كلها وعيد وسخرية ، فله رسالة كتب بها إلى ملك قبرص يتوعده ، بعد أن تحطمت السفن المصرية على شواطئه .

(١) فوات الوفيات ١ : ٨٤ .

(٢) راجع السلوك ١ : ٤٨٣ وما يليها .

الجزيرة ، بعاصفة حطمتها ^(١) ، كلها تهكم وسخرية ، ورسائل إلى فرسان الاسبتار ^(٢) . ومن ذلك كتاب أرسله إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس ، بعد فتح أنطاكية سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) وفيه :

قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهام ، الأسد الضرغام : ييمند ، نخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأحد أنطاكية منه من البرنسية إلى القوموصية ^(٣) . ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عليه — ما كان من قصدنا طرابلس ، وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهدته بعد رحيلنا من إخراج العمار ، وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال ، واستخدمت الأولاد ، وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الأشجار ، ولم يترك إلا مايصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر ، وكيف نهبت لك ولرعيته الأموال والحرير ، والأولاد ، والمواشي ، وكيف استغنى الفقير ، وتأهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي .

هذا وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلت فزعا : على هذا الصوت . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود ، وكيف فارقنا بلادك ، وما بقيت ماشية ، إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية ، إلا وهي في ملكنا جارية ، ولا سارية ، إلا وهي من أيدي المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعتهك تلك المغاير التي هي في رموس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التي هي في التخوم محترقة ، وللعقول خارقة ، وكيف سقنا عنك ، ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذي عم ، كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء ، رابع عشر شعبان ، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان ، وفي حالة النزول

(١) الرسالة في الملوك ١ : ٩٤ هـ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩١ .

(٣) أي أنه بعد أن أخذت أنطاكية منه صار يدعى القومص وهو معرب اللفظ اللاتيني (Comes) وفي الفرنسية conte بدل أن كان يدعى وهو مالك أنطاكية بالبرنس ، معرب كلمة prince في الفرنسية والإنجليزية .

خرجت عساكر المبارزة ، فكسروا ، وتناصروا ، فأنصروا ، وأسر من بينهم (كنداسطبل)^(١) فسأل مراجعة أصحابك ، فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك ، وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا ، فرأيتهم على رأيك : من إتلاف النفوس بالعرض الفاسد ، وأن رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحد ، فلما رأيتهم قد فات فيهم القوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم ، وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأول في الإنذار والآخر ، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، فبقي بعض ساعة مرشان (المرشان)^(٢) وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان^(٣) وجاءهم الموت من كل مكان .

وفتحناها بالسيف ، في الساعة الرابعة من يوم السبت ، رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها ، والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا ، فمات بقى أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنها .

فلو رأيت خيالك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار ، ودمايتك وكل أربع منهن تباع فتشتري من مالك بدينار ، ولو رأيت كنائسك ، وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت ، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس ، والمذبح وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشباس ، والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء المملكة ، قد دخلوا في المملكة ، ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق ، والقتلى ينار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت ، وكنيسة بولص ، وكنيسة القسيان ، وقد ذلت وزالت ، لكنت تقول : ياليتني كنت ترابا ، وياليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفى تلك النيران بما عبرتك ، ولو رأيت مغانيك ، وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الله الذي أعطاك أنطاكية منك استرجعها ، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها ، ومن الأرض اقتلعها .

(١) مررب اللفظ اللاتيني المركب (comes stabuli) ومعناه في مصطلح المصور الوسطى الأوربية : حاكم القلعة وحارسها ، ويقابله في مصطلح الدول الإسلامية لفظا (دردار) و (مستعطف) هامش السلوك ١ : ٩٦٧ .

(٢) مررب لفظ (mareschai) في الفرنسية القديمة ، ومعناه في مصطلح التاريخ الأوربي في المصور الوسطى : « منظم الحفلات والمجالس » هامش السلوك ١ : ٩٦٧ .

(٣) القسطلان مررب اللفظ اللاتيني (castellanus) وهو حارس القصر هامش السلوك ١ : ٩٦٧ .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من «يون الإسلام» ودم ديركوش،
وشقيف تليس، وشقيف كفردبين. وجميع ما كان في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أصحابك
من الصباصى، وفرقناهم في الداني والقامى.

وكتابتنا هذا يتضمن البشرى لك، بما وهبك الله من السلامة، وطول العمر، بكونك
لم يكن لك في أنطاكية، في هذه المرة إقامة، وكونك ما كنت بها، فتكون إما قتيلا، وإما
أسيرا، وإما جريحاً، وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحى إذا شاهد الأموات،
ولعل الله ما أحرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات، ولما لم يسلم أحد يخبرك
بما جرى خبرناك، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك، وهلاك ما سواها،
بأشركناك بهذه المفاوضة وبشرناك، لتحقيق الأمر على ما جرى.

وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا
تسأل غيرها مخبراً (١).

والرسالة طويلة كتبت بأسلوب ينم عن البهجة بما أحرزه الظاهر ببيرس من نصر، وعن
الشعور بقوة الظاهر، حتى لا يبالى بإثارة عدوه، ودفعه إلى القتال، وعن تهكم قاس مر
بالأمير ونائبه، ووعيد، وتهديد بأنه سيعود إليه في القريب، إن لم ينفى إلى الطاعة وظلالها.
وكتابه الثانى الذى أرسله إلى بوهمند أيضاً بعد فتح بلدة عكار سنة ٦٦٩ هـ أصرح من هذا
تهديداً، وأشد وعيداً، وقد دعا في أول هذه الرسالة إلى أن ينظر لنفسه، ويفكر في عاقبة
أمره من أمسه، حتى لا يندم حين لا ينفعه ندم. وحدثه فيها عما لديه: من قوة حربية،
يستطيع بها أن ينقل المنجنىقات إلى جبال تستصعبها الطيور، لاختيار الأوكار، وينصبها على
أمكنة ينزل النمل إذا مشى عليها، وأخبره أنه أطلق بعض رجاله من الأسر ليحدثوا القومص
بما جرى، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى.... ويفهموك أنه ما بقى
من حياتكم إلا القليل، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل، فنعرف كنائسك وأسوارك، أن
المنجنىقات تسل علىها، إلى حين الاجتماع عن قريب، ونعلم أجساد فرسانك أن السيوف
تقول: إنها عن الضيافة لا تغيب، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعاً... يعلم القومص هذه

(١) السلوك ١: ٩٦٦. وفيه: ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه، ولم يبلغه خبر أنطاكية
إلا من هذا الكتاب.

الجملة ويعمل بها ، وإلا فيجهز مراكبه ، ومراكب أصحابه ، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده^(١) . وهذا أقصى ما وصل إليه التهديد عند بيبرس ، وليس وراءه من تهديد . وتستطيع بذلك أن توازن بين ما وصل إليه المسلمون : من شعور بالقوة في عهد بيبرس ، وبين ما كانوا عليه من شعور بالضعف يوم أرسل شاور إلى مري يجب إليه الصلح ، ويزينه له ، ويفريه بمال يقدمه إليه ، يحصل له عفوا^(٢) . وفرح شاور عند ما قبل الملك عقد الهدنة ، على أن يقدم إليه ذليلا ألفي ألف دينار ، كما قيل ، وعجل له منها مائة ألف دينار .

٨ - تهنئة وبشرى وفرح

١ - كان الأدب العربي يرقب عن كثب أحداث الحروب الصليبية ، وأحوال رجالها ، فيحيطهم بخير ما يملك من شعر ونثر ، إذا ظفروا وانتصروا . يستقبلهم فرحا ، ويهتفهم ، إذا عادوا ناجحين ، أو إذا خرجوا من شدة ، أو سلبوا من مرض ، أو نجحوا في سياسة . وامتلات صفحات الكتب بهذه التهنئات المبهجة التي تسجل فرح العالم الإسلامي بما ينجح فيه هؤلاء الأبطال ، أو ينالون من خير ، أو يظفرون به من سعادة ، والأدب حين يحيط هؤلاء الرجال بحبه ، يقدس فيهم أول ما يقدس تكريسهم الجهود لخدمة المسلمين ، وصيانة الإسلام ، ويشيد بما سيكون لأعمالهم من جليل الآثار ، فترى أسامة بن منقذ يهنئ معين الدين أنز ، بما كتب له من ظفر في جهاد الفرنج ، ويقول له :

كل يوم فتح مبين ونصر واعتلاء على الأعادى وقهر
صدق النعت فيك ، أنت معين الدين ، إن النعوت فأل وزجر
أنت سيف الإسلام حقا ، فلا فل غراريك ، أيها السيف ، دهر
بك زاد الإسلام ياسيفه المخدوم عزا ، وذل شرك وكفر
ثق يادراك ما تؤمل ، إن الله يجزي العباد عما أسروا
لم تزل تضمير الجهاد مسرا ثم أعلنت ، حين أمكن جهر
كل دخر الملوك يعني ، وذخرا لكهما الباقيان : أجر وشكر^(٣)

(١) الرسالة كلها في السلوك ١: ٩٧٢ . (٢) الرسالة في الروضتين ١: ١٧١ .

(٣) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٠٥ .

وبما قيل في تهنئة نور الدين بالعافية من مرض نزل به قول ابن منير :
يا شمس ، لا كسف ، ولا تكدار ولا خلت من نورك الأنوار
البدر منقوص ، وأنت كامل لك السرايا ، وله السرار
برؤك للإسلام من أدوائه بره ، وفي أعدائه بوار
ما أنت إلا السيف صد صدأ عن متنه مضربه البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس لملت به دونك الأبصار
ولو فدت أرض سماء ساقط الملوك في فدائك الأمصار
أنت غياث محلمهم ، إن أجذبوا وخيرهم ، إن ذكر الخيار
وفي سرير الملك منها ملك لله في سرائه أسرار
مد على الدين رواق دولة تنازعت أسماؤها السمار
علت بناء ، وحلت في يده فهي عليه السور والسوار
يا نور دين أظلت آفاقه لو لم تبلغ هذه الآثار
سلت للإسلام ترعى سرحه إذا عنا رعايته ، وجاروا
شكوت ، فالدنيا على سكانها قرارة جانبها القرار
لا عدمت منك الأمان ربها معطى من الإقبال ما يختار
ما سمح الدهر بأن تبقى لنا فكل جرح مسنا جبار^(١)

فهو ينهى في شخصه بره الإسلام ، إذا برىء ، ويراه راعيا للدين ، يحوطه بعنايته ، ويرعى أهله بالعدل والقسطاس ، وهذه المعاني التي وردت على خاطر الشاعر أثارتها هذه الحروب الصليبية ، التي يحتاج فيها المسلمون إلى من يسهر على حياتهم ، ويذب عنهم أعداءهم . ومن ذلك ما كتب به القاضي الفاضل من دمشق إلى تقي الدين بمصر ، يهنئه بعافية السلطان من مرض أرجف الناس بموته منه ؛ وإن العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها ، وفاضت أنوارها وآثارها ، وولت العلة ، والحمد لله ، وأطفئت نارها ، وانجلي غبارها ، وخدم شرارها وما كانت إلا فلتة ، وفي الله شرها ، وعظيمة كفى الإسلام أمرها ، ونوبة امتحن الله بها

نفوسنا ، فرأى أقل ما عندها صبرها ، وما كان الله ليضيع الدماء وقد أخلصته القلوب ، ولا ليوقف الإجابة ، وإن سدت طريقها الذنوب ، ولا ليخلف وعد فرج وقد أيسر الصاحب والمصحوب .

نعي زاد فيه الدهر ميمًا فأصبح بعد يؤساء نعيًا
وما صدق النذير به ، لأنى رأيت الشمس تطلع والنجوم

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة ، والعزلة ماضية جديدة ، والنشاط إلى الجهاد والجنة ، مبسوط البساط ، وقد انقضى الحساب ، وجزنا الصراط ، وعرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كان الجمل يلج في سم الخياط (١) .

فمن أثر الحروب الصليبية في هذه الرسالة بيان ما كاد يصاب به الإسلام من كارثة ، لو أن الدهر نفذ وعيده في صلاح الدين ، وليس ذلك إلا لمكاته بطلا من أبطاله ، يرد عنه كيد أعاديه ، وهو لم يستقبل العافية غضة جديدة ، إلا لينشط إلى الجهاد ، وبعد نفسه للنصر فيه . وهكذا كان الأدب يرى من واجبه أن يقف إلى جانب هؤلاء الأبطال ، يسعد بمباهجهم ، ويتغنى بما يسعدهم ، لأن سعادتهم سعادة للإسلام الذي يدافعون عنه .

٢ — ومضى الأدب كذلك مبتهجا طرباً يذيع أنباء النصر في أرجاء العالم الإسلامي ، ويحمل بشرى الفتح إلى الخلفاء والولاة والأمراء ، ليذيع ذلك بين أبناء الشعب ، فتقوى الروح المعنوية فيه ، ويشتد ساعده ، فيسدد سهمه إلى العدو ، وليقضى عليه القضاء الأخير . وإذاعة أخبار النصر كفيلة بحفظ هذه الروح قوية متوثبة ، فبعد النصر يمضي أعظم كتاب الدولة يؤلفون رسائل ، تحمل إلى القاصي والداني خبر هذا النصر ، مصورة له ، معظمة من أمره ، شارحة كيف تم ، وما نتائجه ، وكلما كان أمر الفتح عظيماً ، مجده كتاب البشري ، وكثرت لأجله كتب البشائر . قال العماد الكاتب ، وهو يتحدث عن فتح بيت المقدس في عهد صلاح الدين : كتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع وعبرة (٢) . وكثرت رسائل صلاح الدين إلى بغداد ، تحمل بشرى أنباء فتوحه الكثيرة ، كما كان يرسل إليها من قبله نور الدين محمود ، وكما كان يرسل صلاح الدين إلى أرجاء العالم الإسلامي

أنباء هذه الفتوح . واقتدى بهما من جاء بعدهما في ذلك . ومنه ما أرسله المعظم توران شاه إلى جمال الدين يغمور نائب الشام بعد هزيمة الفرنج ، لدى المنصورة سنة ٦٤٨ هـ ، وفيها يقول : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » ، « وما النصر إلا من عند الله » ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » ، « وأما بنعمة ربك فحدث ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر الإسلام كافة ، بما من الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا : « ولا تيئسوا من روح الله ؛ لأنه لا يئس من روح الله إلا القوم الفاسقون » . ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة ، تم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة ، واجتمع خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق ، ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح ، على ما وقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل أبى بكر ، فأبينا ، ولما كان فى الليل تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا فى آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل ، ويقتل فيهم الحزى والويل ، فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً ، غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيين إلى المنية ، وطلب الأمان ، فأمناه ، وأخذناه ، وأكرمناه ، وتسلينا دمياط بعونه وقوته ، وجلاله وعظمته ^(١) . وتجد كثيراً من كتب البشارة فى صبح الأعشى ^(٢) ، والنجوم الزاهرة ^(٣) والسلوك ^(٤) والروضتين ^(٥) . وتشترك هذه الرسائل فى أنها كتبت بالثر دون الشعر ، ليكون المجال واسعاً للتفصيل والتوضيح ، من غير أن يكون ثمة قيد يحد دون ذلك ، وقد تأتق الكتاب فيها ، فاقتبسوا من القرآن آيات تزيد الفكرة رسوخاً وقوة ، وتحدث فى النفس أبلغ الأثر ، وكان للقرآن قيمته هنا ؛ لأن المقام مقام انتصار لدين هذا الكتاب ،

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٦٧ . (٢) ٦ : ٤٤٩ و ٥١٧ و ٧ : ٣٥٣ و ٣٦٦ و ١٣٩ : ١٤٤

٧ : ٢٢٢ و ٢٧ و ٨٨ و ٣٥٣ و ٣٦٦ و ١٣٩ : ١٤٤ .

(٤) ١ : ١٠٠٥ و ١٠٠٧ .

(٣) ٧ : ٣٦٧ و ٣٢٢ .

(٥) ١ : ٢١٥ و ٢١٨ و ٣٧ : ٥١ / ٩٦ / ٩٩ / ١٠٠ / ١٢٨ / ١٣١ / ١٣٢ / ١٣٤ /

١٧٧ / ١٣٧

(٦) الروضتين ١ : ٢٣٤ .

فضلا عن روعته النفسية ، وتأثيره الروحي ، على قوم في هذه الحالة الانفعالية . وتمضى الرسالة موجزة حيناً ، ومطبنة حيناً آخر ، وتنسم كلها بالبهجة ، والتفاؤل ، والأمل . وهى صريحة في وصف نفسية المسلمين ، قبل الفتح وبعده ، فحيناً هم شاعرون بقوتهم ، مرجحون النصر والظفر ، وحيناً هم مستكثرون لقوة العدو ، فيلجئون إلى الله ، يستمدون منه قوة معنوية ، تعينهم عليه .

٣ — ولم يقتصر ابتهاج الأدب على النصر في معارك القتال ، بل ابتهج كذلك بكل ما يسوء الفرنج ، ويؤذن بضعف سلطانهم ، وانهيار قوتهم ، ويعرضهم للمهانة .

كتب القاضي الفاضل رسالة ، لما توفى ملك الفرنج مرى ، جاء فيها : « ورد كتاب من الداروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس ، قاسع ذى الحجة ، هلك مرى ملك الفرنج ، لعنه الله ، ونفله إلى عذاب مثله مشتقاً ، وأقدمه على نار تطفى ، لا يصلها إلا الأشتى ^(١) . »

وفى يوم وصلت الأسرى من الفرنج ، ورموس قتلاهم إلى دمشق ، وقد ركبوا على كل جبل فارسين من أبطالهم ، ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رموسهم بشعرها عدة ، والمقدمون منهم وولاة المعازل والأعمال كل منهم على فرس ، وعليه الزردية ، والخوذة ، وفى يده راية ، والرجال كل ثلاثة أو أربعة وأقل وأكثرى جبل ، وخرج من أهل البلد الخلق الذى لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنساء والصبيان ، وأكثروا شكر الله تعالى ، ووصف بعض الشعراء هذه البهجة الشاملة بقوله :

ما رأينا فيما تقدم يوما	كامل الحسن غاية في البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم	ذلة الأسر والبلا والقناء
وبراياتهم على العيس زفوا	بين ذل ، وحسرة ، وعناء
بعد عزلهم ، وهيبة ذكر	في مصاف الحروب والهيحاء
هكذا هكذا هلاك الأعادى	عند شن الإغارة الشعواء
لا حى الله شملهم من شتات	بمواض تفوق حد المضاء
لجزاء الكفور قتل وأسر	وجزاء الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمد وشكر	دائم مع تواصل النعماء ^(١)

وقد تجمع الفرح الساخر كله في تصويرهم يزفون على العيس ، يحملون راياتهم التي كانوا يرجون حملها منتصرين ، ثم يأبى القدر الساخر إلا أن يمروا بها منهزمين ، أمام جموع شامتة بهم ، فيشعرون بالذل والحسرة والعناء . وإن هذا المصير المحزن ، بعد ما كان لهم من عز وهيبة ، هو مصدر الفرح الغامر .

وسر ابن يغمور نائب الملك بالشام ، عند ما أرسل إليه الملك المعظم بغفارة^(١) الفرنسي ، قلبسها ابن يغمور ، في دست مملكته بدمشق ، وهي أشكر لاط^(٢) احمر بفرو سنجاب ، فيها بكة^(٣) . ذهب . فكتب في الجواب إلى الملك المعظم المذكور بيتين لابن إسرائيل ، وهما :
أسيد أملاك الزمان بأسرهم تنجزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيع حى العدا ويلبس أسلاب الملوك عبيده

٩ - سلم ومعاهدات

على أن الأدب يظهر أن الصلة بين الفريقين المتحاربين من المسلمين والصليبيين لم تكن كلها صلة ختومة و قتال ، بل مضت فترات سالم فيها كل صاحبه ، وعقد معه معاهدات صلح محدودة الأجل ، بل أثبت الأدب أن المجاملة قد سادت علاقات الفريقين حيناً من الزمن ، ومع ذلك لم يدع أحدهما الإعداد لصاحبه ، ولا التهيؤ للقاته في ميدان القتال ، ولأنقل هنا نص رسالتين أوردتهما صاحب صبح الأعشى ، تبينان بجلاء مدى ما كان يسيطر على العلاقات أحياناً من هذه المجاملة :

كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى بردويل ، وهو يومئذ مستول على بيت المقدس وما معه معزياً له في أبيه ، ومهنئاً له بجلوسه في الملك بعده : « أما بعد ، خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهناه من ملك قومه ما ورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق^(٤) ، والنعمى الذى وددنا أن قائله غير صادق ،

(١) الغفارة . المطلق . (٢) نوع من النسيج كان يرد من بلاد إيرلندة لونه قرمزى écarlate .

(٣) معرب الكلمة الفرنسية boucle ومعناها المشبك .

(٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٦٧ .

(٥) أصادق : جمع أصدقاء ، وهى جمع صديق .

بالمملك العادل الاعز الذى لفاه الله خير ما لقي مثله ، وبلغ الابن سعادته كما بلغه محله ، معز بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذى عظمت به الارزاء ، إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النصاب ، ووهبه النعمتين : الملك ، والشباب . فنهيناً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده ، الذى حق له الفداء لو جاز ، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائم عنا باقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتدادنا ، وودنا الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أنا له كما كنا لآبيه مودة صافية ، وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة ، وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة ، مع ما فى الدين من المخالفات ، فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذى لا يخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمل ، والله يديم تعميره ، ويحرم تأميره ، وقضى له بمرافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق ، ^(١) . فى الكتاب حديث عن مودة صافية ، ومحبة ثابتة بين الأب وصلاح الدين ، وحديث عن رسول أوفده صلاح الدين ليقوم بتعزية الملك فى وفاة آبيه ، وطلب أن يثق وارث العرش فى صلاح الدين ، كما يثق الابن فى آبيه ، وصدر الكتاب دعاء للملك الجديد بالجد الصاعد ، والسعد والخط والتوفيق ، وختامه دعاء كذلك ، ويضيف إليه الدعاء بطول العمر ، مصحوباً بإمارة محروسة .

والكتاب يطلب من الملك الجديد أن يدوم على العهد الذى كان عليه أبوه من قبل ، وأن يثق بصلاح الدين ، ويعتمد عليه ، وذلك كله يؤكد ما ذهبنا إليه : من أن الصلة بين العريقين كانت المجاملات تسودها أحياناً ، حين كان السلم يستتب بين الطائفتين .

وهذا كتاب آخر كتبه بعض كتاب الدولة الأيوبية ، عن الملك الجواد أحد ملوكهم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ، جواب كتاب ورد عليه من فرانك ، أحد ملوك الفرنج ، فى شعبان ، سنة ثلاثين وستائة : « وردت المكاتبة الكريمة ، الصادرة عن المجلس العالى ، المولى الملك الاجل ، الاعز الكبير ، المؤيد الخطير ، العالم العامل ، الظهير العادل ، الأوحد المجتبى ، شمس الملة النصرانية ، جلال الطائفة الصليبية ، عضد الامة الفرنجية ،

نقر أبناء المعمودية ، عمدة الممالك ، ضابط العساكر المسيحية ، قبصر المعظم فلان ، معز
 لإمام رومية ، ثبت الله لديه نعمه ، وعزز موارد جوده وديمه ، وأمضى صوارم عزائم ، وأعلى
 هممه ، ولا برحت أنوار سعده تتلالا ، وأخبر بجده تبسط وتعالى ، وسحاب الالسنه
 الناطقة بحمده تستهل وتتوالى ، إلى أن يتحلى جيد الضحى بعقود الليل ، وتطلع الشعرى من
 مطالع سبيل — فجدد الثناء على جلاله ، وأكد المديح لإحسانه وإفضاله ، وأنفس أسباب
 المودة والحصافة ، وشدد أواخي الإخلاص والموافاة ، فاستبشرت النفوس بوروده ، وسرت
 القلوب بوفوده ، ووقف منه على الإحسان الذى نعرفه ، ووجد عقده مشتملا على جواهر
 الوداد الذى تألفه ، فشكرا لله على هذه الالفة المنتظمة ، والمحبة الصادقة المكرمة . والمجلس
 العالى الملك الأجل ، أعلى الله قدره ، ونشر بالخير ذكره ، أولى من أهدى المسرات ، بورود
 المراسم والحاجات ، ووصل الأانس بكريم المكاتبات ، مضمنة السوانح والمهمات ، فأما
 ما ذكره المقام العالى السلطانى الملكى الكاملى الناصرى ، زاده الله شرفا وعلاوا ، من أنه
 لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده ، وخالص وده ، ولا زال ملكه عالياً ،
 وشرفه نامياً ، إن شاء الله تعالى (١) ، فهذا الكتاب رد على رسالة لأحد ملوك الصليبيين
 أكدت ما بين الملكين من أسباب السلام ، ورغبة الملك الفرنجى فى الإبقاء على مظاهر
 المودة ، وكان الرد استجابة لهذه الرغبة ، وتأكيذا لبقاء تلك الصلة . وبما يلحظ فى هذا
 الكتاب الدعاء كذلك للملك الصليبي بدوام الملك ، وإشراق نور السعد والمجد ، كما أن فيه
 شكراً لله على انتظام المودة ، وبقاء شمل الالفة والمحبة الصادقة ، كما أكدت رسالة الملك
 الصليبي أن لا فرق بين المملكتين ، وهكذا حفظ لنا الأدب صورة للون آخر ، من ألوان
 العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، رأينا فيه تمجيذاً لعاهل الفرنج ، ودعاء له بدوام السلطنة
 والسعادة . وهذه العلاقة الطيبة بين الفريقين أحيانا قد سجلها أسامة فى كتاب الاعتبار ، الذى
 يدل على أن كلا الفريقين فى وقت الصلح كان يؤمن بأنه سلام موقوت ، لا يلبث أن ينتهى .
 وخير ما يمثل ذلك ما رواه أسامة ، إذ قال : « نزل علينا دنكرى ، وهو أول أصحاب
 أنطاكية بعد ميمون ، فقاتلنا ثم اصطالحنا ، فنفذ يطلب حصاناً لعلام لعمى عز الدين
 رحمه الله ، وكان فرساً جواداً ، فنقذه له عى ، تحت رجل من أصحابنا كردى ، يقال له حسنون ،
 وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة ، دقيق ، ليسابق بالحصان بين يدي

دنكرى ، فسابق به ، فسبق الخيل المجرة كلها ، وحضر بين يدي دنكرى ، فصار الفرسان يكشفون سواعده ، ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع ، خلج عليه دنكرى ، فقال له حسنون : يا مولاي ، أريدك تعطيني أمانك ، أنك إن ظفرت بي في القتال ، تصطنعني ، فأعطاء أمانه على ما توهم حسنون ، فإنهم لا يتكلمون إلا بالإنجى ، ما ندرى ما يقولون (١) وهذه القصة وأمثالها واضحة الدلالة على ما نقوله .

وقد احتفظ التاريخ بكثير من معاهدات الصلح التي أبرمت بين المسلمين والفرنج ، ولعل من أشهر هذه المعاهدات تلك التي أبرمت بين صلاح الدين وريتشار قلب الأسد ملك الإنجليز ، وليس لدينا نصوصها ، وإن احتوت كتب التاريخ على مضمونها . ولست أدري أكتبت بالعربية وحدها ، أم كتبت بها وبالإنجليزية ، وقد احتفل بتوقيع هذه المعاهدة يوم الأربعاء والخميس ، الثاني والعشرين ، والثالث والعشرين ، من شعبان سنة ٥٨٢ هـ . حضر جماعة من كبار أمراء المسلمين في اليوم الأول لدى ملك الإنجليز ، وأخذوا يده وعاهدوه ، وحلف جماعة من أمرائه ، وفي ثاني يوم حضر رسل ملك الإنجليز عند السلطان ، وأخذوا بيده ، وعاهدوه على الصلح ، وحلف جماعة من أمرائه كذلك (٢) . كما وقع صلاح الدين كثيراً من معاهدات الصلح مع الفرنج الذين كان يحاصرهم السلطان ، ثم يطلبون الأمان (٣) . وأغلب الظن أن المعارك التي دارت بعد عهد صلاح الدين قد انتهت بعقد معاهدات بين الفريقين ، حفظ لنا التاريخ مضمونها ، وإن لم يحفظ نصوصها . أما ما حفظ نصوصه فمعاهدات عقدت بين بيبرس وقلاوون والأشرف خليل من ناحية ، والفرنج من ناحية أخرى (٤) . وتتجلى خصائص هذه المعاهدات فيما ذكره صاحب (التعريف) إذ قال : « وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان ، والسلطان فلان ، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء بما عليه ، وأجل له أجل ينتهي إليه ، لما اقتضته المصلحة الجامعة ، وحسنت به مواد الآمال الطامعة ، تأكدت بينهما أسبابها ، وفتحت بهما أبوابها ، وعليها عهد الله على الوفاء بشرطها ، والانتهاى إلى أمدها ، ومد حبل المودعة إلى آخر مددها ، ضربا لها أجلا . أوله ساعة تاريخه ، وإلى نهاية المدة ، وهي مدة كذا وكذا ، على أن كل واحد منهما يغمد بينه وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتعقل الرماح الخطارة ، وتقر على مرابطها الخيل المغيرة ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا على أن يكون على فلان كذا ، وعلى فلان كذا . ويعين ما يعين من مال ، أو بلاد ، أو مساعدة ،

(٢) راجع النوادر السلطانية ص ٢٣٦ .

(٤) سبع الأعشى ١٤ : ٥١ .

(١) الاعتبار ص ٤٨ .

(٣) الروضتين ٢ : ٩٠ .

في حرب أو غير ذلك، يقوم بذلك لصاحبه، وينهض من حقه المقرر بواجبه، وعليهما الوفاء المؤكد الموثيق، والمحافظة على العهد والتمسك بسببه الوثيق

وعلى أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعية، وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعية، ومن نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أعيد، وما أخذ منها باليد الغاصبة استعيد، وبهذا تم الإشهاد، وقرى على المسماع على رموس الأشهاد^(١).

ولا يختلف نظام المعاهدات التي عقدت في هذا العصر عن هذه القاعدة التي بينها صاحب (التعريف) إلا ببدئها بعبارة استقرت الهدنة بين

وقد جرت العادة أنه إذا كتبت الهدنة، كتب قرينها يمين، يحلف عليها السلطان أو نائبه القائم عن الملك الصليبي بعقد الهدنة، أو تجهز نسختها إلى الملك، ليحلف عليها، ويكتب خطسه بذلك^(٢). وفي ملحق السلوك^(٣). نص اليمينين اللتين حلف عليهما قلاوون والفرنج.

وفي صبح الأعشى^(٤) نصوص معاهدات عقدها بيبرس مع الفرنج. وجميع هذه المعاهدات تتفق في تحديد الأماكن الداخلة في الهدنة تحديداً واضحاً، حتى لا يقع خلاف على تفسير حدودها. كما تتفق في أنها تبين بوضوح لا التواء فيه حقوق كل طرف على صاحبه، وواجباته نحوه، ومثل هذه المعاهدات تحتاج إلى أن تكون العبارة واضحة، ولهذا كان الأسلوب المرسل الطبيعي أوفق أنواع الأساليب لمثل هذه المعاهدات، حتى لا يضطر الكاتب إلى أن يزيد ما ليست المعاهدة في حاجة إليه، من ألفاظ جىء بها لنوع من أنواع الزينة والجمال، بل لقد تطمس هذه الزينة واجباً مفروضاً، أو شرطاً مقصوداً. غير أن هذه الطبيعية في الأسلوب لم ترق صبح الأعشى، فزعم أن هذه المعاهدة وأمثالها ليس منها ما هو حسن الترتيب، رائق الالفاظ، بهج المعاني، وبلغ المقاصد، بل هي مبتذلة الالفاظ، غير راتقة الترتيب، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام. وعجب أن يصدر ذلك في زمن الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، وهما من هما من عظماء الملوك، وكتابة الإنشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر، الذين هم بيت الفصاحة، ورموس أرباب البلاغة،

(١) التعريف ص ١٧٠ . (٢) صبح الأعشى ١٤ : ٧١ .

(٣) ١ : ٩٩٥ و ٩٩٦ . (٤) ١٤ : ٣١ وما إليها .

وتلمس لهذه السهولة في العبارة سبباً ، هو أن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ، ببلاد الشام ، فيقع الاتفاق والتراخي بين الجهتين ، على فصل فصل ، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج ، بألفاظ مبتذلة غير راقية ، طلباً للسرعة ، إلى أن يفتنى بهم الحال في الاتفاق والتراخي ، إلى آخر فصول الهدنة ، فيكتبها كاتب الملك المسلم ، على صورة ما جرى في المسودة ، لي مطابق ما كتب به كاتب الفرنج ، إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ ، وبلاغة التركيب ، لاختل الحال فيها ، عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً ، فيسكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة^(١) . ويفهم من ذلك أن المعاهدات كانت تكتب يومئذ باللغة العربية ، وأن الكاتب العربي كان يضطر إلى استخدام الأساليب السهلة ، تجنباً للتأنيق الذي يحتاج إلى الوقت الطويل . وهم عند كتابة المعاهدة في حاجة إلى السرعة ، لا إلى الأناقة .

هذا هو السبب الذي أورده صاحب صبح الأعشى ، لما نراه في هذه المعاهدات من السهولة والبساطة ، وهما عيبان لا يغتفران في عصر كانت الحلى اللفظية فيه هي المثال المحتذى ، والقدوة المثل ، وفاته أن المعاهدات يراد بها التسجيل لا التأثير ، وهي لذلك تتطلب الدقة والوضوح ؛ حتى لا يكون هناك خلاف على تفسير نصوصها ، ولتتصور معاهدة تمتلئ عباراتها بالطباق والتورية ، والاستخدام ، والجناس ، والسجع ، ولتتخيل كيف تفسر ، وكيف تفهم ، وكيف يختلف على معاني عباراتها ، وكيف تذهب هذه المحسنات بوضوح النص ، بل تقيّد الكاتب بغير ما قبحه إليه عنايته : من تحديد الحقوق ، والواجبات . ولذا كان خير الطرق لكتابة المعاهدات هو البعد بقدر الطاقة عن الزينة اللفظية ، والزخارف الصناعية .

وهذا المعاهدات أقرب إلى أن تكون معاهدات حسن جوار وعدم اعتداء ، فليس فيها تحالف على الهجوم على عدو مشترك ، أو الاجتماع لدفع عدو مشترك . وهذا إن دل فإنما يدل على أن مدى ما يريده كل من صاحبه هو أن يعيش آمناً بجانبه ، لا أن يستنصر به على عدوه .

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٧٠ .

ولم يقتصر عقد المعاهدات على فرنج الساحل فحسب ، بل عقدت مع الفرنج غير المجاورين للبلاد ، فعقد قلاوون معاهدة مع صاحب القسطنطينية ^(١) ، وعقد الأشرف خليل معاهدة بينه وبين صاحب برشلونة بالأندلس ^(٢) .

١٠ - حماسة وفخر

كان الانتصار في المعارك الحربية ضد الفرنج مثار غبطة في نفوس الأبطال ، ومصدر بهجة لهم ، وكان يسرهم أن يستمعوا إلى تسجيل أفعالهم ، وإلى التغنى بهذه الوقائع . وإشباعاً لهذه الرغبة في نفوسهم ، التف حولهم طوائف من الشعراء ، تمجد بطولتهم ، وتسجل انتصاراتهم ، ولما كانت انغالية العظمى لهؤلاء الأبطال لا تجيد قول الشعر ، ولا الكتابة الفنية ، حلالهم الاستماع إلى الشعر والنثر ، يتغنيان بهذه المفاخر ، وندر أن كان بين هؤلاء الأبطال من يجيد قول الشعر ، فتغنى بوقائعه ، ووصفها في شعره . ومن هؤلاء طلائع بن رزيك ، وأسامة بن منقذ ، فقد تغنياً في شعرهما بما جاهدوا العدو ، وبما أبلوا في سبيل هذا الجهاد ، فسمعنا طلائع يقول :

جعلنا جبال القدس فيها ، وقد جرت	عليها عتاق الخيل كالنصف السهب ^(٣)
فقد أصبحت أوعارها وحزونها	سهولا ، توطا للفوارس والركب
ولما غدت لأماء في جنباتها	صبينا عليها وإبلا من دم سكب
وجادت بها سحب الدموع من العدا	نجيعا ، فاغتنها الغداة عن السحب
وأجرت بحاراً منه فوق جبالها	ولكن بحار ليس تعذب للشرب
وقد روعتها خيلنا قبل هذه	مراراً وكانت قبل آمنة السرب
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها	فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب ^(٤)

ويقول متحدثاً عن جيشه الزاحف إلى الشام لحرب الفرنج :

سارت سريانا لقصد الشام تعسف الرمالا

(١) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٣) النصف : المفازة ، والسهب : المستوى من الأرض . (٤) الجريدة المطبوعة ٨ : ١٧٩

ترجى إلى الأعداء جرد الخيل أتباعا ، توالى
تمضى خفاها للنفار بها ، وتأتينا ثقالا
حتى لقد رام الأعادى من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعية معشر ^(١) لم يعهدوا فيها القتالا
لما نأت عما يحف بها يميناً أو شمالا
نهضت إليها خيلنا من مصر تحتمل الرجالا
والبيض لامة ، وبيض الهند ، والأسل نهالا
فغدت كأن لم يعهدوا في أرضها حاحلالا
هذا وفي تل العجول ملآن بالقتلى التلالا
إذ مرمرى ليس يلوى نحو رفقته اشتغالا
واستاق عسكرنا له أهلا يحبهم ومالا
وسرية ابن فرج الطائى طال بها ، وصالا
سارت إلى أرض الخليل فلم تدع فيها خللا ^(٢)
وأرسل إلى أسامة يفتخر بما فعله الأسطول المصرى فى الفرنج ، قائلا :
ذاكرين الفتح الذى فتح الله علينا ، فالصنع منه جميل
لم يزل فعلنا له خالصاً ، وهو لما شاء فى الأنام فعول
جاءنا بعد ما ذكرناه فى كتب أئامكم بهن منا الرسول
أن بعض الأسطول نال من الإفرنج مالا يناله التأميل
سار فى قلة ، وما زال بالله وصدق النيات ينمى القليل
فحوى من عكا وأنظر طوس عدة لهم يحط بها التحصيل
جمع ديوية ^(٣) بهم كادت الإفرنج تسطو على الورى وتصول

(١) الوعية : حصن قرب الكرك .

(٢) الخلال : جمع خل ، وهو الطريق . أى لم تدع فيها طرقاً مسلوقة ، بل ملأها بالجند . والقصيدة من

ديوان أسامة ص ٢٦٣ .

(٣) أطلق المسلمون المؤرخون هذا الاسم على جمعية فرسان المعبد Templiers كما أطلقوا القضاة الاستبارية على جمعية فرسان المستشفى Hospitalliers . وقد أسس الجمعية الأولى Hagh Pe Payns سنة ١١١٩م لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس أما الجمعية الثانية فيرجع تأسيسها إلى سنة ١٠٩٩م على يد Blessed gerard بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وكانت دارها (Hospice) به قبل ذلك بزمان طويل مأوى الحجاج والمرضى من المسيحيين ، ثم تحول كل من الجمعيتين إلى هيئة دينية فكانا لرؤسائهما وفرسانهما شأن كبير فى تاريخ الامارات الصليبية بالشام . زيادة فى هامش السلوك ١ : ٦٨ ، قلا عن .

قيد في وسطهم مقدمهم يهدى إلينا ، وجيده مفلول
بعد مشوى جماعة هلكت بالسيف ، منها الغريق والمقتول
هذه نعمة الإله ، وتعدد أيادي الإله شيء يطول (١)
ومن أقوى ما كتبه طلائع مفتخراً بفارات جيشه على الفرنج ، وقواد هذا الجيش ، وما
أحرزه من النصر ، قوله ، وقد أرسل به إلى أسامة ، لكي يحضر نور الدين به ، رغبة من
الصالح في أن يتفق نور الدين معه ، في الهجوم على العدو ، من الشمال والجنوب ؛ فيحصر
بينهما ، ويقضيا عليه :

<p>وتمضى لدى الحرب السيوف الصوارم وليس سوى سمر الرماح سلام ويوطأ حماها ، والأنوف رواغم ولأن بذلت فيه النفوس الكرائم مضى نصفه ، حتى اثني ، وهو غانم مفاوز ، وخد العيس فيهن دائم بجنبيه مشبوب من القيظ جاحم إذا ما أتاها العسكر المتزاحم عزيمته جدد الظما والسمائم ويسرى إلى الأعداء ، والنجم نائم غدت عوضاً منها الطيور الحوائم إذا ما هي انقضت ، نسور قشاعم في جوها ، والقوائم فإن طلبت أعداءها فالأداهم (٢) بها ، ولها في الكافرين مطاعم مدى الدهر أعراس لهم وولاتهم</p>	<p>ألا هكذا في الله تمضي المزامم وتستنزله الأعداء من طود عزم وتغزي جيوش الكفر في عقر دارها ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم نذرنا مسير الجيش في صفر ، فما بعثناه من مصر إلى الشام ، قاطعاً وناهيك من أرض الجفار (٣) ، إذا التقى وصارت عيون الماء كالعين عزة فما هاله بعد الديار ، ولا ثنى يهجر ، والعصفور في قعر وكره إذا ما طوى الرايات وقت مسيره تبارى خيولا ، ما تزال كأنها فإن طلبت قصداً تساوين سرعة هي الدم (٣) : ألوانا ، وصبغ عجاوجة تصاحبها علماً بأن سوف تغتدى كما أن وحش القفز ما زال منهم</p>
---	---

(١) ديوان أسامة ص ٢٦٩ .

(٢) الجفار : أرض بين مصر وفلسطين أولها رفع من جهة الشام ، وآخرها الحشى ، متصلة برمال تيه بني
إسرائيل . وسميت الجفار ، لكثرة الجفار أى الآبار بأرضها ، ولا شرب لسكانها إلا منها - معجم البلدان .

(٣) الدم : ثلاث ليال من الشهر . (٤) الأدهم : جمع أدهم ، وهو القرس الأسود .

خيول إذا ما فارقت مصر تبتغي
جيوش أقدناها اعتزاما ، ونجدة
إذا ما أثاروا النقع فالتغر عابس
ولما وطوا أرض الشام تحالفت
وواجههم جمع الفرنج بحملة
فلقوهم زرق الأسنة ، وانطوا
يشبههم من لاح جمعهم له
وحسبك أن لم يبق في القوم فارس
وعادوا إلى سل السيوف ، فقطعت
فلم ينج منهم يوم ذاك مخـبر
كذلك ما تنفك ، تهدى إلى العدا
وتسرى لهم آراؤنا وجيوشنا
نقتلهم بالرأى طورا ، وتارة
وما العازم المحمود إلا الذي يرى
وقد غرق الكفار منه بقطرة
فكيف إذا سألت عليهم سيولنا
وما نحن بالإسلام للشرك هازم

عدا فلها النصر المبين ملازم
فطاعننا منهم ، ومنا العزائم
وإن جردوا الأسياف فالتغر باسم
فأضحت جميعاً عربها والأعاجم
تهون على الشجعان منها الهزائم
عليهم ، فلم ينجم من الكفر ناجم
بلجة بحر موجها متلاطم
من الجيش إلا وهو للرمح حاطم
رموس ، وحزت للفرنج غلاصم
ولا قيل : هذا وحده اليوم سالم
وللوحش أعراس لهم ، ومآتم
بداية تبيض منها المقادم
تدوسهم منا المذاكي الصلادم
مع العزم في أحواله ، وهو حازم
سحاب انتقام عندنا متراكم
وجاشت لنا تلك البحار الخضارم
ولكننا الإيمان للكفر هادم^(١)

والقصيدة طويلة اكتفينا منها بما ذكرناه ، مما يتحدث عن نذره أن يهاجم العدو ويحطم
قواه ، وعن الروح المعنوية القوية التي قطعت الفياق والقفاز ، مستهينة بالشدائد والصعاب ،
مواجهة عدوا مستكمل العدة ، موفور العدد ، لا يجد الشجعان عاراً إذا انهزموا أمامه ،
ولكن الجيش ثبت ، حتى ينتصر ، وعن تعاون الرأي والشجاعة في حرب الفرنج ، حتى أيبس
جمعهم ، ويمضى الشاعر مفاخرا بأن ما أصابهم ليس سوى قطرة من بحر انتقامه وغضبه ،
ويبدو طلائع غيورا حقاً على اغتصاب أرض الإسلام تواقا إلى أن تنبأ له الوسائل للقضاء
على الصليبيين ، إذا استطاع..

ومن هؤلاء الذين أبلوا بلاء حسناً في حروب الصليبيين ابن تقي الدين عمر ، فقد جرت له وقائع مع الفرنج ، وانتصر فيها عليهم ، وظهرت شجاعته وفروسيته ، فكان من غره بانتصاره عليهم قوله ، بعد أن أشاد بنسبه وأسرته :

كم قد أبدت بسيفي كل مقتخر حامى الحقيقة ، يوم الجحفل اللجب
وكم تركت بنى الإفرنج في رعب فصرت أدعى لديهم جالب الرعب
وكم جررت إليهم جحفاً لجباً بالسابرية ، والمأذى ، واليلب^(١)
كفعل آباءى الغر الذين هم كانوا لدين الهدى كالوالد الحذب
أما أسامة بن منقذ ، وقد خاض معارك كثيرة ضد الصليبيين ، فله شعر حماسى يفتخر فيه بشجاعته ، في ميدان القتال ، وصبره ، وبلائه ، فيقول :

سل بى كآة الوغى فى كل معترك يضيق بالنفس فيه صدر ذى الباس
ينبشوك بأبى فى مضايقها ثبت ، إذا الخوف هز الشاهق الراسى
أخوضها ، كشهاب القذف ، يصحبى غضب كبرق سرى ، أو ضوء مقباس
إذا ضربت به قرنا أنازله أوحاه^(٢) عن عائد يغشاه أو آسى^(٣)
ويقول :

إن يحسدوا فى السلم منزلتى من العز المنيف
فما أمين النفس فى يوم الوغى ، بين الصفوف
فلطالما أقدمت إقدام الختوف على الختوف
بعزيمة أمضى على حد السيوف من السيوف^(٤)

ولم يكف بعض أبطال الحروب الصليبية بما سجله لهم الشعراء فى قصائد تمجيدهم ، فمضوا يطلبون إلى الشعراء أن يقرضوا على ألسنتهم شعراً ، يسجلون فيه معاركهم ، فهذا نور الدين محمود يطلب من أسامة بن منقذ أن ينشئ قصيدة على لسانه ، يفتخر فيها بأجاده ، ويتحدث عن فتوحاته ، فأنشأ أسامة قصيدة طويلة بلغت عدتها تسعين بيتاً ، أولها :

(١) السابري: درع دقيقة النسيج فى احكام . والمأذى : كل سلاح من الحديد . واليلب: الترسه ، أو الدروع من الجلود ، أو جلود بخرز بعضها إلى بعض ، تلبس على الرؤوس خاصة ، أو القولاذ وخالص الحديد .
(٢) أوحاه . أعجله . (٣) لباب الآداب س ١٩٥ . (٤) ديوان أسامة س ٢٦٠ .

أبي الله إلا أن يكون لنا الأمر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه
وتخضع أعناق الملوك لعزنا
وما في ملوك المسلمين مجاهد
جعلنا الجهاد منها واشتغالنا
وثير حشايانا السروج ، وقصنا الدروع ، ومنسوب الخيام لنا قصر
وهم الملوك البيض ، والسم كالدوى
فسير إلى الأعداء ، والطير فوقنا
وجيش إذا لاقى العدو ظنتهم
ترى كل شهم في الوغى مثل سهمه
ومنها :

بنا أيدى الاسلام ، وازداد عزة
قتلنا الفرنس ، حين سار بجمله
وفى سجننا ابن الفتح خير ملوكهم
أسرناه من حصن العريمة راغما
وسل عنهم الوادى بإقليس ؛ إنه
ونحن أسرنا الجوسلن ، ولم يكن
وكان يظن الفرأنا نبيعه
فلما استبحنا ملكه وبلاده
كحلناه ، نبغى الأجر فى فعلنا به
ومضت القصيدة تعدد معارك نور الدين وجهاده للصليبين . وطلب مرة أخرى إلى
العماد أن ينظم قصيدة على لسانه ، مفتخراً بجهاده ضد العدو ، ليرسلها إلى بغداد ، فأنشأ
العماد لذلك قصيدة ، منها :

(١) جمع أدماء ، وهى الظبية ذات لون معرب يابض .

(٢) الأعفر من الظباء : ما يعلو يابضه حمرة .

(٣) ديوان أسامة ص ٢٤٧ .

من ذا الذي سار سيري في ولائكم غداة قال العدا : لا سير عند عصا
قد نال عبدك محمود بها ظفراً مازال يرقبه من قبل مرتبصاً
من خوف سطوته أن العدو إذا أم الثغور على أعقابهِ نكصاً^(١)

أما صلاح الدين فكان إذا اضطر إلى تعداد وقائعه ومآثره ، عددها ، وتغنى بها ، وكان القاضي الفاضل لسانه المفصح ، وقلبه المبين . أرسل صلاح الدين إلى بغداد رسالة ضمنها تعداداً للماله من الأيادي في جهاد الفرنج ، أيام نور الدين وبعده ، وفي هذه الرسالة يقول للرسول : فإذا قضى التسليم حق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى ، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى ، وليشرح صدرها منها لعله يشرح منا صدرها ، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا ... فإننا كنا نقبّس النار بأكفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ، ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ، ولا بد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذي ترد به الغصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظّ اللسان كما أخذنا بحظّ القلوب ، وما كان العائق إلا أننا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة ، يضاهي ابتداءنا بالخدمة ، وإنجاباً للحق ، يشاكل إنجابنا للسبق . كان أول أمرنا أننا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرة بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا ، في أي مدينة فتحت ؛ أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر ، أو مصاف للإسلام معه ضرب ، فإيجل أحد صنعنا ، ولا يججد عدونا أنا نصطلي الجرة ، ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندير التعبئة ، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، ... (وتحدث عن فتح مصر) ثم قال : ولما خلا ذرعنا ، ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برأ وبحراً ، مركباً وظهراً ، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً ، وملكنار قابهم قهراً وقسراً ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها ، مذ أخذت من أيديها ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم ، مذ ملكها أعاديهم ، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بشعر أيلة ، كان العدو قد بناها

في بحر الهند ، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم ، فساء منه خلقاً ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً ، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام ، فأخذت هذه القلعة ، وصارت معقلاً للجهاد ، وموتلاً لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد فأما الأعداء المحدثون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالمماليك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكبر ، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشررت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على الكها وغلبت ، جرت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرة وسرية ، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين ، بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح ، وإلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة إلى مهادة ، ومن مفاضحة إلى مناصحة ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية ، وقد اجتمعا في نوبة دمياط ، فغلبا وقسراً ، وهزما وكسراً ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تمكث عدته وعدته ، إلى أن وصل منها في السنة الحالية إلى الإسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملا صدره مثل خيله ورجله ، وما هو إلا إقليم نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله ، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة ، والبياشنة ، والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده (١) ،

ومما كتب على لسانه بعد أن فتح بيت المقدس : « نصرنا الله بملائكته المسومين ، وأوليائه المؤمنين ، واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، واقتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبحار الفتوح واقتزعناها ، وهذه موهبة مذهب ، ومنقبة لا يبلغ إلى وصفها

بلاغة موجزة ولا مسبهة ، ونوبة ما بعدها للإسلام نبوة ، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوة ، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها ، وتضوع مهاب المحاب بنشرها ، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها . . . وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلبنا حصنا حصنا ، ونقضنا من الكفر ركنا ركنا ، وأجلينا الكفار منها فاجتلبنا بها من الحسنى حسنى - فتح شرف الله به هذه الأمة ، وجلابه الغمة ، وكشف الملة ، بل شرفنا بفخره ، وأعدنا لذخره وخصنا بفضيلته في عصره ، وأجرى لنا ما كان قد أبطأ من عادة نصره ، وقع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره ، وقامت بوأترنا بوتره ، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره والحمد لله على هذا الإحسان ، حمداً مستمراً على مر الزمان (١) .

وهناك كثير من الرسائل التي كتبت على لسان صلاح الدين ، يفتخر فيها بانتصاراته ، ويسجل معاركه ، وجرى على نسقه بيبرس حين سجل مفاخره (٢) .

هذا وإن بين الشعر الحماسي الذي ظهر في عصر الحروب الصليبية ، والشعر الحماسي الذي قاله العرب أنفسهم في جزيرتهم العربية ، لفرقا في الباعث ، والهدف ، والروح ، والاتجاه ، فإذا كان الباعث قبل هذا العصر في أكثر الأحوال قبلية ، أو حوادث لا يسيطر عليها الدين سيطرة كاملة ، فإن الباعث على الشعر الحماسي في هذا العصر هو الدين وحده ، ولم يعد ثمة ظهور لنغمة القبيلة ، ولا التعصب الجنسي . أما الروح السائدة في الأدبين فإن البساطة والطبيعية تسودان أدب العصور العربية الأولى ، بينما تجد لبعض المبالغة نصيباً في عصرنا الصليبي . أما الاتجاه فأغلبه في الشعر القديم تمدح بالشجاعة الفردية ، ووصف لها ، وحديث عنها ويشبه هذا ، الاتجاه أسامة ، أما معظم شعر الحماسة في عصر الحروب الصليبية ، فلا يتجه أكثر اتجاه إلى هذه الناحية ، بل يتجه إلى التمدح بقوة الجيوش ، وحسن إعدادها ، وشجاعة أبنائها ، وما أصابته من عدوها . وما أتينا به من أمثلة يدل على ما ذكرناه . ومن أمثلة الشعر الحماسي العربي القديم قول ربيعة بن مقروم الضبي ، وهو شاعر مخضرم :

ولقد شهدت الخيل ، يوم طرادها بسليم أوظفة (٣) القوائم هيكل (٤)
فدعوا : نزال ، فكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل ١٩

(١) المرجع السابق ٢ : ٩٩ . (٢) راجع نهاية الأرب ٢٨ : ٨٤ .

(٣) جمع وظيف ، وهو مستندق القراع والساق من الخيل . (٤) الهيكل . العظيم .

وَأَلَدَ ذِي حَقِّ عَلَى ، كَأَنَّمَا تَغْلَى عِدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مَرَجِلِ
أَرْجِيئِهِ (١) عَنِ ، فَأَبْصَرَ رَشْدَهُ وَكُويَّةَ فَوْقَ التَّوَاظُرِ مِنْ عَلٍ (٢)
وَلَا رَيْبَ أَنَّ لَطِيبَةَ الْحَرْبِ أَثْرًا فِي هَذَيْنِ الْإِتْجَاهَيْنِ ، فَالشَّجَاعَةُ مَطْلُوبَةٌ ، وَلَكِنَّهَا
فِي الْعَصْرِ الصَّلِيبِيِّ تَحْتَاجُ إِلَى الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ ، بِمَا يَجْعَلُ شُعُورَ الْفَرْدِ بِنَفْسِهِ فِي الْقَدِيمِ أَقْوَى مِنْ
هَذَا الشُّعُورِ ، وَهُوَ فَرْدٌ فِي جَيْشِ ضَخْمٍ ، مَكُونٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعُنَاصِرِ ، يَجْمَعُ بَيْنَهَا دِينَ الْإِسْلَامِ .

١١ — تَصْوِيرُ الْفَرَنْجِ

وَصُورَ لَنَا أَدَبُ ذَلِكَ الْعَصْرِ كَثِيرًا مِنْ سِمَاتِ الْفَرَنْجِ وَصِفَاتِهِمْ فِي الشُّعْرِ وَالنَّثْرِ ، كَمَا لَمَسَهَا
الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاحِ كَانَ بَعْضُهُمْ يَعَاشِرُ بَعْضًا ، وَيَخْتَلِطُ بِهِ ، وَيَصَادِقُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَعَرَفَ أَحَدُهُمْ صِفَاتِ الْآخَرِ . فَصُورُهُمُ الْآدَبِ مُحْتَرِسِينَ لَا يَغَامِرُونَ بِجَنْدِهِمْ ،
بَلْ يَتَرِشُونَ مُنْتَهِزِينَ الْفُرْصَةَ ، حَتَّى تَسْنَحَ ، وَحَتَّى يَتَأَكَّدُوا مِنْ مَقْدَرَتِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ . وَصَفَهُمْ
بِذَلِكَ : أَسَامَةُ بْنُ مَنْقُذٍ إِذْ قَالَ : اجْتَمَعَ الْفَرَنْجُ لَعْنَهُمُ اللَّهُ لِمَغَادَاةِ عَسْكَانٍ وَمَرَاوَحَتِهَا ،
وَخَرَجُوا عَلَى أَصْحَابِنَا ، فَجَاءَنِي فَارِسٌ مِنْهُمْ يَرْكُضُ ، وَقَالَ . قَدْ جَاءَ الْإِفْرَنْجُ ، فَسَرْتُ إِلَى
أَصْحَابِنَا ، وَقَدْ وَصَلَهُمْ أَوَائِلُ الْفَرَنْجِ ؛ وَهُمْ ، لَعْنَهُمُ اللَّهُ ، أَكْبَرُ النَّاسِ احْتِرَازًا فِي الْحَرْبِ ،
فَصَعَدُوا عَلَى رَابِيَةٍ وَقَفُوا عَلَيْهَا ، وَصَعَدْنَا نَحْنُ عَلَى رَابِيَةٍ مُقَابِلِهِمْ ، وَبَيْنَ الرَّابِيَتَيْنِ فُضَاءٌ . . .
وَأَصْحَابُ الْجَنَائِبِ عُبُورَ تَحْتِهِمْ ، لَا يَنْزِلُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ فَارِسٌ ، خَوْفًا مِنْ كَيْنٍ ، أَوْ مَكِيدَةً ،
وَلَوْ نَزَلُوا أَخَذُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَنَحْنُ مُقَابِلِهِمْ فِي قَلَّةٍ وَمَا زَالَ الْإِفْرَنْجُ وَقُوفًا عَلَى تِلْكَ
الرَّابِيَةِ ، إِلَى أَنْ انْقَطَعَ عُبُورُ أَصْحَابِنَا ، ثُمَّ سَارُوا إِلَيْنَا ، فَاَنْدَفَعْنَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَالْقِتَالُ بَيْنَنَا ،
لَا يَجِدُونَ فِي طَلَبِنَا ، وَمَنْ وَقَفَ فَرَسَهُ قَتْلَوْهُ ، وَمَنْ وَقَعَ أَخَذُوهُ ، ثُمَّ عَادُوا عَلَيْنَا ، وَقَدَّرَ اللَّهُ
سَبْحَانَهُ لَنَا السَّلَامَةَ بِاحْتِرَازِهِمْ (٣) ،

وَاعْتَرَفَ لَهُمْ بِالشَّجَاعَةِ ، وَتَقْدِيرِ الشَّجَاعِ ، وَالْإِعْجَابَ بِهِ ، وَرَفَعَهُ إِلَى مُسْتَوًى عَالٍ .
وَهُمْ يَعْجِبُونَ بِالْفَارِسِ ، إِذَا كَانَ دَقِيقًا ، طَوِيلًا ، قَالَ صَاحِبُ الْإِعْتِبَارِ : « وَالْإِفْرَنْجُ ، خَذَلَهُمُ
اللَّهُ ، مَا فِيهِمْ فَضِيلَةٌ مِنْ فَضَائِلِ النَّاسِ سِوَى الشَّجَاعَةِ ، وَلَا عَنْدهُمْ تَقْدِمَةٌ وَلَا مَزَلَةٌ عَالِيَةٌ
إِلَّا لِلْفَرَسَانِ ، وَلَا عَنْدهُمْ نَاسٌ إِلَّا الْفَرَسَانِ ، فَهُمْ أَصْحَابُ الرَّأْيِ ، وَهُمْ أَصْحَابُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ ،

(٢) ديوان الحماسة ١ : ١٤ .

(١) أَرْجِيئُهُ : أَخْرَجَتْهُ وَصَرَفَتْهُ .

(٣) الْإِعْتِبَارُ ص ١٢ .

وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم، أخذها صاحب بانياس وبيننا وبينهم صلح فقلت للملك فلك بن فلك : هذا تعدى علينا، وأخذ دوابنا، . . . فقال الملك لسته سبعة من الفرسان : قوموا اعملوا له حكما، فخرجوا من مجلسه، واعتزلوا، وتشاوروا، حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد، وعادوا إلى مجلس الملك، فقالوا : قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلّف من غنمهم، فأمره الملك بالغرامة . . . وهذا الحكم بعد أن يعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمى الإفرنج يغيره . ولا ينقضه، فالفارس أمر عظيم عندهم . ولقد قال لى الملك : يا فلان، لقد فرحت البارحة فرحا عظيما، فقلت : الله يفرح الملك، بماذا فرحت ؟ قال : قالوا لى : إنك فارس عظيم . وما كنت أعتقد أنك فارس : قلت : يامولاي، إنا فارس من جنسى وقوى . وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم . وكان نزل علينا دنكرى، وهو أول أصحاب أنطاكية بعد ميمون، فقاتلنا، ثم اصطالحنا، فنفذ يطلب حصانا لغلام لعمى عز الدين، رحمه الله، وكان فرسا جواداً، فنفذه له عمى، تحت رجل من أصحابنا كردهى، يقال له حسنون، وكان من الفرسان الشجعان، وهو شاب مقبول الصورة، دقيق، ليسابق بالحصان، بين يدى دنكرى، فسابق به، فسبق الخيل المجراة كلها، وحضر بين يدى دنكرى، فصار الفرسان يكشفون سواعده، ويتعجبون من دقته، وشبابه، وقد عرفوا أنه فارس شجاع، فخلع عليه دنكرى^(١)، ولكن هذه الشجاعة لم تكن لترفعهم إلى مرتبة سامية من الإنسانية، يقول أسامة : « إذا خبر الإنسان أمور الفرنج سبّح الله تعالى، وقده، ورأى بهائم، فهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل^(٢) » .

ووصفهم الأدب جفاة الأخلاق، وكلما قرب عهدهم للإفرنجية كانوا أشد جفوة، وأقسى أخلاقاً من أولئك الذين عاشروا المسلمين فى الشام، وضرب لنا أسامة مثلاً من جفوة أخلاقهم : « فن جفاء أخلاقهم، قبحهم الله، أننى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفى جانبه مسجد صغير، قد جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية، وهم أصدقائى، يخلون لى ذلك المسجد الصغير، أصلى فيه، فدخلته يوماً، فكبرت، ووقفت فى الصلاة، فهجم على واحد من الإفرنج، مسكنى،

(١) المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

ورد وجهي إلى الشرق ، وقال : كذا صل ، فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني ، وعدت أنا إلى الصلاة ، فاغتسلهم ، وعاد هجم على ذلك نفسه ، ورد وجهي إلى الشرق وقال : كذا صل ، فعاد الداوية دخلوا إليه . وأخرجوه . واعتذروا إلي ، وقالوا : هذا غريب ، وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصلي إلى غير الشرق ، فقلت : حسبي من الصلاة ، فخرجت ، فكنت أعجب من ذلك الشيطان ، وتغير وجهه ، ورعدته ، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة .

وصورهم ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ يد المرأة ، ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ، ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى . وما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز ، داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي ، يبيع الخمر للتجار ، يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه . . . لجاء يوما ، ووجد رجلا مع امرأته في الفراش ، فقال له : أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ؟ قال تعبان . كنت أستريح ؛ قال : فكيف دخلت إلى فراشي ؟ قال : وجدت فراشا مفروشا نمت فيه ، قال : والمرأة نائمة مملكة ؟ قال : الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ قال : وحق ديني ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت . فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ^(١) . وفي الاعتبار ^(٢) بعض قصص أخرى تدل على هذا الخلق فيهم .

وصور المرأة منهم لا تحب إلا بني جنسها ، روى أسامة أن والده حصل عنده عدة من الجوارى المسيبات ، فرأى منهن جارية مليحة شابة ، فأهداها إلى صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه . وكتب إليه يقول : غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفذت لك سهمها منها ، فوافقته ، وأعجبته ، واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا ، سماه بدران ، فجعله أبوه ولي عهده ، وكبر ، ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية ، وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوما . وتدلّت من القلعة بجبل ، ومضى بها أولئك إلى سروج ، وهي إذ ذاك للإفرنج ، فتزوجت بإفرنجي إسكاف ، وابنها صاحب قلعة جعبر ^(٣) .

(٢) م ١٠٠ و ١٠١ .

(١) المرجع السابق م ٥٠٠ .

(٣) الاعتبار م ٩٦ .

وحفظ الأدب صورة لتأخر عنهم . قال أسامة : « ومن عجبت طبعهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمي ، يطلب منه إنقاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً ، يقال له : ثابت . فمّا غاب عشرة أيام ، حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ماداويت المرضى ، قال : أحضروا عندي فارساً قد علعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها تشاف ، فعملت للفارس لبيخه ، ففتحت الدملة ، وصلحت ، وحميت المرأة ، ورطبت مناجها فجاءه طبيب إفرنجي ، فقال : هذا ما يعرف شيئاً بداويهم ، وقال للفارس : إيماناً أحب إليك : تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا لي فارساً قويا ، وفأساً قاطعاً ، فحضر الفارس . الفأس ، وأنا حاضر ، فخط ساقبه على قرمة خشب ، وقال للفارس : اضرب رجلك بالفأس ضربة واحدة ، أقطعها ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة . ما انقطعت ، بضربه ثانية ، فسأل من الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان ، وقد عثقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من ما كلهم : الثوم ، والخردل ، فزاد بها التشاف ، فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ؛ فأخذ موسى ، وشق رأسها صلياً ، وسلخ وسطه ، حتى ظهر عظم الرأس ، وحكه بالملح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم : بقي لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا ، فحُثت وقد تعلت من طبعهم ما لم أكن أعرفه (١) . ولكن أسامة لخرضه على الدقة والصدق روى (٢) قصتين نجح فيهما الطبيب الفرنجي .

وتبرأ الأدب من عقيدتهم الدينية . روى أسامة قال : رأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين ، رحمه الله ، وهو في الصخرة ، فقال : تريد تبصر الله صغيراً ؟ قال : نعم ، فمشى بين أيدينا ، حتى أرانا صورة مريم ، والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : هذا الله صغير . تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً (٣) . كما روى بعض ما شاهده من القسوة في أحكامهم ، فمن ذلك قوله : وشهدت يوماً بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للبارزة ، وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين ، وقالوا : هو دل الحرامية على الضيعة ، فهرب ، ففد الملك ، فقبض أولاده ، فعاد إليه ، وقال : أنصفني ، أنا أبارز الذي قال عني : إنني دلت الحرامية على القرية ؛ فقال الملك لصاحب القرية المقطع : أحضر من يبرزه . فمضى إلى قريته ، وفيها رجل حداد ، فأخذه ... فشاهدت هذا الحداد ، وهو شذب هوى ... وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ ، إلا أنه قوى النفس ، يرتجز وهو غير

(٢) الاعتبار من ٩٨ و ٩٩ .

(١) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٩ .

محتفل بالمبارزة ، فجاء (البسكند) وهو شحنة ^(١) البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والقرص ، وجعل الناس حولهم حلقة ، والتقوا .. وقد تضاربا حتى بقيا كعود الدم ، فطال الأمر بينهما .. وأعيا ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد ، يدخل أصابعه في عينيه ، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه ، ثم قام عنه ، وضرب رأسه بالعصا ، حتى قتله ، فطرحوا في رقبتة في الوقت حبلا ، وجروه شنفوه ... وهذا من جملة فقههم وحكمهم . لعنهم الله . ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القدس فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعشى ، وهو شاب ، عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة ، وسأله في أن يأذن له في الوصول إلى خدمته إلى دمشق ، ففعل ، وسألت عنه ، فخبرت أن أمه كانت مزوجة لرجل إفرنجي ، فقتلته ، وكان ابنها يحتال على حجاجهم ، ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك ، وعملوا له حكم الإفرنج : أجلسوا (بنية) عظيمة ، وملئوها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكثفوا ذلك المتهم ، وربطوا في أكتافه حبلا ، ورموه في (البنية) فإن كان بريئاً غاص في الماء ، فرفعوه بذلك الحبل ، لا يموت في الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فخرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكحلوه ^(٢) ،

وصور الأدب كذلك بعض عاداتهم في الأعياد : إذ يخرج الفرسان ، يلعبون بالرماح ، و يقيمون بعض المسابقات ^(٣) . وحفظ أنفة المسلمين من تناول طعام الفرنج ، بل أرانا بعض الفرنج لطول ما عاشر المسلمين يكره طعام الفرنج ، ولا يدخل داره لحم خنزير ، ويستخدم طاهيات مصريات ^(٤) .

ومجد الأدب العربي فيهم غيرتهم ، وحاستهم ، وإخلاصهم ، وتفانيهم في استخلاص قبر المسيح ، ومن خير ما يدل على ذلك رسالة للفاضل الفاضل ، وفيها يقول : . . . قوم قد استطابوا الموت ، واستجابوا الصوت ، وفارقوا المحبوبين : الأوطان ، والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل ، والديار ، وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامثالاً لأمر مركيسهم ، وغيره لمتعبدهم ، وحية لمعتقدهم ، وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرقا على قمامتهم ، لا يطلبون مع شدة الإملاق مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبا

(١) رئيس الشرطة .

(٢) الاعتبار ص ١٠٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٤ .

تساقط الفراش ، ويقتحمون الردى متدريعين الصبر مثبتى الجاش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجيزات (١) .
كما أعجب ابن شداد بوضعهم أهدافهم نصب أعينهم ، وعملهم على تحقيق هذه الأهداف ، باللين تارة ، والخشونة أخرى (٢) .

ولم إلى جانب ذلك سجل عليهم الغدر ، وجعله من سيئاتهم ، وخصائصهم البينة فيهم ، وأن العهد لا قيمة له عندهم ، فهم يحتفظون به إذا ضعفوا ، ويقسخونه إذا وجدوا أنفسهم قديرين على التحلل من قيوده ، يصف ذلك القاضي الفاضل في رسالة له ، فيقول : . . . تشنع ملك بالغدر ، وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه ، في أهل عكا ، نهاراً ، جهاراً ، وشهد فيها بخزيه وفضيخته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج معلوم .

إذا غدرت حسناء وفيت بمهداها ومن عهداها ألا يدوم لها عهد
القوم هادئوا لما ضعفوا ، ويفجرون إذا قووا . . . (٣) ،
وسجل عليهم هذا الغدر ابن الساعاتى ، فقال :

أيسكن أوطان النبين عصبه تمين لدى أيمانها ، وهي تحلف (٤)

ذلك ما وصلنى من وصف المسلمين لصفات الفرنج ، بعد ما تيسر من الاختلاط بهم ، والاتصال بعاداتهم وتقاليدهم .

وأكد ألمس بما ذكره أسامة صفة أخرى ، تلك هي أنهم كانوا يعتزون بأنفسهم ، ويشقون في شجاعتهم ، ومقدرتهم العقلية والعلمية ، ولكن المسلمين لم يسلخوا لهم بهذه الصفة ، وعدوها دليلاً على ضعف عقولهم . روى أسامة قال : كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجى ، قد وصل من بلادهم يحج ، ويعود ، فأفسسنى ، وصار ملازماً ، يدعونى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده ، قال لى : يا أخى ، أنا سائر إلى بلادى ، وأريدك تنفذ معى ابنك ، وكان ابنى معى ، وهو ابن أربع عشرة سنة — إلى بلادى ، يبصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل ، فطرق سمعى كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن ابنى لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج ، فقلت : وحياتك هذا الذى كان فى نفسى ، لكن منعى من ذلك أن جدته أمى

(١) الررضتين ٢ : ١٦١ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٢١٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٣ .
(٤) ديوان ابن الساعاتى ٢ : ٢٠٩ .

تجبه ، وما تركته ، يخرج معي حتى استحلقتني أن أردده إليها ، قال : وأملك تعيش ؟ قلت :
نعم ، قال : لا تخالفها^(١) .

هذا ويخيل إلى أن الذين تعلموا العربية من الإفرنج كانوا أكثر عدداً ممن تعلموا اللغات
الأجنبية من العرب ، وأن بعض عظماء الفرنج درسوا العربية ، وأتقنوها ، فكانوا
يستطيعون الحديث بالعربية ، والترجمة منها وإليها ، كما كان ابن الهنفرى ، فإنه كان يترجم
بين الملك العادل وملك الإنجليز^(٢) ، عند ما كانا يتحدثان في الصلح ، وهو من الإفرنج
الساحل ، من كبارهم ، وكان هو المتولى للترجمة يوم عقده الصلح ، بين صلاح الدين والفرنج ،
بينما يعلن أمير كاسامة أن الفرنج عند ما يتكلمون لغتهم يبربرون بلسانهم ، ولا يدرى بما
يقولون شيئاً^(٣) .

١٢ - رثاء الأبطال

كان من الطبيعي أن يقف الأدب حزيناً باكياً ، عند ما يهوى نجم من هذه النجوم التي
كانت تلعب أمام المسلمين ، وتضيء قلوبهم ، وتخلق في نفوسهم الأمل في حياة ، تتطهر فيها
أرضهم من آثام العدو الغاصب ، وأن يسجل لهؤلاء الأبطال ما قدموه في حياتهم ، بما يخلد
ذكرهم ، ويضعهم أمام خلفهم مثلاً يقتدى بهم ، وقد قام الأدب بنصيبه في ذلك ، فرأينا
نصر الله الهيثي يرثي طلائع بن رزيك ، وهو بطل من أبطال هذه الحروب^(٤) ، كما رثى ابن
عنين المظلم عيسى ، وأشاد في رثائه بوقائعه ضد الفرنج^(٥) ، كما رثى الشعراء الصالح أيوب^(٦) .
ومن الخير أن أقف عند ثلاثة من أبطال هذه الحروب ، لأرى كيف خلد الأدب
بطولتهم ، وكيف أشاد بقبوغيهم ، ومجد خلاصهم وسمايتهم ، وهؤلاء الأبطال هم : عماد الدين
زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب .

أما عماد الدين زنكي فقد صورته لنا الأدب مؤسس ملك ، وباني سلطان ، غنياً ، جمع
ثراء ضخماً ، وكنوزاً لعله أراد بجمعها أن يستعين بها على ما أعد نفسه له : من تطهير الأرض
المقدسة من دنس الفرنج ، فاستطاع أن يستولى على المعقل والحصون ، وأن يتسع سلطانه ،
وأن تملأ هيئته الصدور ، وأذاع جوده في طالبيه ، وجعل للعدل سلطاناً في أرجاء مملكته ،

(١) الاعتبار ص ٩٧ . (٢) النوادر السلطانية ص ١٧٤ . (٣) الاعتبار ص ١٠٤ .

(٤) المجردة المصورة ١ : ٤٠ . (٥) ديوان ابن عنين ص ٥٩ . (٦) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٣٧ .

(الحياة الأدبية في الحروب الصليبية ص ٣٣)

وتجد في رثائه روحاً دينية ، تسرى فيه ، فهو نجم أفل من نجوم الإسلام ، وركن قد انهدم من أركانه ، شجاع ، فتح ثغور الإسلام ، واسترد إمارة الرها ، من بين الإمارات التي استولى عليها العدو . تجد هذه الصورة فيما رثاه به بعضهم إذ قال : « أضحى وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلي عنه العبيد والخول ، فأى نجم للإسلام أفل ، وأى ناصر للإيمان رحل ، وأى بحر ندى نضب ، وأى بدر مكارم غرب ، وأى أسد اقترس ، ولم ينبج قلة حصن ولا صهوة فرس ، فكم أجهد نفسه لتقيد الملك ، وسياسته ، وكم أدبها في حفظه وحراسته » (١) . وفي قول بعض الشعراء :

كذاك عماد الدين زكى ، تنافرت سعادته عنه ، وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر وأنواع ديباج حوتها مخاتميه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة يحامى عليها جنده وخوادمه
وكم معقل قد رام به بسيفه وشاخ حصن لم تفته غنائمه
وكم ثغر إسلام حواه بسيفه من الروم لما أدركته مراحمه (٢)
وفي قول الحكيم أبي الحكم المغربي :

لم يهب شخصه الردى ، بعد أن كانت له هبة على كل تركي
يهب المال ، والجياذ ، لمن يمممه مادحا ، بغير تلكمى (٣)
أى فتك جرى له في الأعدى بعد ما استفتح (الرها) أى فتك
بعد ما كاد أن تدن له الروم ، ويحوى البلاد من غير شك (٤)

وفي رثائه نور الدين محمود يظهر ما كان يراود المسلمين يومئذ : من آمال كبار في استرداد بلاد الإسلام ، وإعادة مجد تعاليم محمد رسوله ، فطفت صفته حامياً للإسلام ، وهازماً للفرنج ، على ما عداها : من صفاته ، وفضائله ، ومع ذلك يحجل له الأدب صلابة العود ، ونفاذ العزيمة ، ومضاء الرأي ، وسداده ، ورحمته بالرعية ، ورغبته في إصلاح مملكته بتشديد المساجد ، وبناء المدارس ، ترى هذه الصورة في قول العماد يريته :

الدين في ظلم ، لغيبه نوره والدهر في غم ، لفقد أميره
فليندب الإسلام حامى أهله والشام حافظ ملكه ، وثغوره
ما أعظم المقدار في أخطاره إذ كان هذا الخطب في مقدوره
من للمساجد ، والمدارس بانياً لله طوعاً ، عن خلوص ضميره
من ينصر الإسلام في غزواته فلقد أصيب بركنه وظهيره

(١) الروضتين ١ : ٤٢ . (٢) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٣) برید بغیر تلكمى ، فلم تساعد القافية . (٤) الروضتين ١ : ٤٦ .

من للفرنج ، ومن لأسر ملوكها	من للهدى يبنى فكاك أسيره
من للخطوب ، مذلا لجناحها	من للزمان مسهلا لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه	من مشرق في الداجيات بنوره
من للكريم ، ومن لنعش عثاره	من لليتيم ، ومن لجبر كسيره
من للبلاد ، ومن لنصر جيوشها	من للجهاد ، ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولا أبكارها	برواحه في غزوه ، وبكوره
أنت الذي أحييت شرع محمد	وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقت من الشريعة معلماً	هو ، منذ غبت ، معرض لدثوره
أو ما وعدت القدس أنك منجز	مبعاده ، في فتحه ، وظهوره
ففي تجير القدس من دنس العدا	وتقدس الرحمن في تطهيره
حياك معتل الصبا بنسيمه	وسقاك منهل الحيا بذروره
ولبست رضوان الميمن ساحبا	أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه	حلف المسرة ، ظافراً بأجوره

فإذا جئنا إلى رثاء صلاح الدين وجدنا الأدب يعبر عن هذا الزهول الذي أصاب المسلمين بموته ، فهم يستعظمون هذا الموت ، ولا يجدونه فناء فرد ، ولكنه فناء آمال أمة ، وكانت أعمال صلاح الدين الكثيرة مجالا لاتساع نفس القول فيه ، فهذا العباد الكاتب يرثيه بقصيدة تبلغ مائتين واثنين وثلاثين بيتاً ، تحدث فيها عن مآثره ، وسجل أخلاقه وسماته ، وغنى من بين ما غنى به بالإشادة بالدور الخالد الذي قام به صلاح الدين ، مدافعاً عن الإسلام ومحطاً قوى أعدائه ، وباذلاً في سبيل ذلك كل ما يستطيع أن يبذله ، بما لو كان في عصر النبي لنزلت الآيات في تمجيده ، ويسجل الشعر ما كانت تبذله الرعية له : من طاعة ، لطاعته ربه .

قال العباد يرثيه :

شمل الهدى والملك عم شتاته	والدهر ساء ، وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية	مرجوة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا	مبذولة ، ولربه طاعته
بأنه أين الناصر الملك الذي	له خالصة صفت نياته

أين الذي عنك الفرج لبأسه
 من في الجهاد صفاحه ما أغدت
 من في صدور الكفر صدر قناته
 لئذ المتاعب في الجهاد، ولم تكن
 في نصرة الإسلام يسر دائماً
 لا تحسبوه مات شخص واحد
 ملك عن الإسلام كان محامياً
 قد أظلمت مذئاب عنادوره
 الدين بعد أبي المظفر يوسف
 من الليثي والأرامل راحم
 لو كان في عصر النبي لأنزلت
 من للثغور، وقد عداها حفظه
 بكت الصوارم، والصواهل، إذ خلت
 يا وحشتا للبيض في أغمادها
 يا وحشة الإسلام، يوم تمكنت
 ملأته مهابة البلاد، فإنه
 وما قاله جعفر بن شمس الخلاقة يرثيه :
 جزاء عن الإسلام خيراً إلهه
 تداركه بعد ابتذال، فقد غدا
 وأصبح للبيت المقدس منقذاً
 أذل له الله العدا، مذ أطاعه
 سقى الخلد عند الله دار مقره
 وهكذا كان لجهاد الصليبيين أثره الواضح في رثاء أبطال هذه الحروب .

فما مل عنه من دفاع ومن ذب
 وكان شديد الخوف، في أمنع الحجب
 بأصلب عزما من مقارنة الصلب
 وسهل منهم كل بمتنع صعب
 يتمتع منه بالجوار، وبالقرب
 فما مل عنه من دفاع ومن ذب
 وكان شديد الخوف، في أمنع الحجب
 بأصلب عزما من مقارنة الصلب
 وسهل منهم كل بمتنع صعب
 يتمتع منه بالجوار، وبالقرب

١٣ مدح الرسول

في هذا العصر الذي سادته الحروب باسم الدين، وقف الأدب يدافع عن صاحب هذا

الدين ، الذي يهاجمه الفرنج ، فظهر عند كثير من شعراء هذا العصر ميل إلى مدح الرسول ، وتمجيده ، بقصائد طويلة ، تتحدث عن صفاته ، وتمجد دينه ، وتشيد بفضائله ، كما قام رجال أصول الدين بالبرهنة على عقائد الإسلام ، ومناقشة عقيدة الفرنج ^(١) . وقد سبق أن رأينا بعض الشعراء ينظم من الشعر ما يرد به على عقيدة غير المسلمين ^(٢) .

وقد رأينا عشرات من الشعراء ، يقرضون الشعر في مدح صاحب الرسالة ، بل لقد ألف بعض الشعراء ديوانا خاصا بمدح النبي ، وإذا كان قد عاش بعضهم إلى ما بعد هذا العصر ، فقد كان لهذه الحروب أثرها في هذا التوجيه ، ومن ذلك ديوان: بشرى اللبيب بذكرى الحبيب ، خصه ناظمه ابن سيد الناس اليعمرى بمدح الرسول ^(٣) ، وديوان: أهني المناح في أسنى المدائح ، للشهاب محمود بن سليمان ^(٤) . وقد عاش هذان الشاعران حينما طويلا في عصر الحروب الصليبية نفسها ، وقد يكون الديوانان مما نظما في العصر نفسه .

وبقى لنا كثير من القصائد التي تضمنت مدح الرسول ، وتأنيق الكثير منهم ما شاء له التأنيق ، فهذا جلال الدين الدشناوى يقرض قصيدة من هذا النوع على حروف المعجم ^(٥) ، وشارك في هذا التراث من الأدب النبوي كثير ، منهم أحمد بن عبد القوى ، وعبد الرازق بن حمام ، ومحمد بن حمزة الفرجوتى ، ومحمد بن الحسين ، والأرمنى ، وحمزة بن محمد بن هبة الله بن عبد المنعم ^(٦) ، وأبو بكر بن شافع ، وابن جبير ^(٧) ، وابن بدت الأعز ^(٨) ، وابن دقيق العيد ^(٩) وابن الزملكاني ^(١٠) ، والحسن بن صافى ^(١١) ، وصفوان بن إدريس ^(١٢) ، وعلى بن محمد العمرانى ^(١٣) .

وكان لقصيدة : د بانت سعاد ، أثرها في هذا العصر ، حاول أن يقلدها بعض الشعراء . ومن هؤلاء الذين أعجبوا بهذه القصيدة شبيب بن حمدان ، وقد بقى لنا من قصيدته قوله :

-
- (١) راجع فصل (أصول الدين) في كتاب : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، لصاحب هذا الكتاب (٢) راجع ترجمة البوصيرى . (٣) الديوان مخطوط بدار الكتب رقم ٦٨٩١ - أدب .
 (٤) مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٩٦ - أدب . (٥) الطالع السعيد من ٢٧٠ .
 (٦) راجع الطالع السعيد من ٤٤ و ١٦٨ و ٢٨٨ و ٣٤٩ و ٢٨٥ و ١٢١ و ٢٦ ، بترتيب الأسماء .
 (٧) رحلة ابن جبير ص ٥ . (٨) فوات الوفيات ١ : ٢٥٦ .
 (٩) المرجع السابق ٢ : ٢٤٥ و ٢٤٦ . (١٠) المرجع السابق ٢ : ٢٥١ .
 (١١) وفيات الأعيان ١ : ١٣٥ . (١٢) معجم الأدباء ١٢ : ٥١١ .
 (١٣) المرجع السابق ١٥ : ٦٢ .

إلى النبي رسول الله ، إن له مجداً تسامى ، فلا عرض ، ولا طول
مجداً كبا الوهم عن إدراك غايته ورد عقل البرايا ، وهو معقول
مظهر ، شرف الله العباد به وشاد نحر آبه الأملأك جبريل
طوبى لطيبة ، بل طوبى لكل فتى له بطيب ثراها الجعد تقبيل
لست أخفى ما فى هذه الآيات من ضعف أسلوب ، يبعدها عن أن تكون فى مستوى
القصيدة المعارضة ، فلا معنى لنفى العرض والطول عن المجد المتسامى ، ولا معنى لوصف
ثرى طيبة بأنه جعد .

ومنه ابن الساعاتى ، وقد بقيت لنا قصيدته كاملة ، وربما كانت هى القصيدة التى عنى
صاحبها بأن ينهج فيها نهج القصيدة المقلدة ، فى بدئها بالغزل ، وإن اختلف طريقاهما : فبينما
كعب بن زهير يتجه إلى وصف من يتغزل بها ، ووصف بعدها ، والناقة التى يحتاج إليها ،
كى يصل بها إلى حبيبته . مما يمكن أن يدور حول الآيات الآتية .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول (١) متم لإثرها ، لم يفد ، مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن (٢) ، غضيض الطرف ، مكحول

.....

أمت سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق ، النجيات ، المراسيل
ولن يبلغها إلا عذافرة لها على الآين إرقال وتبغيل (٣)
وهضى كعب يصف الناقة مستخدماً ألفاظاً كثيرة نعددها اليوم غريبة عنا .

أما ابن الساعاتى فحدثنا فى غزله عن كثير من إحساسات الحب : فوصف لنا أثر الفراق
فى نفسه ، وبكائه على الاطلال التى فارقها سكانها ، وشكوى من معاملة الحبيبة ، ووصف
لها . ويسود غزله الشكوى من الفراق ، ومن هذا الغزل قوله :

جد الغرام ، وزاد القال والفيل وذو الصبابة معذور ومعذول
يا دمية الحى ، ما حزنى لفرقتكم دعوى ، ولا وجدى العذرى منحول

(١) تبلة . ذهب بقله .

(٢) ظي أغن : يخرج صوته من خياشيمه .

(٣) العذافرة : الناقة العظيمة الشديدة ، والآين . الإعياء ، والإرقال : الإسراع ، وتبغيل الإبل :

مشيها بين الهملجة والعنق .

وقفت ، والدمع جار ، يوم بينهم وكيف أمضى ، وحد الصبر مفلول
 هم المنى ، والأمانى غير صادقة وعدا ، وسؤلى هم ، لو يدرك السؤل
 عج بالمنازل ، واسأل عن أواسها فهي المحاريب ، أو هن التماثيل
 أبكى ، وأندب رسمها بكاطمة وفيهما لعليل الشوق تعليل
 وإذا كان غزل كعب يتسم بالوحدة والتناسق وكثرة استخدام الألفاظ التي نعدها اليوم
 غريبة ، فغزل ابن الساعاتى ليس فيه هذا الترابط القوى ، بل فيه تخلخل ، وحديث عن
 إحساس ، وانتقال إلى إحساس سواه ، ثم عود إلى الإحساس الأول ، وفيه سهولة ، تناسب
 العصر الذى أنشئ فيه ، ثم فيه صناعة ، وولوع بالمحسنات البديعية ، والزخارف اللفظية .
 وانتقل الشاعران من الغزل إلى المدح . أما كعب بن زهير فقد شغله إهدار النبي دمه ،
 لجعل الحديث عنه ، والاعتذار إلى الرسول ، وسيلة إلى مدحه ، وفاتحة له ، وقد أجاد في
 وصف ما سمعه من هذا النبأ ، وفي حسن اعتذاره ، وحديثه عن الهيبة التي ملأت قلبه ، من
 الرسول ، وذلك حين يقول :

تسعى الوشاة جنبها ، وقولهم إنك يا ابن أبي سلى لمقتول
 فقلت : خلوا سبيلي ، لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول
 كل ابن أثى ، وإن طالت سلامته يوما على آلة حديد محمول
 أنبت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
 وأجاد كعب في وصف شعوره نحو الرسول في قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند ، من سيوف الله ، مسلول
 فقد كان شعوره بقوة الرسول هو الذى أوحى إليه بتشبيهه بالسيوف ، ومع أنه سيف
 مهند ، مسلول ، يضىء ، ويستضاء بنوره .
 ثم انتقل كعب إلى مدح المهاجرين ، لأهم قومه ، وعشيرته ، ومنهم يرجو العون
 والشفاعة عند الرسول .

أما ابن الساعاتى فقد ملكه شعور أن مدحه للرسول وسيلة من وسائل ذبوع صيته ،
 ونشر شعره على ألسن الناس ، فحدثنا عن هذا الخاطر ، ومضى منه إلى مدح الرسول الذى
 لم يقف فيه ، عند حد قوة الرسول وهدايته ، بل ألم بغير ذلك من تمجيد صفاته ، إذ قال :

ومن عجائب ما تحدى الركاب به صيت يطير بفضلتي ، وهو محمول
وكيف أحمّل في دنيا وآخرة ومنطقي ، ورسول الله مأمول
هو البشير ، النذير ، العدل شاهده وللشهادة تجريح وتعديل
ولا ريب أن الحروب الصليبية كان لها أثرها في النص على أن العالم إنما وجد لإكرام
لرسول الله ، وأنه سيد الرسل ، وشافع في الناس جميعاً ، وأن رسالته قد شهد بها وتحدث
عنها التوراة والإنجيل ، بما لا نجد في شعر كعب . وهكذا رأينا ابن الساعاتي يقول :
لولا لم تلك شمس ، لا ، ولا قر ولا الفرات ، وجارها ، ولا النيل
ولم يحب آدم في حال دعوته نعم ، ولم يك قابيل وهاييل
فسيد الرسل حقاً ، لا خفاء به وشافع في جميع الناس مقبول
ثبت نبوته الأخبار ، إذ نطقت فحدثت عنه توراة وإنجيل
ولم يغفل ابن الساعاتي نور النبي الهادي ، إذ قال :

أضياء هديا ، وجنح الكفر معتكر ووجه حق ، وستر الشك مسدول
ومضى ابن الساعاتي كابن زهير يمدح صحابة الرسول ، مشيداً بنبلهم ، وخلقهم ، مطيلاً
في الحديث عن بسالتهم وشجاعتهم ، وكان أكثر القصيدة في هذا المدح الذي ختمه بقوله :
أسد ، إذا نازلوا ، شهب ، إذا سفروا لد ، إذا جادلوا ، سحب ، إذا سيلوا
فلا مفارح ، إن نالت زماحهم ولا مجازيع في البأساء ، إن نيلوا
العالمون بأن النفس هالكة يوماً ، وأن قضاء الله مفعول
فما كواحدهم ، في فضله ، أحد ولا كيلهم ، في فضله ، جيل
ولم تنق لأرجى أجر حبهم في يوم حبهم أحر وتحويل
والبيت الثاني هنا مأخوذ من قول كعب :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً ، وليسوا بمجازيعا ، إذا نيلوا
أما قصيدة البوصيري التي سماها : زخر المعاد في معارضة بانت سعاد ، فقد بدأها بتوجيه
النصيحة أن يسرع المرء إلى التوبة ، وأن ينصرف عن الانهماك في اللذات ، إذ يقول :
إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول ؟
في كل يوم ترجى أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويق محلول

ومضى في إنذاره وتحذيره ، مخوفاً المصير في يوم يبعث فيه الناس ، ويتبين الراجح والخاسر ، وهنا يتجلى أثر العصر ، والنزاع الديني في هذه القصيدة ، إذ يقول :

فأخسر الناس من كانت عقيدته في طيها للنشور الخلق تعطيل
وأمة زعمت أن المسيح لها رب ، غداً وهو مصلوب ، ومقتول
فثلثت واحداً ، فرداً نوحده واللبصائر ، ككالا بصار ، تخيل
تبارك الله عما قال جاحده وجاحد الحق عند النصر مخذول

وحيث يوازن بين كتاب الإسلام ورسوله ، وبين غيره من الكتب والرسل ، فيقول :

والقوز في أمة فضل الوضوء بها قد زانها غرر منه وتحجيل
تظل تلو كتاب الله ليس به كسائر الكتب تحريف وتبديل
فالكتب والرسل من عند الإله أتت ومنهم فاضل حقاً ، ومفضول
والمصطفى خير خلق الله كلهم له على الرسل ترجيح وتفضيل

وأخذ الشاعر بعدئذ يتحدث عما خص به محمد من الفضل ، وما أوتي به من المعجزات . كما بدا أثر العصر مرة أخرى حين أخذ يبين ظلم النصارى ، إذ أنكروا رسالة محمد ، ويرد عليهم قائلاً :

قل للنصارى الآلى سامت مقالته من اليهود استقدمت ذا الجحود ، كما
فإن يكن عندكم توراتهم صدقت ظلتمونا ، فأضحوا ظالمين لكم
أما عرفتم نبي الله معرفة الآ هذا الذي كنتم تستفتحون به
فلا ترجوا جزيل الأجر من عمل تبادثون بزي من جهالتكم
موتوا بغيظ ، كما قد مات قبلكم

فأما غير محض الجهل تعليل : من الغراب استفاد الدفن قايل
ولم تصدق لكم منهم أناجيل وذاك مثل قصاص فيه تعديل
بناء ١٤ لكنكم قوم مثاكيل لو اهتدى منكم للرشد ضليل
إن الرجاء من الكفار مخذول به اتفاخ ، وجسم فيه تهويل
قايل ، إذ قرب القربان هايل

ومضى بعدئذ يعدد غزوات الرسول ، وما ظهر فيها من آيات ، تدل على صدق رسالته ، وأشاد طويلاً بما ناله المسلمون من إيذاء المشركين ، وما ذاقه هؤلاء من ألوان المر في القتال ،

وكان ذلك خطوة إلى مدح أصحاب رسول الله ، مطيلاً في هذا المدح الذي كان العنصر الأساسي فيه هو .

قوم لم في الوغى من خوف ربهم حسن ابتلاء ، وفي الطاعات تبئيل
كأنهم في محارب ملائكة وفي حروب أعادهم رأييل
وتحدث الشاعر عن معارضته لكعب بن زهير ، معترفاً بفضل كعب ، وغير جاحد
لنفسه فضل ما أتى به من شعر ، فقال :

وما على قول كعب أن توازنه فربما وازن الدر المشاقيل
وهل تعادله حسناً ، ومنطقها عن منطق العرب العرباء معدول
وحيث كنا معاً نرى إلى غرض فحبذا ناضل^(١) منا ومنضول
لما غفرت له ذنباً ، وصنت دماً لولا ذمامك أضحى وهو مطلول
رجوت غفران ذنب موجب تلقى به إلى النفس إملأ وتسويل
والبوصيري قد اقتبس من كعب بعض أشعار قصيدته . وفضلاً عن ذلك تنطق قصيدة
البوصيري عن نفس مؤمنة ، شديدة اليقين في معجزات الرسول ، لا تناقش فيها ، ولا تمتري
في اليقين بها .

أما أشهر قصيدة في مدح الرسول بقيت لنا من العصر الصليبي فقصيدة البردة ، التي أنشأها
البوصيري ، ولا أريد أن أطيل في بيان سبب تسميتها بذلك الاسم . وصاحب فوات
الوفيات^(٢) يروي أن البوصيري قال : كنت قد فظمت قصائد في مدح الرسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج بطل نصفي ، ففكرت في عمل قصيدتي هذه :
البردة ، فعملتها ، واستشفعت به إلى الله تعالى ، في أن يعافيني ، وكررت إنشادها ، وبكيت ،
ودعوت ، وتوسلت ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فسح علي وجهي بيده المباركة ،
وألقي علي بردة ، فالتبته ، ووجدت في نهضة ، فقممت ، وخرجت من بيتي . . . ولا أنكر
صحة هذه الراوية ؛ لما هو ثابت مقرر من تأثير العقيدة في النفس ، وأثر الإيمان والإيمان في
دواء الأمراض ، وشفاء الأجسام .

بدأت القصيدة بنقلنا إلى بلاد العرب ، حيث جيران ذي سلم ، وحيث تهب الريح من

تلقاء كاظمة ، وإذ كانت القصيدة مدحا للرسول ، منبعثاً عن الحب ، فقد بدأها بالحديث عن الحب الذى لا يستطيع صاحبه إخفائه ، والذى يثور فى القلب عند رؤية طيف الحبيب :

أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقى لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا ، بعد ما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم ؟
نعم سرى طيف من أهوى ، فأرقى وأحب يعترض اللذات بالالم

وبعد هذا الغزل ، انتقل إلى وجوب استماع نصيح الناصح ، وأن الشيب يدفع إلى العمل بالنصح ، لولا أن النفس أماراة بالسوء ، وهنا وجد الشاعر مجالا للتحذير من هوى النفس ، والجد فى كسر جماعها ، فالحخير كل الخير فى كسر شهونها ، وصرف هواها :

والنفس كالطفل : إن تهمله شب على حب الرضاع ، وإن تفضمه ينظم
فأصرف هواها ، وحاذر أن توليه إن الهوى ، ما تولى ، يصم ، أو يصم
كم حسنت لذة للبرء قائمة من حيث لم يدرك أن السم فى الدسم

وكما انتقل انتقالا مستقيما من الغزل إلى استماع النصيح فى الحب ، والحديث عن طبيعة النفس ، انتقل كذلك انتقالا طبيعياً إلى مدح الرسول : ذلك أنه اتهم نفسه بأنه ينصح غيره ، ولكنه لا ينتصح ، ولا ياتمر بالخير ، ولا يستقيم ، وفى ذلك كله ظلم لسنن الرسول الكريم ، الذى جعل من أكبر الآفام أمر الناس بالمعروف ، ونسيان النفس أن تأتمر به . وهنا أخذ على البوصيرى أن الوصف الذى كان من اللائق أن يكون للرسول هنا هو هذا الوصف ، الذى ذكرناه ، لا أن يوصف بما ذكرته القصيدة : من تهجده طول الليل ، حتى اشتكت قدماه من الضر ، فى قوله :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وهنا انتقل انتقالا طبيعياً إلى مدح الرسول ، وكان أول ما سجله من فضائل الرسول زهده ، برغم أنه كان يستطيع الحصول على الغنى والثراء ، وربما كان الدافع له إلى تسجيل هذه الصفة فى المكانة الأولى رغبته فى أن يبين للوك عصره الذين يحكمون باسمه مدى ما يفرق بينهم وبينه : من شدة زهده ، وشدة جمعهم وحرصهم ، ليكون ذلك أول ما يطرق الأسماع من صفاته المجيدة وسجاياه .

ومضى الشاعر يتحدث عن إعجابه الذى لاحد له بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم . ومن المرجح أن للعصر دخلا فى الحديث عن تقديره هذا التقدير السامى ، وعن الإعجاب به هذا الإعجاب الذى لا تقيد حدوده ، سوى أن محمداً بشر لا إله ، وعن الإعجاب بدينه ، ووصفاً بأنه دين معقول ، يدرك المرء أسرارته ، ويعرف فى سهولة ويسر أسباب أوامره ونواهيه . كان للعصر أثره فى التعبير عن هذا الإعجاب ، وإنزاله هذه المنزلة التى لا تساوى به أحد من الناس ، وذلك حين يقول .

محمد سيد الكونين ، والثقلين ، والفريقين :	من عرب ، ومن عجم
فاق النبيين فى خلق ، وفى خلق	ولم يدانوه فى علم ، وفى كرم
فهو الذى تم معناه ، وصورته	ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم
منزه عن شريك فى محاسنه	لجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصرارى فى نبيهم	واحكم بما شئت مدحا فيه ، واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف	وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له	حد ، فيعرب عنه ناطق بفهم
لم يمتحنا بما تعيا العقول به	حرصاً علينا ، فلم نرتب ، ولم نهم
أعيا الوى فهم معناه ، فليس يرى	فى القرب والبعد منه غير منفهم
فبلغ العلم فيه أنه بشر	وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آتى الرسل الكرام بها	فإنما اتصلت من نوره بهم

أثر العصر واضح فى هذا المدح الحريص على وضع الرسول فوق طبقة الرسل أجمعين وأنهم كلهم يستمدون فضائلهم منه ، ويأخذون عنه العلم والمعرفة ، ويبرز بعده ع عقيدة النصرارى فى نبيهم . وكل ذلك من وحى العصر الذى جعل الإسلام والمسيحية يقف أحدهما فى وجه صاحبه ، ويدعى كل منهما أنه الدين الحق .

ومضى الشاعر بعدئذ يعدد معجزات الرسول ، فى ميلاده ، وفى رسالته ، حتى إذا جاء إلى معجزة القرآن أطال فى الحديث عنها ؛ وأوحى إليه العصر بموازنة بين هذه المعجز ومعجزات غيره من الرسل ، وبالرد على من أنكر هذه المعجزة ، من هؤلاء الذين جاء بحاربون هذه العقيدة الصادقة . وذلك حين يقول :

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين ، إذ جاءت ولم تدم
لا تعجبين لحسود راح ينكرها تجاهلا ، وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

وأطال كذلك في الحديث عن معجزة الإسراء، ثم مضى إلى مدح الصحابة، والثناء عليهم،
مطيلاً في هذا المدح والثناء، وختم الشاعر قصيدته مستغفراً من آثامه، ملتجئاً إلى الرسول
راجياً أن يأخذ بيده يوم الحساب .

ويظهر أن الشاعر أراد أن يجعل القصيدة خالصة لمدح الرسول ، فلم يشر إلى مرضه ،
ولا إلى رجائه في أن يتخذ الرسول وسيلة إلى الله ، كي ينقذه من هذا المرض .
وبقيت للشاعر نفسه قصيدة ثانية نالت حظاً من الشهرة ، وعارضها شوقي ، كما عارض البردة،
بقصيدة دعاها : نهج البردة .

هذه القصيدة همزية ، طال نفس الشاعر فيها ، حتى بلغت ستة وخمسين وأربعمئة بيت ،
تمتاز بقوة الأسلوب ، ومتانة العبارة ، وقد بدأها مستوحياً روح العصر ، في رفع محمد فوق
جميع الرسل ، حتى أبيه : آدم ، فقال :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك ، وقد حـ ال سنامك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل ، فاتصـ در إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيـ ب ، ومنها لآدم الأسماء

وأخذ الشاعر يتحدث عن أجداد محمد ، منذ كان في ضمير الكون ، يختار الله له الآباء
والأمهات ، وعما صاحب مولده : من آيات ، تدل على أن الكون قد استقبل يوم ولادته
نبياً ممتازاً. ثم يعود أثر العصر إلى الظهور مرة أخرى في هذه الموازنة التي عقدها الشاعر
بقوله :

من لحواء أنها حملت أحمد د ، أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار مالم تنله النساء
وأنت قومها بأفضل مما حملت قبل مريم العذراء

ومضى الشاعر يتتبع حياة محمد مرحلة مرحلة ، وما بدا في كل منها من معجزات وآيات ،

في رضاعه ، وعند ما شب ، وحين جاءه الوحي ، ولما أرسل إلى قومه . يتحدث عن هذه المعجزات في حب وإعجاب .

وبدا أثر العصر كذلك في هذه القصيدة ، في هذا النقاش الطويل ، الذي ناقش به الشاعر عقيدة المسيحيين جاء فيه :

قوم موسى ، عاملتم قوم عيسى	بالذى عاملتكم الخنفاء
صدقوا كتبكم ، وكذبتم كتبهم ، إن	ذا لبس البواء (١)
لو جحدنا جحودكم لاستويننا	أو للحق بالضلال استواء
ما لكم إخوة الكتاب أناسا	ليس يرعى للحق منكم إخاء
يحسد الأول الآخر ، وما زال كـ	ذا المحدثون والقـدماء
بينته توراتهم ، والأناجيلـ	ل ، وهم في جحوده شركاء
إن تقولوا : ما بينته ، فازالت به	أ عن عيونهم غشواء
أو تقولوا : قد بينته ، فـ	ذن عما تقوله صـماء
كيف يهدى الإله منهم قلباً	حشوها من حبيبه البغضاء
خبرونا أهل الكتابين ، من أي	ن أنا كم تثليثكم والبداء
ما أتى بالعقيدتين كتاب	واعتماد لانهض فيه ادعاء
والدعوى ما لم تقيموا عليها	بينات أبناؤها أدياء
كيف وحدتم لها نفي التوحيد	د عنه الآباء والأبناء
إله مركب ؟ ما سمعنا	باله لذاته أجزاء
أكل منهم نصيب من الملك ؟	فلا تميز الأنصباء
أهو الركب الجار ؟ فـ	ز إله يمسسه الإعياء
أم جميع على الجار ؟ لقد جل حما	ر بجمعهم مشاء
أم أردتم بها الصفات ؟	فلم خصت ثلاث بوصفه وثناء
أم هو ابن الله ما شاركته	في معاني البنوة الأنبياء
قتله اليهود فيما زعمتم	ولامواكم به إحياء
إن قولاً أطلقتموه على الله تعـ	الى ذكراً لقول هراء

وخص البوصيرى صحابة الرسول بجزء كبير من قصيدته ، تحدث فيه عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من عظماء صحابه ، ثم اتجه إلى الرسول يناجيه. ويبدو أن الشاعر أنشأ قصيدته بمناسبة زيارته قبر الرسول ، فقد وصف في القصيدة هذه الزيارة ، وأخذ يستشفع بالرسول ، ويسأل الله أن يغفر له ذنوبه ، وأن يهب له توبة صالحة .

وهكذا كان للحروب الصليبية أثرها في كثرة مدح نبي الإسلام ، وفي المعاني التي مدح بها ، وفي مزج هذا المدح أحياناً بمناقشة عقيدة الفرنج ، الذين هاجموا الإسلام ، والانتصار لنبوة محمد ، وتمجيده تمجيذاً فوق مستوى الأنبياء أجمعين .

١٤ — عهد وعود وتوصية

ليس بعجيب وقد استوطن عدو أرضاً للإسلام أن يكون من أمنية خلفائه وملوكه الإلقاء بهذا العدو إلى البحر ، وأن يوصى الخلفاء أمراءهم وملوكهم ووزراءهم بأن يكون جهاد هذا العدو ، وإعداد العدة لحربه ، من بين أهدافهم ، التي يتوخونها ويعملون لها ، وأن يكون تقوية الجيش والعناية بأمره مما يذكر في عهود توليتهم ، ويتواصون به .

وقد ظهر هذا الاتجاه في وقت مبكر ، فرأينا العهود التي كان الوزراء يولون بها أيام الدولة الفاطمية ، ينص فيها على ذكر الجهاد ، وما له من قيمة في حياة الأمة ، ويوصى فيها بالجنود الذين هم « أشياع الدين ، وأعضاء دولة أمير المؤمنين ... » والقائمون بمداقة الأعداء عن حوزة الدولة العلوية ، والمدخرون لكفاح المباني للمملكة الفاطمية ... والمدعون للذب عن بيضة المسلمين ... المصطلون نيران الحرب والكفاح ، في المواقف التي تهتز فيها السيوف ، وتضطرب كعوب الرماح (١) ...

وجاء في التقليد الذي أرسل به الخليفة العباسي المستنصر ، إلى صلاح الدين ، بتولية مصر والشام : « وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذي يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ، ولا تكون للإسلام نعم الجار ، حتى تكون له بئس الجار ، ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك ، إذا قامت لعيرك الأعداء ، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصالحة ، أو تطرق أرضه بماسيا أو مصابحاً ، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده ، قصد المستغفر ، لا قصد

(١) من عهد القائد لوزيره : طلائع بن رزيك - حسن المحاضرة ٢ : ١٢٢ .

المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة والنضير ^(١) ، وعلى الخصوص البيت المقدس ، فإنه بلاد الإسلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى شرف التعظيم ، والذى توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة فى أسر رقبته ، وأصبحت كلمة التوحيد وهى تشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته ، فانهض إليه نهضة متوغل فى فرحه ، وتبدل صعب قياده بسمحه ، وإن كان له عام حديدية فأتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة بعد سداد ما فى اليد من ثغر كان مهملاً فحسبت موارده ، أو مستهدماً فرفعت قواعده ، ومن أهمها ما كان حاضر البحر والعدو قريب منه على بعده ، وكثيراً ما يأتية لجأة . . . فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها ، ويقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله العليا ، ومع هذا لا بد له من أسطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ^(٢) . . .

وكذلك نجد العناية بأمر الثغور ، وإعداد العدة للجهاد ، فى هذا التقليد الذى بعث به المستنصر العباسى ، إلى الملك الكامل بن العادل ^(٣) . وفى التقليد الذى كتبه بيبرس لابنه بولاية العهد ، أوصاه أن يقتدى به فى الجهاد ، وغزو بلاد الكفر ، فقد جاء فيه : « ومن شيمته الاقتداء فى بسط الإحسان والعدل ، وإحياء سنتنا بما يضيفه على الأولياء من ملابس الفضل ، واقتفاء آثارنا فى غزو بلاد الكفار ، والمجاهد التى تطول بها أيدى الحكمة بالسيوف القصار ^(٤) »

وكان الملوك والسلاطين يرسلون إلى ولايتهم ، يعلنون عزمهم على متابعة الجهاد ، حتى ينقذوا البلاد من أيدي أعدائها . كتب المنصور قلاوون إلى نائب دمشق يقول له : « وشرعنا من الآن فى أسباب الجهاد ، وأخذنا فى كل ما يؤذن إن شاء الله تعالى بفتح ما بأيدي العدو من البلاد . . . ^(٥) . . . وهكذا كان لهذه الحروب أثرها فيما أنشئ من عهود وتقاليد ، مما يدل على ما كان لها : من عظيم الأهمية ، وكبير القدر ، لدى أكبر رجال الدولة ، حتى لينص فى عهود ولاية مصر والشام ، على واجبه إزاءها ، وما يفرضه عليهم الإسلام نحوها .

(١) كان الحكم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، ونسب النذارى .

(٢) حسن المحاضرة ٢ : ٢٣ . (٣) راجع حسن المحاضرة ٢ : ٣١٥ .

(٤) الملوك ١ : ٩٧١ . (٥) المرجع السابق هامش ص ٦٦٤ .

١٥ - وصف ما يتصل بالحرب

من الطبيعي في عصر شغل بالحروب والإعداد لها ، أن نجد في أدبه ما يصور آلات القتال ، ويصف ما يتصل بهذه الحرب : من وسائل فتاكة ، ومعارك رهيبة ، وإن المؤرخ ليستطيع أن يرجع إلى الأدب ، ليتخذ منه معيناً يعرف فيه ما كان في هذه الحرب : من أسباب القتل ، والتدمير ، وما كانت تلجأ إليه المدن : من وسائل الحفظ ، والدفاع عن النفس . فهذا ابن شداد مثلاً يتحدث عن بعض معارك عكا ، واصفاً ما استخدم فيها من آلات من كلا الجانبين ، وقد هاله ما اخترعه العدو من مدمرات ، فإنه « اتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ، ما هال الناظر إليه . . . فأحدثوا آلة عظيمة ، تسمى دبابة ، يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بفصائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم ، برقة شديدة من حديد ، وهي تسمى كبشا ، ينطح بها السور بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم ، فتهدمه ، بتكرار نطحها . وآلة أخرى ، وهي قبو فيه رجال . . . إلا أن رأسها محدد ، على شكل السكة التي يحرث بها ، ورأس البرج مدور ، وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وهي تسمى سنوراً . ومن الستائر والسلام الكبار الهائلة ، وأعدوا في البحر بطسة ^(١) هائلة ، وضعوا فيها برجا بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ، ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه ، تمشى عليه المقاتلة . . . وزحف العدو على البلد في خلق لا يحصى عددهم إلا الله ، فأهلهم أهل البلد وشجعان المقاتلة . . . حتى نشبت مخالب أطعمهم في البلد ، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصن منهم في الخندق جماعة عظيمة ، وأطلقوا عليهم سهام (الجروح) وأحجار المنجنيق ، وأقواس الرمي والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب ، وباعوا نفوسهم لخالفها وبارئها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم في الخنادق ، وأوقع الله الرعب في قلب العدو وأخذوا مشتدين هاربين ، يطلبون خيامهم ، والاحتفاء بأسوارهم . . . ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو : من الخذلان ، والهزيمة ، هجموا على كبشهم ، فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه ، فأحرقوه حريقاً شنيعاً ، وظهرت له لبة عظيمة نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل . . . وسرت نار الكبش بقوتها إلى السور ، فأحترق وعلق

(١) نوع من سفن ذلك العصر .

المسلون في الكباش الكلايب الحديدية المصنوعة في السلاسل ، فسحبوه وهو يشتعل ، حتى حصلوه عندهم في البلد ، وكان مركباً من آلات هائلة عظيمة ، ألقى الماء عليه حتى برد حديدته بعد أيام . وبلغنا من (اليزك) أن وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامي ، والقنطار مائة رطل وخرج أصحابنا في شوان على بغتة من العدو ، وضربوا البطسة . . . بقوارير نפט ، فاحترقت ، وارتفع لها في البحر ارتفاعاً عظيماً (١)

ويتحدث عن لقاء مع العدو ذا كراً بعض أدوات القتال ، فقد جعل الأعداء رجالهم سورا لهم ، تضرب الناس بالزنبورك ، والنشاب ، حتى لا يترك أحديهم إلا بالنشاب ، فإنه كان يطير إليهم كالجراد . . . والكوسات تخفق ، والبوقات تنعر (٢)

وهذا القاضي الفاضل يصف حصناً : « وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشر أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، كل فص منها من سبع أذرع ، إلى ما فوقها ، وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه ، إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت سقيته بالكس الذي إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز إلى خصمه من الحديد بألا يتعرض لهدمه (٣) . »

ومن كتاب له يصف ناراً ألتهم حصناً : « وبات الناس في ليلة الجمعة مطيفين بالحصن ، والنار به مطيعة ، وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة ، ومن خلفه مسيلة ، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقعة ، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، وبفسج الظلماء قد استحال جلنارا ، والشفق قد عم الليلة فلم يختص أصالا ولا أسحاراً ، ونفحاتها حميمة وقودها الناس والحجارة . . . فولجت النار مواج يضيق منها الفكر ، ويعجز عنها الإبر . . . وقال الكفر : إنها لإحدى الكبر ، وخولف المثل : إن السعادة لتلحظ الحجر ، وأغنى ضوؤها لسان كل لمة أن يسأل هذا وهذا ما الخبر ، وقذفت بشرر كالجالات الصفر ، وزفرت بغيظ تغفر له حدود الجبال الصعر ، وتلحقها بالكسب العفر ، وبات الليل والنهار

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٦ وما يليها . (٢) المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٣) الروضتين ٢ : ١٣ .

يثله ، وكلما أغمده جعل الوقود يسله ، إلى أن بدا الصباح كأنه منها أمتار الأنوار ، والنشق الشرق ومن عصفرها صبغ الإزار (١) .

وحفظ الأدب كثيراً من وصف الأسطول ، وكان للأسطول في هذه الحروب قيمته وأثره . وما جاء في وصفه ، ووصف هجماته قول ابن الزبير

وكان بحر الروم خلق وجهه	وطفت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما	لم يأت في حين من الأحيان
أحب إلى بها شواني (٢) أصبحت	من فتكها ولها العداة شواني
شبهن بالغربان في ألوانها	وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها (٣) عدد القتال ، فقد غدت	فيها القنا عوضاً من الأشطان (٤)
فأنتك موقرة بسبي بينه	أسراهم مغولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العدا	في كل بكر عندهم وعوان

وكثر في أدب هذا العصر وصف الحصون والقلاع ، كما تراها العين ، وكما تحس بها النفس ، تحدث القاضي الفاضل عن حصن الكرك فقال : « هو شجى في الحناجر ، وقذى في المحاجر ، قد أخذ من الآمال بمخنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها ، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ، وهو حصن الشوبك ، يسر الله الآخر ، كبيت الواصف للأسدين :

ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال ، أو يولغان دما (٥)

ولما كان الزخرف والزينة من أهداف كتاب هذا العصر ، رأينا المغالاة فيهما قد تفسد الوصف وتضعفه ، كما في وصف القاضي الفاضل لقلعة حصص ، في كتاب أرسله إلى زين الدين ابن نجما ، ويقول فيه : « والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما في سحاب ، وعقابا في عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة ، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يحلها بقرعه . عاهدة عصمة صالحها الزمن على ألا يروعا بخلمه (٦) . فضلا عن التكلف الممجوج في الأسلوب ، ضعف الكاتب عند ما وازن بين القلعة وبين الأنملة . وأي أنملة هذه التي يصبح الهلال لها قلامة .

وما يلحظ أن الوصف الذي لجأ إليه الكاتب لم يصور لنا القلعة تصويراً نشاهده

(١) المرجع السابق قه . (٢) الشواني : نوع من السفن الحربية

(٣) أوقر : حل . (٤) الأشطان : الهال .

(٥) الروضتين ٢ : ٥٥ . (٦) المرجع السابق ١ : ٢٣٩ .

بعبوننا ، ونحسه بأنفسنا ، وكل ما استطاع أن يجعلنا نشمر به هو ارتفاعها الذى يزاحم السحاب . ووصف القاصى الفاضل أسياف صلاح الدين ، فقال :

ماضيئات على الدوام ، دواى هى ، فى النصر ، نجدة الإسلام
فى يمين السلطان ، إن جردتها أشبهتها صواعق فى غمام
تنثر الهام كالحروف ، فما أشد به هذى السيوف بالآقلام
فى محارب حربه البيض صلت وركوع الظبا سجود الهام^(١)

ووصف الأدب حصار المدن والمنجنقات والرماح والرايات ، وصور التقاء الجموع فى ميادين القتال . قال ابن الساعاتى يصور لقاء بين الفريقين :

وسل ألس الأعلام عن فتكاته غداة التقى الجمعان : كفر ، وإيمان
بحيث كلوم الدارعين لدى البوغى موارد ، والسمر الذوابل أشطان
كان القنا أغصان يان ، ويبضهم جداول ، والرغف المضاعف غدران
هناك دماء القوم حر ، مزاجها مياه المواضى ، والاسنة ربحان
إذا ما تغنى السيف فى الهام والطللى خفيفاً ثنى رحمه ، وهو نشوان
ثنى القوس عنه راضياً لبلائه وكم سر دهر دونه ، وهو غصبان
بأقار ليل ، والترائك^(٢) هاهنا أسود أقلتها من الخبل عقبان
ولولم يكن ليلا مثار عجابه لما سار فيه صارم وهو عريان^(٣)

والشاعر يلقي من حبه للطبيعة ظلا على وصفه ، فنما يشتق تشبيهاته ، وفيها يدور خياله ، ويظهر أنه كان بعيداً عن جو المعارك الحربية ، وما يسيطر عليها من خوف ورهبة ، فنظر إليها نظرتة إلى عرس يتغنى فيه الاسنة ، وتثنى الرماح لشوى .

ولكنك تسمع صليل السيوف ، وتحس بالتهاب نيران المعركة ، من هؤلاء الذين شاهدوا ميدان الزال ، ورأوا قسوة الحروب ، وشدتها ، كما تجد ذلك فى وصف العماد الكاتب ، برغم ما أثقل به أسلوبه من محسنات وزخارف ، وهذا جزء من وصفه لمعركة حطين : « وأصبح الجيش على تعبته . والنصر على تلبيته ، وبرج بالفرنج العطش ، وأبت عثرتها أن تلتعش ، وكان النسيم من أمامها ، والحشيش تحت أقدامها ، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار

(٢) الترائك : جمع تريكاوهى يفضة الحديد .

(١) المرجع السابق ٢ : ١٢١ .

(٣) ديوان ابن الساعاتى ١ : ١٢٩ .

في الحشيش ، فتأجج عليهم سعارها . وتوهج أوارها ، فبلوا وهم أهل التلثيث ، من نار الدنيا ، بثلاثة أقسام في الاصطلا والاصطلام : نار الضرام ، ونار الأوام ، ونار السهام ، فرجا الفرنج فرجا ... فكلما خرجوا جرحوا ، وبرح بهم حر الحرب فما يرحوا ... فشوتهم نار السهام وأشوتهم ، وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتمهم ، وأعجزوا ، وأزعجوا ، وأخرجوا ، وأخرجوا ، وكلما حملوا ردوا وردوا ، وكلما ساروا أو شدوا ، أسروا وشدوا ، ونأشبههم النشاب ، فعادت أسودهم قنفاذ ، وضايقتهم السهام ، فوسعت فيهم الخرق الناقد ، فأووا إلى جبل حطين ، ليعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشقتهم الظبا ، وفرشتهم على الربى ... ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلقاء ، وصبينا ماء الحديد للإطفاء ، فراد في الإذكاء ، لخطوا خيامهم على غارب حطين ، حين رأونا بهم محيطين ، فأعجلناهم عن ضرب الخيام ، بضرب الهام ، ثم استحر الحرب ، واستمر الطعن والضرب ، وأحيط بالفرنج من حوالهم ، ودارت الدائرة عليهم ... وقتلوا وأسروا بأسرهم ، فمن شاهد القتل قال : ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل . ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للسلبيين كيوم حطين غليل ... وعبرت بها فألفيتها محل الاعتبار ، وشاهدت ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار ، وعانفت أعيانهم خبرا من الأخبار ، ورأيت الرموس طائرة ، والنفوس باثرة ، والعيون غائرة ، والجسوم رسمتها السوائى ، والرسوم درستها العوائى ، وأشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاة ، بالعراء عراة ، ممزقة بالمآزق ، مفصلة المفاصل منترقة المرافق ، مغلقة المفارق ، مخدوقة الرقاب ، مقصوفة الأضلاب ، مقطعة الهام ، موزعة الأقدام ، مجدوعة الآناف ، منزوعة الأطراف ، مفقوءة العيون ، مبعوجة البطون ، منصفقة الأجساد ، مقصفة الأعضاء ، مقلصة الشفاه ، مخلصاة الجباه ، سائلة الأحداق ، مائلة الأعناق ، عديمة الأرواح ، هشمية الأشباح ، كالأحجار بين الأحجار ، عبرة لأولى الأبصار^(١) ... ، والعماد الكاتب يصف ما يصف متأثرا بجو المعركة ، فلم يطف بخياله سوى مناظر الألم ، والبؤس والدمار ، وقد رسم لنا لوحة مؤثرة لسهل حطين ، وما تنأثر فوقه : من أجساد مشوهة ، وأشلاء ممزقة ، وقتلى سترت وجه الأرض ، حتى لم يند يرى سوى هذه المناظر المثيرة المؤلة .

وأكثر الشعراء من وصف الجيوش وصفا يبدو فيه ضخامتها ، وكثرة عددها وعددها ،
فمن ذلك قول ابن سناء الملك ، يصف جيش صلاح الدين :

أتى إليها يقود البحر ملتطما والبيض كالموج ، والبيضات كالحب
تبدو الفوارس منه في سوابغها بين النقيضين : من ماء ، ومن لب
مستلثمين ، ولولا أنهم حفظوا عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب^(١)

وقوله ..

إذا ما صلاح الدين قد سار جيشه فليس الحمى إن أمه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع ، واستلت الطبأ بأفاهه ، حتى أضاء ، وأظلمأ
طليعته الوحش الضواري مصيحة وساقته الطير الجوارح حوما
يقول الذى يلقاه : كم فيه فارسا فيخبره المهزوم : كم فيه ضيفا
وكم فيه من يلقى الكمى مقنعا بفرحة من يلقى الحبيب معما
وكم فيه من يرمى ببعض سهامه فيترك درع القرن بردأ مسهما^(٢)

ووصف العباد جنوده ، بقوله :

جنودك أملاك السماء ، وظنهم

وقال مهذب الدين الموصلى :

وما خضع الفرنج لديك حتى رأوا ما لا يطاق من الكفاح
وما سألك عهد الصلح ودا ولكن خوف معلة رداح
ملأت بلادهم سهلا وحزنا أسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن الساعاتى :

فلم يبد وجه الأرض ، بل حال دونه رجال كأساد الشرى ، وهى ترجف
وجرداء سلوب ، ودرع مضاعف وأبيض هندى ، ولدن مثقف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة إلى أن غدت أكبادها السود ترجف^(٣)

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٣ . (٢) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٣) هذه النصوص من الروضتين ٢ : ١٠١ ، ١٢ ، ١٢ بالتتتيب .

١٦ - ابتهاج ونشيد

لجأ قادة هذه الحروب إلى الله ، مستمدين منه المعونة ، طالبين منه النصر على عدوهم ، ولا سيما إذا حزب الأمر ، واشتد الخطب ، يذكرون في هذه الابتهاجات ضعفهم ، وأنهم لا يستطيعون دفع العدو إلا بقوة قاهرة من الله ، وهم حينئذ يقتدون في ذلك بالرسول الكريم ، وقد أقبلت قريش في خيلها ورجلها ، تحتال عند بدر ، تريد أن تقضى على محمد ودينه ، فاستقبل الرسول القبلة ، وأخذ يدعو الله حتى كاد رداؤه ينحسر عن منكبه .

وبما حفظ من ابتهاجات هذا العصر ما قاله نور الدين محمود ، يناجي به ربه ، وقد خرج للجهاد ، وقضى الله بانهمزام عسكر المسلمين أولا ، حيث بقي نور الدين في شردمة ، وقد قرب عسكر الفرنج ، بحيث اختلط رجالهم برجاله المسلمين ، فوقف الملك العادل ، موليا وجهه قبله الدعاء ، مناجيا ربه ، يقول : « يا رب العباد ، أنا العبد الضعيف ، ملكتنى هذه الولاية ، وأعطينى هذه النيابة ، عمرت بلادك ، ونصحت عبادك ، وأمرتهم بما أمرتني به ، ونهيتهم عما نهيتني عنه ، فرفعت المنكرات من بينهم ، وأظهرت شعار دينك في بلادهم . قد انهزم المسلمون ، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار ، أعداء دينك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أملك إلا نفسي هذه ، وقد سلمتها إليك ، ذابا عن دينك ، وناصرنا لنبيك »^(١) . وفي هذا الابتهاج اعتراف بالضعف ، والتجاء إلى قوة الله ، ثم استدعاء للنصر من الله ، بذكر أن مؤتمرا بأوامره ، منته عما نهى عنه .

وبما حفظ من أناشيد ، تشجع على الجهاد في ذلك العصر ، ما روى من أنه نور الدين سأل العماد الكاتب أن يضع على لسانه دوبيتيات في معنى الجهاد ، فقال :

للغزو نشاطي ، وإليه طربي	مالي في العيش غيره من أرب
بالجد ، وبالجهاد نبح الطلب	والراحة مستودعة في التعب

وقال أيضا :

لأراحة في العيش سوى أن أغزو	سيفي طربا إلى الطلي يهتز
في ذل ذوى الكفر يكون العز	والقدرة في غير جهاد عجز

وقال أيضا :

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب والراحة فى سواه عندى تعب
إلا بالجهد لا ينال الطلب والعيش بلا جد جهاد لعب^(١)
ولعل السر فى اختيار نور الدين وزن الدوييت أنه ، ما يسيغه ذوق نور الدين ، فهو من
أوزان اللغة الفارسية . وإذا كانت الفكرة المسيطرة على ثلاثة الدوييتيات واحدة فإن كل
واحد منها يدعو إلى معنى جديد ، وكل ذلك لتجديد النشاط ، ودفع النفس إلى خوض غمرات
الجهاد ، نشيطة ، بل فرحة طروبا ، ولست فى حاجة إلى أن أبين ما للأناشيد من أثر ، فى دفع
النفوس وحفزها إلى العمل .
وما يوجه إليه النظر فى هذه الدوييتيات أنها سهلة ، وفيها صناعة لفظية لم ينسها العباد ،
وبخاصة الطبايق ، وأن فى بعضها ضعف تأليف ، إذ قدم أداة الاستثناء والمستثنى على المستثنى
منه ، فى الشطر الأول من البيت الأخير .

١٧ - كتب جهاد

هذه وسيلة أخرى ، عمد إليها مؤلفوها ، لحث النفوس على البذل فى سبيل الله ، والدود
عن أرض الإسلام ، واسترجاع ما فقد منها . والجهاد فى سبيل إنقاذ الوطن المغتصب فرض
دينى . وقد مجد القرآن الجهاد فى مواضع كثيرة ، كما مجده الرسول بأحاديث كثيرة أيضاً ،
وخصه علماء الفقه بباب تحدثوا عن أحكامه وآدابه ، واحتل الجهاد فى عصر الحروب
الصليبية مكانة مرموقة ، يراد به تذكير النفوس بما فرضه الدين ، من قيام المسلمين باسترجاع
ما اغتصبه العدو منهم .

ولشغف نور الدين بالجهاد وضع فيه كتاباً بقلمه ، وذكر ابن شداد أن حب الجهاد قد استولى
على قلب صلاح الدين ، وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ،
ولا نظر إلا فى آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ، ويحث
عليه ، ولقد هجر فى حجة الجهاد فى سبيل الله أهله ، وأولاده ، ووطنه ، وسكنه ، وسائر بلاده ،
وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة ، تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ؛ ولقد وقعت الخيمة
فى ليلة ريحية على مرج عكا ، فلو لم يكن فى البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ، ومصابرة ،

(١) المرجع السابق ١ : ٢٠٧ .

واهتماماً ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه بحثه على الجهاد ، ^(١) . ولهذا جمع له ابن شداد كتاباً جمع فيه كل آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى في فضله ، وشرح غريبه ، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفاضل ^(٢) . ومن هذه الكتب كتاب ألفه محمود بن محمد بن صيني . أهداه إلى الأشرف موسى ، فأثابه عليه بخسمائة دينار ^(٣) . ومنها كتاب لعز الدين بن الأثير ^(٤) . وكتاب لأبي العوالى ، ألفه للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقرغ منه في ربيع الأول ، سنة ٦٤٧ هـ ^(٥) .

وبما يؤسف له أن كتاباً من هذه الكتب لم يبق لنا ، ولا نعرف المنهج الذى قام عليه ، سوى منهج كتاب ابن شداد ، وهو كتاب ، كما وصفه صاحبه ، يستقى من الأدب ، لأنه يعترف من القرآن والحديث ، وربما اتبعت الكتب الأخرى هذا المنهج ، أو تكون قد أضافت إلى ذلك بعض ما قاله العلماء والأوائل ، في فضل الجهاد ، وربما ضموا إلى ذلك شعراً ، قيل في الحماسة والجهاد .

١٨ - كتب فضائل البلاد

هذا باب آخر ، اتخذ الأدب وسيلة لإنهاض النفوس ، وحفزها إلى استرداد الأرض المفقودة ، والبلاد المغتصبة . وقد استقى مؤلفو هذه الكتب من معين الدين ، فضوا إلى القرآن والحديث غالباً ، يستشهدون بهما على فضل هذه البلاد . ولما كانت الشام والقدس بوجه خاص الهدف الأساسى من غارة الصليبيين ، رأينا العلماء ينهضون بجمع ما لها من فضائل ومآثرات .

أما الشام فقد نهض بالكتابة في فضائله طائفة من الكتابة ، نذكر من بينهم عبد الكريم ابن محمد بن منصور ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ ، وأبا الحسن على بن محمد الربيعى ، المتوفى سنة ٨٣٠ هـ ، وأبا عبد الله السعدى ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، فقد وضع كل منهم كتاباً في فضائل الشام . وبقى لنا كتابا العالمين الأولين ، وذكر صاحب الفوات أن السعدى وضع كتابه في ثلاثة مجلدات ^(٦) .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٤) كشف الظنون ٢ : ١٤١٠ .

(٦) فوات الوفيات ٢ : ٢٣٨ .

(١) النوادر السلطانية ص ١٦ .

(٣) بنية الوعاة ص ٣٨٩ .

(٥) المرجع السابق ص ٩٧٨ .

وأما القدس والكتابة في فضله فكان لآل عساكر يد طولى في هذا الميدان: ووضع القاسم ابن على في ذلك كتابهما، اتخذ من جاء بعده من المؤلفين مرجعاً، وسماه: الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى^(١)، وقد اعتمد عليه ابن عمه تاج الأمناء، عندما وضع كتابه: الألس في فضل القدس^(٢)، كما ألف أبو سعد عبد الله بن عساكر كتاب فضل بيت المقدس^(٣)، ولخص برهان الدين الفزاري كتاب الجامع المستقصى وغيره، في كتابه: باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف. وقد بقي لنا هذا الكتاب^(٤) وإن كنا قد فقدنا أصله الذي اختصر منه. بدأ المؤلف كتابه ببيان مصدريه اللذين استقى منهما كتابه، فذكر أن غالبه من المستقصى، والتقليل منه من كتاب أبي المعالي المشرف بن المرجى المقدسى، ورتبه على ثلاثة عشر فصلاً، أولها في ابتداء بنائه، والثاني في شد الرحال إليه وفضل إتيانه، والثالث في فضل الصلاة فيه، وفضل الحج، والصلاة في مسجد المدينة، والمسجد الأقصى في عام واحد، والرابع في فضل الإحرام من بيت المقدس وفضل الأذان فيه، والخامس في فضائل الصدقة فيه والصيام، والسادس في فضل الصخرة، وأنها من الجنة، والسابع في فضل البلاطة السوداء، والثامن في قبة المعراج، وقبة النبي عليه السلام و... والتاسع في ماء بيت المقدس و... والثاني عشر في جامع لفضائل بيت المقدس، والثالث عشر في فضائل قبر إبراهيم الخليل عليه السلام وما اتصل به.

ومن هذه الفصول يرى تعلق المؤلف ببيت المقدس، وكأنه يدعو المسلمين إلى أن تتعلق قلوبهم بهذه البقعة، فلا يفرطوا فيها.

والجامع يروى في كل فصل الأحاديث والآثار، التي وردت مرتبطة به، فما جاء في الفصل الثاني منه أن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، وصلاة في مسجدي بألف صلاة، وصلاة في المسجد الأقصى بعشرة آلاف صلاة.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى ببيت المقدس

(١) طبقات الشافعية السبكي ١٤٨:٥ .

(٢) كشف الظنون ١٧٨:١ .

(٣) المرجع السابق ١٢٧٨:٢ .

(٤) غملوط بدارالكتب رقم ٢٣٣٣ تاريخ .

نخص صلوات نافلة ، كل صلاة أربع ركعات ، يقرأ في الخمس صلوات عشرة آلاف مرة : قل هو الله أحد ، فقد اشترى نفسه من الله تبارك وتعالى ؛ ليس للنار عليه سلطان . وعن مكحول رحمه الله أيضاً أنه قال : من زار بيت المقدس شوقاً إليها دخل الجنة ، وأبما رفته خرجوا يريدون بيت المقدس شيعهم عشرة آلاف من الملائكة ، يستغفرون لهم ، ويصلون عليهم ، ولهم مثل أعمالهم ، إذا انتهوا إلى بيت المقدس ، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكاً . وفي الفصل الذى عقده لبيان فضل الصلاة في بيت المقدس أورد عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى في بيت المقدس غفر له ذنوبه كلها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : من حج وصلى في مسجد المدينة والمسجد الأقصى في عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

وفي الفصل الخامس أورد عن البصرى أنه قال : من تصدق بدرهم في بيت المقدس كان فداء من النار ، ومن تصدق برغيف كان كمن تصدق بجبال الأرض ذهباً . وعن مقاتل أنه قال : من صام يوماً في بيت المقدس كان فداء من النار .

وبما أوردته في الفصل السادس . عن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيد البقاع بيت المقدس ، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس . وعن كعب قال : من أتى بيت المقدس ، فصلى عن يمين الصخرة ، وعن شمالها ، ودعا عند موضع السلسلة ، وتصدق بما قل أو كثر استجيب دعاؤه ، وكشف الله كربته ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن سأل الله تعالى الشهادة أعطاه إياها . وعن كعب قال : أحب الشام إلى الله تعالى بيت المقدس ، وأحب القدس إلى الله تعالى الصخرة .

وفي فصل آخر روى عن وهب بن منبه رضى الله عنه ، قال : أهل بيت المقدس جيران الله تعالى ، وحق على الله تعالى ألا يعذب جيرانه ، والأرض التى ذكرها الله تعالى في القرآن فقال : إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ، هى بيت المقدس .

ويجربى الكتاب على هذا النسق . من إيراد الحديث والأثر المتعلق بفضل بيت المقدس . ووضع أبو المعالى المشرف بن المرجى بن إبراهيم المقدسى ، كتاباً في فضائل بيت المقدس ، بوبه ، وأورد في كل باب ما يتعلق به كذلك : من حديث ، أو أثر .

أما كتاب فضائل الشام للحافظ عبد الكريم بن محمد السمعاني ^(١) المتوفى سنة ٥٦٢ هـ فيروى ، على غير ترتيب ، ما ورد . من أحاديث ، وآثار في فضلي الشام بعامة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : الخيرة عشرة أعشار ، تسعة بالشام ، وواحد في سائر البلدان ، والشر

(١) مخطوط بدار الكتب رقم ٥١٩ مجاميع .

عشرة أعشار : واحد بالشام ، وتسعة في سائر البلدان . وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم .
وروى عن قتادة في قوله تعالى : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض
ومغاربها التي باركنا فيها » ، قال : هي أرض الشام .

وعن سعيد بن المسيب في قوله تعالى : « وآتيناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » قال :
هي دمشق . وأورد كذلك ما قيل من شعر في مدحها ، والحنين إليها .

وبعد ، فإنه لا يعنيننا تمحيص هذه الأحاديث ، والتأكد من صحتها ، ولكن يعيننا دلالتها
على ما قلناه : من رغبة مؤلفي هذه الكتب في بث حب هذه البلاد في قلوب الناس ، ليستخلصوها
من يد العدو .

١٩ - تاريخ أدبي

نقصد بالتاريخ الأدبي هذا اللون من الكتابة ، التي يرمى بها صاحبها إلى أن يضع
حوادث التاريخ ، مصوغة في أسلوب أدبي مؤثر ، ويراعى كاتبها في صوغها ما يراعى في
الكتابة الفنية : من الالتجاء إلى الخيال في التصوير ، والالتكاء في التوضيح على التشبيه ،
والجهاز ، والاستعارة ، والتشبيث بأذيال الزخارف ، والزينة اللفظية والمعنوية ، أو أن يضع
إلى جانب الحقائق التاريخية أثرها في نفوس أدياء عصرها ، فيرصد أقوال الشعراء ورسائل
الكتاب .

وفي هذا العصر الحافل بالانفعالات ، ظهر مؤرخون ، كتبوا تاريخهم بلغة أدبية فنية ،
أو جمعوا بين التاريخ والأدب ، ليتم بذلك التأثير الذي رعى المؤلف إليه .

وأظهر هذه الكتب التي نحت هذا المنحى كتاب الفيح القسي في الفتح القدسي ، وكتاب
البرق الشامي ، وكتاب الروضتين في تاريخ الدولتين ، وكتاب مفرج الكروب في أخبار دولة
بني أيوب .

أما الفيح القسي فؤلفه عماد الدين السكاتب ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، سماه بذلك كاتبه مشيراً
إلى أنه قفحة من نفحات قس بن ساعدة الإيادي ، الخطيب الفصيح المشهور . وقد ذكر المؤلف
في أوله الخطة التاريخية الأدبية التي انتهجها في كتابه ، إذ قال : « هذا كتاب أسهمت فيه بين
الأدياء الذين يتطلعون إلى الفرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير
المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخير أن يسمع
والأديب أن يقول ، فإن فيه من الالفاظ ما صار معدناً من معادن الجواهر التي نولدها ،

ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من السنة العجائب التي نورها (١) ، ولما كان المؤلف قد سار على نهج إيراد الحوادث متتابعة على حسب السنين ، وكان قد بدأ بإيراد الحوادث منذ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهي السنة التي فتح فيها بيت المقدس قال ، معللا سبب اختياره البدء بهذا العام : « وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامه معذوق ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممدوق ، وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ وينسق ، وتسفر عن أهلتها دآء المداد وتنشق وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى السكرتين ، فإن العرب كانت إذا تناهت في وصف الرجل بالقوة قالت : كأنه كسر ثم جبر ، والحق أن نقول : إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر ، والعيان يشهد أن أمتع السوريين ما عمر بعد أن ثغر . . . (٢) »

ويؤكد العماد أنه لم يسجل في كتابه إلا ما شاهده وعينه . ثم بدأ بالحوادث التي تتعلق بغزوات صلاح الدين ، وجرت منذ أول عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة ، وارتضى العماد طريقة السجع منهاجاً له في كتابه ، فلم يحد عنه من أول سطر في الكتاب ، إلى آخر سطوره ، ولنعرض نموذجاً لمزجه الحقائق التاريخية ، بالعواطف والانفعالات ، وللتعبير عن ذلك تعبيراً فنياً ، فيه ضياغة وصناعة ، قال : « دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، إلى الأقطار والبلاد ، يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد ، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر للغزو ، من الحضرم والبدو ، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجد الجنود ، واستحشاد الحشود ، وإصحار الأسود ، وإحضار البيض والسود ، مضى العزم ماضى العزم ، صائب السهم ، ثاقب الفهم ، ثابت السعود ، كابت الحشود ، وخيم على قصر سلامة من بصرى ، وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج اليد القصرى ، وأقام على ارتقاب الحجاج ، وقد رتب الفرنج من الأرض أفاعيل على تلك الفجاج ، لاسيما أبرلس الكرك ، فإنه كان حريصاً على الدرك ، ناصباً شر الشرك ، نصب الشرك ، فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد ، عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد (٣) : . . . »

(٢) المرجع السابق ص ٥ .

(١) الفقيح القسى ص ٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠ .

فأنت ترى الحقيقة التاريخية وهي خروج صلاح الدين من دمشق متربحاً عودة الحاج قد لونت بشعور الكاتب إزاء هذا الخروج ، واستدعاء الجنود ، وإزاء إبرس الكرك ، من أنه كذئب شم رائحة الأسد . وعلى هذا المنوال يجرى الكاتب ، في كل ما أورده من حقائق تاريخية ، يضمن عليها شعوره وإحساسه ، وينتقل من عام إلى عام ، متبعاً حوادث الفتح ، وما تلاه من محاولة استرداد الفرنج لبيت القدس ، إلى أن انتهت هذه الحروب بصلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ .

والعماد الكاتب كتاب تاريخي آخر ، كتبه بلغة أدبية فنية ، دعاه : البرق الشامى ، لم أعره عليه ، ذكر فيه الوقائع والحوادث في لغة مسجوعة ، بما وقع من سنة وروده دمشق ، وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، إلى وفاة صلاح الدين ، وهي سنة تسع وثمانين . وبما لا ريب فيه أن العماد كلف نفسه عنتاً في التزام السجع ، والمحسنات اليدبية ، وكلفنا في كثير من الأحيان عنتاً في تتبع حوادثه ، واستنباط الحقائق من بين زخارفه وزيفته . أما كتاب الروضتين في أخبار الدولتين فمؤلفه شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ، أرخ فيه لبطلين من أكبر أبطال الحروب الصليبية ، وهما : نور الدين ، وصلاح الدين . قدم له صاحبه بمقدمة بين فيها المراجع التي استقى منها كتابه ، ثم بين منهجه في لغة كتابه ، وعرض الحوادث ، إذ قال بعد أن انتقد العماد في كتابه بأنه « طويل النفس في السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه ، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلاً منها ، استحسنتها في مواضعها ، ولم تلك خارجة عن الغرض المقصود ، من التعريف بالحوادث والوقائع ، نحو ما استراه في أخبار فتح البيت المقدس ، شرفه الله تعالى ، وانزعت المقصود من الأخبار ، من بين تلك الرسائل الطوال ، والأسجاع المفضية إلى الملل ، وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام ، واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلاً ، مما يتعلق بالقصص وشرح الحال ، وما فيه من فككة غريبة ، وفائدة لطيفة ، ووقف . على مجلدات من الرسائل الفاضلية ، وعلى جملة من الأشعار العادية ، بما ذكره في ديوانه ، ونون برقه ، وعلى كتب أخرى ، من دواوين ، وغيرها ، فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين ، أو بإحداهما ، وبعضه سمعته من أفواه الرجال الثقات ، ومن المدركين لتلك الأوقات ، فاختصرت جميع ما في ذلك من أخبار الدولتين ، وما حدث في مدتهما ، من وفاة خليفة ، أو وزير ، أو أمير كبير ، أو ذى قدر خطير ، وغير ذلك ، فجاء مجموعاً لطيفاً ، وكتاباً ظريفاً (١) .

ولذا كان صاحب الروضتين قد تحلل من السجع إلا عند ما ينقل من كتاب مسجوع ، فإن القيمة الأدبية لكتابه تتجلى في أنه يذكر الحوادث التاريخية ، ويذكر الآثار الأدبية ، للكتاب والشعراء ، مما يدور حول هذا الحادث ، وهو بذلك يذكر مصدرى الحادث في النفوس ، فهو — مثلاً — عند ما يذكر فتح القدس ، يورد أقوال المؤرخين في وصف هذا الفتح ، ثم ينقل ما دار حول هذا الفتح ، من رسائل لكبار كتاب العصر ، وما أنشأه الخطباء من خطب ، وما أثاره هذا الحادث في نفوس الشعراء من شعر ، فكان بذلك معيناً من يتابع الأدب الصليبي ، ومن أعظم مراجع مؤرخى هذا الأدب ، في الفترة التي حكم فيها نور الدين وصلاح الدين ، ولا سيما أن الكثير من هذا الشعر فقد مصدره ، ولولا كتاب الروضتين لضاع فيما ضاع .

وينهج نهج كتاب الروضتين في الاستشهاد بالشعر على أحداث التاريخ كتاب مفرج الكروب في دولة بني أيوب ، لمؤلفه جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ ، وقد جرى كاتبه على ترتيب السنين ، كما جرى صاحب الروضتين أيضاً وقد بدأ بسنة ثلاثين وخمسمائة ، وانتهى فيه بسنة ثمانين وستمائة ، وتحلل مؤلفه من السجع ، كما تحلل صاحب الروضتين ، وقد يستشهد صاحب الكتابين بشاهد واحد من الشعر ، وينقل ابن واصل كذلك عن العماد الكاتب ، كما فعل صاحب الروضتين . والكتابان يربطان الشعر بحوادث التاريخ ، وكتاب ابن واصل يبين أثر هذه الأحداث السياسية في نفوس الشعراء ولاتجاههم ، في الفترة التي كتب فيها صاحب الروضتين وفيما بعدها ، فهو يكمله من هذه الناحية وكأن مؤلفي الكتابين أرادا ذكر الحوادث التاريخية ، وبيان أثرها في النفوس .

٢٠ - خيانة

ومما ينبغي أن يسجل لندرته ، حتى لا يروى تاريخ الأدب له نظيراً ، هذا الشعر الخائن ، الذي يتهج بهزيمة المسلمين ، ويشمت بما ينالهم من ضر ، ولا يروى التاريخ من هذا النوع سوى بيتين ، قالهما شاعر لم يشأ التاريخ أن يحتفظ باسمه ، بل ذكر لحسب أنه كان عند الفرنج ، وأنه كان ينتجعهم ، ولست أدري السبب الذي دفعه إلى انتجاع أعداء البلاد ، وفي أمراء البلاد الإسلامية ما كان يغنيه عن هذه الخيانة النكراء ، فهل احتفظ به الفرنج ، وأغدقوا عليه ،

ليكون داعيتهم وليتخذوا لسانه سلاحا لهم ، ينشر في نفوس المسلمين الرعب من الفرنج ، والرهبة لهم ؟ يقف التاريخ صامتا عن السبب الذي دفع هذا الشاعر إلى هذا الاتجاه ، الذي لم أر له مثيلا . أما البيتان فقد قاطها الشاعر عقب غزاة غير ناجحة ، للأفضل الوزير المصري ، ابن أمير الجيوش ، فقد كوتب من عسقلان بأن الفرنج قد اجتمعوا للغزو ، فعى الأفضل بالامر أيما عناية ، ولم يبق في مكنته شيئا من مال ، وسلاح ، وخيل ، ورجال ، وأناب أخاه مكانه بين يدي الخليفة ، ومضى لا يريد أن يصد هجومهم المترقب فحسب ، بل أن يستنقذ الساحل كله من أيديهم ، ولكنه لم يوفق في بلوغ هدفه ، ويقال إن السبب في ذلك يعود إلى خيانة من الجند ، فعاد الأفضل غاضبا على جنده ، وشيعة هذا الشاعر الخائن بقوله ، يخاطب صنجل ملك الفرنج :

فصرت بسيفك دين المسيح قلله درك من صنجل
وما سمع الناس فيما روه بأقبح من كسرة الأفضل

وقد لقي هذا الشاعر جزاء خيائته ، فقد توصل الأفضل إلى ذبحه . وبما لا ريب فيه أن هذا الشاعر الخائن ندد بالمسلمين في غير هذا الشعر ، وربما يكون الفرنج قد قصدوا بشعره هذا أن يشيع بين المسلمين ، الذين بقوا تحت سيطرة الفرنج ، إن كان قد بقي منهم أحد .

الباب الخامس

الغزو التتري وأثره في الأدب العربي

سقطت دمياط في يد الفرنج، سنة ست عشرة وستائة هجرية ، وكان سقوطها حادثاً مفاجئاً للعالم الإسلامي ، وبينما كانت مصر والشام تعدان العدة لطرد العدو من هذا البلد الحصين ، إذ ترامت الأنباء إلى الأسماع بخروج التتر في عاصفة هوجاء ، لا تبقى أمامها شيئاً ولا تذر ، ولا تسمح لعقبة أن تقف في طريقها ، مقتحمة بلاد الإسلام من مشرقه ، وبهذا وقف الإسلام بين عدوين : أحدهما قادم من الغرب ، والآخر آت من الشرق ، وكلاهما يريد أن يقضى عليه في غير رحمة ولا إشفاق .

وهكذا حفل هذا العصر إلى جانب الحروب الصليبية بغزو تترى مدمر ، كان خليفاً أن يمحو الإسلام من فوق البسيطة ، لولا أن صد تياره أولئك الأبطال ، الذين صدوا كذلك تيار الصليبيين .

فقد مضى التتار من بلادهم في شمال الصين ، كأرجال الجراد ، يحطمون في طريقهم عروش المسلمين ، ويحرقون البلاد ، ويدبحون سكانها ، ويأتون من المنكر بما يندى له جبين التاريخ ، وأقبلوا في جموعهم الحاشدة ، حتى حطموا الخلافة العباسية ، واستولى ملكهم هولاءكو على بغداد ، سنة ست وخمسين وستائة ، وقتل الناس ببغداد ، وتمزقوا في البلاد إرباً إرباً ، وخرب التتار المساجد ، وأغرقوا الكتب ، وحرقوها ، وسكفوا الدماء ، حتى جرت في الطرقات واستمروا على ذلك أربعين يوماً ، حتى تلاشت أحوالها ، واضمحل أمرها .

ولم يلبث التتار بعد تخريب بغداد ، أن مضوا قاصدين سحق بلاد الشام ، فرأى الناصر صاحب الشام أن يسلم هولاءكو ، فأرسل إليه هدية مع ولده : الملك العزيز^(١) ، كان ردها أن أرسل هولاءكو إلى الملك الناصر كتاباً يهدده به ، ويقول فيه : « الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ، أننا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ،

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ٥٦ .

وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : « قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » . واستحضرنا خليفتها ، وسألناه عن كلمات فكذب ، فواقعه الندم ، استوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيسة ، لجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال ، وكان قد نما ذكره ، وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال :

إذا تم أمرنا نقصه توق زوالا إذا قيل : تم
إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة فلم يدر بالموت ، حتى هجم
إذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين ^(١) تأمن شره ، وتقل خيريه ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ولا تعوق رسلنا عندك ، كما عوقت رسلنا من قبل ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان ، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى (كروان سراي) ^(٢) ، فإن كانوا في الجبال نسفناها ، وإن كانوا في الأرض خسفناها .

أين النجاة ، ولا مناص لهارب ولي البسيطان : الثرى ، والمساء
ذلت لهيئتنا الأسود ، وأصبحت في قبضتي الأمراء والوزراء ^(٣) .
وهو كتاب يحمل التهديد معرضاً ومصرحاً ، ويحمل الإدلال بالقوة ، والاعتىاز بالبأس والسلطان ، ويذكرنا بكتاب ملك فرنسا السابق الذي أرسل إلى الصالح أيوب . وقد أحدث هذا الكتاب أثره المنشود ، فإن المؤرخين يصفون انزعاج الناصر لدى وصوله ، وتسييره الحريم إلى الكرك ، وخوف الناس بدمشق خوفاً بالغاً ، ومضى الكثير منهم إلى مصر ،

(١) معنى ذلك : ملك الملوك على وجه الأرض . زيادة في هامش السلوك ٤١٦:١ .

(٢) يفهم من هذا أن مصر كانت تعرف في بلاد التتر باسم كروان سراي ، ومعناها محط الرجال ، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها من سائر جهات الشرق والغرب . زيادة . في المرجع السابق نفسه .

(٣) السلوك ٤١٥/١ .

ولما كان الوقت شتاء ، مات خلق كثير بالطريق ، ونهب أكثرهم ، وبعث الناصر كال الدين ابن العديم رسولا إلى مصر ، يستنجد بجندها (١) .

وسار هولاكو من بغداد بنفسه ، وأخذ يستولى على ما تحت يد الملك الناصر صاحب الشام ، من بلاد ، حتى استولى على مدينة حلب ، وأطلق فيها يد التخريب ، والتدمير ، والقتل ، حتى صارت أطلالا موحشة ، ولما رأى أهل دمشق ما نزل بحلب قرروا تسليم المدينة إلى هولاكو ، ومضت جموع التتر تغير على بلاد الشام ، حتى وصلت إلى أطراف بلاد غزة ، والخليل ، وقتلوا ، وسبوا ، وأخذوا ما قدروا عليه .

وإذا كانت رسالة هولاكو إلى صاحب الشام قد أحدثت أثرها ، في تحطيم الروح المعنوية في نفوس أهل الشام ، فقد حاول كذلك أن يحطم الروح المعنوية في نفوس جند مصر ، وسلطانها ، بكتاب تهديد مثله ، ولعله عرف أن سوف يلقى مقاومة أشد في مصر ، فأطال في الكتاب ، وتصرف في وجوه القول ، حين كتب قائلا : « من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الاعظم . باسمك اللهم ، باسط الأرض ، ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس الماليك ، الذين هربوا من سيوفنا ، إلى هذا الإقليم ، يتنعمون بإنعامه . . . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية ، وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلنكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاعتظوا بغيركم ، وأسلبوا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطاء ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شك ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فحيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند كلام ، وخنتم العهود والأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، « فالיום تجزون

عذاب الهون ، بما كنتم تستكبرون في الأرض ، بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون . . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . فإن أتم لشربنا ولامرنا أطعتم ، فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة ، والاحكام المدبرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة مملوكم عندنا سبيل ، فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نجوم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصيح بلادكم منكم خالية ، فقد أنصفناكم ، إذ راسلناكم ، وأيقظناكم ، إذ حذرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر : ها هلاون ^(١) قداتي بحد سيوف تنتضي ، وبواتر

يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر ^(٢) .

والكتاب مليء بالتهديد الذي يرمي إلى تحطيم القوى المعنوية ، ويدعو إلى إلقاء السلاح ، مادامت الحصون لا تمنع ، والعساكر لا تنفع ، والدعاء عليهم لا يسمع . ويطرز كتابه بأى القرآن ، والشعر ، التماساً للتأثير في نفوس المرسل إليهم .

غير أن هذا الكتاب لم يصل إلى هدفه في تلك المرة ، فإن قطز جمع الأمراء ، وانفقوا على قتل الرسل ، والخروج إلى الجهاد ، ونودى في أرجاء مصر بالنفير العام ، وخرج قطز على رأس جيش كبير ، جمع أمراءه في الصالحية ، وخطبهم خطبة قصيرة ، قال فيها : يا أمراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فن اخار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته . فإن الله مطلع عليه ، وخطبته حريم المسلمين في رقاب المتأخرين ^(٣) . . والخطبة على قصرها مؤثرة ، لأنها تلقى العبد على عاتق الأمراء ، وتجعل خطبته التقصير في رقابهم ، وتتهمهم بخيانة الأمانة التي من أجلها أكلوا أموال بيت المال ، وهي خطبة لا زخرف فيها ، ولا صناعة .

وسار الجيش بروح معنوية عالية ، حينما أعلن قطز أنه سيلقى التتار بنفسه ، وفي غزة

(١) صيغة لاسم هولاكو .

(٢) السلوك ١ : ٤٢٧ .

(٣) السلوك ١ : ٤٢٩ .

جمع قطز الأمراء مرة أخرى ، علما منه بما للخطابة من تأثير في النفوس ، فخطبهم ، حاضا لهم على قتال التتار ، مذكرا إياهم بما وقع بأهل الأقاليم : من القتل ، والسبي ، والحريق ، وخوفهم وقوع مثل ذلك ، وحثهم على استنقاذ الشام من التتار ، ونصرة الإسلام والمسلمين ، وحذرهم عقوبة الله . وكان للخطبة أثرها البالغ ، فضج الأمراء بالبكاء ، وتحالفوا على أن يبذلوا أقصى جهودهم في قتال التتار ، ودفعهم عن البلاد (١) .

وانتهت الروح المعنوية بانتصار المسلمين على التتار في معركة عين جالوت ، فحضت الرسائل تحمل بشرى هذا النصر ، إلى مصر ودمشق ، وأقبل الشعراء ، يمجدون قطز ، ويشيدون بجهاده ، ويشكرون الله على نصره ، فرأينا أبا شامة يقول فيه :

غلب التتار على البلاد ، فجاءهم
بالشام أهلهم ، وبدد شملهم
كما قال بعض شعراء دمشق :

هلك الكفر في الشام جميعا
بالمليك المظفر الملك الأار
ملك جاءنا بعزم وحزم
أوجب الله شكر ذاك علينا
واستجد الإسلام بعد دحوضه
وع سيف الإسلام عند نهوضه
فاعتزنا بسمره وببيضه
دائما مثل واجبات فروضه (٢)

كما أقبل الشعراء على من كانوا أعوان قطز ، فهتفهم بهذا النصر الباهر ، فن ذلك ما قاله
لشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ ، يهنئ الملك المنصور ، لما استقر بحجة ، واستعاد المعرة :

رعت العدا ، فضمنت ثل عروشها
نازلت أملاك التتار ، فأنزلت
فقد سيفك في رقاب كائنها
ومنها :

وطويت عن مصر فسيح مراحل
حتى حفظت على العباد بلادها
فرشت حماة لوطء نعلك خدتها
ما بين بركتها وبين عرشها
من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فوطئت عين الشمس من مفروشها

(٢) ذيل الروائع ص ٢٠٨ .

(١) المرجع السابق ص ٤٣٠ .

(٣) المختصر ٣ : ٢٠٦ .

وكذا المعرة ، إذ ملكت قيادها دهشت سرور أسار في مدهوشها ^(١) (٢)
ولما حل الراية بيبرس بعد قطز ، وأبلى البلاء الحسن في قتال التتار ، فرح الشعر بما
أحرزه من انتصار ، وقام بمجد بطولته ، ويسجل فروسيته ، ولعل من أعظم هذه المعارك
وأعجبها تلك التي كان فيها التتار على شاطئ الفرات ، فلكى يهاجم بيبرس العدو ، ويقضى عليه ،
خاض الفرات ، على رأس جيشه ، وعبر إلى التتار ، وأبىد منهم عدد عظيم ، ولم ينج سوى
القليل ، وأسر منهم زهاء مائتين ، وكان ذلك سنة إحدى وسبعين وستمائة هجرية . وأعجب
الشعراء بهذا اللون من الإقدام ، وأشادوا به في شعرهم ، وأكثروا من الحديث عنه في إعجاب ،
فمن مجده شهاب الدين محمود كاتب الإنشاء ، أنشد قصيدة كبيرة أولها .

سر حيث شئت ، لك الميمن جار	واحكم ، ففزع مرادك الأقدار
لم يبق للدين الذي أظهرته	ياركك ، عند الأعادى ثار
لما تراقصت الروس ، وحركت	من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بساج ، أقصى منى	هوج الصبا من نعله آثار
حملتك أمواج الفرات ، ومن رأى	بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت فرقا ، ولم يك طودها	إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشت دماؤهم الصعيدي فلم يطر	منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعقل ، والورى	والترب ، والآساد ، والأطيار
هذى منعت ، وهؤلاء حميتهم	وسقيت تلك ، وعم ذا الأيسار
فلام لأن الدهر فيك مدانحا	تبقى ، بقيت ، وتذهب الأعصار ^(٣)

وقال الشيخ ناصر الدين حسن بن النقيب السكاني الشاعر رحمه الله قصيدة ، وكان حاضر
الوقعة متها .

ولما ترامينا الفرات بجيئنا	سكرناه ^(٣) منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه	إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم ^(٤)

(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ١٥٩ .

(١) المرجع السابق نفسه

(٣) سكرناه : حبسنا مائه .

(٤) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٠ .

وقال الموفق عبد الله بن عمر الانصارى :

الملك الظاهر سلطاننا نقديه بالاموال والاهل
اقتحم الماء ، ليطفى به حرارة القلب من الغل (١)
وقال محي الدين بن عبد الظاهر .

تجمع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا الى شط القرات ، ومادروا بأن جياد الخيل تقطعها وثبا
وجاءت جنود الله فى العدد التى عيس لها الابطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد ، سباحة اليهم ، فاسطاع العدو له تقبا (٢)

وقال بدر الدين يوسف بن المهندار :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا والخيل تطفو فى العجاج الاكدر
وقد اطلختم الامر ، واحتدم الوغى ووهى الجبان ، وساء ظن المجترى
لرأيت سداً من حديد ، ما يرى فوق القرات وفوقه نار ترى
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى ومن الفوارس أبحراً فى أبحر
لما سبقنا أسهما طاشت لنا منهم إلينا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرعى منهم أعينا حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هرباً ، ولكن ردهم دون الهزيمة ربح كل غضنفر
ما كان أجرى خيلنا فى إثرهم لو أنها برموسهم لم تعثر
كم قد قلعنا صخرة من صخرة ولقد ملأنا محجراً من محجر
وجرت دماؤهم على وجه الثرى حتى جرت منها مجارى الانهر
والظاهر السلطان فى آثارهم يذرى الرموس بكل غضب أتر
ذهب الغبار مع النجيع بصقله فكأنه فى غمده لم يشهر (٣)

وليس بمعجيب أن يفوز هذا الضرب من الإقدام بهذا اللون من التقدير السامى ، فن
المألوف أن تقطع الأنهار بالسفن ، لا أن تخاض على صهوات الخيول ، فى العدة السابعة ،

(٢) فوات الوفيات ١ : ٨٧ .

(١) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه .

وكأنما عز على الظاهر بيبرس أن يضيع وقتاً ، لا يدركهم فيه ، ولا يشقى ما يضطرم في نفسه من غل لهم ، فدفعه الشوق إلى لقائهم إلى أن يخوض هو وجيشه لجة الماء ، وقد أجاد بعض الشعراء في تصوير هذا الشوق المضطرم إلى لقاء العدو ، كهذين البيتين اللذين اللذان اللذان الذي رأى في اقتحام الماء وسيلة يطفىء بها نيران الغضب على العدو ، بينما تحدث ابن عبد الظاهر عن الغرور الذي كان يملأ صدر العدو ، فقد كان التتار يظنون أن لا شيء يقف في سبيلهم ، أو يعوقهم عن بلوغ أهدافهم ، وما كان يحول بفكرهم أن تبلغ الحماسة بالمسلمين ما بلغت ، فيقطعوا نهر الفرات وثباً . بينما وقف بعض الشعراء يصف عبور الفرات والمركة التي دارت بين بيبرس والعدو ، فالجيش يقطع عرض الفرات ، يصطك حديد فرسانه ، حتى ليكون كالسد ، يلتصق الفارس بصاحبه ، وهذا العدد الضخم من الجيش جدير بأن يوقف تيار الفرات المتدفق ، حتى إذا طلع الجيش إلى البر ، مضى جيش التتار أمامه ممعنا في الحرب ، ولكن جيش بيبرس لم يدع له سبيل الإفلات ، فأخذ عليه كل سبيل ، وأجرى من دمائه سيولاً تجري منها مجارى الأنهار . والظاهر بيبرس يتعقبه ، بعضه الأبر ، يفصل به الرأس عن جسده .

كانت هذه المعركة سبباً لإثارة هذه الألوان العديدة ، من الإحساسات والمشاعر ، ولا غرابة في تمجيد الشعر بطلا ، رد عن الديار عدواً ، لا يحمل معه سوى ألوان التدمير والهلاك . ويذكر له التاريخ معركة أخرى عند صحراء أبلستين ^(١) ، سنة ٦٧٣ هـ ، حل فيها التتار حملة واحدة على جيش الملك الظاهر ، وكاد جيشه يتحطم ، فلما رأى ذلك أمر جماعة من أصحابه الشجعان أن يقدّموا ، ثم حمل هو بنفسه ، فلما رآه الجند حملوا نحو عدوهم حملة رجل واحد ، فترجل التتار عن خيولهم ، وقاتلوا قتال الموت ، وصبر لهم الملك الظاهر وجنده ، وهو يكر في القوم كأسد ضار ، ويقتحم الأهوال بنفسه ، ويشجع أصحابه ، ويطيّب لهم الموت في الجهاد ، إلى أن أنزل الله تعالى نصره ، وانكسر التتار أقبح كسرة ، وقتلوا ، وأسروا ، وفر من نجا منهم ، واعتصموا بالجبال ^(٢) . وعمل شعراء الإسلام في هذه الواقعة عدة قصائد ، منها ما قاله شهاب الدين محمود ، فقد أنشأ في ذلك قصيدة أولها :
كذا ، فلتكن في الله تمضى العزائم وإلا فلا تجفؤ الجفون الصوارم

(١) مدينة بآسيا الصغرى .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٨ .

عزائم حاذتها الزياح ، فأصبحت
سرت من حمى مصر ، إلى الروم ، فاحتوت
بجيش تظل الأرض منه كأنها
كتائب كالبحر الخضم ، جيادها
تحيط بمنصور اللواء ، مظفر
ملك يلوذ الدين من عزماته
ملك به للدين في كل ساعة
ومنها :

غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم
فأهوا إلى لثم الأسنة في الوغى
وصاغت البيض الصفاح رقابهم
فكم حاكم منهم على ألف دارع
وكم ملك منهم رأى وهو موثق
ومنها :

فلا زلت منصور اللواء مؤيداً على الكفر ماناحت وأبكت حائم^(١)
والقصيدة تشيد — كما ترى — بعزيمة الظاهر بيبرس التي لم تزل أمام إقدام العدو ،
وتفانيه في القتال ، وتشيد بمكاته في صيانة الدين ، وحياطته ، والذيادة عنه ، وتصف جيشه
الضخم الذي يتخذ بيبرس وسيلة لتحقيق آماله في نصرة الإسلام ، وتحدث عما نزل بالعدو ،
من هزيمة ، وخذلان ، برغم ما أحس به من ضعف التصوير ، حين صورت لنا القصيدة
تساقطهم على الأسنة ، وقطع السيوف لرقابهم لثماً ، وعناقاً ، ومصافحة .
ولم يقصر الشعراء في تمجيد المنصور قلاوون عند ما انتصر على التتار انتصاراً
حاسماً ، في معركة حمص ، سنة ٦٨٠ هـ ، فقد مجد الشعراء هذا النصر ، وأشادوا بثبات
المنصور قلاوون ، ثباتاً قوى الروح المعنوية في نفوس جنده ، وحول هزيمة
جيشه إلى نصر مبين^(٢) .

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٨ .

(٢) كثير من هذه القصائد في كتاب زبدة الفكرة لبيبرس المنصورى ٩ : ١١٧ ب — ١٢٢ ب

هذا هو اللون الفرح من ألوان أدب الغزو التتري ، وهو الذى يمجّد بطولة أبطال المسلمين ، الذين ردوا عن البلاد هذه الغارات المدمرة ، وهذا اللون ينطق بصلافة العود ، والجرأة التى شعر بها المسلمون ، بعد أن تمكنوا من هزيمة التتار لأول مرة . وتبدو هذه الصلافة كذلك فى هذا الكتاب الذى بعث به المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ ، إلى السلطان إيلخان أحمد ملك المغول بفارس ، وقد أرسل كتاباً يخبر بانتقاله إلى الإسلام هو ومن معه من التتار ، ويقول فيه : « أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا ، وربعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أولياته الصالحين من عباده فى بريته ، « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ويتحدث عما عزم عليه أمراؤه وقواده وزعماءه من متابعة سياسة أخيه ، فى قيادة الجيوش ، وشن الغارة على الشام ومصر ، وعما رآه هو من الكف عن هذه السياسة ، وترجيح خطة السلم ، ونشر أسباب الأمن ، إذ يقول : « اجتمع عندنا فى (قوريلتاي) المبارك — وهو المجمع الذى تنقدح فيه الآراء — جميع الإخوان والأولاد ، والأمراء الكبار ، ومقدمى العساكر ، وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ماسبق به حكم أخينا الكبير ، فى إنقاذ الجلم الغفير ، من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها ، من كثرتها ، وامتلات الأرض رعباً ، لعظيم صولاتها ، وشديد بطشتها ، إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزمة تلين لها صم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان فى ضميرنا ، من اقتناء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء ، وتسكين الدماء ، وتجري به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار ، فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيماً لأمراء الله ، وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتنة النائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا إليه من تقديم ما يرجى به شفاء مزاج العالم ، من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال ، إلا بعد إيضاح الحجة ، ولأننا نأذن لها إلا بعد تبين الحق ووضوح المحجة . »

ومضى الكتاب متحدثاً عما ظهر من آثار إسلامه من إقامة نوااميس الشرع المحمدي ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى ، وضرب أمثلة كثيرة على ذلك ، ثم ختم الكتاب

بلون من التهديد قائلاً : « فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعم تلك المدائن والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل السكافة أرض الهوينى ، وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسامين من أغلال الذل والهون ، وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا ، وأبلى عذرنا ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، » .

وجاء رد السلطان عليه مبتدئاً بحمد الله ، والصلاة على رسوله ، ثم هنأه بالإسلام ، وسأل الله أن يثبتته عليه . وبين له المنصور قلاوون أن الرأى الذى ارتآه السلطان أحمد ، يعود نفعه على قومه ، قبل أن تحصل لهم المضرة بالسياقهم وراء اندفاعهم ، « فهذا فعل الملك المتقى ، المشفق من قومه على من بقى ، المفكر فى العواقب بالرأى الثاقب ، وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة ، لكانت هذه الكرة هى الكرة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى . ثم يأخذ الكتاب فى لين ، مشوب بالحزم ، حين يبين له أنه « حيث دخل معنا فى الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت الاحقاد وزالت الذحول ، وبارتفاع المنافرة ، تحصل المظافرة ، فالإيمان كالبنيان ، يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره فله أهل بأهل ، فى كل مكان ، وجيران بحيران ، فى كل أرض ، ويحمد له الكتاب مظهر منه من تطبيق أحكام الدين ، ولكن لا يعجبه التهديد بقوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، » ، فيقول : « وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، » فاعلى هذا اللسق من الود ينسج ، ولا على هذا السبيل ينهج ، بل الفضل للمتقدم فى الدين ، ونصره عهدود ترعى ، وإفادات تستدعى وما برح الفضل للألوية ، وإن تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هذه الآية فى غير مكانها لتروى وتأول ، ويختم المنصور كتابه بالصمود للتهديد ، مستعيناً بالله مستنصراً به قائلاً : « ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ، ولا يفتقر عن هذه الإثارات ، فتعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتفق فيها ملئى الجمع من مرة ومرة ومرة ، قد عاف مواردنا من سلم

من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها ، فيعاوده مصرع ذلك اليوم ، فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر ، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر ، لا لمن قدر ، ولا نحن ممن ينتظر فلتة ، ولا له إلى غير ذلك لفظة ، وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا يتأق إلا بقتة ، والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة ، والقادر على إتمام كل خير ونعمة (١) .

هذا لون ثان من ألوان الأدب الذي أنتجه الغزو التتري ، وهو الذي عبر عن صلابة الإرادة المصرية ، وعن العزم القوي على الثبات واله مود والمقاومة . وهناك لون آخر حزين يتجلى في البكاء على ما نزل بالمدن من تخريب وتدمر . وعلى من قتل من قادة المهاجرين . فمن بكى المدن كال الدين بن العديم ، كان مقيماً بحلب ثم قدم مصر ، لما هرب الناس أمام التتار ، ثم عاد إلى مدينته ، فلما نظر ما فعله العدو بها من تخريب ، وتدمير ، وقتل سكانها ، بعد ما كان بها : من عمارة ، وحضارة — أنشأ قصيدة طويلة منها :

هو الدهر : ما تبنيه كفاك يهدم	وإن رمت إنصافاً لديه فتظلم
أباد ملوك الفرس جمعاً ، وقيصراً	وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأقنى بني أيوب ، مع كثر جمعهم	وما منهم إلا مليك معظم
وملك بني العباس زال ، ولم يدع	لهم أثراً من بعدهم ، وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس ، وعهدا	تباس بأفواه الملوك ، وتلثم
وعن حلب ما شئت قل من عجائب	أحل بها يا صاح ، إن كنت تعلم
فيالك من يوم شديد لغامه (٢)	وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس ، وارتمت	مصاحفها نروق الثرى ، وهى ضم
ولكنما لله فى ذا مشيئة	فيفعل فينا ما يشاء ويحكم (٣)

وقال بعض أهل المعرفة ، وقد رأوا رجال التتر على قلعتها ، يسخرون العوام فى تخريب سورها ، مضمناً شعره بعض قصيدة المتنبي :

رقفاً عليها قلعة منيعة	يهدمها من هو من حزبها
فغاية المفرط فى سلمها	كفاية المفرط فى حربها
نحشاً فى هدمها أعجم	ونحن مكروبون من كربها

(١) الرسالة والرد فى ملاحق السلوك ٩٧٧:١ ، نقلاً عن زبدة الفكرة ١٣١:٩ أ ، وما بعدها .

(٢) لغام البعير زبدة .

(٣) المختصر ٢١٥:٣ ، والقصيدة برمتها ٧٥ بيتاً فى مفرج البكروب ٤٠٧:٢ .

تبخل أيدينا بأرواحنا وتشتكي منا إلى ربها
لما رأوها أسرفت في الملا كان علاها منتهى ذنبها^(١)
والآيات تمثل مقدار ما يحمله أهل المعرة : من إغزاز لقلعتهم ، وحب لها ، وألم وكرب
لهدمها وتدميرها ، مرغمين على ذلك ، وتحدث عما يحمله التثار من حقد على كل ما يقف في
سبيلهم ، أو يعترض طريق تدميرهم .

ولم يقف بكاء الشعراء عند حدود المدن الشامية والمصرية ، بل كان لتخريب بغداد أكبر
الأثر في نفوسهم ، فقرض الشعراء والعلماء قصائد يرثون بها بغداد وأهلها ، ومن ذلك هذه
القصيدة المشهورة التي أنشأها مسند الشام : تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر ،
وقد بدأها بقوله :

لسائل الدمع عن بغداد أخبار فما وقوفك ، والاحباب قد ساروا
يا زائرين ، إلى الزوراء لا تفدوا فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة ، والربع الذي شرفت به المعالم ، قد عفاه إقفار
أضحي لعطف البلى في ربه أثر وللدموع على الآثار آثار
وبعد هذا البدء الباكي ، أخذ يعد ما صاحب الديار من ألوان الدمار ، فقال :

يا نار قلبي من نار لحرب وغى شبت عليه ، ووافى الربيع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها وقام بالامر من يحويه زنار
وكم بدور على البدرية^(٢) انخسفت ولم يعد لبذور منه إندار
وكم دخائر أضحت وهي شائعة من النهاب ، وقد حازته كفار
ثم وصف السبي والقتل قائلا :

ناديت ، والسبي مهتوك ، يحرمهم إلى السفاح من الأعداء دعار
وهم يساقون للموت الذي شهدوا النار ، يارب ، نصلاها ، ولا العار
يا للرجال لأحداث تحدثنا بما غدا فيه إعداء وإندار
من بعد أسر بني العباس كلهم فلا أنار لوجه الصبح إسفار
ما راق لي قط شيء بعد بينهم إلا أحاديث أروها وآثار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا سوق لمجد ، وقد بانوا ، وقد باروا

إن القيامة في بغداد قد وجدت وحدها حين للإقبال إدار
آل النبي وأهل العلم قد سبوا (١) فمن ترى بعدم تحويه أمصار
ما كنت آمل أن أبقى ، وقد ذهبوا لكن أبي دون ما أختار أقدار (٢)

وبغداد جدية يومئذ بالبكاء ، فقد نزل بها من الدمار مالا يوصف ، وأعمل فيها القتل والأسر ، واستخدم أشد أنواع الوحشية ، في قتل العباسيين ، وسكان بغداد ، وكانت بغداد الآلام الروحية يومئذ للعالم الإسلامي ، فكانت الكعبة التي حلت بها مشيرة أشد الآلام في نفوس المسلمين . وهكذا أحدث الغزو التتري في الأدب ما أحدثته الحروب الصليبية فيه : من بكاء على تخريب المدن ، وإبادة حضارتها ، وقتل سكانها .

وروى التاريخ أن التتار استولوا على ميفارقين ، بعد حصار سنتين ، حتى فنى أهلها وزادهم ، وظل صاحبها الكامل محمد بن مظفر غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب مصابراً ثابتاً حتى ضعف من عنده عن القتال ، فاستولوا عليها ، وقتلوه ، وطأفوا برأسه ، في البلاد ، يدقون الطبول ، ويغنون ، ثم علقوا رأسه ، على باب الفراديس بدمشق ، وظل معلقاً حتى عادت دمشق إلى المسلمين ، فدفن بمشهد الحسين ، فقال فيه شهاب الدين بن شامة :

ابن غازي غزا ، وجاهد قوماً أنحنوا في العراق والمشرقين
ظاهراً عالياً ، ومات شهيداً بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه وله أسوة برأس الحسين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك الرأس ، فاستعجبوا من الحالين (٣)

وهكذا كان للغزو التتري أثره في الأدب العربي في مصر والشام ، فرأينا أدبا يبحث على الجهاد والمصابرة ، ورأينا يتخذ مادته بما فعله التتري في البلاد المفتوحة : من ألوان التدمير وسفك الدماء ، فكانت الخطبة تدعو إلى الثبات ، حتى لا يكون المصير كهذا المصير المحزن الآليم . وهي لذلك تتكى على غزيرة حفظ الذات ، التي تدعو الناس إلى أن يذودوا عن أنفسهم ، ويدفعوا عنها كل ما يهدد سلامتها ، كما أنه من المؤكد أن اعتمد الخطباء على العاطفة الدينية ، فتحدثوا عن الخطر الذي يهدد الدين من هذا الغزو البربري المتوحش ، ومن أمثلة هذا الأدب خطب المظفر قطز . ورأينا أدبا يمثل قوة الإرادة أمام هذا الغزو ويتحداه ، وقد وجد هذا الأدب بعد أن استعبد المسلمون قوتهم المعنوية ، وانتصروا على التتار ، ورأينا كذلك أدبا باكياً يرثي البلاد ، والباطال . أما اللون المبتهج فهو ذلك الذي تغنى بانتصار المسلمين ، وتحطيم جيوش التتار .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ٥١ والقصيدة

(٣) المرجع السابق نفسه .

(١) هكذا في الشعر ولعلها معرفة عن قتلوا .

أطول من ذلك تبلغ ستة وستين بيتاً

الخلاصة

كانت الحروب الصليبية موجة من هذه الموجات التي اندفع فيها الغرب بحماسة نحو الشرق ، يريد في هذه المرة باسم الدين أن يملكه ، ويسيطر عليه ، كما اندفع من قبل الشرق نحو الغرب يريد حيناً باسم الدين كذلك أن يملكه ، ويسيطر عليه ، وقد صادف الغرب بلاداً مفتحة منقسمة ، سهل عليه امتلاكها ، وتأسيس إمارات له فيها ، وظل الفرنج الذين أقاموا هذه الإمارات يوسعونها ، على حساب جيرانهم من المسلمين : وينشرون الرعب في أطراف ممتلكاتهم ، من غير أن يستطيع المسلمون المتفرقون دفعا لإغارتهم ، أو ردًا لعدوانهم ، حتى إذا بدأ المسلمون يتجمعون بعد فرقة ، أخذت الكرة تنقلب على الفرنج ، وبدأ المسلمون يهاجمونهم ، ويستردون ما فقدوه من بلاد ، حتى استطاعوا ، بعد قرنين من الزمان ، أن يقذفوا إلى البحر بآخر فرنجي مغير .

وإذا كان المسلمون قد انهزموا أمام الفرنج في أول أمرهم ، فقد دفعتهم الهزيمة إلى أن يروؤوا أنفسهم ، لاستخراج ما كن فيهم من ينابيع القوة ، وكان العلم أحد هذه الينابيع ، فأنشأ ملوك العصر وسلاطينه المدارس ، في أرجاء البلاد ، تستقبل وفود الطلبة ، تقدم إليهم العلم بالمجان ، وتقدم إليهم في أحيان كثيرة المسكن ، ومالا يكفي نفقاتهم ، فلا يشغلون أنفسهم بغير العلم ، والبراعة فيه ، ولذا كان هذا العصر من العصور التي ازدهرت فيها الثقافة ، وتنوعت فروعها ، من علوم دينية ، ودينية ، ونبغت طائفة كبيرة من العلماء ، برعوا فيها تناولوه ، من مواد ، ومادرسوه ، من ألوان العلوم ، ولا يزال الكثير من آثارهم معيناً نستقي منه المعارف ، ومصدراً من مصادر ثقافتنا .

وارتفع شأن العلماء في ذلك العصر ، ووصلوا إلى أسنى مناصب الدولة ، وأرفع مكانة لدى الشعب ، وحفظ لنا التاريخ أسماء الكثير من هؤلاء .

ونهض الأدب في ذلك العصر نهضة تسير نهضة العلم ، وساهم حكام ذلك العصر في إنهاضه ، بتشجيعهم الأدباء ، ومكافأتهم على مقدار إجادتهم ، بل إن كثيرين منهم قرضوا الشعر ، وجعوا من شعرهم دواوين ، لا يزال بعضهم باقياً إلى يومنا هذا :

فلا غرابة إذا كان الشعر قد غزر لإنتاجه ، وكثر قائلوه ، وقد تركت أحداث العصر ، والحياة الاجتماعية التي سادته — آثارها فيه ، فضلاً عن أن الشعراء لم يدعوا غرضاً قال فيه من سبقهم من الشعراء إلا قالوا فيه : من مدح ، وهجاء ، وغزل ورناء ، وغيرها .

وبما يسترعى النظر في ذلك أن كان من بين أغراض الشعر يومئذ الفكاهة والمجون ، مما يدل على أن العصر لم يكن كله متزمتاً ، على أن قسوة الحياة تدعو إلى التماس الترفيه ، ووجد الشعب في كثير من الأحيان أوقاتاً للرح والمجون . ومع أن الشعراء اقتدوا بأسلافهم من قبل ، فإن البيئة التي عاشوا فيها ، والثقافة التي نالوا نصيباً منها ، وجو العصر الديني ، ترك ذلك كله أثره في شعر الشعراء ، الذين كثر عددهم ، وتعددت ألوانهم ، ومذاهبهم ، وأصولهم ، وأعمالهم ، ومنابعهم ، وكانوا في جملتهم يزعجون في التعبير إلى أن يكون أسلوبهم يضارع الشعر في العصر العباسي الزاهر . وقد بلغ الشعراء من ذلك حظاً كبيراً ، حتى لنستطيع أن نضع بعضهم في بعض ما أنشأه ، إلى جوار كبار الشعراء العباسيين ، ولـكننا لا نستطيع أن نغفل ما كان في هذا العصر من اتجاه عام إلى الزخرف والزينة ، يكاد يشترك فيه شعراء هذا العصر جميعاً ، يقوى بعضهم حتى لا تضعف الزينة من أسلوبه ، وحتى تبدو كأنها طبيعية غير متكلفة ، وتقوى هي على الآخر حتى تسقط شعره ، في تكلف بمقوت ثقيل .

كما نجد شاعراً فذا قد اتخذ من لغة الحديث العادية أداة لشعره ، بعد أن أجراها على قواعد النحو ، واستطاع بذلك أن يكون أقرب إلى الصدق في التعبير عن عواطفه . وإذا نحن تتبعنا أسلوب الشعر في ذلك العصر الطويل ، وجدناه في القرن السادس أقوى منه في القرن الذي تلاه ، حتى إذا وصلنا إلى منتهى القرن السابع رأينا بونا شاسعاً في القوة بينه وبين شعر القرن السادس ، وربما استطعنا أن نتلس أسباب ذلك فيما كانت تقوم به الدولة الفاطمية : خلفاؤها ، ووزراؤها . ودولة نور الدين ، وصلاح الدين ، من تشجيع للشعر ، وإنهاض له ، مما جعل هذا القرن يحق من أزهى العصور ، التي مر بها الأدب العربي في مصر .

وبما هو جدير بالملاحظة أيضاً أن الشعراء كانوا في مصر أكثر منهم بالشام ، ومن السهل تعليل ذلك بأن رأس الدولة كان في القاهرة ، معظم هذا العصر . ولعاصمة الدولة من المزايا ما يمد أمامها السبيل لكي تبرز في النهوض بالأدب سائر الأمصار

كما يلحظ كذلك أن الشعر كان في معظمه (أرستقراطي) الزعة ، لاشعبياً ، ومن أجل هذا قل من ألوان الشعر النوع الاجتماعي ، إلا ما يتصل بذوى السلطان ، وضعف إبراز صورة حياة للبيئة الاجتماعية ، من بين ثنايا شعر هذا العصر ، وكثر فيه المديح لذوى السلطان ومن يتصل بهم ، وهذا حكم يصدق على معظم شعر هذا العصر ، وإن كان بعض الشعراء

قد وقف بالشعر عند حد التعبير عما يجيش في صدره، من عواطف وانفعالات، كما في شعر الصوفية وبعض الغزلين في ذلك العصر.

وتجد أحياناً هنا وهناك عند بعض الشعراء شعراً يتحدث عن جمال الطبيعة، أو يصف مناظر الكون، أو ما خلفه الإنسان فوق هذه الأرض من آثار.

أما النثر فقد تعددت نواحيه في ذلك العصر، بين كتابة سلطانية، تتناول شئون الدولة، وأمور السلطان، في داخل البلاد، وخارجها، وبين كتابة إخوانية، وأدب خلقي سياسي، ينهض فيه الأدب بمهمة الإصلاح الخلقي، والتوجيه السياسي، وبين أدب تاريخي، وقصة.

وقد ساد لغة النثر في معظم ألوانه استعمال السجع والمحسنات البديعية، فقد كان المثل الأعلى للكتابة يومئذ مقامات الحريري، المليئة بألوان الزخارف اللفظية، والمعنوية. وبما ساعد على العناية بالنثر في ذلك العصر وجود ديوان الإنشاء، وضرورة أن يكون على رأسه كاتب ممتاز، بما جعل الكتاب يتنافسون في الوصول إليه، أو إلى منصب من مناصب الديوان، فأخذوا أنفسهم بمنهج عملي، يتقنون به الإنشاء، ويجيدون به فنون التعبير، وألفت في ذلك كتب تبين طريق الإجازة، وترسم السبيل للتبريز. ولما كان ديوان الإنشاء في مصر كان أشهر الكتاب الذين شهدهم هذا العصر من نشأ في مصر، وتربى في ديوان إنشائها، لانستثنى من ذلك إلا القليل، وكان أعظم الكتاب من نشأ في عصر الدولة الفاطمية، أو تلمذ على رجالها.

وكان للخطابة شأنها في ذلك العصر الذي يحتاج فيه إلى إثارة النفوس، كي تقبل على الجهاد، وتندفع إليه، وهي خطابة دينية، تعتمد على القرآن، والحديث، وآثار السلف. غير أنه بما يلحظ أنه برغم الدوافع الكثيرة التي كانت تدعو إلى إكثار الخطب، وإجاعتها، وما كان للخطيب من مكانة سامية في المجتمع، لم يؤثر عن هذا العصر من الخطب سوى القليل، ونذكر أن وصل إلينا خطبة كاملة، اللهم إلا خطبة فتح بيت المقدس. وقد يشير المؤرخون إلى خطب قيلت، وكان لها أعظم التأثير في نفوس سامعيها، كهذه الخطبة التي قيلت ببغداد في أول عصر الحروب الصليبية، لإثارة النفوس، ضد الغزاة الفاتحين، وأثرت الخطبة أثرها، ولكن راوياً لم يروها، وكالخطبة التي قيلت في القاهرة، عقب تحرك الفرنج من دمياط، يريدون الاستيلاء على مصر، فلم يحفظ التاريخ سوى أولها، وكان آية قرآنية. وقد وقفت طويلاً عند هذه الظاهرة، أتبين أسبابها، قبل كان من بين هذه الأسباب

ضعف الخطابة في ذلك العصر ضعفاً حمل المؤرخين على إهمال روايتها ؟ إن الرجوع إلى ما أثر من خطب هذا العصر ينفي هذا الضعف ، ويضع هذا المأثور في صف الرسائل ، لا يتأخر عنها ، ولا يوضع أسفل منها . كما أن ما أثبتته المؤرخون من تأثير هذه الخطب في النفوس ينفي عنها هذا الضعف ويبرهن على قوتها . غير أنني أرجع سر ذلك إلى أسباب شتى : منها أن جند ذلك العصر لم يكن معظمهم من العرب الذين يخضعهم جيد القول ، فقلت لذلك الخطابة في الجند ، لتحسبهم وتثيرهم . ومنها أن معظم الخطب التي كانت تلقى يومئذ لم تكن محضرة مكتوبة ، ولكنها كانت تلقى على البديهة ، من غير تحضير ، فلم يهيا للمؤرخين نقلها وإثباتها . على أن الزمن قد عدا على كثير من آثار خطباء هذا العصر ، فإن المؤرخين يذكرون لكثير من رجالات هذا العصر أنهم خلفوا كثيراً من دواوين الخطب ، يبلغ بعضها مجلدات عدة ، ولكن الزمن لم يبق عليها ، وبادت مع الكثير الذي باد من آثار ذلك العصر ، وربما كان السر في أن هذه الخطب لم تبق أنها قيلت في ظروف خاصة ، وفيها إشارات إلى معارك وأماكن خاصة انقضت أهميتها ، بانقضاء الغرض الذي أنشئت من أجله ، فلم يبق ثمة مجال لأن يرددها الخطباء فماتت مع الزمن . وكل ما ذكرناه ينفي عن الخطابة في هذا العصر صفة الضعف أو الركود ، فقد تضافرت العوامل على النهوض بها ، وترقيتها ، وإذا كان الجند من غير العرب لا يتأثرون بالعربية الفصيحة ، فإن الشعب ، وإليه كان الملجأ إذا حزب الأمر ، كان يتأثر بالعربية ، وتثيره الخطابة ، فيندفع إلى الجهاد .

وأثرت الحروب الصليبية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً ، فقد مضى الأدب مستنجداً ، طالباً المعونة من يراهم أهلاً للعون ، وقد استخدم الأدب مهارته في تصوير وحشية هذا العدو ، كي يكون ذلك أبلغ في التأثير ، وأدعى إلى سرعة الاستجابة ، وأخذ الأدب شعره ونثره ، يحث المسلمين على قتال الفرنج وطردهم ، من ديار الإسلام ، لا يكاد يظفر من هدفه بجزء ، حتى يسعى داعياً إلى تحقيق هدف جديد ، مهونا أمر الصعاب ، مسهلاً اجتياز العقبات ، ومعجدا أولئك الذين ينهضون بعبء قتال الفرنج ، ومحاولة طردهم ، يتجمع الشعراء حول هؤلاء الأبطال ، ويصوغون لهم قلائد الشناء ، وكأنهم بذلك يغرون غيرهم بالاقترداء بهم ، وكأن الشعراء بالتفافهم حول أولئك الرجال يمثلون الرغبة الكامنة في الشعب ، والأمل الذي يتردد في صدره ، أن يجد القائد المحنك الذي يستطيع أن يقوده إلى الظفر والنصر ، على هؤلاء الغزاة . ولا يقف الشعراء غالباً عند حد تصوير بطولة هؤلاء الرجال في الحرب ،

بل يتجاوزون ذلك إلى تصوير خلال البطل ملكاً ، ورسم سماته حاكماً ، ونرى غزارة في الشعر ، وكثرة في عدد الشعراء ، كلها كان للبطل يد طول في حرب الصليبيين ، ومن أجل هذا كان لصالح الدين الحظ الأوفى من الشعر ، والعدد الأغزر من الشعراء ، من بين أبطال المسلمين جميعاً ، في الحروب الصليبية ، لطول جهاده ، وكثرة فتوحه ، وضخامة الجهد الذي بذله في قتال العدو ، الذي حشد له الجموع ، وجلب له الأمداد ، وبليبه في ذلك نور الدين محمود ، فعماد الدين زنكي ، بما خلفه ذكر هؤلاء الرجال على وجه الزمان .

ولإذا كان الشعراء قد التفوا حول أولئك الرجال ، يمجدون بطولتهم ، فقلد بكوا عليهم ، عند ما نزل بهم الموت ، معتقدين أن الخسارة فيهم ليست خسارة في فرد ، ولكنه بنيان قوم تهدم ، والشعراء بذلك يصورون آلام المسلمين ، عندما يندبون بطلا هوى ، كان درعا ورداء يحميهم ، وكان صلاح الدين أوفر هؤلاء الأبطال كذلك حظاً من الرثاء .

وكان للمبارك التي دارت أثرها في الأدب ، قضى الأدباء يصورون الوقائع ، وكان لمبارك الرها ، وحطين ، وبيت المقدس ، ودمياط ، وعكا ، أكبر نصيب من شعر الشعراء ، وثر الكتاب ، وكان للمبارك أثرها أيضاً في التهنية بها ، إذا كان الفوز والظفر ، والاسف والالام إذا كانت الدائرة على المسلمين ، والأدب في كلتا الحالتين يبين عما كان يجيش في النفوس من فرح بالنصر ، ومن مرارة وأسى عند الكسرة والانزمام ، ولكنها مرارة مصحوبة بالتحفز ، والانتظار ، ولم يداخل اليأس نفوس المسلمين في أنهم سوف يستردون بلادهم ، ولم يظهر في الأدب يوماً هذا اليأس ، وإن كانت غارات الفرنج قد قوبلت أحياناً بخوف ، دفع الخطباء إلى استثارة النفوس ، لدرء الخطر ، ودفع الشعراء إلى الابتهاال إلى الله أن يدرأ الخطر عن البلاد ، ويدفع عنها كيد الأعداء . وإلى جانب ذلك يجد الأدب مهدداً متوعداً ، ولعل الشعراء أنشئوا ذلك التهديد ، مؤملين أن يحمله بعض الفرنج إلى ملوكهم ، الذين هددهم الأدب ، ومؤملين أن يذيع هذا التهديد على لسان المسلمين ، فينفخ فيهم قوة وأملاً ، كما كانت رسائل البشرى ، والتهنية ، تذيع في أرجاء العالم الإسلامي ، حاملة إليه الأمل والرجاء ، وانضم إلى ذلك ما أذاعه الأدب على ألسنة الشعراء ، من غر بما نالوه من انتصار ، وظفر ، وقد ساهم في إنشاء هذا الشعر بعض القادة ، الذين كان لهم نصيب في ميدان الحروب ، وشعراء قالوا شعر الحماسة على ألسنة القادة ، الذين ليس في مقدورهم أن يقرضوا الشعر .

ولم يقصر الأدب أن يكتب بلغته شئون السياسة وأحداثها ، حتى لنستطيع بالأدب أن نفسير العوامل التي وجهت التاريخ وجهته ، وأن نرى السلم في قلب من هذه العصور المتطاولة قد ساد العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، ولكنه سلم موقوت .

وبرغم أن الأدباء ما كانوا — على ما أرجحه — يعرفون لغة الفرنج ، استطاعوا بقوة ملاحظتهم أن يعرفوا الكثير من أخلاقهم ، وعاداتهم ، فصوروها في أدبهم .

وكان للطابع الديني أثره في توجيه الشعراء ، إلى مدح الرسول صاحب الدين ، الذي هاجمه الفرنج ، فأكثر الشعراء ، وأطالوا في مدحه ، بمجدين له ، ومثنيين على دينه ، ومناقشين عقيدة الصليبيين ، لاجئين أحياناً إلى شرح ما أجملوه في شعرهم .

ولما كان طرد الفرنج من ديار المسلمين هدفاً من أهداف ذلك العصر ، ظهر في عهود التولية ، وفي رسائل الحكام ، والولاة ، التواصي بالجهاد ، حتى صار عنصراً من عناصر عهود تولية الحكام ، في هذه البقعة ، التي بليت بالغزاة الصليبيين .

ومضى الأدب ينفخ في روح المجاهدين ، بما يضعه لهم من نشيد يرتنون به ، ومن كتب تجمع ما قيل في الجهاد ، وتبحث عليه ، مما ورد في القرآن ، والحديث ، ومن مؤلفات تظهر فضائل البلاد ، كي يكون ذلك حافزاً لاستردادها ، والدفاع عنها كما أرخ الأدب بلغته بعض حقب هذه الحروب .

ولم تنكب البلاد حينئذ بهذا الغزو الصليبي المخرب ، بل بليت بغزو آخر مدمر ، لا يقل قسوة عن هذا الغزو ، وأعنى به الغزو التتري ، الذي حطم الخلافة العباسية ، وجعل الدماء تسيل مدراراً في شوارع بغداد ، ومضى يخرب البلاد ، يريد أن يعنى على الإسلام ، ويمحو آثاره من جميع الديار ، ولم تطل مدة هذا الغزو ، بل قضى عليه أبطال المماليك الذين آل اليهم السلطان بعد الأيوبيين ، وقد أحدث هذا الغزو التتري في البلاد رعباً وذعراً ، وأنتج ألواناً من الأدب تشبه إلى مدى بعيد بعض الألوان التي رأيناها في ظل الحروب الصليبية : فمن تمجيد للبطولة ، وإشادة بجهاد الأبطال ، ولا سيما بعد النصر الساحق ، الذي أحرزه المسلمون ، ومن بكاء على ما حل بالبلاد : من هلاك ، وتدمير ، وما نزل بالعباد : من موت ، وأسر ، في قسوة لا ترحم ولا تلين .

هذا وما هو جدير بالإشارة إليه أن الأدب بمصر والشام في تلك الفترة من الزمن لم يقين لي أنه متأثر بأدب الفرنجة ، بل كان أدباً منبثقاً من الأدب العربي القديم ، لم يؤثر

فيه ما جاوره زهاء قرنين من مختلف آداب الصليبيين الغزاة . فلم أعرف أدبيا من أدباء هذا العصر عرف لغة من لغات هؤلاء الفرنج ، وعرف أدب هذه اللغة ، حتى يكون من الممكن أن يتأثره ، ويقبض به ، فيما ينشئه من ألوان الكلام ، ولم أعرف أن أدبيا عربيا ترجم يومئذ إلى العربية أثرا فرنجيا أدبيا ، بل اتجه بعضهم إلى دراسة الفارسية وأدبها ، والاقتداء ببعض اتجاهاتها ، في النظم ، كما فعل ابن سناء الملك ، وكما كان عليه أمر المهاد الكاتب .

وإذا نحن تلمسنا الأسباب التي دعت إلى أن يظل الأدب في مصر والشام بمنأى عن أن يتأثر بالآداب الفرنجية ، وجدنا من أولها أن المسلمين يومئذ ما كانوا يعترفون للفرنج بفضيلة سوى الشجاعة ، التي أقروا لهم بها ، ولم يقرروا لهم بفضل عليهم في علم ولا أدب ، حتى عجب بعض كبار رجال المسلمين عند ما أبدى له بعض الفرنج أن في أوروبا تفوقا في علم الطب . وما أثبتته مؤرخو المسلمين يدل على أنهم كانوا يستجهلون الفرنج ، ولا يؤمنون لهم بتقدم ، في حضارة ولا مدنية ، بل كانوا على العكس ، يؤمنون بأنهم أصحاب التفوق والتبريز ، فلم يدفعهم شعورهم بالنقص إلى تلمس أسباب الكمال عند غيرهم .

ومن هذه الأسباب العداوة التي كانت بين الطرفين ، فلم يكن التقاؤهما عن حب وود ، حتى يقف الأدباء في هدوء وتدبر ، يعرفون ما عند جيرانهم ، من ألوان الفكر ، والثقافة ، بل حال العدا والبغضاء ، دون الرغبة ، في تعرف أدب الفرنج . وإذا كانت صلات الهدنة تسود العلاقات بين الطائفتين حينئذ من الزمن ، فلم يكن ذلك إلا ريثما يستعد كل فريق ، لبدء القتال من جديد ، فلم يكن ثمة صلح دائم ، يطمئن به كل إلى صاحبه ، ويأخذ عنه .

ومنها أن الأدب العربي لم يجد نفسه مضطرا للون جديد من ألوان الأدب غير ماورثه عن أسلافه الماضين ، فوجد فيها ما هو في حاجة إليه ولم يفكر في الالتجاء إلى غير الأدب العربي ، ولهذا كان تطور الأدب العربي في هذه الحقبة من الزمن تطورا طيعيا ، لا أثر فيه لدخيل غير عربي . ومنها التعصب للغة العربية تعصبا جعلها في نظر أهلها أكل اللغات وأرفعها فكان نتيجة لذلك نظرهم بعين الاحتقار إلى غيرها من اللغات ، واعتقادهم تبعا لذلك أن غيرها لا يستحق عناية معرفته والعناية به . وقد يكون منشأ هذا التعصب دينيا ، لأن اللغة العربية لغة الدين الذي هاجمه الصليبيون ، فالتعصب لها تعصب لهذا الدين المهاجم ، وكما اعتقد المسلمون سمو دينهم حتى لا يقاربه في السمو دين ، اعتقدوا كذلك سمو لغة هذا الدين ، حتى لا تدانها لغة من اللغات .

وإذا كان ديوان الإنشاء يحتاج إلى كاتب يعرف لغة الفرنج ، ليرجم ما يرد من كتبهم ، وليرجم إلى لغتهم ما يرد به على هذه الكتب ، فأغلب الظن أن مهمته لم تتمتع هذه الحدود الضيقة ، ولم يحاول هو أن يعرف أكثر مما تحتاج إليه مهنته ، للأسباب التي أشرنا إليها فيما سلف .

وبعد فإن واجب البحث العلمي يقتضي أن أقرر أن كثيراً من أدب عصر الحروب الصليبية لا يزال خبيثاً في الخزائن ، مخطوطاً أو مصوراً ، لم يحقق تحقيقاً علمياً ، يظهره في أكمل صورة ممكنة ، وأن من الواجب تضافر القوى على نشر هذا الأدب وإذاعته ، حتى يكون من الميسور دراسته في صورة أوسع من هذه الدراسة التي أقدمها . وأنه لما يسهل مهمة الدارسين أن يجمعوا ما يتعلق بالأدب الصليبي بعضه إلى جوار بعض ، وأن ينسقوه أبواباً ، وأن يرتبوا ما يجمعون ترتيباً تاريخياً ، يتجلى فيه فعل الحوادث وسير الزمن .

ولأنه لمن الخير كذلك أن يفرد هؤلاء الذين صنعوا الحياة الأدبية في هذا العصر بدراسة واسعة ، تبين عقولهم ، ونفوسهم ، وميولهم الفنية ، في جلاء وتفصيل ، ولعل الله يوفقني إلى أن أشارك في بعض ذلك ، وأن أساهم فيه . وحسبي الآن أن أقدم هذه الدراسة اليسيرة التي تضع الأسس ، وتعرف بذلك الأدب ، وترسم الخطوط لدراسة أوسع وأعمق .
والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

مراجع البحث

(١) المراجع العربية

- (١) الآداب النافعة ، بالألفاظ المختارة الجامعة (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٩هـ) .
لجعفر بن شمس الخلافة الأفضلي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ .
- (٢) أبو نواس . (مخطوط بمكتبة الأزهر ، رقم ٤١٩ — أباطة — ٧٠١٥ أدب) .
لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ .
- (٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦هـ) .
لجمال الدين علي بن يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .
- (٤) أخبار مصر (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى سنة ١٩١٩ م بالقاهرة) .
لمحمد بن علي بن يوسف بن جلب المعروف بابن ميسر .
- (٥) أدب الحروب الصليبية (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩ م) . للدكتور عبد اللطيف حمزة .
- (٦) أدب الدنيا والدين (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ) .
لأبي الحسن البصرى الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) .
- (٧) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين (مطبعة لجنة البيان العربى بمصر سنة ١٩٥١ م) .
للأستاذ عبد الرزاق حميدة .
- (٨) أسرار الحكماء (مخطوط بمكتبة الأزهر رقم ٣٨٠ — أباطة — ٦٩٤٧ — أدب) .
لياقوت بن عبد الله الرومى المستعصى البغدادى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .
- (٩) الإسلام والحضارة العربية (مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٢٤ م) .
للأستاذ محمد كرد علي .
- (١٠) الإشارة إلى من نال الوزارة (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٢٤ م) .
لأبي القاسم علي بن منجب الصيرفى .
- (١١) أصول الإسماعيلية (طبع دار الكتاب العربى بمصر) .
للدكتور برنارد لويس . وترجمة خليل جلو ، وجاسم محمد الرجب .
- (١٢) الأصول الفنية للأدب (مطبعة العلوم بمصر سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م)) .
للأستاذ عبد الحميد حسن .

- (١٣) الاعتبار (طبع ليدن سنة ١٨٨٤ م) . لأسامة بن منقذ ، المتوفى سنة ٤٨٤ هـ .
(١٤) إجماع الأعلام . (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) . لمحمود مصطفى .
(١٥) الأعلام (المطبعة العربية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) . للأستاذ خير الدين الزركلى .
(١٦) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٢ - إلى سنة ١٣٤٥ هـ) .

محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي .

- (١٧) أعيان العصر وأعيان النصر (مصور بدار الكتب رقم ١٠٩١ تاريخ .
لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
(١٨) الإغاني (مطبعة دار الكتب) . لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ .
(١٩) الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر (طبع حجر) .
لعبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦١٧ هـ .

(٢٠) اكتفاء القنوع . بما هو مطبوع من أشهر التأليف العربية فى المطابع الشرقية والغربية .
لإدوارد فنديك (مطبعة الهلال سنة ١٨٩٦ م) .

(٢١) الألفاظ الأيوبية فى كتاب تقويم النديم : محاضرة للدكتور محمد رضا الشيبى ، أقيمت
بمجمع اللغة العربية ، فى ١٥/١/١٩٥١ م ، ونشرت بمجلة الرسالة العدد (٩١٦) فى
٢٢/١/١٩٥١ م .

(٢٢) أمالى ابن الحاجب (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٠٧ نحو) لعثمان بن عمر بن الحاجب
المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

(٢٣) أمراء البيان (طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ م) . للأستاذ محمد كرد على .

(٢٤) أمنية الأملعى ومنية المدعى (مخطوط بالأزهر رقم ٢٢٨٥١ - أدب) .
لأحمد بن على بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٣ هـ .

(٢٥) أنباء الرواة على أنباء النحاة (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥٧٩ تاريخ) .
لعلى بن يوسف المعروف بالقفطى المصرى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

(٢٦) الانتصار لواسطة عقد الأمصار (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٠٣٩ هـ) .
لإبراهيم بن محمد بن أيدهم ، الشهير بابن دقاق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ .

(٢٧) الأنوار المقتبسة من أوار النار (مصور بدار الكتب رقم ٨٥٠٣ - أدب) .
لعبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ .

(٢٨) أهنى المنائح فى أسمى المدائح (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٩٦ - أدب) .

- لشهاب الدين محمود بن سليمان المتوفى سنة ٧٣٥ هـ .
- (٢٩) باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف المحروس (مخطوط بدار الكتب رقم ٥١٤ مجاميع تاريخ . لبرهان الدين الفزارى .
- (٣٠) بدائع البدائ (مطبعة بولاق سنة ١٢٧٨ هـ) .
لعلى بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٧ هـ .
- (٣١) بدائع الزهور في وقائع الدهور (مطبعة بولاق سنة ١٣١١ هـ) .
لمحمد بن أحمد المعروف بابن إياس المصرى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ .
- (٣٢) البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) .
لعباد الدين أبى الغداء إسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .
- (٢٣) البديع في نقد الشعر (مصور بدار الكتب رقم ١٠٦١ ز) .
لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٨٥٤ هـ .
- (٣٤) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ) .
لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .
- (٣٥) البهاء زهير (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م)) .
لمصطفى عبد الرازق .
- (٣٦) تاج التراجم في طبقات الحنفية (طبع ليبسك سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٦٢ م)) .
لقاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ .
- (٣٧) تاريخ آداب اللغة العربية (مطبعة الهلال سنة ١٩٣١ م) . لجورجى زيدان .
- (٣٨) تاريخ الأدب العربى في العصر العباسى (مطبعة العلوم سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م)) .
للأستاذ السباعى بيومى .
- (٣٩) تاريخ الأدب العربى بمصر والشام على عهدى الفاطميين والايوبيين (طبع مصر سنة ١٩٤٦ م) . للأستاذ السباعى بيومى .
- (٤٠) تاريخ الأدب العربى بمصر والشام على عهدى المماليك والعثمانيين (طبع مصر سنة ١٩٤٦ م) .
للأستاذ السباعى بيومى .
- (٤١) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٥٢ تاريخ) .
لشمس الدين أبى عبد الله محمد المعروف بالذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .
- (٤٢) تاريخ التمدن الإسلامى ، لجورجى زيدان .
- (٤٣) تاريخ دولة المماليك فى مصر (مطبعة المعارف سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م)) .
للسير ولیم مویر . ترجمة محمود عابدين ، وسليم حسن .

- (٤٤) تاريخ الدول والملوك (مصور بدار الكتب رقم ٣٢٩٧ تاريخ) .
لابن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ هـ .
- (٤٥) تاريخ مصر (طبع المعهد العلمى الفرنسى بمصر) .
لمحمد بن على بن يوسف بن جلب المشهور بابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) .
- (٤٦) تاريخ ابن الوردى (المطبعة الوهية سنة ١٢٨٥ هـ) . لعمر بن الوردى المتوفى
سنة ٧٤٩ هـ .
- (٤٧) تجريد الأغاني من ذكر المثلث والمثلثانى (مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧١ — أدب)
لمحمد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ .
- (٤٨) تخميس الكواكب الدرية فى مدح خير البرية (المطبعة العلمية الفوطوغرافية
سنة ١٣١٩ هـ) .
لشمس الدين الفيومى .
- (٤٩) التذكرة الصفدية (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٢٠ — أدب) .
لخليل بن أبيك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
- (٥٠) تذكرة ابن العديم (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٤٢ — أدب) .
لعمر بن أحمد بن جرادة المتوفى سنة ٦٦٠ هـ .
- (٥١) ترجمان الأشواق . لمحيى الدين محمد بن على بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .
- (٥٢) تسبيح الكواكب الدرية فى مدح خير البرية (المطبعة العلمية الفوطوغرافية
سنة ١٣١٩ هـ) .
للقاضى البيضاوى .
- (٥٣) تطور الأساليب النثرية (مطبعة سر كريس سنة ١٩٣٥ م) . للأستاذ أنيس المقدسى .
- (٥٤) التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الاول (مطبعة الاعتماد بمصر) للأستاذ عطية على .
- (٥٥) تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم (مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٠١ — أدب) .
لمحمد بن حمويه الدمشقى المتوفى سنة ٦٥١ هـ .
- (٥٦) تكملة ديوان شعر عمارة البنى (طبع مدينة شالون سنة ١٩٠٢ م) .
اعتنى بتصحيحه هـ . درنبرج .
- (٥٧) تيارات أدبية بين الشرق والغرب (مطبعة أحمد خمير سنة ١٩٥١ م) .
للدكتور إبراهيم سلامة .
- (٥٨) جامع الفنون وسلوة المحزون (مخطوط بدار الكتب رقم ٨٣٢٢ — أدب) .
لنجم الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ .
- (٥٩) الحاكم بأمر الله (دار النشر الحديث بالقاهرة) . للأستاذ محمد عبد الله عنان .

- (٦٠) الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأولى (الطبعة الأولى) .
للدكتور عبد اللطيف حمزة .
- (٦١) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (طبع مصر سنة ١٣٢٧ هـ) .
لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .
- (٦٢) الحماسة البصرية (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٠ — أدب) .
لعل بن أبي الفرج بن الحسن البصري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ .
- (٦٣) حياة صلاح الدين الأيوبي (مطبعة السعادة) للدكتور أحمد بيلي .
- (٦٤) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ م) .
للدكتور أحمد أحمد بدوي .
- (٦٥) الحيوان (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون — مطبعة دار إحياء الكتب العربية) .
لأبي عمرو عثمان بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .
- (٦٦) خريدة القصر ، وجريدة أهل العصر (مصور بدار الكتب رقم ٤٢٥٥ — أدب) .
وقسم شعراء مصر بتحقيق الأساتذة أحمد أمين وزميله — مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر سنة ١٩٥٢ م) .
للعبد الأصمعي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .
- (٦٨) خزانة الأدب وغاية الأرب (المطبعة الأميرية ببولاق) .
لأبي بكر علي المعروف بابن حجة الحوي .
- (٦٨) الخطط الجديدة لمصر القاهرة (الطبعة الأولى — بولاق سنة ١٣٠٥ هـ) لعل مبارك .
- (٦٩) خطط الشام (مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) .
للأستاذ محمد كركرد علي .
- (٧٠) خلاصة السيرة الجامعة (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦ ش تاريخ) .
بها قصيدة لابن المنير .
- (٧١) دائرة المعارف الإسلامية قام بترجمتها إلى العربية عبد الحميد يونس وزملاؤه .
- (٧٢) دار الطراز (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٣٨ — أدب) .
لهبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ .
- (٧٣) دراسات في علم النفس الأدبي (المطبعة النموذجية . للأستاذ حامد عبد القادر) .
- (٧٤) درر التيجان ، وغرر تواريخ الأزمان . (مصور بدار الكتب رقم ٢٦٠٥ —
تاريخ) . لأبي بكر بن عبيد الله بن أبيك .

- (٧٥) الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (طبع الهند سنة ١٣٥٠ هـ) .
لأحمد بن علي بن حجر الكنانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ
- (٧٦) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . (مصور بدار الكتب رقم ٢٢٩٤ — أدب) .
اختيار محي الدين بن عبد الظاهر .
- (٧٧) دفاع عن البلاغة / مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥ م) : للأستاذ أحمد حسن الزيات .
- (٧٨) الديباج المذهب ، في معرفة علماء أعيان المذهب (طبع فاس سنة ١٣١٦ هـ) .
لإبراهيم بن علي بن فرحون المتوفى سنة ٧٩٩ هـ .
- (٧٩) ديوان أسامة بن منقذ (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦٩٣٩ ز) .
- (٨٠) الديوان الأكبر (بولاق سنة ١٢٧١ هـ) .
لمحي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .
- (٨١) ديوان أمية بن أبي الصلت . (طبع ليبزج سنة ١٩١١ م) .
- (٨٢) ديوان البهاء زهير . (مصر سنة ١٢٩٧ هـ) .
- (٨٣) ديوان البوصيرى . (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣١١ — أدب) .
- (٨٤) ديوان التلعفرى المتوفى بحماة سنة ٦٧٥ هـ . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣١٣ —
أدب) .
- (٨٥) ديوان الحاجرى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٠ — أدب) .
- (٨٦) ديوان الحماسة . جمع أبي تمام . (مطبعة الجالية سنة ١٣٣٤ هـ) .
- (٨٧) ديوان خطب ابن نباتة . (طبع جريدة بيروت ، في بيروت سنة ١٢١١ هـ) .
لأبي يحيى عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الفارقي المتوفى سنة ٢٧٤ هـ .
- (٨٨) ديوان ابن الخطاط . (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٢ — أدب) .
لأحمد بن محمد بن علي الدمشقي سنة ٥١٧ هـ .
- (٨٩) ديوان ابن الساعاتى . (المطبعة الأمريكية سنة ١٩٣٨ م) . تحقيق أنيس المقدسى .
- (٩٠) ديوان سبط ابن التعايندى . (مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٣ م) . تحقيق مرجليوث .
- (٩١) ديوان ابن سناء الملك . (مصور بدار الكتب رقم ٨٤٠٥ — أدب) .
- (٩٢) ديوان الشاب الظريف (المطبعة الأهلية ببيروت) .
- (٩٣) ديوان شهاب الدين الفزارى . (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٧٩ — أدب) .

- (٩٤) ديوان ابن العربي . (الديوان الصغير) . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٤٤ . أدب) .
- (٩٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة (مطبعة السعادة بمصر) .
- (٩٦) ديوان ابن عنين . (مطبعة دمشق سنة ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م) . بتحقيق خليل مردم بك .
- (٩٧) ديوان ابن الفارض (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦٦ — أدب) .
- (٩٨) ديوان القاضي الفاضل (مكتوب على الآلة الكاتبة ، جمعه وبوبه ورتبه وحققه وشرحه وقدم له — الدكتور أحمد أحمد بدوي) .
- (٩٩) ديوان ابن قلاؤس . (مطبعة الجوائب بمصر) . بتحقيق خليل مطران .
- (١٠٠) ديوان ابن القيسراني . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٨٤ — أدب) .
- (١٠١) ديوان المتنبي . (مطبعة هندية بمصر سنة ١٣٤٢ هـ — سنة ١٩٢٣ م) .
- (١٠٢) ديوان ابن مطروح . (طبع القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ) .
- (١٠٣) ديوان ابن النبيه . (مطبعة عبد الغني فكري سنة ١٢٨٠ هـ) . بتحقيق عبد الله فكري .
- (١٠٤) ذيل تاريخ دمشق . (طبع بيروت سنة ١٩٠٨ م) .
لمحة بن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ .
- (١٠٥) ذيل الروضتين . (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ م) .
لعبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي أبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .
- (١٠٦) ذيل مرآة الزمان . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٥١٦ تاريخ) .
لقطب الدين اليونيني ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ .
- (١٠٧) رحلة ابن جبير . (الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٠٨ م) .
لمحمد بن أحمد بن جبير الكنتاني الأندلسي المتوفى سنة ٦١٤ هـ .
- (١٠٨) الرسائل الأدبية للقاضي الفاضل . (مخطوط بالأزهر رقم ٤٣٩ — أباطة ٧٠٣٥ — أدب) .
- (١٠٩) رسائل الحصكفي . (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٦ — أدب) .
- (١١٠) رسائل الوهراني . (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤ — أدب) .

- (١١١) رسالة صني الدين بن ظافر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٣٨ — أدب) .
- (١١٢) رسالة ابن عبد الظاهر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩١١ — أدب) .
- (١١٣) الرسالة المصرية . (ضمن نوادر المخطوطات ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون — القاهرة ، سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١ م) .
- لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٨ هـ .
- (١١٤) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات : أعيان الشيعة . (طبع فاس سنة ١٣٠٧ هـ) . لمحمد باقر الحاجي أمير زين العابدين الموسوي .
- (١١٥) الروضتين في أخبار الدولتين . (مطبعة وادي النيل بمصر سنة ١٢٨٧ هـ) .
- لعبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .
- (١١٦) زهر الآداب . (المطبعة الرحمانية بمصر) . لأبي إسحق الحصري القيرواني .
- (١١٧) سراج الملوك . (المطبعة الوطنية بالإسكندرية سنة ١٢٨٩ هـ) .
- لمحمد بن الوليد الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ .
- (١١٨) سفرنامه . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٢٦٤ هـ (١٩٤٥ م) .
- لناصر خسرو علوي — ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .
- (١١٩) سلوان المطاغ في عدوان الاتباع (مطبعة الدولة التونسية بتونس سنة ١٢٧٩ هـ) .
- لمحمد بن ظفر الصقلي .
- (١٢٠) السلوك لمعرفة دول الملوك (طبع القاهرة سنة ١٩٣١ م) .
- لأحمد بن علي المقرئ ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة .
- (١٢١) السيد البدوي (مطبعة الحرية سنة ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) .
- للأستاذ محمد فهد عبد اللطيف .
- (١٢٢) الشاهنامه . (مطبعة دار الكتب) . نقلها الفتح بن علي البنداري إلى العربية .
- (١٢٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (طبع القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ) .
- لعبد الحى بن العباد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٧٩ هـ .
- (١٢٤) شرح مقامات الحريري (مخطوط بدار الكتب رقم ٧٤٣٧ — أدب) .
- لسلامة بن عبد الباقي بن سلامة الضرير النحوي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ .
- (١٢٥) الشعر والشعراء (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ) .
- لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

- (١٢٦) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، لمؤلف مجهول لعلة إبراهيم الحنبلي، كما ذهب إلى ذلك الدكتور مصطفى زيادة (نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١) .
- (١٢٧) الشيعة وفنون الإسلام : (طبع صيدا سنة ١٢٣١ هـ) . للسيد حسن الصدر .
- (١٢٨) صبح الاعشى . (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ — ١٩١٣ م) .
لأبي العباس أحمد القلقشندي .
- (١٠٩) الصعلكة والفتوة في الإسلام . (مطبعة المعارف بمصر) للدكتور أحمد أمين .
- (١٣٠) صلاح الدين الأيوبي وعصره . (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٦ هـ
١٩٢٧ م) .
- للأستاذ محمد فريد أبو حديد .
- (١٣١) صور البديع — فن الأسجاع . (القاهرة سنة ١٩٥١ م) . للأستاذ علي الجندي .
- (١٣٢) ضبط الاعلام . (مطبعة دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م) .
لأحمد تيمور .
- (١٣) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (المطبعة الجمالية بمصر
سنة ١٣٣٢ هـ) .
- لكمال الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .
- (١٣٤) طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية — الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ) .
لعبد الوهاب بن علي بن السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ .
- (١٣٥) طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين (مطبعة السعادة بالقاهرة) .
لأبي عبد الله بن سلام الجمحي .
- (١٣٦) الطبقات الكبرى للشعراني (طبع الحاج عبد السلام بن محمد بن شقرون) .
- (١٣٧) طيف الخيال (دار الكتب رقم ٣٥٥٦ — أدب) .
لمحمد بن دانيال الموصلی المتوفى سنة ٧١٠ هـ .
- (١٣٨) عبيد الله المهدي (طبع مصر سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م) .
للدكتورين : حسن إبراهيم حسن ، وطه أحمد شرف .
- (١٣٩) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (مخطوط بدار الكتب رقم ٧١ م تاريخ) .
لمحمود بن أحمد المعروف بالعيني الحنفي المتوفى سنة ٨٥٥ هـ .
- (١٤٠) العقد الفريد . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) . لأحمد بن عبد ربه .

- (١٤١) العقد الفريد للبلك السعيد . (مطبعة الوطن سنة ١٣٠٦ هـ) .
لمحمد بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٢ هـ .
- (١٤٢) العمدة في صناعة الشعر وفنونه . (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م) .
للحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٥٦٣ هـ .
- (١٤٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء . (الطبعة الأولى سنة ١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م) .
لأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٨٨ هـ .
- (١٤٤) عيون التواريخ . (مصور بدار الكتب رقم ٩٤٩ تاريخ) .
لابن شاكر الكتبي الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
- (١٤٥) الفاضل من كلام الفاضل . (مصور بدار الكتب رقم ٣٨٨٢ - أدب) .
اختيار جمال الدين بن نباه .
- (١٤٦) الفاطميون في مصر (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢ م) للدكتور حسن إبراهيم حسن .
- (١٤٧) فجر الإسلام ج ١ (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٨ م) . للدكتور أحمد أمين .
- (١٤٨) فصوص الفصول وعقود العقول . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ - أدب)
لهبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ .
- (١٤٩) فضائل الشام (مخطوط بدار الكتب رقم ٥١٩ مجاميع) .
لعبد الكريم بن محمد بن منصور .
- (١٥٠) فضائل الشام (مخطوط بدار الكتب رقم ٧٨١ مجاميع) .
لأبي الحسن علي بن محمد الرعي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ .
- (١٥١) الفلك الدائر على المثل السائر (طبع سنة ١٣١٩ هـ) .
لعز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني المعروف بابن أبي حديد .
- (١٥٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية . (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ) .
لمحمد عبد الحى اللكنوى الهندى .
- (١٥٣) الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية . (مصور بدار الكتب رقم ٢٢٩٣ - أدب) .
للملك الناصر داود بن المعظم عيسى .
- (١٥٤) فوات الوفيات . (مطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .
لمحمد بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .
- (١٥٥) في أدب مصر الفاطمية . (طبع دار الفكر العربى) . للدكتور محمد كامل حسين .
- (١٥٦) في الأدب المصرى . (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٣ م) للاستاذ أمين الخولى .

(١٥٧) في الأدب المصرى الإسلامى : من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين (مطبعة الاعتماد) .

للدكتور محمد كامل حسين .

(١٥٨) في أصول الأدب (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٣ هـ ، ١٩٣٥ م) .
للاستاذ أحمد حسن الزيات .

(١٥٩) في التصوف الإسلامى وتاريخه (القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م) .
لرينولد ا . نيكولسون ، وترجمه إلى العربية الدكتور أبو العلا عفيفى .

(١٦٠) الفيح القسى فى الفتح القدسى . (مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر .
سنة ١٣٢١ هـ) .

للعماد الاصبهانى الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

(١٦١) قانون ديوان الرسائل (مطبعة الواعظ بمصر سنة ١٩٠٥ م) .
لابن الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ .

(١٦٢) قصة الأدب الفارسى . (مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥١ م) .
للاستاذ حامد عبد القادر .

(١٦٣) القصص الحيوانى وكتاب كليلة ودمنة . (مطبعة لجنة البيان العربى) .
للاستاذ حامد عبد القادر .

(١٦٤) قلادة النحر بأعيان وفيات الدهر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٤١٠ تاريخ) .
لمحمد الطيب بن عبد الله أحمد .

(١٦٥) الكامل فى التاريخ (الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ) .
لعلى بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .

(١٦٦) كتاب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار . (مخطوط بدار الكتب
رقم ٨٤ م تاريخ) . لمحمود بن سليمان الشهير بالكفوى الحنفى .

(١٦٧) كتاب العصا، لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (القاهرة سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م) .
ضمن نواذر المخطوطات، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(١٦٨) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . (طبع الآستانة سنة ١٩٤١ م) .
للكاتب شلبي حاجى خليفة ، المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧ م) .

(١٦٩) كليلة ودمنة ، لابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ .

(١٧٠) لباب الآداب (طبع مصر سنة ١٩٣٠ م) . لأسامة بن منقذ ، المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .

- (١٧١) لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٢٢ تاريخ) . لعثمان بن إبراهيم النابلسي .
- (١٧٢) مؤنس الوحدة . (مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧٠ — أدب) .
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ .
- (١٧٣) مبارز الأقران في تخميس المعلقات السبع . (مصور بدار الكتب رقم ٧٥٩٩ — أدب) .
لعلاء الدين علي بن محمد .
- (١٧٤) مثلث الديريني المتوفى سنة ٦٩٤ هـ . (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٠١ مجاميع أدب) .
- (١٧٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . (المطبعة البهية) .
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٢٧ هـ .
- (١٧٦) محاضرة الأبرار ، ومسامرة الأخيار ، في الأدبيات والنوادر والأخبار . (مخطوط بدار الكتب رقم ٦٨٩٩ — أدب) . لمحى الدين بن العربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .
- (١٧٧) المحمدون من الشعراء وأشعارهم . (مصور بدار الكتب رقم ٤٧٢٢ — أدب) .
لعلي بن يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .
- (١٧٨) مختارات من ديوان عمارة البني . (طبع مدينة شالون سنة ١٨٩٧ م) ، مع كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية .
- (١٧٩) مختارات من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب . (مصور بدار الكتب رقم ٧٤٣٣ — أدب) . لمحمد بن يوسف بن محمد بن ميمون .
- (١٨٠) مختارات الأغاني في الأخبار والتهاني . (مصور بدار الكتب رقم ٤٦٤٦ — أدب) .
لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ .
- (١٨١) مختار ديوان علم الدين أيدير المحيوى (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١ م) .
- (١٨٢) مختار شعر القاضي الفاضل . (مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٥٨) .
اختيار صلاح الدين الصفدى .
- (١٨٣) المختار من إنشاء القاضي الفاضل . (مخطوط بمكتبة الأزهر رقم ٤٦٩ — أباطه ٧٠٦٥ — أدب) . اختيار جمال الدين بن نباتة المصرى .
- (١٨٤) المختصر في أخبار البشر . (المطبعة الحسنية المصرية — الطبعة الأولى) .
لابي الفداء صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ .

- (١٨٥) مختصر كرامة الزهر وخريدة الدهر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٢٧٢ أدب) .
لإسماعيل بن أحمد بن الأثير الحلبي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ .
- (١٨٦) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي (مخطوط بدار الكتب
رقم ٧٢٨ مجاميع تاريخ) .
- (١٨٧) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي (مخطوط بدار الكتب
رقم ٢٣٣٤ تاريخ) . الكتابان لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .
- (١٨٨) مرآة الجنان وعبرة اليقظان . (الطبعة الأولى بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٣٨ هـ) .
لأبي محمد عبد الله بن أسعد الياقبي المتوفى سنة ٨٦٨ هـ .
- (١٨٩) مرآة الزمان (مخطوط بدار الكتب رقم ٢١٨١ تاريخ) .
لأبي المظفر يوسف بن قزأوغلي المعروف بسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .
- (١٩٠) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (مصور بدار الكتب رقم ٢٥٦٨ تاريخ) .
لابن فضل الله العمري .
- (١٩١) مصارع العشاق . (مخطوط بدار الكتب رقم ١١٤٧ — أدب) .
لأبي محمد جعفر بن أحمد بن السراج .
- (١٩٢) مصر في تاريخ البلاغة . (بحث ألفت خلاصته بالجمعية الجغرافية في ٧ مارس
سنة ١٩٣٤ م) . للأستاذ أمين الخولي .
- (١٩٣) المطرب من أشعار أهل المغرب . (مصور بدار الكتب رقم ز ١٠٣١٠ — أدب) .
لعمربن دحية الكلبي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ .
- (١٩٤) معالم الكتابة ومغامم الإصابة . (المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٩١٣ م) .
لعبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي .
- (١٩٥) معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص . (مطبعة دار الطباعة المصرية سنة ١٢٧٤ هـ) .
لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي .
- (١٩٦) معجم الأدباء (نشره الدكتور فريد رفاعي سنة ١٩٣٦ م) .
لياقوت الرومي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .
- (١٩٧) معجم الأطباء (مصر سنة ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م) . للدكتور أحمد عيسى .
- (١٩٨) معجم البلدان . (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣ هـ ، ١٩٠٦ م) .
لياقوت بن عبد الله الحوي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

- (١٩٩) معجم السلفي . (مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٣٢ تاريخ) .
- (٢٠٠) المغرب في محاسن أهل المغرب ، (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٣ - تاريخ) .
لابن سعيد .
- (٢٠١) مفتاح الأفراح في امتداح الراح . (مخطوط بدار الكتب رقم ٦٠٣ - أدب) .
لعبد المحسن بن حمود الحلبي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ .
- (٢٠٢) مفتاح السعادة (مخطوط بدار الكتب رقم ١٧ م معارف عامة) .
لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٨ هـ .
- (٢٠٣) المفتاح المنشأ في حديقة الإنشاء . (مصور بدار الكتب رقم ٤٩٣٤ - أدب) .
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ .
- (٢٠٤) مفرج الكرب في دولة بني أيوب . (مصور بدار الكتب رقم ٥٣١٩ تاريخ) .
لجمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ .
- (٢٠٥) المفضليات (مطبعة المعارف سنة ١٩٥٢ م) .
للفضل بن محمد الضبي ، بتحقيق الأستاذين : عبد السلام هارون ، وأحمد شاکر .
- (٢٠٦) المقاصد السنية، في شرح القوائد النبوية . (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤٧ أدب) .
لشهاب الدين المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .
- (٢٠٧) مقامات الحريري .
- (٢٠٨) مقامة الشاب الظريف (طبع مصر) . لمحمد بن سليمان بن علي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ .
- (٢٠٩) مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية) . لعبد الرحمن بن خلدون .
- (٢١٠) مقطعات النيل (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٨ أدب) . لابن الساعاتي .
- (٢١١) الملامتية والصوفية وأهل الفتوة (طبع دار إحياء الكتاب العربية سنة ١٣٦٤ هـ ، ١٩٤٥ م) .
للدكتور أبي العلا عفيفي .
- (٢١٢) منتهى الطلب من أشعار العرب . (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٣ ش - أدب) .
لمحمد بن المبارك بن محمد بن ميمون . كان موجوداً سنة ٥٨٩ هـ .
- (٢١٣) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد . (مخطوط بالمكتبة التيمورية رقم ٨٢٨ تاريخ) .
لعبد الرحمن بن محمد العمري .

- (٢١٤) المنهل الصافي، والمستوفى بعد الوافي . (مخطوط بدار الكتب رقم ١١١٣ تاريخ) .
لخليل بن أبيك الصفدى
- (٢١٥) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . (مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ) .
لاحمد بن على المقرزى .
- (٢١٦) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (طبع مصر) للأستاذ محمد عبد الله عنان .
- (٢١٧) نثار الازهار فى الليل والنهار . (مطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٢٩٨ هـ) .
لمحمد بن مكرم المتوفى سنة ٧١١ هـ .
- (٢١٨) نثر الجمان فى تراجم الأعيان . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ) .
لاحمد بن محمد بن على الفيومى المتوفى سنة ٧٧ هـ .
- (٢١٩) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (ط مصر سنة ١٣٥٣ ١٩٣٥ م) .
ليوسف بن تغرى بردى الأتابكى .
- (٢٢٠) زهرة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب . (مخطوط بمكتبة الازهر رقم ٤٢٣ —
أباطة — ٧٠١٩ — أدب) .
لاحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى سنة ٦٥١ هـ .
نظرية المثل والممثل وأثرها فى شعر مصر الفاطمية (مطبعة الفكرة) .
للدكتور محمد كامل حسين .
- (٢٢١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . (طبع ليدن سنة ١٨٥٥ م) .
لابى العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ) .
- (٢٢٢) نقد الشعر . (مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ) .
لابى الفرج قدامة بن جعفر .
- (٢٢٣) النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية . (طبع مدينة شالون سنة ١٨٩٧ م) .
لعلمارة البنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ .
- (٢٢٤) نكت الحميان فى نكت العميان (المطبعة الجالية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ ، ١٩١١ م) .
لخليل بن أبيك الصفدى .
- (٢٢٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبع دار الكتب بالقاهرة ، والجزء ٢٧
مصور بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة) .
لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى .

- (٢٢٦) نهاية الرتبة في طلب الحسبة . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
سنة ١٩٤٩ م) .
- لعبد الرحمن بن عبد الله بن نصر المتوفى سنة ٥٨٩ هـ .
- (٢٢٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مطبعة الآداب بمصر سنة ١٣١٧ هـ) .
- ليوسف بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ .
- (٢٢٨) الوافي بالوفيات (مصور بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ)
لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى .
- (٢٢٩) الوشى المرقوم في حل المنظوم . (مطبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ هـ) .
- لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ .
- (٢٣٠) وفيات الأعيان (المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ هـ) .
- لأحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ .
- (١٣١) يتيمة الدهر (مطبعة الصاوى سنة ١٣٥٢ هـ . ١٩٤٣ م) الطبعة الأولى .
- لأبي منصور عبد الملك الثعالبي المتوفى سنة ٤١٩ هـ .

(ب) المراجع الفرنسية

232. La Chanson de Roland. (Paris. Librairie Hatier).
Traduction, Commentaire. Par Mlle A.Perièr.
233. Encyclopedie de L'Islam. (Paris, 1913).
234. Histoire des Croisades.
Par Michaud.
235. Iliade. (Paris. Librairie Hatier).
Traduction Française. par Ch. Georgin).
236. Litterature Arabe. (Librairie Armand Colin).
Par Clement Huart.
237. Un poète arabe du IVe Siècle de l' Hegire.
(Paris, 1935).
Par R. Blachère.

(ج) المراجع الإنجليزية

238. The Crucades. By Barker.
239. History of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1913) By Lane-Poole.
240. A literary History of the Arabs.
(London, 1925). By Nicholson (Reynold A.)
241. A Short History of the Saracens.
(London, 1900). By Ameer Ali.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
النظم العلمى .	١٠٩	الاهداء .	٣
٢ - أسلوبه .	١٠٩	مقدمة .	٥
الشعراء :	١٢٢	القسم الأول : ماحول الأدب .	٨
ظافر الحداد .	١٢٨	الحروب الصليبية .	٨
ابن منير .	١٣٦	الحياة الحربية .	١٧
القيسرانى .	١٤١	الحياة الاقتصادية والاجتماعية .	٢٠
المهذب بن الزبير .	١٤٩	الحياة العلمية .	٢١
عمارة النينى .	١٦٣	حكاه العصر والأدب .	٢٣
أسامة بن منقذ .	١٧١	العناية بدراسة الأدب .	٣٨
ابن الساعاتى .	١٨٩	القسم الثانى ، الأدب .	٥٤
ابن سناء الملك .	١٩٦	الباب الأول : الشعر :	٥٤
ابن النبيه .	٢٤	١ - فنونه :	٥٤
علم الدين أيدمر المحيوى .	٢١٢	السياسة .	٥٥
ابن عنين .	٢٢٢	الحياة الاجتماعية .	٦١
ابن الفارض .	٢٢٨	المدح .	٦٧
البهاء زهير .	٢٤١	الرثاء .	٧٤
الجزار .	٢٨٥	الهجاء .	٨٠
البوصيرى .	٢٩٦	الوصف .	٨٣
الباب الثانى : الكتابة :	٣٢	الغزل .	٩١
١ - فنونها :	٣٠٢	التصوف .	٩٥
الكتابة السلطانية .	٣٠٢	المجون .	١٠٢
الرسائل الإخوانية .	٣١٣	الأنفار .	١٠٦
الأدب التهذيبى .	٣١٥	الشعر والغناء .	١٠٨
الأدب التاريخى .	٣١٩		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
٤ - تسجيل المعارك الكبرى .	٤٥٤	٣٢٢ الأدب القصصى .	
٥ - أسف، وحسرة .	٤٧٤	٣٢٣ النثر الوصفى .	
٦ - خوف، وذعر .	٤٧٨	٣٢٤ مقدمات الكتب .	
٧ - تهديد ووعيد .	٤٨١	٣٢٤ ٢ - أسلوب الكتابة .	
٨ - تهنئة، وبشرى، وفرح .	٤٧	٣٣٢ ديوان الإنشاء .	
٩ - سلم، ومعاهدات .	٤٩٢	٣٣٩ الكتاب :	
١٠ - حماسة، ونفخ .	٤٩٨	٣٤٣ ابن الصيرفى .	
١١ - تصوير الفرنج .	٥٠٧	٣٤٧ ابن قادوس الدمياطى .	
١٢ - رثاء الأبطال .	٥١٣	٣٥٤ ابن الخلال .	
١٣ - مدح الرسول .	٥١٦	٣٥٣ القاضى الفاضل .	
١٤ - عهود، وتوصية .	٥٢٧	٣٦٤ العماد الكاتب .	
١٥ - وصف أدوات الحرب .	٥٢٩	٣٧٣ ابن لقمان .	
١٦ - ابتهاج ونشيد .	٥٣٥	٣٧٦ ابن عبد الظاهر .	
١٧ - كتب جهاد .	٥٣٦	٣٧٩ الباب الثالث : الخطابة .	
١٨ - كتب فضائل البلاد .	٥٣٧	٣٩١ ابن نجا .	
١٩ - تاريخ أدبى .	٥٤٠	٣٩٤ سبط ابن الجوزى .	
٢٠ - خيانة .	٥٤٣	٣٩٨ عز الدين بن عبد السلام .	
الباب الخامس : الغزو التترى	٥٤٥	٤٠٦ الباب الرابع : أثر الحروب	
وأثره فى الأدب العربى .		الصليبية فى الأدب العربى .	
الخلاصة .	٥٥٩	٤٠٧ ١ - استنجاد .	
مراجع البحث .	٥٦٧	٤١٧ ٢ - حث، وتحريض .	
		٤٢٧ ٣ - تمجيد البطولة .	

للمؤلف

في التأليف :

١ - في الأدب:

- ١ - نفس تحطمت . (مسرحية مصرية) .
- ب - في النقد الأدبي :
- ٢ - من بلاغة القرآن . (الطبعة الثانية) . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٣ م) .
- ٣ - أسس النقد الأدبي عند العرب . (تحت الطبع) .
- ج - عصر الحروب الصليبية بمصر والشام :
- ٤ - الجزء الأول : (في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والحربية) . (تحت الطبع) .
- ٥ - الجزء الثاني : (في الحياة العقلية) . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ م) .
- ٦ - الجزء الثالث : (في الحياة الأدبية) . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٤ م) .
- ٧ - الجزء الرابع : (في الحياة الروحية) . (قيد البحث) .
- د - تراجم :
- ٨ - سيديويه . (بحث مستخرج من صحيفة دار العلوم - يناير سنة ١٩٤٨ م) .
- ٩ - شاعر بني حمدان . (الطبعة الثانية) . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٣ م) .
- ١٠ - رفاة الطيطاوى بك . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٢ م) .
- ١١ - مأمون بنى أيوب . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٣ م) .
- ١٢ - حياة البحترى وفنه . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٤ م) .

في التحقيق :

- ١ - ديوان القاضى الفاضل . (تحت الطبع) .
- ٢ - ديوان المعتمد بن عباد . (بالاشتراك) . (المطبعة الأميرية سنة ١٩٥١ م) .
- ٣ - ديوان أسامة بن منقذ . (بالاشتراك) . (المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣ م) .
- ٤ - المطرب . من أشعار أهل المغرب . (بالاشتراك) . (المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٤ م) .

- ٥ — البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ . (بالاشتراك) . (تحت الطبع) .
- ٦ — الدر النظيم، من ترسل عبد الرحيم . (تحت الطبع) .
- ٧ — شعر طلائع بن رزيك . (تحت الطبع) .

في الترجمة :

ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين . (القسم الثاني من كتاب « المتنبي »
للمستشرق الفرنسي : الدكتور بلاشير) .
(مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ م) .



مطبعة نهضة

رقم الإيداع ١٩٧٩/٢٩١٢
الترقيم الدولي ٨ - ٠٧ - ٧٢٧٩ - ٩٧٧ ISBN

مطبعة نهضة مصر

 Bibliotheca Alexandrina



0387492

التمن ٢٢٥